فتحي رضوان

سيرة ذاتية

• خط العتبة
• الخليج العاشق
• محام صغير





الهيئة المصرية العامة للكتاب

فتحي رضوان

سيرة ذاتية

- محام صغير
- خط العتبة
- الخليج العاشق



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٤



الأخراج الفنى : غمر حماد على

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـدمة

كان ح . ص . عليه رحمة الله من المحامين المبرزين فى طليعة حياته . توافر له حسن الحظ . وسعة الرزق ، وبعد الصوت ، وكان مكتبه فى عاصمة إحدى المديريات ، مدرسة للمحامين الناشئين ، ومثلاً يحتذى فى حسن الإدارة ، ورعاية حقوق الموكلين . ثم تعثر ، ولج فى العثار حتى لم يعد يترافع إلا فى الصغير من القضايا يطلع عليها سريعاً ، ويحيط بها سريعاً ، ثم يترافع فيها بجمل قصار ، تحوى الملح والطرائف وتتوبل بـاللاذع من القـول ، وكأنما يصوب سهـاماً إلى المجتمع الذى كان يحسب أنه تنكر له ، وخان عده مه . . .

واضطربت فى أخريات أيامه أعصابه ، فكان يظن الظنـون بأكـثر الناس ، ويتأثر بظنونه هذه ، ويعمل فى جوها . فانفض عنه أصدقائوه ومحبوه ، وجفـاه عملاؤه وزبائنه .

وفى ذات يوم التقيت به مكتب المحامى الكبير المرحوم أ. و. فبدأنى بالحديث ، وكنت إذاً طالباً بكلية الحقوق ، فراعتنى سعة إطلاعه ، وشدة ميله لتحليل النفوس والحوادث ، فاتصلت أسبابى بأسبابه ، وقد روى لى فيما روى ، تجربته الأولى فى المحاماة فا نطبعت فى نفسى ، وودت كثيراً أن أخرجها للناس ، فلم يتيسر لى شىء من هذا فى الماضى ، حتى هذه الأيام ولعل مرد هذا أننى أعود إلى المحـاماة بعـد انقطاع عن العمل بها سبع سنوات طوال ، وقد حرصت على أن أبقى على جوهر القصة ، بلا زيادة أو نقصان لا سيما ما اتصل بتأثرات صاحبها النفسية ونـظراته للمجتمع ، ووصفه لخلجاته ، ولدنياه التى كان يعيش فيها . وقد آثرت وضع هذه الرواية فى إطار من الحوادث التى وقعت فى السنين الأخيرة ، لتكون أقرب إلى ذوق قراء اليوم ، وأدنى إلى فهمهم . ووقائع القصة بسيطة ، فهى ليست سوى وسيلة للنظر إلى نفس هذا المحامى الناشىء وهو يخطو أولى خطاه فى مجتمع متجهم ليس له

سوى وسيلة للنظر إلى نفس هذا المحامى الناشىء ، وهو يخطو أولى خطاه فى مجتمع متجهم ، له قواعده وتقاليده فإن وجد القارىء فى هذه الرواية شيئاً يزيد صلته بالنفس الإنسانية أو بالمجتمع الإنسانى أو بنفسه ، فقد حققت الرواية الغاية منها فإن لم تفعل أرجو ألا يخطؤنى ثواب المجتهد .

القاهرة فى ١٥ يولية ١٩٥٩

فتحى رضوان

محـــام صغير

الفصل الأول

محام صغير

أنا محام . . وعندى أكثر من دليل على ذلك .

ففى الشارع لافتة تحمل اسمى « حسين القويسنى المحامى » ، وتستوقف المارة الذين يعبرون الطريق أمام بابى ، ولقد رأيتهم بنفسى يقفون أمامها ، ويقرأونها ، وكان منهم أشباه أميين ، سمعتهم يبذلون جهدا لينطقوا الاسم والمهنة ، ومع ذلك لم يفكر أحدهم فى أن يطرق الباب ، ويسأل عنى . . .

وقبل أن أضع هذه اللافتة ، نشرت الجرائد اسمى ، ضمن الطلبة الذين نجحوا وحصلوا على الليسانس . وقد جاءنى خطاب من الكلية ، يهنئونى بالنجاح فى الامتحان ، ويتمنى لى التوفيق فى الحياة .

وبعد ذلك ، ذهبت إلى إدارة تحقيق الشخصية ، ووقفت ضمن طابور طويل ، من الراغبين فى الحصول على شهادة صحيفة سوابق ، وكان أكثر الطابور « عمالا » من طهاة « وسفرجية » وسائقى سيارات « ملاكى » و « أجرة » . . وكان مع هذا الطابور بعض نساء ، اثنتان أو ثلاثة ، واحدة عجوز دميمة ، واثنتان صغيرتان ، أشاعتا فى الطابور حركة وقلقا واضطرابا . ولما حصلت على صحيفة سوابق خالية من الشوائب ، دفعت رسماً لنقابة المحامين - دفعه أبى فى الواقع ـ وقدمت طلباً فانعقدت لجنة قبول المحامين ، وأعلنت اسمى ضمن قائمة طويلة من أسماء زملائى الذين قيدوا أنفسهم فى جدول المشتغلين بهذه المهنة العظيمة .

وفى اليوم التالى نشر اسمى للمرة الثانية فى الجرائد . . . .

فالأدلة على أنى أصبحت محامياً كثيرة كما ترى .

ومع ذلك ، فليس لى مكتب ، وليس عندى قضايا ، ولا وكيل لى أو كاتب يعيننى على العمل . . . أى عمل ؟

أنا فى بيتى الذى كنت أسكن فيه أيام الدراسة لم يتغير منه شىء واحد فى الظاهر ، فقد كانت التغييرات كلها باطنية ، أما الشىء الوحيد الظاهر الذى تغير على دارى فهو اللافتة الرخامية التى ركبت على باب الدار . .

ولا أخفى عليك أن هذه اللافته لم تعجبنى ، لأنها كانت أشبه شىء بشواها القبور ، فقد كانت بيضاء ملساء ثقيلة باردة ، والكتابة عليها سوداء قاتمة . . ولكن لم يكن بد من قبولها ، فقد كانت هدية ولم يكن معى من المال ما أدفعه فى غيرها مما يصنع من النحاس الأصفر البراق . غير أنى لم ألبث حتى طبت نفساً ، فقد رأيت فى تجوالى الكثير فى الطرق ، لوافت رخامية على مكاتب محامين ترن أسماؤهم فى أسماعنا ، وتقرأ كل يوم فى الصحف .

كان هذا هو الشىء الوحيد الذى طرأ على حياتى . .

أما كل شىء فى دارى فعلى حاله . فدارى الواسعة ، التى استأجرتها لتكون ملاذى أثناء الشتاء ومصيفاً لأخواتى وزوجات إخوتى الذكور وأقاربى الكثيرين الذين يأتون فى الصيف إذ لم يستطيعوا أن يذهبوا إلى غيرها ، لم تمتد إليها يد بإضافة أو حذف . الحجرات القديمة الواسعة ، تكاد تكون خالية من الأثاث . ففى كل حجرة سرير فقط ، وفى بعض الحجرات تجد إلى جانب السرير « كنبة » أو « كرسياً » من الكراسى القديمة المنجدة التى كانت تعرف فى أيام سابقة على أيامى « بالشيخ أحمد » وعلى الطريق كانت حجرة مكتبى الصغير القديم ، وكنبة بجواره . .

ومع ذلك كنت سعيداً جداً فى هذه الدار . .

فلقد منحتنى هذه الدار « الخلوة والفراغ » أكبر حقوق الإنسان وأجدرها بالحماية والصيانة ، هذا الحق الذى لم تنص عليه وثيقة من وثائق الحقوق التى قامت

من أجلها الثورات ، وسالت فى سبيلها الدماء ، وطارت على مذبحها رؤوس ، وطاحت عروش . .

نعم ، لقد كنت أتمتع « بالخيال » الابن البكر ، « للخلوة » أو « للفراغ » أول الحقوق وأبوها جميعا ولكن أبانا آدم فرط فى هذا الحق فجر علينا ما جر حتى اليوم.

فآدم ، عليه السلام ، بغير جدال ، كان فى الجنة وحيداً كان يسرح فيها ويمرح ، ويأكل من فاكهتها ما يحب ، ويدع منها ما يكره . كان يتمطى ويتثاءب ، ويحلم ، ويفيق من أحلامه . كان يصعد فوق صخور الشواطىء ليرى البحار الممتدة ، ويعلو قمم الجبال ليرى السهول الواسعة ويهبط الوديان ، ليتأمل الرءوس الشامخة ، ولم يكن يعرف طوال هذه الساعات الطويلة ، التى تعد الواحدة منها بألف ، المشاغل فنضجت فى نفسه مواهب الفنان والشاعر والفليسوف والمصلح والثائر ، فلم يكن فى الجنة ما يشغله ، إلا أن هذه الراحة الطويلة ثقلت عليه وضعف إلهامها فاللذائذ فى ذاتها ، لا تتذوق ، وإنما تبعث ما تبعثه فى النفوس من السرور والنشوة إذا ماقورنت بأضدادها . . لذلك استولى على آدم حنين معذب ،

هو الحنين إلى رفيق فى هذه الجنة ولو بعث الله إليه برجل ، لقتل نفسه ، ولانتهت البشرية ، منذ ذلك اليوم ، ولما عرف أبناء هذا الرسول الكريم ما عرفوا طوال الحقب والسنين من آلام المعصية ، وسعادة التوبة ، ومن متاعب المخاوف ، ونعيم الطمأنينة . لذلك جاء الرفيق لآدم فى صورة مضادة للرجل فى كل شىء . فكانت المرأة . كان خشناً ، فجاءت ناعمة ، كان كثير الاعتماد على عقله الذي استعمله طوال أيام الوحدة فجاءت فيضاً من العاطفة ونبعاً من الشعور . حشى آدم عقله بالكثير من الحقائق والمعلومات التى تصيدها من الكون الذى كان يعيش فيه وحيداً لا يشغله شاغل ، سيدا لا يعصى له أمر . فلما جاءته حواء كان قد شبع من تأملات العقل ، ومن الجرى وراء المعرفة ومن الأسئلة التى وجهها لنفسه بلا طائل أحيانا والتى توجه بها إلى الله سبحانه وتعالى أحيانا أخرى فلم يلق عنها جوابا ، فأصبح يؤمن بشىء واحد هو القلب ، والإحساس ، واللهفة على التحرر من ربقة العقل . فلما خلقت حواء كانت أحدث من آدم عهداً بالدنيا ، فرأت فى كل منعطف من طريق فى الجنة ما يبهر فلم تكف عن صيحات الإعجاب والفرح ، فى الوقت الذى

كان يبدو على آدم ، البرم بما ترى ، والسأم مما يبعث فى نفسها الدهشة ويحرك لسانها بصرخات السعادة .

لذلك شعرت حواء ، بأنها من آدم كالطفلة ، لأنه يكبرها عقلا إذ لم يبد عليه مطلقاً أنه يرى فى مفاتن الجنة ، ما يدعو إلى هذه الفرحة الطائشة ، ولا يورط فى هذا الفرح الصبيانى . وأفاد آدم من هذا ، فاستقر عزمه على أن يخفى عواطفه ما استطاع ، وأن يعود حواء على أن تعبر عن مشاعرها بصراحة لا تحفظ فيها ، وأن يؤكد فى نفسها أنه السيد ، المعلم ، وأنها التابعة الآخذة عنه . . كل ذلك كان ثمرة من ثمار الخلوة والفراغ والتخيل والسبحات الطويلة فى عالم الأحلام والتصور . فلو خلق آدم ومعه حواء ، ولو رزقا البنين والبنات ، منذ عرفا الجنة ، لما عرفا معنى الفراغ ولا تذوقا لذات التأمل ، ولا متع الأحلام ، ولما كان من أبنائهما وبناتها شعراء ومصورون ، ولا عرفت نفوس بنى آدم وحواء ، الطموح والنظر إلى السماء ، والتأمل فى الأرض ، والتحليق فى عالم غير محدود بحدود الكون ، ولا بذلا جهدا فى حل معمياته وأسراره .

ولقد كنت فى شقتى كآدم فى الجنة . .

كنت وحيداً ، كان معى طاه من الريف ، صموت ، لا يكاد يتكلم وكان على الرغم من صباحة وجهه ، مقطب الجبين ، كأن مصابا متجدداً ينزل بساحته كل صباح ، فلا يدع فى نفسه شيئا من الفرح أو الابتهاج ومع ذلك كان هذا الطاهى - الذى كان يقوم فى الوقت نفسه بكل أعمال المنزل - إذا تكلم معه أحد ، انطلق يضحك ، وكأن وجهه قناع ، يخفى حقيقة تقاطيعه وقسماته . فإذا بدا على محدثه ، أنه ضاق بحديثه أو انصرف عنه ، عاد الى سابق تقطيبه ، ومألوف عبوسه بسرعة ميكانيكية كأن البهجة والعبوس عنده عملان آليان ، ينتقل من أحدهما إلى آخر ، كما تنتقل لمبة الكهرباء ، من الإضاءة إلى الاظلام وبالعكس ، بضغطة على زر .

ولما كنت بطبعى قليل الكلام ، وكنت عاجزاً عن خلط نفسى بالناس كنت مع « عبده » فى هذه الشقة كأنى وحيد لا مؤنس لى ولا رفيق .

وإنى لأذكر أصيل يوم قرأت اسمى ضمن قائمة الذين قيدت أسماؤهم بجدول

المحامين . كنت وحيداً كالعادة مستلقيا على « كنبة » أنظر إلى سقف الحجرة ، كأنما أبحث على شيء فيها . والحقيقة أني كنت أبحث عن شيء في نفسي . .

محام ؟

قلت ذلك لنفسي ، ثم ابتسمت ، وما لبثت أن استحالت الابتسامة إلى ضحكة كانت بلا جدال ضحكة هزء وسخرية ، من نفسي . .

فلقد كنت أعرف عن نفسي عيبين كبيرين جداً ، لا يجعلاني صالحا للمحاماة . كنت خجولا ، لا أكاد أقوى على مواجهة إنسان لا أعرفه وكنت كأكثر الخجولين ، خيالياً لا أكاد أطيق سماع حرفين في أمر من أمور الدنيا .

لا أذكر أني اشتريت لنفسي شيئاً . فقد تكفل أهلي بشراء ثيابي ، وكل حوائجي حتى بعد أن كبرت ، وانفصلت عنهم ، وذهبت إلى القاهرة ، كما يذهب الأولاد حينما يرسلون إلى المدارس العالية أو الجامعية ، فلم أكن أعرف بكم يشترى المنديل وما هو سعر الجوارب والقمصان . وإني لأذكر أن أمي أرسلتني يوما لأشتري قدحا من الفول المدشوش ،وأعطتني منديلا كبيراً كان يسمى على أيامنا بالمنديل المحلاوي . وذهبت إلى « عمي عبد اللطيف » ، الذي كان قد نقل دكانه من أسفل منزلنا بحي البغالة إلى ميدان سيدي زينهم . ولما رآني الرجل هش وبش ، وأهل وسهل ، ثم كال قدحا ، دون تطفيف ، وزاد عليه حبات ، تكريما لي ، وتحية للوفاء الذي كان يحملنا على أن نقطع المسافة الطويلة بين بيتنا ومتجره ، وربط المنديل ربطا محكما ووضعه في يدي ، ومضيت إلى بيتي مخترقا هذه الشوارع الآهلة بالناس ، المائجة بحركة لا تكف من شروق الشمس ، حتى قبيل شروقها في اليوم التالي : عربات يد ، وعربات كارو ، وعربات حنطور ، ونساء وأطفال ، وشيوخ ورجال ، وباعة يصيح بعضهم بأصوات كريهة غليظة ويصيح البعض الآخر منهم بأصوات جميلة لطيفة ، وبائعات منهن النسوة اللواتي سقطت أسنانهن فلم يعدن قادرات على أن ينطقن أسماء بضاعتهن ومنهن شابات لا يعرضن بضاعة تباع بقدر ما يعرضن رشاقة قدودهن ، أو يخلبن الأسماع بحلاوة أو طراوة أصواتهن في ندائهن الذي كان أشبه بالغناء وأقرب . وشبان مفتولي السواعد يلبسون جلابيب تكشف عن صدور قوية واسعة فوقها صديريات من الحرير اللماع ، وعلى رءوسهم لاسات من الحرير

ذاته ، وكأنهم بجمال أجسامهم وفتوة أبدانهم ، الصورة المقابلة للبائعات الفاتنات ، اللواتى تزين رءوسهن مناديل « القُوية » .

كان من حقى أن أنقل عينى فى عناصر هذا المعرض الآدمى الحى ، بكل صور الحياة الزاهية الصاخبة فيه . ففى كل خطوة فى طريقى الى المنزل ككل خطوة فى طريقى إلى المتجر ــ يستوقف نظرى منظر أنسى معه نفسى ، ومن باب أولى المنديل الذى فى يدى . فمن شجار كان الإنسان يسمع فيه مباراة فى بلاغة الطريق ، أكثر مما يرى ضرباً أوطعناً فالمتشاجرون يستلون سيوفاً مرهفة ، هى ألسنتهم السريعة النشيطة التى تقذف قنابل صغيرة ، متتابعة متلاحقة ، هى الشتائم ، وصور التهكم وعبارات الزراية . والناس يعجبون بهذه القدرة البيانية ، فلا يودون أن يضعوا حداً للقتال ، لكيلا يحرموا هذه المتعة الباهرة ــ ولا يبعد هذا الشجار بين الرجال عن شجارٍ آخر بين النساء إلا أمتار قليلة . ولا يبعدان معاً عن قرداتى ، يتحلق الناس حوله ، وكأن حركة المرور ، لا حساب لها ولا وجود ، ويعد هذا الفنان الذى يدخل بقرده سروراً إلى نفوس الصغار والكبار معاً ، مع جوعه الذى يبدو صارخاً فى أضلاع صدره الذى يمكن أن تعد ضلعاً بعد ضلع ، تجلس ضاربة الودع « تبين زين » للذين ضاقوا بحاضرهم الكئيب ، وجوعهم الرهيب ، فتعجلوا معرفة المستقبل المحجب . وفى وسط الزحام والصراخ ، والشتائم يحمل « الأراجوز » دولابه فوق ظهره ، ومعه مساعده يحمل « بروجى » أصفر عتيق ، حطمته الأيام فأصبح فى كل جانب منه ندبة كبيرة ، تكشف عن العمر الطويل الذى قضاه فى هذه الدنيا التى تهد القوى ، وتذهب بحلاوة الوجوه . .

لقد كان من حق أى طفل ، أن ينظر إلى هذه الصور الفاتنة مشدوهاً مفتوح الأحداق ، فاغر الفاه . . ولكن لو كان طفلا « واعيا » لقبض على منديل الفول « المدشوش » بيد من حديد ولكنى طرت على أجنحة الخيال التى بسطها شارع السد البراق ، أو الجوانى ، لست أذكر بكل عجائبة وغرائبه ، فتراخت عقدة المنديل لكثرة ما نقلته من يد إلى يد ثم بدأ الفول يتسلل من موضعه فى هذا المنديل ، حتى لم يعد منه إلا أقل القليل . . وبقيت ذاهلاً عنه حتى وصلت إلى بيتى ، فأسلمت المنديل إلى أمى التى فرحت . . وتلقتنى متهللة أول الأمر ، لأنى قمت لأول مرة فى حياتى بعمل نافع ، ولكنها لم تكد ترى من بعيد ضآلة المنديل ، حتى أدركت أنى

لازلت وفيا لصفاتى فأسرعت نحوى وبادرتنى « بقلمين كبيرين » تركا آثارهما الحمراء على صدغى الأيمن والأيسر ، فطار من رأسى كل أثر لهذه الرحلة السحرية التى ارتفعت بها عن هذه الدنيا التي تحتاج الناس فيها إلى « فول مدشوش » .

وقد ترى أن قصة هذا « المنديل » وما وضع فيه من فول أطول مما ينبغى فى موضع الاستشهاد وقد كان ممكناً أن تصدقنى فيما وصفت به نفسى من أنى لم أكن فى أول حياتى من هؤلاء الذين يطيقون الحياة العملية بتفاصيلها ومقتضياتها غير الباعثة على السرور ، دون حاجة إلى سرد هذه القصة الطويلة ولكني قصدت أن أروى لك هذه القصة كاملة ، لتعرف من أى طراز من أطرزة البشر كنت . ولا يمكن أن تكمل معرفتك بى إلا إذا قلت لك إننى على الرغم من شدة انصرافى عن واقع الدنيا فى صورة كنت شديد الارتباط بهذا الواقع فى صورة أخرى . فالتأمل فى الناس ومعرفة ما يشغلهم وإطالة النظر فيهم ، حينما يفرحون وحين يحزنون كان ديدنى لذلك قلت لنفسى فى أصيل ذلك اليوم « محام » .

هل أنت تصلح لهذا العمل . . إن المحاماة أيها الشاب الخجول الصغير هى صراع طويل . . فهل تعرف كيف تغضب . . إن الخجولين ، لا يحسنون الغضب ، وما أحوج رجل الأعمال ، إلى طاقة غنية من الغضب . .

ليس ضروريا أن يكون غضباً صادقاً ، يكلف أعصاب صاحبه ، تعبا ويحملها إرهاقا فالغضب ككل الانفعالات الإنسانية ، يمكن التدريب عليه واتقان التظاهر به .

فرجال الأعمال من صغار وكبار الموظفين ، وضباط البوليس ، ومدرسى المدارس يكتسبون مع الزمن ، قدرة على الغضب المصطنع ، فلا يكادون يرون الأمر الذى تكلفهم وظائفهم استنكاره أو منعه ، حتى تكتسى وجوههم ، بصورة من الغضب الجارف ، ولا تلبث حناجرهم حتى تقذف بصرخات عنيفة يتمزق لها صدر الهواء ، وكأن السماء أطبقت على الأرض ، فيجمد الدم فى عروق من توجه إليه هذه الحملة الساحقة . . فإذا أدار هؤلاء الغاضبون وجوههم أو ابتعد عن ناظرهم من أرادوا إخافته وإرهابه ، لمعت عيونهم فى الحال بلمعان السرور والاغتباط ، وكأنهم ما كانوا فى غضب يقذف بحممه منذ حين .

والحق أن ذلك المحامى الناشىء . كان مما يشغل باله كثيراً أنه لم تتح له فرصة للتدرب على هذا الغضب الذى كان يعتبره فى ذلك الحين من أكبر المواهب الإنسانية وأحقها بالاحترام ، وقد كان سر إعجابه بهذه الموهبة ، أن والده كان يتمتع بطاقة غضبية كبيرة وغنية ولقد ألف أن يخشى غضبه ، وأن يتقيه ، فإذا ذهب ضحيته حيناً من الأحيان كابد أهوال هذه القوة الساحقة . فكان يشعر وصوت أبيه الذى يحبه أعظم الحب ، يدوى فى أذنه ، دوى الرعود ، فيصبح أشبه شىء بريشة تتقاذفها الأنواء والعواصف وكان يعجب - بعد أن ينصرف عنه أبوه - بقدرة هذا الصوت الغاضب على تصوير أشياء مفزعة متلاحقة لخياله ، فهو يحس تارة بما يشبه الاختناق ، وتاره بأنه يوشك على الوقوع من حالق ، وأخرى بأن أعداء أقوياء يكرهونه ، يتعقبون خطاه ، ويكادون يلحقون به ليؤذوه ورابعة بأن سياطاً تهوى على جلده ، فتشويه شيّاً . . وكان فى كل مرة من هذه المرات يشعر بالخزى ، ويحس بأن عيونا كثيرة هى عيون إخوته الذين يكبرونه من الذكور والإناث ، ومن فى البيت من خدم ، تحدق فيه ، تحديقا شديداً ، وهى بين شامتة فرحة لما أصابه ، أو مشفقة حزينة لما ابتلى به ، وكانت كلتا النظرتين ؛ مما يعذبه عذابا شديداً .

ولقد كان يظن أنه وحده الذى تهزه هذه الصيحات الغاضبة فألفى أثرها عند الجميع واحداً ، فقد كان أبوه ذا شخصية آمرة ، وكانت قدرته على حمل الناس على الإذعان لإرادته واحترام كلمته واتقاء غضبه ، شيئاً يسلم به الجميع .

وقد كان يعجبه من الذين أسبغ الله عليهم ، موهبة الغضب « طلاقتهم » وتسلسل أفكارهم ، وقت الغضب فإذا اقترنت هذه الطلاقة بصوت جهير مؤثر يبدو منه أن الغاضب يعانى ألماً من الخطأ الذى أغضبه ، ومن الخاطىء الذى أثاره ، وأن غضبه إنما هو للحق أو للفضيلة أو الواجب ، فقد بلغ إعجابه أقصى الغاية .

وإذا كان دور الغضب فى حياة الناس ، قد شغل الشاب ، الذى كان يضع قدمه على عتبة الحياة العملية ، فترة طويلة من عمره ، فقد أصبح شغله الشاغل الآن بعد أن قيد اسمه فى جدول المحامين ، لأنه يعتبره عنصراً هاماً من عناصر العدة التى لا بد أن يعتد بها ، إذا أراد أن ينجح فى المحاماة .

ومد يده إلى كتاب فى أصول المحاماة والمرافعة فقرأ :

فالمحامى ، فى ساحة المحكمة يجب أن يبدو عالياً - أعلى من الذين يسمعونه جميعاً - وبقدرة تحليق المحامى ، وارتفاعه يثير فى القلوب الإعجاب به ، ثم الحب لما يقوله ، والثقة فيه ، وأخيراً الانقياد له . . وليس معنى تحليق المحامى فى جو المحكمة ، تعاليه على القاضى أو اصطدامه به ، بل إن هذا التحليق والتصعيد والتسامى ، يجب أن يشعر السامعين أن مرده كله للحق الذى يدافع عنه المحامى ، وللقضية التى يكافح فى سبيلها . فلابد أن يشعر السامعون ، أن المحامى ، وإن كان يعلو صوته ويتردد صداه فى قلوبهم بشدة ، مثيراً الجزع أو الإشفاق أو الاشمئزاز ، فهو مع ذلك يعانى ويتألم ، وأن الظلم الواقع على موكله لا يؤذى موكله فحسب ، بل يؤذيه هو أيضاً ، لأنه ينطوى على أذى للناس جميعاً .

« والصوت الغضوب . الذى يربك الشهود الكاذبين أو الذى يبعث الهيبة فى قلوب المستخفين بصاحبه أو المجترئين عليه ، عدة لازمة للمحامى ، وسلاح لا غنى عنه أبداً . وليس علو المحامى وتحليقه ، وتساميه ، وتردد صوته فى الآذان والقلوب ، وكأنه القدر المحتوم ، معناه ، ارتفاع صوته ، فالصوت المؤثر ، ليس دائما الصوت العالى . إنما هو الصوت المعبر ، وقد يكون الصوت المعبر ، أجش تحسبه غليظاً يصك الآذان ، حتى يسترسل صاحبه فى الكلام ، فيحس الناس به وهو يشق طريقه شيئاً فشيئاً إلى القلوب والأفئدة . وقد يكون خافتاً ، فتظن أن خفوته سيكلف السامعين جهداً ، حتى إذا ما تكلم رأيت كل ما حوله قد سكن ، وأخلد إلى الصمت .

وكل هذا يجب أن يتم خلف سياج من الغضب الظاهر ، أو الغضب المكتوم الذى يحمى المحامى من المقاطعة والمهاترة » .

وطويت الكتاب وعدت ، من حيث بدأت وقلت لنفسى :

« أنا خجول ، كثيراً ما يسقط فى يدى ، لمجرد توهمى ، أن شيئاً ما يعيبنى . قد يكون هذا العيب فى ثيابى ، أو فى مشيتى ، أو فى طريقة كلامى ، فما من مجتمع أدخل إليه إلا وأحس أن كل من فيه عيونٌ تحدق إلى ، ثم تسخر بى ، فأسير مطرقا أميل بجسمى إلى الأمام لا أرى أحداً ، فإذا وصلت إلى الباب تنفست الصعداء وكأنما

كنت على وشك الغرق . فإذا حشرتنى الظروف فى جماعة ، وألزمتنى بصحبتها ، لم أعرف كيف أبدأ الحديث معهم أو مع أحدهم ، فإذا أخذوا فى مرحهم ، وتبادلوا الدعابات ، وقصوا النوادر والفكاهات ، شأن الجماعات التى تفرح بالتجمع والتلاقى ، أحسست بأنى غريب عن هؤلاء جميعاً ، ورأيت فى كل ما يقولونه غثاثة وسوقية ، وأحسست بأن ظلهم ثقيل ، وذوقهم سقيم ، وفكاهتهم غليظة ، وسوء أدبهم ظاهر ، فإذا اقترب منى أحد أفراد هذه الجماعة واتصل بيننا حديث - أيا كان - شعرت فى الحال بالضغط يخف عنى ، ورحبت بذلك كأنما أنا الغريق ، وقد تشبث بقشة ولو سمعت إلى فى تلك اللحظة ، لحظة الفرح بالخلاص ، والابتهاج بالنجاة ، لرأيت عجباً . فالألفاظ على لسانى تتدافع تدافعاً يؤدى إلى تقطع كلامى ، فلا يتصل كلامى بعضه ببعض إلا بمجهود عصبى ، يظهر فى تقاطيع وجهى ونبرات صوتى ، وحركات يدى ، ووضع رأسى ، ويحدث فى الغالب من أحوالى أن يؤخذ المتحدث بهذه المظاهر المثيرة الملفتة ، فتبدو عليه دهشة عظيمة والويل لى إن قلبى التفت إلى علائم هذه الدهشة ، فإنها تزيدنى ارتباكا وحيرة ، وتزيدنى عذابا وألما ولكن العجيب فى الأمر ، أن هذا الحديث المتقطع ، الذى أنتزعه ، من حلقى ، وأعماق قلبى ، انتزاعا ، أعتصره من أعصابى اعتصاراً كان ينجح أحياناً فى استمالة المستمع إلى ، وفى إنشاء علاقة من علاقات المودة العاجلة ، أشعر معها براحة ، وطمأنينة ودعة فيذهب عنى الضيق ، تبيض نظرتى إلى الدنيا بعد سواد ، ويسودنى تفاؤل بعد تشاؤم . أتوكأ على هذه العلاقة ، لأدب بفضلها فى أنحاء هذه (الجماعة الإنسانية) التى كانت منى بمثابة الحصن المغلق ، أو الأرض الملغمة ، لا أستطيع أن أفتح مغالقها ، ولا أن أتقى شرور مزالقها فإذا ما بدأت أتصل بأفراد جدد من الجماعة وأحسنوا الاستماع إلى والترحيب بى ، رأيت عجباً كذلك ، فإنى أنقلب من النقيض إلى النقيض . . أنقلب من الانكماش إلى الانطلاق ، ومن الانقباض إلى الانبساط ، ومن التحفظ والصمت إلى الاندفاع والثرثرة ، . وأنا فى هذا كله ، أراقب نفسى ، أحصى عليها كل ما تقول ، وكل ما تفعل ، غير راض عنها ، أعد ألفاظى ، كأنما هى زلات ، وتصرفاتى باعتبارها سقطات . ولكنى أشعر مع ذلك ، بقوة تدفعنى دفعاً إلى الكلام ، أو قل الثورة على نفسى ، وهى ثورة تزداد على مر اللحظات قوة وضراماً فأضعف عن مقاومتها ، وأنا

شاعر بالندم والألم . . ولقد اعتدت أن أصور نفسي لنفسي وأنا فى تلك الحال ، بأنى كالشاب غير المجرب الذى يستدرجه أصحابه إلى مجال الشراب ثم يدعونه إلى تناول شىء من المسكرات فيأبى ، ويتمنع ، ويقاوم ، ويعتذر وهم يدفعونه ويحرجونه مستغلين قلة خبرته ، وشدة حيرته ، حتى يورطوه فى كأس ، فتدور رأسه ، ويشعشع الشراب فى نفسه فينطلق لا يلوى على شىء ، يقول كل ما احتجزه فى صدره ويفشى كل ما طوى عليه قلبه ، ويطلب هو بنفسه الكأس تلو الكأس حتى يقع مغشياً عليه .

يحدث هذا إن ظفرت فى الجماعة بترحاب وتشجيع ، أما إذا وقع العكس ، فلا سبيل الى وصف ما أبتلى به من الحزن والألم ، فإنه سرعان ما أدخل فى (قوقعة) خجلى وحيائى ، لائذا بالصمت ، متوارياً عن الأنظار ، أرى الناس أشباحا ، أسمع أصواتهم ، وكأنما تصل إلى من مكان بعيد وأعد الدقائق ، التى تمر بطيئة متثاقلة متمنيا على الله أن تنفض هذه الجماعة ، لتنتهى هذه المحنة . . فإذا وافى الفرج ، انطلقت أشبه شىء بالتلميذ الصغير ، الذى ينتظر دقات ناقوس الانصراف من الدراسة بصبر نافد ، وقلق معذب فإذا ما انطلق خارج أسوار المدرسة إلى الطريق ، أخذ يقفز ، ويعدو ، ويضرب الأرض بقدمه ، وانطلقت منه أصوات لا يدرى مبعثها ، وقد تكون بلا معنى - إلا أنها مع حركات يديه ورجليه ، التنفيس عن الضيق والتعويض عن الحبس ، والفرح بالحرية ، وبالهواء ، وبالفضاء ، وبالبعد عن السيطرة والسيادة ، والنجاة من قيود الطاعة والنظام . .

هذا بالضبط حالى حينما تنتهى صحبتى مع جماعة لم آلفها من قبل مع فارق كبير ، هو أن الصبى الذى يترك مدرسته ينسى على بابها كل متاعبه فيها . فلا يعد يذكر صيحات المدرسين الغاضبة ، ولا شجاره مع زملائه ،وخوفه من أقويائهم ، وكرهه لسخفائهم . . بل إنه ينسى الواجبات التى تنتظره فى البيت ليؤديها . . أما عذابى مع الناس فيسلمنى إلى عذاب جديد ، هو عذابى حينما أخلو لنفسى ، ففى هذه الخلوة أستعيد كل كلمة نطقت بها وكل حركة صدرت عنى ، وكل تصرف أتيته ، وأنا فى هذه الاستعادة لا أرى إلا أخطاء فوق أخطاء وعيوبا تعلو عيوباً . . . فإذا ما تذكرت بالذات تصرفا غير لائق ، أو لفظا غير سائغ . . انتابتنى حالة المحموم ، فالتهبت رأسى ثم تصبب عرقى . ثم تثلجت أطرافى ، وبرزت لى على

لوحة من خيالى ، وجوه كل من كانوا معى ، تتتابع وتتعاقب ، وكأنها وجوه الزبانية والشياطين تخرج لسانها لى ، أو تطيل نظرها إلى ، أو ترمقه شذراً ، أو تضحك ضحكا ، لا يسمع له صوت ، وإنما ترى مظاهره .

سألت نفسى ، أية محاماة هذه التى أطمع أن أكون من رجالها وهذه صفة من أكبر صفاتى ، أو قل هذا عيب من أكبر عيوبى .

وقد كان مثل هذا السؤال خليقاً بأن يدفع اليأس إلى قلبى ولكن كان إلى جوارى دائماً ملاكى الحارس . كان معى الخيال .

والخيال يمد يده دائما إلى الخائفين والخائبين ، وإلى الضعفاء والفقراء - فإن أحسنوا الإفادة منه استخدموه ، وإن أساءوا استخدمهم وويل للإنسان إن استخدمه الخيال ، إنه لا يدع له فرصة ليعرف الحياة ، ولا ليتحمل متاعبها . إنه يفر به منها حتى يفقد الصلة بها .

وناديت ملاكى الحارس .

فإذا به يرتفع بى عن « الأزمة » ويصور لى الأمر أهون مما ظننت . وقال لى ليس فى الفصحاء والبلغاء ، وليس فى المحامين المداره إلا من عقد الخجل أول الأمر لسانه فأخذ يجاهد ليحلها ويفكها ، وهو فى جهاده هذا ، يصنع نفسه ، لأنه يقيس قوتها بالنسبة للناس ويسبر غورها ويدرس الأشياء والأشخاص ، فتزداد نفسه عمقاً ، ويزداد نظره للأمور إحاطة . إن الذين لا يخافون الناس ، ويغشون مجتمعاتهم ، فى ثقة واطمئنان ، لا يهابون أحداً ولا يحسبون حساب شىء ، قد تبدو عليهم السعادة ، وقد يخيل إلى الناس أنهم أقوياء والحقيقة أن هؤلاء يفقدون مع الزمن كل طاقتهم الروحية ، فيخف وزنهم ، ويصبحون مع أحداث الدنيا ، كالريشة فى مهب الريح ، لا يقوون على مقارعة صدام ، ولا يصمدون أمام ملمة من الملمات ، فليست البلاغة مجرد شقشقة لسان ، ولا تحريك هذه القطعة من اللحم فى الأشداق فلا تخف أيها السيد ، وقف على قدميك وانزل إلى ميدان المعركة ، وسترى أن مخاوفك بلا أساس .

وقد خفف هذا الكلام عن نفسى كثيراً مما كان بها ، وأحسست أن العرق الذى

تفصد به جبينى قد جف ، وأن الانقباض الشديد الذى انتابنى قد أخذ يزايلنى . .

وأخذت لوحة حياتى تعرض على صور كثيرين من العظماء الذين عانوا فى مطلع حياتهم كما أعانى الآن من الخجل ، وكيف عجزت ألسنتهم فى أول مراحل كفاحهم من أجل الرزق ، عن أن تفصح عما فى صدورهم ، فاقتحمهم الناس ، وأزالوهم عن طريقهم ، ثم استهانوا بقدرهم ، حتى حسب هؤلاء المساكين أن صفحتهم انطوت ، وأن سبل الحياة فى وجوهم قد سدت ، وأن أملهم فى النجاح قد انهار . . . ثم قاوموا ، قاوموا أنفسهم وقاوموا ضعفهم . قاوموا خوفهم ، وقاوموا يأسهم ، فاستحالت هذه المقاومة إلى معركة دامية ، فلما خرجوا منها كانت أعوادهم قد اشتدت وقواهم قد أرهفت ومواهبهم قد صقلت . . .

وقد كان من عادتى ، إذا التهب خيالى بصورة من الصور ، أن أقف على قدمى ثم أذهب ، فى حركة دائبة ، أقيس الحجرة ذهاباً وإياباً ، ويداى خلف ظهرى وكأن فى رأسى سوقاً مائجة ، لأفكار تتدافع ، وتتسابق وتختلط ، وتفترق ، حتى أشعر بالسأم ، أو يدخل على داخل ، أو يصرف انتباهى عن المسألة التى كانت تشغلنى صارف .

لكن فى ذلك اليوم لم تمتد إلى يد لإنقاذى من نفسى ، فبقيت أفكر فى المستقبل ، تفكيراً عاودنى معه الخوف الشديد ، وأحسست فى هذه اللحظة أن المجتمع هو « غول » لا يرحم . وأنه ينطلق فى طريقه كالأعمى يدوس الناس ، اعتباطا ما لم يكونوا مسلحين بأفتك الأسلحة : –

فالصفاقة لا رقة الشعور والاجتراء لا الحياء . والادعاء لا التواضع ، والشره لا القناعة هى الدروع الواقية لأعصاب الإنسان من الأذى أو التلف . وهى سبيله إلى قطع أقصر الطرق للنجاح . وعاودنى بالتالى الشعور باليأس ، والرغبة فى الفرار . الفرار الى أين ؟ والاحتماء بمن ؟

ولأول مرة بدت لى هذه الحقيقة كالحة نكراء . أحقيقة أنا وحدى ، أمام هذا الغول الذى يسمى بالمجتمع ؟ لم يعد ينفعنى حنان الأم ، ولا عطف الأب ؟ أهذا الجو الرحيم المشبع بالمودة والعطف ، قد انتهى دوره ، وأنه سيسلمنى إلى جو آخر

ملىء بالتوتر ، والتنافس شعاره « النجاح هو الهدف » والوصول إليه جائز بأى ثمن ، ومطلوب عن أى طريق ؟

وخيل إلى فى هذه اللحظة كأنى طفل تركته أمه فتشبث بأهداب ثوبها ؛ فخلصت الثوب من بين يديه فى رفق وحنان ؛ ودموعها على خدودها والأسى مرتسم على وجهها ، ولكنها مع ذلك كله تركته . . فهذا هو القدر المحتوم ؛ محتم على كل منا أن يواجه الحياة آخر الأمر وحده . .

وكان الشعور بهذه الوحدة قاسياً ، ذكرنى بيوم دخلت حجرة العمليات ، فقد كان كل من حولى يود أن يفدينى بنفسه على الأقل هذا ما تصورته ، وزاد هذا التصور من عذابى ، فقد كانت الوجوه تنظر إلى ، متجلدة ، متظاهرة بعدم الاكتراث لتقويتى . ومع ذلك كان وراء هذا التجلد ، جزع هائل ، لا يحيط به خيال ، وشفقة عميقة لايحدها حد ، . . . فلما وضعنى الممرض على عربة حجرة العمليات ودفعنى أمامه ، كأنما يدفع شيئاً ، أدرت رأسى ، بحركة خفيفة لأرى أعمامى ، وأولاد إخوتى وفيهم الضابط ، والقاضى ، ولأرى جدى هذا الرجل الصارم الذى قضى حياته فى السودان قائداً عسكريا ثم موظفاً إداريا ،وأرى من خلف هؤلاء أختىّ اللتين تصغراننى . . . كانتا كمؤخرة الصورة ، تبدوان شاحبتى الوجه ، صامتتين تلوح فى مآقيها دموع تود أن تنهمر ، وإرادة قوية تحبسها حبساً . . لقد بدا لى هؤلاء جميعاً ، أبعد ما يكونون ، وإن كان لا يفصلنى عنهم فاصل . . فإننى أحس بأنفاسهم تتردد فى صدورهم ، وأرى دموع أختىّ وكأنما تتساقط على خدودى ، ومع ذلك فهؤلاء جميعاً لا يملكون إلا أن ينظروا إلى ، وأنا أدفع أمامهم الى مصير محتوم . .

ماذا يساوى حبهم الآن ؟ ماذا تساوى هذه الدموع المحبوسة ، وهذه الآهات التى يطوون عليها الصدور . إنهم جميعا سالمون غانمون لا يشكون شيئاً ، وأنا وحدى الذى أتحمل آلامى وأحزانى ، أنا الذى سيدخل إلى حجرة العمليات ، وسيغلق الباب على ويجرى المشرط على لحمى ، حتى أمى التى كانت قد ماتت قبل هذه العملية بسنين ، لو عاشت إلى هذه اللحظة لمافعلت أكثر مما فعله الآخرون ، بل لعلها كانت تبدو أقل من غيرها قلقا لأنها أكثر من غيرها رباطة جأش ، وقوة أعصاب . .

هذه هى مأساة البشر ، لا يملكون لأعز الناس عليهم ، فى ساعة المحنة ، سوى العطف والشفقة ثم يقفون بعد ذلك مكتوفى الأيدى . .

علت موجة التشاؤم . .

ولكن جاء الرد على هذا التشاؤم سريعاً . .

فقد سمعت طرقات الباب . طرقات سريعة ، تدل على أن الطارق لم يتردد على بيتى ، لأنه لم يعرف مكان الجرس الكهربائى على الباب ، ومع ذلك فإن طرقاته تدل على الثقة والشعور بحقه فى هذا الطرق المتصل .

وفتحت الباب ، ووجدت نفسى أمام ساعى تلغراف يقدم لى برقية ، وعلى شفتيه ابتسامة مودة كأنه يعرفنى منذ وقت طويل . . وقال لى :

برقية للأستاذ حسين القويسنى .

قال الأستاذ ، كأنه لقب قديم ، جرى استعماله على وجه مألوف ، أما أنا فقد أحسست بأن لفظ أستاذ قد رن رنيناً أخاذاً ، وشعرت بأن ابتسامة قد قفزت إلى شفتى واستقرت عليها .

والغريب فى الأمر أننا ــ نحن طلاب كلية الحقوق ــ كنا نسمى أنفسنا أساتذة منذ اليوم الأول الذى وطأنا فيه أرض الكلية ، وكان الناس يسموننا كذلك ، فأنا أستاذ منذ أربع سنوات سابقة على حصولى على شهادة الحقوق ، ومع ذلك فإن رنين العملة الصحيحة يختلف فى الآذان ــ عن رنين العملة الزائفة .

فأستاذ السابقة على الشهادة النهائية كانت مجرد اغتصاب للقب ، أمّا أستاذ الآن فاستعمال حلال له . وإعلان لى بأن ليالى الدراسة قد ولت ، وأن الخوف من الامتحان ، وترقب النتائج قد اختفى إلى غير رجعة . . . .

وعلى عادتى ، جرت هذه الخواطر كلها فى رأسى فى مثل لمح البصر فلما أفقت منها وجدت ساعى التلغراف واقفا أمامى ، وعلى شفتيه ابتسامة لامعة فمددت يدى وأخذت البرقية منه ووقعت بالاستلام ، وفتحت البرقية ، فإذا هى باللغة الإنجليزية ، إنها برقية تهنئة من أختى التى سافرت إلى ألمانيا لتكون فى صحبة زوجها

الكيماوى ، الذى أوفدته الحكومة ليحصل على درجة الدكتوراه فى العلوم « نهنىء الأستاذ حسين ، ونتمنى له النجاح العظيم » لقد قرأت البرقية ، عشرات المرات ، ثم طويتها ووضعتها فى جيب سترتى ، المعلقة على مشجب فى الحائط ثم ذهبت على عادتى أذرع الحجرة جيئة وذهاباً ، ثم عدت إلى السترة وأخرجت من جيبها البرقية ، وقرأتها مثنى وثلاث ورباع ، فى كل مرة أشعر بالسرور يغمر نفسى ، بأنى تلقيت برقية من الخارج ومكتوبة باللغة الإنكليزية وأنى استطعت أن أفهمها بسهولة ، على الرغم من أن مستوانا فى اللغات الأجنبية ضعيف غاية الضعف .

زال التشاؤم عن نفسى ، وأحسست أنى أصبحت خفيفاً قادراً على أن أحلق بجسمى فى الهواء ، ونصبت على التو ، محكمة فى خيالى واخترت لنفسى قضية من القضايا الهامة ، ولكنى لم ألبث حتى اخترت غيرها وغيرها وهكذا ، وأخذت أترافع فيها الواحدة بعد الأخرى ، فمرة أكون محامياً لمرجريت فهمى المرأة الإنكليزية التى قتلت أحد الأعيان المصريين ، وتارة أترافع ضدها طالباً الحكم بموتها ، ثم أترافع عن المتهمين فى قضية مقتل السردار ، وقضية محمد فريد وعلى الغاياتى ، وفى كل مرافعة من هذه المرافعات ، أقنع بجملتين ، لا أتجاوزهما ، أضع فيهما خلاصة ما أظنه آية الآيات فى البلاغة ، وأنهما سيهزان الجمهور الذى تغص به قاعة الجلسة من الأعماق . . .

ويبدو أن المجهود العصبى ، المصحوب بالحركة ، قد استنفدا قدراً غير قليل من طاقة نشاطى ، فأحسست بشدة الحاجة إلى الطعام ، فقمت أبحث عما عساه يكون معداً للأكل فى الدولاب البنى القديم الذى انتقل مع والدى من بلد إلى بلد ، والذى أخذته آخر الأمر وأنا أنفصل عن عائلتى لأقيم فى القاهرة طالباً العلم فى الجامعة ، فوجدت طعاماً وضعته على المائدة الخشبية التى يعلوها مشمع ، تزينه أوراق من ورق شجر أحمر وأخضر وأصفر فى إطار من دوائر ، ومثلثات ، متداخلة ومتجاورة ، مكونة حلية .

ولم تكن حدة انفعالى قد هدأت بعد ، فوضعت الأكل أمامى وأخذت أقضم لقمة فى أثر لقمة ، ولا يزال القضاة أمامى أترافع أمامهم ، وأخطب فيهم ، ويقاطعنى ممثلو الاتهام ، وزملائى المحامون ، فأنفجر فى صيحات مخيفة مرعدة ، ثم

يقاطعنى الجمهور ، بالتصفيق تارة وبالضحك المشجع تارة أخرى كأننا فى مسرح . . وأنا فى كل هذا لا أدرى ما إذا كانت القضية التى أترافع فيها ، قضية سياسية أم جنائية أم مدنية ، وما إذا كان موكلى رجلا أم امرأة ، إنما الشىء الوحيد الذى أدريه أن المحاكمة منصوبة والجلسة معقودة والقاعة مكتظة ، والجمهور معجب ، وصوتى يرن فى أذنى وصور بلاغية ، وبيانية تتلاحق على لسانى . .

وكلما امتلأت بطنى ومالت إلى الشبع ، فتر خيالى ، وقلت حماستى ، وملت إلى الراحة ، حتى جلست على مقعدى . وكأنما ألقف أنفاسى بعد شوط طويل قطعته فى الركض والعدو ، ثم هدأت نفسى ، واختفت الشاشة التى كنت أرى المحكمة عليها ، وانقطعت مرافعتى ، وانشغلت بتناول فاكهة كانت أمامى ، فلما فرغت من تناول الطعام قمت أغسل يدى . . . وتمددت على كنبة أمام السرير ، أطالع فى كتاب . . . حتى احتوانى النوم بين ذراعيه . . .

الفصل الثانى

القضية الأولى

دق جرس الباب ، فأسرعت إليه ، لأرى نفسى أمام عبد الجابر سرى أفندى ، المهندس الزراعى فقد كان أحد جيرانى الكثيرين الذين لا أعرف مجرد أسمائهم ، والذين أجهل كل شىء حتى وجوههم . فقد كنت أعيش فى الحى الذى أقمت فيه ، وفى المنزل الذى نزلت بالدور الأول منه بعيداً عن كل الناس ، لا أزور ولا أزار ، لا أهنىء ولا أعزى ، ولا أتبادل التحية مع أحد ، كنت وحدى ، لا أتعمد مقاطعة النـاس ، ولا أتحاشـاهم ، ولا أبتعـد عنهم ، ولكنى لا أسعى إليهم ، ولا أفكـر فيهم ، ولا أشعر بحاجة إلى العيش معهم ، قد يكون مرد ذلك كله ، هذا الخجل الذى حدثتك عنه ، ولكن الشىء الذى كان يسعدنى ، أننى لم أكن أضمر للناس كراهية ، ولا أحس بأنى أكبر أو أفضل منهم ، وأن عزلتى لا تثقل علىّ ، ولا تأتى عن جهد أو تعمد .

ولكن عبد الجابر سرى أفندى كان استثناء ، فلقد ركبنا سويا الترام أكثر من مرة ، عند المحطة التى تواجه منزل كل منا ، وعلى عادة ركاب الترام إبان الأيام التى لم يكن فيها الترام مزدحماً ازدحامه الآن بدأ يثرثر معى ، فينتقل بين شئون السياسة ، والاجتمـاع ، والنوادر ، والقصص ، ويسـألنى عن دروس الحقوق ، وقبـل أن أجيب ، يجيب هو ، ويذكر أسماء الأساتذة متـداخلة ، فهو يعـرف مثلا ، – هـذه عبارته ــ الدكتور كامل بدوى ، فلا أعرف أنا إذا كان يقصد كامل مـرسى ، أو بهجت بدوى ، ولكن السؤال الوحيد الذى كان يسأله ، ثم ينتظر الإجابة عليه هو

سؤال ثابت ، دائم ، يوجهه فى موضوع المواريث ، ولما كانت المواريث فى الشريعة الإسلامية من أثقل دروس هذا العلم ، فكان ترحيبى بالأسئلة فيها ضعيفاً ورغبتى فى الكلام حولها أضعف ، ولكنه كـان يسأل السؤال ، ويحـدق فى وجهى بعينين صغيرتين لامعتين تفحصان وجهى وقد تحاولان الغـوص إلى سريـرتى ، وأعماق نفسى ، لتشهـدا كيف تدور عجلة « مخى » بـاحثة عن الإجـابة الصحيحـة لهذا السؤال العويص . . وفى كل مرة يوجه إلى هذا السؤال ، تشتد بى الرغبة لتوجيه سؤال مضاد له « هل تنتظر ميراثاً يا سيد عبد الجابـر ؟ » . ولكنى قاومت نفسى بشدة ، لأنى كنت أعتقد أن توجيه مثل هذا السؤال ، سيصدم عبد الجابر أفندى فهو أغلب الأمر ، يحلم ، وهو يريد أن يؤكد أحلام اليقظة ـ بهذا السؤال الذى يقنع بتوجيهه ، ثم ينصرف إلى وجهى بتأمله وأنا أحاول البحث عن الجواب فعلى شفتيه ابتسامة غبطة ورضا ، وقد فهمت بغريزتى ، أنه يصـور الأمر لنفسـه ، باعتبـاره صاحب ميراث ، وبوصفى محامياً ، فهو يسأل ، ، ثم يرى المحامى ، وهو يفكر ، لأهمية القضية ولخطورة الموكل ، ولضخامة الأتعاب ، وينسى بهذا الخيال كله ، أنه ذاهب إلى عمله ، الذى لا يحبه كثيراً ، أو الذى يكرهه ، لثقل دم رئيسه ، ولفقر زملائه وكثرة تندرهم على الناس ، بما فيهم شخصه . فالمرحلة بين البيت والعمل ، هى المرحلة الفاصلة بين الحرية ، والقيد ، وبين الراحة والملل ، فتزويدها بخيال مسعد ، يزيد من حلاوتها ، ويؤكد وظيفتها . .

والعجيب فى الأمر ، أننى أخطأت الجواب فى المرة الأولى ، وخجلت بينى وبين نفسى ، من جهلى ، ولكن عزانى ، وخفف عنى الأمر ، أننى كنت أعلم أن نتائج هذا الجهل ، وعواقب هذه الفتوى ، هى صفر وعدم . . فصاحبى لن يكسب إن أحسنت الإجابة ، ولن يخسر إن أخطأت فالأمر كله كلام فى كلام .

لكن ضميرى كان يقظاً ، ففى المساء عدت إلى بيتى ،وأخذت أبحث فى كتاب الشريعة الذى تمزق عنه غلافه الأزرق الذى كان يشبه فى تواضعه تواضع مؤلفه العالم الجليل المرحوم الشيخ أحمد ابراهيم ، فوجدت أن كل ما قلته كان بعيداً عن الصواب ، بعد السماء عن الأرض ، فانتظرت أن أرى عبد الجابر أفندى لأصحح له إجابتى ، . . ومرت الأيام وأنا قلق غاية القلق ، وقد بلغ من حرصى على تصحيح الخطأ ، أننى ما هممت بركوب الترام فى الصباح أو فى الأصيل إلا تلفت حوالى ،

ناظراً إلى الجهة التى يأتى منها عبد الجابر أفندى ، عسانى أراه مقبلا . . وفى بعض المرات كنت أترك الترام ، مؤملا أن يأتى خلال انتظارى للترام التالى ، وبعد أيام غير قليلة ، انقضت على هذه الصورة من الترقب ، رأيت عبد الجابر أفندى على سلم الترام ، بعد أن كان القطار قد تحرك ، وثب إليه فى رشاقة ، مع أنه كان ضخماً ، وعلى الرغم من أن سنه قد تجاوزت الأربعين . .

ولا تسل عن سرورى وفرحى ، إذ رأيته أمامى ، ووقع نظرى على وجهه المستدير الكامل الاستدارة ، الملىء ، الأسمر ، وعلى عينيه الصغيرتين اللامعتين . . . وقال وهو لا يزال على سلم الترام « صباح الخير . . . ! صباح الأنوار . . » .

فهتفت من الأعماق ، وكأنى عثرت على لقية : صباح الخير . . وجلس عبد الجابر إلى جانبى وأخذ يثرثر على عادته ، وأنا أود أن أقاطعه ، لأصحح له الخطأ ، وهو مندفع ، متدفق ، ينتقل من موضوع إلى موضوع ، فى خفة ورشاقة ، وبسهولة ويسر ، مقهقها ، مبتهجاً ، فلم أجد وسيلة لإيقافه لحظة لأنهى إليه بصحيح الإجابة التى سبق أن أدليت إليه بها خطأ ، حتى جاء « الكمسارى » يطلب التذاكر ، فتوقف هذا السيل من الألفاظ ، فأسرعت إلى القول بأنى متأسف . . ولكنه لم يسمع من كلامى سوى هذين اللفظين ، ثم اشتبك مع الكمسارى فى حديث لم أدرِ كيف نشب فقد سمعتهما يتبادلان الفكاهات ، ويقهقهان معاً ، وكأنهما صديقان متعارفان منذ قديم . . بقيت أنتظر أن ينصرف الكمسارى لأصحح الخطأ الذى وقعت فيه ، والذى أثقل ضميرى كل هذا الزمن ، ولكن كم كانت دهشتى حين رأيت الكمسارى وقد أحاط العمود الحديدى الذى تنتهى عنده العربة الأخيرة من الترام ، والتى كنا جلوساً بها ، بذراعه ووقف يتحدث مع عبد الجابر ، على صورة تدل على أن الحديث طاب له ، وأنه قرر أن يبقى فى مكانه ، صارفاً النظر عن صرف التذاكر لبقية الركاب . .

والتفت الكمسارى إلى أخيراً قائلاً : تذكرة ؟

فمددت له يدى فى الحال بالنقود التى كنت طويت يدى عليها منذ ركبت وقد

غسلهما العرق ، فبدت لامعة ندية . . مددت له يدى بالنقود والتفت فى الحال إلى عبد الجابر وقلت له مستأنفاً « أنا متأسف يا عبد الجابر أفندى . . » .

ولشدة دهشتى ، لم يلبث الحديث أن نشب بين الكمسارى وعبد الجابر وراكب ثالث كان يجلس إلى جوارى ، وكان إلى تلك اللحظة صامتاً . ولو كنت فى حالة أخرى ، لشغلتنى ظاهرة اشتباك الناس فى أحاديث حارة متدفقة دون تعارف سابق ، ولكننى فى الواقع كنت مشغول البال بتصحيح الخطأ الذى وقعت فيه . وأخيراً جاءت اللحظة المرتقبة فقد قال أحد الثلاثة عبارة لم ألتفت إليها ولكن عبد الجابر أجاب مشيراً إلى : « معنا أستاذ ، ويمكن أن يفيدنا فى الموضوع » . والتفت الثلاثة إلى ، فقلت « إنى تحت الأمر » ، وأضفت : « يا عبد الجابر أفندى » أحب أن أعتذر لك . . » فقال عبد الجابر ، فى تسامح ، ومودة ، وأخوة ، عفوا . . عماذا ؟ فقلت أتذكر مسألة الميراث التى سألتنى عنها ؟

ولم أكن أتوقع أن تغيراً هائلاً ، بالقدر الذى حدث فعلاً سيصيب عبد الجابر ، فقد بدا عليه أنه انفصل فى الحال عن الكمسارى وعن جارى ، وأن موضوع الميراث ، قد استغرقه فى لحظة ، بأسرع مما تمتص الإسفنجة الماء الذى توضع فوقه . . . وأقبل على بكل جسمه ، ولمعت عيونه الصغيرة كالعادة ورفت على شفتيه ابتسامة ، مشجعة ، متوددة ، وقال : خير .

قلت ، وأنا غارق فى مظاهر هذا الجو المجامل اللطيف ، حتى الأذنين :

لقد أخبرتك بأن الأخ غير الشقيق يرث . .

ولم يدع عبد الجابر أفندى الكلمة التى بقيت على لسانى محبوسة منذ رأيته فى الصباح تخرج من محبسها ، فقد أشرك الجالسين معنا فى الحديث والتفت إلى الكمسارى ، فوجدته قد بارح مكانه بحثاً عن الزبائن وتذاكر الزبائن ، وبدل أن يستمع التصحيح روى المسألة من جديد واستمعت إليها كلها ثم أجبت الإجابة الصحيحة ، وكأنه طفل يتجرع زجاجة زيت خروع ، فقد كان استعداده لسماع أى شىء منى ضعيفاً وكانت رغبته فى أن يتكلم هو ، جامحة كالجواد المنطلق .

وتخفف ضميرى من هذا الوزر الذى احتمله طويلا : ولم يعد يهمنى أن

يسترسل فى كلامه أو أن يصمت إلى الأبد ، ولم تكد المحطة التى أريد النزول فيها تهل ، حتى قمت مستعداً للنزول محيياً عبد الجابر ، والجالسين جميعاً . .

ومنذ ذلك اليوم لم يكن جارى عبد الجابر يلقانى فى الترام أو يقابلنى فى الطريق حتى يسأل عن نفس مسألة الميراث ، وبدا لى أن أنوع فى الإجابة فلى فى كل يوم جواب ، ولكم كان سرورى عظيماً حينما وجدته يتقبل جميع الأجوبة بنفس الترحاب المعهود وانقلب الحال فأصبحت أنا الذى يثير موضوع الميراث ، كلما لقينى ، وعلى كثرة ما أثرت ذلك الموضوع لم ألحظ على اهتمامه فتوراً ، أو ألحظ عليه انصرافاً ، كما لم ألحظ أنه تشكك فى نواياى فى مناقشة هذا الموضوع . فقد كان مظهرى بريئاً ، وفى الواقع أنى لم أكن ممن يحسنون معابثة الناس ، أو السخرية من عيوبهم ونقائصهم . ولكن عبد الجابر أفندى كان فريسة سهلة ، وكنت أرى على وجهه مظاهر السعادة والرضاء فكان ينتقل هذا كله إلىّ بالعدوى .

وعلى الرغم من كثرة مقابلتنا فى الترام وفى الطريق ومن كلامنا فى موضوع الميراث فإن عبد الجابر أفندى بقى بالنسبة لى ظاهرة عارضة لا أثر لها فى حياتى ، فلم تتوثق علاقتى به ، فلم أسأله مثلا عن مسكنه ، وإن كنت أعرف استنتاجاً أنه يقيم فى حارة مجاورة لمنزلى ، فقد كان يخرج من هذه الحارة المؤدية إلى الشارع الذى كنا نركب منه الترام ولم أسأله كذلك عن وظيفته ولا عن مرتبه ، ولا ما إذا كان متزوجا أم أعزب . وإن كنت واثقاً أن أبسط محاولة منى ، للوقوف على هذه التفاصيل ستؤدى حالا إلى إغراقى بفيض من المعلومات والتفاصيل ، ولكنى لم أكن أبداً فضولياً ، ولم تكن حقائق حياة الناس التى من هذا النوع شغلاً من مشاغلى .

لذلك أدهشنى جداً أن أجد أن عبد الجابر أفندى جاء لزيارتى . وتساءلت ترى أى حافز حفزه على هذه الزيارة .

دخل وسلم ، واعتذر ، وكانت نظراته ، تتجه من لحظة إلى أخرى إلى الباب ، فظننت أن خلف الباب شخصاً أو أشخاصاً حضروا معه ، أو حضر هو من أجلهم ، ولم تطل المقدمات ، فقد أفضى إلى فى اختصار بأنه جاء يعرض علىّ قضية .

قضية دفعة واحدة !

غصصت بريقى ، وشعرت بقلبى تتجاوب ضرباته ، وأحسست بعصبية تشملنى من رأسى إلى قدمى ، وحاولت عبثاً أن أبدو هادئاً . فقلت : قضية ؟ . .

فأجاب على الفور : قضية على قدر الحال . . لا تؤاخذنى يا أستاذ فلقد رأيت أن ألجأ إليك لأنى استشففت من أحاديثك أنك رجل تشفق على الفقراء وتحب أن تساعدهم .

ولم يكد يقول هذا ، حتى تصورت أن القضية التى ستعرض على ستكلفنى مالا ولن أكسب منها شيئا ، ولكن الواقع الذى أخافنى هو أننى سأكلف القيام بعمل فى المحكمة وأنا لا أدرى من إجراءات المحاكم قليلا أو كثيراً ، وقد كنت أمنى نفسى أن يتأخر عمل المحاكم قليلا حتى أتهيأ لهذا الدور الجديد فى حياتى .

وقد لاحظت أن عبد الجابر يشير بيده طوال الحديث إلى ناحية الباب ، دون أن يفصح عما إذا كان وراء الباب أحد ينتظره ، أو له صلة بالقضية التى تهيأ ليروى لى وقائعها ، ولكن تلك الإشارة ، لفتت نظرى إلى الباب ، فتبينت شبحاً أسود ، خلف الزجاج يتحرك يميناً ويساراً ، ولم أستطع أن أقطع لنفسى ، بماذا يكون صاحب هذا الشبح أرجلا يكون أم امرأة ؟ فالصورة المنطبعة على الزجاج « الإنجليزى السميك » لا تعين على القطع بشىء ، إذ لا يظهر من خلف الزجاج سوى الخطوط الخارجية لشكل الجسم ، ولم يكن هذا الشكل مطابقاً لصورة رجل يلبس شيئاً من أغطية الرأس المعروفة كالعمامة أو الطربوش أواللبدة أو الطاقية ، ولا حتى القبعة .

شغلت بحل هذا اللغز ، حتى لم أعد قادراً على متابعة حكاية السيد عبد الجابر عن القضية . . فلما انتبهت بعد فترة من الانصراف عنه ، سمعته يقول : « وصرخ الرجل . . حاسب . . . حاسب الله لا يسيئك » .

ورأيتنى أمام مشكل أكثر صعوبة من مشكلة تبين صاحب الصورة المنطبعة من خلال الزجاج الإنجليزى ، فقد ظهر أن عبد الجابر وصل فى القصة إلى مرحلة هامة ، حتى لم يعد لائقاً منى أن أستفسر منه عن شىء فى هذه القصة ، لأن أى استفسار سيكشف تماماً له أننى كنت بعيداً عنه كل البعد وأن أذنى لم تلتقط من هذه القصة قليلاً أو كثيراً . . . ولم يكن ثمة مندوحة من التظاهر بالاهتمام الشديد بوقائع كأنها أثارتنى واستولت على انتباهى وعلى الرغم من أن عبد الجابر لم يكن فى حاجة إلى

مشجع ، فقد بدا عليه الاغتباط الشديد بهذا الإقبال لا لأنه كان يريد منى الاهتمام والعطف على القضية وصاحبها فحسب بل لأن هذا الإقبال كان دليلاً عظيماً على نجاحه فى القص والحكاية ، وشهادة بحسن أسلوبه وطلاقة لسانه .

وكرر عبد الجابر هذا المقطع الأخير من قصته :

ـ صرخ الرجل . . حاسب . . حاسب الله لا يسيئك .

وهنا اجترأت على أن أهز رأسى هزة الأسف ، صحيح ، أننى لم أكن أدرى إطلاقاً من هوالرجل الذى صرخ . . ولا أدرى لماذا صرخ ولا لمن قال حاسب . ولكن ألفاظ العبارة والطريقة التى أديت بها ، دلت دلالة قاطعة على أن الموقف الذى ذكرت فيه كان داعيا للأسف . لذلك لم تكن المجازفة ـ مجازفة هز الرأس فى أسف ، محفوفة بمخاطر كثيرة .

وقد كنت حسن الحظ إلى درجة لم أكن أتوقعها ، فإن هزة الرأس هذه ، هزت وجدان الأخ عبد الجابر ، فقد توقف عن الكلام وحدق فى وجهى بعينيه الصغيرتين النفاذتين الضاحكتين المتوقدتين وقال : ألم أقل لك إنك إنسان ؟

يا للورطة ؟

هزة رأس لم تكن مجرد حركة عادية بل كانت حدثا تاريخياً بدليل هذا التعليق الضخم ، لقد كشفت هزة رأسى ، أنى إنسان ، فأية بلاغة اتسمت بها هذه الحركة ، حتى أعلنت عن إنسانيتى . . لقد رأيت أن ألزم الحيطة ، فقد تورطنى هزة رأس أخرى ؛ أو لفظة صغيرة ، أو تلويحة يد ، فى معان أو مواقف لم أقصدها . .

صمت صمت الاهتمام والترقب ؛ واستأنف عبد الجابر حديثه : «وجرى أبوها (وأشار بيده إلى الباب) وجرى كل الرجال الذين كانوا معه . . ولكن كان كل شىء قد انتهى » .

ولما وصل الحديث إلى هذه الفقرة أحسست بأنى غرقت حتى أذنى فى معميات . . فقد قال صديقى عبد الجابر « أبوها » وأشار إلى الباب ، فلا بد أن يكون الشبح ، شبح امرأة ، ولابد أن الحديث تضمن إشارات وحقائق عن السيدة بدليل أن بطل القصة كلها ، وصاحب أكبر أدوارها يوصف بأنه « أبوها » فمن

تكون ، ومن هؤلاء الرجال الذين جروا وما هو الشيء الذى انتهى كله حينما جرى هؤلاء .

ألغاز فوق ألغاز ، ومعميات فوق معميات . . والله وحده يعلم كيف الخروج منها ؟

وتوقف عبد الجابر أفندى ، قليلاً وعيناه لا تبرحان الباب ، ثم اتجه إلى وقال : ماذا ترى ؟

وغصصت بريقى ، لأن الله لم يفتح على بكلمة ، فقد كانت الكلمة الواحدة فى هذا الموقف كافية لأن تطلع عبد الجابر ، على أنه كان محدثاً فاشلاً كل الفشل ، على الرغم من الجهد الذى بذل ، والعناء الذى كابد ، والقدرة البيانية التى أظهر .

وساد المكان صمت ، فلا هو يتكلم ، ولا أنا أنبس ببنت شفه ، ولا حتى الشبح الذى يقف خلف الباب يتحرك ، فترة صمت ، أعمق من الصمت الذى يغرق فيه الناس ، عندما يقفون حداداً على ميت جليل .

ولقد أدركت بغريزتى ، أن القصة فيها ميت ــ ولم يطل الموقف ، حتى أتأكد من صحة ما حدث ، فقد استأنف عبد الجابر القصة وكأنه قنبلة تطلق من عقالها ، باحثة عن الفضاء والحرية .

قال :

قلبوا الرجال ، الرجل المسكين . . فوجدوه قد فقد النطق وتمدد على الأرض كقطعة من الخشب . .

وأغمض عبد الجابر عينيه فترة غير قصيرة استطعت معها أن أخطف نظرة طويلة نوعا وجهتها إلى الباب . . ولكن قدر لهذه النظرة أن تطول إلى أكثر مما توقعت ، حتى لقد نسيت بسبب هذه النظرة الأستاذ عبد الجابر ، وتركته فى « نومته » يمثل البطل الثانى فى القصة ، الذى جرح أو قتل لست أدرى . . نعم ، طالت نظرتى ، لأنى تبينت أن باب الحجرة المطل على السلم ، الذى وقف الشبح خلفه ، كان مواربا ، ورأيت الباب يدفع ، ويطل من بين شقيه ، رأس فتاة تجاوزت السابعة عشرة بقليل . . فتاة من أهل القاهرة ، على رأسها ملاءة سوداء « لف » انزاحت قليلاً من

فوق رأسها ، فبدا فوق الرأس منديل وردى من هذا الصنف من المناديل المعروفة « بالقوية » ولكنى أكذب حينما أقول إن هذه الرأس ، اكتفت بدفع الباب ، والنظر منه إلينا ، أنا وعبد الجابر ، فقد فعلت شيئاً أكثر بكثير من هذا . . فقد علت هذه الرأس جبهة فسيحة عالية ، تكاد تقطر نورا وكان تحت الجهة حاجبان لم تمسسهما يد الصناعة فاستدارا كحد السيف ، فوق عينين واسعتين ، لا أعرف لونهما ، ولكنى أحسست بأثرهما ، فقد كانتا كعين طفل ضاحك ، ساذج ، برىء ، ومع ذلك فهو طفل شقى ، تطفر الرغبة فى المعاكسة من نظراته . . وفجأة رأيت ابتسامة ترحيب ، تقفز على شفتى ، ورأيت هذه الابتسامة على صفحة وجهى ، فاتجهت إلى الباب بكل جسمى ، وتهللت كل جارحة من جوارح نفسى . ولم يحتج عبد الجابر أفندى على انصرافى عنه ، لأنه هو أيضاً انصرف عنى وعن الحكاية التى كان يرويها لى باذلا فى سبيل روايتها جهداً جباراً .

« ادخلى يا حميدة » .

هكذا قال عبد الجابر ، ولكن لسبب لا أدريه أحسست أنه قال « حميدة » بطريقة ناطقة بأن حميدة هذه ليست مجرد فتاة ذات صلة بالقضية التى جاء إلى من أجلها وأنها تشغل حيزاً فى حياة جارى .

ودخلت حميدة ، وكأنما دخل معها تيار من السعادة والسرور والنشاط ، فقد دفعت الباب ، فتاة رشيقة ، سريعة ، بسيطة ، ساذجة من بنات البلد ، ميسورات الحال نوعاً ، وقالت : سل خير ، فقلت فى غير ارتباك : مساء الخير . .

ومع ذلك لم يكن المساء أقبل بعد ، فقد كانت الساعة فى نحو الخامسة وكان الجو خريفا وجلست بعد أن مدت يدها إلى : جلست منتصبة القامة دون أن يبدو عليها ارتباك أو خجل أو تهيب ونظر إليها عبد الجابر لحظة ثم التفت إلى وقال : بنته . .

وكان ممكنا أن أقول : بنت من ؟ دون أى ارتباك أو خوف ، فلقد ذهبت كل المشاعر السيئة من نفسى ولم يعد باقياً إلا مشاعر الاطمئنان والثقة والإقبال على الحياة .

والارتباك لا ينشأ إلا من الخوف من الناس ، أو من الظروف ، فإذا غلب

الخوف فى نفس الإنسان شعور أعظم منه اختفت مع الخوف كل المشاعر التى تنجم عنه ، والتى يلدها . . .

وقالت حميدة : رأيك إيه يا أستاذ . .

فقاطعها عبد الجابر : والدك ليس عليه ذنب ، والقتيل اتضح أنه مصاب بالصمم . عندنا شهود . والدك عمل ما عليه وأكثر ، لقد صرخ صرخات عالية . .

فقالت حميدة : وهى غير مرتاحة لمقاطعة عبد الجابر ، « على الله » . فاندفع عبد الجابر كالثور : على الله . . طبعاً . . ليس لنا سواه نحتمى به ، ونعتمد عليه . . إنه كبير ، كبير جداً . . جداً جداً ، وكأنما استولت على (عبد الجابر) نوبة عصبية فأصبح يردد بدون وعى ، وبكثرة ملفتة للنظر كلمة كبير وجدا ، مكونا منهما صيغا مختلفة فيقول مثلا : كبير . . كبير . . مادا الباء والياء ، ثم يقول تارة أخرى « كبير كبير كبير » بسرعة مع تقصير الياء وتخفيف الباء ثم يقول كبير مرة واحدة مع إطالة الياء ثم يضع بعد هذه الكلمة جدا مرة ، ومرتين وهكذا ، كأنما هو موسيقى ، يصنع من اللحن الواحد ، تفريعات عليه ، تتداخل وتتشابك ، وتتوزع وتلتقى وهو سعيد بهذه البراعة فى معالجة ذلك اللحن الممتاز .

ولم يعد عبد الجبار يهمنى لا هو فى ذاته ، ولا هو بألحانه ، فقد شغلت حميدة من الحجرة كل شبر فيها ، ببساطتها واطمئنانها وقلة اكتراثها بما سيحدث ، وكأنما هى وعبد الجابر ، شيئان متناقضان . فقد كان أسمر اللون داكنه ، وكانت بيضاء ناصعة مع طبقة خمرية خفيفة ، وكان مهتاجا ثرثاراً متدفقاً ، وكانت هى صامتة مقلة ، مطبقة الشفتين ــ وكانت عيناه صغيرتين كأنهما حبات من الترتر ، وكانت عيناها واسعتين جداً ، كأنما هما مصباحان يشعان نوراً . . **وكان قلقاً** لا يستقر ، وكانت هادئة لا يبدو عليها قلق ولا انفعال . .

ولكنهما كانا مرتبطين أشد الارتباط ، فقد جمعهما عندى أمر هذه القضية . وقد أصبح سهلا أن أستنتج أن والدها متهم بقضية قتل خطأ ، أو على الأقل إصابة خطأ . وأن الحادث وقع بسبب سقوط شجرة على رأس المجنى عليه ، جرحه أو

قتله ، وأن والد حميدة كان مشرفاً على العمال الذين يقطعون هذه الشجرة فى طريق من الطرقات العامة .

وشبع عبد الجابر من ترديد لحنه المكون من كلمتى كبير وجداً ، فكف عن الكلام قليلا . خصوصاً بعد أن نظرت إليه حميدة نظرة معناها « دع الأستاذ يتكلم » .

فنظر إلى وقد هدأت أنفاسه وقال : أظن أن موقفنا مطمئن . .

وكانت هذه هى تجربتى الأولى فى مباشرة عملى كمحام ، مع الزبائن لذلك حرت ماذا أقول ، هل أقول مثلا إننى لا أستطيع أن أبدى رأيا حتى أقرأ الأوراق فيظن موكلى فى الظنون ، ويحسبون أنى غير كفء ، وينصرفون إلى محام آخر يبعث فيهم الأمل . أم هل أقول إن الموقف مطمئن وأن المركز متين ، وأن القضية مضمونة ، فأسرى عنهم ، وأخفف قلقهم ، أم هل أقول كلاما عاما مما يذكره الناس عادة للتخلص من ردود معينة لا يحبون التورط فيها مثل : ربنا يسهل إن شاء الله ، كله خير . . . . ؟

وعندما وصلت إلى هذه المرحلة من الحديث مع عبد الجابر ، عاودنى خجلى ، فأصبحت لا أستطيع أن أنظر إلى « حميدة » ولا إلى « عبد الجابر » وخيل إلى فى هذه اللحظات ، أن عينى حميدة الكبيرتين الواسعتين ، وعينى عبد الجابر الصغيرتين المتلألئتين ، تحيطنى بسياج من نظرات متسائلة ، تكاد تميل إلى السخرية ، . . وخيل إلى أنهما يهمان بالخروج من الحجرة ، وعلى شفتى كل منهما ابتسامة اشفاق ، إذ كشفا عجزى وقلة خبرتى .

كنت أود أن أنظر إليهما ، وأن أطيل النظر ، لا سيما إلى حميدة بالذات لأؤكد لهما أن ماتوهماه لا أصل له . وأن أى محام آخر مهما كان حظه من القدم والقدرة فى موقفى لا يستطيع أن يفعل أكثر مما فعلت . وأنهما يظلماننى إذ يظنان فى كفاءتى الظنون ، وسمعت فى هذه اللحظة صوت عبد الجابر يقول : «على بركة الله يا أستاذ ، عم تهامى ، سيكون فى نيابة عابدين غداً ، وحضرتك تحضر معه ، وعلى الله القبول ، إنشاء الله إفراج ، ولو بكفالة . أحسن من الحبس والإهانة ، الله كبير . . . كبير

قوى » وخيل إلى أنه سيعود إلى لحنه القديم ولكنه اكتفى بهذا المقطع منه ، بعد استبدال كلمة قوى بكلمة جداً .

وفى هذه اللحظة دفع الباب ، ودخل شاب يلبس ما تواضع الناس على تسميته « بالعفريتة » وحيا الجالسين بقوله السلام عليكم ،ومد يده نحوى يداً مبسوطة ، لم يطوها على يدى وهو يصافحنى وقال وهو يجلس على حرف المقعد : كيف الصحة يا أستاذ وقبل أن أجيبه قال عبد الجابر « مدبولى . . ابن عم حميدة » ونظرت إلى حميدة عفوا ، فإذا وجهها قد اكتسى بحمرة قانية ثم ما لبث أن عاد إلى ما كان عليه ــ فى لحظة واحدة علت وجهها هذه الحمرة ثم زالت وكأنها لم تكن وعادت حميدة إلى سابق هدوئها وعدم اكتراثها . ولكنى أحسست أن عبد الجابر قد تولاه قلق بمجرد وصول مدبولى إلى الحجرة . هل كنت مصيباً فيما تصورته أم أن انفعالى الشديد هو الذى صور لى كل هذه التصورات .

وأراد عبد الجابر أن يقصر الجلسة ، وأن يقوم فور وصول مدبولى إلى الحجرة فقال : « استبينا » . . الأستاذ باكر إن شاء الله فى نيابة عابدين . . وعلى الله « التساهيل » .

قالت حميدة : وقد بسطت أطراف ملائتها اللف أمامها ثم عادت ولفت جزءاً منها حول جسمها بيدها اليمنى ، ثم جانبا آخر بيدها اليسرى ، فالتصقت الملاءة بجسمها الرشيق التصاقا بارعاً ، وعدلت من وضع الملاءة فوق رأسها ، ثم مدت يدها ، إلى ، وهى ــ تنظر بعيون تفيض ابتساما سعيداً ، لا تدرى علته ، ولا علة حرصها على ألا يبدو عليها وفى صوتها ، خصوصاً أى شىء ، من الحزن والأسى ، لأن أباها قبض عليه ، وهو رجل كبير ، ولا عهد له بأقسام البوليس ولا بالقضايا .

ووقف مدبولى ، وأراد أن يتكلم فقال عبارات مقتضبة ، عنيفة ، مؤ داها أن حبس عمه الشيخ تهامى ظلم وأن عسكرى الداورية حابى أهل العامل القتيل ، فساق الشيخ تهامى إلى نقطة الزمالك ، مع أنه لا شأن له بالطور ولا بالطحين ، وأن الغلطة غلطة القتيل ، ولكن ماذا نقول ، والذمم أصبحت خربة ، وأصبح الناس لا يخافون الله ، ولا ..

وبدا على عبد الجابر تبرم شديد بهذا الكلام ، وقال : مفهوم يا مدبولى مفهوم . . البركة فى الأستاذ اطمئن . .

ودفع عبد الجابر ، مدبولى أمامه ، فانطلق فى العفريتة ، يطرق أرض الحجرة بقبقاب خشبى فى رجليه ، وسارت من خلفه ، حميدة ، والملاءة السوداء ، تحيط بجسمها ، فتزيدها رشاقة ، وتزيد خطوط جسمها وضوحاً ، وجمالاً .

وخرجا معا ، وخرج معهما (عبد الجابر) للحظة ، ثم عاد فى الحال ، فوجه إلىّ الحديث : أرجو ألا تكون قد تضايقت من كلام (الواد) مدبولى بسلامته يود أن يترافع هنا . . محاباة وعسكرى الداورية ، وخلط لا أول له ولا آخر . . والعجيب أنه لم يكن فى مكان الحادث ، ولم يسمع شيئا عنه إلا منا ، مخلوقات الله عجيبة ، المهم هو أن حضرتك تبكر فى الحضور لأن وكيل نيابة عابدين (حامى) قليلا ؛ وقضايا « التلبس » لا تطول فى يده كثيراً ، ربع ساعة على الأكثر » .

ألقى عبد الجابر بهذه المعلومات ، وهو لا يشعر بأن كل عنصر منها بالنسبة لى شىء جديد ودنيا لا عهد لى بها ، فكون وكيل نيابة عابدين « حامى » مسألة عندى يحسب لها كل حساب ، وقضايا التلبس هذه ، معمى من معميات عالم المحاكم ، فالتلبس هو حسب التعريف القانونى الذى تعلمناه فى الكلية ، هو ضبط المتهم أثناء ارتكاب الجريمة ، أو بعدها مباشرة ، والجماهير تتبعه بالصياح ، فهل هناك وكلاء نيابة لهذا النوع من القضايا بالذات ، ثم لماذا يفرغ منها وكيل النيابة المختص سريعا ، وكيف يخلص منها ؟ وما هو المقصود بالفراغ أو الخلاص منها؟ ثم ما هو دورى أنا فى كل هذا ؟

وعجبت فى هذه اللحظة من جهلى بكل هذه الأمور ، مع أنى درست فى كلية الحقوق أربع سنوات ، وأصبحت أستاذاً ، ونشر اسمى فى الصحف مرتين فى أقل من شهر ، بينما يفيض عبد الجابر بمعلوماته القانونية ، إفاضة تدل على علم غزير ، وثقة كبيرة ، وتدل فوق ذلك كله على أن دنيا المحاكم ، والتحقيقات ، ووكلاء النيابة والحوادث ، والجرائم ، هى دنيا مألوفة لا يهابها ، مع أنه مهندس زراعى .

سألته ، وأنا أريد أن أبحث عن وسيلة من وسائل الطمأنينة ، هل ستكون غداً ، وقبل أن أتم السؤال ، بادر فى الجواب : « طبعاً . . تعنى فى نيابة عابدين ؟ بلا شك ، كيف أدع تهامى وحده ، وهو رجل غشيم غير مجرب ، ومسكين والله

مسكين ، هذه أول مرة سيدخل فيها المحكمة . . وممتاز بك وكيل النيابة شديد ؟ فالبركة فيك » .

وهكذا طارت الطمأنينة التى كان مبعثها علمى بأنه سيكون معى غداً فى النيابة ؛ بفضل ما قاله عن شدة ممتاز بك . .

ولكن قبل أن أجد الوقت الذى أصور فيه لنفسى حالتى غداً ، وأنا واقف أمام ممتاز بك أحاول أن أنقذ عم تهامى ، وأنا فى حاجة إلى من ينقذنى رأيت يد (عبد الجابر) تمتد إلى بحركة سريعة غريبة ، اقشعر لها بدنى ، وكأنى قد مسست شيئاً قذراً ، أو أتيت عملا كريهاً ، ففى أقل من لمح البصر ، رأيت يد عبد الجابر ، فى يدى ، تدس فيها شيئا ، عرفت بعد لحظات ، بغريزتى أيضاً لا بعقلى . أنه ورقة من أوراق البنكنوت . . ؟

ورقة بنكنوت يضعها فى يدى رجل لا أعرفه . ولا صلة لى به أحسست كأن الورقة لدغتنى أو كأنها جذوة من نار ، وضعت فجأة فى يدى ، فحاولت أن أقذفها بعيداً ، وقد امتلأت رأسى بالدم ، وغطت عينى غشاوة ، ولم أعد أرى شيئاً ، ولم يبق سوى إحساس واحد ، هو الإحساس بالورقة تكوم وتكوم ، وتدس فى يدى ، وأنا أدفعها دفعاً ، وشخص لا أذكر اسمه ولا وجهه ، يصمم على أن يبقى الورقة فى يدى ، لماذا ؟ لم أفهم . ومن يكون هذا الشخص ، لقد نسيت عبد الجابر ، ونسيت حميدة ، ومدبولى والقضية ، بل نسيت أننى محام ، وأن وقائع أول قضية رويت لى منذ قليل . ولم يعد فى حياتى سوى هذه الورقة التى كنت أعجب ، لأنها أصبحت جزءاً من يدى لا يريد أن ينفصل عنها ، ولأنها لا تريد أن تستقر ، فهى تكوم وتكوم حتى كادت تكون ورقة صغيرة ، تروح وتغدو بين يدى ويد أخرى .

وافقت من الغيبوبة التى اشتملتنى على صوت فيه شدة ، يأمرنى : ــ خذ . . هذه أتعاب ليست قدر المقام . . ليست أتعابا . . نعم تهامى رجل فقير ويجرى على أولاد كثيرين وسيدفع إن شاء الله شيئاً بعد قليل . .

لقد زال عنى الخجل ، كما زال عنى الخوف ، وشعرت فجأة بثقة نفس هائلة فاخذت الورقة من يدى اليسرى بيدى اليمنى وألقيتها فى الأرض إلقاء . ونظرت إلى

عبد الجابر نظرة حادة ظهر لى أنها أخافته ، فانحنى فى خزى إلى الأرض ، والتقط الورقة ـ فيما ينحنى على الأرض ـ رأيت ظهره ، ولا أدرى ما السبب الذى جعلنى أطيل النظر إلى هذا الظهر ، ولا السبب فى شعورى ، بأن ظهره ملأ قلبى بأسى عجيب ، وبشعور بالشفقة عليه ، وعلى (تهامى) الذى لم أر وجهه ، وعلى حميدة ومدبولى والجميع .

ولو استطعت أن أبكى لبكيت بصوت عال ، ولكنى لم أفعل وخرج عبد الجابر يجر قدميه ، كأنما ارتكب خطأ ، وخرج من الباب بنصف جسمه ، كأنه يود أن يرى وجهى ، وهو ينصرف ليعرف هل لا أزال غاضباً .

الفصل الثالث

كانت الليلة السابقة على أول عمل قضائى أباشره ليلة نابغية .

أكذب على نفسى ، وعلى الناس ، لو قلت إنى نمت فيها ، فعيناى لم تعرف الغمض المريح . وأكذب لو قلت إنى قضيتها ساهراً . فأنا لم أفارق فراشى الذى ذهبت إليه أتقلب فيه بين السهد والغفوة ، ومنذ تركنى (عبد الجابر) وأنا أبدو طبيعياً فلم يلحظ (عبده) شيئاً على . تناولت عشائى ، هادئا ، وطالعت كعـادتى بعد العشاء . . ولكن هذه المظاهر كلها كانت خداعا يروى للناس شيئاً غير ما يجرى داخل نفسى فقد كنت غائباً عن العالم الذى أتحرك فيه ، وأتصل به .

كانت الحوادث التى جرت فى حجرة الاستقبال التى يفتح بابها على السلم والتى كان بها كما ذكرت مكتبٌ ، وكنبة ، وكرسيان من طراز كـراسى « الشيخ أحمـد » وكرسيان من الخيزران . والتى يغطى أرضها كليم ذو خطوط عريضة حمراء وصفراء وبيضاء . . كانت الحوادث التى شهدتها هذه الحجرة أشبه شىء بزلزال هزنى من الأعماق . . وليت الأمر اقتصر على هذه الهزة التى بلغت الأعماق ، فقد أحسست بأنى اقتلعت من جذورى . فلم أعد هذا المخلوق الذى يعيش فى قوقعة معروفـة الأبعاد ، محدودة الأعماق ، يمكن التنبؤ سلفاً بكل ما يمكن أن يقع فيها . . لقد أصبحت عضواً فى هذا المجتمع ، الفسيح ، المترامى الذى يضم آلافا وملايين من الناس الذين لا أعرفهم ، ولا أعرف طبائعهم ، ولا دوافعهم . . لم أعد أنتسب إلى أمى وأبى وإخوتى وجيرانى . . كل هذا قد انقضى فزورقى الصغير دفع به إلى أمواج بحر مجهول . .

وراجعت كل كلام قلته وكل ماجرى فى الحجرة ، وأنا لا أكاد أصدق ، أن كل هذا قد حدث . . هل صحيح أن رجلا لا أعرفه قد قتل ، وأن رجلا آخر لا أعرفه أيضاً ، هو الذى قتله ، فى شارع من شوارع الزمالك ، وأن هذا القتيل انتهى أمره إلى أنا ، حتى توهم أقارب أحد الرجلين ، أن نجاته فى يدى . . يدى أنا . .

وبسطت يدى ، وتأملتها طويلا ، فإذا هى حلاء . وهنا ذكرت الجنيه الذى دسه عبد الجابر فى يدى . واستولى على شعور بالعار ، كان أقوى المشاعر التى كابدتها ، وأنا أستعيد وقائع الأمس ، وحاولت أن أناقش نفسى فى هذا القرار الذى أصدرته ، حينما قذفت (بالجنيه) فى الأرض ، ولكن نفسى رفضت فى إصرار وحزم ، حتى مجرد فتح الموضوع واعتبرت الكلام فيه من جديد ، مهانة لا تستطيع أن تخوض أوحالها مرة أخرى . ولكن عقلى كان غير مقتنع بهذا القرار . كان يعتبره غير متفق مع أحلامى فى النجاح . ماهو النجاح فى المحاماه ، إلا أن يكون للمحامى زبائن كثيرون ، وأن يترافع فى قضايا هامة وأن يحقق نتائج باهرة ؟ إن ترجمة هذا كله ، هو نقود يدفعها الناس لى . فما مبرر احتجاجى الشديد إذن على أم إنساناً ما ، يدفع لى نقودا . .

وجلست أتناول طعام الإفطار فى بطء شديد ، وفى تراخ وتثاقل ، على غير ما جرت به عادتى ، فأنا أتناول طعامى صباحا وظهرا ومساء ، فى سرعة خاطفة ، وكثيرا ما أتناوله وأنا واقف ، ويحدث أحياناً إذا اشتد انفعالى لفكرة أو لسماع نبأ أو لرؤية شىء أن أدع الأكل ، وأن أقيس الغرفة ، غدوا ، ورواحا . وبين الذهاب والجيئة أخطف لقمة ، أدسها فى فمى ، دون أن أحس بأنى آكل ، ودون أن أدرك طعم الطعام أو لذته ، لكن فى ذلك الصباح كنت أبذل جهدا شاقا لأقتطع لقمة صغيرة وأرفعها إلى فمى . . .

وبعد أن أكلت قمت أرتدى ثيابى ، وكأنى لا أود أن أترك دارى . كيف أصف شعورى فى ذلك الصباح ، وبأى شىء أقارنه . . لا أستطيع أن أقارنه بشعورى مثلا وأنا ذاهب إلى الامتحان . فلم يكن الامتحان ليخيفنى عادة ، وشعورى وأنا ذاهب إليه فى الأغلب من الأحوال ، كان القلق ، لا الخوف . وكانت حالتى وأنا ذاهب إلى الامتحان أقرب إلى النشاط العصبى من الفتور والتراخى ، وهذه حالتى ، كلما

توقعت مجهولاً سواء أكان ذلك المجهول خيراً أم شراً . فكيف أصف ذلك التراخى الذى أحسست به فى ذلك الصباح .

أيكون مرد ذلك الشعور هو حزن تسلل إلى نفسى حينما علمت أنه لا مناص لى من أن أعيش مما سيقدمه لى الناس من نقودهم ، أما يكون سبب حزنى هو ما لاحظته من فقر حميدة ، وفقر ابن عمها مدبولى ، ومن إلقلق الذى كان يكابده (عبد الجابر أفندى) طوال سرده لوقائع القصة ، لأنه كان يعلم أن ختام ذلك كله أنه سيدس فى يدى ، وكأنما يرتكب منكرا ، جنيها مطويا ، زيادة فى التعبير عن رغبته فى أن تتم هذه العملية ، فى تخفٍ وتستر ، . . قد يكون ذلك هو السبب الحقيقى ، لتلك الحالة التى انتابتنى وأن عينى لم تفارقا ملابس حميدة ، ولا ملاءتها ، وان فارقتها فقد بقى ذهنى مشغولا بحالة تلك الملابس وبما ظهر عليها من الرغبة فى انتزاع أسباب الأناقة ومظاهر الغنى من حقائق الفقر الظاهرة . . . جلباب من أرخص أنواع القماش المزين بأوراق الشجر (المشجر) فى أعلاه فتحة تشبه المثلث ، تكشف عن أعلى قميص ، أو عن حلية من الدانتلا الغليظة ، والقميص والدانتلا كلاهما قذر ، أو على الأقل غير نظيف ، فالنظافة تقتضى هؤلاء الفقراء ما لا يطيقونه ، والملاءة اللف نصل لونها فلم تعد سوداء كأصلها ، ولا بيضاء إنما هى شىء بين بين وقد يكون المنديل وحده ، هو الذى تميز بشىء من الجدة ، ولكن جدته زادت من تأكيد مظهر القدم فى أجزاء الثياب الأخرى ، فزاد إحساسى برغبة حميدة فى أن تتلمس مظهرا من مظاهر الغنى وزاد حزنى بالتالى ، لما انحنى عبد الجابر ليأخذ الجنيه ، ووقع نظرى على ظهره أحسست بشعور قوى من الإشفاق عليه وعلى كل الذين كانوا معه ولكننى لم أتبين سببا وقتذاك ، لهذا الشعور ، فلما انقضى الليل ، وأخذت أتأمل كل ما حدث فى اليوم السابق ، بدا لى بوضوح أن قدم بدلة عبد الجابر ظهر لى تماما ، وهو ينحنى . . خيوط البذله ، قل تماسكها ، على مر الزمن وزال اللون من مواضع مختلفة ، ومع ذلك فعبد الجابر ، يحاول بدوره ، أن يظهر أنيقا متحديا هذا الفقر الطاغى ، ففى جيب سترته الأعلى ، يضع منديلا أبيض ، يكاد يذكرك بالخرق التى يستعملها الطهاة فى المطابخ للإمساك بالمواعين الساخنة ، ولكن المنديل يطل بجرأة من الجيب ، وكأنه غير مكترث بحالة القميص ، و (الياقة) ، وعلى وجه خاص بحالة ربطة الرقبة . إن الرغبة فى الاستمتاع

بالحياة ، والفرح بها ، وتلمس الأسباب لتجميلها ، رغبة مجيدة ، وتستحق منا التحية والتكريم . ولكنها كانت فى تلك اللحظة ، باعثاً على تحريك شعور قوى فى نفسى بالشفقة . . .

وقد كان ظهور (مدبولى) بالعفريته الزرقاء ، وقبقابه الخشبى عاملا من عوامل اكتمال هذه الصورة التى يتجاور فيها الفقر مع الرغبة فى ادعاء الغنى . فقد ارتسم على وجه عبد الجابر صورة من التقزز لظهور (مدبولى) على المسرح ، فإن عبد الجابر فى رأى نفسه من عالم آخر لمجرد كونه موظفا فى الحكومة أولا ، ومن لابسى الملابس الأوروبية ثانيا ، ومن المثقفين ثالثا ، ولم يثر (تقزز) عبد الجابر فى نفسى ، شعور الاستياء بل إنه أكد فقط شعور الإشفاق . . فقد كان تقززاً ساذجا ، كأنه تقزز طفل ، يود أن يظهر أكبر من سنه ، وأعلم مما هو فى الواقع . .

ولكن لم يكن هناك بُدّ من أن أرتدى ثيابى ، فارتديتها ، وأنا لا أدرى كيف سأخرج من دارى . . ولكن ما أعجب النفس الإنسانية وما أسرع تحولاتها ، فإنى لم أكد أفرغ من ارتداء ملابسى ، ولم أكد أنتهى من إلقاء نظرة على تلك الملابس ، وعلى شخصى داخلها فى مرآة (الدولاب) الذى يرجع تاريخ ميلاده إلى أكثر من ثلاثين سنة مضت قبل ذلك الصباح ، حتى أحسست بعزم مفاجىء ، يملأ نفسى ، وبرغبة طارئة فى النضال والمقاومة . وأردت أن ألقى نظرة ثانية على ثيابى ، وعلى ربطة الرقبة بصفة خاصة ، إلا أن أصابعى تسمرت فى مكانها وهى فى طريقها إلى ربط رقبتى . فقد أدركت أن ثيابى بدورها ليست جديدة ، ولا غالية ، وأننى أشبه ما أكون بعبد الجابر وحميدة وأنا أدعى الغنى والأناقة ، على الرغم من الفقر . وقد رفض عقلى أنّ يسوى بينى ، وبين هؤلاء الفقراء . . وعدلت عن النظر إلى المرآة ، ولكنى لم أنجح حتى النهاية فى مقاومة الرغبة فى أن أرى شكلى فى المرآة قبل أن أذهب للمرة الأولى إلى المحاكم كمحام ، إلا بمشقة عظيمة واتجهت إلى الباب . . خرجت إلى الشارع حيث محطة الترام وكلما اقتربت منها ازددت عزما ، فلما وقفت لأنتظر القطار الذى سيقلنى إلى محكمة عابدين . أحسست بالرغبة فى أن أروح وأغدو على عادتى ، ولكن انتظارى لم يطل ، فالقطار وصل بعد ثوان ، وصعدت إلى مكان فيه ، وجلست وإحساسى بأنى مقدم على معركة ، وبأنى اليوم صاحب رسالة يزداد قوة .

ووصل الترام الى مبنى قديم ، فى شارع الساحة ، كنت أعلم وأنا أمر عليه بالترام أنه مبنى محكمة ، ولكن لم يكن قد ارتسمت له فى ذهنى صورة واضحة . فلما نزلت من الترام متجها نحوه طرأ على تغير جديد مفاجىء . فقد زايلنى هذا العزم الذى آنسنى طوال الطريق . وأحسست بوحشة شديدة ، وبخوف من الناس ومن الحياة . وبرغبة فى العودة إلى دارى . ولست أدرى لماذا ذكرت فى هذه اللحظة بالذات ، الفراش فى ليل بارد ، وأنا أسحب على جسمى ، لحافا غليظا تعلوه بطانية صوفية ، وعلى رأسى طاقية من الصوف أيضا . . . أيكون هذا المنظر هو الصورة النموذجية لحالة الطمأنينة والدعة والراحة والبعد عن التعب ، وهو ما كنت أتوق إليه ، وأتمناه فى هذه اللحظة .

ولما اقتربت إلى المحكمة ، أردت أن أتأكد من أن معلوماتى صحيحة وأنها محكمة عابدين حقاً ، فتقدمت إلى رجل مسن ، يلبس مناظر غليظة ، ويمسك فى يده عصاه ، ويرتدى ثياباً سوداء ، قديمة ، ويعلو رأسه طربوش رسم العرق على حافته السفلى شريطا عريضا ، وسألته « أهذه محكمة عابدين ياعم » ، ونظر إلى الرجل نظرة طويلة خيل إلى أنها نظرة تأنيب واستنكار . وقد ذكرتنى هذه النظرة ، بمدرس خط ، كان ينظر الى بنفس الطريقة ، بعد أن يرى رداءة خطى فى كراسة الخط أو (المشق) الذى كنا نقلد فيه خطوطا جميلة أنيقة مطبوعة بأعلى كل صفحة من صفحاته ، ولم يكن مدرس الخط ، لينسى فى مرة من المرات أن يضربنى بالعصا مرة أو مرتين على كتفى كأن التصحيح لا يكمل إلا بضربى دون أن يسأل نفسه عن أثر العصى الكثيرة التى منحنى إياها فى الأسابيع السابقة وعن مدى التقدم الذى حققته تلك العصى .

أطال الرجل نظره إلى ، ثم قال . محكمة . . ؟

قلت نعم . . محكمة عابدين . .

واقترب منى ، كأنه ينظر الى سطر فى جريدة لم يستطع قراءته وقال : محكمة عابدين !

قلت وقد اخترقت جسمى من الرأس إلى القدم « رعشة » : نعم ، محكمة عابدين . .

فهز رأسه آسفا - لست أدرى على أى شىء - وقال : يابنى هذه مصلحة الإنتاج . . هذه مخازن مصلحة الانتاج . . اسأل جيدا .

وأردت أن أشكره وأن انصرف ، ولكن نظرته الطويلة ، الفاحصة المتأملة لم تدعنى ، فقد سمرتنى فى مكانى : كأنى ذبابة ، وكأن هذا الرجل عنكبوت . والحق أن شواربه الطويلة الكثيفة ، أوجدت بينه وبين العنكبوت شبها . . وبعد فترة صمت ، قلت له : سأسأل فقال الرجل ، وكأنه أخذ على عاتقه ، أن يعظنى عظة طويلة حتى لا يتكرر منى هذا الخطأ فقال : هل تعرف مصلحة الإنتاج ؟؟

فأجبت ، والخوف لا يزال يركبنى - نعم . . .

فقال : ماذا تفعل مصلحة الإنتاج ماهى وظيفتها ؟؟

ولو تركنى لأجيب لما عرفت كيف أجيب ، ولكنه اتخذ من هذا السؤال ذريعة ليفيض بمعلوماته عن هذه المصلحة على وجه جعلنى أظن أنه كان من موظفيها وأن تحريك ذكرياته فيها ، مما يسعده .

فقال : الحكومة ياابنى . .

وكادت تدهمنا عربة حنطور ، فقد وقفنا معا فى عرض الطريق ، فاندفعنا سويا إلى إفريز ووقفنا على ناصية شارعى الساحة وابراهيم باشا واستأنف الرجل حديثه فقال : السبرتو ، والكبريت وبعض المصنوعات التى تصنع فى بلادنا ، تأخذ عنها الحكومة ضريبة داخلية اسمها ضريبة الإنتاج وفى هذا المبنى يودع الكحول . وبينما يشرح لى هذا الأفندى هذه المعلومات ، ابتدأ اقتناعى بأن المبنى الذى نقف إلى جواره ، هو مبنى المحكمة يثبت ويتأكد . فقد كان الناس الذين يدخلون من باب هذا المبنى أفواجا أفواجا ، وطابعهم ناطق بأنهم متقاضون ، أو شهود ، أو محامون ، أو كتبة محامين ، أو رجال بوليس . . . وبدأت أشغل بمتابعتهم ، منصرفا عن شرحه ، وانتهزت فرصة اقتراب شخص منا ، خيل إلىّ أنه كاتب عمومى ، فسألته أهذه محكمة عابدين ، فقال على الفور أى نعم . . عابدين الأهلية . . والشرعية على ناصية شارع حسن الأكبر . . .

وأصاخ الرجل بسمعه ، كأن هذا الكلام قد قيل بطريقة أجنبية . وهز

رأسه ، - مرة أخرى بطريقة تعبر عن الأسف على شىء مجهول لى - وقال : « جائز . . كل شىء جائز » .

وانفلت من أسره ، وعدوت إلى باب المحكمة . . وقبل أن أتجاوز عتبتها سمعت صوتاً عنيفاً ، أشبه شىء بالصراخ ، فالتفت خلفى ، فإذا سيارة لورى ضخمة تقف أمام باب المحكمة ، فتحدث « فراملها » هذا الصوت . وما كادت تقف ، حتى خرج من أركان ونواحى الشوارع المجاورة عشرات من الناس أكثرهم من النساء ، يعدون عدواً نحو تلك العربة ، وما تكاد هذه الجموع ، تصل إليها ، حتى يثب من العربة نفسها عساكر يمسكون فى أيديهم بعصى طويلة من الخيزران ، يلوحون بها فى الهواء ، تخويفاً لهذه الجموع المتكأكئة ثم يضربون بها وجه الأرض ، حينما لا ينفع هذا التخويف ، ثم يعملونها فى أجسام النساء والرجال والأطفال . . فتتسع الدائرة قليلا ، ثم لا تلبث حتى تضيق مرة أخرى حول العربة . .

وقد استهوانى هذا المنظر فوقفت أتأمل فيه ، فأدركت أن ركاب هذه العربة متهمون ، حملتهم الى المحكمة ، وأن هؤلاء الذين تجمعوا حولها ، هم أقارب المتهمين من نساء ورجال وأطفال ، لا يكادون يلمحون ذويهم ، حتى يهرعوا إليهم ، فيقع منظر يفيض بالانفعالات الإنسانية البسيطة الساذجة ، لو وقف أحدنا ليتأمله ، لما أحب أن ينصرف عنه . إلا أن يكون إنساناً يعنى بالمظاهر الخارجية لحياة البشر ، دون دخائلها وخباياها .

وركاب هذه العربة ، دائماً ، من صغار الناس . وصغار من أقلهم خوفاً من المجتمع ، فهم لا يخفون عواطفهم ، فما فى نفوسهم على ألسنتهم أو على وجوههم . وما عندهم يشبه ماعند غيرهم من الأغنياء والمثقفين الذين يجدون سعادة كبيرة فى إسدال الستائر على مشاعرهم وإلباس الأقنعة لعواطفهم . فإن أردت أن تعرف كيف يحس ويفكر السادة المتألقون ، والخاصة المثقفون ، والذوات المترفون ، فانظر إلى ركاب عربة السجن ، وانظر إلى الذين ينتظرونها من النساء والرجال والصبية واسمع ما يقولون . ثم اعلم أن هذا جوهر ما يقوله ويفعله سادة المجتمع فى مثل هذه الظروف ، وإن ظهر فى ثوب آخر ، وفى صورة مغايرة .

رأيت الرجال ينزلون من العربة ، دفعات . ثلاثة معاً ، أو أربعة معاً . ثم يتلفتون حولهم ، كل منهم يبحث فى الذين يركضون نحوه عن زوجة ، أو ابنة ، أو أم . . يبحث عندها عن لقمة يأكلها ، بعد ساعات الحبس فى القسم أو نقود تدسها فى يده تيسر له الصعب وتفتح له المغلق فى طريقه من القسم الى النيابة ومن النيابة الى المحكمة ؛ أو عن خبر يتصل ببيته ، أو يتصل بعمله ، أو يتصل بقضيته ومنهم من يود أن يلقى نظرة على ابن أو ابنة ، سمع أنه أو أنها مريضة ، . . ويجرى هذا كله بسرعة خاطفة ، تجعل التعبير برقياً والإحساس ناريا ، وكل همسة ذات سعر غال ، وذات أثر كبير . . .

فعصا البوليس لا تدع النساء يقتربن ، فإن سمحن بذلك ، فإنها لا تطيل الفرص المتاحة لهؤلاء المحابيس . فلابد لرجل أن يكلم زوجته أو ابنه أو صاحبه أو جاره ، فى عجلة عاجلة ، ولهفة خاطفة . وعسكرى البوليس يدفعه بين الحين والحين ، ليستمر فى سيره إلى المحكمة ، ويلوح بعصاه ليخيف المتحدث إليه . وتستطيع أن تميز بين المجرب الذى عرف هذا الموقف من قبل ، وبين من لا عهد له به . فالمجربون ، يعرفون كيف يتحاشون العصى المرفوعة ، وأن يتكلموا من فوقها ، أو من تحتها ، وأن يتلقفوا ما يقذف إليهم من الأرغفة المملوءة باللحم المشوى ، أو الورق الصغير الذى يحتوى نقوداً صغيرة ورقية أو معدنية . وأن يسمعوا أصواتهم إلى نسائهم اللواتى انتظرنهم من الصباح المبكر .

أما غير المجربين الذين لم يركبوا من قبل هذه العربة ، ولم يحاولوا أن يتحدثوا إلى ذويهم ، وقريباتهم فى المرحلة القصيرة التى تفصل ما بين النزول منها والوصول إلى باب النيابة أو باب السجن المؤقت المعد فى كل محكمة ، فيتعثرون فى خطاهم ، وهم ينزلون ، ويصبحون فريسة لا حول لها ، لعصى البوليس ولكماته ، ولشتائمه وتهديداته ، وتعجب كيف يطيب للأقوياء أو على أقل للمسلحين بالقوة ، أن ينهالوا على الضعيف الذى لا يقاومهم بكل عسفهم ، وأن يتحاشوا الاحتكاك بالقوى الذى قد يتحرش بهم ، أو يتمرد عليهم . قد أفهم ابتعادهم عن القوى لأنهم لا يقدرون على منازلته ، ولكن لا أفهم كيف يبطشون بالضعيف وهو ساكت صاغر ، ينصاع لأمرهم وينساق لرأيهم .

وفى هذا اليوم رأيت « أفنديا » صغيراً يبدو عليه أنه يقف موقف الاتهام ، ويحشر فى زمرة المتهمين ، لأول مرة ؛ فقد كان ذاهلا عن الناس تبدو عليه الدهشة لكل ما يرى ، ولكل ما يسمع . فهو ينظر فاغر الفاه لزملائه فى العربة ، وهم ينزلون منها اثنين اثنين ، ثلاثة ثلاثة ، متدافعين ، ليتحاشوا عصى العساكر ، فإذا لامست أقدامهم الأرض ، اندفعوا يصيحون بأصوات عالية ، ملقين أوامر ، أو موجهين أسئلة ، أو موزعين شتائم ، على من يعتقدون أنهم السبب فى اتهامهم ، أو من شهد ضدهم ، أو على جيرانهم الذين يعتقدون أنهم فرحون شماتة لما أصابهم .

وقد رأيت على ناصية الشارع المجاور للمحكمة شابة صغيرة ، تحمل فى يدها حقيبة قديمة صفراء ، تنظر إلى هذا الأفندى ، عن بعد ، وقد أحاط بها ارتباك باد ، مرده خجل - شديد ، وجهل تام بما يجب أن تفعل ، وما يجب أن تدع ، واستنتجت أنها جاءت ، وقد أحضرت فى الحقيبة ملابس داخلية لزوجها ، وقد يكون داخل الحقيبة طعام أيضاً . ولكنها حينها رأت هذا السيل البشرى الذى تدفق من السيارة ، واندفع يهدر هدير الأمواج المتدافعة من فتحة قنطرة أو سد من السدود ، تداخلت فى نفسها ، حتى كأنها تود أن تختفى . فلقد أحست أنه لا قبل لها بمواجهة هذا السيل ، ولا قدرة لها على السباحة فوق أمواجه ، ونظرت إلى وجه زوجها - أو الى الأفندى الذى ظننت أنا أنه زوجها - فرأيته ضئيلا ، تتقاذفه الأيدى فتارة هو على يمين زملائه « المحابيس » النازلين من العربة وتارة على يسارهم ، وثالثة أمامهم ، ورابعة وسطهم ، دون أن يكون له إرادة فى التقدم والتأخر ، ولا فى الانحراف يميناً أو يساراً ، فإذا صاحوا نظر إليهم وكأنه طفل لا يدرى ماذا يقولون . وإذا انهالت عليهم العصى فدفعوا عن أنفسهم العصى ، وهموا باقتحام العساكر ، بحث له عن ركن يحميه ، أو ملجأ يلوز به ، فلا يجد من ذلك شيءاً ، فيضطرب اضطراب العصفور ، بلله القطر . . وكان تحت أبط هذا الأفندى (فوطة) يطوى فيها شيئاً لم أتبينه ، وكان تأبطه له وضغطه عليها ، ونقلها من يد إلى يد وسيلته الوحيدة ، للتنفيس عن العصبية الجامحة التى تود أن تنطلق ، فلاتجد سبيلا واحداً للتفريج عنها ، فلا هو قادر على أن يصرخ صراخ هؤلاء الرجال الأشداء ، ولا هو يستطيع أن يتجه إلى زوجته ، ليكلمها ، ويتلقى منها نقودا أو طعاما ، ولا هى قادرة على أن تقترب منه أو تفعل فعل زميلاتها من بنات البلد ، اللواتى عدون ، وقد

انكشفت رءوسهن وظهورهن ، بسقوط الملاءات اللف السوداء ، وهبوطها إلى وسط كل منهن .

وأخذ الموقف يتعقد ، حينما أصاب العسكرى ، بطرف عصاه ، وجه شابة من هاتيك الشابات ، ذوات الملاءة « اللف » وكانت تبدو متأنقة على الطريقة التى تطيب لبنات « البلد » ففمها ينفرج عن ابتسامة تكشف بدورها عن صف من الأسنان الذهبية . ومنديلها الملون يميل على أعلى جبينها وقد حلته « القُوية » وفى أصابع يديها عدد من الخواتم الذهبية ! ! فى الغالب أنها من المعدن المطلى بقشرة من الذهب وهى خواتم ذات فصوص تحاكى الزبرجد والياقوت . وعلى صدرها المكشوف عقد عريض مكون من أنصاف دوائر يعلو بعضها بعضا . ويظهر من تحت الملاءة ذيل ثوبها الحريرى المزركش ، ثم قدمان فى شبشب من الجلد اللامع ، يكشف عن كعب صبغته الحناء التى بدت ألوانها أيضا فى أصابع يدها . وهى تسير تنثنى تثنيا فيه كبرياء ، واعتزاز ومباهاة ، والابتسامة لا تفارق شفتيها . ومع تثنيها لا تحس فى تثنيها بميوعة ، فهى إذ تخطر ، تذكرك بالحصان الأصيل ، الذى يرقص على أصوات الموسيقى ، رقصاً يبعث فى نفسك الشعور بقوة الحصان ورشاقته لاضعفه ولا رخاوته . ولكن لمسة العصا التى فرطت من العسكرى ، أثبتت أنها مست بركانا ، لا إنسانا ، فإن هذه الشابة الجميلة ، الرشيقة ، المتأنقة ، المزدانة بالأقراط والعقود والخواتيم ، والتى تفوح منها رائحة فاقعة ، والتى تحلى الحناء يديها وقدميها انفجرت ، فخرجت منها حمم كحمم البراكين ، فقد أصلت العسكرى ، بل والعساكر جميعا بشتائم رصت رصا وانتقيت انتقاء بطريقة لا تدل فقط على سرعة لسانها وقوة بيانها ، بل على ثقة بالنفس ورباطة الجأش ، وذكاء غريب ، فهى وهى تطلق قذائفها تقترب اقترابا شديدا من العساكر شاهرى العصىّ الغليظة وكأنها وحدها جيش يتقدم ويزحف ، ويحيط العدو ، بقلبه وأجنحته والعجيب أن الجيش - جيش عساكر البوليس - كان يتراجع أمامها ، فالعصى انخفضت ، وحركة الضرب ، والدفع هبطت ، وعيون الجنود شدت إليها وأخذت تتابع صياحها الملحن ، وشتائمها المسجوعة المنتقاة . وهم بين مأخوذ مشدوه ، وبين معجب مستحسن فملابسهم التى كانت تنسبهم الى السلطة كانت حاجزاً رقيقاً جدا ، يفصل بينهم وبين الريف الذى جاءوا منه ، يحملون معهم الإعجاب الشديد

بالقاهرة ، وبكل من فيها ، والخوف من أهلها ، ولا سيما نسائها - ولما تجاوزت الشابة حدودها ، ولم تنفع حيلة فى إسكاتها ، فالبوليس غير قادر على ضربها لأنها « حرمة » وغير قادر على مجاراتها فى شتائمها ، لأنها أكثر تمرسا بها ، ظهر على خشبة المسرح ضابط شاب يحمل كتفه « دبورتين » فهو ملازم أول . كان طربوشه يميل الى يمين جبهته ، وكانت فى يده عصاة صغيرة ، أما شاربه الصغير الرفيع فقد وقف طرفاه ، بفضل دهان ذى رائحة جميلة وكان وجهه المستدير جميلا ، يدل على طمأنينة للحياة ، وفرح بالسلطة التى يمنحها المنصب ، وفراغ نفسى ، وعقلى كبيرين . توسط الضابط الحلقة التى استدارت حول الشابة وعساكر البوليس ، والمتهمين وسأل فى تعال واستنكار : « فيه إيه ؟ ».

وسكت الباشجاويش ، رئيس العساكر ، وكان رجلا ضخما ، ذا وجه تملؤه تقاطيع كبيرة ، ويزينه شارب ضخم ، مرفوع الأطراف أيضاً ، ولكن أطرافه غليظة مليئة ، تتفق مع تقاطيع وجهه ومع طوله ، وعرضه وجهامة صوته ، وضخامة رأسه .

ووقع نظر الضابط على الشابة ، وعلى الرغم من أن عمله يتيح له أن يرى هذا الصنف من النساء ، إلا أنها وقعت من نفسه فى الحال ، موقعا حسنا ، فقد كان وجهها جميلا ، وكانت عيناها العسليتان الضاحكتان ، جميلتين ، معبرتين ، مغريتين ، وكان قوامها مليئا ، ملفوفا ، وذراعاها المكشوفان ، بضين حين ، فاضطرب داخل نفسه اضطرابا شديدا ، ولكنه ، تماسك ، ورأى أن يبدو مستخفا بها ، محتقرا لشأنها فقرب عصاه قليلا من وجهها وقال فى صوت يبدو فيه غضب متكلف : « جر الولية دى . . بعيد من هنا . ؟ إيه الوساخة دى » .

وفى هذه اللحظة استطاعت الشابة التى كانت تحمل الحقيبة فى يدها أن تجد فرصة ، تقترب فيها من زوجها . وكانت الحقيبة قد جمدت فى يدها حتى أوشكت أن تنساها . فلما وقعت المعركة ، وتحلق الناس حول « الشابة » الجميلة ، اقتربت هى كغيرها من المارة فى الشارع ، ورأت زوجها عن قرب ، ولكن لم تلبث حتى نسيت نفسها وحقيبتها ، وزوجها ، حينما دارت رحى المعركة بنشاط وسرعة بين الشابة وبين أعدائها الذين ألجموا ، فلم ينطقوا أو ينبسوا بحرف ، وفعل زوجها مثل

فعلها ، فقد زايله خوفه وشعر أنه يرى مشهدا مسليا فى رواية ، وغاب عن خياله منظر السجن ، الذى ينتظره ، واسم النيابةالذى يسمع بـه ولا يعرف معنـاه ولا وظيفتها ، ولا شكلها ، ولا طريقتها ، فى مقابلة الناس . إذإن كل ما يعرفه عنها هو اسمها ، وأنها شيء مخوف ، لأنها أعلى من البوليس ، ولأنها هى التى تقدم الناس إلى المحاكمة .

أما أنا فقد تحركت فى نفسى غريزة التأمل ومراقبة الناس ، فراعنى أن يكون فى قدرة لسان يتحرك بين شدقى امرأة ، أن يصيب ثلة من العساكربما يشبه الشلل فيجمد كل فى مكانه جموداً تاما ، وأن يوقف حركة المرور فى الطريق ، فيقف المارة ، وتقف السيارات وتفتح النوافذ فتطل النساء والرجال والأطفال على الرغم من أن أصحاب البيوت المجاورة للمحاكم قد ألفت مشاهدة « لورى » المساجين ، حينما يعبأ وحينما يفرغ ، وحينما يقـدم ، وحينما يـرحل . . ألفت آذانهم صـراخ وبكاء وعويل قريبات المحكوم عليهم وزغاريد المفرج عنهم . . . ولكن كان فى لسان هذه الشابة شيء جديد . فأطلوا يتذوقون فنها . . .

« فنها » رنت هذه الكلمة فى أذنى . وكأنها الكلمـة التى كنت أبحث عنها . نعم . ؟ هذا ليس سوى فن . إذ لا يتحتم أن يكون العمل الفنى معروضا فى شكله التقليدى المتفق عليه . وليس ضروريا أن يكون مشاهدو العمل الفنى ، قد تعمدوا هذه المشاهدة أو أن يكونوا دفعوا ثمنا لها . . . فالعمل الفنى هو كل عمل غايته ، أن ينقل إلى الغير إحساسات صـاحب هذا العمـل ، وأن يؤثر فيهم ، بفضـل هذا النقل ، سواء كان هذا التأثير اضحاكا أو إبكاء ، أو حملا على التفكير . .

فهذه الشابة لم تكن سوى « فنانة » وقد زاد من تهيؤ ها للعمل الفنى أنها تزينت وتجملت ، فـأصبحت بشكلها وصـورتها ، منـظرا تجتليـه العيـون ، وتفـرح بـه الأبصار .

وقد أخذ الضابط الشاب أول الأمر ، بجمالها ، لا سيما بعينيها ، ولكنه لم يلبث أن أحس بقوة شخصيتها ، فهى لم تحفل به لا ادعاء ، بل حقيقة ، فقد كانت تشعر أنها أقوى من جميع الذين اجتمعواحولها، وكـان مبعث شعورهـا بالقـوة فى هذه اللحـظة أنها « صاحبـة حق »فقد كـانت معتدى عليهـا ، وزاد من هذا الشعـور

عندها ، أن الذين اعتدوا عليها لا يؤمنون بما يفعلون ، فهم أدوات ، لا تعى شيئا مما تفعل ، ومن هنا كان أقل المقاومة لهم ، يربكهم ، وأقل النقد لعملهم ، يلقى فى صفوفهم بالخوف . .

ولكن الضابط يعلم بأن واجبه يقضى عليه ، بأن ينهى الموقف ، بعنف ، ليؤكد للمارة ، أن هذه المرأة أضعف من أن تستأهل منه جهداً . . فصرخ بصوت أعلى . . « شيل الولية دى من هنا . . بسرعة ياعسكرى . . » فكان أثر هذه الكلمة عجيبا ، فالعساكر الذين كانت سواعدهم قد توقفت عن الضرب والدفع ، وألسنتهم عن الشتائم واللعنات . . انطلقت فجأة لا لتضرب فى الولية أو تزيلها من مكانها بل ولتضرب فى « المحابيس » الذين لم يفعلوا شيئا . وفى هذه الفوضى التى سادت ، تقع عصا على رأس « الأفندى » . ولم يكن له فى كل ما وقع يد . . فلا هو قاوم ، ولا هو شتم ، ولا هو علق على المقاومة أو الشتم . . وكان المسكين نحيفا وكان خوفه قد زاده ضعفاً ، فهو يتوقع فى كل لحظة إهانة تصيبه ، فى شكل شتمه أو ضربه . . . فلما وقع القدر المنتظر صرخ صرخة مدوية ، وكأنما أصابته رصاصة لا عصا ، وصرخت الشابة التى كانت تنتظره ، صرخة انطلقت وكأنها صدى صرخته ، وما لبثت أن وقعت مغشياً عليها . . .

وفتحت الحقيبة التى كانت فى يدها ، وتناثر ما كان فيها . فياللخجل ! لباس . . وفانلة قديمة ممزقة وان كانت مغسولة ونظيفة و « مزهرة » يجاور الاثنين علبة سجاير رخيصة من ماركة « الفيل » ثم رغيف « فينو » وقطعة جبنة ، وقرطاس به زيتون أسود ، ثم قطعة حلاوة طحينية ومصحف رشح على صفحاته زيت الزيتون . .

ولم يتذمر الجمهور ، ولم يقل شيئا ، ولكن الضابط أحس أن الجمهور المحيط به ، وبالمحابيس ، غاظه أن يقع هذا العدوان بلا مبرر . وأن عطفه قد زاد لما سقطت هذه الفتاة مغشياً عليها ، فلما انتثرت محتويات الحقيبة على الأرض ، وبدا تواضع مشاركة الزوجة لزوجها فى مصابه . . فظهر تمزق ثيابه ، وضآلة طعامه . فتلفت الضابط يميناً ويساراً ، وقد شحب وجهه ، ولعبت العصا الصغيرة فى يده ، وكأنه لا يدرى ماذا يفعل بها فقد كانت من قبل مظهراً للسلطان ، تؤنس ، وتعلن

عن القـوة ، ولكن لا تستعمل . والآن ظهـرت الحاجـة إلى استعمالهـا ، فكيف تستعمل . . ؟

لقد دارت فى يده ، وكأنها أصبحت شيئاً منفصلا عنه . . وزاد تكأكؤ الناس ، واستتبع ضرب المحابيس هرجٌ ومرجٌ فى الطريق ، فـالناس من النـظارة ابتعدوا متدافعين ، فسقط بعضهم ثم قاموا مهرولين ، لا يلوون على شىء ، فاصطدموا بغيرهم من المارة ، وتوقف المرور ، فدوت نوافير العربات ، فأزعجت هذه الضجة الضابط ، وحزت فى أعصابه ، واعتبرها إعلاناً صارخا لانهيار سلطانه . . واندفع نحو الشابة التى أحب بينه وبين نفسه شكلها ، وأعجبه قوامها اندفاعاً عصبياً وقال :

«ياللا . . ياشر . . . يابنت الـ . . . » ورفع يده بالعصا . وحرك هذا كل فضولى ، وأصبحت مشتاقاً أن أعرف بأى ثمن ، ماذا سيحدث بعد أن وصل الأمر الى هذه القمة العالية من التأزم والانفعال . وحدث ما لم أكن أتوقع . . فالشابة وقفت فى مكانها لا تتحرك وتلويح الضابط بعصاه لم يهز فيها جارحة من جوارحها ، إلا أن تهجمه عليها ، واجتراءه على سبها بهذه الألفاظ ، أثارهـا فاربـد وجهها ، غضبـا واختفت الابتسامة من فوق شفتيها ، وحل محلها تجهم ، زادها جمالاً فى نظرى ، والحق أنى تحولت إلى متفرج ، فتابعت حركات وجهها ، ويديها ، وكأن هذه المتابعة غاية فى ذاتها .

ووضعت الشابة أصابعها فى وسطها ، وقالت بصوت خال من الصراخ جاء مكتوما ، خالطته نبرة لا أدرى أهى نبرة التأنيب أم العتـاب . « كده . . كـده . ياحضرة الضابط . . تضربونا . ولما نشتكى تشتمونا . . » .

فصرخ فيها : اخرسى . . !

فجرت على وجهها علامة من علامات الانفعال العنيف السريع ، وكأنها هبة ريح سريعة حركت سطح بحر هادىء ، ثم قالت ، وقد زمت شفتيها ، وكأنها نمرة تتهيأ للوثوب .

« اخرسى . . أخرس علشان إيه . . هو احنا مش بنى آدم . . ولا احنا مش لحم ودم . . الضرب فينا حلال . . . البلد فيها حكومة . . ».

فقد الضابط كل تحكم فى أعصابه ، واحتقن وجهه بالدم ، وأمسك بطرف ملاءتها قرب كتفها . . « حكومة فى عينك . . مرة ما تختشيش » فجذبت الشابة طرف الملاءة من يد الضابط ، وكأنها تصفعه على وجهه ، وحدقت فى وجهه تحديقا رهيبا ، وهى تقول : حسك عينك تحط إيدك على . . ، دنا مستبيعة ووش الليمانات . . والشويش فرغلى عارفنى كويس » . . وأشارت إلى الشاويش رئيس العساكر .

وفتشت عن مشاعرى داخل نفسى ، فإذا بى كلى إعجاب بهذه الشابة . وإذا بى فى الوقت نفسه ، كلى إشفاق لهذا الضابط . فليس فيه ما يدل على رغبة فى الشر ، ولكن الموقف استدرجه إلى هذه الورطة . حقيقة أنه سبها سباً قبيحاً ، وواجبه كرجل بوليس أن يمنع الناس من هذا العدوان الذى أتاه عفو الخاطر ، وكأنه يجوس خلال حرم مستباح ، ولكن أهذاخطأ هذا الضابط ، أم أنه المألوف المتبع بين رجال البوليس والحكومة فى كل وقت ، وبلا مبرر ، فالأصل أن رجل الأمن يسب الناس ويشتمهم ، وأن له حقوقاً لا ينص عليها القانون ، مع ذلك منحه إياه العرف واستخذاء الناس ، وسكوتهم على الإهانة وفهمهم للحاكم ، ووظيفته ، فهماً مقلوبا ، يجعل منه عدواً يخاف ، يجعل منهم فرائس وضحايا تفر وتهرب ، وتلتمس لنفسها النجاة بالكذب والنفاق ، والدس والوقيعة ، والمداراة والتجسس . ولكن كيف يحل المشكل ، وكيف يتم للضابط الشاب الخروج من المأزق . . ؟

خرج من بين صفوف المحابيس ، شاب طويل فارع ، يرتدى ثوبا من الصوف الرقيق على رأسه لاسة ، وفى قدمه حذاء « أجلسيه » وفى فمه أسنان ذهبية شبيهة بالأسنان التى تزين فم الشابة . . واتجه إليها ، وكأنه فارس رخص البدن ، لدنه ، على متانة تراكيب هذا البدن ووثاقة عضلاته ، وأحاطها بذراعيه ، وكأنه يحتضنها احتضانا على مرأى من الناس ومسمع ، فى غير تحرج ولا تأثم وقال لها « عيب . . عيب . يا كيداهم . . تطولى لسانك على سعادة البيه . . لمى لسانك . . واخزى الشيطان . . وابعدى اللحظة دى » . .

وتمنعت « كايداهم » قليلاً ثم تقدمت نحوها نسوة أخريات ، ورجال يشبهون ذلك الشاب فى الملبس ، كأنهم أتباعه ، ودفعوا بها إلى قاع المنظر ، بعيداً عن مقدمة المسرح ، وعن الموضع الذى وقف فيه الضابط ، والعربة ، والعساكر . . .

وتابعتها بعينى ، وهى تختفى ، وقد دبت إلى وجهها حمرة حلت محل صفرة العصبية ، التى شملته ، وبدأت ابتسامتها تلوح فى وجها ، ويدها تمتد إلى الملاءة فوق رأسها ، تضعها فى مكانها ، بعد أن كادت تهبط بفعل جذبها وشدها ، وسمعت صوتا يأتى من بعيد ، مختلطا بأصوات رجال ونساء ، يقول : « أنا ما غلطش . . ولا عبتش فى أحد . . ».

فسرنى جداً أن تكون مدركة تماماً ، أنها قائمة بواجبها ، وأنها تدفع عن نفسها الأذى وأنها التزمت حدود الواجب . .

وتلفت حوالى ، فإذا بهذه الضجة الهائلة ، قد زالت بكل معالمها فالمساجين تجاوز موكبهم باب المحكمة ، واحتواهم جوفها ، والعربة الضخمة تحركت من مكانها بعسا كرها ، والمارة تفرقوا ، والنوافذ التى كانت مفتوحة أغلقت ، والرءوس التى كانت مطلة اختفت .

ورأيت نفسى مرة أخرى ، وحيداً مطالباً بأن أتهيأ لمواجهة المعركة التى كانت تنتظرنى ، وعاودنى القلق ، فتلفت نحو باب المحكمة ، وأنا موزع النفس بين التفكير فيما يجب أن أعمل ، وبين المشهد الذى رأيته منذ قليل ، والذى لعبت فيه **«كايداهم»** الدور الرئيسى ، فأثارت من إعجابى ما أثارت ، ورسمت لى طريقا - على سذاجتها وقلة تعليمها أو عدم تعليمها - كان فى رأيى الطريق الأمثل لكل من يود أن يدافع عن الحق . . فلم تكن خائفة . . لم يخفها السلطان . لأن السلطان الذى يخيف هو السلطان الذى يؤدى واجبه . ويحترم حرمات الناس . ولم يشجعها خطأ السلطان على ارتكاب خطأ مماثل ، ولم تخافت فى طلب الحق ، بل جهرت به .

وهى آخر الأمر بنت ، من « بنات البلد » فما أحرانى بأن أكون شجاعاً كشجاعتها ، مؤمنا بنفسى ، إيمانها بنفسها . . وفيما أنا أحدث نفسى ، استيقظت على صوت أعرفه ، يصيح : « ياصباح الأنوار . . أهلا أستاذ حسين »

ونظرت فإذا بى أمام جارى « عبد الجابر أفندى سرى » نشيطاً ، ضاحكا ، متودداً ومد يده ، مصافحا ، فإذا بها يد تشع صداقة ، وتفيض إخلاصاً ، فلما

وضعت يدى فيها ، شعرت بطمأنينة وثقة ، وقلت فى صوت أكثر ثقة : صباح الخير . . ؟

فقال عبد الجابر : عم تهامى وصل . .

وانتزعت نفسى من خواطرى نهائياً وكررت الكلمة بغير تفكير :

وصل . .

فرد على عبد الجابر :« نعم، وصل فى العربة التى جاءت الآن . وقد رأيناه وسلمنا عليه ، « وظرفت » العسكرى ببريزة ، والأشيا معدن والبركة فيك فى الباقى » .

وعبد الجابر أفندى على عادته ، يضمن العملية الواحدة ، عشرات من المعلومات والحقائق يلقيها إلقاء وكأنها أمور مسلمة . . وهو لا يدرى أنى أجهل كل هذا العالم الذى يتحرك هو فيه ، وكأنه بيته الخاص .

الفصل الرابع

عند وكيل النيابة

دفعنى عبد الجابر ، إلى دهليز ضيق ، أفضى إلى سلالم ، من البلاط القديم تكسرت حوافها ، وتغضن سطحها ، بكسور ، وبثور فاصبحت أشبه شىء بأسنان عجوز دردبيس ، وفى نهاية السلالم طالعنى باب حديدى قاتم ، فى أعلاه نافذة صغيرة، فأدركت أن هذه هى قاعة (الحبسخانة) أى قاعة الحبس المؤقت ، التى يودع فيها « المساجين » أو المحابيس الذين يقبض عليهم احتياطياً ، فيودعون فى الأقسام ، حتى تعرض أوراقهم على وكيل النيابة ، فإن أفرج عنهم ، عادوا إلى بيوتهم وحياتهم وإن استبقاهم ، أرسلوا إلى السجون المركزية ، أو السجون العامة ، حيث ينامون على أسرة ، إذا كان فى مقدورهم أن يدفعوا عن كل ليلة عشرة قروش ، وإلا ناموا على « البرش » المجدول من الخوص ملتفين ببطانية بنية ، ومفترشين ببطانية مثلها . .

وتقدم عبدالجابر، من عسكرى واقف إلى جوار الباب الحديدى القاتم ، له كلاما ، فافترت شفتا العسكرى عن ابتسامة ، وفتح الباب ، عن قاعة كل مافيها أسود . فأرضها من الأسفلت ، وجدرانها استحالت سوداء من طول ما كتب أو بصق عليها وطول ما جرى فوقها من الهوام الصغيرة والكبيرة وقد هبت بمجرد أن فتح الباب رائحة نتنة عفنة ، أشبه شىء برائحة مرحاض كبير ، وفى الظلمة التى غرقت فيها هذه القاعة ، لمحت آدميين تحركوا عندما سمعوا صوت مزلاج الباب يتحرك وتطلعوا إلى الباب فبدت ملامحهم فى هذا الضوء الضعيف ، كملامح مرضى طال الداء عليهم ، وثقل اليأس على نفوسهم فزاغت أبصارهم ، وشحبت

ألوانهم ، واستولى ذهول على كل من كان منهم حديث عهد بهذا الجانب من الحياة ، حياة التحقيقات فى أقسام البوليس والنيابة والعربات التى تحمل المحابيس والقاعات التى تأويهم ، وحيل التخفيف من قيود الإجراءات والتلطيف من غلظة القائمين على الحراسة وشدة المشرفين على ترحيل هؤلاء التعساء ، وتقديمهم للمحقق وإخراجهم من حجرته وإيداعهم فى الخانات أو القاعات المخصصة لحجزهم . . .

أما الذين ألفوا هذه الدنيا فإن شيئا من التفاهم يرتفع أحياناً إلى درجة الصداقة ــ يقوم بينهم وبين دنيا البوليس والنيابة ، فهم يتجولون فى دهاليزها ، وطرقاتها ويتعاملون مع كبارها وصغارها فى غير خوف ولا تردد . يردون على الشدة بألفاظ تفيض تمرداً وثورة ، وعلى اللطف بالدعابة والفكاهة والنكتة ويلينون الغليظ بالقرش أو السيجارة أو بالوعد ، ويحنون رأسهم عند العاصفة ، ولا يدعون فرصة الضعف أيا كان الضعيف الذى يقع بين أيديهم سواء أكان رجلا يمثل الحكومة ، أم زميلا لهم فى الحبس . فقاعة الحبس ، تضم دائماً فرقا من الآدميين تضم العتاه الغلاظ الذين فتر إحساسهم . ولم يعد لهم أمل فى احترام المجتمع أو حسن علاقة بهم ، فهم لا يتوددون إليه ولا يتلطفون معه ولا يعاملونه إلا كما يعاملهم .

فهم فى نظر المجتمع لصوص وقاطعو طريق وناهبو رزق وهاتكو عرض ومزورون ومزيفون ، ومهربو مخدرات أو نقود . والمجتمع فى نظرهم جبان ومرتش ومنافق ونهاز للفرص وساعٍ وراء المصلحة الشخصية لا ينفع معه إلا أخذه بالشدة وتخويفه بالموت أو الإيذاء بالفضائح وهو يتظاهر بما ليس فيه فهو يدّعى الفضيلة وإن كان يحب الرذيلة ويتهالك عليها . ويدّعى العفة ، ولا يدع فرصة ليهتك عرضاً إلا وينتهزها . ويتظاهر بأنه مع القانون ، وهو لا ينفك يعمل ضده ، وينخر فى أسسه ، ويقوض من دعائمه ، كالسوس لا يفتر ولا يهدأ . وهذا الفريق من معتادى الإجرام ، يروحون ويغدون فى قاعة الحبس كما يروح الأسد ويغدو فى قفصه بحديقة الحيوانات ، فلا يجرؤ أحد على الاقتراب منهم أو التحدث إليهم . وهم لا يأذنون لأحد أن يوجه إليهم سؤالا أو يشترك معهم فى حديث . فهم ملوك هذه القاعة المظلمة ، يتعالون على غيرهم من زملاء ، ومساجين ورجال أمن ، فقد نزع كره المجتمع من قلوبهم كل خوف وكل احترام فتحرروا تحرراً مدمراً . . . .

أما الفريق الثانى ، فهو فريق المحدثين ، الذين ينظرون إلى كل ما يجرى أمامهم ، فى خوف مطبق فصرخة العسكرى تهزهم من الأعماق ومنظر زميلهم الذى يدخل إلى القاعة منفوش الشعر أشعث أغبر ، حافى القدمين ، عارى الصدر ، فى يده كسرة خبز يأكلها وهو يسب ويلعن ، فى فحش لا حد له ، وبصوت ليس أعلى منه . . . منظر هذا الزميل يقعدهم فى مكانهم فلا يتحركون من الدهشة والاستغراب والخوف . أما منظر الزميل الآخر ، الذى يدخل القاعة تسيل من رأسه دماء تغطى وجهه وتجعل منظره مخيفا بشعا ، فتصطك لمرآه أسنانهم ، وكلما اقترب منهم ، بعدوا عنه وهم يودون لو استطاعوا أن ينفذوا من جدران السجن بسلطان . . . .

وبين هؤلاء وهؤلاء فريق لا إلى الأولين ولا إلى الآخرين فلا هو مجرم معتاد الإجرام ، نزع من قلبه الأمل فى المجتمع وقرر أن يجاريه إلى النهاية ، ولا هو من الأبرياء السذج الذين لا يزالون يعيشون فى خوف دائم وفزع مقيم ، بل هو ممن جربوا حياة الجريمة ، فاتهموا وبرئوا أو نالهم عقاب خفيف . ثم اتهموا ثانية وهم يظنون أن ما أصابهم ليس سوى سوء حظ ، فهم مضطرون أن يتعاملوا مع عالم الإجرام ، وأن يدرسوا وسائله وأن يطبقوا طرائقه ، وأن يألفوه فلا يخافون من مظاهره البشعة وفى الوقت نفسه ، أن يمنعوا أنفسهم من التشبه به ، والاندماج فيه ، والمسايرة له فهم لايزالوان يحسنون الظن بأنفسهم ، فلم يفقدوا الثقة فيها ، ولا الثقة فى قدرتها ، على مقاومة الإغراء ولذات الجريمة والتأمل فى هذه الفرق الثلاثة ، متعة لو اتسع الوقت لخبير بالنفوس يوقف فيها وقتاً وجهداً عليها .

ولما فتح باب الجبسخانة نادى العسكرى (تهامى عبد المولى) فلم يلق نداؤه مجيبا ، فكرر النداء فلم يتحرك من داخل هذا السواد أحد ، فبدا على العسكرى التململ واستأنف نداء ممطوطا طويلا (ياتهامى ياعبد المولى) .

ثم دخل إلى قاعة الحبس خائضاً فى أكوام من حطام بشرى ، يتمثل فى متشردين تكشف خرقهم عن عورتهم ، ومتسولين من أعمى واكتع وأعرج ومدع لكل هذه العاهات أو لبعضها ومن (أفندية) يلبسون الملابس الأفرنجية الأنيقة التى بذل (الكواء) فى كيها جهداً ، وتحمل الخياط فى حياكتها عناء . فلما دخل بها أصحابها

السجن ، أصبحت كعزيز قوم ذل ، عليها من النعمة آثار ومن المهانة آثار . فتجاور الذل والعز ، واجتمع الجاه والضعف وقف بعض هذا الحطام مفسحا الطريق (للجاويش) وبقى بعضهم مكانه لا يحتفل به ، كأنه لم يفتح عليه باب ولم يوجه إليهم نداء . .

وقال العسكرى : تهامى على . أين تهامى على عبد المولى ؟ . . مات . . . فصرخ رجل من ركن من أركان الحجرة ضاحكا ضحكة خالية من المرح والسرور قائلا فطس . . فصرخ العسكرى اخرس . .

ورفع كعب حذائه كأنه يهدد بدق رأس هذا المجترىء به فقال صاحب الصوت ، مع ضحكة أخرى شبيهة بسابقتها ، ومع تراخ وتكاسل : حقك على . . . حقك على . .

وقال بصوت أخفت : والله فطس . . ولكن قول الحق فى هذا البلد يقطع الرزق . . وفيها يجيل العسكرى عينيه فى ظلام القاعدة ، باحثا ومفتشا (عن تهامى عبد المولى) تنبه أحد الأشخاص إلى النداء ، فأقبل على جسم ممدد فى أحد أركان القاعدة فأخذ يهزه هزا شديدا وهو يقول : عم تهامى . . عم تهامى . . .

وتحرك فى هذا الركن ، وذلك الجسم ، فى بطء وكأنما هو جسم ثعبان كان قد التف حول نفسه ، ثم بسطها بسطا بطيئا حتى امتد إلى آخر طوله . ثم رفع رأسه فلمعت فى الظلام عينان صغيرتان ، ثم دفع من فوق رأسه شال كشمير قديم كان قد أحاط بها ، ودار الرأس يمينا ويسارا ليبحث عن مصدر النداء عليه ، والسؤال عنه . . . واتجه العسكرى نحوه . . . « أنت عم تهامى » .

فقال الرجل وهو ينتزع نفسه انتزاعاً من النوم الذى غرق فيه « أى نعم » .

قال له العسكرى : قم لقد أُتعبتنا فى النداء عليك . . أين كنت . . مع الملائكة . . لقد أتيت على الرز واللبن فى الأرض والسماء .

وأطال عم تهامى نظره فى الظلام ليتبين الأشخاص الذين حوله والمكان الذى احتواه ، ثم قال مدهوشاً : رز بلبن . . نعم . . أفندم . . .

فربت العسكرى على كتفه وقال : يدك . . قم . . قم على حيلك . وقام عم

تهامى فسقط الشال من فوق رأسه على الأرض ، فانحنى يأخذه من الأرض . . ثم سار العكسرى ومن خلفه تهامى حتى خرج إلى باب قاعة الحبس . . ورأيت موكلى . .

هذا هو أول إنسان أول مخلوق قضت الأقدار ، أن أكون محاميه ، أو أن أكون المدافع عنه والمتحدث باسمه .

ولم تمر هذه المقابلة ، هينة ، فقد كان شعورى بأن هذا الرجل وديعة فى يدى محرجا لى . كنت لا أصدق فى الوقت نفسه أن تقوم بينى وبينه هذه العلاقة الدقيقة دون أن أعرف شخصه ، ولا اسمه ولا تاريخه ، ودون أن نتقابل من قبل . وكنت أتساءل مقدما ، هل يعقل بعد أن تنتهى قضيته أن ينصرف كل منا فى سبيله ، لا يعرف الآخر ، وربما لا يذكره ما أغرب العلاقات الإنسانية وما أعجب هذا المجتمع الذى ينسج هذه العلاقات على هواه ، ويشكلها كما يشتهى فهذا رجل له ماض وعائلة وأولاد ، وله مشكلاته وهمومه ، يقدم إلى كما يقدم كرسى إلى نجار ، ويطلب إلى أن أعالج شيئاً ما فى هذا الكرسى . أدق مسماراً أو أضع قطعة خشب جديدة فيه تقويه . فاذا انتهت مهمتى أُعدته إلى أصحابه ، دون أن تقوم بينى وبينه أُية صلات أخرى . فأنا محام لاشأن لى إلا التهمة الموجهة إليه . وهو لا شأن له بى : من أنا ؟ ماذا أكون ؟ ما اسمى ؟ . . كل هذه أسئلة لاتدور برأس عم تهامى بل إن عم تهامى هذا زاد الأمر تعقيدا لأنه لم يلتفت إلى ، ولم يكلف نفسه مشقة حتى التعرف على شكلى .

تقدمت منه ابنته حميدة ، وكأنما نبتت من الأرض ، فأنا لم أرها قبل هذه اللحظة فى هذا المكان وقالت له فى صوت يفيض حنوا وعطفا وتشجيعا ، شد حيلك يابا فتمتم أبوها : على الله يابنتى . .

وأحسست بقلبى تتجاوب نبضاته ، وتتدافع دقاته ، وأنا أشهد هذا اللقاء البسيط الساذج ، الغنى بالعاطفة الصادقة ، فقالت له وهى تشير إلى : الأستاذ الأستاذ بتاعك : فقال الرجل وهو لا يرفع رأسه إلى ، ولا يوجه وجهه نحوى : أهلا وسهلا . .

وأحسست أننى زائد عن هذه الجماعة . وأن ليس لى دور فيها فازددت

انكماشا . واضطررت حينما اتجهت إلى (حميدة) فى غير كلفة ولا تحرج : اسأله ياأستاذ . . عن الحكاية .

ولم أعرف كيف أسأله ، خصوصا بعد أن نظر الرجل إلى السماء وهو يقول « لا حول ولا قوة إلا بالله » .

صدرت هذه الجملة من قِبَله . تحمل إلى السامع ، إحساسين متناقضين الإحساس بالاستسلام والركون إلى إرادة الله ، والرضاء بما قسم كما تحمل فى الوقت نفسه الإحساس بتمرد وعدم رضا ، أو قل عدم فهم لما يجرى . ولم يخب استنتاجى فقال تهامى : هو أنا عملت إيه يارب . . حكمتك فى عبيدك . .

وارتجفت وأنا أسمع هذه العبارة « حكمتك فى عبيدك » هل يود هذا الرجل المتهم البسيط ، أن يقول إنه لايفهم هذه الحكمة ، أم أنه يقبلها على علاتها ، أم أنه ينتظر أن تتكشف له وتتضح فيما بعد .

ولم يعجب حميدة ألا يحفل أبوها بى ، وألا ينشط فى شرح قضيته لى فاقتربت منه وبحركة مليئة بالحيوية ، مدت ذراعها العارى نحو أبيها ووضعته على كتفه وقالت : بابا . . الأستاذ عاوز تقول له الحكاية الراجل اللى مات طلع أطرش مابيسمعش . .

فكان رد أبيها : يارب تحكم وتلطف . . أنا يابنتى مانمتش ولا دقيقة . . أعوذ بالله .

وأخذ عم تهامى يصف ليلته الماضية فى نقطة بوليس الزمالك ، والرجل كما ظهر لى من قليلى الحيلة والخبرة ، أى من الصنف الذى نقول عنه « فى حاله » كان قد تجاوز الخمسين وأصبح فى حدود الستين فى خديه لحية خفيفة تناثر شعرها الأسود الأبيض بغير نظام وهو بين الطويل والقصير ولونه يتردد أيضاً بين السمرة والبياض ، يضع فوق رأسه عمامة ، ويرتدى جلباباً من الصوف من الطراز الذى يلبسه أبناء البلد ، الذى يستدير حول العنق ، وينفتح عن الصدر ويكشف عن صديرى من نفس الصوف ، وصوته خافت وعبارته متقطعة وميله للكلام ضعيف وبالجملة ليس فيه ما يستوقف النظر ، فهو واحد من الملايين الذين تراهم فلا يصدم مرآهم العين ، ولا تطيب صورتهم للنظر . ولكن حينما أطلت التأمل فيه ، بوصفه أول عملائى ،

والجسم الحى لقضيتى الأولى، لاحظت أنه يبتسم بين الحين والحين فتضىء ابتسامته وجهه ، وتصبح عيناه أبلغ تعبيراً وأشد فى النفس تأثيراً .

وما كاد يبتسم حتى رأيتنى ميالاً إلى عقد المقارنة بينه وبين ابنته فقلت لنفسى : ما أعجب أن يكون هذا الرجل الهادىء القليل الكلام ، الفاتر ، المتواكل هو أبو هذه الفتاة التى تفيض حيوية ، والذى يرن صوتها فى الأذن ، غنياً بالانفعال ، والإقبال على الدنيا ، والثقة بالنفس . إنه يمكن تلخيص شخصية الرجل فى ثلاث كلمات « دعنى فى حالى » بينما يمكن تلخيص شخصيتها فى ثلاث كلمات أخرى « لن أدعك تفلت » إنه يود أن يبتعد ويتوارى أو يستريح من كلام الناس ، وهى تود أن تستوقف كل شىء وكل إنسان ، إما بنداء عينيها ، أو بنداء ذراعيها ، أو بنداء قوامها ، أو بنداء صوتها ، أو بنداء هذا كله ، مجتمعاً ومتعاوناً بعضّه مع بعض . ولم تكن تجربتى فى هذا الحين قد كملت ، لذلك خدعتنى المظاهر ، فظننت أن الرجل أميل إلى الضعف ، وأن ابنته أميل إلى القوة ، أى أنهما من طبيعتين مختلفتين ، ولكنى لما تقدم بى السن ، وزادت قضاياى ، وازددت فهما للناس ، وإدراكا لهم ، عرفت أن كثيرين ممن تلوح عليهم القوة ، هم فى واقع الأمر ضعفاء ، وأن كثيرين ممن يلوح عليهم الضعف هم عند الشدة ذوو عزمٍ وإرادة .

وانقطعت عن تأملاتى حينما بدأ الرجل يروى قصة الليلة التى قضاها فى نقطة وليس الزمالك . فقد كانت ليلة حافلة حقاً .

قال الرجل : ماذا حدث ؟ لقد كنت فى حالى لا أخاصم أحداً ولا يخاصمنى أحد . من عملى لبيتى . لا يهتم بى عسكرى ولا ضابط وفجأة رأيت كل الناس أعداء يكرهوننى ورأيتهم يعبرون عن هذه العداوة وتلك الكراهية بغلظة شديدة . ولقد كنت واقفا فى الطريق أقطع فرعا من شجرة ولم أدر إلا وأنا ممسوك بتلابيبى . والناس كلها تقول إنى مجرم وقاتل . . قاتل دفعة واحدة وبلا تدريج ؟ وفعلا رأيت رجلا ممدداً تحت الشجرة لا يتحرك . وقد سمعت أنه القتيل الذى أنهيت حياته . وفى الحال خرج من كل مكان رجال ونساء وأطفال وقبل أن يفهموا ما الموضوع ، انهال كل منهم على بشتمة أو لعنة . أُخذت ، ولم أفهم ماذا أفعل ولا كيف أتصرف وكنت أود أن أنظر إلى وجه هؤلاء الذين سبونى وشتمونى ، عساى أعرف منهم

شخصاً أو أتبين من وجوههم وجها ، فلم يقع وجهى على واحد أعرفه . . كيف كرهنى هؤلاء الناس هكذا وكأنى قتلت آباءهم وأجدادهم . هل هذا الرجل الذى رقد فى الأرض مسجى عليه هدوء عميق وعدم اكتراث بكل ما يجرى ، قريب هؤلاء جميعا ؟ ربما ، ولكن كيف يكون قريب كل هذا العدد الضخم . وكيف ترامى نبأ قتله إليهم ، وهو سائر فى الطريق ؟ .

واكتشفت شيئاً عجيبا فقد انضم إلى الحلقة التى أحاطت بى أفراد كانوا يسبوننى أولا ثم يسألون عن الحادثة . وحدث ما هو أطرف فقد كان إلى جوارى شخص من عمال الفرقة التى أترأسها ، فابتدره أحد الأفراد يسبه فإذا بالقادمين الجدد يسبونه هو ، وقد تركونى أنا فسرنى أننى وجدت شريكا لى فى هذه الجريمة المخيفة . ولكن غلاما صغيرا تبرع بأن نبه المتجمهرين إلى أنى الفاعل الأثيم الذى يستحق وحده ، دون غيره العقاب وانقسم الواقفون إلى فريقين ، فريق معى ، وفريق ضدى ، وكادوا يتشاحنون ويتضاربون بالأيدى ، وأنا واقف وسطهم لاأدرى كيف تنفرج هذه الضائقة .

ولكن الأمر تحول فجأة ، فبدل أن يضرب المتجمهرون بعضهم بعضا امتدت يد فصفعتنى على قفاى . . وأحسست بأن الشرر يتطاير من عينى ، فانا لم أعرف الإهانة طول حياتى . كان الناس يوقروننى ، حتى المهندس الذى كان معروفا بالشدة ، كان يشتم الناس جميعا ، إلاى . . فقد كنت دائما بالنسبة له (عم تهامى) . .

واختنق الرجل بالبكاء ، وطأطأ رأسه ، كأنما ارتكب خطأ وهو يعترف هذا الاعتراف وزاد شعوره بالخطيئة ، لأنه ضعف حتى ذرفت عيناه بالدموع .

ورأيت ذراع (حميدة) العارى يمتد مرة أخرى إلى كتف أبيها وقالت له : عيب ياأبو حنفى . .

ولم يلتفت (أبو حنفى) لابنته وبعد إطراقة غير قصيرة قال : نهايته . . ثم هز رأسه وقال : « نحمده على كل حال . . . » ثم غص بريقه قليلا ، ثم استأنف حديثه فقال :

وجاء العسكرى يحمل بندقيته ، وسأل عن الخبر ، ونظر إلى القتيل وقال فى

سرعة أنه (خلص) ثم سأل عن (الريس) يعنى رئيس الأنفار ، فدلوه علىّ ، فأمسك بخناقى وقال : قتلت الرجل . . يابن . . » نعم شتمنى ولست أدرى لماذا انزعجت لشتم العسكرى أكثر مما انزعجت لشتائم الكثيرين الذين اجتمعوا حولنا ، وجذبنى العسكرى قائلا : « على النقطة » وأردت أن استمهله ، وأنا أقول له إنه لا ذنب لى ، وأن الرجل لم يكن سائرا فى الطريق ، وإنما خرج من بطن جسر النيل فكان رده لكمة شديدة فى صدرى ، وكأنما كانت هذه اللكمة إيذانا بهجوم جماعى ضدى ، فقد انهال على الجميع ، بضرب لم أحس له بألم فى جسمى ، وإنما أحسست به ، آلاما موجعة لنفسى . . .

وقعت عمامتى فى الأرض وحل شالها ، والتف بعضه على رجل احد الواقفين ولم أر بدا من أن أسير مع العسكرى ، ووراءنا مظاهرة كبيرة ، لاتتقدم خطوة حتى ينضم إليها أفراد جدد ، وفى أثناء سيرنا كنت أسمع سؤالا متكررا : ماذا عمل . وعلى قوارع الطرق ، تلونت التهمة المنسوبة إلى ، فأنا مرة حرامى . وأنا مرة أخرى ضبطت مع امرأة ، وأنا مرة ثالثة قتلت إنسانا بمسدس ، ولم أكن فى وعيى . ولكن فى كل مرة أسمع تهمة جديدة أهتز من منبت الشعر إلى أخمص القدم لأنى أصبحت لا أعرف بأية تهمة سأساق إلى التحقيق وعرفنى شخص أو اثنان فى طريقنا إلى (نقطة البوليس) فصاح « هذا عم تهامى » وتقدم أحدهما نحوى وسأل عما حدث فكان جزاؤه دفعة شديد له فى الصدر ، من العسكرى ، أردفها بسباب تجاوز الرجل إلى أمه وعرضها ، وكل عائلته فاستخذى وتوارى . . .

ووصلنا أخيرا إلى النقطة ، فأسرع عسكرى أو أكثر كانوا واقفين بباب النقطة فمنعوا هذا الجمهور الضخم من الدخول معنا ، فارتد أكثره إلا اثنان أو ثلاثة دفعوا العساكر دفعاً ونحّوهم عن طريقهم ، ودخلوا وراءنا وكأنهم من أهل الجاه .

ودخلنا إلى حجرة الصول . . فوجدناه مشغولا بتحقيق قضية سيدة أجنبية صودر كلبها ، كانت جالسة على كرسى بجانب الصول ، وقد وضعت ساقاً على ساق ، وكانت فى يدها سيجارة وأخذت تنفث دخانها فى الهواء بشدة وعصبية ، بينما كانت تقذف فى نفس الوقت ، بكلام يبدو أنه قاس وشديد ، توجهه كله ضد هذا

الصول . الذى كان يتلطف ، ويسكت ويسمع ، ثم يقاطع قليلا ، وإن كان مظهره كله يدل على أنه لو استطاع لحمل هذه السيدة من مقعدها وألقى بها فى الشارع .

وبعد أن وقفنا أمام حضرة الصول ، ما يزيد عن ربع ساعة ، التفت إلى العسكرى الذى كان قد قبض علىّ ، وسأل عن الأمر ، وأراد العسكرى أن يقص الواقعة ، ولكنه قبل أن يبدأ قال الصول فى غير اهتمام « ضعه فى الحجز » ولم أفهم أننى المقصود بهذه العبارة ، بل لم أفهم ما معنى كلمة (الحجز) وساقنى العسكرى إلى ما لاأعلم ، حتى وصلنا إلى باب مغلق ، وجدته يفتح ، ويدعونى إلى ولوجه العسكرى الذى قبض على وكأنما يدعونى إلى بيته . فقد قال لى « اتفضل » ونظرت إلى وجهه فلم أر عليه علامة واحدة من علامات الشدة والغلظة والغضب التى كانت تعلوه . وقبل أن يقفل الباب سألنى ، وكأننا صاحبان قديمان « هل تريد شيئاً . . ؟ » .

وضاقت حميدة بهذه التفصيلات التى لا علاقة لها بموضوع التهمة ، وأرادت أن تصرفه عنها ، فقالت : على كل حال الحمد لله على سلامتك احك للأستاذ عن القضية القتيل ظهر أنه أصم . . لم يسمع صرخة بيومى وخليفة ، حاسب حاسب . . وكان طلوعه من بطن الجسر هو سبب الحادثة ، لقد كانت مصيبة مخبأة لنا . . (يارب سترك وعفوك) .

ولكن عم تهامى كان مشغول النفس والعقل بما جرى له . كان يريد أن ينفس عن آلامه ولم يكن متوقعاً من وراء اتهامه شراً ، وفى الوقت نفسه لم يكن عنده عن وقائع القضية ، شىء أكثر مما عند ابنته وأقاربه لذلك استأنف الكلام بصوته الخافت وعبارته المتقطعة التى تتلكأ فيها الألفاظ تلكؤاً شديداً لولا انفعال واهتياج وجدانه ، الذى كسى تلك الألفاظ بقوة ليست لألفاظه عادة .

قال سألنى العسكرى هل أريد شيئاً ، وكمل قلت له ، كتّر الله خيرك أريد أن أعود إلى بيتى فضحك العسكرى من جهلى ، وغفلتى وقال : لاتستعجل ؟ فقلت كيف لا أستعجل . . لماذا تحبسونى فأجاب العسكرى القانون هو الذى حبسك .

ولم أرد أن أطيل الحديث مع العسكرى عندما قال ذلك . لأنى لا أعرف القانون ولا أعرف لماذا يحبس القانون شخصاً مثلى . وأحببت أن أدخل « الحجز » فإذا

العسكرى يسألنى هل ــ معى نقود : فقلت نعم ، وأدخلت يدى فى جيبى فقال أعطنى « بريزة » وأعطيته بريزة ، فأخذها وقفل الباب على .

واحتجت (حميدة) لماذا أعطى (ابن الكلب) عشرة قروش كاملة وهنا تدخل عبد الجابر سرى أفندى ، فقال : « هذه أتعاب العسكرى فى ضرب أبيك . وجره من مكان الحادث إلى الحجز . . أتظنين أن هذا كله يجرى مجانا وبلا ثمن . . »

وضحكت حميدة ضحكة رأيتْ أثرها فى وجه عبد الجابر . فقد لمعت صفحة وجهه بابتسامة سعيدة مشرقة ، ثم غير موقفه ، فأصبح أقرب إليها ، وشعرت ــ ولست أدرى سبب شعورى ـ أنه يود لو عاد (عم تهامى) إلى الحبسخانة ولو ذهبت أنا إلى مكان ما ، ليتاح له أن يقف مع حميدة ، فإن مدبولى ذهب ليشترى لتهامى رغيفاً مليئا بالنيفة ولحم الرأس ولكن عم تهامى لايريد أن ينهى كلامه ، لقد قفز قفزاً من فوق التحقيق الذى أجراه معه الصول ، والمعاينة التى قام بها باشجاويش لمكان الحادث ، وموقع سقوط الشجرة ، مكان خروج المجنى عليه من بطن الجسر إلى حيث لقى حتفه . . قفز فوق هذا كله قفزا ، وكأنه لا يتصل به ، ولا يتعلق بموضوع قضيته ، وآثر أن يتكلم عن الليلة التى قضاها فى قسم عابدين . فقد نقل بعد التحقيق والمعاينة إلى القسم ، وكأنه نقل إلى جهنم .

فقد كان بين كل نقلة ونقلة ، وبين كل خطوة وخطوة يناله شىء من الإهانة ، أو دفعة فى الصدر ، أو صفعة على القفا ، أو شتمة من هنا ، أو كلمة هزء من هناك فلما وصل إلى قاعة الحبس فى السجن ، ظن أنه نجا من هذه الإهانات التى تتطاير فى الجو ، ولكنه ما كاد يضع قدمه فيها ، حتى انبعثت صرخة ، فنظر عند موضع قدميه فوجد شيئاً مكوما ، لم يتبين شكله . مجرد كومة ضخمة من اللحم فظن أن من الأسلم ، أن يعتذر لهذا المجهول ، أيا كان اسمه ، أو صفته ، فقال (لاتؤاخذنى) فإذا ضحكة مخيفة ترد على هذا الاعتذار المؤدب ، تأتى فى أعقابها ، صيحة مزلزلة لأركان المكان يقول صاحبها « وماذا أخذت أنا من هذا الاعتذار لقد دست على بطنى حتى كادت أمعائى تخرج من مكانها ، لأنك أعمى . ولأن الناس الذين تدوس عليهم ، وهم أحسن منك ، ومن أبيك ، ومن الذين خلفوك ، هؤلاء الناس فى نظرك كلاب مع إنك أنت الكلب وابن الكلب . . . » .

وشعر عم تهامى بأن قلبه كاد يقف أو أنه علق فى الهواء من عنقه ، فلا هو قادر على أن يرد هذه الإهانة من هذا المخلوق الغريب الذى اختار هذا الموضع ليتكوم فيه ، والذى انفجر انفجاراً لا يعرف له مبرراً ، ولا هو قادر على أن يسكت ولا على أن يخرج من هذا المكان الذى قذف به القدر إليه ، على أنه بعد فترة صمت نطق لسانه ، بالكلمة التى اعتاد أن ينطق بها فى مثل هذا الموقف ، وإن كان لايذكر أن موقفاً مشابهاً مر به أبدا ، قال : « الله يسامحك . . » .

وارتفعت رأس ، كانت بلا شك رأس هذا المخلوق ، واستند صاحبها بذراعه إلى الأرض ، وأخذ يهدر هديراً كالرعد : « يسامحنى على أى شىء هل وضعت رجلى فى بطنك . هل دست على نافوخك . أم أنك تحسب أن الله من أتباعك لمجرد أنك وضعت على رأسك برطوشة ، تقول عنها عمامة » وضحك الرجل ضحكة ملونة ، منغمة متقطعة انتهت بصوت يمكن ترجمته على وجه التقريب هكذا : ها أو أو . . .

وعاد « يقول : هؤلاء المغفلون يحسبون أنهم يستطيعون أن يضحكوا على الله ، كما يضحكون علينا لأنهم يلبسون عمائم ، ولكن الله أكبر من أن تنطلى عليه هذه الحيل فلقد عرف أولاد الكلب من كل نوع وكشف حيلهم من زمن بعيد . . والشاطر الذى يود أن يضحك عليه لابد أن يضع فوق رأسه لا برطوشة واحدة ، وإنما ألف برطوشة . . فهمت يابهيم ، غر من وجهى » .

وفرح عم تهامى بأمر الإفراج الذى أصدره عنه هذا المخلوق ، وتأمل فى هذه القاعة ، ليبحث له عن ركن ينزوى فيه . فلم تساعده عيناه على تبين المكان ، ولاالناس الذين حوله . فتحرك فى بطء وكأنه يسير على السراط المستقيم ، خشية أن يضع قدمه على بطن أو رأس مخلوق آخر من هذه المخلوقات التى جمعتها الحكومة فى هذه القاعة ، من مكان لم يقو عقله على مجرد التفكر فى موضعه من العالم . كما لم يقو عقله على مجرد التفكير فى الطريقة التى تصطاد الحكومة هؤلاء الآدميين الذين ينفجرون انفجاراً فى عباد الله ، بلا مقدمات ولا اسباب مفهومة ، وفيما هو يتقلب فى حيرته ، امتدت له يد ، ونظر فى الظلام ، فإذا شاب صغير ، دون الثلاثين يلبس بذلة وقال له بصوت هادىء خافت ، يفيض عطفاً عليه ، ورغبة فى مساعدته ، فقال : « ياعم . لا تحزن . ربنا يصبرنا جميعاً » .

ولو سمع إنسان هذه الدعوة ، لوقع فى وهمه ، أن هذا الشاب يدعوه إلى مكان جميل ، أو إلى مأدبة فاخرة ، ولكن الشاب لم يزد على أن سحب تهامى إلى ركن ، وجد فيه بطانية مفروشة ، وإلى جوارها حذاء استنتج أنه حذاء هذا الشاب . فسار معه خطوتين إلى حيث كانت البطانية وجلس على « البطانية » . وكأنه الغريق الذى فقد الأمل فى النجاة فى بحر طام ، تتلاطم أمواجه ، فبرزت له فجأة جزيرة ، قد تكون قاحلة ، ولكنها على أية حال ، خير من الخوف من الغرق ، وأهوال أمواج البحر .

أسند عم تهامى ظهره إلى الحائط ، وأغمض عينيه ، وأراد أن يتلو شيئاً من القرآن فاختلطت على لسانه الفاتحة ، بآية الكرسى ، بآية : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » التى اعتاد أن يقرأها كلما ألمت به مصيبة ، أو توقع شراً ، وأحس بالحاجة إلى معونة الله وحمايته ، فسكت ، واكتفى بترديد : « لا حول ولا قوة إلا بالله . . . سبحان الله ونعم الوكيل . . » .

وبعد فترة من الصمت ، أحس بأنه استعاد غير قليل من وضوح أفكاره ، وهدوء نفسه . وأنه قادر على أن يفكر فيما جرى له ، فارتسمت على شفتيه ابتسامة ، مليئة بالمرارة ، والسخرية فقد ذكر أنه كان فى الصباح مشغول البال ، بأكلة (ملوخية) على فراخ كانت شقيقة زوجته ستشاركهم فيها مع زوجها القادمين مع أولادهما من بلدة العسلوجى بالشرقية (إنه ليس أكولا ولكنه يحب الملوخية ــ ولو كانت ناشفة ــ على الفراخ ، ولو لم تكن من العتاقى السمان الدسمة . ولكنه يحب أكثر من الفراخ ، هذه الصحبة التى تضم أهل بيته ، وأقارب زوجته ، ومن بين أهل زوجته ، كانت أختها (مقبولة) أحب الجميع إليه ، فقد نشأت فى بيته حتى كانت كابنتيه . لم يرزق أول الأمر ببنت حتى أنعم الله عليه (بحميدة) فكانت (مقبولة) ريحانة المنزل ، وخير عون لأختها ، تغسل الثياب ، وتطهى الطعام . وتسهر على الأولاد وتصلح مابينه وبين شقيقتها إذا تخاصما ، وتدافع عنها إذا هاجمها ، وتدافع عنه إذا اتهمته . وتدافع عنهما عند أفراد الأسرة . إذا قيل عنهما ، ما يقال عادة فى الأسر الريفية عن أولئك الذين يعيشون فى المدينة ، من أن المدن أفسدتهم وأبعدتهم عن الأهل والأقارب ، وعلمتهم البخل بعد كرم ، والكبرياء بعد تواضع وازدادت الابتسامة اتساعاً وزال عنها ما شابها من مرارة وسخرية ، حينما

تداعت الذكريات والخواطر فى رأسه تداعياً متصلا ، فقد ذكر كيف تنظر إليه الأسرة بل القرية ، باعتباره رئيساً ناجحاً ، وشخصاً ذا نفوذ . فلم يكن فاعلا متنقلا تتداوله أيدى المقاولين فتارة فى عمارة بالسيدة زينب ، وأخرى فى الخليفة ، وثالثة فى مصر الجديدة ، ولاهو بائع متجول ، يطارده البوليس ، ويحمل رخصة ويبيت على الأرصفة أو فى حواصيل ينام فيهاأمثاله عشرات فى مكان واحد ليس فيه فرش ولاغطاء ، بل يضعون رؤوسهم ، على حبال مُمَدّة بدل الوسائد ، فإذا أصبح الصباح ، شد المسئول عن الخان أو الوكالة الحبل ، فسقطت رءوس النائمين على الأرض ، فذهب عنهم النوم ، وذهبوا هم ، كل فى سبيله بحثا عن الرزق . . . .

ليس هو من هؤلاء جميعاً ، إنما هو رئيس يلتمس مرءوسوه بين عماله الثابتين و « الزهورات » (غير المثبتين) رضاه ولا يتلقى الأوامر إلا من المهندس ولا ينقص من قدره أن يكون هذا المهندس ، مساعد مهندس فى الحقيقة ، ولكن الناس لاتقنع بندائه (ياحضرة المهندس) بل يبالغون فى الحفاوة به ، واحترامه ، فيقولون عنه(حضرة الباشمهندس) وهو نفسه يتصرف كمفتش ، وإن كان جزعه شديداً إذا لمح من بعيد المهندس الحقيقى قادماً أما إذا كان القادم المفتش ، أو حتى سيارة المفتش فالجزع أكبر ، بل إنه شيء أكثر من الجزع ، لأن وجه حضرة المهندس يصبح أبيض شاحباً كوجه الموتى ، فى الوقت الذى تتحرك عيونه فى محاجرها ، بسرعة خاطفة ، فتذهب يميناً ، ثم يساراً ، ثم تعلو وتهبط ، وتدور حول نفسها ، أما جبينه فيفيض عرقاً . ولكن هذا المهندس لا يكاد يختفى عن ناظره رؤساؤه حتى يصبح مخلوقاً آخر ، ذا عزم ، وإرادة ، وذا هيبة وكلمة نافذة .

جملة الأمر ، أن عم تهامى فى رأى أقاربه ومواطنيه رجل محظوظ ، وكان شعوره بهذا الحظ السعيد ، واعترافه به شديداً ، فى اليوم الذى وقعت فيه الحادثة ، لذلك كان ينظر إلى فرع الشجرة ، الذى كان يقطع وهو سابح فى تأملات جميلة ، وتصورات هانئة . . ولعله لم ير وهو ينظر إلى هذا الفرع ، شيئاً من الفرع نفسه ولا العامل الذى كان ينشره بمنشار طويل حاد ، بل كان يرى (الطبلية) وقد جلس حولها مع زوجته ، و « مقبولة » وزوجها ، وأولادهما ، ثم طبق الملوخية وإلى جواره طبق أكبر فيه فرختان محمرتان على الأقل ، تعززهما توابع ولواحق ، من مثل

الطرشى ، والجرجير ، والفجل . . . وغير بعيد من مكـانهم جميعاً (مشنـة) فيها (البتاو) الذى يخبز فى فرن داره فى بولاق الدكرور وكأن بلده انتقلت إلى ضواحى القاهرة . . .

وفيما هو يتأمل هذه الصور البهية الممتعة ، سقط الفرع لا على رأس الذى سمى قتيلا ، والذى حوسب عليه ، باعتباره متسبباً فى قتله ، بل على رأسه هو . . فالرجل مات واستراح ــ على الأقل هذا ما كان يوحى به مظهره ــ فقد تمدد ، وليس على وجهه ، أية علامة من علامات الضيق أو الاحتجاج أو الغضب ، كأن الحياة لم تكن تهمه فى قليل أو كثير . أو كأن العالم الذى انتقل اليه عوضه خيراً عما كان يلاقيه من فقر وضنك وسوء حال . .

وازدادت روح عم تهامى استقراراً بجلسته الوادعة ، فى هذا الركن الآمن فى تلك القاعة الموحشة ، فأخذ يفلسف . ولعله كان لأول مرة يفعل . . . فقد سأل نفسه لماذا يضربه كل الناس ، ولماذا يشتمونه . ألأن هذا القتيل عزيز عندهم . أم هو صاحب نفوذ . لاشىء من ذلك يدخل دائرة المعقول ، أو يتصل به . فهو رجل فقير ، كما تكشف عن ذلك ملابسه والمكان الذى خرج منه ، عندما دهمه القـدر المحتوم .

إذن فما سر نشاط الناس فى الاعتداء عليه بالسب والدفـع والركـل والصفع أتكون الجريمة كريهة عند الناس ، فهم يعبرون عن كرههم لها . ولكن الناس كانوا يضربونه أولا ، ثم يسألونه عن جريمته ثانيا . والعسكرى الذى صفعـه ، ودفعه وأهانه ، ما كاد يصل به إلى النقطة ، وتركه فيها ، حتى ذهب كل ما كان يبدو عليه من غضب واشمئزاز وأصبح رقيقا لطيفاً ، ومد يده ليأخذ نقوداً منه كأنـه صديق قديم . .

ثم هذا المخلوق الذى ادعى ــ فى اللحظة التى وضع قدمه فيها على باب قاعة الحبس ، بأنه داس عليه ، ثم انهال عليه بأقذع السباب ، ما قصته ؟

ولم تطل فترة الدعة والهدوء ، فقد صرخ الشاب الذى دعاه إلى الجلوس معه على البطانية فى هذا الركن الجميل ، « حاسب حاسب » ودوت هاتان اللفظتان فى أذن عم تهامى ، كأنها الرعود القاصفة ، فقد كانت هاتان العبارتان النذير الذى

أعقبه على الفور حادث الوفاة الذى لا يزال حتى الآن يـدفع ثمنـه غاليـا لاتهامـه بإحداثه .

استيقظ تهامى على هذه الصرخة من تأملاته ولم يفهم سببها ، إلا أن الشاب جذبه جذبا ، ثم سمع على الفور صوت ماء يتدفق فى رتابة ، ويصطدم بالجدار الذى أسند ظهره إليه . . وعرف أن هذا لم يكن سوى بول أحد زملائه فى القاعة . . لم تكن قاعة الحبس هادئة ولكن هذه الفعلة ، كانت بمثابة سكب ماء نار مشتعلة فعلا فقد ساد جميع من فى القاعة اضطراب لاسبيـل إلى وصفه ، فقـد أمسك بعضهم بتلابيب بعض ، ونطح بعضهم بعضاً فسمع صوت الرءوس وهى تتصادم وكأنها الكرات النحاسية أنشب البعض أسنانه فى عنق وذراع من إلى جواره ، وانبعثت من كل هذا صراخ ، وتطايرت له فى الجو شتائم . ولم يدر عم تهامى أين الملجأ ، وكيف النجاة . فقد رأى نفسه وسط دائرة من المتلاكمين والمتصارعين ، يثبون بعضهم فوق بعض ويقلبون بعضهم بعضاً ورأى الدم يتطاير من رءوس لايحفل أصحابها بهذا الدم ، وكأنه يتطاير من غير أجسامهم . . ترك نفسه لأمواج هذه المعركة المتلاطمة تدفعه أماماً وتقذف به إلى الخلف وتقربه إلى ركن ، ويناله بين الحين ، ضربة من قبضة يد . أو رشاش متطاير لا يعرف ما إذا كان دماً أو بصاقاً أو بولا . . .

والعجيب أن هذه المعركة الحامية كما بدأت بلا مقدمات ، انتهت فجأة وذهب كل من اشترك فيها إلى ركن أو ناحية وهو يلعن أو يسب أو يجمع ما تمزق من ثيابه أو يمسح ما تفصد من دمه أو عرقه .

والأعجب أن هؤلاء المتشاجرين بدأوا يديرون بينهم حديثا وديا ، كأن لم يكن بينهم قتال ولا حرب ولم يبق من آثار هذه المعركة سوى أن بعضهم أخذ يدق باب القاعة ، فى طلب الشاويش الذى جاء بعد لأى وسأل من خلف الباب عن سبب الدق فقالوا له إن فى القاعة بعض الجرحى ، وأنهم فى حاجة إلى إسعاف من قطن وشاش ، ومطهرات ، فسأل عن سبب جرحهم فقالوا له عن السبب فلعن أمهاتهن وأعراضهن ، وقال لهم إن الأفضل أن يموتوا ، وأن الشاش والقطن خسارة فيهم . فداعبه من خلف الباب صاحب صوت عريض غليظ فضحك الشاويش من خلف

الباب أيضاً وسأل عن ابن الكلب الذى قال هذه النكتة المليحة ، فقيل له (أبو صفيح) فلما سمع اسمه ، استغرق فى الضحك ودعا عليه بخراب بيته وبيت أبيه فرد (أبو صفيح) على هذا الدعاء بضحكة ، وقال له إنه بهذا الطلب سيحير الله سبحانه وتعالى لأنه ليس له بيت حتى يمكن أن يخرب ، وما كان لأبيه بيت أبداً . فعاد الشاويش إلى الضحك ، ووجد أن الأمر قد وصل الى حد يجب أن يفتح معه الباب ، وأن يتبادل الحديث مع أهل القاعة ، ففتح الباب فتدافع أكثر من فيها نحوه ، ووقفوا يتكلمون مع الشاويش ، يسبهم حيناً ، ويداعبهم حيناً آخر ويهدد بضربهم بالحذاء ، أو بقطع رقابهم ، ويأذن لواحد منهم أو ، اثنين آخر الأمر ليضعا قطناً وشاشاً على الجروح .

أما عم تهامى فكان بوده أن يسأل عن السبب الذى حدا بزميله فى القاعة أن يتبول عليه وبعد هدوء العاصفة تبين أن فى وسط القاعة دلوين من الصفيح أو الصاج ، واحدا منهم وضع ليشرب منه المحبوسون والثانى ليتبولوا فيه ، ويقضوا حوائجهم . وأن الدلوين متشابهان ومتجاوران . بحيث يصعب التمييز بينهما . وأن بعض من يصل إلى هذه القاعة مخموراً أو مخدراً أو متعباً ، أو قليل خبرة بها ، يفضل أن يقضى حوائجه فى غير الدلو المخصص . وأن هذا يغضب بطبيعة الحال بقية سكان القاعة ، فيحدث الشجار والعراك . . ثم يعقبه الهدوء لأنه شجار (قائم على مبادىء) لا صلة له بالحزازات الشخصية لأن الذين يتعاركون لايرون وجوه بعضهم بعضاً فى الظلام ، ولأنهم لايعرفون كذلك بعضهم بعضاً عادة . فإذا ما أرضوا ما فى نفوسهم أخلدوا إلى الراحة ، ومالوا إلى السكوت .

وبدأ عم تهامى يألف ظلام الحجرة وأسلوب نزلائها ، فأدرك أنهم على شدة ميلهم للشجار ، كرماء لا يكون مع أحدهم شىء يؤكل إلا ودعا كل زملائه ليشاركوه فى الأكل . ولا يشكو أحدهم شيئا إلا وخف جميع زملائه لمواساته والتخفيف عنه .

وقد كشف عم (تهامى) أن (الحبسخانة) لم تكن سوى صورة مصغرة للدنيا . فإن الهدوء الذى ساد القاعة بعد المعركة لم يلبث حتى عكرته حادثة صغيرة أخرى . فقد رفع أحد الأشخاص عقيرته بالغناء فتضايق جاره فتماسكا ، فاندلعت

نار الحرب مرة أخرى ، ورأى عم تهامى نفسه فى وسط الدوامة من جديد ، يرفع ويخفض ، ويجذب ويشد ويلعن وتقع عمامته ، ثم يرى نفسه على الأرض ثم يسود الهدوء فجأة . ولم يكن اضطراب الحجرة راجعاً فقط إلى المشادات والشجار فقد كان بابها لايقفل ، حتى يفتح عن قادم جديد ، مرة يكون سكيرا يعربد ، وأخرى جريحا يصرخ ويتألم ، ويتأوه ، وثالثة رجلا يكاد يكون عارياً إلا من خرقة تستر بعض عوراته ، ورابعة صبية صغار من جامعى أعقاب السجائر أو متسولا لا يرى أو يدعى أنه لايرى أو شيخاً عجوزا ذا لحية ، وعمامة ، يضع فى رقبته سبحة طويلة ويزعم أنه من أولياء الله ، ويهبط عليه الوحى المرة بعد المرة فى صورة صيحات طويلة ممطوطة ، قد لاتعجب بعض أهل هذه القاعة المنحوسة ، فيطلب إليه أن يسكت ، فيتعصب له آخر أو آخرون ممن يبحثون عن سبب للمشاجرة والمصارعة وهكذا وهكذا .

وقبيل منتصف الليل ود « عم تهامى » لو ينام ، وكان السكون قد ساد قليلا ، مما أغراه بهذا الأمل ، وزين له هذا الحلم ، ولكن حلمه وأمله تبدد بدخول سكير ، وكان سكره بيناً ، فقد دخل وسط القاعة كثور المصارعة ، وكان يرتدى طربوشاً ، فوق رأس انتفش شعرها ، وكان يرتدى معطفاً فوق جلباب ، فخلع المعطف وألقاه فى الأرض واتجه إلى الباب يدقه بيده دقا متصلا وأحب الشاويش أن يعطيه (شوية ميه بس) وكان إصراره على كلمة (بس) محل تندر جميع الموجودين فى القاعة ، فقال له بعضهم لماذا لا تطلب ويسكى أيضاً ؟ لماذا هذا التواضع والاقتصار على طلب الماء .

وبطبيعة الحال لم يسأل الشاويش عنه ، واستمر هو يستعطفه ويرجوه ويلح فى الرجاء ، حتى أصبح ذلك الرجاء غاية فى ذاته ، فقد التصق بالباب ، وأخذ يردد (شوية مية بس) فى صوت خفيف رتيب وكأن سماع كلمة الماء تلطف من اشتعال جوفه بالخمر الرخيصة التى شربها ولعله راح فى إغفاءة وهو واقف ، فلم يبق مستيقظاً منه سوى لسانه الذى استمر يكرر نشيده .

ولما أوشكت شمس النهار على الشروق ، غاب عم تهامى عن الدنيا وراح فى نوم عميق ، لايدرى كم طال ، ولا متى وقع . . . إن هذا الساحر العجيب الذى

يرتفع بنا فوق الهموم والأحزان والهواجس وفوق المخاوف والوساوس ، جاء لعم تهامى ، أسدل بينه وبين زملائه فى قاعة الحبس أستاراً وحواجز ، فأسلم نفسه لهذه الغفوة النفيسة الغالية ، وأتاح بذلك فرصة لمخلوقات صغيرة أخرى تشارك أهل هذه القاعة الحياة فيها ، لترعى جسده وتأخذ نصيبها وحقها المعلوم ، من دماء من ينزل بساحتها .

ففى شقوق كل (حبسخانة) وفى أركان نوافذها ، وعلى حوافى الدلوين اللذين يستعملان للشرب ولقضاء الحاجة ، تعيش كل أنواع الهوام .

فمن براغيث إلى قمل . وهى تسير جماعات وراء جماعات ، ومقاومتها تزيدها قوة وجرأة ، فهى لا تقاوم إلا بتسليط شعلة نار عليها من موقد يستعمل البترول لإشعاله ، ويحدث هذا الموقد صوتاً شديداً ، ألفت الهوام والحشرات سماعه ، وعرفت معناه ، فما يكاد يقترب من باب الحجرة ، حتى تدخل فى شقوقها وتطل برأسها بين الحين والحين ، لتغيظ هؤلاء الذين قرروا القضاء عليها والتخلص منها .

على أن عم تهامى استيقظ من نومه مذعوراً فقد أحس بأن كل جسمه يشتعل بحمى قاسية ، عرف فى الحال أنها انتابته أثر هجمة مركزة من أعوان سلطات التأديب والعقاب فى الدولة ، من البراغيث والقمل وأضرابها . فأخذ يمد يده إلى عنقه : أعلاها وأسفلها ، وحول آذانه ، وتحت إبطه ، وعلى سيقانه ، وفى كل مكان ، كان يجد هذه الحيوانات الضارية ، متجمعة ، تمد خراطيمها الصغيرة النشيطة إلى جلده فتثقبه فى سرعة وهمة ، وتملأ بطونها بشىء من دمه ، كثير فى نظرها ، قليل فى تقديرنا ، وتلفت عم تهامى حواليه ، فرأى نفسه فى مكان لم يدر كيف جاء إليه ولماذا دخل فيه . فقد نام عقله نومة عميقة من أثر الجهد والعناء الذى كابده ، فنسى أمسه بكل مافيه . نسى فرع الشجرة الذى سقط والرجل الذى مات ، والمظاهرة التى أحاطت به ، والتحقيق الذى جرى والإهانات التى انهالت على رأسه ، ونسى مادار فى قاعة الحبس من معارك ، وما سال فيها من دماء ، وما تطاير فى جوها من شتائم . نسى الوجوه العجيبة التى كانت تدخل من باب هذه القاعة ، وكأن هذا الباب جراب ساحر عجيب ، يخرج منه كل غريبة وشاذة ، ومثيرة للدهشة ومحركة للفضول ، وبسمل عم تهامى ، ورأى لسانه يتحرك بآيات

يرددها من حيث لا يدرى ولا يفكر عند الروع ، ووقت الشدة ، وختمها بقوله مراراً « الحمد لله رب العالمين » .

ورأى الشمس تبسط نورها على الحجرة ، فرأى ألواناً من الناس لو اجتمعوا فى سيرك لأضحك مرآهم النظارة ، فمن شيوخ ذوى لحى ، على رؤوسهم طراطير خضراء . . . انخلعت من فوق الرؤوس ، واستقرت إلى جانب أصحابها ، الذين انطرحوا على الأرض كالقتلى سيقانهم مكشوفة قد تباعد الواحد منها عن الآخر ، وإلى جوارهم آخرون فى خرق تكشف عن أجسامهم ، وإلى جوار هؤلاء وهؤلاء (أفندية) يلبسون الملابس الأوربية من بذلة وقميص وربطة رقبة ، وقد اتخذ بعضهم من ستراتهم وسادات ومساند ، وإلى جانبهم أحذيتهم الغالية ، وفوقها جوارب وقد ترددت أنفاس هؤلاء جميعاً فى انتظام ورتابة ، وانبعث من بعض الأنوف شخير مزعج متقطع أو شخير مزعج متصل ، ولكن الأذن بعد قليل تعتاد هذه المجموعة من الأصوات ، وتكون لنفسها منها نغما مقبولا .

أمّا عم تهامى ، فقد تأمل فى الوجوه ، وكأنه قائد يقوم بجولة بعد معركة ، ليرى فى ميدانها الجرحى والقتلى ، وفيها يتأمل فى هذه الوجوه وقلبه دون عقله ، مأخوذ بمظاهر التعاسة والبؤس البادية عليها ، من أثر مخاوفها من المستقبل ، وتعبها فى الحصول على الرزق ، وجهادها فى الهرب من وجه السلطات والقوانين . .

وبدأ عقله يثوب إلى نفسه قليلا ، فطالعه لأول وهلة ، وجه الرجل الذى قتله ، رأى الرجل طريح الأرض ، وعيناه مغمضتان . ورآه ، فى موضع آخر حينما عاد مع الضابط لإجراء المعاينة ، وفى هذه المرة رأى على وجهه قطعة من صحيفة هى كل ما استطاع الناس ، أن يغطوا به هذا الجثمان . فما بالهم ، يهينونه ، ويضربونه ، ويحققون معه ، ويجرون المعاينات ويحررون المحاضر ، إذا كان هذا القتيل قليل الشأن مهيناً ملقى به على هذه الصورة فى الهواء بلا احترام ولا توقير . . .

وقال عم تهامى لنفسه « يارب حكمتك » .

ولكن صورة أخرى قفزت إلى رأس عم تهامى ، مسحت من صفحة رأسه كل

هذه الصور . . إنه يذكر الآن شيئاً غريباً لايدرى أين رآه . ومسح جبهته بأصابعه ، وهو يعتصر ذاكرته اعتصاراً . ويقول « لا حول ولا قوة إلا بالله » . . .

إنه رأى السيد البدوى . ؟ ولكن كيف ومتى ؟ نعم كيف ، وهو بين أيدى البوليس لايدعونه لحظة . حتى أودعوه هذه الحجرة المعتمة المخوفة العجيبة . . .

ومتى ؟ وآخر عهده بالدنيا ، عند الشجرة ، وليس معقولا أن يأتى السيد البدوى هناك .

آه لابد أن يكون ذلك رؤ ية رآها فيما يرى النائم ، وتعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

إذن لقد جاءه السيد البدوى فى المنام ، واتضحت له الأمور اتضاحا كاملا وأخذت أجزاء الحلم ، تتجمع شيئاً فشيئاً ، حتى كمل أمامه . . .

لقد رأى نفسه على حافة ماء ، لايدرى إذا كان ذلك بحراً أم نهراً ، أم ترعة أم بركة ، ولكنه ماء عجيب فهو يراه غيط قمح صغير ، سنبلاته ضئيلة ، ومع ذلك فقد كان الحلم مصرا على أن ذلك الغيط ، هو ماء وهو نائم على شاطئه ، يكاد يسقط فيه . ولكنه يحاول أن يبقى بعيداً عنه وهو بين النائم والمستيقظ . هو نائم لأنه يخشى أن يسقط فيه ، أثناء نومه ، ومع ذلك هو مستيقظ ، يرى جمالا وحميراً تسير إلى ناحيته وتقف . ولا يرى معها أحداً يقودها . وكاد يسقط فى الماء على الرغم من أنه يبذل مجهوداً شديداً لكيلا يقع ، لولا أن يداً امتدت اليه ، وأمسكته ، فلم يدر أهى امتدت إليه لتنقذه من السقوط ، أم امتدت إليه لتلقى به فى الماء ، لأنها أمسكت به من خناقه حتى كاد يلفظ أنفاسه فرفع رأسه إلى صاحب اليد ، فإذا هو نفس هذا المجذوب الذى دخل قاعة الحبس ، يلبس طرطوراً ويمسك مسبحة طويلة ويضع أخرى فى عنقه . . ولكنه بلا لحية طويلة ووجهه جميل ، مع ذلك إذا نظر اليه ، خاف خوفا شديداً ، كأن عينى هذا الوجه الجميل تسخر منه ، وتعذبه ، وسمع هذا الرجل أخيرا يوجه الكلام إليه ، ويقول عفوت عنك هذه المرة . . ولكن إياك أن تؤخر مانويت عليه .

لم يقل أحد فى الحلم لعم تهامى ، إن هذا هو السيد البدوى وهو نفسه لم يقل

عن نفسه شيئاً من هذا ، ولكن كما يجرى الأمر فى الأحلام ، استيقظ وهو يحس أن هذا الرجل ، تقدم إليه باسم السيد البدوى » .

حينما وصل عم تهامى إلى هذا الموضع من حكايته لليلته ، اربدّ جبينه وشمله تجهم عجيب وقال : « ياأرحم الراحمين عفوك ورضاك . . سترك ورضاك . . لطفك ورضاك » وتأثرت نفسى بهذا الدعاء المتكرر وشعرت بأن محنة عم تهامى الباطنية قربتنى منه ، فلم يعد فى نظرى كرسياً يحتاج إلى مسمار ، ولا مقعداً يعوزه طلاء أو دهان . ولم أعد فى نظر نفسى نجاراً ، فبين يدى نفس تتعذب ، وإن كان عذابها لاشأن له بالقضية التى تشغل البوليس ، والتى توشك أن تنتقل إلى يدى النيابة .

وسمعت فى هذه اللحظة صوت حميدة ، تقول لأبيها ، وهى تقاوم شعوراً شديداً بالتشاؤم غمرها ، عندما سمعت قصة الحلم : خير . . اللهم اجعله خيرا يابو حنفى . . فالتفت إليها ، وعلى شفتيه هذه الابتسامة التى تضىء وجهه كلما رفعت على فمه : اللهم اجعله خيرا يابنتى . . .

ولكن حميدة أحست بالقلق ، لأن السيد البدوى أراد أن يخنق أباها ولأن أباها كاد يسقط فى البحر ، ولأن الجمال كانت بلا حارس . . أيكون أبوها قد أغضب السيد البدوى ، وخالف شيئاً من أوامر الله فحق عليه العقاب . أو تكون الجمال هذه هى أسرتهم ، ستبقى بلا حارس ولا قائد . « ياحفيظ يارب . . . ! » .

ووقع نظرى على عبد الجابر ، فوجدته ينظر إليها ، بكل عيونه ، وجوارحه ، إنه يود أن يبقى هكذا إلى جوارها ، إلى الأبد ، ونقلت عينى إليها . فرأيتها فعلا جميلة . كانت عيونها التى شملتها سحابة القلق قد ازدادتا اتساعا وزاد بريقهما التماعا ، وكان ذراعها الأيمن العارى ، الذى تستعمله دون الذراع الذى كان ممسكا بملاءتها ، حسن التكوين ، لاهو ضعيف نحيل معروق ولا هو ممتلىء مكتنز غليظ . والدم الذى يجرى فى عروقه قد أحاله ورديا .

وأكذب لو ادعيت أن حميدة لم تشغلنى ، وأكذب أيضا لو قلت إنها كانت بالنسبة لى فى هذه اللحظة أكثر من منظر جميل ، فقد كنت مشتت النفس ، موزع المشاعر ،

كنت أسمع القصة وأنا أفكر فى دورى فى القضية كنت أريد أن أذهب إلى وكيل النيابة ، مع عم تهامى وأن ينتهى هذا الانتظار المرهق ، وقد زادتنى هما وخوفا القصة التى رواها عم تهامى بعباراته المتقطعة التى أصبحت فى نظرى آية من آيات البلاغة ، فلم تكن ثمة صورة للمجتمع أبشع ، ولا أدعى للجزع من هذه الصورة . ومع ذلك كنت أجد فى النظر إلى وجه (عم تهامى) راحة وطمأنينة وثقة بالمستقبل ، فالرجل لم يكن منهاراً ولا يائساً على الرغم من كل الذى قاله ووصفه . . كان هادئا ولكن الذى كان قد استبد باهتمامه ، ما قاله السيد البدوى له ، فرفع رأسه ووجه الكلام إلىّ لأول مرة :

ــ ياأستاذ . . أنا غلطت ، وأستحق كل ما جرى لى . لقد كنت نويت أن أحج هذا العام ولكن ماذا تقول فى الشيطان لقد وسوس لى بأنى فى حاجة إلى عملية (فتق) فقلت نعمل العملية هذه السنة ، ونحج فى السنة القادمة .

هذه عاقبة المترددين . . ألا تظن أنى غلطان ؟ ونظرت إلى ابنته حميدة ، وكأنها تستنجد بى لأقول لها ، ولأبيها إنه لم يخطىء . . وشعرت بأن هذه الجماعة التى كنت منها بمثابة الغريب الطارىء ، أقوى منى كل منهم يؤمن بنفسه وبأسلوب حياته وأنا ببذلتى الأوربية ، وبطربوشى الشرقى ، وبدراستى الحديثة ، وبرواسب معتقدات أهلى القديمة ، جهاز مفكك الأوصال لايعمل . .

فالرجل لا تهمه النيابة ولا البوليس ، ولاينتظر على يدى المحامى شيئاً لا خيراً ولا شراً فهو مشغول بنفسه ، وهو يبحث عن أخطائه ويرد إليها ما أصابه وابنته كالحيوان البرى الذى يعيش فى الغابة ، تحس بمفاتنها إحساساً غريزياً ، وتكشف عنها بسذاجة وبساطة . وعبد الجابر القشرة الحديثة التى تعلو جوهره ، رقيقة جداً ، فهو فى الحقيقة يلبس جلبابا على جسمه وطاقية على رأسه وقبقابا فى قدمه ، وإن كان يظهر للناس فى زى الأفندية . . أنا وحدى الغريب .

وعاد عم تهامى يسأل . . . « ألست مخطئاً ، ومذنباً وأستحق الجزاء ؟ » .

ولم تدعنى حميدة أجيب فقالت : « والله يابو حنفى خير . . السيد البدوى أنقذك وأيقظك . . ماذا تطلب أكثر من ذلك اتكل على الله . . ولا تخش شيئاً » .

ولكن عم تهامى ، كان يريد منى أنا أن أجيبه . وأقول صادقا ، إن هذا السؤال أربكنى لأنى كنت من السذاجة والصدق إلى الحد الذى رأيت معه أنه لا يجوز لى أن أقول أى كلام رداً على سؤاله وكانت المشكلة التى عرضها عم تهامى علىّ ، مشكلة جديرة بالنظر والتأمل ، فقد كان صوته وهو يعرضها علينا ، وصوته وهو يسألنى الفتوى والمشورة صادقا غاية الصدق . وقد كان تأثرى بالصدق والصادقين منذ طفولتى هو أقوى بواعث نفسى . .

قلت له : وأنا لاأدرى ، كيف قفزت إلى لسانى هذه العبارة التى قلتها :

« كيف تتصور الله ياعم تهامى . . ؟ » .

قال الرجل : أتصوره كبيراً . . أكبر من كل شىء الله أكبر .

قلت له : أتتصوره رحيما أم منتقما جباراً .

قال الرجل وقد أعجبه كلامى : الله أكبر . . إنه الرحمن الرحيم .

قلت له : إذا كان الله رحمانا ورحيما ، فكيف يوقعك فى هذا المأزق لأنك لم تحج وأنت مريض . .

ولكن هذه المناقشة لم تعجب أحداً . لم تعجب عبد الجابر ، ولم تعجب حميدة ، وعلى كل فهى لم تطل ، فإن مدبولى جاء يحمل معه رغيفاً مشقوقاً ، تطل منه قطع من لحم الرأس ، وأعطاه وهو يلهث « لعم تهامى » وقال له : « الرغيف سخن وبنار الطابونة . . » .

ونظر تهامى ، إلى الرغيف ومدبولى يدسه فى يده دسا وكأنه لايفهم ما يجرى ، بل كأن نظره لم يقع على رغيف من قبل . فقال متسائلا ، تساؤلا مقروناً بالاحتجاج « ماهذا . . والله أنا مالى نفس . . » . فقالت حميدة وهى تربت على كتفه : كل ياابو حنفى ووضع تهامى يده داخل الرغيف فى تثاقل شديد ، وأخرج قطعة لحم ، مع قطعة خبز ، وبقيت فى يده ، لايرفعها إلى فمه واستأنف كلامه :

« كان الحج أولى . . فالإنسان لا يضمن عمره وإذا مات قبل أن يجرى عملية ، لايهم فنحن جميعاً سنصبح دوداً . بعملية أو بلا عملية سيتساوى عبيد الله . أما العمل الصالح فهو الباقى ، وبه نتفاضل بين يدى خالق الخلق » وتضايق عبد الجابر من هذه الفلسفة ، فقال بعصبية : « كل ياعم تهامى . . إحنا فى إيه ولا فى إيه »

والواقع أن عصبيته كان سببها أن مدبولى عاد وأخذ يكلم حميدة ويروى لها كيف اشترى لحم الرأس ، وكيف صمم أن يكون الرغيف ساخناً وطازجا .

وقبل أن يضع عم تهامى اللقمة فى فمه ، جاء شخص يجرى يقول : « البك وكيل النيابة . . البك وكيل النيابة » وجاء العسكرى يسحب (تهامى) ليأكل ، لأنه أصبح من المتوقع بين لحظة وأخرى ، أن يدعى للمثول بين يدى وكيل النيابـة ، واعتذر تهامى عن الأكل قائلا : « والله . . . أنا مالى نفس » وأغلظت حميدة له فى القول حينما سمعت الاعتذار ، وصممت على أن يأكل شيئاً ورأيت أن أصعد إلى حيث يقع مكتب وكيل النيابة ، فى الدور الثانى كما قيل لى . وصعـدت والصور المختلفة التى امتلأت بها حكاية عم تهامى ، وصور حياتـه ، وما وقـع على بـاب المحكمة فى الصباح ، وما رأيته فى دار المحكمة ، وعلى باب قاعة الحبس . . . كل ذلك يتزاحم على مخيلتى ويتدافع ، ولا يدع لى الفرصة التى أسأل فيها نفسى ، ماذا يطلب منى ؟ مالذى سأقدمه لهذا الرجل البائس التعس . . . هل سأتـرافع هـل سأسكت . وقلت لنفسى إن شيئاً من هـذا لم نتعلمه فى كليـة الحقوق وصعـدت السلالم ، دون أن أتبين أننى أخوض فى عالم من الأحياء لايجتمع عادة فى مكان آخر ، ودون أن تستوقف نظرى حالة المبنى الذى يعرض فيه أنه محكمة ، حتى رأيتنى أمام باب مفتوح على المصاريع يقف على بابه ساع أى حاجب ينظر إلى ناحية معينة ، نظرة المتوقع قدوم شخص فعلمت أن (البك وكيل النيابـة) لم يصل بعـد ، وأن هذا حاجبه ، فـوقفت أنظر إلى النـاحية التى التفت إليهـا الحاجب ، حتى هـل وكيل النيابة . . .

إنى لم أصدق عينى . . إنه نبيه الإسكندرانى . . زميلى فى الكلية . . إنه يسبقنى فى الدراسة بثلاثة أعوام . كان فى الليسانس ، حينما كنت فى السنة الأولى ، ولكن ظروفاً كثيرة جمعتنا سوياً ، منها رحلة إلى البلاد العربية ــ كما كنا نسميها فى تلك الأيام ــ أى إلى فلسطين ولبنان وسوريا .

وأحسست بقلبى يكاد يقفز من صدرى ، لاأدرى فرحا أم خوفاً أم خجلاً . . فرحاً بأن المحقق من زملائى ، ومن حقى أن أتوقع منـه معاملة حسنـة ، أو على الأقل ، أن يطمئننى ويأخذ بيدى ، وخوفا من أن أخطىء أمام زميلى ، أو أن يلحظ

اضطرابى ، وعصبيتى وخجلا من أن يرانى واقفا على بابه ، بينما يقدم هو تحيط به هالة السلطان والسيادة . وعلى الرغم من هذه المشاعر المضطربة ، فأنا فى الواقع لم أكن سعيداً ، لأن أول وكيل نيابة أباشر عملى معه ، كان نبيه بك الإسكندرانى . فلم يكن من الطراز الذى يعجبنى . كان مفهوما لدينا أنه من أوساط الناس ، ليس غنياً ، وإن كان مستور الحال ، ولكنه كان يصر على أن ينسب نفسه إلى الأغنياء وقد أعانه على ذلك أنه كان يمتلك سيارة سوداء ضخمة لعلها العنصر الوحيد الظاهر من عناصر الثروة . وكان يعزز هذا العنصر ، بأناقة فاقعة ، فملابسه حريرية دائما ، فالشراب والمنديل والقميص وربطة الرقبة ، صيفا وشتاء من الحرير الخالص ويقول زملاؤنا فى الرحلة إلى البلاد العربية ، إن ملابسه الداخلية أيضا ، كانت من الحرير الخالص وهو يتعطر بعطور غالية ، لكنها كانت فى رأيى ، ورأى أمثالى أنها لا تليق بالرجال . ولما كان من مظاهر الغنى فى أيامنا ، ومن علاماته ، أن يتكلم الأغنياء الفرنسية ، فقد كان نبيه يحاول جاهداً أن يلتقط من هنا ومن هناك كلمات وجُملاً ، كنا لا نراها دليلا كافيا لإثبات ثرائه . ولكن نبيه آخر الأمر ، شاب طيب القلب مكفوف الأذى ، فهو ممن لا يمتد لسانهم ولا يدهم بالأذى وهو لا يتعالى على زملائه بالقدر الذى يحرجهم ، مكتفياً بالقدر الذى يجعلهم يعتقدون أنه من ذوى العلاقات الهامة ، فهو يعرف المشهورات والمشهورين من بنات وأبناء المجتمع . .

وكان نبيه بك طويلا ، بادناً بدانة لا ترهل فيها . فلما هلّ رأيت طربوشه فى يده ، تاركاً شعره الأسود يلمع لمعاناً صناعياً ، الفضل فيه « للبرليانتين » وغيره من المعاجين التى كنا نسمع أحياناً عن اسمها ، دون أن نعرف شيئاً عن شكلها أو لونها ، وبالتالى عن ثمنها وكان الطربوش فى يده يحركه إلى الأمام وإلى الخلف ، فى حركة رتيبة ، تكاد تتفق مع وقع خطاه ، وبينما يتجه إلى مكتبه ، وقف على اليمين وعلى اليسار ليرى من اجتمع فى الردهة المؤدية إلى ذلك المكتب ، وهم بين عسكرى يسحب وراءه صبياً فى إحدى يديه الأغلال ، وفى اليد الثانية رغيف عيش ، فوقه شىء من الملح ، وبين كاتب عمومى جمع ثيابه حسبما اتفق له فجاكتته حمراء ، وبنطلونه أزرق ، وقميصه أصفر ، وربطة رقبته لا تعرف لها لوناً ، وطربوشه قديم ، تبدو عليه الرثاثة ، ومع ذلك فهو مائل على جبينه وفى جيبه العلوى الصغير يطل منديل بينما تطل من جيوبه اليمنى واليسرى أوراق كثيرة ، ويضع تحت أبطه ـ

تأدباً ــ ملف أوراقه الذى يقوم مقام المكتب . أو كاتب محام ، يبدو أكثر ثراء أو أقل فقرا من الكاتب العمومى ، فالبذلة وإن كانت قديمـة ، إلا أنها متجانسـة ، فهو لايحتاج إلى ادعاء الأناقة ، كما لا يحتاج إلى أن يكون فى مثل اللهفة والنشاط والميل إلى الثرثرة التى يكون عليها عادة الكتبة العموميون الذين يحتاجون إلى عرض أنفسهم على الزبائن من مطلع النهار . حتى ختامه .

ووقف مـع هؤلاء ، رجال من مختلف الأطرزة من أصحاب الحاجات ، أو من أقارب المتهمين ، أو من الشهود المطلوبين لأداء الشهادة ، فمنهم المـوظفون وذوو الأهمية ، كموظفى الطب الشرعى وخبراء الخطوط ، ورجال المباحث ، ولابسى القفاطين والجلاليب ، والعباءات ، وبذلات العمل . وقف هؤلاء جميعاً احتراماً لمقدم وكيل النيابة فلم يكن جالساً سوى امرأة بدينة ، افترشت الأرض ، فى دائرة كبيـرة ، يزيـد قطرهـا عن المترين ، وقـد جلس إلى جوارهـا طفل تعـرى نصفه الأسفل ، وتعلق بساقها الممدودة ، كـما يتعلق البستانى بجـذع شجرة . وتـركت الطفل على هذه الصورة ، بينما ضمت إلى صدرها العـارى طفلا آخـر ، أسلمته ثديها ، فراح يعتصره اعتصاراً ، وهى لاهية عن الطفلين معاً بحديث طويل استمع إليه نسوة كن جالسات معها . ورجال كانوا واقفين يطلون على هذه الحلقة فيسمعون حيناً ويتشاغلون عنها حيناً آخر .

عجزت هذه المرأة البدينة عن المشاركة فى مظاهرة (الأدب) التى شملت من اجتمع فى الردهة المؤدية إلى مكتب البك وكيل النيابة ، فقد عاقتها عن الاشتراك فيها ، بدانتها ، وبطء حركتها ، ومع ذلك فقد ساهمت بالقدر الذى استطاعته ، فنزعت الثدى من فم الطفل ، وسحبت رجلها الممدودة ، فسقط الطفل الثانى على وجهه ولكنه لم يبك ، لأنه أحس بغريزته برهبة المناسبة التى أسقطته عن عرشه الذى كان قائما على ساق أمه ومع ذلك لم يسد الصمت كما يجب فقد كان فى الـردهات المتصلة بهذه الردهة ، جموع غفيرة كان من بين هذه الجموع ، بائع عرقسوس يدق فى يده دقا خفيفاً احتراماً للمحكمة إناءين من نحاس ، لفتاً للنظر ، وكما كان هناك بائع حلوى وفطائر ، وكعك وسجائر وطوابع بريد وشطائر ، وجرائد وروائح ، ودلائل خيرات ومدائـح . وهكذا وهكـذا . . . ولم يسكت كل أولئك بل استمـروا فى صراخهم وصياحهم ، وبيعهم وتجارتهم وأخذهم وردهم ، وواصل البك وكيـل

النيابة سيره إلى حجرته ، لايبدو عليه أنه يرى الذين اصطفوا على الجانبين ، ولا يرد التحية لمن رفع يده من العساكر والموظفين بالسلام ، والعجيب أن هؤلاء لم يغضبوا حينما تجاهل وكيل النيابة تحيتهم وأغضى عن سلامهم ، كأن ذلك من الأمور الواجبة الوقوع . عليهم أن يحيوا ، وله ألا يلتفت إليهم ، ولايهتم بهم . ووصل وكيل النيابة إلى حجرته متثاقلا يبدو عليه شيء من الإعياء وعدم الارتياح ، حتى أصبحنا وجها لوجه . . .

واشتدت ضربات قلبى ، وأحسست بأن وجهى شحب ، لاضطرابى الشديد . الناجم من حيرتى العظيمة ، ماذا أفعل ؟ هل أحييه أم هل أنتظر حتى أرى ماذا يفعل ؟ أم هل أتوارى عن نظره حتى حين موعد قضيتى ؟ . .

ومرت لحظات ثقيلة على حتى دخل وكيل النيابة مكتبه . إنه لم يرنى إطلاقا أى أنه لم يلحظنى . هل تعمد ذلك أم أن ذلك وقع فعلا ؟ ولم يكد يدخل وكيل النيابة إلى حجرته حتى عاد فى الحال الهرج والمرج فى الردهة التى يقع فيها مكتبه . استأنف المتشاجرون شجارهم ، وجلس الكاتب العمومى على حافة كرسى مكسور ، لا مقعد له ، ليكتب عريضة كان قد بدأها ، ووثب الطفل إلى ساق أمه ، وعاد الطفل الثانى إلى ثديها ، وهكذا دبت الحياة المتدفقة إلى هذه الردهة . .

ووقفت أنا ، أنتظر دورى . . .

ولم يطل انتظارى ، فقد سمعنا حركة شديدة ، رأينا على أثرها مجموعة من الرجال والأطفال كان وسطهم (تهامى) يندفع مع التيار ، ولايملك لنفسه حولا ولا قوة ، ومنهم ، الشاب الطويل ذو القوام اللدن ، الذى كان بطل حادثة الصباح أمام دار المحكمة ، وفى الخلف رأيت حميدة ومدبولى ، وعبد الجابر ، ورأيت « كايداهم » الشابة التى أقامت الطريق وأقعدته ، حينما مستها عصا العسكرى ، وحينما وقع نظرى عليها ، تذكرتها كما تذكرت بطلات القصص المسرحية والروايات السينمائية ، اللواتى يغبن عنا ، فإذا عدن ، تداعت لهن ذكريات أدوار مجيدة لعبنها ، وأحسن أداءها ، وتبعث صورهن فى عقولنا وقلوبنا الإعجاب . كانت تبدو من خلف هذه الجماعة المتدافعة ، التى تضم أنماطا مختلفة من أبناء آدم ، معتزة

لايبدو عليها أن شيئاً مما يدور حولها يربكها أو ينال من كبريائها ، فبدت حميدة إلى جوارها ، ضئيلة ضعيفة شاحبة .

وبدأ الحاجب ينادى على المتهمين واحداً ، بعد واحد ، فيدخلون فرادى إذا كان لكل منهم قضية مستقلة ، أو يدخلون اثنين أو ثلاثة أو أربعة إذا جمعتهم قضية واحدة . حتى نودى على (تهامى) فدخل يتعثر فى خطاه ، وهو يتلو شيئاً من القرآن ، فبرزت حميدة من ورائه وبودها أن تدخل معه ، ولكن الحاجب دفعها ، وانتهرها ، فلم تحفل بانتهاره ولابدفعه ، وقالت لأبيها فى صوت قوى ، يفيض ثقة وثباتاً ، « ربنا معاك » فتمتم أبوها « اللهم آمين » ، ودخلت من خلفه ، وكأنى أنا الذى سيقف بين يدى وكيل النيابة موقف الاتهام .

رأيت زميلى السابق خلف مكتب صغير ، ليس فيه من جلال القضاء قليل أو كثير ، فى حجرة ضيقة ، يغطى أرضها شىء لا هو بالبساط ولا بالكليم ، ولا بالسجاد . اختفت ألوانه ، وانتشر على سطحه بقع سوداء وبنية ، وثقوب صغيرة وكبيرة ، وتوزعت فوقه أعقاب السجائر طويلة وقصيرة مصرية وأجنبية وصفت على أطراف هذه السجادة ، وذلك البساط كراسٍ ضخمة من الجلد ، كانت فى قدم السجادة ظهرت تحتها أجزاء من الأسلاك النحاسية «الزنبركية» التى كان مفروضا ، أن تجعل الجلوس على تلك المقاعد مريحا ، فناءت على مر الأيام تحت ثقل الجالسين من الأوزان المختلفة ، ولم تسعفها يد بالعلاج أو الترميم أو الصيانة فزدات من قبح الحجرة وسوء منظرها ، ولم يبق فى هذه الحجرة ما يستحق أن يذكر سوى مقاعد من الخيزران ، بعضها قديم جدا ، ربطت أجزاؤه بخيوط من القنب « الدوبارة » أو بأسلاك ، وبرزت فى نواحٍ منها ، مسامير تهدد الجالسين ، إذا هموا بالجلوس أما ما كان منها جديداً ، فقد بدت لمعته وبريقه ، شيئاً غير متسق مع القدم الذى يشمل الحجرة فكأنها أثاث حديث ، فى متحف للعاديات والقطع القديمة . وعلى هذه المقاعد ، جلس من عرفت أنهم من زملائى المحامين يتحدثون بعضهم مع بعض همسا مسموعا ، فلما دخلت صوب بعضهم نظرهم إلى فى غير اكتراث ، فحرت هل أحيى ، أم أن المقام ليس مقام تحية أو سلام ، ولكنى قلت مدفوعا بعادتى « السلام عليكم » فلم أسمع رداً واتجهت إلى وكيل النيابة . فرأيته قد وضع على أذنه سماعة آلة تليفون سوداء طويلة لها يد ، وكان يتكلم بصوت خفيض ، وبين شفتيه

سيجارة تهتز مع كلماته اهتزازاً مستمراً . ولم يكد يفرغ من هذه المكالمة ، حتى دق (التليفون) فرفع السماعة فى استرخاء وتكاسل ، ورد فى فتور وإهمال « أيوه » ولم يطل حديثه هذه المرة ، إلا أنه مد أصبعه إلى قرص التليفون ، وأداره خمس مرات ونشبت فى الحال مكالمة حية ، كان يقطعها بين الحين والحين ، ضحكة طويلة وقفت أتأمل زميلى نبيه ، وأتأمل فى الوقت نفسه موكلى (تهامى) الذى وقف لاينظر يميناً ولا يساراً ، وكأنه ليس من حقه أن يرى شيئاً مما يجرى والحق أنى حسدت زميلى ، لا على منصبه ، ولا على الكرسى الذى يشغله ، فإنى لم أر فى حجرته مظهراً واحداً من مظاهر السلطان . وإنما حسدته على ثقته بنفسه ، وهو مسترخ فى كرسيه ، والسيجارة لاتفارق شفته ، وقلم الحبر الأحمر فى يده ، ووجهه يلمع لمعانا شديداً ينافس لمعان شعره وآيات الدعة والراحة وخلو البال تنطق فى كل تقاطيعه .

ومد يده إلى المحضر ، الذى أحضره معه العسكرى الحارس لتهامى ، فقلبه بين يديه ، وأجرى عليه عينه بسرعة أذهلتنى وكان بين الحين والحين يضع خطا بالأحمر ، تحت كلمة أو سطر أو عبارة ، أو يرسم صليبا عند موضع يراه مهما وحدث أن توقف مرة أو مرتين ، فأعاد قراءة سطر أو سطرين سبقت له قراءتها ثم قلب المحضر ، وعلى ظهر إحدى صفحاته : كتب شيئاً بقلمه الأحمر ، ثم نظر إلى تهامى لحظة لم تزد عن ثانية ، وقال : أنت قتلت الراجل . . . . ؟ .

ولم يرد تهامى ، وكتب وكيل النيابة شيئاً ثم عاد يقول له بصوت أعلى : ما قتلتوش . .

وقبل أن يجيب تهامى قال ، وكيل النيابة ، لماذا لم تتخذ الاحتياطات اللازمة ، فتسببت فى قتل مصيلحى عبد الرحيم .

وتهيأ تهامى للرد ، فاذا بوكيل النيابة يقول له بالعامية ، بيقولوا إنك ما عملتش حاجة علشان الناس اللى فى الشارع مايموتوش . وأنك راجل كبير ، وقديم فى الشغلة ، ورئيس عمال . . .

وفتح تهامى فمه وبدأ يقول : والله ياسعادة البيه .

فاذا بوكيل النيابة يكتبُ بالقلم الأحمر بسرعة ، لأ أنا عملت الاحتياطات . .

ورفع وكيل النيابة رأسه وقال : حد من الأساتذة مع المتهم ، فقلت فى صوت متعثر مخنوق « أنا » !

ونظر نبيه إلىّ فى بطء وقال : حضرتك وفجأة تبين أننى زميله فقال . الله إزيك ياحسين : مبروك ياراجل . دى أول قضية إبقى خلينا نشوفك كتير .

وتصورت أننى سأستطيع أن أرد على هذه المجاملة ، فإذا وكيل النيابة يقول للعسكرى خده كفالة ٢ جنيه ، وسحب العسكرى تهامى ، وفتح الباب ، وانطلقت فى الحال زغاريد كثيرة وعجبت لكثرتها لأنى أعلم أنه لايوجد مع تهامى سوى ابنته حميدة ، وسمعت وسط هذه الزغاريد أناساً يقولون « إفراج . . . إفراج . . » .

وهمّ وكيل النيابة بالوقوف ، ولكنه لم يفعل واكتفى بأن مد يده المعطرة نحوى ، وصافحنى ولم يكد يسحبها حتى صفق بيده وقال للحاجب:اللى بعده .

ورأيت نفسى خارج غرفة المحقق ، وحيداً لايسأل عنى أحد ، فقد أسرع العسكرى بتهامى إلى كاتب النيابة ، لاتخاذ إجراءات الإفراج بعد دفع الكفالة وأسرع خلف العسكرى عبد الجابر ومدبولى ، ومن خلفهما حميدة ، وعدد لا يحصى من الأشخاص الذين كانوا فى الردهة . وقفت وحيداً والزغاريد لاتزال ترن ، تصدر عن نساء تبعثرن فى أنحاء الردهة والردهات المتصلة بها ، ظننت أول الأمر أنهن من أقارب عم تهامى جئن دون أن أدرى بمجيئهن . ولكنى عرفت فيما بعد أنهم لاصلة لهن بعم تهامى فهن لايعرفنه ، ولا يعرفن قضيته ، ولكنهن تبرعن بالزغاريد ، مشاركة لهذا المتهم المجهول الذى منّ عليه الحظ بالحرية ، فهن فى واقع الأمر (فنانات) يحببن أن يشاركن السعداء حظهن . .

ولم يكن ثمة بد من أن أنصرف . . فرحت أجر ساقى تائهاً ، والزغاريد تملأ أذنى . .

فى المحكمة

عدت إلى بيتى ، وقلبى مثقل بهموم لاأعرف لها سبباً ، ولاأدرى لها طبيعة . . .

كان اليوم بالنسبة لى حافلا بصنوف من المشاعر وألوان من التجارب لم يسبق لى أن كابدتها فمنذ الصباح ، وأنا أتقلب على جمرة من القلق والتوقع . ومنذ الصباح وأنا أشاهد وأسمع وأفعل ، وكأن طاقة قد فتحت على حياتى فتدفقت منها المشاعر والصور ، وتدافعت الشخصيات والجماعات .

إن مشاجرة الصباح أمام المحكمة ، تبعتها قصة طويلة حافلة رواها عم تهامى بأسلوبه ، جاء فى أثرها التحقيق والإفراج ، وأخيراً الوحدة المطبقة .

كان الشعور الذى ران على صدرى كحجر ثقيل ، أنى لم أفعل شيئاً مع أن الجميع كان يحسبوننى فارس الميدان ، وبطل الموقف لم أفتح فمى بكلمة ، ولم أمد يدى بمساعدة . . حميدة كانت تواسى وتستحث أباها ليتكلم ، مدبولى ذهب ليحضر طعاماً ، وعبد الجابر كان الموجه والمشرف وعم تهامى قص قصته الطويلة وأنا كنت أسمع وأشاهد ولاشىء بعد السماع والمشاهدة .

ولما دخلت حجرة وكيل النيابة فى اللحظة الحاسمة ، التى يتقرر فيها مصير (تهامى) شغلت بالتأمل فى الحجرة ، والتأمل فيها وفيمن كان فى الحجرة . شغلت بنفسى ، حتى أفرج عن المتهم ، وخرج الناس فرحين وانطلقت الزغاريد . .

هل يتصور عبد الجابر أننى فعلت شيئاً ، هل تعتقد حميدة أن الإفراج عن أبيها كان بفضل وجودى . . ؟

دع عنك عبد الجابر وحميدة وتهامى نفسه ، فهل أستطيع أنا أن أدخل إلى نفسى الاعتقاد بأن لى يداً فى شىء مما حدث ؟ ترى ماذا يقولون عنى،أهم نادمون على أنهم استعانوا بمحام صغير لا خبرة له ، ولا كفاية . . أم ترى أن فرحة الإفراج أنستهم كل شىء ؟ أم تراهم قد كشفوا منذ الصباح عجزى وقلة حيلتى ، وشدة خجلى ، فاحتملوا بصبر ، ماقدره الحظ لهم ؟ أتكون العبارات القليلة التى وجهتها إلىّ حميدة مجرد حسن أدب منها ، تخفى وراءها خيبة أمل كبيرة .

ونشط خيالى على عادته قصوَّر لى أموراً هائلة ، أحسست معها بعرق بارد يعلو جبهتى . فجلست جامداً فى مكانى ، لا أتحرك . . ولكن رحمة الله تداركتنى ، فقد طرق الباب ، فقمت وأنا أدعو الله ألا يكون القادم زائراً وأن يكون من الطارقين الذين لا يتجاوزون عتبة الباب من مثل ساعى بريد أو بائع لبن ، أو محصل مياه أو كهرباء . وفتحت الباب ، لأرى نفسى أمام تهامى ، ومعه ابنته حميدة ، وعلى شفتى الرجل ابتسامة عريضة تكاد تغطى كل وجهه ، أما حميدة نفسها ، فقد كانت ابتسامة حية ، تشع بهجة وسروراً وسعادة .

ودخلا معا ، وكأنهما ، يدخلان بيتاً يعرفانه من طول ما ترددا عليه وزاراه وأخذ الرجل يدعو لى دعاء متصلا ، أما حميدة ، فقد فعلت ما لم أكن أنتظر أو أتوقع ، فقد اقتربت منى وقبلت كتفى الأيمن ،ثم ربتت بيدها على ظهرى ، فى مودة وبلا كلفة ، فاهتززت بشدة لهذه القبلة التى لم تتجاوز طرف ظاهر الثوب .

انتقلت إلىّ عدوى السرور والسعادة ، فرأيت نفسى سعيداً ، ورأيتنى مقبلا على تهامى ، أكاد أقبله ، وأحسست أنى قريب جداً من حميدة وشعرت بأن عقدة لسانى قد حلت ، وأنى قادر على أن أقول هذا الكلام الفارغ الذى يقال عادة فى مثل هذه المناسبات ، فيفرح له الناس ، ويغنيهم عن التفكير فى شىء أكثر عمقاً ، يتناسب مع الموقف .

وجلس عم تهامى يروى لى ، ولابنته ، كيف تصرفت فى الدفاع عنه ، فيروى

أموراً بعضها حدث فعلا ، وبعضها لم يحدث ، ويفسر ما حدث وما لم يحدث ، التفسير الذى يجعلنى فى نظره محامياً كبيراً ، يرجع إليه فضل عودته إلى الحرية . قال لابنته إنى دخلت ، فتوقف وكيل النيابة عن الكلام فى التليفون وهذا بالفعل حدث ، ولكن لم يكن بطبيعة الحال سوى مصادفة ، ولكن الرجل الطيب اعتبر ذلك احتراماً لى . وقال إنى جلست وحيداً فشرع المحقق فى القضية فى التو ، ثم تبين من أنا ، فقام وحيا ورحب ، وأطلق سراحه ، وبكفالة صغيرة مع أن جميع الذين أفرج عنهم فى ذلك اليوم لم تقل كفالة الواحد منهم عن ثلاثة جنيهات . وإنه حينما أطلق سراحه أخذ جميع الواقفين يسألونه عن اسمى ، فأعطاهم إياه ، وتبرع عبد الجابر بثناء جم على خلقى واستقامتى ، وحسن معاملتى ، وتنافست معه حميدة ، فذكرت لهم أننى لم أقبض منهم حتى الآن مليما واحداً ، مع أننى لست قريبهم ولا جارهم ، ولا صلة لى بهم .

كان الشعور الذى سادنى وأنا أستقبل تهامى ، وابنته شعور سرور مطلق ، ولكن ما كادا يتكلمان حتى أخذ سرورى يضعف ، وإن لم يزل فقد رأيت أن كل ما تصوره هذا الطيبان ليس سوى خيال لا صلة له بالحقيقة ، فلم يعد من حقى أن أفرح ، إلا بعودة تهامى إلى بيته ، لا لأنه كانت لى يد فى هذه العودة ، بل لمجرد عودة الحرية إلى رجل تعذب وأهين ، بغير جريرة أو ذنب .

ودخلت إلى داخل منزلى لأدعو (عبده) ليقدم للضيفين شيئا . فلما عدت لاحظت عليهما ارتباكا . ولكن علائم هذا الارتباك زالت من وجه حميدة ، وحل محلها عزم شديد ، فكأنما عقدت إرداتها على شىء . فما كدت أدخل حتى مدت يدها مطوية بشىء إلى يدى . وأدركت ماذا تعنى هذه الحركة ، فلم أنزعج لأول مرة ، حينما حاول عبد الجابر أن يدس فى يدى جنيهاً ، فقد كانت المحاولة الأولى تطعيما لى ضد الانزعاج فابتسمت ابتسامة كانت بلا شك حزينة لأنها عبرت عن كل ما رسب فى نفسى من متاعب اليوم العصيب . . .

وقلت لحميدة لم العجلة . . القضية لم تنته فسيحدد لها جلسة .

وفى الوقت الذى أخذ فيه تهامى لهذا الكلام ، فقال مستنكرا على الرغم من

هدوئه : (جلسة !) قالت ابنته : أنا عارفة . . . لكن ما يصحش نتعبك كده على طول . . . وعلى كل حال دول مش مقامك . . » .

وفهمت أن يد حميدة انطوت على جنيهين . فدفعت يدها برفق ، وأنا أهز رأسى علامة الرفض . ويد حميدة تأبى أن ترد ، وحميدة نفسها بقيت مصممة على أن تعطينى الجنيهين فى إصرار تعززه بعبارات مختلفة ، تواتيها بها قريحتها ، فتارة ترجو ألا أخجلها بهذا الرفض وثانية ترجونى أن أقبل إكراماً لها ومن أجل خاطرها أو من أجل شيبة أبيها الرجل المنكسر أو أن أقبل حتى لا يظنوا أن رفضى استصغار للمبلغ أو احتقار لهم . . . ولم تؤثر على هذه العبارات كلها ، وإن كان إعجابى بهذا اللسان الذرب الفصيح الذى تعززه ملاحة وجه بسيط ساذج يزداد على مر الثوانى والدقائق .

وانصرف الرجل وابنته بعد أن شربا (شربات) وخلوت إلى نفسى ، فاستلقيت على كنبة وأخذت وحدى أتأمل فى سقف الحجرة .

لقد كشفت لنفسى جانباً فى المجتمع لم أكن أعرفه ولم أتصور أن له وجوداً :

لقد كنت أتصور الطريق إلى النجاح شاقا مليئاً بالصعاب والعقبات ، وأنه كله جهد ومثابرة ومعاناة ومكابدة ، فظهر لى أنه شاق بالفعل كما ظهر لى أن هناك طرقا جانبية أو خلفية تؤدى إلى النجاح ، وأنها سهلة مذللة ، تكاد تكون مفروشة بالورود والرياحين .

كنت أحسب أن سبيل الإنسان للنجاح هو عمله وخلقه وكفايته وأن الناجحين هم فقط الأكفاء الموهوبون الجادون فبدا لى على ضوء كلام عم (تهامى) أن الظروف تنسب للناس أموراً لم يأتوها وتخلع عليهم صفات لم يتحلوا بها ، وتهبهم قوى لاحق لهم فى استعمالها والاعتماد عليها .

إن ماقاله تهامى ليس سوى مجرد بصيص من ضوء فى ظلام حالك لقد فهمت أن فى الإمكان أن تتناقل الألسن أكاذيب ومفتريات تجعل من الصغار كباراً ، ومن ذوى العجز ، موهوبين وأكفاء ، واستولى على انقباض شديد وذكرت أموراً لم أفهمها فى الصباح بل لم تستوقفنى .

ذكرت كيف كان التنافس شديداً على إشعال عود الكبريت ، لحضرة وكيل النيابة ، فلابد أن يكون ادعاء حسن الصلة به ، أمراً مطلوبا بوصفه سبيلا إلى النجاح .

لم يزد عدد المحامين الذين حاولوا التلطف إلى وكيل النيابة على هذه الصورة ، عن واحد أو اثنين ، وقد استعدت الآن كل ما حدث فى الصباح فأدركت أن سائر إخوانهم ، لم يكونوا راضين عن هذا الأسلوب فهدأت نفسى قليلا ، ولكن لم يكن فى الوسع أن أنزع تمام النزع الأثر المؤذى الذى تركته هذه الصورة فى نفسى .

كان الأمر قبل هذه القضية ، وقبل سماع ماقاله (عم تهامى) مجرد التساؤ ل عن مدى استعدادى للمحاماة كمهنة ، ولكن بهذا الكلام ، الأمر أمر اختيار طريقين فى الحياة ، وأسلوبين فى الكفاح ، أسلوب الصدق والاستقامة ، وأسلوب التمسح فى أصحاب السلطة ، والجرى وراء النفوذ ، والتظاهر بما ليس فىّ . وبدا لى أن كلا الطريقين ، شائك وأن الحياة بهما لن تكون سوى مريرة . واشتدت موجة التشاؤ م على نفسى ، ولشدة دهشتى رأيت ملاكى الحارس قد أبطأ فى مد يده إلى على عادته ، فلم ينقذنى ولم يلطف شدة شعورى بقتام الحياة نعم لم يخف (خيالى) إلى إنقاذى . . . أو لعله عرض خدماته علىّ فأبيتها فقد عز على أن أفر من هذا الواقع ، إلى تصورات وخيالات وصممت على أن أواجه هذا الواقع ، مواجهة التصميم والعزم ، ولا أجعل من هذه المعركة الحاسمة ، مهزلة ينسق لى خيالى فصولها ، ويسند إلى فيها دور بطل من طراز دون كيشوت ، يضرب بسيفه فى أعداء وهميين ، فيثخنهم جراحاً ويأتى عليهم جميعاً .

استلقيت على ظهرى ، مطيلا النظر فى سقف الحجرة ، مفكراً تفكيراً يغلب عليه الحزن والانقباض ، ولست أدرى كم ساعة انقضت علىّ وأنا على هذه الحال ، ولكن الذى أدريه ، أننى قمت لأنظر من النافذة التماساً لشىء من الهواء النقى المنعش ، فرأيت الحركة فى الطريق قد خفت والظلام قد ساد المدينة ، فوقفت أمام النافذة تاركاً لخواطرى العنان .

هل خسرت فى تلك الليلة أم كسبت . . ؟ لست أدرى ، ولكن الذى أدريه أنها كانت ليلة حاسمة قررت فيها اختيار الطريق الذى أسلكه لا فى المحاماة وحدها ، بل

فى الحياة كلها . هل أصبت . هل أخطأت ؟ لا أستطيع أن أقول شيئاً ذلك لأن القرار الذى انتهيت إليه لم يكن قراراً محدداً لنفسى تلوم عليها ، إذ لم أصمم على شىء بعينه ، ولكنى شعرت بأن الأمور قد اتضحت لى ، إذ فهمت طبيعة المعركة التى أنا مقدم عليها . .

وبعد وقت لم أقسه بالساعات ، والدقائق أحسست بحاجتى إلى النوم فذهبت إلى فراشى ، وأنا أشد إدراكا لوحدتى فى الحياة . .

ولما استيقظت رأيتنى خلقاً جديداً .

فلست أنا هذا الضعيف الوحيد الذى لا رفيق له ولا هادى معه أو مرشد ، ولست أنا المشفق من المستقبل الخائف من المجتمع الممتلىء احتقاراً لأساليبه ، أنا مجرد إنسان ، يستقبل يوماً جديداً ، لا له ولا عليه اختفت من نفسى كل خواطر وهواجس الأمس ، ولعله مما أعاننى على ذلك أن القضية لم يكن قد حدد لها موعد بعد ، فلم أكن مطالباً بالتفكير فيها إلى أن يحدد هذا الموعد . .

ولكن القضية أبت أن تدعنى . فإذا كان عدم تحديد موعد لها قد أعفانى من التفكير فيها ذاتها ، فإن جو القضية أبى أن يعفينى منه ، وأصر أن أعيش فيه ، وأن يتيح لى ألوانا من التجربة ، النفسية تتفرع على تلك القضية وتتصل بها .

ففى ذات مساء ، كنت أطالع كتابا ، وأنا رضى البال هادىء النفس دق جرس الباب وذهب (عبده) ليرى من الطارق ، وسمعت حديثاً بين الطارق وعبده ، يتخلله ضحك ، وضحك (عبده) من الأمور النادرة ، فاستبشرت خيراً ، ولبثت أنتظر دخوله علىّ ، وإفضاءه إلى باسم الزائر ولكن الحديث قد طال فقمت أرى بنفسى ماذا هناك ، فإذا عبد الجابر واقف وسط الصالة متهلل الوجه ، وتلتقط أذنى طرفا من الحديث ، فأعرف أن عبد الجابر يداعب (عبده) ودعابته تدور حول (العروسة) التى يراها لائقة بالأسطى عبده ، وأن الأوان قد آن ليكمل عبده نصف دينه ، بشرع الله وسنة رسوله .

ولم أصدق أذنى فأنا لاأعرف أن لعبده صلة بعبد الجابر ، ولا أعرف عنه ، أنه

يتبسط مع الناس ، إلى الحد الذى يسوغ لهم أن يجوسوا فى أحاديثهم معه ، هذه الجوانب غير المطروقة من الحياة ، من مثل الزواج والعروسة . .

فلما رآنى عبد الجابر ، أخفى ابتسامته ، وغير حديثه ، وأقبل علىّ يرحب ويُحيى فأحسست أنه فى غير حالته العادية ، وكدت أتهمه بأن ثمل . .

ودخل معى فى الحجرة ، وأخرج من جيبه أوراقاً مطوية وقال : الاطلاع . .

ولم أفهم ماذا يعنى . . . فلم أكن قد عرفت بعد ، أن ملف القضايا ، يسمى اصطلاحاً « بالاطلاع » على أنه لم يجشمنى مشقة الاستفسار فقد أضاف : اطلعنا على القضية ومركزنا متين والحمد لله . المعاينة أثبتت أنه لم يكن فى إمكان عم تهامى أن يرى المتهم ، ولم يكن الاحتياط أيا كان نوعه قادراً على إنقاذ المجنى عليه . . . إنه قضاء وقدر ياأستاذ والحمد لله على كل حال . . . » .

وأمسكت « الاطلاع » وقلبته فى يدى ، فوقع نظرى على خط قبيح أقبح من خطى الردىء لاتكاد تحل رموزه إلا بمشقة وقد كتبه كاتبه بالقلم الرصاص حيناً ، وبالقلم « الكوبية » حيناً آخر ، وحبر لا تعرف له لوناً ففيه خضرة وزرقة وسواد حيناً ثالثاً .

وحانت منى التفاتة إلى عبد الجابر فإذا وجهه كله فى الأوراق ، يتأمل السطور ، ويقرأها وكأنه يقرأ قصيدة فقلت له : هل يعجبك الاطلاع . . ؟

فقال على الفور : جداً .

قلت : مالذى يعجبك فيه ؟

قال : براءة . . براءة إن شاء الله والبركة فيك على كل حال .

قلت ، وأنا سعيد بهذا الجو الذى أحاطنى به عبد الجابر : أين هى البراءة؟.

قال : فى كل سطر . . ومد يده إلى الورق ، وأخذه منى ، وجعل يقلبه فى غير انتظام ، حتى تناثر وسقط بعضه على الأرض ، فلم يلتفت إلى ما سقط منه ، حتى وقع على شىء كان يبحث عنه ، فقدمه إلى وقال انظر ودققت فى الورق بشدة ، فقرأت « حضر مع المتهم الأستاذ حسين القويسنى » . فقال :

أرأيت . . ؟

نعم رأيت . .

هاهو ذا اسمى فى أول ورقة قضائية ، وكأنما كان مرآى لهذا الاسم أصبعاً امتد إلى جرح كاد يلتئم ، فسقطت عنه ندبته ، وتعرى ، وترقرق الدم على سطحه . . . . لقد عادت إلى صور ذلك اليوم المشهود دفعة واحدة . رأيت ردهة النيابة بزحامها ، وضجيجها وعجيجها ، وهرجها ومرجها ، وأطفالها ورجالها وصدحات الفرح ، وصرخات الألم ، والبيع والشراء والشد والجذب ، والصفع والركل . . رأيت زميلى (نبيه بك) يتقدم فى اتئاد وثقة ، والكتبة العموميون ، كالفئران الصغيرة بطرابيشهم القديمة ، وثيابهم العتيقة ، وأقلامهم تحت آذانهم وأوراقهم تحت آباطهم عاد كل شىء ببرارته ، مخاوفه ، وفى قاع هذه الصورة (كايداهم) بقوامها وخطوتها الثابتة ونظرتها الأسرة ، وحميدة بحيويتها وسذاجتها ولمت عبد الجابر ، أن حرك هذا الألم الهاجع ، والظاهر ، أن ألمى بدا على وجهى ، لأن عبد الجابر استفسر فى شىء من الفزع : فيه إيه ؟

واستعدت نفسى من ذكرياتها وقلت : لاشىء . .

فعاد عبد الجابر يسأل عما إذا كنت وجدت فى الورق مايزعج فطمأنته بقولى : أبداً . .

ولكن القدر وضع على لسانى كلمة ، كأنما كانت « السر » الذى يفتح المغلق ، فقد سألت عبد الجابر : الظاهر أنك أحببت القضية . . . فقال بلا تفكير وبحماسة بالغة : جدا .

فابتسمت ابتسامة حزينة وقلت : جداً . . . هكذا دفعة واحدة . . **ما الذى** فيها ، حتى تحبها هكذا . .

فأفاق عبد الجابر لهذا السؤال وقال : الراجل غلبان . . ومظلوم و . . ولست أدرى من أين جاءتنى الشجاعة التى جعلتنى أقول :

وبنته . .

فأكمل من حيث لايدرى : وبنته مالهاش غيره . . .

فقلت ، وكأنما سكبت سائلا كاوياً على جرح جديد . . أليس مدبولى خطيبها .

فكاد يبصق على الأرض إظهاراً للاشمئزاز ، لولا أنه رأى الكليم على أرض الحجرة فأشفق أن يلوثه ، فتظاهر بالبصق وزوى ما بين حاجبيه . وقد شملته عصبية حاول إخفاءها ولكنه لم ير سبيلا لهذا الإخفاء إلا أن ينعت مدبولى بنعوت قبيحة خلاصتها أن ظفرها يساوى رقبته . .

والظاهر أن ابتعادى عن جو القضية ، أسبغ على أعصابى هدوءاً فمنحنى ذلك الهدوء الشجاعة التى يسرت على الخوض فيما لم يكن ممكنا أن أخوض فيه أو أن أقترب منه ، لو كنت مضطرباً أو مشغول البال فسألته : ولكنها ترضاه لها زوجاً ، فقال مندفعاً بلا تفكير : من قال ذلك . . . أبدا . . . غير معقول . .

قلت : ومالذى يحملها على أن تقبله !

فقال مندفعاً أيضاً : قريبها . . وهى . .

وكاد يلعنها فى ثورة انفعاله ، ولكنه أمسك . ونظر إلىّ طويلا ، وكأنما يود أن يجد عندى ملجأ يفر فيه من نار الآلام التى تشتعل فى صدره ، وتطارده ، والحق أننى أصبحت بفضل هذه القضية أشبه شىء بالفيلسوف فإن الظروف ألقت بى دفعة واحدة فى تجربة كاملة ، رأيت فيها عوالم لم أكن أعرفها ، ولا أفكر فيها ، وانتابتنى خلالها مشاعر وعواطف ، كانت من القوة والجدة بحيث قلبت نفسى رأساً على عقب ، ووضعت على عاتقى مسئوليات لاتلقى على عاتق شاب ، فى مثل خجلى وابتعادى عن الناس ، إلا تدريجياً وعلى مهل .

لهذا كله ، رأيت من نفسى ميلا شديداً إلى مواساة عبد الجابر والوقوف بجانبه فى هذه المحنة التى كانت آلامها مسطورة على وجهه . وأمثالى من الخجولين يحسنون النصح ، لأن بهم ميلاً إلى تحليل الأمور ، أكثر من ميلهم إلى ملاصقة الناس والتعامل معهم إلا أن يتمرسوا بالعمل فتثوب إليهم ثقتهم بأنفسهم ، وينجاب عنهم ضعف الخجل .

قلت له : لماذا لم تصارحنى .

وتلقف عبد الجابر سؤالى هذا كأنما هو طرف الحبل قد ألقى إلى غريق ، فهتف : أصارحك بماذا ؟ .

فاستمرأت شجاعتى المفاجئة ، وقلت له :

حميدة تعجبك . .

فقاطعنى ، أليست بنت حلال ؟ .

فابتسمت مشفقا عليه من نفسه ، ومن محاولة خداعى : ليس هذا كل مافى الأمر . .

فأطال النظر إلى وعضلات وجهه ترتعش بعصبية : ياأستاذ . .

فقلت : وغايتى أن أستدرجه للكلام ، والبوح بما فى نفسه . ماذا ؟ فقال لاتظلمنى . .

وقررت أن أمد يدى بمعونة كاملة ، فقلت له : لاتخفِ عنى لقد لاحظت اهتمامك بها نظرت إليها ، وجدتك إلى جوارها ، فإذا ظهر مدبولى اربدَّ وجهك وعلاه قتام شديد .

وأطرق عبد الجابر برأسه ، وغص بريقه ، ثم قال . . هذه هى الحقيقة . . . ولكن كيف كشفت هذا كله . . أكانت عواطفى مفضوحة إلى هذا القدر . . ثم . . . ثم . .

وسكت .

فقلت . . ثم ماذا ؟ .

قال . لاتؤاخذنى . . لقد ظننتك أصغر من ذلك بكثير أنت فى الحادية والعشرين على الأكثر . . وأنا أكبر منك بعشر سنين على الأقل . ولكن باسم الله ما شاء . . هذا نضوج كبير مبكر . وقلت وأنا أضحك من هذه المجاملة : ليس لى فضل فقد كان كل شىء ظاهراً .

فصرخ الرجل : سترك . . . اللهم سترك . .

وبعد أن سكت قليلا قال . . ولكن ياأستاذ أنا لم ألحظ عليك أبداً اهتماماً بنا ، ولامراقبة لحركاتنا .

قلت له . . أنا لم أرقب شيئا . . ولم أهتم بشىء . . كنت أرى فقط وأسمع ولم يكن فى وسعى أن أغمض عينى ولا أن أسد أذنى . .

فقال الحمد لله أنك لم تفعل . . . فأنا فى حاجة إلى نصيحتك فقلت وأنا أريد أن أعاتبه : نصيحتى أنا . . وأنا دونك سنا بعشرة أعوام ، ولا تجربة لى ولا قدرة على فهم هذه الأمور .

فلوح عبد الجبار بيده محتجا على هذا الكلام قائلا أنت لاتريد أن تساعدنى صدقنى أننى أحببتك منذ رأيتك ، لاأدرى لماذا . أنت تتحاشى الناس ، ولاتتحدث معهم ، ولكن إذا أقبلت ، عاملتهم كأنهم أصدقاؤك من زمن بعيد . وأقسم بالله ثلاثا ، والله على ماأقول شهيد ووكيل إن عم تهامى أحبك .

فسألت معابثاً . . وحميدة . .

فرحب بالسؤال وقال : أكثر بكثير . . إنها تدعو لك فى الليل والنهار .

وأحسست بوخز ضميرى هنا ، لأنى كنت أعلم أن هذا الدعاء ليس من حقى ، ولكن جو الحديث غلبنى فاسترسلت فى مداعبته قائلا : هذا دعاء أظن أن السماء تتفتح له حتماً فلم يلتفت إلى ماعنيت ، وتعلق بقوله . . حتما طبيعى . بنت حلال غلبانة .

فقلت له دع عنك (بنت حلال) هذه فهى ليست بيت القصيد فى الموضوع وقل لى ماذا تريد منى .

وأطرق عبد الجابر ، واضعاً كفيه مبسوطين على ركبتيه وكأنه وقع فى ورطة لاخلاص منها . ونظرت إلى وجهه فى هذه اللحظة ، فبدا لى كأنه قد كبر عشرين عاماً على الأقل دفعة . كان وجهه قاتماً وجبينه مقطبا ، وعيناه انطفأ منهما نورهما الذى كان يحيل طلعته إلى مثل طلعة الصبى الصغير وبعد قليل قلب كفيه وقال : والله لست أدرى ماذا أنا فاعل . أمر يخجل .

ضربت على كتفه ، وكأنى قد أصبحت أكبر منه ، وأدرى بشئون الدنيا ، ولست أدرى ماالذى جعلنى فعلا أحس بأنى أصبحت منه بمثابة الكبير من الصغير ، والقوى من الضعيف أيكون الإنسان الممتحن دائما ، بالغا ما بلغ سنه أو مقامه ، أضعف من الذين لايشكون محن الحياة ومتاعبها ، والمحن ، وإن كانت تزيد الناس

تجربة وتقويهم على الحياة ، إلا أنها عند مرورها بهم تنتقص من أقدارهم ، وتضعف من قواهم ، وتجعلهم فى الحاجة إلى العون وإلى النصح .

غاية الأمر أننى رأيت عبد الجابر صغيراً كطفل ، ففتحت له قلبى وقلت له : لا تخجل أنت تحب حميدة .

فقال ورأسه تكاد تكون فوق صدره : نعم .. للأسف .

فقلت له : وماذا يدعو للأسف .

فرفع وجهه إلى ونظر بعينيه الصغيرتين فى وجهى مندهشا، ألاترى الفرق بيننا ؟

وفهمت الأمر بسذاجة فقلت لست أكبر منها بكثير .

فقال : وقد صدم بسوء فهمى ، ياليت الفرق فرق سن ، كان الأمر يهون .. اننى أكبرها بعشر سنين أو أكثر قليلا . أكثر من ذلك بسنتين أو ثلاثة ولكن الفرق ... ف .. فى .. الـ ..

وفتحت عينى مأخوذاً بهذا الكلام وقلت فى أى شىء ؟

فأخافت نظرتى ، ونبرة صوتى ، عبد الجابر وقال مرتبكا ، وهو يتمتم بالألفاظ .. : فى المكانة الاجتماعية ..

وكأنما لدغت ، فقد ندت عن صدرى صرخة من حيث لاأدرى ولا أحتسب : أنت تقول هذا ياعبد الجابر أفندى ؟!

فقال وقد فغر فاه، ورجع إلى الوراء وقال : هل غضبت ؟.

ولمت نفسى على تسرعى وقلت مخفياً مافى نفسى : أبداً .. أبداً .. تقول الفرق كبير بينكما اجتماعياً ..

وأخجل هذا الكلام عبد الجابر . فقال مصححاً له ومتداركا مابدر منه . نحن على « أد حالنا » ولكن لا تؤاخذنى مهما كانت الأحوال .. فأبوها عامل وأنا .. صحيح نحن قوم فقراء ولكن ياأستاذ .. أنا مثلا .. بلا مؤاخذة والدى عمدة .. وأخى باشكاتب ، وابن عمتى مأمور أوقاف .. » .

وصمت طويلا ، فلم أقاطعه ولم أعلق على كلامه ، وأحس هو بارتباك شديد ، ولم يعد قادراً على أن يستأنف كلامه . وغاظنى من نفسى أنى تصرفت منه على هذه الصورة ، ولم أدرما الذى حفزنى على أن أقول ذلك وأحسست أننى بهذا التصرف ، أبعدت نفسى عنه ، ولم أعد محل ثقته ، ولعله لام نفسه أن قصد شاباً غراً مثلى ليلتمس عنده النصح ، وساد الموقف كله حيرة ووجوم . غير أننى قررت أن أبدل ذلك الجو ، فغيرت من لهجتى ومن نبرتى ، واصطنعت البشاشة التى كانت قد زايلتنى وقلت : الحق أن الفرق بينكما كبير . .

فنظر إلىّ وهو لايصدق أنى قلت هذا الكلام ، ظانا أنى أسخر منه أو أهزأ به وقال :

ليس كبيراً . . . إنما أنت تعرف عقلية الفلاحين . . عقلية بهائم والعياذ بالله . . متى تتغير . . ؟؟

فجاريته قائلا . . علينا أن ننتظر فتغير العقول ليس بالأمر السهل فأمن على كلامى بقوله « لك كل الحق . . ولكن أتظن أنه على أن أنتظر أنا » فعاودت مداعبته قائلا : نعم ، لا مفر من أن ننتظر قرناً أو نصف قرن من الزمان .

فأدرك الدعابة وقال مشاركا لى فى استعمال هذا الأسلوب المرح ياليت إذا أمكن أن يعيش الإنسان قرنا . .

قلتُ قرناً واحداً . . . . ؟!

فاستغرق عبد الجابر فى الضحك وقال : إلا هذا ياأستاذ . . يكفينى قرنٌ . .

وتبدد الوجوم الذى شملنا ، وعدنا كما بدأنا ، جد قريبين أحدنا من الآخر وقال لى : وما الحل الآن . . ؟

فأجبته الحل أن تنزع من رأسك موضوع قضية عم تهامى ، وتدعنى وحدى أباشرها .

فقاطعنى : لا . . . لا ياأستاذ هذا لايليق لى . لايمكن أن أقطع ترددى عليك حتى يفصل فى القضية نهائيا ، ويعود الرجل إلى بيته وأهله آمنا . . .

فضحكت طويلا ، وقلت : هذه القضية مبـرر جيد . . ودع عنـك المداراة فالقضية التى تشغلك هى (حميدة) ، وزواجك من حميدة غير ممكن . فالأولى بك أن تواجه الأمر بشجاعة ، وأن تنزعها من رأسك . . وبنات الحلال كثيرات . .

كنت أقول هذا الكلام لعبد الجابر ، وكأنما أنا قاض يتلو حكم الإعدام على برىء فسمعه وهو ذاهل ، لايعى مما يدور شيئاً ، وبقى صامتاً لايتحرك وأحسست بالألم يعتصر قلبى اعتصاراً ، وأنا أنظر إلى وجه عبد الجابر ، وكأن مستقبله قد تعلق بالألفاظ التى تخرج من بين شفتى . .

وبعد فترة صمت طويلة ، قال ، أهذا هو الرأى . .

قلت فى حزم : نعم . . لاأرى غيره . .

فتضرع إلىّ ، بنظرات عينيه ، وقسمات وجهه قائلا : لكن هذا مستحيل.. فأدهشنى أن يقول هذا ، وبدت الدهشة على وجهى ، وقلت له:أنت الذى قلت ذلـك . . أنت الذى قلت لى إن أبـاك عمدة ، وفى عـائلتكم مأمـور أوقـاف . . وو . . » .

كان عبد الجابر غائبا عن المكـان ، فلم يسمع شيئاً مما قلت ، وأخـذ يكرر لنفسه ، غير ملتفت إلىّ : « هذا مستحيل . . هذا مستحيل » .

وعاد ينظر إلى بوجهه الذى يفيض تضرعاً ، فرأيتنى أقول له بلا تدبر منى ، أو تفكير :

ــ أنت جبان ياعبد الجابر أفندى .

وكأنى أطلقت رصاصة من بندقية ، إهمالا وبلا عمد ثم أغمضت عينى ، وأنا أتوقع أحد أمرين ، إما أن يصفعنى عبد الجابر ، وإما أن أراه مغشياً عليه ، فاقداً لصوابه .

كيف قلت ذلك ؟ . . وأية جرأة واتتنى لأن أنطق بهذه الكلمة ؟ هل شغف عبد الجابر هو الذى ألهمنى هذه الشجاعة وجرأنى عليه ؟

لا . . لا . . ليس هذا كافيا ، فما تفسير لهذا الاجتراء إلا عصبية الخجل التى

تجعل من يبتلى بها غير قادر على التحكم فيما يصدر عنه من قول ، فهو إما صامت كأخرس ، وإما مندفع يلقى الكلام على عواهنه بلا تحرز ولااحتياط ولكن كم كانت دهشتى عظيمة حينما رأيت عبد الجابر فى مكانه لم يثر ، ولم يحتج ، ولم يعتد علىّ ، حتى ولم يغير من وضعه ، وقد ظننت أول الأمر ، أنه تهيأ لعمل هائل ، ولكن كان ما ظننته خيالا لاأصل له فقد سمعت أذناى عبد الجابر يقول : نعم . أنا جبان . لك حق . أنا جبان . قلت ، بعد أن عدت إلى هدوئى : « لاأعنى جبان . . » .

فأصر عبد الجابر على نعت نفسه بهذه الصفة ، وقال : لم لا ؟ . أنا أعرف أنى جبان . . أنا خائف من أهلى . . . إنهم سيعيروننى بها . وسيجر على هذا متاعب كثيرة . . . فبماذا تنصحنى ؟ .

قلت له : الأمر يتوقف عليك . . .

فصرخ : بل عليك . .

وتصورت أن عبد الجابر أصيب بدخل فى عقله ، فتأملت وجهه ، فإذا علائم الاضطراب والمعاناة تبدو عليه واضحة ، فحرت فى تخير الكلام الذى يخفف عليه دون أن يورطنى أنا فى نصيحة لايرضى عنها ضميرى ، فسألته . .

ـ كيف يتوقف على ؟ . . أنت الذى سيتزوج ، وأنت الذى سيخاصم عائلته . .

فأشرق وجهه بسرور مفاجىء ، فقال ، إذن أنت تنصحنى أن أتزوجها أنا مستعد إذا رأيت ذلك .

وعاودنى مرة أخرى شك فى أن عبد الجابر فى حالة عادية ، فقلت له وأنا أحاول أن أتبين حقيقة الحالة التى أصبح فيها :

ـ لماذا . . أنا . . لاتكلفنى مالا أطيق . لاحظ أن صلتى . .

والحق أنى لم أستطع أن أكمل الجملة فقد كانت جارحة ، إذ كان على لسانى عبارة ، أن صلتى به جديدة ، وأنا لاأحب أن أقحم نفسى فيما لاشأن لى به .

ولكن عبد الجابر المسكين كان مستعداً ، أن يكمل كل عبارة لم أكملها بما يتفق

مع حالته الذهنية وأن يضع على لسانى ألفاظاً لم أقلها ، ولكنها تريحه وتتسق مع القلق الذى استولى عليه ، والحيرة التى شملته لذلك قال ، إن صلتى به قديمة ووثيقة ، فأسقط فى يدى ، ولم يعد ثمة مفر من أن أتحمل المسئولية . ولكن فيما أتهيأ لأنصحه ، لمع فى عقلى سؤال ، وكأنما اكتشفت شيئاً ضائعاً فقلت وأنا لاأدرى الآلام التى سأقذف صاحبى فى نارها قلت فى سلامة نية . . « ولكنك تتحدث عن الزواج من حميدة ، كأن الأمر كله فى يدك . . هل سألتها . . هل حصلت على موافقتها أو على الأقل وعد منها أو من أهلها ؟ » .

فجمدت عيناه وقال ، وهو مقطع الأنفاس . . هل تشك فى أنها تفضلنى على مدبولى . . هل فى هذا شك . . لم يخطر ببالى أنها أو أبوها سيترددون لحظة فى قبولى زوجاً . . فماذا تظن ؟ ورأيت أن طرق هذا السبيل ، والسير فيه ، أخف من السبيل المؤدى إلى نصح عبد الجابر بشىء محدد فى شأن زواجه من حميدة أو عدم زواجه .

فقلت له ، متلطفاً أنا لاأشك فى قدرك عند العائلة . وفى احترام الجميع لك حتى مدبولى نفسه . الفارق بينكما كبير هذا مالا جدال فيه . ولكن قد يرى عم تهامى وهو رجل طيب وشريف أنه ارتبط بكلمة مع مدبولى وقد ترى حميدة كذلك به أن التضحية به من أجلك أمر لايتفق مع الشرف . .

فصاح عبد الجابر : « الشرف . . الشرف أن تتزوج عاملا جاهلا غبياً . . » .

وقلت : ومن يدرى ألا تكون قد أحبته قبل أن تراك . .

لم أكن قد قرأت رواية عطيل حتى هذه اللحظة ، ولم أقرأها إلا بعد هذه الساعة بسنين ولكنى أؤكد أنى لم أكن لأفهم عطيل وتعاسته ، والنار التى تلظى فيها ، حينما اشتعلت فى نفسه الغيرة ، لولم أشهد هذا الموقف الذى لعب فيه دور البطولة صديقى المسكين عبد الجابر ، لقد تفصد جبينه عرقاً ، وزاغت عيناه ، وجمدت يداه ، وأصبح ينظر لى نظرات لاأدرى أتعبر عن كراهية لى أو خوفه منى ، أو إشفاقه من حكمى . أوخجلا من تعريه أمامى وظهوره بمظهر الضعيف . وبعد فترة طويلة أرهقت أعصابى ، سألنى وكأنه يتضرع إلى : « الاحظت عليها شيئاً . . إن نفسى تحدثنى أحياناً أنها تحبه . . » .

ولو صدق ما كانت تهجس به نفسى لكانت الفاجعة . . . وأراد أن يبدو كأقوى مايستطيع فقال : « إنها لاتهمنى فى ذاتها ، ولكن أن تكون المقارنة بينى وبين . . وبين ماذا أقول . وبين لاشىء هذا هو الألم الذى لاأطيقه ، وهذا هو الهوان الذى كان يجب علىّ أن أكون أعقل من أن أورط نفسى فيه » . .

وثبت لى أننى أمام إنسان فقد نصف عقله ، وأن الأمر خرج من نطاق النصيحة إلى نطاق الإنقاذ ، فتكلفت الزعم بأن الشك لا محل لـه ، وأنها لايمكن أن تحب مدبولى . . فمد إلى يدا تثلجت وقال : ألاحظت اهتمامها بى ؟.

فأسرعت إلى القول بأنى لاحظت ذلك مراراً .

فاستحلفنى بالله أن أقول الحق .

فحلفت وأنا أستغفر الله على هذا اليمين ، الذى بذلته من قبيل الإشفاق وإن كنت لاأدرى إذا كان ما حلفت عليه صدقا كله ، أو أبعد الأشياء عن الصدق فهذا الأمر لم يشغلنى وبل لم يدر بخلدى . ولم أكن أظن أنه سيكون محلا لحديث عاصف كهذا الحديث . .

ولقف عبد الجابر أنفاسه ، وأخرج منديله فمسح به قطرات العرق التى كانت قد لمعت فوق جبينه . . وأخذ يستجمع أنفاسه كأنه عاد من شوط بعيد قطعه ركضا . .

وحدث آخر ماكنت أنتظره أو أتوقعه ، فقد صمت عبد الجابر طويلا ثم قال فجأة : « نرجىء الحديث إلى وقت آخر » وخرج بعد أن اكتفى بأن حيانى بقوله (السلام عليكم) دون أن يمد يده الى . . . وأخذت أنظر إليه ، وهو يخرج من الباب ، وبصفة خاصة إلى ظهره هذا الظهر الذى حينما وقع نظرى عليه ، وهو يلتقط الجنيه من الأرض ، حينما عرضه كأتعاب . . وللمرة الثانية أحسست وأنا أنظر إلى هذا الظهر ، بقلبى يفيض حنوا وشفقة على (عبد الجابر) وعلى كل أمثاله من المعذبين المتعبين . كان إشفاقى عليه للمرة الأولى لفقره . أما هذه المرة ، فقد كان إشفاقى عليه لشىء رأيته أشد تعذيباً للناس من الفقر والجوع . . ذلك هو الشك . .

اختفى عبد الجابر (ماديا) من الحجرة ، ولكن صورته ، بل صوره المختلفة ،

بقيت وتتابعت أمامى ، كأنما هى صور قصة (سينما) فبدأت صورته ، وهو داخل على ، بعد حديثه المرح الضاحك مع عبده عن العروسة والزواج ، ثم تقديمه أوراق التحقيق فى قضية تهامى ، ثم الحديث عن حميدة الذى بدأ باستشارته إياى فى زواجها منه ، أو بعدها عنه ، ثم الإشارة إلى مدبولى وما أصابه بعدها . . .

صور الفرق بين الواحدة منها والأخرى ، كالفرق تماماً بين الأضداد فضحكه مع عبده ، لم يكن سوى التعبير عن انفعاله وارتباكه وحيرته ، وكثيراً ما يكون التعبير عن الحزن ضحكا والتعبير عن الفرح بكاء . وكثيراً ما يختلط فى التعبير عن عاطفة واحدة أسلوبان متغيران ، فينتقل الإنسان من الضحك إلى البكاء ، ومن الحركة إلى السكون ، ولقد ذكرت فى هذه اللحظة (شارلى شابلن) الذى أتقن التعبير عن هذا التعبير المختلط عن الانفعال الذى لايجد الأسلوب الطبيعى فى التعبير عن نفسه . ففى أكثر من رواية له ، كان البطل الصغير الفقير الخائب ، يتحقق له شىء من آماله ، فتمتلىء بانفعال ، يجعله يقفز ، ثم ينقض على إحدى الوسائد ، فيخرج منها حشوها من الريش أو القطن ، فينثره فوق رأسه ، ويملأ به الحجرة ، ويروح يرقص ويغنى ، ويهتف ويصرخ حتى يسقط إعياء .

وعبد الجابر كان مشغولا حينما قدم « بالعروسة » فحدث (عبده) عنها ، فقد كان حديثه فى هذا الموضوع أدنى الأحاديث إلى قلبه ، وأقربها إلى لسانه ، وكان ضحكه ، هو التعبير عن السرور الممتزج بالخوف وكان حديثه إلىّ ، وأنا أبعد الناس عنه ، خصوصاً فى هذه المسألة الداخلية الباطنية التماساً لرأى شخص يعلم أنه لن ينصحه بما لايحب ، ولا يخجل من أن يكشف عن نفسه أمامه . . .

ولكن المسكين لم يكن يظن أننى سأطلق عليه هذا (العفريت) المخوف الهائل ، الذى ينقض على سعادة الناس فيقوضها ، والذى يمسخ بيده الرعناء الطائشة الصورة الجميلة لحياة الناس ، ذلك هو غول « الشك » .

فلما خلوت إلى نفسى أنحيت عليها بلوم شديد ، ورحت أقرعها تقريعاً لا رحمة فيه ، ولاهوادة، على الإساءة التى فرطت منى فى حق هذا التعس الذى جاء يلتمس عندى الراحة ، والطمأنينة ، فأغرقته فى تنور ملتهب من مشاعر أشبه شىء بالأسياخ

المحماة التى يتقلب الإنسان عليها بإرادته ، متلذذاً بالعذاب الذى يجده فى تقلبه عليها . .

فالشك دون عواطف الإنسان ، يتغذى بنفسه ، فيزيد كما تزيد المتوالية الهندسية أو كرة الثلج ، كلما تدحرجت كبرت وزادت سرعتها وكلما زادت سرعتها ، زاد حجمها وهكذا . . دواليك إذ يكفى لخيط الشك حتى يستحيل مارداً لايرد . إنه لايطلب من الناس طعاماً ولا شرابا إنه لايطلب منهم حماية ولا وقاية ، إنه يكبر من ذات نفسه إنه ليكبر كل ما يقع تحته أو فى دائرته كالمجهر الذى يضاعف من أحجام الجراثيم الضئيلة التى لاتراها العين ولاتمسك بها اليد . . ماذا أفعل . . ؟

هل أخرج باحثا عن منزل عبد الجابر لأؤكد له أن كلامى لا أصل له ، ولا سند ، هل أقسم له أن كل ما رأيته من حميدة ، كان ناطقاً بالحب له ، والإعجاب به ، والتفانى فيه ، ولكن أيليق بى أن أقحم نفسى ، فى أمور لا صلة لها بعملى ، ولكن أى عمل هذا الذى يحول بينى وبين أن أنقذ إنساناً تعساً ألقيت فى كأس سعادته قطرة من سم ، فجعلت الكأس كلها نقيعاً مهلكا . .

ولكن من يدرينى أن كلامى سيقع من نفس عبد الجابر موقع الرضاء ، ألا يحمله الآن وهو كالمحموم ـ على محمل المواساة ، وتمويه الحقائق له . .

لا أدرى كم من الوقت قضيت ، وأنا أناقش هذه الخواطر ، وأقلبها على وجوهها ودون أن يرد على خاطرى أبداً أن عبد الجابر لابد أنه يكون قد افترسه الشك قبل أن يقصدنى ويلتمس نصيحتى . أحسست آخر الأمر بالإعياء وأنا ألاحق تلك الخواطر فقمت وقلبى ينوء تحت عبء ثقيل .

وجاءت الأيام التالية ، بتجربة جديدة ، فإن عبد الجابر قد اختفى تماما فلم أعد أراه ، وكلما قرب موعد الجلسة ، زاد توقعى فى أن يمر على ، فلم يفعل ، وحرت فى تفسير هذا المسلك منه . أكرهنى حتى لم يعد يطيق أن يرانى ؟ أخجل منى فآثر أن يتوارى عن عينى ؟ كانت نوبة انفعال مفاجىء ذهبت عنه ، فلم تعد لديه الحاجة لأن يرانى ، ويتحدث إلى . ولكن القضية التى كانت شغله الشاغل ، أفترت صلته بها . . ؟

وفى ذات يوم طرق الباب ، وجاء عبده ، ليعلن أن تهامى حضر ، ودخل تهامى مرتديا جلبابا جديداً ، وعلى رأسه عمامة لفها بشال أبيض ناصع ، ومن خلفه لمحت حميدة ومن خلف الاثنين كان مدبولى . . وانتظرت أن أرى عبد الجابر وسلمت وكل جوارحى تتلهف على الوقوف على أخبار « عبد الجابر » . ولكن الحديث بعد السؤال عن الصحة استأثرت به القضية ، ولم يكن عندهم جديد يضيفونه ، سوى أنهم أعلنوا بضعة شهود هم أصدقاء وزملاء العامل القتيل ـ ليشهدوا بأن زميلهم الذى لقى حتفه ، كان أصم وأن كل تنبيه له لم يكن مجديا ولا مثمراً . .

ولاحظت أن العلاقة بين مدبولى وحميدة ، أكثر حرارة : فهى توجه إليه الكلام ، وهى تستقبل كلامه ، فى بساطة وحرية وعدم كلفة . وهو يتصرف كما يتصرف السيد ، صاحب الحق ، لا المتطفل الذى يقحم نفسه فيما لا شأن له . وقد أعجبنى هذا التطور، وراق لى أن أتابعه وأتامله ولم يكن عندى أدنى شك فى أن مرد هذا التطور ، هو غياب عبد الجابر من مسرح حياتها وعلى الأقل فى هذه اللحظة ، وقد اعتقدت ولا أدرى مدى نصيب هذا الاعتقاد من الصحة ـ اعتقدت أن حميدة كانت مشتتة البال ، موزعة النفس ، بين عبد الجابر ، وبين صاحبها ولعلها لم تكن قادرة أن تختار أحدهما دون الآخر . وكان مدبولى بدوره ، شاعراً بأنه ليس سيد الموقف ، وأن له شريكا ، قد يفوقه بحكم مكانته الاجتماعية ، وزيه الأوربى ، وصلاته بالطبقة الأرقى فى عمله الحكومى ، وفى الحى . وأخيراً بفضل رياسته لعمه تهامى ، وبفضل أياديه عليهم فى هذه القضية . ولكنه لم يكن كعبد الجابر ، معقداً ملتويا ، بل كان صريحا وبسيطاً ، فقد كان يحب حميدة ولكنه لم يجرؤ أن يحرمها هذا الرواج ، ولا أن يغضب عمه ، ولم يكن يستطيع أن يترجم آلامه وأحزانه ، إلى صور متخيلة تعذبه وتعكر حياته ، فعمله اليدوى ، لايدع مجالا لهذه التصورات المرضية ، ورفقاؤه البسطاء الصرحاء فى العمل وفى المحن مثله ، يأخذون الدنيا مأخذاً سهلا ، مما لا يعين على الاستغراق فى الآلام ، ولكن هذا كله لا ينفى أنه كان يتألم . تصورت أنا هذا كله ، ففرحت إذ رأيته ، وقد أعفاه الحظ الحسن من القيود التى فرضت على عاطفته ولفرط فرحى بهما ، خيل إلىّ أن مدبولى أصبح أكبر جسما ، وأعلى صوتا وأن ع ارته أوضح ، وأن وجهه أجمل ، وأن ثيابه أنظف ، وأنه أدعى إلى الاحترام ، وأحق بالاهتمام .

وخيل إلى أن عم (تهامى) كان قد انتقلت إليه عدوى السعادة فانطلق لسانه ، فوصف خوفه الشديد من أن يعود يوما إلى (الحبسخانة) . التى لا يود أن يحكم بها الله على حبيب ولا عدو . .

وهموا بالانصراف ، ولكن لم أستطع أن أغالب فى نفسى سؤالا رأيت أن الوفاء ـ على الأقل ـ يقضى بتوجيهه فقلت « وما أخبار عبد الجابر أفندى ـ لقد انقطع عنى منذ زمن ؟ » وتوقعت أن سيسبب هذا السؤال ارتباكا ، ولكن لم يتحقق مما تصورت شيئا ، فقد أجاب عم تهامى بما معناه أن عبد الجابر مشغول باستلام مخزن جديد للمصلحة ، وأن عملية الاستلام تستغرق ساعات النهار كله ، فى الصباح وبعد الظهر ، وأنه حملهم السلام إلىّ والاعتذار من عدم زيارتى . . .

ولم ألمح على وجه حميدة ومدبولى شيئا . غير أن مدبولى بعد قليل أضافَ أن عبد الجابر رجل شهم « ومش ممكن يكون أحسن من كده » وقالت حميدة « فضله علينا ما يتقدرش » .

أكان هذا الكلام مجاملة ، صادر عن قلبين أصبحا فى مأمن من خطر كان يهددهما فسهل عليهما أن يقولا كلاما طيباً ، لا حقد فيه ، ولا ضغن ؟ .

ولست أدرى لماذا أحسست فى هذه اللحظة بأن عبد الجابر يعانى آلاما مبرحة ، وأنه يحاول أن يدفن آلامه تلك فى عمليات التسليم والتسلم . .

* * *

كان عم تهامى مجرد قضية بالنسبة لى أول الأمر . كان تحقيقاً فى النيابة وقراءة لملف مكتوب بخط ردىء ، وكان عودة إلى قانون العقوبات بعد أن تركته بعد الامتحان ، وكان تحضيراً لمرافعتى البكر ، وكان الأمل فى النجاح ، والخوف من النتيجة . . يعنى كان كل شىء ، يتصل بى أنا ، وينتج من أنانيتى ، وانشغالى بنفسى ، ولم يكن هناك شىء مطلقاً ، يتصل به هو .

ولكن عبد الجابر جعل عم (تهامى) كائنا حياً ، يتصل بمشاعرى . . . فقد قدمه إلى ، فى أشد حالاته سوءاً بعد أن قضى ليلته فى قسم عابدين وكان الرجل مشغولا لحسن حظى بما ناله فى تلك الليلة أكثر من انشغاله بقضيته ، فوصل ما بينى وبين الجوانب الإنسانية فى القضية ، وجاء عبد الجابر ليكمل بروز هذا الجانب ،

وظهوره ، بما أفضى به إلى من سره ، وما رواه لى عن دنياه المطوية على الناس . ولعل هذا الأسلوب الإنسانى فى الاتصال بالقضايا ، كان مما يتفق مع ذوقى ويوائم حالتى فى بداية عملى . فسرى عنى ، وحمدت الله أن جعل تجربتى القضائية الأولى على صورة لا أؤمل أن تجود الأيام بمثلها ، فغدا سأبحث عن مكتب محام كبير ، يختاره لى قريبى الذى يشغل منصباً قضائياً عظيما ، وعندها فستقدم لى القضايا فى شكل أوراق ومستندات . لن أرى أناساً ، بل سأرى مشكلات بشرية محنطة أو معلبة ، أى موضوعة فى علب أو أوعية زجاجية ، كالأطعمة المحفوظة ، التى قد ترى فيها أكثر خصائص الطعام الطازج الحى ، من حيث الشكل واللون والحجم إلا الروح ، أى الرائحة والنكهة . . .

على أن هذا ليس سوى المعقول الطبيعى . فلو كلفت كل قضية محاميها ما كلفتنيه قضية عم تهامى لما اتسع وقت أى محام ولا طاقته الروحية إلا لقضية واحدة أو اثنتين فى العام ولو عرضت القضايا على كل المحامين ، كما عرضت علىّ قضية عم تهامى ، لما انقطع للمحاماه إلا الذين أفاء الله عليهم رزقا خاصاً من غير المحاماه . وهذا هو الفرق بين المجتمع القديم البسيط الذى لم تكن العلاقات قد تشابكت فيه تشابكها فى مجتمعنا الجديد . قد كان كل شىء يتم ، محتفظا بطابعه الإنسانى :

فالقاضى يكاد يعرف المتخاصمين بأسمائهم وصفاتهم وماضيهم لأنه يعيش فى حيهم والأستاذ يعرف تلاميذه ويعرف آباءهم وأحيانا أجدادهم . ولا يعلمهم العلم فحسب ، بل يعلمهم إياه ، ويأخذ بيدهم أيضاً فى دهاليز الحياة ودروبها ، ويهش عليهم بعصاه ، كما يهش الراعى على غنمه . والتاجر يعرف عملاءه ، فلا يكون منهم بائعاً يبيع ليكسب فحسب ، بل قد يقرضهم عند الحاجة وينظرهم إلى ميسرة عند الضائقة ، ويجاملهم فى الأفراح ، ويواسيهم فى الأتراح . .

وبالجملة كان المجتمع أسرة كبيرة . .

أما اليوم فالقضايا بالألوف ، والقضاة لا يكادون يحتفظون بصحة أبدانهم ، وسلامة أعصابهم ، ونور عيونهم ، إلا كما تقبض الكف المفتوحة على الماء . . من كثرة ما يقرأونه من القضايا ، ويحتملون من إرهاق الحكم

ونشطت خواطرى هذه كالعادة قبل الجلسة نشاطاً رهيباً ، ففى الجلسة الامتحان الأكبر . .

سأقف أمام القاضى ، وظهرى للناس فى وضع لا يعرفه إلا المحامى وحده ، فالخطباء والمدرسون وأئمة المساجد يواجهون الناس حينما يخاطبونهم أما المحامى فيعطى ظهره للناس ، ولا يهمه أن يتأثروا بكلامه . فهم فى الحالين لا يقدمون ولا يؤخرون فى القضية التى يترافع فيها . ورجل واحد يتوجه إليه المحامى بالكلام ، وبمقدار تأثر هذا الرجل وحده بهذا الكلام ، يكون حظ صاحب القضية نحوساً أو سعوداً . . .

ولم أفكر من قبل فى غرابة وضع المحامى حينما يترافع حتى اقتربت الجلسة ، وأخذت أستجمع بخيالى صورة لنفسى وأنا أترافع . وكان أول ما قفز فى الصورة ، وضع الجمهور . فقد تجمع فى الصورة عدد كبير من الناس فى قاعة فسيحة نظيفة ، يتدفق إليها ضوء من نوافذ عالية تسدها ألواح زجاجية جميلة . وفى الصورة منصة مرتفعة يجلس عليها قاض هادىء ساكن ، جلل رأسه ، شعر أسود يتخلله بياض كثير . وإلى جانبه من اليمين وكيل للنيابة ، ومن اليسار الكاتب ، يلبسون جميعاً أردية سوداء ويقف فى منتصف القاعة حاجب يرتدى ثوباً أسود ، ويسود القاعة كلها صمت رهيب وسكون عميق ، فالجمهور لا يسعل ، وأفراده حينما يدخلون ، يسيرون على أطراف أصابعهم . فاذا سمعوا شيئاً أعجبهم ، تكلموا همساً ، وهم بالجملة خشب مسندة ، كأنما يكملون المقاعد التى يجلسون عليها ، فلا يصدر عنهم صوت ، إلا اضطراباً ، ولا يحدث هذا الاضطراب إلا فى أحد أمرين ، أن يسمعوا ما يضحكهم ، فتنفجر ضحكاتهم على الرغم منهم ، فيعاجلها القاضى الوقور بطرقة من يده ، ترن رنينا مخوفاً ، فيسود الصمت الحجرة فى الحال ، ويقع الطرف الثانى من الاضطرار حينما يصدر حكم ينتظره الجمهور ، سواء أكان ببراءة متهم يعطف عليه أم بإدانة متهم يكره ويستنكر فعلته . فمن أين تجمعت عناصر هذه الصورة ؟ .

لست أنكر أنى شهدت قبل الجلسة التى سأترافع فيها ، جلسات ولكنها كانت كلها فى الريف . فقد شهدت جلسات فى عاصمة بالصعيد ، وجلسات فى عاصمة

أخرى بالوجه البحرى . ولم تكن صورة قاعات تلك المحاكم التى شهدتها لتشبه شيئاً مما رسمه لى خيالى وزخرفه ، وأسبغ عليه الجلال والوقار . ولكنى كنت أقول لنفسى هذه محاكم الريف . أما محاكم العاصمة فشىء آخر . وكان يشجعنى على التشبث بهذا الخيال ، والاطمئنان إليه والاقتناع به ، أنى كنت أرى الفارق كبيراً بين عاصمة البلاد وبين الريف فى كل شىء .

ففى القاهرة الميادين المضاءة بالكهرباء والشوارع الفسيحة التى تظلها الأشجار ، وفى القاهرة المسارح الأنيقة ودور السينما الكثيرة ، ووسائل الراحة وأسباب الترف . وفى عواصم الريف شوارع مهملة ، لا ممهدة ولا مضاءة ، لا تعرف الظل ، ولا الاستقامة . والناس فى الريف ينامون بعد الغروب ، فإن لم يناموا هم نامت المدن نفسها أو استغرقت فيما يشبه النوم . فخلت شوارعها من المارة ، وشملها سكون موحش كسكون المقابر ، واحتواها ظلام ، إلا أن تكون يد العناية قد أضاءت فى بعض شوارع ذبالات خافتة تتراقص فى الهواء ، وكأنما هى أشباح تعبت فودت لو تفارق الوجود التماساً للراحة ، وفراراً من العناء . .

فلا لوم على إذا ظننت أو تخيلت محاكم القاهرة على هذه الصورة الجميلة البارعة .

لكن من أين جاءت عناصر صورة هذه القاعة ؟ من السينما لا شك ، فقد شهدنا على تلك اللوحة الفضية الساحرة ، روايات كانت المحاكمات بعض ما تعرضه ، وكانت هذه الروايات بفضل تلك المحاكمات أمتع ما نراه ونحن فى المرحلة التى هى بين الصبا ، وبين الشباب . والتى يشتعل فيها خيالنا ، ويرسم لنفسه أشياء جميلة ، يتمنى أن تتحقق ، وتبقى فى أطواء نفسه إن لم يكن التحقيق من نصيبها : توجهه وتسيره ، وتنعكس على كل مايفكر فيه وكل ما يكرهه .

ولكن هذه الصورة لم تكن صدى لروايات السينما وحدها ، فقد عاد زوج عمتى من باريس وكان من الأعيان الذين يزورون أوربا كل صيف ، أو على الأقل أكثر فصول الصيف . وفى ذات مساء ، عقب عودته من رحلته تلك ، جلس يروى بعض مشاهداته هناك ، فساقه الحديث إلى وصف ما شاهده فى إحدى قاعات محكمة باريس من أداء ضباط البوليس المتخرجين حديثاً اليمين أمام قضاة تلك

المحكمة . وكنت صبياً فى نحو الرابعة عشرة فاستولى على خيالى أسلوب زوج عمتى وهو يصف قاعة المحكمة المفروشة بالبسط الحمر ، ونوافذها التى أسدلت عليها ستائر من القطيفة الحمراء أيضاً . وملابس القضاء السوداء ، وملابس الحاجب الكحلية أو القاتمة وسيفه اللماع الذى يمسكه بيده ، ويسير حاملا إياه ، وهو ينادى أسماء الذين يدعون لأداء اليمين ، وكأنه قائد فى معركة . . .

ومضت الأيام ، وصورة المحكمة هى مزيج مما رأيته فى السينما ، ومما وصفه قريبى بأسلوبه الجميل ، ومن شىء ثالث . . . ففى تلك الأيام ، كانت أيدى الناس تتداول سلاسل قصصية تصدرها دار نشر ، هى أقدم ماعرفت القاهرة من دور النشر ، وكانت تسمى « بمسامرات الشعب » وكان فى بيتنا من هذه السلاسل أربع أو خمس مجموعات وكان من بين أسماء بعضها « قلوب العذارى » و « اليتيمتين » . ولم أقو على قراءة تلك القصص ، على الرغم من أنى وددت أن أقلد الكبار من أهل بيتى ، ولا سيما أخى الذى كان يكبرنى ، والذى كان يقفل عليه باب حجرته ، فيقرأ كتب الهندسة – ثم إذا تعب أخذ يقرأ فى هذه القصص . إذا دخلت إليه فى حجرته لأمر ما راعنى أن أراه مقبلا عليها منصرفا عن كل شىء غيرها لا يكاد يطيق أن أوجه إليه سؤالا أو أن أدعوه إلى تناول طعام ، أو أن أخبره بأن أحد أصدقائه قد قدم للسؤال عنه ، وأصبحت هذه القصة عندى لوناً من السحر ، أود أن أمارسه ، وعرف عنى أخى هذا ، فنادانى إلى حجرته يوما ، وناولنى قصة صغيرة ، وقال اقرأ هذه ، وإن صعب عليك فهم شىء منها ، تعال إلىّ . . وفرحت فرحا شديداً ، وأخذت أقرأها ، حتى إذا خرج أخى إلى بعض شأنه دخلت حجرته ، وجلست على مقعده ، وأخذت أقرأ كما كان يقرأ وأنا سعيد بالحجرة والمقعد سعادتى بالرواية والمطالعة .

وقد كانت القصة تدور حول قضية قتل وسرقة ، فاحتوت بطبيعة الحال على وصف للمحكمة ، فكأنما كان هذا الوصف امتداداً لوصف زوج عمتى . .

ويبقى هذا الخيال الجميل ، يساورنى ، حتى كان التحقيق مع تهامى ، فتناثرت الصورة الجميلة على باب المحكمة ، قبل أن أدخل إلى حجرة وكيل النيابة ، إلا أنه

بقيت أتصور - أو قل أؤمل - أن تكون قاعة المحكمة شيئاً آخر غير ردهاتها ، وغير الدهاليز المؤدية إلى قاعة وكيل النيابة . .

ولقد كان أخوف ما أخافه ، موقف المرافعة فلما جاء يوم المحكمة عرفت أن هناك شيئاً أشق من المرافعة هو . . . الوصول إلى قاعة المحكمة . . .

الحق أنى لم أتصور أبداً أن الوصول إلى قاعة المحكمة سيكون لوناً من الجهاد حتى كابدته بنفسى . فقد اجتمع على باب القاعة عشرات من الناس من كل سن ، ومن كل جنس ، يلبسون أطرزة لا حصر لها من الثياب ، فقد كان منهم الرجال والنساء والأطفال ، والعساكر والمدنيون ، ولابسو الطرابيش ولابسو العمائم ، و « اللاسات » والقبعات ، والطواقى ، وعراة الرءوس ورأيت فى ذلك اليوم مكفوفا يحاول الدخول ، ومعه عصا ، يمدها أمامه ، يتحسس بها طريقه ، لا يبالى الزحام ، ولا يخاف أن يدفع أو أن يتعثر أو أن تصيب عصاه عيناً بسوء ، وفيما يحاول هذا العدد الضخم دخول القاعة ، رأيت شابا يرفع على يد واحدة إلى مافوق رأسه ، صينية مستطيلة من الصاج الأسود ، صف عليها ألواناً من الفطائر ، تعلوها ورقة صفراء ، لتحميها من هجمات الذباب ، الذى يجتمع فوق تلك الورقة ، فى أسراب كثيفة ، يكاد يسمع لها أزيزكأزيز الزنابير ، وفى أقل من لمح البصر ، شق هذا الشاب لنفسه طريقاً فى هذا السد البشرى الذى قام على باب القاعة ، ودخل إلى القاعة حيث رن صوته عالياً فيها معدداً مزايا فطائره الساخنة .

ومرق مثله شيخ أسود اللون ، أشيب الشعر ، يحمل فى إحدى يديه سطلا يملأ الماء ثلثه وصفت داخله زجاجات المياه الغازية ، وقد راقبته وهو يتخطى رءوس الجالسين ، وينفذ نفوذ السهم فى صفوف الواقفين ، وكأنه بهلوان ألف المشى على الحبال ، دون أن يهتز أو يقع . .

وبعد قليل أقبلت جماعة يلبس بعض أفرادها بيجامات بيضاء والبعض الآخر بيجامات زرقاء ، يصحبهم اثنان أو ثلاثة من العساكر الذين يحملون فى أيديهم العصى الخيزرانية الطويلة فعلمت أن هؤلاء هم المتهمون المقبوض عليهم ، جىء بهم من السجن وأن لابسى الملابس الزرقاء محكوم عليهم فى قضية سابقة ،

ولابسى البيجامات البيضاء محبوسون احتياطيا ، لم يستطيعوا أن يدفعوا ثمن السرير فى السجن فألبسوا ثياب السجن فى انتظار الحكم فى قضيتهم ، وعند وصول هذه الجماعة ، ضرب العساكر العصى فى الأرض ، ليتفرق الجمع المحتشد على باب القاعة ، فلم يتفرق ، فدفع بالأيدى ، وأدخل المساجين إلى القاعة . . وانتهزت هذه الفرصة ، فأسرعت وراءهم ودخلت تلك القاعة .فكأنى انتقلت بوصولى إليها ، ودخولى فيها إلى يوم الحشر ، فالتلاحم والتزاحم ، والصياح والصراخ ، وانشغال كل بنفسه ، ومظاهر الجزع والإشفاق والدعاء والرجاء ، والألسن التى تتلو آيات القرآن فى صمت ، والتى تتضرع إلى الله فى عنف ، والحركة الدائبة ، من خروج ودخول ، ومن قيام وقعود ، ومن انتقال إلى قفص المتهمين مرة ، وإلى منصة القاضى حيث كاتب الجلسة مرة ، وإلى صفوف المحامين مرة ثالثة . فهى فى حركة لا تكف . حركة تزداد على مر الوقت شدة وعنفاً .

أين أنا من هذا كله ؟ ماذا أفعل ، وفى أى مكان أجلس ، وإلى أى شخص أتجه ، لم أستطع أن أجيب على هذه الأسئلة جميعاً فتركت نفسى فى هذا الموج المتلاطم ، قانعاً بالتأمل فيما يجرى ، شاعراً بأن هذا هو درسى الأول ، فلا يحق لى أن أقلق ، ولا أن ينفد صبرى ، وعلى الرغم من أنى - كما علمت - فى مثل هذه المجتمعات ، أشعر بالوحشة والغربة ، إلا أنى فى ذلك اليوم ، لم أعان شيئاً منهما ، فقد أحسست بأن العالم الذى احتوانى فى هذه القاعة جعل من الناس الذين انضموا إليه ، عجينة تخلط بينهم خلطا ، فلم يعد لواحد منهم كيان قائم بذاته ، فالجميع يتكلمون ولا ينصت إليهم أحد ، أو الجميع ينصتون لكل كلام يقال فى القاعة ، فهو مشاع للكل لا يستقل به أحد .

واتجهت نحو المقاعد المخصصة للمحامين ، وأنا أقدم رجلا وأؤخرها ، فلست أدرى كيف يقع منظرى من نفوسهم ، وكيف سيستقبلوننى ، وأى كلام سيوجهونه إلى ، ثم وجدت نفسى بجانب هذه المقاعد ، فاستندت إلى الطاولة الموضوعة أمامهم ، والتى نثروا فوقها ملفاتهم ، ومحافظهم ، فإذا بها تهتز وتكاد تميل تحت يدى . وفى هذا الوقت كان أحد الزملاء يكتب شيئاً ، على ورقة وضعها على هذه الطاولة ، فاهتزت الورقة ، فنظر من تحت مناظير كان يضعها فوق عينيه

وقال « حاسب » ثم استأنف عمله . أما أنا فقد أحسست أنى ارتكبت خطأ فاحشاً ، فقد قيلت كلمة « حاسب » جافة ، بلا مجاملة ، ولا حتى دون أن يكلف قائلها نفسه النظر إلى . وابتعدت عن مقاعد المحامين إلى منصة القاضى ، ودفعنى الزحام دفعاً فأسندت ظهرى إليها ، فإذا بها تهتز بدورها وتكاد تسقط أو تتزحزح من مكانها . وسمعت صوتاً ينبعث من فوقها ، فنظرت فإذا بشاب صغير نحيف يجلس على مقعد القاضى ، ويبسط أمامه أوراقا كثيرة يقلبها بين يديه يقول فى صوت ينم عن ميل صاحبه إلى الدعابة « حاسب يامحترم » ونظرت إليه ، فنظر إلى نظرة خاطفة وعلى شفتيه ابتسامة أخاذة دون أن يتوقف عن الكتابة ، والناس من محامين ، وغيرهم ، لا يكفون عن ندائه فى تودد ظاهر « ياجبريل افندى » تارة ، و « ياأستاذ جبريل تارة » و « ياجبريل بك » تارة ثالثة ، وهويجيبهم جميعا إجابات أكثرها دعابات ووقفت أتابع أحاديث جبريل افندى مع الناس ، وقد استطعت أن أتبين أنه كاتب الجلسة ، وأنه انتهز فرصة تأخير القاضى عن الحضور ، فأخذ ينجز بعض أعماله ، من تبييض أحكام ، أو استيفاء محاضر جلسات .

ولما خفت الحركة فى القاعة ، بعد وصول المتهمين وإيداعهم القفص ، وبعد امتلاء القاعة بالنظارة ، تبينت شخصية ذات خطر ، تلك هى شخصية « الحاجب » . والحاجب قبل افتتاح الجلسة ، يتمتع بحيازة أهم ورقة قضائية تلك هى كشف القضايا الذى اصطلح على تسميته بلفظة فرنسية هى « الرول » وهى ورقة طويلة تكتب عادة بخط ردىء تتضمن أسماء المتهمين حسب ترتيب قضاياهم ، ولا تنقضى لحظة على حاجب الجلسة دون أن يقترب منه شخص لينظر إلى هذه الورقة ، وأحيانا يدنو منه شخصان أو ثلاثة ويمدون أيديهم فى وقت واحد نحوها ليأخذوها منه ، فيلقوا عليها نظرة ، ولاحظت أنه لا يكاد يدعها تخرج من يده ، فإن أعطاها لأحد بقى طرفها فى يده ، ولاحظت أن طلبها منه يحدث أحياناً وهو مشغول بحديث آخر ،فتمتد يده بها ، وهو لا يزال ممسكا بها ، لا يدعها تفلت من يده ، ووجهه متجه إلى من يحدثه .

وراق لى أن أراقب الحاجب عن كثب فاقتربت منه ، وسألته عن قضية تهامى ؛ فإذا به يكمل اسمه ويقول « تهامى عبد المولى ؟ » قلت : نعم ، وكدت أفعل كأى قروى ساذج ، فأسأله هل تعرفه ؟ .

ولكنى أردت أن أتأكد ، فلم يمانع فبسط لى الورقة فى سرعة فأجلت نظرى فيها ، فعجزت عن حل رمزها ، ولكن وضع أصبعه ، وكأنما يقرأ بطريقة « برايل » للعميان أى بالتحسيس. ولمحت اسم تهامى ، وطوى الحاجب الورقة فى جيبه ، واتجه ناحية الباب فأسرع إليه اثنان أو ثلاثة كل منهم يطلب إلقاء نظرة على هذه الورقة المقدسة . وسمعت قهقهة عالية ناحية مقاعد المحامين فجذبتنى هذه القهقهة ، فاتجهت ناحيتها.

دنوت فى استحياء إلى حيث يجلس زملائى المحامون ، وقد اتعظت بتجربتى التى لم ينقض عليها دقائق فلم أضع يدى على الطاولة ، فقد أدركت أنها لا تحتمل ضغطاً . وابتعدت عن منصة القاضى أيضاً ، فهى غير ثابتة ولا مستقرة . فالأشياء فى هذه المحكمة مرنة تتحرك ولا تثبت شأن جميع من فيها . فهم قلقون غير مستقرين ، فى نفوسهم من الانفعال ، ما يقيمهم ويقعدهم ، وليس فيها ما يطمئنهم أو يثبتهم . وقفت أنظر إلى المحامين ، وأنقل عينى إلى وجوههم ، فإذا هم مستمعون إلى أحدهم ، يروى النادرة وراء النادرة ، والقصة وراء القصة ، وهم مستغرقون فى الضحك ، وانتقلت إلى حالتهم التى شملتهم فارتسمت عل شفتى ابتسامة دون أن أشعر بذلك ، وامتلأت نفسى بخواطر بهيجة . فاختفت القاعة بزجاجها واضطرابها وفوضاها واختفى قفص الاتهام الذى غص بنزلائه ، الجلوس والوقوف ، والصغار والكبار . ولم يعد أمامى إلا هذا الفريق : أفراد هذه الأسرة التى انتسبت إليها ، دون أن يقدمنى أحد لها ، ودون أن يقدمها أحد لى . . هؤلاء هم زملائى الذين سأعيش معهم ، و سأتعلم منهم ، وسأناظرهم وأنافسهم فمن هم ؟ وكيف هم ؟ .

عجباً ، إنهم يضحكون ملء قلوبهم ، ويتبادلون الدعابات ، ويتجاذبون أطراف الحديث ساخرين بكل شىء ، وبكل الناس . فهل لم يقف بعضهم من بعض موقف الخصومة والمناصرة فى القضايا ؟ هذا غير معقول ، فلا بد أن يكونوا قد تناولوا آراء بعضهم بعضاً بالنقد والتفنيد ، بل بالسخرية والتنديد . . .

فما أعجبهم من مقاتلين ، وما أجدرها مهنة بالحب والاحترام . وسألت نفسى أيهم الكبير ، وأيهم الصغير ، فرأيتهم تفاوتوا فى الأسنان والأعمار فمنهم الصغير

الذى لم يبلغ سن الرشد إلا منذ قليل ومنهم من تجاوز الستين وأشرف على السبعين . ومع ذلك فهم ، الواحد منهم بجوار الآخر ، كالأنداد والأشباه . ثم ما بالهم جميعاً تهتز أعطافهم حيوية شابة . فلم يقع نظرى على واحد منهم يجر قدميه فى تثاقل ، أو يتحدث فى خفوت ، أو يتحرك فى إعياء وتمارض . .

وتوالت خواطرى ، وأنا أخطو خطواتى الأولى فى طريقى إلى حرم هذه المهنة ، وقبيل وقوفى فى صفوف جنودها . .

وكان أولى هذه الخواطر ، أنها المهنة الوحيدة التى تعرض بضاعتها علنا والتى يحكم الناس عليها أولا بأول والتى يعيش فيها أبناؤها فى امتحان دائم . .

فالطبيب والمهندس والمعلم والمؤلف والموسيقى ، يعملون فى غرفات مغلقة ، والذين يتعاملون معهم ، لا يملكون إلا السكوت أو الموافقة أو الاستسلام . فأى مريض يستطيع أن يعرف معنى هذه الدقات التى يدقها الطبيب على جدران بطنه ، وعند قلبه ، وأى عليل يسأل معالجيه عن المشرط أو المخدر أو الدواء الذى يستعملونه ، والمهندس هو الذى يستقل بمعرفة الأرقام التى يضربها ، ويقسمها ، ويجمعها ويطرحها . . والمؤلف ، يكتب ويفكر فى خلواته ، لا يدرى أحد بمن استعان ، ولا يقتحم عليه أحد صومعة عمله .

أما المحامى ، فمهما ذاكر فى خلوته ، ومهما استعان بغيره فى وحدته فهو لا بد أن يقف أمام الناس ، ليعرض بضاعته . . ولا يكفى أن يرضى القاضى ، فالجمهور يسمع ويحكم ، ولا يكفى أن يرضى الوجدان وحده ولا أن يرضى العقل وحده ، بل لابد له أن يرضى الاثنين معاً ، ويرضى معهما أو قبلهما فنه وضميره . .

وبضاعة المحامى ، فى متناول الجميع ، فأكثر الناس يستطيع أن يفهم ماذا يقول المحامى ، وأكثرهم يظن أنه قادر أن يقول كلامه ، وأحياناً أن يقول أحسن منه . .

فالمحاماة مهنة إنسانية ، شديدة الاتصال بحياة الناس ، لأنها شديدة الاتصال بالناس أنفسهم .

يكتب على المحامى ، ما لا يكتب على غيره فى المهن الأخرى ، فأصحاب المهن الأخرى ، يتنافسون ولكن لا يتسابقون أمام الناس . بينما المحامون فى سباق مستمر ، فالمحامى مهما كبر ، لابد أن يقف أمامه فى الطرف من الدعوى محام آخر قد يكون أصغر منه بكثير ، بل قد يكون من تلاميذه ، الذين شبوا فى حجره ، ونشأوا فى حضنه ، وتعلموا منه . بل إن المحامى الوالد قد يناظره ابنه ، فلا كرامة فى المحاماة ، إلا للموهبة والكفاية والاجتهاد والسمعة . . ؟

والمحامى وحده دون غيره ، يعمل شيئاً ثم يدع كل ما يعمله بين يدى غيره ، هو القاضى ، فإذا نجح ، اقتسم معه القضاء على أحسن الفروض ، نصف الثواب ، إن لم يذهب الأجر كله للقاضى العادل ، وإن فشل ، ما كان له أن يقول إن الخطأ ليس خطأ . وإن قال ابتسم الناس . .

والمحامى وحده ، الذى تتجدد حياته ، يوماً بعد يوم . فما من يوم يمر عليه ، إلا وهو ينتظر فى آخر يومه ، نتائج عمله فى قضايا ، فهو بين سرور وخيبة أمل دائمين ، لا تؤديان أبداً به إلى بلادة فى الحس ، بل تجعلانه أكثر تطلعاً للحياة ، وأكثر استشرافا للمستقبل . .

والمحاماة ، بعد هى مهنة الكلام ،وهى الطريق المحفوف دائماً بالمخاوف والمخاطر ، فأسعد الناس هم أقلهم كلاما ، وأشقاهم الذين تقتضيهم طبائعهم ، أو وظائفهم ، أو ضمائرهم ، أن يقولوا ما يطوون عليه صدورهم فما من كلمة ترضى أحداً إلا وتسخط غيره ، وما من كلمة مطلوبة اليوم ، إلا وهى مكروهه غداً ، وما من كلمة لا قيمة لها حينما تقال ، إلا جاز أن تصبح ذات خطر حينما تذكر بعد زمن طويل أو قصير . .

إذن هذه هى المحاماة ، على بركة الله ، والله المستعان . .

ولما نفضت عن نفسى هذه الخواطر ، ازددت اقترابا من المحامين ، وكأنى أود أن أصافحهم جميعاً ،وأن أقول لهم أنا زميلكم الجديد حسين القويسنى ، ولكنى لم أحتج إلى شىء من هذا فقد أقدم أحد المحامين ، يحمل تحت إبطه ، محفظة تكاد تتمزق من فرط ما امتلأت ، به من الأوراق ، ووضعها بتؤدة شديدة على الطاولة ،

ولم يكد يقع نظر زملائه عليه حتى هللوا ، فقال « إيه يا اولاد » ونظر إلىّ وقال عندك نمرة كم يا أستاذ ؟ .

لماذا سألنى أنا لست أدرى . . قلت ١٧ . .

قال : حسناً ، إذا طلبت ١٤ احجزها لى . . أنا فى الحجرة المقابلة . . عندى قضية صغيرة .

وترك محفظته وذهب ، وكان إلى جانبى زميل يكبرنى قليلا ، قال أتظن أن هذه الأوراق ملفات قضايا ؟

قلت : إذن ماذا تكون ؟ قال لا . بل كتب من كل نوع . . فى الفلسفة والأدب والطب والتاريخ بالعربية والإنجليزية والفرنسية . . . . هذه خسارة حقيقة .

قلت : وأنا شديد الرغبة فى أن أجد من أكلمه : ولماذا خسارة ؟

قال إنه لا ينتفع به فى شىء . . ولو اختار لنفسه فرعا ، لأجاد وأحسن ، ولكنه لا يحتمل الصبر على شىء واحد . . . إنه من نوع مؤلفى العهود الذين يؤلفون فى كل شىء . . ألم تقرأ له شيئاً .

قلت أبداً . . .

ففغر زميلى فاه مندهشاً وقال : ألم تسمع باسمه ؟

قلت فى حياء : أنا . . أنا لا أطالع كثيراً . .

فهز رأسه وكأنه يود أن يؤنبنى ، فاكتفى تأدبا بهذه الحركة ، فآلمنى ولم يسعفنى لسانى ، بجواب لبق ولكن لم تتسع لى فرصة التفكير فيما قال فقد تدخل فى حديثنا أستاذ فى نحو الستين قائلاً : أتتكلمون عن الأستاذ فلان ، قال زميلى نعم ، فقال إنه من زملائى فى الدراسة ، وهو أغرب الناس جميعاً ، فاطلاعه الواسع ، جعله ممثل المعارضة فى كل مجلس . فإذا كانت المناقشة حول الدين ، ورأى أن الجالسين قد مالوا إلى تأييد فكرة التدين ، دافع عن الإلحاد ، ونثر على السامعين آراء فلاسفة الغرب والشرق ، المؤيدة لرأيه ، وتهكم بأسلوب لاذع على رجال الأديان من علماء وأساقفة وأحبار ، وروى عشرات من القصص الدالة على خلاعة الخلفاء

والبابوات ، ولم يدع لأحد مجالا لقول يقوله ، وإن رأى جماعة من الملحدين ألهب ظهورهم بسوط لسانه ، وتهكم عليهم ، وسفه أحلامهم ، وعدد من آيات الله الناطقة بوحدانيته ، واستشهد بأقوال علماء الطبيعة والرياضة عن إيمانهم بخالق الخلق ومبدع السموات والأرض . . وإن رأى شيوخاً يقرأون فى القرطبى والنسفى وابن عبدربه والجاحظ ، وبخهم لأنهم لا يزالون يعيشون فى الماضى ، ودعاهم إلى أن يفتحوا عقولهم ، ليعرفوا ديكارت ونيتشه واشبنجلر . . وان اجتمع بشبان أتموا تعليمهم فى أوربا وأمريكا ، وأداروا على ألسنتهم أسماء داروين ونيوتن وأينشتين ، أو شكسبير وجيته وهيجو وصفهم ، بأنهم عبيد الغرب وأنهم باعوا أنفسهم لحضارة غير حضارتهم ، وأكد لهم أن ما فى بطون كتب العربية فى الطبيعة والفلك والكمياء والطب ، أصل أصول العلوم ، . . وإن رأى متزمتين متوقرين لا يضحكون عابثهم وهزأ من جدهم ووقارهم ، وإن رأى ضاحكين انطلقوا على سجيتهم ، علمهم أحسن الأدب وبشرهم بسوء المنقلب . . وهكذا وهكذا . .

ولما أكمل أستاذنا الذى يكبرنا وصف زميله تمنيت على الله ، أن أسمعه فى تلك الجلسة وأن أراه ، ولكن فاجأتنا حركة ، انشقت لها صفوف الواقفين فى طرقة قاعة الجلسة وظهر على باب القاعة رجل أنيق ، تتألق حيويته ، وتلمع عيناه لمعان الفرح والثقة والاعتزاز ، وسمعت زملاء يكررون اسمه ، وكنت قد سمعت هذا الاسم من قبل ، فتزايد وجيب قلبى إذ عرفت أننى على بعد ذراع من صاحب هذا الاسم الضخم ، وأحسست بسعادة دونها أية سعادة إذ تصورت أنى سأسمع هذا المحامى الكبير يترافع ، فى نفس القاعة التى سأترافع فيها أنا ، وأمام نفس القاضى . .

وقلت لنفسى وهذه ميزة أخرى من ميزات مهنتنا . .

فالطبيب الصغير ، أو المهندس الصغير أو المدرس الصغير لا يستطيع أن يشهد كل منهم الكبار من زملائهم وهم يؤدون أعمالهم إلا لماماً ، ونحن منذ اليوم الأول نرى أساتذتنا ، ونسمعهم ونتحدث إليهم ونستفتيهم ونسألهم . .

وسأل المحامى الكبير ، هل القاضى شرف ؟ فقيل له ، إنه منذ دقائق لم يكن قد حضر ، فاندفع إلى باب حجرة القاضى المؤدية إلى قاعة المحكمة والعيون تشيعه بنظرات الإكبار والإعجاب . .

وحانت منى التفاتة إلى الصفوف الخلفية فى قاعة المحكمة ، فرأيت « عم تهامى » جالساً وإلى جانبه حميدة ومدبولى ، أما تهامى ، فكان على العهد به ، كأن لا صلة بينه وبين هذه القاعة ، فهو لا ينظر إلى يمين ولا يسار ، ولا يتابع شيئاً مما يجرى فيها من حركة ، أما حميدة ومدبولى فقد أخذا فى حديث متصل ، كانت تلمع له عينا حميدة الواسعتان الضاحكتان بينما كان مدبولى خلاله يملأ فمه بقطع من فطير اشتراه من بائع الفطائر ، وعليه من علامات الرضاء والطمأنينة ، ما يدل على أن الأمور تسير فى حياته ، رخاء ولكن — أين أين عبد الجابر سرى ؟ لماذا لم يظهر ؟ هل نفض يده من تلك القضية ، وقطع صلته بهذه الأسرة . . . ؟

ولم يطل تساؤلى ، فقد لمحت عبد الجابر ، فى بذلة جديدة ، وربطة عنق جديدة ، وفوق رأسه طربوشه الذى خيل إلىّ أنه لا يزال بحرارة المكوى . هل ظن عبدالجابر أنه فى يوم عيد أم اعتبر حضوره إلى المحكمة مناسبة ، تستحق التهيؤ لها بلبس أحسن الثياب . .

ومع ذلك فملابس عبد الجابر لم تكن تشغلنى فى ذاتها ، إنما كان يشغلنى فيه ما وراء ظاهره . فتأملته طويلا ، وأبعدنى تأملى فيه عن القاعة ومن فيها ، فكأنى وحدى فى حجرتى ، وكأن كل الذين حوله قد ذابوا . .

وهذا هو عبد الجابر ، لا تتألق عيناه الصغيرتان النافذتان فى صفحة وجهه الأسمر الملىء لقد خبا ضوؤهما ، أو هذا على الأقل ما تصورته ، وجلس بعيداً عن الناس ، لا يتكلم : لقد كف عن ثرثرته . ولم يعد قادراً على أن يوزع على الناس ذات اليمين وذات اليسار أفكاره وخواطره . . .

إنه لم ينظر إلى حميدة وصاحبها ، طوال المدة التى نظرت إليه فيها ، فهل لم يكن يعرف مكانها من القاعة ؟ وكان هذا ضربا من المستحيل ، ولكن أية فائدة من النظر إليها ، وقد ثبت له أنه لا يستطيع أن يصل نفسه بحميدة ، لقد شك فى أن مدبولى ، آثر عندها ، وأقرب إليها ، فطار صوابه لهذا الشك ، وكان دفاعه عن كرامة نفسه ، وكان تعبيره عن ألم الجرح الذى أصابه ، أن يبعد . ففى الناس طراز من الأشقياء الذين يخطؤهم الحظ ويحسون الفشل والهزيمة ، فلا يطيقون أن يعبروا عن ألمهم لهذا الفشل بالصراخ ، ولا يجدون بين أيديهم من القوة ، ما يعينهم

على أن يقاوموا ، ويرفضوا الإقرار بالهزيمة . هؤلاء هم الذين يظنون أنهم يغلبون الحياة بالاستعلاء عليها ، ويغلبون الحرمان ، بمضاعفة نصيبهم منه ، والمبالغة بتعذيب أنفسهم به . . .

وفى المهزومين فى الحياة ، من يلذ لهم أن يطيلوا التفكير فى هزيمتهم ويعرضوا ألوانها عليهم ، فتبقى صورها فى أذهانهم ، تنعكس بالتالى على ما يقولون ويفعلون . .

وأحسب أن عبد الجابر كان من الطراز الأول ، لقد قرر ألا يبدو مهتماً ولو كان قراره صدر وهو فى حالة طبيعية ، لما قاطع حميدة وأباها ، ولما قاطعنى أنا ، ولكن كان لابد أن يبالغ ليشبع رغبته فى إيذاء نفسه ليتعزى . .

ما أتعسنا نحن البشر . . .

إننا لا نكاد نفهم أنفسنا ، إننا لا نكاد نفهم الغير ، لذلك فإننا لا نكف عن مصارعة ذواتنا وقلوبنا . .

إننا نعيش فى دهاليز متداخلة فى المجتمع ، جعلتنا نعيش فى دهاليز وضروب ، متقاطعة ، مع أنفسنا . . ؟

وتصورت فى هذه اللحظة أننى لو أخذت عبد الجابر من يده ، وقلت إنك تريد أن تتزوج حميدة لصرخ (نعم) ، ولو قلت له إنك تريد أن تطمئن إلى أنها تحبك دون مدبولى لزاد صراخه علواً ، ولو سمع كلمة لطيفة منها ، لانهارت مقاومته ، ولكن دون ذلك كله كبرياؤه الذى زاد بعداً عن حقيقة نفسه ، وكلما بعد عن نفسه ، زادت هذه الحواجز ارتفاعا حتى ينتهى به الأمر إلى أن يقع خلفها كطفل ، يرتمى خلف الباب ، ليبكى ويضرب الأرض بيده وقدميه . .

ونقلت عينى إلى حميدة ومدبولى . . أو قل نظرت إلى مدبولى وحده . . ولكم أحببته . إنه لا يزال على الفطرة . كان يحب حميدة منذ البداية ، فلما ظهر عبد الجابر ، بقى أقرب ما يكون إليها ، فلم يستسلم لهواجس من صنع خياله ، كهواجس عبد الجابر . . ولم تبن له الخيالات كبرياء . . إنه الآن فرح بها كطفل . . ولعله لا يذكر عبد الجابر لا بخير ولا بشر .

وددت فى هذه اللحظة أن تنتهى القضية . .

وصرخ حاجب الجلسة ، صرخة أخرجتنى من تأملاتى لتردنى إلى الحياة التى لا تحترم حزناً ولا ألماً ولا خيالاً ولا أحلاماً ، فهى فى سيرها الدائب المتجدد ، تريد منا جميعا أن نسير معها ، فإن تلكأنا دفعتنا ، فإن لم نكن فى مثل سرعتها ألقتنا على وجوهنا ، فإن لم نقف سريعاً على الأقدام ، داستنا الأقدام . .

وهززت رأسى كأنما أنفض عنها ما كانت فيه من خيالات حميدة ومدبولى وعبد الجابر ، ليبقى فى رأسى شىء واحد ، هو القضية وليبقى أمامى شخص واحد هو تهامى عبد المولى ، مقترنا بمعنى واحد : **الواجب . . .**

وكجندى صغير يدخل المحكمة لأول مرة ، أخذت مكانى فى صفوف المحامين ، وقفت بينها يجلجل صوت الحاجب . .

محكمة ! .

ووقف الجميع ، وكأنما كانت هذه الصيحة وهذه الوقفة ، بمثابة غطاء نسج من أجمل وأبهى الخيوط ، وأسدل على مجموعة من سقط المتاع ، فأخفاها عن الأعين ، ليظهر دونها بديعاً أنيقاً . . .

نعم أسدلت هذه الصيحة على قاعة المحكمة القديمة التى ارتفع فيها سواد الرطوبة إلى منتصف جدرانها ، والتى اهتز وتراقص فيها كل شىء : المقاعد والمنصات وقفص الاتهام . . أسبغت هذه الضجة مظهر الجمال والجلال على المحكمة .

ولأول مرة وقع نظرى ــ وأنا واقف ــ على صورة معلقة فوق رأس القاضى ، صورة علاها من الغبار ، بقدر ما علا أرض القاعة نفسها فالصورة كانت أعلى من أن يطولها الفراش بيده ، فلابد له من جهد ليصل إليها ، ولما كانت الأشياء التى هى أقرب منالاً لا تنال حظها الكامل من النظافة والرعاية ، فإن المنطق يقضى بأن تكون هذه الصورة وهى مرتفعة اختارت لنفسها هذا المكان البعيد ، أقل حظا من النظافة ، أو لعل هذا هو العدل . .

ولا أقل من أن يجرى العدل فى دار العدل . .

ونظرت إلى الصورة . . صورة رجل فى اكتمال رجولته ، ذى شوارب مرفوعة وعينا صاحبها خاليتان من كل تعبير . . إنه ينظر إلى رعاياه . فى هدوء وثقة بأن كل شىء يسير على الصورة التى ترضيه هو . .

كأن الشىء بالشىء يذكر ، فقد دخل القاضى ، يسير فى تؤدة كاملة يحمل فى يده – لدهشتى – منشة وله شاربان مشابهان لشاربى صاحب الصورة المعلقة . . وكنت قد سمعت من زملائى المحامين أثناء أحاديثهم الكثيرة ، أنه آخر بقية باقية من جيل من القضاة القدامى لم تصبهم الترقية ، المرة بعد المرة ، والحركة بعد الحركة ، فبقوا فى بعض محاكم العاصمة رعاية لسنهم ، وقد أكسبهم المران ، وطول الخبرة ، آخر العمر ، ما أعوزهم فى صدر الشباب ، حينما قفز إخوانهم دونهم إلى المناصب الأعلى .

دخل القاضى وقد طابق شكل شواربه ، شوارب الصورة التى بقيت تعلو رأسه سنين طويلة ، وجلس ، فنظرت إلى وجهه ، فرأيت عليه من علائم الطيبة والوداعة ، وطول البال ، ما طمأننى . . سكنت القاعة لأن القاضى اعتلى المنصة ولكن يأبى الضجيج أن يفارقها ، فإنه يتدفق إليها من الطريق عن نوافذها الغالية ، فسمعنا ألوانا مختلفة من أصوات ذلك الطريق .

وقد كنت أظن أن الأصوات تعكر على القاضى ما يحتاج إليه من هدوء ولكن بدا لى أن القاضى لما رأى أنه ليس ممكناً الفرار من هذه الأصوات ، فقد استعملها فى أداء وظيفته فضمنها تعليقاته على مرافعات الأساتذة المحامين ، وقد ألف المحامون هذا الأسلوب منه ، ونشأ بينهم بفضل روح القاضى الخفيفة مصطلح يفهمون به بعضهم بعضاً ، فبائع العرقسوس يصرح « الصبر طيب » وبائع لحمة الرأس يصيح « تفرج » وبائع الجرائد ينادى على جريدة « السياسة » .

فالصبر طيب ، يرددها القاضى إذا نفد صبره لطول المرافعة ، وتفرج تقال إذا ألح المحامى فى أمر لا يحتاج إلى إلحاح ، والسياسة تقال ، مصحوبة بعبارة ، « لأمش عاوزين الساسة » إذا اقتحم المحامى فى مرافعته ، أموراً عامة لا تتصل بموضوع الدعوى ، من قبل الدعاية لحزبه ، أو التنديد بالحكومة القائمة . .

ولم تكن جلسة ذلك اليوم بالعادية ، فقد ظهر أنها ستشهد مرافعتين كبيرتين إحداهما فى قضية عادية ، كان المتهم فيها طبيباً ، أسند إليه أنه قتل سيدة خطأ لأنه استعمل مخدراً على غير الوجه الذى تقضى به القواعد الصحيحة والثانية قضية مظاهرة سياسة وكانت القضايا التى تشبه قضيتى من بين القضايا الهامة خليقة بالتأجيل مع جهد يسير منى ، ولكنى كنت لا أعرف شيئاً من ذلك ، ولم أكن أجرؤ حتى على التفكير فيه .

وبدأت المحكمة فنودى على القضية الأولى ، ولم أسمع مما دار فيها شيئاً ، فقد وقف أمامى من حجب منصة القاضى عنى ، واشتد تلاصق المحامين على المقعد المخصص لهم ، حتى كدت أشعر بأنى أعصر عصرا ، على الرغم من نحافتى البالغة . . .

ثم سمعت المحامى الكبير يقول : القضية رقم ٢٠ : لقد رجوت سيادتكم طلبها ، والأساتذة لا يعارضون . .

ونودى على القضية رقم عشرين . . ووقف شاب ، عرفت أنه من الأجانب المتمصرين ، أنيق ، كل ما فى ملابسه مع حركاته وسكناته يؤكد مع وقفته أنه لا يبالى بالمحكمة وأنه مطمئن إلى أنه لن يصيبه ضر فإن أسوأ الفروض هو غرامة مالية لا يأبه بها ، ولا يؤده دفعها .

وسمعت الشهود وترافعت النيابة ، وترافع محام عن ورثه المجنى عليها التى قتلت تحت وطأة المخدر ، ثم وقف المحامى الكبير . .

لقد كنت شهدت قبل ذلك اليوم روايات فى المسرح ، وعرفت هذا الشعور الذى يخالجنا ونحن نسمع الدقات من وراء الستار مؤذنة بقرب بدء الرواية . . ، ثم ونحن نرى الستار نفسه يرتفع قليلا قليلا ، فكأنما يرتفع عن عالم مسحور ، نرى فيه العجائب والغرائب ، وما يمتع أذهاننا ، وما يرضى أذواقنا ، وما يروح عن نفوسنا ، وما يرفعنا فوق همومنا . .

ولكن لم أكن أتصور حتى هذه اللحظة ، أن فى مقدور شخص واحد ، بلا ستائر ولا مناظر ، ولا أدوات ولا ملابس ، أن يؤثر على خيالنا تأثير المسرح بكل وسائله ووسائطه . .

إذ ما كاد المحامى يقف حتى تعلقت الأنفاس فى الصدور ، وشخصت العيون فى الوجوه واتجهت إليه الأفئدة والقلوب . . وسكت كل شىء حتى حركة الطريق التى لا سلطان للسان عليها ، ولا صلة لشخصه بها ، خيل إلينا أنها هدأت ، أو زالت ، لأننا انصرفنا عنها ، وشغلنا بهذا الرجل العجيب .

لم يكن قصيراً ولا طويلاً فهو ربعة ولكنى تخيلته طويلا ، وكأنه يطل علينا من مكان عال ، يرتدى ثوب المحاماه ، الذى هو شقيق ثوب الأستاذية فى الجامعات الذى هو ابن الفراجية والجبة التى كان يلبسها أئمة المساجد فى الأندلس ، ثم حاكاهم فى لبسها أساتذة الجامعات فى السوربون وأكسفورد وكمبردج وفى غيرها من جامعات براغ ووارسو . .

كان يلبس ثوب المحامى الأسود ، ذى الأكمام الواسعة ، مع أن المحامين لا يلبسون ذلك الزى فى المحاكم الجزئية ، إلا أنه كان يعرف قدر مهنته ، ويدرك أن هذا الثوب ليس تزيداً ، وأنه لا صلة بينه وبين درجة المحكمة التى يترافع أمامها ، فهو من المحامى كالسماعة من الطبيب ، لا تفارقه حتى ولو ذهب ليكشف على متوفى ، لحق بجانب ربه ، وسكت قلبه ووقف نبضه . . .

ويالسحر هذه الأكمام الواسعة ، لهذا الثوب الأسود القاتم إنها لم تتحرك وحدها كلما لوّح بيده ، بل كانت تتحرك معها قلوبنا ، وتروح وتغدو عيوننا فكأن هذه القلوب وتلك العيون ، قد تعلقت بها ، فلم تعد فى مكانها بين الضلوع ، أو فى المحاجر فى الوجوه . .

على أن مرافعة هذا المحامى كانت عجباً كلها . . فإنك وأنت تسمعه ، لا تحس أنه يتكلم بل تشعر بأن الكلام يتفجر من مكان فى هذا الجسم النشيط الممتلىء بالحيوية ، سهلا بسيطاً ، فإذ تلعثم هذا اللسان الذرب ، أو تردد ، زاده هذا العيب ، لأنه يريك إنسانيته، ويكشف لك عن صدور هذا الكلام عن عقل يفكر ، لا عن آلة ، تتدفق منها العبارات بلا حس ولا شعور . . .

ولقد فهمت **يومذاك** كيف كان آباؤ نا وأجدادنا يقضون أكثر الليل ، وهم يسمعون إلى الشاعر يروى لهم على « ربابته » الساذجة وشبابته البسيطة ، أقاصيص

فى شعر ضعيف ، تعوزه أحيانا كل خصائص الشعر ومميزاته من الوزن والقافية . فإن الذى يحرك الخيال ، ليس هو الضوء ، واللون فقط ، بل اللفظ والصوت أيضا . . .

وأى لفظ كان يقع عليه هذا المحامى ! كل كلمة يختارها كأنما نحتت لتوها لتعبر عن المعنى الذى كان يعنيه . وأى صوت ! إنه كأوتار الكمان ، أو كمفاتيح البيان ، حسبه أنه يريد السخرية لتشعر أن ما يسخر به ، قد تهالك وتهاوى وسقط . أو أنه يريد الغضب ، لتحس بأن الأحوال موشكة أن تقع ، أو يطلب الرحمة ، حتى تحس بينابيع العطف ، قد تدفقت فى أعماق قلبك ونفسك . . .

وأنصت القاضى ، يتابع هذه الصورة المتلاحقة ، فى سكون تام ، لا يحرك عضواً فيه ، ولا يغير وضعه على مقعده ، وجمد الحاجب ، وورقته المقدسة فى يده ، وتعلق المتهمون بقفص الاتهام وكأنهم رءوس باتت بلا جثث فقد ثبتت العيون لا تطرف ، ونسى كل منهم أن له قضية فى ذلك اليوم . .

سبحانك ربى لقد جعلت الإنسان على ضعف بدنه ، وقصر عمره ، وكثرة ما يصطلح عليه من الأمراض والأدواء ، سيد هذا الكون ، وجعلت أقوى ما فى الإنسان ، اللسان ، على أنه شريحة من اللحم ، مخبوءة بين شدقيه ، لكنها تقيم الناس وتقعدهم وتدعو إلى الحرب وإلى الفتن ، وتحرض على القتال ، وتجمل الحب والبغض ، وتزين الأشياء والأضداد من الأعمال والمشاعر والمعتقدات .

وسكت صوت المحامى وكأنه قد فك الرقية ، أو التعويذة التى قيدنا بها ساعة أو يزيد من الزمان . فقد تحرك القاضى وأخذ من كان يود أن يسعل فى السعال ، ومن كان يحب أن يخرج فى التوفى الخروج ، ومن كان يريد أن يتكلم ، فى الكلام . .

وأخرج المحامى منديله ، فمسح به عرقه ، وطوى أوراقه فى محفظته فى سرعة وكأنه لم يكن يفعل شيئاً ، مع أن قسمات وجهه ، تخفى شعورا بالارتياح ، مرده أنه كان يعلم أننا بقينا فى قبضة بيانه وأسر كلامه ، وقتاً غير قليل . .

وقال القاضى الحكم آخر الجلسة وانطلقت الضجة فى القاعة ، وسمعنا الضجة التى تتدفق من الشارع فالحمام السمين والبطارخ الذى وصفه بائعه بأنه كله

« سمن » والعرقسوس الذى هو شفاء عرضت علينا نفسها فى أصوات النداء عليها ، تزينها للآكلين والشاربين . . .

وقبل أن يفتح القاضى فمه ، بطلب القضية التالية ، كان يسمع لها من بعيد ، دوى وضجيج فلفتنا رءوسنا إلى الخلف فرأينا عجباً . رأينا اثنين من الشبان ، ركب أحدهما كتفى صاحبه ، وبسط يديه فى الهواء ، وأخذ يصرخ مرددا كلاما مسجوعا ، لا تكاد تفهم له معنى ، ومع ذلك فصاحبه ، يردده ويكرره وكلما كرره زادت حماسته ، وتصبب عرقه ، وبح صوته ، ومن حوله آخرون يقفزون ، ويدورون ويكررون الكلام ، أحياناً بنصه ، وأحياناً مغلوطاً ، وإن كان على وزنه ، والناس مبهوتة ، مأخوذة لا تدرى ما الذى وقع ، ومن أى مكان نبت الهاتفون والمرددون ، وظهر الحامل والمحمول . . .

وفهمت أن ذلك كله طليعة القضية السياسية . ولم أكن أعرف شيئاً من أساليب السياسة الحزبية لأنى كنت تلميذاً بعيداً عن الشئون العامة طوال دراستى الثانوية ، ودراستى بالجامعة ، لذلك اشرأبت عنقى نحو هذه المظاهرة وتعقبت ما كان يجرى فيها بشغف عظيم . وقد استولى على منظر هذا الشاب الذى أنهك نفسه فى الهتاف ، حتى إذا ما بلغ حد الإعياء ، رأيت آخر ، يمد يده إليه ، فينزله من مكانه فوق كتف صاحبه ، ثم يثب هو مكانه ، ليهتف بنفس الطريقة ، مكرراً نفس العبارات ، ولكن بصوت أكثر قوة ، وأقل إنهاكاً ، ورأيت دائرة الهاتفين ، تزداد وتتسع وأدهشنى أن كثيرين ممن كانوا يسألون عن الخبر ، انضموا إليها ، وأخذوا يرددون الهتاف ، والظاهر على وجوههم أنهم لا يعرفون معناه ، ولا يدركون هدف هذه المظاهرة ، لما اقتربت منهم بدافع من الفضول ، تبينت أن الكثيرين يرفعون أصواتهم بألفاظ قريبة من الهتاف الصحيح دون أن تؤدى معناها . . .

وبعد قليل جاء شاب آخر من خارج دار المحكمة ، يحمله شخص قوى البدن أصلع الرأس ، وجرى به لينضم إلى المظاهرة الأولى ، ومن خلفه المتظاهرون يهتفون وبدلاً من أن يتم بين المتظاهرين تعاون ، قام تنافس . فكان كل زعيم من الزعيمين يصرخ غير ملق بالا إلى ما يصرخ به صاحبه ، والأتباع موزعون بين هذين الهتافين ، لا يدرون أيهما يتابعون . . واستمر الحال هكذا ، والقاضى لا يستطيع أن يستأنف

عمله ، حتى حضر ضابط بوليس ومعه بعض جنوده ممن يلبسون الخوذات على رؤوسهم . . فأسرع المتظاهرون كل إلى مكان ، وجرى الشاب القوى الأصلع بصاحبه الذى يعلو كتفه ، وكأنه يبحث له عن مكان يختفى فيه ، فلما ضاقت به السبل ، أسرع إلى سلالم تؤدى إلى الدور الثانى فى المحكمة وصاحبه لا يرضى عن هذا السبيل من الفرار فيحتج ويقترح طريقة أخرى ، وخامله لا يأبه باحتجاجه فقد أصبحا شيئاً واحداً لا ينفصل فلما بلغ أعلى السلم نظر الناس إليهم فى الدور الثانى مندهشين إذ لم يكن خبر المظاهرة قد وصل إليهم ، فلم يفهموا سر ركوب الشاب ، كتف شاب آخر وعدوهما هكذا فى ردهات الدور الأعلى للمحكمة . .

أما زعيم المظاهرة الأولى فقد قفز فى سرعة ورشاقة وخفة ، من كتف زميله ، واختفى فى مثل لمح البصر ، وذهب كل متظاهر إلى حال سبيله ، كأنه لم يشارك فى هذا العمل منذ قليل . . ووقف الضابط وعساكره أمام قاعة المحكمة . . .

على أن المتظاهرين ، بعد أن أمنوا عصى البوليس ، تسللوا إلى قاعة المحكمة ، فملأوا أركانها وأزاحوا بعض الجالسين على المقاعد ، فاحتلوها . ولم ينقض إلا القليل ، حتى سمعنا فى الخارج تصفيقاً ، ودارت رءوسنا إلى مصدر التصفيق ، وما هى إلا لحظات ، حتى هل محام كنا نسمع اسمه ، ونرى فى الجرائد رسمه يقدم ، وهو يخب فى رداء المحاماة مفتوحاً ، قد ملأه الهواء ، فكانه طائر أسود ، لا يقوى على التحليق فى الفضاء ، فدب بقدميه على الأرض ، وكان ذلك المحامى لا ينظر إلى أحد ، فهو يسير مندفعاً كأنما يهبط من علٍ مفتوح الصدر ، يدور فى الناس بعينيه لا تستمران ويرفع يده اليمنى قليلاً يرد على تحيات يفترض حصولها وأنها له ، حتى إذا وصل إلى مكانه ، من مقعد المحامين ، تلطف لهذا وذاك من الزملاء . ووقف أمام القاضى ، يسأل ما إذا كان ممكنا طلب القضية رقم ٣٨ .

ونادى الحاجب على القضية ، كأن طلبها أصبح محتما ، وسأل القاضى عما إذا كان رجال البوليس الذين طلبوا فى الجلسة الماضية للشهادة ، حضروا ودخل ضباط عظام وشبان ، فأدوا التحية العسكرية ، فأصبح نظر القضية لا مفر منه ، . . وكان معنى ذلك أن الجلسة ستطول ، فقام زملائى إلى محاكم أخرى ، أو إلى قاعات أخرى

فى نفس المحكمة ليفرغوا من أعمالهم وبقيت فى مكانى أشهد هذا اللون الطريف من القضايا .

ولما جاء دور المرافعة ، ظننت أننا سنحلق تحلقنا فى القضية السابقة ، ولكن كم كانت خيبة أملى عظيمة ، حينما رأيت المظاهرة التى كانت على باب القاعة ، قد انتقلت إلى المرافعة .

* * *

وجاء دور قضيتنا بعد يوم ملىء مشحون بالحركة سمع فيه القاضى كبار المحامين وكبريات القضايا ، فهل لتهامى عبد المولى ، وقضيته ، وهل لمحاميه حسين القويسنى ومرافعته ، مكان عند القاضى ؟ ونصيب من عناية المحكمة ورعايتها ؟ . . لقد خلت قاعة المحكمة تقريبا من شهودها ، وخلا قفص الاتهام ممن حشروا فيه حشرا . . وأصبحت أنا والقاضى وجها لوجه ولم يكن على مقاعد المحامين ، إلا عدد قليل ، أكثرهم من أمثالى المحامين المبتدئين ، أو المحدثين .

ونودى على (تهامى) فجاء يتلفت لا يدرى أين يقف ولا كيف يقف شبك ذراعيه فوق صدره ، فأنزلهما العسكرى الواقف إلى جواره ، فشبكهما خلفه ، فعدل العسكرى من وضعهما ، فتركهما إلى جانبه ، والتفت إلى القاضى وشفتاه تتلو شيئاً من القرآن ، ونظرت إليه ، وكأنى مشفق عليه من قلة خبرتى ، وضعف حيلتى ، وأحسست بوطأة الواجب يثقل علىّ ولكنى شعرت أيضا بأن من واجبى أن أنفى من نفسى كل خوف ، وأن أستمد من ثقة هذه العائلة الفقيرة بى ومن إيمان هذا الشيخ الطيب وإخلاصه لى قوة . . وسمع الشهود ، واحداً واحداً ، وخيل إلى أن قضيتنا هذه أضخم من جميع مارآه القاضى فى يومه الحافل ، فقد استغرقتنى ، كان قلبى يقفز فرحا حيناً ، ويكاد يتوقف خوفا عن ضرباته حيناً آخر ، حسب تطورات هذه القضية الصغيرة ، فشهود القضية الذين كانوا معنا ، وشهود الإثبات الذين كانوا علينا ، جعلوا منها بحراً تتلاطم أمواجه ، ويعلو به المد ويهبط به الجزر ، وأنا فى الحالين ، أنظر إلى وجه تهامى فأتخيله فى ثياب السجن ، مدفوعاً يتعثر فى خطاه ، ويكاد يكب على وجهه فأكاد أسقط أنا إعياء ، وتارةً أراه قد عاد إلى بيته ، وتزوجت ابنته فيعلو وجهى البشر والسرور .

وبين الحين والحين ، كنت أنظر إلى وجه القاضى لأتبين أثر ما يسمع ويرى ، فلم يقع نظرى على وجهه إلا على آيات رحمة كبيرة ، ومظاهر أبوة واسعة ، فقد أنسانى أنى فى حرم المحكمة ، وأنه فى منصة الحكم ، وأوهمنى بأنه أحد ذوى قربای وأنه لم يبق إلا القليل حتى يقول لى يا « ابنى » . ويدخل إلى قلبى الطمأنينة والثقة .

وفجأة سمعت صوتا يأتى من بعيد ، يدعو إلى المرافعة « اتفضل اترافع » . « أترافع ؟ من ؟ أنا ! ماذا أقول ؟ » لقد قضيت الليلة الماضية أحضر كلاما ، وأرتب دفاعا ، وأجرب نفسى ، أحذف وأضيف ، وأغير وأبدل ، وأختصر ، حتى لا يسأم القاضى ، وأطيل وأسهب حتى لا أدع فكرة تفلت منى ، ولا حجة تضيع على موكلى . . ولكن أين هذا كله من رأسى لقد تبخر وزال ، ولكن أسمع نفسى أتكلم . . لسانى يتحرك ، القاضى ينصت ، ماذا كنت أقول ، كيف بدأت ؟ كيف انتهيت ؟ لقد تصورت أن القاضى ابتسم كما يبتسم الرجل الكبير للطفل الصغير ، حينما يراه يقلد الكبار ، يلبس لبسهم ، أو يمشى مشيهم ، أو يكرر كلامهم . . لقد بدأت أتكلم عن الأصول المفهومة من وجوب وجود صلة بين الخطأ المنسوب إلى موكلى وبين إصابة المجنى هليه ، ومثل هذا الكلام لايقوله محام مجرب لأنه من البدهيات المسلمة . . وخيل إلىّ أننى أخطأت فارتبكت ، ولكن القاضى لم يقاطعنى ، وواصلت الكلام . . كم دقيقة لست أدرى أأطلت ؟ أم أوجزت ؟ لست أستطيع أن أقول .

وقال القاضى كلاما رأيت تهامى بعده يسحب . . إلى أين ؟ هل حكم عليه بالحبس ؟ لا بد . . أن العسكرى سحبه ، وجلست إعياء فى مقعدى ، ورأيت يدا تمتد إلىّ . . يد من ؟ يد أحد الزملاء ، لعله كان يهنؤ نى بالمرافعة ، أو لعله كان يشجعنى ويواسينى ، ويخبرنى بأن هذا ما يجب أن نحتمله جميعا ، ونحن فى طليعة حياتنا العملية . .

وفيما يشبه حالة الإفاقة من غيبوبة ، رأيت وجهاً أعرفه جيداً . . هذا هو وجه حميدة . . إن عينيها ضاحكتان ، إذن لابد أن القاضى حكم بالبراءة فماذا حدث ؟

وأخيراً علمت أن القاضى سينطق بالحكم آخر الجلسة . .؟ متى يكون هذا الآخر . . أقفرت قاعة المحكمة . . وقام القاضى ولم أعد أرى أحداً سواى وبعض كتبة المحامين ، وبعض أصحاب القضايا .

وفى ركن من الأركان عبد الجابر . .

وبدا لى عبد الجابر كأنما هو ذكرى قديمة ، وسرت نحوه ، وأنا أسحب رجلى سحباً ولما وصلت إليه مددت يدى ، ومضت فترة ، قبل أن يصافح اليد الممدودة وقال : « إنشاء الله خير » . . وأحسست أن هذا رجاء لا عاطفة فيه ، ولا مودة ، أيكون هذا هو عبد الجابر سرى أفندى الذى أعرفه ؟ أيكون هذا الشخص الذى كان يتدفق مرحا وحيوية وطيبة . . لا إنه الآن التحفظ بعينه ، فما أسرع ما يتحول الناس . .

ولم يطل انتظارنا ، فالزغاريد دوت ، معلنة أن تهامى حكم ببراءته . .

أقبلت حميدة ، من بعيد ، وقد سقطت عن رأسها الملاءة ، واندفعت إلى القاعة . .

إذا كان ممكنا تصور الفرحة فى صورة آدمية ، فقد كانت حميدة هى هذه الصورة ، عيناها وجنتاها ، جبهتها ، كلها تتوهج بنور خاطف . إنها لم تكن تدرى ماذا تفعل . . وفجأة أسرعت إلى عبد الجابر سرى الذى كان قد وقف مليئاً بالانفعال المكبوت ، وقد لمعت عيناه قليلا ، كأنما هى الذبالة الموشكة على الانطفاء قد اشتعلت قبل أن يطويها الظلام . .

اندفعت نحوه حميدة ، ولما اقتربت منه ترددت قليلا ، ثم قبلته فى جبينه ، وهى تقول : « الله يبارك فى عمرك . . ربنا يديم حياتك . . » وخيّل إلىّ أن عبد الجابر سيفرح بهذه القبلة ، ولكن لم يزد عن أن يبتسم ابتسامة باهتة حزينة ، : . فقد كان من خلف هذه المظاهر مدبولى وقف يوزع على الناس نقوداً صغيرة ، حلاوة « البراءة » .

كم كان يفرح عبد الجابر لو أدرك أن هذه القبلة تعبر عن حبها له . ولكنها كانت كالزهرة التى توضع على القبر التى تشبه تماماً الزهرة التى تقدم فى العرس .

لم يبق أحد فى المحكمة . .

تمت إجراءات الإفراج عن تهامى فخرج ، وسط عشرات من الناس ، من الأقارب والزملاء والمتصعلكين الذين تجدهم فى كل مناسبة ، يحدث فيها الزحام . . . وفى وسط هؤلاء كنت أرى حميدة ، طويلة رشيقة ، ضاحكة ، وأرى مدبولى منها قريباً يعانق ويصافح ، ويهنىء ويتقبل التهانى .

واختفى هذا الركب ، وبعد قليل ؛ رأيت إنساناً ينزل فى بطء شديد على درج المحكمة وحيدا ضالا تائها . . لا يدرى أين يذهب . .

ولم يكن هذا سوى عبد الجابر سرى . .

تابعته وهو ينزل درجة درجة ، حتى إذا وصل إلى نهاية السلالم تلفت يمينا ويساراً ومد يده إلى خده . . هل كان يموه دمعة انحدرت على وجهه . .

أم هل تصورت ما لم يحدث . .

أما أنا فقد اختنقت بالدموع .

خط العتبة

الطّفولة

لم أكن أول صبّى ، يولد لأبوى ، فقد رزقهما الله طفلين آخرين ، ولكن عمرهما لم يطل ، فماتا ، وتركا فى قلب أبى حسرة ، لم يخلفا مثلها فى قلب أمى ، ولكنها كانت حسرة خفيفة ، لأن أبى لم يكن يحزن أو يفرح بعمق : تفيض نفسه حناناً ورحمة ، ويتأثر بالصغيرة والكبيرة فتمتلىء عيونه بالدمع ، حتى يشرق بعبراته ، ولكن ما أسرع أن يصفو خاطره ، وكأنه لم يكن يبكى منذ حين .

أما أمى ، فقد كانت على النقيض منه ، لا تستجيب لدواعى الحزن والفرح بسرعة أو فى خفة ، ولكن إذا حزنت امتلأت نفسها همًّا ، وإذا غضبت ، فاضت حمماً ، وهى فى حالتى السرور والحزن ، والرضا والغضب ، لا تفقد اتزانها ، ولا قدرتها على الإبانة عما تريد ، فى طلاقة ووضوح ، بعبارة مبينة ولفظ رصين .

ولقد جئت ثمرة هذين المزاجين المتناقضين . ولم أعرف أيهما أكبر أثراً فى نفسى . وإلى أيهما أنتسب ؟ إلى الأم ذات المزاج الدموى ، الآمرة المتحدثة ، شديدة الطموح ، المحبة للألفاظ الجميلة ، فى الشعر والنثر والزجل ، المعجبة ببطولات الرجال والنساء ، والقارئة تاريخ الملوك والزعماء ، الكارهة النقائص : ولا سيما نقيصة الكذب والجبن ؟ أم إلى أبى اللمفاوى المزاج ، الذى تعوزه القدرة على الإبانة ، والذى يبدأ الجملة بمعنى وهو يقصد نقيضه ، والذى لا يرضى عن شىء ، ومن ثم لا يكف عن نقد الناس والأمور ، ومع ذلك فهو خفيض الصوت ، قليل الصحب والخلان ، ضعيف الحيلة فى دنيا الشطار والوصوليين ، وإن كان مثاليًّا إلى

حد المبالغة : أميناً لا يقبل أن يأخذ ورقة بيضاء ، من ورق الحكومة ، ولا يقوى على مسايرة رجل سيىء خطوتين اثنتين فى الطريق العام ، ولو عرضاً ، إذا اعتُدى عليه لا يحسن الرد ، لا عن جبن ، ولكن عن عجز ، إذ تنقصه الطاقة الغضبية ، والطلاقة اللسانية ، والحرارة الدموية . ومع ذلك لا يسلم بأن أحداً خير منه ، أو أعلى مقاماً ، لشدة اعتداده بفضيلته أو نزاهته ، وسلامة قصده ، وفنائه فى العمل الحكومى . ومع هذا الاعتداد فهو برىء من الكبرياء والزهو ، لا يباهى ولا يتحدث عن نفسه ، ولكنك تلمح هذه الفضيلة إذا تحدث عن الناس ، فعندها تدرك أنه لا يطيق أن تقع منه هفوة تلوّث شرفه ، أو تلقى ظلا ولو خفيفا على صفاء صفحته ؟!

وأبى وأمى ، نقيضان كذلك فى الخصائص العقلية : أمى سريعة الحفظ ، سريعة القراءة ، وأبى لا يقرأ إلا الجريدة ، إذا اتسع له الوقت .

ولاشك أن أمى كانت أول غرام لى . كنتِ أحبها حبًا شديداً ، فى سن الطفولة ، ومازلت أذكر إلى اليوم ، كيف كنت أشم رائحتها ، فى ثوبها المعلق على (الشماعة) فأنتشى به ، كما ينتشى عاشق الخمر ، ولاشك أن أكبر سعادة لى ، كانت عندما تحين ساعة النوم ، فى الليل ، فآوى إليها ، ولكنى أراجع نفسى وأحاول ، أن أتبين ما إذا كانت صورتها فى رأسى ، حينما كنت طفلا ، واضحة ، وهل كنت أتأمل تقاطيع وجهها ، وأعرفها ، وأحبها ، وأتأمل قوامها ، ومشيتها ، وصوتها ، وكلامها وصمتها ، وضحكها وابتسامها . . وبعد طول التفكير ، أستطيع أن أقول إن عقلى الطفل ، لم يكن يعرف لأمى صورة ، تظهر فيها القسمات والتقاطيع . كانت أمى ، كائناً حيًا أشبه بالمعنى أو الرمز . فهى الملجأ والدفء وهى الغذاء والهواء ، هكذا جملة واحدة . هل هذا هو حب الأطفال لأمهاتهم ، أو أنه حبى أنا ، تأثر بمزاجى ، وأعصابى ؟

ولم أكن أعرف ، أن حبى لأمى ، كان غراماً ، أشبه شىء بغرام البالغين إلا بعد أن استعدت يوماً ذكريات طفولتى ، فذكرت ليلة كنت فيها ضيفاً على خالتى فى إحدى قرى الريف فى شمالى الدلتا ، إذ كان زوج خالتى موظفاً فى مصلحة الأملاك الأميرية ، وكان يسكن فى (فيلا) تحيط بها حديقة واسعة ، فلما أظلم الكون ،

وهدأ الناس جلست فى ركن من حجرة تطل على الحديقة وهبّ النسيم هادئا ، فاهتزّت أعالى الأشجار هزة خفيفة بطيئة ، أحسست أنها كئيبة غاية الكآبة ، وشعرت بانقباض يأخذ بخناقى ، ثم بوحشة قاسية ، أدركت معها أنه ألم الفراق عن أمى . ولم أقل ليلتها لأحد شيئاً عن هذا الشعور ، وكانت معى أختى التى تكبرنى ، ولكن لم أكن أراها بديلا عن أمى حتى يمكن أن أفضى إليها بذات نفسى .

ولاشك أن هذا الغرام ، كان مزيجاً من المشاعر التى ملأت حياتى فيها بعد فأنا لم أقل قط لأمى إنى أحبها ، ولعلى لم أكن أدرك أنى أحبها ، لأنى خلقت ومعى هذا الشعور ، ولأن أمى كانت تقسو على ، لأنها لا تعرف التجاوز عن الأخطاء مع أعز الناس عليها فطبعها الحاد ، وغضبها الكاسح ، لا يدع مجالا للمجاملة أو التسامح .

ولست أدرى لماذا أريد أن أذكر هنا واقعة تتصل بعلاقتى بأمى : زارنا خالى ، أكبر إخوة أمى ، فى الواسطى ، حيث كان أبى يعمل مهندساً للرى ، وكنت قد أبللت أو كدت ، من عملية الختان التى تجرى للأطفال ، وكان لابد أن أنام مع خالى حسبما قضى عدد الأسرة فى منزلنا ، فرفضت رفضاً باتاً أن أحرم النوم مع أمى ليلة واحدة ، وذهبت كل جهودها ، بل كل غضبها الذى كنت أخشاه وأحسب له كل حساب ، عبثاً ، فقد بقيت رافضاً أن أنام مع خالى فى سرير واحد ، وخجل الرجل الطيب ، وكان طيباً متسامحاً بحق ، وبدا عليه خجله ، وأدركت أنا ذلك على الرغم من طفولتى ، وأربكنى بينى وبين نفسى ، ولكنى بقيت صامداً لا أتزحزح ولا أنزل عن هذا القرار .

ولكن ماذا كان شعورى نحو أبى ؟ هذا هو الذى لم أكن أتبينه وأنا طفل ، وما تبينته عندما شببت عن الطوق . لعل الشىء الوحيد الذى أستطيع أن أذكره عن أبى فى السنين الأولى ، من حياتى ، هو حبى لرائحة ثيابه الممزوجة برائحة التبغ ولا شىء بعد ذلك . لا يبعد أن يكون شعورى عند مقدمه ، من سفر ــ وكان كثير السفر والتغيب عن البيت بحكم عمله كمهندس للرى ــ هو الفرح بعودته . ولكن لم يكن لأبى دور فى حياتى كطفل . بل أنا لا أذكر أننى أنست إليه دقائق من النهار ، يلاعبنى أو يمازحنى أو يستمع إلىّ ، أو يفرح بشىء مما يصدر عنى ، كما يفعل الآباء

مع أطفالهم وهذا أمر عجيب ، فقد علمت فيما بعد أن أبى ، شديد التعلق بى ، وأننى كنت عنده أملا مرجوًّا قبل أن أولد ، ورجاء تحقق بعد أن ولدت . ولكن أبى لم يشعرنى قط بهذا الشعور ، لا كتماناً لعواطفه ، فهو لا يحسن كتمانها ، ولا لكثرة مشاغله فمشاغل الآباء مهما كثرت لا تمنع أحدهم أن يسرى عن نفسه ويبهجها بملاعبة ابنه أو ترديد كلامه ، أو الضحك على أخطائه فى النطق ، وتعثره فى الحركة ، ولكن أغلب الظن أن أبى كان يخجله أن يعرف الناس عواطفه ، إلا إذا كشفتها دموعه وهو مغلوب على أمره .

ولعلى قد عوضت نفسى عن هذا الحب المكتوم والاستمتاع به بحادثة وقعت وأنا فى العاشرة ، أو دون ذلك بقليل . فقد مرضت بمرض الروماتزم طويلا ، ومضت شهور وأنا ملازم للفراش ، وقد ترتب على ذلك رسوبى فى امتحان السنة الثانية فى الدراسة الابتدائية ، وهى السنة الوحيدة التى تخلفت فيها عن زملائى . وفى ذات يوم كنت مغفياً ، وجاء أبى من الخارج ، فرآنى هادئاً ، شاحب الوجه تتردد أنفاسى بضعف حتى خيّل إليه أننى فارقت الحياة ، فألقى بنفسه على صدرى ، وراح ينتحب وجاءت أمى على صوت انتحابه ، تكاد تنكفىء على وجهها . وكان يجب أن أفيق ، ولكنى خجلت أن أرى أبى متلبساً بهذا البكاء ، فترددّت قليلا فى أن أفتح عينى ، ويعلم الله أننى لم أرد أن أطيل هذا المشهد ، استمتاعاً به ، ولكن أمى ، بفضل رباطة جأشها ، وضعت حداً له ، ونهت أبى عن الاسترسال فى البكاء ، وأيقظتنى وتظاهرت أنا ، بأنى لا أفهم ماذا يدور حولى .

* * *

لقد ولدت فى مدينة المنيا ، وانتقل بى أبى ، إلى مغاغة والجيزة والقاهرة ، ثم الواسطى . ولست أذكر شيئاً مما جرى لى فى المنيا . ولست أدرى فى أية سن تركتها . . .

أما الجيزة فأذكر بيتين سكنا فيهما خلال إقامتنا بها ، وأرى صورتهما أمامى ، واضحتين غاية الوضوح . ولكن ثمة شىء غريب غاية الغرابة فى علاقتى بهذين البيتين . فأول البيتين عرفته وأنا أصغر سناً منى فى الوقت الذى عرفت فيه البيت الثانى . ومع ذلك فأنا أذكر موقع البيت الأقدم فى تاريخ الذكريات من الظاهر

والداخل . فى حين أنى لا أذكر من البيت الأحدث إلا الطريق الطويل المؤدى إليه من المدخل العام للعمارة التى كان بيتنا واحداً من بيوت تضمها . غير أنى أذكر أموراً كثيرة جرت لى إبان إقامتنا فى هذا البيت . ولكنها كلها أمور حدثت خارجه . فما سر هذا ؟ لماذا حابت ذاكرتى البيت الأقدم ، وأغضت عن البيت الأحدث .

هل حدث لى فى البيت الأحدث ، أمور مؤلمة ، حفزت ذاكرتى على نسيانها ؟ على أن علاقتى بالبيت الثانى ، لاتخلو من عنصر غريب . فأنا أذكر من حجرات هذا البيت ، حجرة واحدة كانت تنام بها أختى حسنية التى تصغرنى ، وأذكر أن أمى كانت تغطى وجهها بغلالة من الحرير الأزرق الرفيع ، كنا نسميه فى ذلك الحين (البرنجج) وهو لا يعدو أن يكون غطاء رقيقاً لوجوه الأطفال تحرف اسمه بالفرنسية والإنجليزية من (ڤيل) Veil إلى (ڤيلو) .

أما الدور الأول ، فأنا أعرف جانباً منه كنت ألعب فيه مع « حليمة » حفيدة الطباخة السودانية (أم حسين) فقد كانت لى وأنا بعد فى الخامسة من عمرى شقاوة مع هذه الطفلة المسكينة ، التى نالت من ضربى وإيذائى ما كانت تشكو منه جدتها أكثر مما كانت تشكو منه حليمة نفسها .

ماذا كان فى البيت الأول ، من حجرات ، وماذا كان فى الحجرات من أثاث ؟ أين كانت تقيم أمى وأبى وأخواتى ؟ أين كانت حجرة نومى ؟ من زارنا فى هذا البيت ؟ لا شىء من هذا كله بقى فى ذاكرتى . ولقد تذكرت الآن أن هذين البيتين لا يقترنان فى ذاكرتى . بزيارة أحد لنا خارج عائلتنا المحدودة : لا صديقات لأمى ، ولا أصدقاء لأبى ، ولا أصحاب لى سوى حميدة ، ومع ذلك أذكر أموراً واضحة كل الوضوح تتعلق بالبيت الأول .

أذكر مثلا أنه كان إلى جانب بيتنا ، الذى كان يقع فى ميدان صغير هادىء خال من الحركة ، مسجد يسمى مسجد سعد الدين .

وأذكر أنه لما وقع نظرى على مقال عن هذا المسجد الذى لم أكن أحسب أن له قيمة تاريخية أو فنية تؤهله للكتابة عنه ، فرحت بالمقال ، وقرأته وكأنه مقال عن شخص يمت إلىّ بصلة قربى . وقد كانت لى مع هذا المسجد صلات ، أذكر منها أننى وقفت ببابه يوماً حتى دخل المصلون لأداء فريضة الظهر أو العصر ، فلما اطمأننت إلى

انقطاع الحركة ، جمعت ما تركه المصلون من أحذية ونعال وأخفيتها فى مكان ما . . . . ولكن العجيب أننى لا أذكر ماذا تم بعد ذلك ؟ هل ضبطت متلبساً بهذه الشقاوة ؟ أو أن الأمر منى كان شروعاً فى الجريمة لا جريمة كاملة وهذا أيضاً من عجائب الذاكرة ، فأنا أذكر بوضوح تام القسم الأول من المغامرة ، ولا أذكر باقيها ، وهما واقعتان ، بل جزءان من واقعة واحدة ، جرت فى وقت واحد وفى مكان واحد . هل تكون الذاكرة قد تعمدت أيضاً طمس القسم الثانى ، لأنه يقترن بما يؤلم أو يخجل ؟

أما المغامرة الثانية . فتقع هذه المرة فى مئذنة الجامع ، لا الجامع نفسه ، فإنى أذكر جيداً أنى صعدت مع المؤذن فى ذات مساء . لكن كيف ؟ لست أدرى ، فذاكرتى لاتسعفنى إلا بمنظرى فى أعلى المئذنة ، ومعى المؤذن وقد هممت أن أرفع عقيرتى بالأذان وهى عقيرة صبى صغير لا يحفظ من الأذان إلا مطلعه ، لولا أن منعنى المؤذن برفق . وأحاول جاهداً أن أتبين من وراء ضباب السنين وجه المؤذن وملامحه ، وملابسه ومظهره وسنه ، وظروف تعارفنا وما الذى دعانى إلى الصعود معه ، ولست أذكر أنى كنت من هواة الأصوات الجميلة ، أو أن الأذان كان يستوقفنى .

ويتصل بالأذان المبنى المجاور للمسجد ، وقد كان مستوصفاً أو مستشفى صغيراً تشرف على إدارته سيدة إنجليزية ، لا أذكر من وجهها وجسمها وصوتها وملامحها شيئاً مطلقاً ، ولكنى أذكر بوضوح تام أن أهلى كانوا يتحدثون عن أن هذه السيدة الإنجليزية كانت تحبنى ، وأنها أهدت إلى شيئاً ما لا أذكره الآن . لعله علبة حلوى أو علبة فطائر صغيرة (بسكويت) . ولا أظن الآن أن هذه السيدة أحبتنى لميزة جسمية أو عقلية . فلم أكن طفلا جميل الطلعة . إلى الحد الذى يستهوى سيدة أجنبية ، ولم أكن لطيفاً بحيث أكتسب هذا الحب . كنت مجرد طفل عادى ، وإن كان شديد الحهوية ، كثير الحركة ، دائب السؤال ، أقحم نفسى ، فى أمور قد لايفكر الأطفال الآخرون فى الاجتراء عليها ، أو الجوس خلالها ، ثم أنا لا أسمع حديثاً يثار حتى أستمع إليه ، ثم أسأل عن الغريب فى ألفاظه ومصطلحاته . فأنا أسأل مثلا : مامعنى العروسة والفرح ، والمئذنة والأذان ، والموت والقرافة ، والداية

والمركز والمأمور والخوجة . . وهكذا وهكذا عشرات من الأسئلة أمطر بها من يقع فى براثنى ، ولا يهمنى أن ينفد صبره ، أو أن أجده حائراً فى البحث عن الإجابة ، ولاشك أن هذا السيل من الأسئلة المحرجة والبسيطة كان يضحك بعض الكبار ويرفه عنهم فيغدقون علىّ عطفهم ، ولاشك كذلك فى أن بعضهم كان يضيق بى ، فيسىء الرد ، ويعمل عبثاً على صرفى عنه . ولعل هذا الفريق هو مصدر الإعجاب بى ، لأنه يتحدث عنى ــ عندما تصفو نفسه ــ فى رضا ، ويحسن الشهادة فى حقى . فهل رأت السيدة الإنجليزية شيئاً من هذا ، وسرها أن ترانى ، كالنحلة ، أصعد درجات المستوصف ، وأدخل المسجد ، أشاهد فى أعلى سطح منزلى ، ثم أعدو فى الميدان ؟ الأرجح عندى أننى كنت عند هذه السيدة ، وسيلة لإشباع عاطفة ما عندها فهى كأغلب الأجانب فى بلادنا ، يعطفون على الحيوانات والأطفال فينشئون للبهائم مستشفيات بيطرية ، وللأطفال ملاجىء ومعاهد .

ولكن أذكر أنه كان لهذه السيدة نزاع مع المسجد ، فقد كان أذان الفجر يزعجها ، إذ يعكر عليها صفو نومها فى ساعات ما قبل الصباح ، ولعلها حاولت أن توقف هذا الأذان ، ولعلها أيضاً قد علمت أن هذا الأذان فرض دينى ، وأن المساس به ، يخرج عن مقدور الحكومة وجيش الاحتلال معاً . ماذا حدث فى هذه الأزمة ؟ لست أذكر .

بقى من ذكريات فترة هذا المنزل المجاور للمسجد من ناحية وللمستوصف من ناحية أخرى ، أن رجلا اسمه « على » كان يعمل فى هذا المستوصف اتصل بنا بسبب هذا الجوار ، ومر السنين . ولكن ماذا كان يعمل فى المستوصف ؟ ممرضاً ؟ فراشاً ، طاهياً للسيدة الإنجليزية مديرة المستوصف ؟ الله وحده يعلم . ولكن كيف أصبح كأحد العاملين فى خدمة عائلتى . فأنا أذكر ثلاث وقائع تتصل به . أذكر أنه ذهب بى ذات مساء إلى الشاطىء الشرقى للنيل ناحية منيل الروضة عند كوبرى الجيزة المعروف آنذاك بكوبرى عباس . وكانت الأرض فى هذه البقعة من الشاطىء صحراء رملية ، ليس فيها منزل واحد ، وقد مضيت أنا « وعلى » فى هذا الرمل ، تنغرز أقدامنا فيه ، ونقلعها تقليعاً حتى وصلنا إلى كوخ قابلنا فيه صديقاً لعلى وفى مرة أخرى ذهبت إلى المستوصف . وكان الوقت ظهراً ، والنهار مشرقاً ، فتركنى « على »

فى حجرة به ، وذهب إلى بعض شأنه . ولست أدرى ما الذى أرعبنى فى هذه اللحظة التى لا تدعو إلى الفزع . فلم يكن الوقت ليلا ، ولم تكن الحجرة نفسها تخيف ، أو تخيف لشىء فيها ، ولكنى أذكر فى غاية الوضوح ، أننى انفجرت فى البكاء ؛ وأن الرجل قفل راجعاً ، على صوت بكائى ، وسأل وهو مرتبك ماذا حدث ؟ واضطررت أن أكذب فأقول إن (دبوراً) لدغنى ، وبحث الرجل عن موضع الإصابة ، فأشرت إلى ندبة جرح قديم ، فأدرك فى الحال ، أنه عذر منتحل ، فأخذنى معه بدون أن يعاتبنى على ما سببت له من خوف .

أما آخر ما أذكره عن « على » فهو أنه جاء يزورنا عندما تركنا بيتنا فى الجيزة إلى بيت تملكه الممثلة اليهودية« مليا ديان » بطلة روايات الشيخ سلامة حجازى ، ولعل والدتى ، عهدت فى هذا اليوم إلى « على » ليصحبنى إلى حديقة الحيوان .

ومازالت صورة « على » واضحة فى رأسى . رجل أقرب إلى الطول منه إلى القصر ، وإلى السمرة منه إلى البياض ، مؤدب ، أمين ، قليل الكلام ، ذو همة . كان يعاملنى بوصفه تابعاً لنا عاملا فى بيتنا ، ولكن بروح الأخ الكبير .

فإذا انتقلنا إلى بيتنا الجديد فى عمارة الحكيم ، المواجهة لكازينو (الحمام) وقد كان مشهوراً فى أيام طفولتى الباكرة ، كما كان مشهوراً عندما كنت طالباً فى كلية الحقوق ، واستمرت شهرته بعد ذلك سنين .

واسمه يدل على سر شهرته ، فهو يقدم الحمام ، محمراً ومحشواً ، ولكن إلى جانب هذا الطعام الشهى ، يتيح للعشاق مكاناً نموذجياً ، فهو ملاصق للنيل ، فيتوافر فيه لذلك عنصر الشاعرية ، ثم هو فى منطقة لا تدب إليها الرجل كثيراً ، فينجو بذلك من الرقباء والعيون ، ثم يجود فيه الطعام ، والشراب ، فيرضى بذلك رواده من كل ناحية ، فمجلس الغرام منذ قديم ، كان يستلزم الجيد من الطعام والشراب .

كانت تدير الكازينو ، عائله يونانية ، عميدها يسمى « استاورو » ، وكان أبى يستقبل أصحابه وزملاءه ، فى هذا المقهى ، لأن شبهة الموعد الغرامى ، لا تلحق بالمقهى ، وتنصرف عنه إلى الكازينو . ولا أذكر جيداً أن صحبت أبى إلى هذا المقهى القريب جداً من دارنا ، وهو يحتفى بضيوفه ، ولكنى أعلم يقيناً أن هذا حدث .

أما بيتنا نفسه ، فقد كان جزءاً من أربعة أجزاء تتكون منها عمارة الحكيم . ولا أذكر أننى شهدت ، حتى اليوم ، عمارة فى مثل تصميمها ، فكل جزء من الأجزاء الأربعة ، يتكون من منزل مكون من دورين : الدور الأول ، من طراز نسميه فى مصر السلاملك يصعد إليه الإنسان على سلم يبلغ عشر درجات أو أكثر من ذلك قليلا . وهو سلم له درابزين ، وينتهى عند«بسطة»تنزل منها شعبة أخرى من السلالم بعدد الدرجات نفسها . وتصطف ثلاثة منازل من المنازل الأربعة ، الواحد إلى جانب الآخر ، حتى تكون ضلعاً ، ثم ينتهى الضلع بزاوية يكونها معه المنزل الرابع الذى يكون وحده ضلعاً قصيراً . وتقع أمام المنازل جميعاً « طرقة » هى المدخل ، ولكن بعض هذه « الطرقة » حديقة صغيرة مسورة ، فالمنزل كما ترى غريب ، ولست أذكر شيئاً مما صدر منى فى هذه الطرقة ، ولا فى تلك الحديقة ولا فى المقهى ، أو الكازينو . إنما الذى أذكره جيداً الشارع الذى كان يسمى بشارع النيل الأعظم ، المطل على النيل ، والذى يتقابل مع كوبرى عباس فى طرفه الغربى . هذا الشارع ركضت فيه كثيراً ، ولعبت فيه طويلا ، ولكن لا يبقى فى ذاكرتى إلا صورة كشك عند محطة الترام الذى يقطع كوبرى عباس ، ثم يتجه إلى ميدان الجيزة ، ثم يصعد وسط حقول الذرة إلى شارع الأهرام .

هذا الكشك كان يبدو لى فى تلك الأيام كعلبة سحرية ، مما تذكره قصص الأطفال الغربية . ولست أصف إحساسى اليوم . بل إننى أصف ما كنت أحسه يومذاك ، وأعتقد أنه لا يزال حيًا ، وأنى لا أخلط بين مشاعر الماضى ومشاعر الحاضر . كانت صاحبة الكشك سيدة يونانية اسمها « مدام آنو » ، وكانت تبيع أشياء للأطفال والكبار ، لاأذكر منها إلا زجاجات « الكازوزة » سباتس ، ولكنها فى الغالب كانت تبيع لى الشيكولاتة بأنواعها المختلفة ، ولعلها كانت تبيع أيضاً قطع الملبن وبعض الألعاب الصغيرة ولكن الذى أذكره بوضوح تام (الكازوزة) التى كنت أشربها مستمتعاً بكل شيء يتصل بها : من إزالة الرباط المعدنى المصنوع من الصفيح الذى كان يوضع على سدادة من الفلين إلى إطلاق السدادة الفلينية ، أشبه شيء بطلقة مسدس ، أحياناً عالية كصوت المقذوف تماماً ، وأحياناً أخرى خافتة ، وبمقدار الضغط داخل الزجاجة يندفع السائل ، فإما يتدفق وينسكب فوق الأرض ، وإما يبقى لا تعلن عن فورانه الداخلى إلا بعض الرغاوى كأنها الزبد .

وقد كان كشك « مدام آنو » صندوقاً سحريا ، تشرف عليه ساحرة طيبة ، لا ساحرة شريرة ، ساحرة لا ينقصها حتى المقشة التقليدية التى تقترن بالساحرات فى قصص أطفال الغرب ، ولا المظهر العام لساحرات تلك القصص ، فقد كانت نشيطة حازمة قليلة الكلام تلبس فوق ثيابها الخارجية مريلة وتضع فى الشتاء على رأسها شالا من الصوف . . . وبقدر ما أحاط هذا الكشك من هالات الخيال المثيرة ، أحاط هذا الخيال نفسه منزلنا كله : مدخله ، والحديقة التى تحتل جزءاً من الطرقة الواقعة أمامه ، والمنازل المجاورة لنا ، عن يمين وعن يسار . فقد كان الجو كله أجنبيا ، وكانت هذه العمارة لا تزال جديدة فطلاء الدرابزين حىّ براق ، والجيران كلهم من الأجانب ، لذلك كنت أشعر ، وأنا فى هذه السن المبكرة جدّاً ، بنشوة خفية ، وأنا أشاهد أغطية الفراش ، منشورة فوق سور (الدرابزين) بألوانها البرتقالية والبنية والبيضاء الناصعة مع عدد من البطاطين البنية والرمادية من صنع بريطانيا . وقد يعجب القارىء إذا قلت له إن من عناصر هذه النشوة الروحية ، إذا جاز لصبى أن يعرف ماذا تكون النشوة الروحية ، القامات المشوقة للآنسات اليونانيات اللواتى يقمن بتهوية هذه الأغطية والملاءات ، أذرعهن البيضاء ، البضة ، وربما سيقانهن الملفوفة القوية . فهل كانت هذه تباشير الغريزة الجنسية ؟ وهل يمكن أن تلوح هذه التباشير مبكرة هكذا فى نفس طفل لم يبلغ الخامسة أو بلغها وتجاوزها بقليل ؟ ولو أكد ذلك لى « فرويد » ومدرسته ، لما كان لى اعتراض على هذا القول ، فأنا من المؤمنين أن الطفل مهما صغرت سنه ، فهو وعاء كامل للنفس الإنسانية بكل عناصرها : خيرها وشرها ، قويها وضعيفها ما نباهى به ، وما نخجل منه ، ما نعلنه وما نخفيه .

ولا أحسب أننى أستطيع أن أذكر شيئاً قط عن داخل بيتى فى هذه العمارة ، فداخل المنزل ، والأثاث فيه والمكان المخصص لنومى فيه ، وموضع أخواتى وأبى وأمى ، ومن كان يعمل عندنا ، كل ذلك يحوطه ظلام كثيف .

وعلى الرغم من أن النيل فى أضخم وأوسع مواقعه كان يقع أمام المنزل ، فإنه لم يجذبنى نحوه ، لم أقف أمامه متأملا ، ولم أفكر فى أن أركب قارباً (فلوكة) شراعيًّا وحدى أو مع غيرى . بل لا أذكر أن منظر المراكب الشراعية الضخمة التى كانت ترسو أمامنا ، ذاهبة وآتية من الصعيد وإليه ، استوقفنى يوماً ، فى حين أن الكوبرى نفسه ، كان يحتل من اهتمامى وتأملاتى نصيباً أكبر .

أمى وأبى

لقد تحدثت عن أبى وأمى ، ووصفت كليهما ، ما استطعت الوضوح والإبانة ، ولكن لاأزال أحس أن عندى ما أقول عنهما ، ولاسيما قبل أن أنتقل إلى منزلنا بشارع سلامة بحى السيدة زينب ، حيث تبلغ أحداث طفولتى قمتها من الحركة والتشعب والاحتدام .

وقد تعجب إذ تعرف أننى لا أدرى إلى الآن ، كيف تعارفت أسرة أبى وأسرة امى ، والحق أننى لم أجد فى يوم من الأيام أية متعة فى تقصى حقائق هذا الجانب من حياة عائلتى ، ولعل ما كنت أسمعه عن هذا الجانب ، كان يطرق سمعى ، فلا أبقى على شىء منه .

ولكن نشأة كل من أبى وأمى ، على بساطتها ، تحمل شيئاً غير عادى ، وإن كان مثله قد عرض لبعض الآباء والأمهات .

فوالد أبى كان ، فى الأغلب ، تركيًا ، أو كان على وجه التحقيق ضابطاً فى الجيش التركى ، ولكن لا أحد يعرف ما الذى جاء به إلى مصر ، تاركاً تركيا ، وما الذى جعله ، يختار قرية (المنير) ليعيش فيها ، بعد أن أحيل إلى المعاش ، ثم ليدفن فيها ، حيث اتخذ الفلاحون فى القرية ، من مقامه مصلى ، وحيث أصبح فى الناحية وليا من أولياء الله ، يقسم باسمه ، ويقدم له النذور ، وتروى عن كراماته القصص . وأعترف أننى ضعفت ضعفاً شديداً حينما كان فى وسعى الأمر بتوسيع

مقام الشيخ عثمان ، وتزويده بالسجاجيد والقناديل ، والعناية بـذكرى مـولده ، وكان يحدونى إلى إنفاذ هذه الفكرة ، أننى أعلم يقيناً أن للشيخ عثمان مكانة عند أهل الناحية ، وأن إقامة المسجد فيه خير لها ، وفوق ذلك ، فإن ما يروى عن الشيخ ليس فيه ما نخاف منه على عقول الفلاحين . فهم يرون أنه كان يوزع كل معاشه على الفقراء والكلاب الضالة ، وأنه كان يأبى أن يأخذ من أحد شيئاً ولو كان شربة ماء ، وإن طريقته كانت تدعو إلى الاستغناء عن الناس ولو بالاكتفاء بما يقيم الأود ، ويستر العورة . وهذا مثل جدير بأن يُحتفى به ، وأن يتسع نطاق المستمعين له ، والمتأثرين به . ولكن ردَّنى عن هذا العمل ، أننى خشيت أن أتهم بأنى أحابى جدى ، ومن باب أولى كرهت أن أرجو وزراء الأوقاف ، من زملائى وأصدقائى ، أن يفعلوا ما نهيت نفسى عنه ، وكرهت أن أتظاهر بالتعفف ، وأخالف مقتضاه متستراً وراء سواى .

وكانت جدتى ، والدة أبى ، مصرية ، ولست أدرى شيئاً عن عائلتها ، ولا عن مسقط رأسها ، وإنما أعلم أنها من الناحية التى تقع فيها بلدة (المنير) وفى الغالب أن أسرتها كانت من زراع الأرض متوسطى الحال ، استنتاجاً من حال ومظهر أزواج بناتها وأحفادها من الرجال والنساء . وقد كانت لوالدى تقاطيع غير مصرية ، وإن كان لون وجهه مائلا إلى السمرة ، بخلاف لون سائر بدنه ، وقد ترامى إلى سمعى أن والدته كانت شديدة العصبية ، بهـا عنف ، وسرعـة غضب . ولكن لا شبهة عندى فى أن أبى كان خليطاً من أبيه وأمه . فالتجرد والزهد فى الدنيا ، هو ميراث أبيه ، والعنف المكتوم ، والميل إلى التمرد والسخرية من الناس ، وعدم الاقتناع بهم ، هو ميراث أمه .

وقد كان أبى نموذجاً للمهندس المحب لعمله . كان العمل عنده عبادة بحق . فإذا كان لديه ما يشغله ، زهد فى أن يكلم الناس ، أو ينظر إلى أولاده ، ليعرف أمورهم ، أو يداعب صغيرهم ، أو يواسى مـريضهم ، أو يزور جـاراً أو يكتب خطاباً ، أو يشيع جنازة ، أو يحضر فرحاً ، ولم يكافأ كثيراً على عمله ، لعيوب فى المجتمع ولعيوب فيه هو ، فقد كان رجـلاً لا يحسن المداهنـة ، ولا حتى التلطف لرؤسائه ولزملائه ، على الرغم من أنه لم تكن به غلظة أو فظاظة ، ولكن كان فيه ما هو أشد على الناس من الغلظة والفظاظة ، فقد كان صريحاً إلى حد الإيـلام .

فكان لا يقنع بأن يقول للأعور إنه أعور فى عينه على حد عبارة المثل العامى ، بل إنه يقولها للكبار إذا اقتضى سياق الكلام أو المصلحة العامة أو إذا طلب منه إبداء الرأى ، فتخرج ألفاظه مخلصة صادقة ، لايقصد صاحبها إيلام السامع أو رد اعتدائه ، فتكون بذلك أوجع وآلم ، لأن سامعها لايمكن أن يتهمها أو يتهم قائلها بالغرض أو الخصومة أو التجنى . فهى أشبه بصراحة الطفل الذى يفضح أقاربه غير عامد فيوقعهم فى أشد الحرج . ولذلك كانت أمى دائمة الشكوى منه ، فهو على فرط حبه لها ، وانقطاعه التام عن العالم كله لعمله ولبيته ، ونزوله على مشورة أمى ، والعمل برأيها ، وترك كل دخله بين يديها لا يراجعها ولا يحاسبها ، بل لا يعرف فيم أنفقت ولم ادخرت ، ومن أعطت ومن منعت ، إلا أنها لم تسمع منه طوال حياتها ، كلمة ثناء واحدة ، على شىء فعلته أو قالته . ولا كلمة رضا عن أولاده ، لشدة حيائه من جهة ولأن عينه لا تكاد تقع على العيب أو تلمح النقص حتى تندد بهما ، على الرغم من قناعته وزهده ، ولكنه لايطيق أن يخفى فى نفسه اعتراضاً على الصغيرة والكبيرة مما يراه فى محيطه الصغير ، سواء كان ذلك فى البيت أو العمل ، ورجل كهذا ، لا يحق له أن يطمع فى أن يرقى درجات السلم الاجتماعى ، وقد كان تخلفه فى الترقية يحزنه ، ولكن لم يصده قطّ عن العمل ، ولم ينقص أمانته له واستبساله فيه ، وإيمانه به . بل لعل الذى حفظ له صحته ، واعتدال مزاجه ، أنه وجد العمل الذى يشغله ويستنفد كل طاقته حتى بلغ الستين . فلما انتهى عمله ، وجد بيتاً توفر فيه زوجته له من أطايب الراحة مالا يطمع رجل فى مثل قناعته وبساطته فى أكثر منه : الحديث الطيب المتنوع من زوجة محدثة قارئة ، واستماع منتظم للإذاعة فى الداخل والخارج ، وقراءة نافعة ومسلية ، فى الصحف والكتب والمجلات ؛ واستقبال منتظم للأبناء والحفدة . وعلاقات هادئة بالجيران مع انتقاء للأصدقاء .

ولم يكن فى مزاج أبى شىء يمت إلى المصرية فى قليل أو كثير . فلا هو يحب طعام المصريين ولا مشروباتهم ، ولا يشارك فى وسائل ترفيههم ، ولا يقوى على اتباع عاداتهم ، فهو مثلا لا يحب المأكولات الحريفة مثل الفسيخ والسردين والمش ، ولا يحب البصل الأخضر والأبيض ولا يطلب البصارة ، ولا يشتهى العاشوراء أو سد الحنك أو لقمة القاضى ولا يحضر الموالد ، ولا يحتفل بالمناسبات الدينية والقومية احتفال المصريين بها . ولا يتردّد على أضرحة الأولياء . ولا يذكرهم ،

ولا يحمل مسبحة ، ولا يحتفظ بمصحف على مقربة منه فى موضع نومه أو فى مكتب عمله ولا يحسن تبادل صيغ المجاملة من مثل «شفيتم، يرحمكم الله ، وحج مبرور وشكر الله سعيكم » بل إنه لطول عمره فى الصعيد ومع زملاء من الأقباط يستبدل بالسلام عليكم « سعيدة وسعيدة مباركة » .

وأكل أبى قليل ، يستفتح النهار بشربة كاربونات الصودا ، ويأكل البيض « البرشت » ، واقفاً ، ويخطف لقمات الغداء كأنه يؤدى واجباً يوّد أن يفرغ منه ، بدون أن يبدو عليه التلذذ والتذوق ، وقل أن يطلب من أمى صنفاً ، وإن كان يحب أن تكون على مائدته الفطائر والحلوى غير الشرقية . ولم أذكر أنى سمعت أبى يتحدث منذ وعيت الدنيا حتى توفاه الله إلى رحمته عن طعام يحبه ، أو عن مائدة طعام حضرها ، ولكنه كان يدمن شرب السجائر ، وقد بقى يشربها ، حتى قبيل وفاته ، وكانت سجائره مصرية ، فلم يدخن سيجارة واحدة من دخان فرجينيا سواء كان من تعبئة الإنجليز أو الأمريكان إلا أن تقدم له على سبيل التحية . وفى أخريات أيامه . كان يستعمل العطوس الذى كان يوفر له قدراً من التنبيه بعد كل عطسة .

وقد شغلتنى علاقة أبى بالدين حينما بلغت سن الشباب ، وأصبح التأمل فى الناس ودراسة تصرفاتهم متعة من متعى الذهنية المحببة . ففى أيام طفولتى وصباى ومطالع شبابى لم أر أبى يصلى إلا نادراً ، وكانت صلاته فى الأغلب الأعم ، فى الصباح يؤدى ركعتى الفريضة فى سرعة ، ثم لا يصلى طوال اليوم ، ولا باقى أيام الأسبوع ، ثم يعود إلى ركعتى الصباح . وفى حياته اليومية ، لا يعرض للموضوعات الدينية التى يتسلى بالحديث بها المصريون عادة . فلا أذكر أنه استسفر عن معنى كلمة فى آية ، ولا تفسير آية فى سورة ، أو واقعة فى حياة الرسول ، أو شبهة من شبهات العقيدة . كما لم ألحظ عليه تأثره بما يتأثر به المصريون عادة من سماع الأذان أو سماع القرآن ، ولا حماسته فى الصلاة على الرسول إن ذكر . وهى مناسبات ألف أهلونا ، أن يرددوا فيها ألفاظاً معينة . بنغمات متفق عليها ، كأن يكبروا أويبسملوا أو يهللوا أو يتشهدوا . . والذى حيرنى فى هذه الظاهرة ، أن تكوين أبى المزاجى ، وتوقد وجدانه ، كانا كفيلين بأن يجعلاه من فريق المتدينين ، ولكنه لم يكن من هذا الفريق ، حتى بعد ما دأب على أداء فروض الصلاة كلها ، وحضوره صلاة الجمعة والعيدين والاستماع إلى القرآن فى الإذاعة ، وتلاوته من المصحف .

بل إن والدى كان ينظر إلى خال لى كان مغرقاً فى الدينيات ، متصوفاً يتبع الفرق الصوفية ، ويتبعه مريدون ، نظرة الإشفاق ولا أقول السخرية ، ومع ذلك كـان يضيق بمساجلاتى الدينية مع زوجى أختى ولاسيما زوج أكبر الأختين ، ولم تكن هذه المساجلات فى بعض الأحيـان ، تخلو من المجاهـرة بشكوك هى فى فتـرة الشباب والتحصيل أمر طبيعى .

أما أمى ففى حياتها مايستحق أن يروى فقد اجتمع فى عروقها دماء شركسية صريحة ، وحبشية صريحة ، ولم يكن فيها من المصرية أو العربية ، إلا مولدهـا ، والبيئة التى نشأت فيها ، واللغة التى تثقفت بها . فقد وفدت أمها ، وخالتها إلى مصر طفلتين كبيرتين ، فى التاسعة أو العاشرة من عمرهما من ناحية فى جنوب روسيا تدعى (حتكاى) فى إقليم (تشركس) وكانت تنتمى إلى عائلة من بدو هذا الإقليم المشهور بفروسية رجاله وجمال نسائه ، وكان اسم القبيلة أو العائلة « تشينازر » وقد علمنا أن سبب نزوح الأختين وخال لهما من أراضى الشراكسة إلى تركيا ، هو الحرب التركية الروسية التى وقعت فى حوالى سنة ١٨٧٠ ، ولما كانت بلاد الشراكسة واقعة بين الدولتين الحربيتين الكبيرتين ، فقد كانت أرض المعركة : تجتاحها هذه الدولة حيناً ، وتلك حيناً آخر ، ولا يصيب أهل المنطقة من الحـرب ، فى حالتى الفـوز والهزيمة ، إلا التشريد وقد روت جدتى ، كيف أن قرار أبيها صدر بوجوب سفرهما إلى مصر ، نجاة لهما من ويلات الحرب ، فصحبهما أخوان لهما أحدهما شاب مقاتل يدعى « إبشماف » والثانى شاب متـدين منقطع لقـراءة القرآن ، ودراسـة العلوم الدينية يدعى(الشيخ محمد)وفى يوم الرحيل ركب الجميع الخيل ، واتجهوا إلى حدود تركيا ، ولكنهم قبل أن يبلغوا الحدود ، لحق بهم واحد من أفراد الأسرة ، وأفضى إلى « إبشماف » أن الروس دخلوا منطقة « حتكاى » ، وأنه لابد أن يعود لينضم إلى المقاتلين من أهل الناحية ، فاستودع المسافرين الله ، وقفل راجعاً : لم يتردد لحظة ، ولم ينتحل عذراً .

ومضت الفتاتان وأخوهما الشيخ ، يتلو القرآن سرًّا ، ويلتمس من الله العون والسلامة ولم تطل إقامة الفتاتين فى تركيا ، إذ ركبتا البحر إلى مصر ، حيث كان فى استقبالهما قريب لهما هو اسماعيل أفندى حمدى ، وهو موظف من موظفى الإدارة بلغ

فى آخر مراحل حياته العملية وظيفة وكيل قسم ، وهى إحدى وظائف الإدارة إبان عهد الخديو اسماعيل ، وتقع فى المرتبة والأهمية بين وظيفة مأمور المركز و وكيل المديرية .

وكان اسماعيل أفندى حمدى ، واحداً من الشراكسة الذين كانوا يفدون إلى مصر ، تلبية لدعوة شركسى ، وصل إلى مركز كبير فى مصر ، ويدعى « إلياس » باشا تزوجت ابنته فيما بعد من قاض مصرى قيض له أن يبلغ أكبر المناصب فعين رئيسا للوزراء وللديوان الملكى ، ونعنى به توفيق نسيم باشا .

وفدت الفتاتان : «حفيظة» ، وصفية ، لا تعرفان من العربية حرفاً ، فوجدتا أن قريبهما قد أحيل إلى المعاش ، وأقطعته الحكومة ، على نظام تلك الأيام ، خمسين فداناً جيدة فى زمام قرية الخيس ، التابعة آنذاك ، لمركز الزقازيق فى إقليم الشرقية .

وكان إسماعيل أفندى حمدى رجلا طيباً ، يحسن معاملة الناس ، وتطيب له مجالسة رجال الدين . وكان قد تزوج إحدى جوارى قصر إسماعيل ، فعاشا فى هدوء فى عزبته الصغيرة التى أحسن إدارتها واستثمارها ، فأنشأ فيها حديقة ازدهرت بما فيها من ورود ، وفاكهة ، وبما أقيم فى ناحية منها من مناحل لعسل النحل ، وأقام لنفسه ديواناً يستقبل فيه أعيان الناحية ، يتقدمهم رجالات عائلة أباظة التى كانت تملك أطياناً فى ناحية بردين وغزالة القريبة من قرية الخيس . ولكن ما كان ينغص على الزوجين إلا أنهما لم يرزقا غلاماً ، ولذلك أذنت زوجة إسماعيل أفندى له أن يقارب جارية عندهما ، حبشية الجنس ، قوية البدن ، سريعة الحركة ذكية ، عسى الله أن يهبهما غلاماً منها ، يتخذانه ولداً أو يؤنس وحشتهما .

وحملت الجارية « زاد المال » وأنجبت غلاماً ذكراً أسموه عليا وكان العهد بين إسماعيل وزوجته أنه لا يقارب الجارية ثانية ، بل أن يبيعها فور وضعها لمولودها . لولا أن علماء الدين من أصدقائه أفتوه بأن ذلك حرام يأباه الدين ، إذ إن الجارية لاتكاد تحمل من مالكها ، حتى تتحرر ويحرم بيعها فلما بقيت الجارية فى البيت ، عاد إسماعيل أفندى ، إلى الاتصال بها ، فولدت له ابناً ثانياً أسموه « أحمد » وكان ذلك خروجاً على الميثاق المقطوع بينه وبين زوجته ولما شبت حفيظة كبرى البنتين

الشركسيتين الوافدتين زوجها من أكبر ولديه (على) فرزقهما الله بنتين وثلاثة من الذكور وكانت كبرى البنتين هى أمى .

وأصيب اسماعيل أفندى حمدى بالشلل ، فلزم فراشه ، واحتاج إلى من يؤ نسه فطلب من حفيدته أن تقرأ له ما كان قد اقتناه من كتب الأدب والحديث والتفسير والقصص ، وكانت أمى قد فرغت من الدراسة فى مكتب القرية ، ولذلك كانت قراءة الكتب التى يحبها جدها ، عذاباً كبيراً . فقد كان لسانها يتعثر فيها وكانت لا تفهم مما تقرأ شيئاً ، وفرت مراراً من هذا الواجب المرير . ولكن أمها كانت تنهرها وتغلظ عليها ، وتردها إلى أداء الواجب ، وكأنها جندى فار من الجيش ولم تلبث حتى وعت ما تقرؤه شيئاً فشيئاً ، ثم استقام لسانها ، وأخذت ذاكرتها تحتفظ مما تقرأ بالقليل فالكثير ، حتى أصبحت القراءة هوايتها ، وحضور مجلس الأدباء والعلماء الذين يفدون إلى ديوان جدها متعتها ، وأحسنت الاستماع إلى ما يقولون ، وفهم ما يتبادلون ، ثم أحست أن من حقها أن تشارك فى الحديث ، فيطربون لما تقول ، كما يطرب الكبار لكلام الصغار ذوى النجابة ، ثم أصبحت نداً لهم ، تقارعهم الحجة بالحجة ، فاستمعوا لها باحترام .

ولم يتعلم أبوها ، ولم يزد فى المال الذى تركه له أبوه ، ولكنه كان فصيحاً منطيقاً حلو الحديث ، تواتيه بديهته بالقصص المرتجل ، وبالروايات المستظرفة وبنقد الكبار بما يضحك ويسلى فأحبه جيرانه من الأعيان الصغار والكبار ، فألفوا التردد على ديوانه ويبدو أنه كان سخيا ، فقد روى لى (زكى أباظة) رئيس نيابة القاهرة فى العقد الرابع فى القرن العشرين أنه زار جدى مع أبيه ، وعاد بهدية ملكية هى غزال جميل كان يسرح فى حديقة جدى مع قطيع من الغزلان .

وقد نمت أمى مواهبها البيانية ، فكانت تقرأ الكتب ، والقرآن ، وتروى بعض ما يعلق بذاكرتها من الشعر والقول الجيد ، وتفسير الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، واقتنت عدداً غير قليل من الكتب الحديثة والقديمة ، كان فى مقدمتها صحيح البخارى وبعض كتب الأدب القديم ، ومن الأدب الحديث حديث عيسى ابن هشام ، ونظرات المنفلوطى وما جدولين ، ومجموعة من قصص مسامرات الشعب التى كان يصدرها خليل صادق ومجموعة أعداد اللواء الذى كان يصدره

مصطفى كامل ، وترجمة حياته بقلم أخيه على فهمى كامل ورسائل فرنسية ومصرية لجوليت آدم وروايات جورجى زيدان فى سلسلة التاريخ الإسلامى . وهذه الكتب على قلتها ، كانت زاداً كافياً لإشعال جذوة عقل أمى ، فروايات جورجى زيدان ، جعلت وقائع التاريخ الاسلامى الكبرى حاضرة فى ذهنها ، وفى متناولها عند الاستشهاد بوقائع التاريخ القديمة ، وكانت روايات مسامرات الشعب الضخمة ، نافذة تطل منها على الحياة الأوربية بكل وجوهها ، من زواج وطلاق وغرام ، فى ناحية ، وعلاقات الآباء والأبناء ، والأغنياء والفقراء ، ونظام الحياة المدنية وأحداث السياسة والحروب . أما المويلحى والمنفلوطى ، فقد صقلا ذوقها الأدبى ، وهيآها لمتابعة ما كان ينشر فى الصحف اليومية وفى مقدمتها « الأهرام » من مقالات الأدباء والساسة ، وشعر حافظ وشوقى ومطران ، وقد علمت كل من فى البيت المواظبة على قراءة (الأهرام) ومتابعة الأحداث السياسية ، وتحليلها والتعليق عليها ، وكانت تبدأ فى الأهرام بقراءة الوفيات ، وفى المساء لا أنسى جلستها إلى جانب لمبة تضاء بالكيروسين ولها (برنيطة) كبيرة من الزجاج المصنفر ، وفى بعض الأحيان كانت تقرأ بصوت خفيض جدا ، ولكنك تسمع همسه ، وإذا قرأت انصرفت بكلياتها إلى ما تقرأ ، وإذا مرّت بما يضحك ضحكت بصوت عال ، وإذا مرت بما يحزن عبرت عن الحزن أو الأسف . وهكذا أصبحت الصحيفة اليومية فى حياتنا ، شيئاً ضروريًّا ، أشبه بوجبة الإفطار . أما تاريخ حياة مصطفى كامل بما فيه من مقالاته وخطبه جميعاً ، وأخبار رحلاته وتنقلاته ، فقد كانت أساساً طيباً لثقافتها السياسية ، أعانتها على فهم ما يجرى فى بلادنا من شئون السياسة والحكم .

ولكن الذى استوقف نظرى وحرت فى تفسيره ، هو الفارق العظيم بين قدرة أمى على الإبانة بلسانها ، وعجزها عن الكتابة المتناسبة مع هذه الفصاحة اللسانية ، فقد كان خطها ــ على وضوحه ــ شبيهاً بخط تلميذة فى السنة الثانية الابتدائية أما درجتها الإنشائية فقد كانت درجة شابة أمية لا تعرف من الكتابة إلا كما نقول فك الخط . وهذا أمر يدعو إلى العجب حقًّا ، فالظاهر أنه لا يكفى أن يكون الإنسان فصيحاً مطلعاً ، قادراً على التعبير عن نفسه بلسانه ليكون كاتباً ، بل لابد إلى جانب ذلك من المران والمثابرة على الكتابة .

وقد كانت أمى على النقيض من سيدات عهدها لاتحب أن تعمل بيدها فلم أرها

يوماً فى المطبخ تطهو ، ولو طبقاً من البيض أو الفول ، كما لم أشاهدها واقفة إلى الحوض تغسل منديلاً صغيراً ، كما لم يقع نظرى عليها وهى تكنس ، ولكن بيتها مع ذلك كان آية فى النظافة والنظام والترتيب ، مزوداً بكل ما يلزمه من أدوات الطبخ والغسل والكىّ ، وأجهزة ومعدات إذابة السمن ، وتسييحه ، وتخزينه ، وما يلزم فى البيت من حبال ، وخيوط الدوبارة ، والمسامير والشواكيش ، والكماشات ، والكيزان والموازين والمكاييل ، فلم تكن تطيق أن تقترض من جارة لها حبة ملح أو دبوساً صغيراً ، أو خرقة لا تساوى مليمين ، وكانت تنهانا أن نفعل ذلك حتى شببنا ونحن نعتقد أن اقتراض هذه الأشياء الصغيرة لا من قبيل التسول فقط بل من سبيل السرقة أيضاً ، التى تلوث السمعة ، وتحط من القدر . وكانت لا تطيق طلبات جاراتها فى هذا السبيل ، فلما ضاقت ذرعاً من كثرة ما طلبوا منها مكيالاً للسمن يصنع من صفيح ، صنعت على حسابها لكل منهن مكيالا وأرسلته هدية منها ، ولما عدن يطلبن بعد حين المكيال نفسه ، انفجرت غاضبة ، وكأنها سمعت هولاً لا قبل للناس بالسكوت عليه .

وكانت صلتها بمن يعملن أو يعملون عندها صورة من شخصيتها ، فقد كانوا يخشونها ، ويحسبون كل حساب إذا وقع خطأ من أحدهم أو إحداهن ، إذ لو سلطت على المخطىء غضبها الكاسح ، لأحس أن الدنيا زلزلت من قواعدها ، وأن السماء ستقع على رأسه كسفاً ، فقد كان سيل تأنيبها وتقريعها عند الغضب متدفقاً وصوتها مجلجلا ، ووجهها مربداً وغضبها صادقاً ، لا تكلف فيه ولا مبالغة ، فإذا هدأت كانت تحنو على هؤلاء الذين غضبت منهم ، وجلست إليهم تتحدث معهم ، وتسمع لهم ، يروون قصص حياتهم ومشكلاتهم . وقد كان من بين من عملن عندها امرأة تجاوزت منتصف العمر اسمها « أم جليلة » ، ولقد درجت أمى على مداعبتها وعلى تتبع أخبار بنتها جليلة وابنها سيد ، فإذا أرادت أن تأوى إلى فراشها وتحايلت على النوم الذى لم يكن يواتيها بسهولة ، أجلست أم جليلة إلى جانب فراشها ، وطلبت إليها أن تروى قصصها الحقيقية والمتخيلة ، وتستمر المرأة فى الكلام زمناً طويلا بعد أن تكون أمى قد استغرقت فى نوم عميق .

ولست أنسى مشهداً لا يغادر خيالى أبداً . فى حجرة الخزين بسطح منزلنا فى السيدة زينب ، فقد ضبطت أمى ، عبد الله ، وكان يعمل عندنا كبواب وساع

لقضاء حوائجنا . وكان مولوداً فى أرض جدى بالخيس . ضبطته وقد أعد قرطاساً طويلا ليملأه أرزاً فغلى الدم فى رأسها . إذ لم يكن يغضبها شىء مثل هذه الدنايا الصغيرة فلما فاجأته متلبساً بجريمته ، انهالت على أصداغه بأقلام خيل إلى أن المكان ارتج لها ، والرجل مطرق مستخذ لا يقول شيئاً ، ثم خرج من الحجرة ، وكأنه سجين نفذ فيه حكم الجلد يجرر رجليه ، ولا أكتمك أننى يومذاك غضبت من أمى غضباً عنيفاً ، فانسحبت إلى حيث استطعت أن أناجى نفسى الكسيرة الحزينة . وبودى لو أستطيع البكاء .

ولكن هذه الأم القادرة على إقامة النظام والقانون فى بيتها ، لم تكن تتسامح مع أحد منا نحن أولادها وبناتها ، حين نسىء إلى ضعيف أيًّا كان سبب ضعفه : فقير فى الطريق ، أو رجل أو امرأة أو فتاة تعمل عندنا ، أو طفل جاء مع أمه أو مع أبيه يلتمس عوناً أو يطلب نجدة . فإن وقعت من أحدنا هذه الإساءة ، فالويل له من غضبها .

ولم تكن أمى قوية مع الضعفاء فحسب ، بل إنها مع الأقوياء كانت أكثر قوة ، وقد تزوجت خالتها من (باشا) يعدّ واحداً من أغنى أغنياء مصر ، فقد بلغت مساحة أطيانه وشقيقه نحو ٣ آلاف فدان فى الشرقية والغربية . وكان شقيقه رجلا طاغية ، لا يسمح لأولاده حتى بعد أن أصبحوا كهولا شابت رؤ وسهم ، وحصلوا على رتب البكوية من الدرجة الأولى أن يوجهوا اليه الكلام إلا إذا أذن لهم ، فإذا تكلم أطرقوا ووضعوا الأيدى فوق الصدور ، وإذا غضب على أحدهم أطار طربوشه من فوق رأسه أولا ، ثم ركله بقدمه ثانية على مرأى ومسمع من الفلاحين وموظفى عزبه ودوائره الكثيرة . . فإذا أتيح لأمى أن تجلس إليه وتناقشه ، خاطبته كما تخاطب أحد أبنائه ، بلا تحفظ ولا رهبة ، مع الاحترام المناسب لسنه ونفوذه ومقامه ، وقد تخالفه فى الرأى ، وتعاتبه على مافعل مع بعض بناته ، أو بنات أخيه زوج خالتها ، والرجل يسمع ولا يضيق بما تقول ، بل يضحك أحياناً ويفتر ثغره عن ابتسامات الرضا والسرور أحياناً أخرى ، فإذا خرجت أمى من لدنه ، وجدت على الباب الرجال والنساء ، يعجبون كيف خرجت من عرين الأسد ، بلا جروح ولا رضوض ، وتأملوا وجهها ، فإذا رأوها هادئة رابطة الجأش ، حاروا فى تفسير هذه الظاهرة الإنسانية التى لا تفسر بقوانين حياتهم ، وقواعد نشأتهم .

جَدّتى

فى حياتى شخصية جديرة بأن أقف أمامها ، وأن أحييها ، تلك هى أم أمى التى وفدت من إقليم حتكاى ببلاد الشركس ، فراراً من ويلات حرب الروس مع الأتراك .

وقد بقيت أعرف أن اسمها حفيظة ، ولم أكتشف أن هذا الاسم أطلق عليها فى مصر ، وأن اسمها الحقيقى هو بهيجة ، ولم أجد من أهلى من يفسر لى سر هذا التغيير ، فكلا الاسمين عربيان ، يسهل النطق بهما على المصريين ، فى حين لو كان الاسم شركسيًا صعب النطق ،لكان مفهوماً تغييره .

وقد كانت جدتى ، على خلاف الشركسيات ، قصيرة القامة ولم تكن جميلة جمال بنات عشيرتها ، فالشراكسة والشركسيات مثال رائع من جمال الرجولة والأنوثة ، وكلا الجنسين يمتاز بطول القامة ، ومتانة بنيان الأجساد ، وسواد الشعر ، مع نعومته وكبر العينين وحلاوة التقاطيع . ولكن جدتى لم تكن دميمة ، بل إن تقاطيع وجهها جميعاً سليمة إذا قيست بالمعيار الهندسى فلا بروز ولا نتوء ولا التواء ، مع شعر أسود فاحم ناعم ، وعيون واسعة سوداء ، وحواجب ثقيلة مقرونة ، وجبهة عالية ، وأنف مستو ، وشفتين بين الرفيعة والغليظة . ولكن يبقى وجهها بعد ذلك كله فى حاجة إلى مسحة الجمال ، ولعل طابع الجد والهدوء باعد بينها وبين جمال الأنوثة .

ولكن جدتى ، على بساطتها ، وبساطة عيشها ، كانت نموذجاً إنسانياً ، يؤكد

للباحثين فى دنيا النفوس أن الإنسان ، هو أشد مخلوقات الله ، استعصاء على الفهم والكشف . فكم من إنسان يبدو قليل الشأن ، وهو قوة تعجز الأقوياء وتحيرهم . وكم من آدميين يبعثون الرعب فى القلوب ، وتبدو عليهم مظاهر اليأس الشديد ، وهم أمام الأحداث صغار النفوس ، ضعاف الإرادة ، قد تستعبدهم شهوة ، أو تزلزلهم صدمة .

وجدتى من طراز الأقوياء الذين يبدون فى مظاهر البسطاء الذين لا يؤ به لهم . ودلائل قوتها كثيرة ، من ذلك أن زوجها تزوج عليها ريفية من أهل قرية الخيس ، لم تكن على شيء من الجمال ، أو الثراء أو الوجاهة : مجرد ريفية طويلة فقيرة ، كانت أمى تصفها بأنها كالباب طولا ، وكخفير الأرياف جفافاً ، وبعداً عن الرقة واللطف والأنوثة . فلم تعاتبه جدتى ، ولم تحدثه فى فعلته هذه ، بل تركت له بيتها فى القرية ، ووفدت إلى القاهرة ، وصرفت كل حياتها لأولادها ، وما كان لها فى العزبة ، وأنفقت إيرادها على تربية أولادها الثلاثة ، وكانو يتعلمون فى المدارس . لم يجرؤ جدى على مصالحة جدتى ، ولم يطلقها ، ولكنه أدرك أنها نبذته من حياتها إلى غير رجعة ، بلا تردد وفى هدوء ، وقد رأيته وأنا صبى ، فى زيارة أولاده فى بيت جدتى ، فلم يجر بينه وبينها شيء يشعر بأنهما منفصلان . يتبادلان الحديث القليل الذى تستدعيه ظروف إقامته فى ضيافتها ، لا أكثر . فهى لا تشيح بوجهها عنه إذا رأته ، ولا تقطب جبينها إذا حدثها ، بل دخلت يوماً عليها ، وكان جدى فى زيارة أولاده منها ، فلم تزد على قولها : « جدك فى الداخل . ادخل سلم عليه » .

كان مسلكها ينطوى على عنصرين خلقيين عظيمين . أولهما الحزم ، وثانيهما الترفع .

فمن الحزم أنها قررت ترك زوجها ولم يبد عليها أسف ، ولم يأنس زوجها منها ضعفاً يدنيه منها وييسر له أن يكون له زوجتان : إحداهما فى مصر ، والأخرى فى الريف ، وأن يكون له بيتان : أحدهما فى الخيس والثانى فى القاهرة .

على أن حياتها استمرت متصفة بالقوة ، وإن بدت سيدة أجنبية ضعيفة الحيلة لا حول لها . ومن مظاهر قوتها أيضاً ، أنها قامت على تربية أولادها الذكور والإناث ، فأحسنت تنشئتهم جميعاً . خلا بيتها من الشجار الذى يدبّ بين الإخوة

الذكور . الكل يحترمونها ، وكل فرد فى الأسرة يحترم الآخر ، والبيت يسوده استقرار وهدوء ، ووقار واحتشام ، وأعضاء الأسرة قاطبة ، أهل جد وخلق . لم يتأخر أحد من الذكور : فى سهرة محرمة بالليل ، إلا أن تكون سهرة فى مسرح مرة فى العام . ولم يدر بخلد أحد من أولادها أن يرتكب منكراً فى البيت على عادة الشبان ، أو أن تكون لهم علاقة بواحدة من بنات الجيران ، بصورة يأباها عرف المصريين ودستور أخلاقهم .

حدثتنى جدتى يوماً ، وكنت صبياً فقالت : « ابنى حسين أعفاه الله من كل خطأ . فإذا ارتبت فى تصرف من تصرفاته مع واحدة من بنات الجيران ، ثار واحتج ولم يقبل مجرد العتاب . أما ابنى محمد فليس على منهج أخيه . يخطىء فإذا لمته ، أطرق ولم يرد » .

أما ابنها الثالث ، فمتصوف زاهد . وللإخوة الثلاثة حديث آخر يتبع هذا الحديث .

وكانت جدتى ، على هدوئها وبعدها عن العنف ، ذات إرادة ، تنفذ رأيها ، وأولادها مطيعون . زوجت ابنها الأكبر إسماعيل من الزوجة التى اختارتها له أمى ، وصممت على أن تزوج ابنها الثانى حسين من صغيرة شقيقتها صفية التى وفدت معها من بلاد الشركس إلى مصر ورفضت أن تستمع فى هذا الموضوع لأية مناقشة ، وأعلنت فى هدوء أن أية زوجة أخرى لابنها مرفوضة ابتداء ولو كانت بنت الملك .

الصفة الثالثة من صفات جدتى هذه المثابرة العجيبة على أداء فروض الصلاة منذ وعيت الحياة حتى أقعدها المرض عن كل شىء إلا عن هذه الفريضة تؤديها فى مواعيدها ، حتى صلاة الفجر ، فإذا جاء رمضان صامته ، وصامت بعده الأيام الستة التالية لعيد الفطر والتى تواضع المصريون على تسميتها بالستة البيض ، وكانت قد نذرت صيام هذه الأيام ، ليحفظ الله عمر وحيد أختها صفية ، الذى أصبح عضواً فى الجمعية التشريعية ، فعضواً فى مجلس النواب سنة ١٩٢٤ ، والذى علمت أنا فيما بعد أنه كان زميلا للمرحوم عبد اللطيف بك الصوفانى فى نشاطه السرى ضد الإنجليز . وقد بقى هذا النشاط مستوراً ، حتى توالت اعترافات بعض المتهمين فى قضية مقتل السرادر السير لى ستاك مفتش الجيش المصرى ، وحاكم السودان ، فى

نوفمبر ١٩٢٤ ، فقد صدر الأمر بحبس عمر بك على ذمة تحقيق هذه القضية الكبرى ، وكاد يساق إلى السجن ، لولا أن الموت سبق النيابة ، فاختاره الله إلى جواره الكريم .

وقد كانت لجدتى خلائق الزعيم ، فقد كان لها من أهل قريتها فى مصر أتباع يعملون عندها ، وتظلهم برعايتها ، فلا يجرؤ أحد فى الأسرة على أن يمسهم بسوء ولو ساء مسلكهم . وقد بقيت على هذا الخلق إلى أن ماتت .

وبقيت تدير شئون بيتها ، فى همة ونشاط حتى كف بصرها لما أصيبت عيناها بالمياه الزرقاء ، وقد رفضت فى تلك الفترة ، أن تستمع لنصيحة أولادها فى أن تدع شئون المنزل لمن كان يعمل عندها ، وقد كان لديها دائماً من يعينها من الرجال والنساء ــ وكانت بطبيعة الحال ، لا تهتدى إلى مواضع الأشياء ، فتتحطم من يديها الصحون ، وزجاجات الشرب ، فتثور وتلعن الناس ، وتتهمهم بالإهمال ، وتأبى أن تسلم بأن الخطأ يرجع إليها وإلى عنادها .

أما حبها لنا ، وعطفها علينا ، ولاسيما على وعلى أختى أمينة ، ثم على أولاد ابنتها الصغرى خالتى ــ فحدّث ولا حرج .

ولقد بقيت صورتها فى ذهنى سنين طويلة بعد وفاتها . فعشت أذكرها وهى تدور فى البيت ، سواء فى مصر ، أو فى الزقازيق ، وحول خصرها حزام تتخذه عادة من ربطات رقبة أولادها الحريرية ، كما لم أنس حواديتها الشركسية خصوصاً (حدوتة) الغزالات الثلاث : سك ومك وقرون الغزالات .

وفى كل صيف ، كنت أقضى شهراً عندها فى الزقازيق ، فى بيت خالى وابنها الذى بقيت معه سنين ، وهو أعزب ، واشتد عليها المرض ، وأشرفت على الموت مراراً ، وفى كل مرة كان أولادها يجتمعون حول فراش مرضها ، ثم لا تلبث أن تبل من المرض فيتفرق أولادها . وفى ذات مرة قالت أمى «إذا حان الأجل فستموت أمى وحدها» . وقد تحققت نبوءة أمى ، بعد ذلك بسنوات فقد علمنا أنها فى حالة خطرة ، فتباطأنا فى السفر حتى إذا حم القضاء اجتمعنا حول فراش موتها باكين .

وقد قصت على «عمرية» التى لا زمت جدتى فى أيامها الأخيرة ، كيف عادت إلى

جدتى ذكريات طفولتها فى بلادها ، فراحت تغنى بالشركسية ، وتخاطب أناسا لا وجود لهم فى مصر ، حتى سكنت أنفاسها وفارقت دنيانا .

أخوالى الثلاثة

كان المفروض أن أتحدث عن شقيقاتى الثلاث ، فهن ألصق بى وأقرب فى دنيا طفولتى ، ولكن لأنهن سيصحبننى يوماً بعد يوم ، فلا معنى لأن أفرد لهن فصلا خاصا بهن أما أخوالى الثلاثة فهم أقرب إلى خلفية حياتى ، فلابد من تقديم الحديث عنهم ونحن فى أولى مراحل الكلام .

وهم جديرون بالتحدث عنهم ، لأنهم نماذج ثلاثة ، تزداد أهميتها ، بمقارنة الواحد بالآخر . ولقد سمعت أمى تقول إنه كان لأبيها ، ثلاث خصال ، فوزعها الله على أولاده الثلاثة . فأعطى أحدهم النزعة الدينية ، وإطالة الصلاة والتراويح وإدامة الدعوات والتسابيح ، ومنح الثانى القدرة على القهقهة العالية ، بمناسبة وبغير مناسبة ، وخص الثالث بالحرص على استيفاء نصيبه من الدنيا ، كاملا غير منقوص ، وأحياناً زائداً عن المقسوم لأمثاله الناشئين فى حضن المحافظة والقواعد المرعية .

ولما تقدم بى العمر وقرأت قصة الإخوة كرامازوف ذكرت كلام أمى ، وخيل إلى أنها تشير ــ وهى تتكلم عن أشقائها ــ إلى هؤلاء الإخوة ، لا لتطابق بين صفات كل من الإخوة « كرامازوف » مع نظيره من الإخوة « حمدى » بل لتقارب بين الصفات وتباين بين الأخ وأخيه تباينا يعجب الإنسان له ، لأنه يتحدى قوانين البيئة وفعلها ، وقوانين الوراثة ، على مايفهمه الناس ، لا على مايقرره العلم .

فأكبر أخوالى كان درويشاً تعلم فى المدارس الابتدائية ، ثم احتاجت أمه إلى معونته حينما انفصلت عن زوجها وجاءت إلى القاهرة ، فقطع تعليمه ، ووظف نفسه فى وظيفة مهندس بالمساحة ، بعد أن أعد لذلك فى المدارس التى كانت الحكومة تدها لتخريج مهدسى المساحة ، ومساعديهم .

واستطاع أخواه بفضل هذه التضحية ، أن يتما تعليمهما ، فكان الأخ الذى يليه مباشرة مهندساً . ليرقى فى سلم الوظائف الحكومية ، إلى أعلاها ، أو مايدانى أعلاها .واستطاع الثانى أن يحصل على إجازة الحقوق ويشتغل محامياً ، وبقى خالى الأكبر وحده بينهما لا يحمل مؤهلاً عالياً ، متحملاً آثار ذلك النقص المادية والأدبية معاً . وكلاهما آثار فادحة . فمصر مجتمع الشهادات يقاس الإنسان فيها بالإجازات العلمية التى حصل عليها ، بل بالدور الذى أدى فيه امتحانه النهائى الذى حصل فيه على الشهادة . وبمقدار ما حصل الإنسان على مؤهلات مدرسية يحصل على مال ، بغض النظر عن كفايته فى العمل وحسن أخلاقه ونفعه للناس ، وقد بقى الناس يذكرون له حرمانه من المؤهل ، كأن ذلك الحرمان عاهة من العاهات ، حتى الذين يقدرونه ، ويتصلون به بصلات المودة والحب ، لا ينسون وهم يثنون عليه ، أن يقولوا : لقد وصل إلى ما وصل إليه مع أنه لم يحصل على شهادة .

ولكن خالى ، لم يبد عليه قط ، أنه يشعر بما بذله فى سبيل أخويه من تضحية أو أنه يمن عليهما بالفضل الذى أسداه إليهما ، بل إنه لم يبد عليه يوماً أو ساعة من يوم أنه أسف إذ حرمه الله من العلم الذى كان مؤهلا له بذكائه ومثابرته وانقطاعه عن لهو الدنيا ، ومضى إلى حياته المتواضعة التى فرضها حظه عليه ، سعيداً مرحاً ، لا يكف عن مداعبة كل أولاده أختيه ، بأسلوب عرف عنه ، فكل طفل عنده (قط رومى أو قط بلدى) وهو يقبل الصغار فى جباههم ، ويضحك لفكاهات ومداعبات الجميع ، ولو خلت من خفة الظل ، ولطف العبارة ، وهو يحمل أنواعاً من الهدايا لصغار العائلة ، هى الحلوى التى تباع فى ميادين المساجد : كميدان السيدة زينب ، وميدان الحسين ، مثل (الهريسة) والحلويات الحمصية والسمسمية والعلف والسودانية . . ولكن أحب هداياه إلى نفسه هى الهريسة المصنوعة من جوزة الهند ، ولذلك فإن أكبر علامات الرضا عنده هى (الهريسة الجاوى) .

ولقد كانت له حركات عصبية تدل على مدى الحيوية المكبوتة ، أو الموجهة إلى غير وجهتها فهو يضغط على فكه الأسفل إذا سمع ما يضحكه أو يعجبه حتى تبرز عظام الفك ، من وراء جدار وجهه . . وهو يمسك رأس الإنسان بيديه الاثنتين ويدنيه بشيء من العنف ليقبل جبهته وإذا اشتد ضحكه دار حول نفسه دورة أو نصف دورة ، وهو يرشف كأنما يشرب ماء .

فإذا فرغ من الحديث وتهيأ للخروج ، احتاج إلى وقت طويل لينفذ قراره فهو يخرج حتى يصل إلى الباب ، ثم يعود ثانية ، ليستأنف الحديث ثم يخرج ثم يضحك ثم يقبل محدثه فى جبهته ثم يستأذن للخروج ثم يذكر أحد الموتى ، فيقرأ الفاتحة . وقراءة الفاتحة على الأموات ، قريبين وبعيدين ، يعرفهم محدثه أو لا يعرفهم لازمة من لوزام الحديث ، فهى كشرب الأنخاب على موائد طعام الروس السوفييت ، تقع مرات فى الجلسة الواحدة . وباتت هذه اللازمة مثار الضحك والمداعبة فى العائلة ، فما يتحدث خالى إلى أحد منا حتى ندس فى الحديث اسم أى ميت ، ثم نقترح قراءة الفاتحة على روحه ، فيبسط خالى كفيه لأعلى ، ويتلو الفاتحة بدون أن يسأل عن اسم الميت . فطلب الرحمة عمل طيب ، ولا يهم من يكون المطلوبة له . وبالغنا فى المداعبة فكنا نقترح قراءة الفاتحة على محمد على باشا مؤسس العائلة المالكة ، فتقرأ الفاتحة فوراً ، ثم على المرحوم الشيخ سلامة حجازى فتتلى فى الحال ثم ندس اسم جورج الخامس ملك بريطانيا فيهم خالى بالقراءة ثم يكتشف (النكتة) فلا يغضب **ولا يحتج ، بل يقبل جبهة محدثه العابث ، وهو يقول : « الله يجازى شيطانك . . تعرف أننى أحبك . . » وهكذا .**

كل هذا هو الغلاف الخارجى لحياة خالى ، ولكن القسم الداخلى الذى يشبه قدس الأقداس فى معبد الفراعنة ، حيث تقام الصلوات ، وتجرى أكثر الأعمال قدسية ، فهو صلاته وتعبده ، وحبه لأهل البيت ، وانقطاعه لمساجدهم ، أى لمسجد السيدة زينب والسيدة نفيسة والإمام الحسين . إنه حب عميق حقيقى خالص ، فيه كل سمات وخصائص الغرام ، ولم يكن لدى دليل أقوى على صدق هذا الحب وخلوه من كل عيوب التظاهر والمراءاة ، من أن خالى لم يكن يتحدث عن هذا الحب لأحد فما كان يدعونا إلى تقليده ، ولا يحث أحدنا على صلاة ولا ينهى آخر

عن إهمال العبادة . فلم يكن ينظر إلى نفسه كواعظ . ولا كناسك ، ولا كسائر فى طريق يدعو الناس إلى اتباعه أو السير فيه . فهو يجد فى صلاته وتسابيحه وصومه راحة وسعادة ونشوة فيمضى فيها جميعاً ، ولا يتحدث لأحد عن هذا السرور الربانى الذى يغمر قلبه ونفسه ، كأنما الحديث عنه أشبه شىء بإفشاء المحبين أسرار غرامهم .

ولعلى لم أجد متصوفاً صادقاً كما وجدت خالى ، فقد كان قليل الدخل ، ولكنه كان دائماً نظيف الثياب ، مجدًّا فى عمله ، متفوقاً فيه ، لم يشك قط شيئاً فى دنياه : لا قلة المال ، ولا الحرمان من الترقى ولا قلقاً فى حياته العائلية . رأيته مرة واحدة تدمع عيناه ، وذلك يوم أن مرضت ابنته الصغرى ، بحمى التيفوئيد ولم يكررها .

ويبلغ تصوفه أعلى مراتبه بانشغاله الدائم الموصول بمشكلات الناس ومتاعبهم ، فهو لا ينقطع عن السعى فى قضاء مصالح الناس والتخفيف عنهم ، مع أنه رجل بلا نفوذ ولا صلات ، ولكنه على قدر طاقته يفعل ولا يتأخر . وكم من مرة زارنى فى مكتبى ، لا يرجو لنفسه شيئاً ولا لأولاده ، إذ كان كل رجائه مصروفاً إلى الناس .

وفى ذات يوم جاءنى ومعه خطاب صغير ، وقال لى إن بداخل المظروف ورقة تتضمن رجاء موجها إلىّ ، ولكنه لا يحب أن أفض المظروف إلا بعد انصرافه .

وخيل إلىّ يومها أن خالى يمرّ بضائقة خانقة لم يستطع أن يحتملها ، وهزنى هذا التصور ، لأنى أعرف أنه لا يطلب لنفسه شيئاً . وجلست أتحدث إليه وأنا شارد العقل ، مشغول النفس ، بما عساه أن يكون فى الخطاب . ولم أكد أفرغ من توصيله إلى الباب ، بعد أن قبل جبهتى عشرات المرات ، وبعد أن قرأنا عشرات الفواتح على العديد من الموتى . وبعد أن هم بالانصراف والعدول عنه المرة بعد المرة . . . فضضت الخطاب فماذا وجدت ؟ ورقة صغيرة مكتوباً عليها بخطه الذى لا يشبه كثيراً خط الآخرين . . يطلب فيها منى ، ماذا تظن ؟

يطلب أن يدفن عندما يحين الأجل إلى جوار أبى . ولا أحد سواه ! واغرورقت عيناى بالدموع . .

لا لأن هذا المطلب مس شغاف قلبى بعنف ، بل لأننى وجدت فى هذا المطلب أكبر تزكية لخلق أبى وطيبته فقد كان خالى يخفى آراءه فى الناس حسنة وسيئة ، لأنه لا يحب أن يشغله الناس عن دنياه .

وبعد أيام . . أيام قليلة جداً مات خالى ، فى أول مرض يصاب به فى حياته الطويلة ، فدفناه إلى جوار أبى .

* * *

أما خالى الثانى فقد كان أيضاً شخصية فريدة . ولم يكن تفرده هو نقاء حياته العامة والخاصة فقط ، بل منهجه فى التفكير أيضاً .

ربما كان فريداً بين لداته وزملائه ، لأنه لم يدخن قط ، ولم يشرب القهوة ولا الشاى ، ولم يجالس أحداً فى المقاهى التى كانت جزءاً لا يتجزأ من حياة أى موظف ، بل أى مصرى . ولم يكن له أصدقاء يتبادل معهم الزيارات ويردد اسمهم على لسانه . وإن كان له زملاء يخالطهم فى العمل والمناسبات الأخرى خارج العمل ، ولكنه على بعده عن المجتمعات كان مرحاً ضاحكاً ، نسمع قهقهته فى البيت طوال النهار ، ثم هو لا يكف عن مداعبة الناس ، الكبار والصغار ، بدون أن يلتفت إلى أثر مداعبته فى نفوسهم . بل إنه يوجه الحديث إلى الناس ثم لا ينتظر ردهم ، وهو يقص على مجالسيه ، النوادر ويضحك عليها ولا يسمع من أحد كلاما مهما كانت جعبة محدثه مليئة بالملح والطرائف .

قبل أن يتزوج ، كان يقضى إجازته السنوية عندنا فيصرفها جميعاً فى البيت يلعب مع نفسه لعبة (الصبر) بورق اللعب (الكوتشينة) . وهو خلال لعبه ، يروى القصص لمن يمر إلى جواره ، ويشاغب أهل البيت من أقاربه والعاملين فيه ، ولا يخرج إلا نادراً ، ليشترى شيئاً من الحلوى لنا من محل صولت الذى كان منتدى الخاصة فى تلك الأيام ، فيلقى فيه بعض زملائه وعارفيه لقاء عارضاً ، يتبادل فيه كلمات قليلة ، ويعود إلى المنزل وقد امتلأت جعبته بالعشرات من التعليقات، على أشكال الناس وكلامهم وتصرفاتهم . وقد يكون كل هذا مسلكاً فريداً لخالى، إذ

لاشك أنه لا يوجد كثيرون غيره فى سنه وشبابه ، وبخاصة فى عمله ومركزه يقنعون من دنياهم بهذا القدر البسيط ، بل التافه ، من الترويح عن النفس .

صحيح أنه كان يتردد على السينما أحياناً قليلة ليرى أفلاماً جيدة ، وصحيح أننى سمعته يعلق يوماً على الملحنين فى أيامه ويثنى على أحدهم ولعله داود حسنى ، ويبدى اعتراضه ونقده لملحن آخر . ولكنى لم أسمع قط أنه قضى ليلة طرب فى ملهى عام كما سمعته يوماً يروى مشهداً مسرحياً أدخل إلى قلبه سروراً عظيماً ، وهو مشهد يتلخص فى مريض يشكو أوجاعاً فى أسنانه وأضراسه ، فأطال الشكوى على خشبة المسرح ولم يتغير المنظر ، حتى ضاق ذرعاً أحد النظارة بهذا السخف ، فانتهر الممثل وطلب إليه أن يكف عن الصراخ المزعج وأن ينسحب إذا لم يكن لديه شىء آخر يسمعه للجمهور ، فتطوع متفرج آخر لحماية الممثل ، وانقسم الجمهور إلى مؤيد ومعارض ، ثم اتضح أن هذا كله جزء من المشهد المسرحى وأن المؤيدين والمعارضين كانوا جميعاً ممثلين . واستمر يروى هذا المشهد أياماً طويلة ويضحك ، ثم يستأنف الرواية ويضحك . وربما دخل أحد إلى الحجرة وخالى يروى هذا الذى رآه . فلا يتناول الحديث من بدايته ، إنما يستمر فيه ، ويدعو الداخل إلى المشاركة فى الضحك ، والآخر لا يدرى ما الحكاية .

وذهب يوماً إلى « اللونابارك » فى مدخل مصر الجديدة ، وقد أزيل منذ سنوات ، وكان مجمعاً للألعاب لا مثيل له لا فى مصر ، ولا فى غيرها من الدول الأوربية التى زرتها . وكان من بين الألعاب فيه ، سلك ممدود على بحيرة صناعية يتعلق اللاعب من الجمهور بهذا السلك ، وتحته قارب صغير . والمفروض أن تكون سرعة اللاعب موازية لسرعة القارب ، فإن تخلف وتعبت ذراعه . سقط فى ماء البحيرة لينتشل بعد ذلك ، وقد ابتلت ثيابه . . . ورأى خالى هذا المشهد ، وسمع اللاعب وهو يصرخ (حسيب . . . حسيب ياناس) أى أنه سيترك الحبل . وكان فى اللونابارك شخص اسمه (حسيب) فجاء مسرعاً ليسأل عن الخبر . فلم يجد من المنادى واستمر يسمع اسمه يتردد حتى سقط المنادى فى الماء .

كل هذا بلا شك شىء غير عادى . إنما التفرد الذى أعنيه هو موقف خالى من الدين : إنه لم يصلِّ قط وإن كان لم ينقطع عن الصوم مطلقاً ، كل رمضان وعدم

صلاته ليست بالشيء غير العادى فى مجتمعنا ، لاسيما بين الذين تلقوا التعليم الحديث ، وإنما الشيء الغريب أن خالى لم يتحدث قط فى أى شأن من شئون الدين . ولم نسمعه يذكر اسم النبى ، ولا يتشهد ، أو يستمع إلى قرآن ، بل لم أسمعه يحلف لا بالله . ولا بغير اسم الله الكريم . وكان يرى أخاه الأكبر ، فلا ينطبع على وجهه ، إلا تعبير خفيف جدّاً لا يكاد يلحظ عن شيء لا نعرف أيكون امتعاضاً أو اندهاشاً . وكان يسمع أخاه الأصغر ، يتحدث حديث الملحد ، فيبدو على وجهه التعبير نفسه ولا يزيد .

وبالجملة كان ــ الدين فيما عدا الصوم ــ لا وجود له فى حياة خالى ولا أثر له فى تصرفاته . ولكن هذا الموقف مقترن بصمت كامل ، عنيد ، لم يخرج عنه فى يوم من الأيام ، حتى توفاه الله .

وإلى جانب هذا الموقف غير العادى ، كان شديد الاحترام لأمه ، ولكنه لم يقبل يدها ، ولم يسمح لأحد أن يقبل يده هو بدون ضجيج كثير ، إنه لايحب تقبيل الأيادى ، ولا يحب أن يقترب من الناس ، ولا أن يقترب الناس منه ، ولكنه كان أبر الناس بفقراء عائلته ، ومن يلوذ بها من الضعاف ، يمنحهم الصدقات ويواسيهم فى الملمات ، ويجامهلم فى المناسبات بدون كلام . لايقبل من أحد شكراً ولا يقول إن ما يفعله واجب ، أو دون الواجب ، كما يفعل الناس فى بلادنا إذا شكرهم شاكر .

والرأى الوحيد الذى كان يعلنه ، يدل كذلك على غرابة أطواره ، ذلك هو رأيه ، المستمر اللحوح ، المعلن بأعلى صوت مقروناً بالقهقهة : من أن كل من اسمه « على » متنطع ، أو سخيف . ويضرب الأمثال العديدة على هذه النظرية الغريبة من حياة الأسرة والجيران وزملاء الدراسة ، والشخصيات المشهورة فى مصر ، وفى التاريخ العام ، ولست أدرى أكان هذا مجرد رأى غريب ، كمعظم ما يصدر عنه أم كان نقداً خفيا لأبيه فقد كان اسمه«عليًا» أما خالى الثالث ، فهو فى ظاهر الأمر أكثر الأشقاء الثلاثة اقتراباً من المعتاد والمألوف فى أخلاق الناس ومظاهرهم وطباعهم . ولكنه فى واقع الأمر ليس بهذه البساطة : بدأ حياته التعليمية فى الأزهر ، كما كان يفعل الكثير من أولاد أعيان الريف ، إذ ينذرون واحداً من أولادهم للأزهر تقرباً إلى الله . ولكن الاختيار وقع على أصغر الأولاد ، دون أكبرهم الذى كان مهيئًا لهذه الدراسة ، ثم انقطع عن التحصيل والتعليم فى الأزهر ، لا لنفور منه ، أو لتخلف

عن ركب زملائه ، كما وقع لكثيرين ممن لم يطيقوا أسلوب التدريس فى الأزهر وفوضى التعليم وانعدام النظام فيه ، وسوء تأليف الكتب المقررة على الطلاب ، وإنما لسبب آخر أبعد ما يكون عن العلم والتعليم ، ذلك هو القتال السنوى الذى يقع بين (البحاروة) أهل الوجه البحرى من تلاميذ ، و(الصعايدة) أهل الوجه القبلى ، وقد كان الشراقوة ، أى أهل الشرقية ، ومنهم خالى حلفاء طبيعيين للصعايدة ، بدعوى أن الجميع (عرب) ، ولايبعد أن تكون القبائل التى انحدر منها أهل الشرقية هى القبائل نفسها التى صعدت فى النيل ووصلت إلى مصر العليا ، ذلك لأن وجوه الشبه كثيرة مثلا فى نطق الألفاظ وفى العادات بين أهل الشرقية والصعايدة . وقد يكون اتصال الشرقية المباشر بالصحراء الشرقية وقبائلها ، واستمرار الهجرة من الصحراء إليها هو الذى قارب بين الإقليمين . ولما كان أهل الصعيد ، أطول أجساماً ، وأقوى أبداناً ، فَقَدكانوا أقدر على القتال ، وأصبر على متاعبه ، وهذا كان يتطلب من حلفائهم أن يكونوا فى مثل شدة بأسهم وشجاعة قلوبهم . ويبدو أن خالى كان فى صباه أضعف من أن يكون مقاتلاً قويًّا ، فقد فَقَدَ على عامين متواليين عمامته ومركوبه أى حذاءه ، ورأت أمه أنه يحسن الاكتفاء بهذه البداية ، أى أخذ الأمر من قصيره كما نقول ، فحولت ابنها إلى المدارس المدنية ، فتعلم فيها حتى وصل إلى مدرسة الحقوق الملكية ، وتخرج فيها ، واشتغل محاميا فى مدينة الزقازيق .

والعجيب أننى لم أناقش خالى فى تاريخه فى هذه المرحلة من حياته ، ولم أسأله عن حياته فى الأزهر ، ولا عن هذه المعارك التى أجلته عن صحن المسجد العتيق العريق .

أقول عجيب حقًّا أننى لم أحدثه فى ذلك ، فقد كنت كثير الأسئلة لا أدع إنساناً تربطنى به صلة وأطمئن إليه قليلا حتى أحاول أن أعرف كل ما عنده ، بدون أن أبالى بضيقه ، أو على الأصح ، بدون أن أتنبه إلى هذا الضيق ، والعجيب أيضاً أن خالى على ما قام بيننا من الألفة والمودة ، حتى أصبحنا صديقين بحق على الرغم من فارق السن ، لم يخطر بباله أن يروى لى ، ولو طرفاً من حياته الأزهرية أكان فيها ما يخجله ، أكان لا يحب أن يعرف عنه أزهريته القصيرة العمر ، أم كانت فترة قليلة الأثر فى حياته فلم يجد فيها ما يروى على قدرته على الحكاية وحبه لرواية الطرائف .

على أن فى حياة خالى فترة أهم بكثير من تلك الفترة الأزهرية ، سكت عنها ولم يحدثنى قط عن شىء يتصل بها ، مع أن كل ما وقع فى حياتى بعد ذلك كان يستحثه على أن يشير إليها ولو باقتضاب .

فلقد علمت أنه مر بفترة زلزلت نفسه كثيراً ، تلك فترة الشك القاسى فى أصول الدين ، وفى العقائد السائدة فى المجتمع الذى ولد فيه وعاش ومات . وقد قيل لى إنه فى هذه الفترة كان لايستطيع النوم حتى خيف على عقله ، فانتزع نفسه انتزاعاً من هذه الهموم الروحية ، وقد نجح فى ذلك ، ولكن يبدو أنه قرر ألا يناقش هذه المشكلة ثانية ، لذ لم أسمعه يحدثنى فى الدين ، إلا كما يتحدّث فيه الناس وأغلب حديثه يدور حول واقعة فى تاريخ الرسول عليه الصلاة والسلام ، أو تفسير آية ، أو التعرف على حكم من أحكام الشريعة . أما العقيدة نفسها ، فلا حديث عنها بخير أو شر . ولكنه كان يصوم رمضان كما كان يفعل أخوه الأوسط ، وظاهرة صوم الذين لا يصلون فى مجتمع المصريين مشاهدة بوضوح ولعل مرجع ذلك أن الروح الجماعية فى رمضان تغرى بالصيام وتحببه إلى الناس لأن كل ما يتم فى رمضان يتم جماعيًّا ، وباحتفال عظيم . فالقيام فى السحور يتم بعد مدفع يضرب ، ومسحراتى يطبل وينشد ، وأهل البيت يستيقظون ، ويوقدون المواقد ، وتدب فى البيت الحركة . فإذا كانت ساعة الإفطار ضرب المدفع ، وهلل الأطفال ، وأذن المؤذنون ، وأنيرت المآذن ، وقدمت الأطعمة الخاصة برمضان وأنفق عليها المال الكثير ، فاذا فرغ الناس من الإفطار أوقدت الفوانيس فى أيدى الأطفال ، وطاف الكبار بعضهم على بعض يتبادلون الزيارات ، ويتناولون مشارب خاصة برمضان ، ويسمعون القرآن ، ويأكلون النقل ، ويسهر كل من فى الحى ، ويشمل الجميع روح من الفرح والبهجة لا يشهدها شهر آخر ، ولا يعرفها عيد من أعياد الغرب على حرصهم الشديد على الاحتفال بأعيادهم ، وتجميل أيام حياتهم . وقد كنت أسمع خالى يقول وهو يهم بالنوم أحياناً ، بسم الله الرحمن الرحيم ، ولا يزيد عليها شيئاً .

ولكنه كان حريصاً على أن يحيا حياته ، كما يطيب له . فهو يشرب الخمر ولكن بدون أن يكون مدمناً ، ولعل أكثر ما كان يشربه من الخمر هو البيرة فى الصيف . ولكنه لم يحتفظ قط بزجاجة ويسكى أو كونياك أو حتى نبيذ فى بيته . ولكن لا يبعد إن جمعه مجلس شراب بأصدقائه ، أن يشرب معهم .

وقد ألف فيما بعد ـ كل خميس يأتى فيه من الزقازيق إلى القاهرة حيث دراستى ثم عملى ـ أن يصحبنى إلى الملاهى الليليه المشهورة ، ولكنى لا أذكر أنه كان يشرب هناك الخمر .

أما جانب المرأة فى حياته ، فيختلف عنه فى حياتى أخويه ، فهذان بقيا كالراهبين حتى تزوجا .

ولكن الذى كان يحيرنى فى أمر خالى ، قناعته الزائدة التى حالت بينه وبين التقدم فى المحاماة وفى المجتمع . فهو بين أخويه ، وبين أكثر زملائه محب للكتب يشتريها ويجلدها أحسن تجليد ، ثم هو مرتب العقل ، حسن العبارة ، ورث عن أبيه قدرة بيانية كانت خليقة أن تنمو وتصقل ، لو اعتنى بها . وقد بدأ عمله فى المحاماة فى وقت كانت الأحزاب تتنافس فيه على المحامين ، وكان له من الأرض التى خلفها جده ركيزة يمكن أن يعتمد عليها فى الحياة السياسية ، ولكنه لم يفعل ، فقد كان يؤثر الراحة ، ويحرص على الدعة وخلو البال . إنما الغريب حقًا أن الحياة الحزبية بكل احتدامها ، والحياة السياسية بكل عنفها ، لم تمسا فى نفسه وتراً واحداً ، فقد كان ينظر إليهما بأقل مما ينظر المتفرج إلى أشباح السينما : تروح وتغدو وتظهر وتختفى ، وهو ساكن فى مكانه ، قد يضحك حيناً وقد يضيق صدره حينا آخر .

ولكنه فى مكانه لا يتحرك . وإنى لا أذكر أنه تحمس لحزب ، ولا لعضو فى حزب ولا لمقال فى جريدة ، ولا لخطبة من زعيم ، ولا شارك فى مناقشة حزبية ، وليس هذا عن تبلد فى الحس ، ولا نقص فى العاطفة الوطنية ، وإنما لاكتفاء شديد بنفسه ، وثقة كاملة بها ، فلا يهمه أحد من الصغار الذين يكبرون ، ولا ينفس عليهم تقدمهم فى المناصب ، ولا شهرتهم فى الحياة ، ولا يحس أنهم أفضل منه ، أو أن الواجب أن ينسج على منوالهم ، أو يحسدهم على ما حققوه من مال أو مكانة ، لذلك لم أسمعه يطعن فى أحد من الناجحين ، طعن المخفقين الحاقدين ، بل إننى لما اشتغلت بالسياسة ، وسمعنى أخطب ، وقرأ لى ما أكتب ، كان يفرح لى ويفرح بى ، بدون أن يقف موقف المؤيد أو المعارض أو الموجه لى فى نشاطى السياسى . فقد كان المهم عنده أن يرانى ناجحاً ، ومسروراً وسعيداً بنشاطى . وحدث أن ترافعت معه مرتين ، فقد نى على نفسه ، وتكلم بعدى فأحسن الكلام ، وسد النقص الذى

تركته ، ولم يعلق على هذا كأن شيئاً لم يحدث . والحق أن هذه قوة خلق لم أر لها مثيلا فى الناس الذين عاملتهم واتصلت بهم ، سواء كانوا من الأقارب أو الأباعد .

وقد تأملت طويلا فى مصدر هذا الخلق الجيد ، واهتديت بعد طول التأمل إلى أن هؤلاء الأشقاء الثلاثة كانوا رجالا جادين لم تشغلهم المظاهر قط ، ولم تخطف أبصارهم أنوار المناصب الكبيرة أو شهرة الأسماء الذائعة ، مع قناعة مادية ، حمتهم من التردى فى حمأة التزلف أو التفريط فى الكرامة . ولكنى أرانى آسفاً لأن هؤلاء الرجال كان ينقصهم جميعاً شىء من الطموح ، إذ لو آتاهم الله قدراً منه لكان أكبرهم شيخ طريقة نقية صالحة ، محبة للخير ، ساعية لمصلحة الفقراء والمجهولين ، ولكان الثالث محامياً ذا شأن ، ينفع الناس بلسانه وقلمه ، وعقله ، أما الأوسط ، فقد أتيح له أن يصل إلى مكانة لا بأس بها فى عمله ، وإن كان جديراً بأن يزيد نفعه للناس ، لو وصل إلى أعلى مما وصل ، ولكن الذى شغلنى حقًّا ، هو مواقف الإخوة الثلاثة من الدين .

فأحدهم متدين متصوف ، كل نشاطه موجه إلى الدين ، منصرف إلى عالم الآخرة ولذائذه : لذائذ الروح من صلاة وتهجد ، وصوم وتعبد ، وزيارة للأضرحة ومشاركة فى مجالس الذكر ، وسير وراء شيخه . ثم هو آخر الأمر صادق العقيدة نظيف اليد واللسان يجدّ فى خدمة الناس حقا ، بلا نظر لمكافأة أو أجر أو مثوبة أو كلمة شكر . لا يعيبه إلا « دروشته » .

والثانى مقطوع الصلة بالدين تماماً ، ولكنه أمين صادق محب للخير ، نافع لأهله وللناس ، حسن التقاطيع ، حسن المظهر ، كل ما فيه عادى وطبيعى .

والثالث انتابته شكوك العقيدة الدينية ، فأرقته طويلا ، وانتهى به الأمر إلى أن نفض يده منها ، ولكن فى صمت تام ، واحترام كامل لمشاعر الذين حوله ، وقد خرج من هذه التجربة ، لا درويشا كأخيه الأكبر ، ولا سلبيا كأخيه الأوسط ، ولكنه صاحب موقف ، وعقيدة . ولكنه موقف لا يعلن عنه ، وعقيدة لا يصرح بها وإن كان يلتزم حكمها ، ويعمل بمقتضاها .

وقد استوقفنى شىء آخر فى حياة الأخ الأكبر ، ذلك أنى لم أسمعه قط يتحدث

عن الحج ، لا على سبيل الأسف لأنه حرم من أداء هذه الفريضة ، ولا على سبيل التمنى ، وهو لو صدق العزم عنده على الحج لحج ، مهما كانت موارده قليلة ، ومطالب أولاده الأربعة كبيرة . أفيكون هذا دليلا على صدق عقيدته ، وخلوها من التظاهر والمراءاة ؟ لأنه يعلم أنه ليس لديه فائض يحج به ، فحرام أن يحج بالدَّين ، أو أن يحج على حساب ضرورات الحياة . . . والله أعلم !

شخصيّة حيّ

انتقلنا من الجيزة إلى منزل فى شارع سلامة ، بحى السيدة زينب ، ثم بقينا ننتقل فى بيوت بهذا الحى ، ولما كبرت أختى الكبرى ، وتزوجت ، قضت وقتاً فى الأرياف ثم انتقل زوجها إلى القاهرة فأقامت فى الحى نفسه ، ثم أقام خالاى الأكبر والأوسط فى هذا الحى ذاته ، وكانت جدتى تقيم فيه أيضاً قريباً من بيتنا فحى السيدة زينب ، كان لنا بمثابة وطن . .

وحيّ السيدة زينب بين أحياء القاهرة ، أكثرها تفرداً وامتيازاً . فهو حى الأغنياء الذين لا يعرفون كيف ينفقون ثرواتهم ، وحى الفقراء الذين لا يجدون قوتهم : يعيشون فى قلعة الكبش ، وقلعة طولون ويمارسون مهناً أقرب إلى الجرائم ، فمنهم القرداتى ، وصاحب (القره قوز) والحاوى وضاربة الودع ، وآكلوا النار ، والرفاعية الذين يستخرجون الثعابين من المنازل والمهرجون والرقاصون ، ومن هؤلاء جميعاً نشالون ولصوص منازل ، وخاطفو أطفال وقوادون صغار ، ومديرو بيوت للبغاء السرى . بل إن فى قلعة الكبش ، خياماً لممارسة الدعارة الرخيصة . وفى شارع من شوارع الحى وهو شارع الصليبة ، كان يقوم مستشفى الحوض المرصود ، لمعاجلة البغايا فى عهد البغاء الرسمى العلنى . وكان لهن موكب معهود فى الذهاب إلى المستشفى والعودة منه . على عربات (كارو) يجلسن عليها صفوفاً وعلى وجوههن القبيحة الذابلة ، طلاء أحمر فاضح وأبيض صارخ يزيد دمامتهن نفوراً ، أو يستثير فى قلوب ذوى الرحمة الحنان والشفقة فإذا خرجن من المستشفى ، وقد ثبت

للطبيب (طبيب المحافظة) أنهن خاليات من الأمراض السرية ، ولم يحتجزهن ، عدن على نفس العربة وهن يغنين بصوت مسلوخ : سالمة ياسلامة ، رحنا وجينا بالسلامة ، وكنا نسمع هذا الغناء ، ولا ندرى له معنى ولا نسأل من يكن أولئك المغنيات النحيفات المهزولات اللواتى يشبهن المريضات .

وفى حى السيدة زينب شياخات ، كل منها له ذاتيته المميزة ، ومن هذه الشياخات ، شياخة « المدبح » حيث تذبح الذبائح التى تطعم العاصمة جميعاً باللحوم ، وكان لعربات المذبح ، موكب رهيب ، يخترق شارع زين العابدين الذى يبدأ بميدان المذبح ، وينتهى بميدان السيدة زينب ، وهى عربات خضراء من الخشب ، غير المتماسك ، توضع فيها الذبائح وتجرها جياد ضخمة ، يقودها جزار ، متمنطق بحزام هو سلسلة حديدية ،يتدلى منها (ساطور) أو (مستحد) وهو أداة تسن عليها السكاكين ، والحزام يدور حول وسط جلباب أبيض ، تلوثه الدماء وتنطلق العربة ، تكاد تتفكك أجزاؤها بعضها من بعض ولكنها تبقى متماسكة لسر غير معلوم ، ولا يفعل مظهر تفككها هذا شيئاً إلا أن يزيد خوف المارين فى الطريق والسائرين على الأفاريز ، من شر تناثر أجزاء العربة ، التى تمضى تنهب الشارع نهباً وصراخ قائدها يبلغ عنان السماء يؤيده صراخ آخر من جزار شاب ، يجرى بجانب العربة ويقود الحصان .

وفى أرض المذبح ، تقام عادة خيام (السيرك) حيث شاهدنا الأسد المصرى (عبد الحليم بك المصرى) والنمر السورى (يوسف أفندى برزه) .

وفى حى السيدة أنصاف أحياء تعرف تارة بالجناين ، وأحياناً أخرى بالعمارات وثالثة بالأحواش ، ولكل منها شخصية خاصة به ، فمن الجناين مثلا جنينة ياميش وجنينة لاظ ومن العمارت ، عمارة البابلى ، ومن الأحواش حوش أيوب بك ، ولهذا الأخير دور خطير فى حياة صبيان وشبان شياخة البغالة من حى السيدة زينب ففى هذا الحوش يتخرج لاعبو الكرة فى ديمقراطية طبيعية تلقائية . تدل على طبيعة أهل الحى ، بل طبيعة أهل القاهرة ، بل أهل مصر جميعاً . ففى هذا الحوش يلعب أبناء الجزارين والبقالين وسائقى عربات (الحنطور) و (الكارو) ، وأحياناً أبناء اللصوص والنشالين والذين لاعمل لهم ، مع أولاد المدارس من أبناء المهندسين

والقضاة والأطباء ، وأبناء بعض البيوتات القديمة التى قلت ثروتها ، وبقيت تقاليدها ، ويلعب الصبيان فى هذا الحوش ، بدون صدام أو عراك ، وبدون الشعور بالحاجة إلى إدارة تنظم اللعب فيه وتتكون الفرق المؤقتة وشبه الدائمة ، وتجرى مباريات بينها وتغلب وتهزم وتتشاجر وتنفض وتأتى غيرها . وكل شىء يقع ببساطة وسهولة . ويتفق الصبيان الصغار على مباريات الكرة ـ بين فرق صغيرة ـ منهم تتكون من ستة لاعبين مثلا وتسمى (السداسيات) ، أو (أربعة) وتسمى (الرباعيات) يجمعون بعضهم من بعض قروشاً يشترون بها جوائز تمنح للفرقة الفائزة وتجرى المباريات ، وتتم التصفيات ويعرف الغالب من المغلوب ، ويتلقى الأول الجوائز ، ويتلقى الثانى التعازى ، ولا شجار ذو بال يقع .

وإلى هذا الحوش تأتى أحياناً شخصيات أكبر من اللاعبين العاديين فيه ، فمثلا قد رأيت يوماً عبد الله شداد ، وكان فى تلك الأيام ملحناً معروفاً ذاعت له بعض أغانى ثورة سنة ١٩١٩ ، كما رأيت محمد صلاح الدين وكان بطلا للملاكمة ظهر فى بعض المباريات المحلية وفى الخارج ، ونشر له صور . وعندما كانت تجرى مباريات بين النشء الأخير من جيلنا ، يصطف المتفرجون من الصغار والكبار فى نظام يحسدهم عليه الآن أهل القاهرة .

وإنى لأرى الآن بعين الخيال سفراء لمصر ، ووزراء ونواباً لرئيس الوزراء وأساتذة فى الجامعات ، ومحامين وأطباء ومهندسين وصحفيين كباراً ، وهم يلعبون بجلابيبهم كرة القدم فى حوش أيوب بك ، إذ كانوا فى سن الصبا .

والحق أن تأملى فى هذا الحوش الفريد وفى أثره فى حياة أهل الحى من الصبيان والشبان ، يوحى إلىّ بأفكار لاتنفد . فمثلا يحق لهذا الحوش أن يبهرنى ويبهر سواى بذاتيته واستقلاله ، الذى يحسده عليه ـ قطعاً ـ أكبر الأندية لا فى مصر وحدها ، بل فى العالم كله . فنحن لا نعرف لهذا الحوش صاحباً ، ثم إنه بلا خفير ولا حارس ولا مشرف.حتى الحكومة لا تلمح لها صلة به ، أو اهتماماً بشأنه ، كأنه قطعة انفصلت عن مصر ، وعاشت وحدها لجماعة من أهل هذه الأمة العجيبة ، فى هذا الحى الفذ ، بل لست أذكر أن عسكريًا واحداً مر بهذا الحوش مرور العابرين . وعلى

كثرة ما وقع فيه من مصادمات صغيرة ، فإن الإسعاف لم تجد ما يدعوها إلى الاتصال بهذا الحوش لتنقل جريحاً أو لتضمد جرحاً .

ثم أين اللجنة أو الهيئة التى تدير هذا الحوش ؟ إن أساتذة القانون الدستورى يعدون المدن الإغريقية المثل الأعلى فى الحكم الديمقراطى ، فقد كان أهل المدينة جميعاً يجتمعون ليتداولوا فى أمورهم ، ويصدروا القرار الذى يحلو لهم : لا ينتخبون عنهم نائباً ، ولا يفوضون ممثلا ، فيتقون بذلك عيوب الانتخابات التى يفوز فيها فى أحيان كثيرة أصحاب الألسنة النشيطة والوجوه الصفيقة ، ويسقط فيها أهل الحياء والتواضع ولكن أرى أن حوش أيوب بك ، قد فاق المدن الإغريقية فى ديمقراطيتها ، إذ إن الحكومة فيه ، احتجبت عن أعين المحكومين ، فكأنها زالت من الوجود ، وهذا أعظم ما يطمع فيه المحكومون : لا يحسون بالحكومة ولا يشعرون بوطأة يدها على أكتافهم ، ثم تسير الأمور مع ذلك ، سهلة ميسرة ، لا تصادم ولا مشاحنات ، ولا تتعطل مصالحهم وتتعثر .

ألف تحية لحوش أيوب بك .

ألف تحية لديمقراطيته التى لم نر لها بعد ذلك فى حياتنا مثيلا .

ألف تحية لخدمات حوش أيوب بك لصبانا وطفولتنا .

ألف تحية لهذا المالك العجيب الذى ترك هذه الأرض ، لاينتفع منها بقرش ولا يفرض عليها ضريبة ولا يرد راغباً فى خير .

ولعل الحق يقتضينى أن أعترف أننى لم أفكر طوال صباى ، فى أن هذه الأرض يمكن أن يكون لها صاحب . أليست هذه الحقيقة أيضاً دليلا على اشتراكية حوش أيوب بعد ديمقراطيته ؟! فلكل حسب حاجته . هذا كان دستور صاحب هذه الأرض المقدسة فالأغنياء عند هذا الحوش كالفقراء الجميع يعدلون لايتقدم أحدهم على الآخر ، ولا يدعى أن له حقا أكبر . والجميع يحبون هذا الحوش ولا يأنفون منه ، ولا يتعالون عليه .

وعلى الترتيب المنطقى للأمور كان يقتضى أن أبدأ بمركز الحى ، أى سرته كما يقول أهل القاهرة عن الميادين الكبرى فى بلدتهم العتيقة والمجيدة فسرة الحى أو البلد هو أكبر ميادينها ، أو أوسع شوارعها ، إذا لم يكن فى الحى ميدان .

وميدان السيدة زينب ، كالحى نفسه ، يجتمع فيه القديم والجديد ، والدين والدنيا ، والتطهر والفساد بغير دعوة من أحد ، فى هدوء وانسجام كأحسن ما يكون التعايش والوئام ، كأن هذه الأشياء ليست أضداداً ، وكأن الواحد منها لم يأت ليقتلع الآخر . فنحن نرى مسجد السيدة زينب ، بواجتهه الجميلة البسيطة ، ومئذنته الرفيعة الرشيقة ، فتتداعى أمامنا صور الجهاد الإسلامى الأول ، وتهل علينا طلعة الرسول الفياضة بالنور ، المشرقة بالطمأنينة ، ثم نرى فى الحال ، صورة الإمام على ، ثم صورة ابنة الحسين ، وابنته زينب ، ويتعطر الجو ، بعبير التضحية والاستشهاد ، وإنكار النفس ، والفرار من الدنيا ، دار الغرور . ثم نرى إلى جانب هذا المبنى الوقور الوديع الرفيع ، مبنى آخر هو قسم السيدة زينب ، فنسمع ونرى منه ، وحوله ، لغطاً وضرباً بالأرجل وصفعاً بالأيدى ، وأناساً يسحبون على وجوههم وألفاظاً كالرصاص الطائش تتناول العرض ، وتجرح الأذن ، وتدمى الحياء ، ونرى ما هو أمرّ وأدهى ، إذ احتل الإنجليز فى أيام صبانا الباكر القسم وجعلوه مقرًّا لجنودهم بخوذاتهم الحديدية ، ووجوههم الحمراء ، وكان القسم بكل ما فيه ، يقول للمسجد بكل معانيه : لقد انتهى عهدك ، وبدأ عهد جديد لا يفهم هذا الذى ترمز إليه ، فى أن ما عند الله يبقى ، وما عند الناس ينفد . فالأيام دارت ، والشهوات سادت ، ولم يعد الدين أساساً للحياة ، ولا حافزاً لهمة ، ولا مثلاً أعلى لأمة ، وإنما هو واحة يلجأ إليها المتعبون ريثما يستعيدون قدرتهم على الصراع من أجل أغراض الدنيا البراقة الجذابة . وفى الميدان خمسة عصور فى شكل خمسة وسائل للنقل : فقد كان فيه موقف للحمير ، وموقف لعربات الكارو ، وموقف لعربات الحنطور ثم موقف لسوارس ، ثم محطة ترام رئيسية . ولكل هذه الوسائل طالب يطلبها : الحمار يمثل القرن السابع عشر . وعربة الكارو تمثل أوائل القرن الثامن عشر ، وعربة الحنطور تمثل منتصفه و (سوارس) هو (أتوبيس) تجره البغال كان يملكه يهودى ، أثرى ثراء فاحشاً حتى أطلق اسمه على ميدان القاهرة ولم يزحزحه عنه إلا اسم « مصطفى كامل » فأطلق عليه بدلاً منه ، والترام يمثل القرن التاسع عشر وفى محطة الترام تقف سيدات يلبسن الملاءة اللف ، وسيدات يلبسن (الحبرة) و (التزييرة) والبرقع الأبيض ، يغطى بعض وجوههن ، ويزيد عيونهن المصرية جمالاً وفتنة ، وإلى جانب هؤلاء جميعاً . يهل القرن العشرون فى صورة فتيات مدرسة السنية حاسرات الوجه ، يطلبن العلم فى استحياء ، وكأنهن يغافلن

الزمن ، ويخطفن الخطو إلى دنيا المستقبل . . وإلى جانب هؤلاء جميعاً رجال كأنهم شخوص فى متحف : لابس العمامة والجبة والقفطان ، ولابس الجلباب والعمامة البلدى ، ولابس الطربوش على الجبة والقفطان حيناً ، وعلى الجلباب البلدى حيناً آخر ، ولابس اللبدة ، والطاقية واللاسة ، وأخيراً لابس البذلة الإفرنكية وبعض لابسى هذه البذلة لا يقنعون بها دليلاً على تفرنجهم إذ يأبون إلا أن يقيمو أطراف شواربهم كحد السكين بما يتهيأ لهم من أسباب التطرية والتلميع ، التى كانت الألسن تتداولها بلفظها الأجنبى (جوزماتيك) .

ويتناثر حول الميدان عدد من المحال التجارية والمقاهى كل منها يمثل عهداً ، فالصيدلية هى القرن العشرون بما تقدم من دواء حديث فى زجاجات وأنابيب وعلب وصناديق من صنع الحضارة الحديثة ، وتطبيقاً للطب الحديث ، إلى جانبها عطارون يبيعون أدوية وعلاجات القرون الخالية ، مع توابل وبهارات ، لا تنفد الحاجة ، إليها ولا يشبع من تناولها وحدها أو مخلوطة بالأطعمة والأشربة ، أهل المزاج و « الكيف » ، فيما يؤكل ويشرب ، وإلى جانب هذا صالون حلاقة حديث ، يسدل على بابه خيوط انتظمت كرات صغيرة ملونة حمراء وصفراء مثقوبة ، تحدث صوتاً عند الدخول والخروج وتمنع الذباب ، وإلى جانبه حلاق يكتب على بابه لوحة أنه طالب « عفو الخلاق الأسطى محمد عجورة الحلاق) . وليس هو مزيناً للرؤوس والشوارب فحسب ، بل إنه أكثر من طبيب ، فهو يبيع الدود الرومى ، ويخلع أسنان الزبائن بدون « بنج » ويباشر أعمال الحجامة أى فصد الدم الزائد ، والفاسد بالموسى ، ويزين داخل الجسم للرجال ، فينتزع عنها شعرها الزائد ، ويصنع الدهون للتقوية ، ولإزالة الرطوبة ، ولتجديد الشباب ، ويروى الفكاهات اللاذعة التى تجدد الحيوية ، وينشر الإشاعات اللاسعة التى تشبع الفضول ، ويحكى أسرار البيوت والعائلات التى تنفى الملل ، ويشتغل سمساراً ووسيطاً ، يجمع الرءوس فى الحلال ، ولهذا استطاع محل الحلاقة البلدى أن يصمد طويلا أمام الصالون الإفرنجى ، وإن كان الأسطى فى الصالون الأخير ، حينما تحضرّ وتهذب حمل معه تراثه القديم ، فترك الدود الرومى وخلع الأسنان ، ولكنه لم يكف عن الثرثرة واقحام نفسه فيما لا يفيد ، وشرح بواطن السياسة وخوافيها ، لاسيما ما كان منها متعلقاً بالسياسة الدولية وما تعلق من السياسة الدولية بالحروب والمعارك العالمية .

ويتسرب إلى الميدان أحياناً بعض نشاط الحوارى والأزقة ، وإن كان ذلك قليلا ، فنرى فى أطراف الميدان (القرداتى) مع قرده وحماره وصاحب (الأراجوز) مع دولابه ، والحاوى مع جرابه ، وضاربة الودع على رأسها مقطفها ، والغازية ووراءها المعجبون بفنها ورقصها . وقد تمر فى الميدان بسرعة خاطفة ، المواكب التى تتزعمها الشخصيات الفذة فى الحى ، والتى سيأتى حديثها فى حينه .

ولما كانت يد التنسيق والتنظيم لا تمتد إلى الميدان إلا بأقل القليل ، فإن كل شىء يقوم فى الميدان ، ويأخذ مكانه اعتباطاً ، فنرى الحوانيت تتجاور بلا منطق مفهوم أو خطة موضوعة ، فالمكتبة التى تبيع الكتب المدرسية مثل مكتبة رياض بجانب (مسمط) يبيع الكوارع والكرشة ولحمة الرأس وحانوتى السيدة زينب الذى يقوم بالخدمة الجنائزية من تكفين الموتى وتقديم النعوش وتوريد نوع من العمال انقرض وانطوى عهده ، وهو نوع يضحك على الرغم من شدة اقترانه بالمآسى والأحزان ونعنى به حملة القماقم ، وهؤلاء قوم لا يصحلون لعمل ، ولا يقوون على جهد ، نبذتهم الحياة ، فى ريعان الشباب ، أو فى خريف العمر ، فأصبحوا لا يقدمون للناس إلا خدمة لا تقع على شرح لها فى القواميس ، هى السير أمام الجنائز ، وأصحابها يرتدون حُللاً (بذلات) سوداء المفروض أنها من طراز الردنجوت ، الطويل الوقور ، ويحملون فى أيديهم مباخر ، تفوح منها رائحة الأعشاب الهندية والجاوية سيراً على المذهب الفرعونى ، الذى يعد إحراق البخور ، طقساً من طقوس الدفن ، أو تطييب روح الميت ، ولكن مع دوران الأيام تصبح « البذلات » السوداء الوقورة ، خرقاً لا لون لها ، مهلهلة لا تكاد تتماسك تماماً كلابسيها ، الذين لا نكاد نرى لهم عيوناً ، لطول ما شربوا المكيفات والمنومات ! وأما أحذيتهم ، فهى القمة الكبرى فى أناقة هؤلاء الذين يدعون لإضفاء الوقار والجلال على جنازة لا وقار فيها ولا جلال فأصابع الرجلين تطل ، فى غير مواربة ولا حياء ، من الأحذية وكأن الأحذية ضاقت بها لفرط الحزن ، أو لطول الحبس ، والمباخر نفسها زال لونها الفضى ، فأصبحت مجموعة من الألوان ، وخلت من البخور ، وقنعت بالتأرجح الضعيف فى أيدى حامليها ، ولو رأى هذا الموكب ، أجنبى غريب عن مصر ، لظن أن هؤلاء المساكين من أهل الميت ، وأن البكاء ورم عيونهم وأهزل جسومهم أو أنهم موتى بعثوا من القبور .

وكما يرود حانوت السيدة هؤلاء الرجال فإنه يورد للمنازل النادبات ، وهن طراز من الفنانات ، يغنين البكائيات ، ويثرن الأحزان ، ويستدررن الدموع من العيون العنيدة ، وإلى جانب هذا الحانوت ، يقوم مكتب الموسيقى الأهلية ، التى تستأجر فى الأفراح والمآتم على السواء فتعزف على باب (العريس) فى ليلة الزفاف أدواراً ، بهيجة وتوقع فى مواكب دفن الصبيان والشباب الصغار أنغاماً حزينة ، ومن خلف هذا الموكب ، تركب النسوة على عربات كارو ، وقد طلين وجوههن بمنقوع نبات النيلة ، على طريقة جدات جداتهن الفرعونيات . وإلى جانب هذا الدكان يقوم محل وجيه ، تزدان واجهته فى المولد النبوى والمناسبات الدينية والقومية بالكهرباء ، ويقف على بابه رجل عريض الكتفين ، واسع الصدر ، بين الطويل والقصير قمحى اللون ، حلو التقاطيع ، يلبس قفطاناً وجبة ، تفوح منها رائحة خاصة ، ويقوم فى صفحة الوجه كالديدبان الساهر على الأناقة شاربان رفيعان حادّان كنصل السيف . ذلك هو محل (الزفتاوى) ، الذى حقق شهرة كبيرة وربحاً عظيماً ، والذى فتن صاحبه غانيات الحى ، من لابسات (الملاية اللف) بحلاوة ترحيبه بهن ، وبطرائف مايقدمه إليهن .

وفى ضلع من أضلاع الميدان الذى لا تعرف له شكلا هندسيًّا ، فلا تدرى أهو مربع أم مستطيل أو مثمن ، يقع دكانان كأنما يكمل أحدهما الآخر : الأول يبيع أنواعاً من المشروبات المثلجة فى آنية من نحاس أبيض ، يسمى كل إناء منها (بالسطل) ويحتوى كل سطل على قدر من شراب (الشعير) أو(الخروب) أو (العرقسوس) ، قل أن تجد فى هذه الأسطال عصير البرتقال أو عصير المانجة .

أو العنب ، فهذه كلها لم تكن تعرف فى تلك الأيام ، و لايقبل على شربها الجمهور ، وقد بدأت فى منافستها آنذاك المياه الغازية التى بدأ ينتجها الأخوان (سبيرو اسباتس) و (نقولا اسباتس) . أما الدكان الثانى فكان يبيع الحلويات المصرية :

أقراص السمسمية والحمصية والعلف ، فى أيام الموالد والأعياد الإسلامية ، ويبيعها مع غيرها من الحلويات المصرية كالهريسة والبسبوسة والبقلاوة الجوزية وألوان الملبن المحشو باللوز والجوز والبندق المخلوط بماء الورد ، والمصنوع على شكل حبال ، وعلى شكل مربعات ، وللملبن أسماء ، فهو ملبن وهو (لكوم) ويقال إنها كلمة

تركية أصلها (راحة حلقوم) فانقلبت القاف كافا ، وحذفت بعض الأحرف للتخفيف ، فأصبحت (لكوما) .

وفى الميدان أكثر من مقهى ، المقهى الإفرنجى ورواده أكثرهم من موظفى الحكومة ، يفدون تباعاً ابتداء من الساعات الأولى للأصيل ، يشربون القهوة ، ولا يطلبون الشاى ، إذ إنه لم يكن مشروباً شائعاً فى تلك الأيام ، ويشربون مع القهوة الكازوزة ويطلبون لأولادهم إن اصطحبوهم معهم إلى المقهى أحياناً (اللكوم) ثم يدخنون النارجيلة ويقرءون جريدة المقطم ، عندما كانت جريدة المساء الوحيدة ، ثم قرأوا بعد ذلك معها البلاغ ، حينما ظهر البلاغ ، وفى خلال الثورة ، كانت تصدر جرائد مسائية كالمحروسة والنظام ، فكانت تنافس المقطم . ويلعب رواد « القهوة الإفرنكى » الطاولة وقد يلعبون (الدومينو) قليلا ويلعبون الورق فى النادر .

وفى الناحية الأخرى تقع القهوة البلدية ، وغالباً ما تكون أرضيتها طيناً بلا بلاط ولا رخام . تتوزع فى جنبها كراس من الخشب ، وقواعدها من قش القصب أو الغاب ، وموائدها ذات أقراص نحاسية وقوائم حديدية ، ولا تشرب فى هذه المقهى القهوة إلا قليلا وإنما يشرب الشاى الأخضر والأحمر فى أكواب صغيرة ، ويشرب الزنجبيل والقرفة ، ولا يلعب النرد أى الطاولة إلا نادراً ، فالورق والدومينو ، هما اللعبتان المفضلتان لأبناء الشعب ، وتناظر الجوزة فى المقهى البلدى ، النارجيلة فى المقهى الإفرنجى - وهما شىء واحد ، غير أن النارجيلة تصنع من الزجاج ، ويركب فيها خرطوم من المطاط ، وينتهى بمبسم فاخر من العاج فى حين أن الجوزة تصنع من كرة من الصفيح ويركب عليها غابة ، تقوم مقام الخرطوم المطاط ومبسمى العاج .

وفى أطراف ميدان السيدة زينب يقع دكان أو اثنان من هذه الدكاكين ، تنتشر أصلاً فى شارع السد البرانى الذى ينتهى إلى الميدان ، وهى دكاكين لا أدرى هل انقرضت أو لايزال بعضها قائماً ، فى حى (الصاغة) وحده . فهى دكاكين تجار مصوغات الذهب من عيار منخفض ، أو من نحاس مطلى بقشرة من الذهب ، ويعرف بذهب القشرة ، وقد راجت فى تلك الأيام مصوغات شركة اتخذت

« السمكة » شعاراً لها ، وعلامة تجارية مميزة ، وأصبحت هذه الدكاكين تبيع هذه المصوغات للعاملات فى المنازل ، وزوجات العمال ، كما تبيع للريفيات الحلقان والكرادين الثقيلة من هذا الذهب الرخيص ، ولكن العمل الاساسى لهذه الدكاكين هو عملية الإقراض بضمان مصوغات ، وبفائدة مرتفعة ، وكان أصحاب هذه المحلات جميعاً من اليهود ، وكانوا غالباً من الشبان الصغار : بيض الوجوه ،مليحو التقاطيع ، يروجون تجارتهم بالغزل الصريح والمستور مع الفتيات اللواتى يفدن بالعشرات على هذه المحلات ، يتأملن فى المصوغات ، ويشترين ويقايضن ويرهن ويستدن . ويرضين عواطفهن بأيدى شابة تمتد إلى أيديهن فى أثناء تناول المصوغات ولبسها فى الأيدى والآذان وحول الأعناق . وفى هذه الأثناء تتصاعد أصوات الفتيات السعيدات بالحلى ، وباقتراب الجسد الشاب الفياض بالحرارة ، بالاحتجاج المزوج بالضحك .

ولم يبق فى الميدان إلا معْلمان من أكبر ماله ، المدرسة الابتدائية ثم المسجد نفسه ، بمئذنته الرفيعة الرشيقة ، وقبته الوقورة المهيبة .

وكانت مدرسة محمد على الابتدائية ، هى المدرسة الأميرية الوحيدة فى الحى كله . ولم يكن يناظرها ، ولا يدانيها فى المقام مدرسة أخرى ، ولم تكن هناك مدرسة ثانوية ، تسابقها وتتقدم عليها ، ولذلك إذا قيل (المدرسة) فى حى السيدة عرف السامع أنها مدرسة محمد على .

ومدرسة محمد على ، لم تكن مدرسة ككل المدارس ، لأنها لعبت فى تاريخ الرياضة البدنية دوراً خطيراً ، إذ أخرجت أبطالاً فى كرة القدم ، والألعاب السويدية وفى مجال الكشافة . كان أهل الحى كله يحبون كرة القدم ، وكانت الحوارى والشوارع ميادين لهذه اللعبة ، وكان حوش أيوب بك الذى حدثتك عنه (مشتلا) لأبطال وأشبال هذه اللعبة . أراد الله أن يبعث إلى مدرسة محمد على مدرس لغة إنجليزية اسمه (حسين سليمان) ، كان يحب كرة القدم أكثر من حبه للغة الإنجليزية ، فأعطاها من قلبه ونفسه ما جعل هذه اللعبة هوى كل تلميذ ، بل كل موظف فى المدرسة من المدرسين إلى الإداريين إلى الفراشين بل لقد رأيت زميلا لنا بإحدى قدميه عاهة ، لا يسير إلا قفزاً ومع ذلك ينافسنا فى ميدان الكرة ويغلبنا ، وقد

أضاع هوى هذه اللعبة على زميلنا الجليل الدكتور عبد الحميد يونس نور عينيه . . والطريف فى الأمر أن حسين سليمان ، كان يعد تدريبات كرة القدم ، درساً ، فكان يدرب اللاعبين بعصا من الخيزران ، يضربهم بها بعنف إذا أخطأوا ، وكان الخطأ فى الكرة أشبه شىء بجريمة ترتكب أمامه ، فقد درج على أن يندفع إلى اللاعب المخطىء وعلى وجهه من علامات الضيق ما يدل على أنه كان يعانى من رؤ ية أخطاء الكرة ، ولما كان التدخين ممنوعاً أمام التلاميذ فى الصباح ، فقد كان يعوض حرمانه منه فى القسم الأول من النهار ، بالإسراف فيه فى النصف الثانى منه ، إذا جرت التدريبات بعد نهاية اليوم الدراسى . لقد خرج من تحت عصا حسين سليمان لا عبون دوليون على رأسهم محمود مختار (التتش) ومصطفى كامل طه الذى كان يسمى « صاحب الأقدام الذهبية » ، كما خرج بفضل هذه العصا لاعب كان يمكن أن تكسف شمس مجده الرياضى كل هذه النجوم ، إلا أنه هجر كرة القدم إلى التنس والبلياردو ، فوصل فيهما إلى أعلى المراتب ، وأعنى به محمود طلعت بن أحمد باشا رئيس محكمة استئناف القاهرة .

وقد انتقلت عدوى الاهتمام بالرياضة من حسين سليمان إلى زميله فى المدرسة عبد الحميد حلمى ، إذا لم تكن الذاكرة قد خانتنى . وقد كانت مدرسة محمد على تسبق مدارس القاهرة جميعاً فى مباريات الألعاب السويدية التى كانت تعرف فرقها المدرسية باسم (القسم المخصوص) . ثم كمل الثالوث الرياضى بعباس حلمى أحد رواد الكشافة فى مصر ، فقد قام على إعداد فرقة كشافة بمدرسة محمد على ، كانت نموذجاً لفرق الكشافة فى المدارس الابتدائية ، كانت تقوم بين المدارس مباراة على كأس ضخمة من الفضة . وكانت هذه الكأس فى أكثر السنين إن لم تكن فيها كلها من حظ مدرسة محمد على الابتدائية . ولست أنسى يوم المباراة الأخيرة على أرض النادى الأهلى فقد كان الناس يتزاحمون ليأخذوا مكانهم فى هذا الملعب ، ولم يكن شهود هذه المباراة مقصوراً على تلاميذ المدارس ، بل كان جمهور هذه المباراة يضم وزير المعارف مع باعة الصحف وأصحاب الحرف الصغيرة وفى ختام هذه المباريات وبعد أن تحمل الكأس إلى المدرسة ونحن حوله ، نقفز ونصرخ ونستأجر عربات الحنطور ، ونزينها بالأعلام الصغيرة وننشد نشيدنا المحبب : (ياحنى ديل العصفورة ، محمد على هى المنصورة ، والناصرية هى المكسورة » .

هذا فى مباراة الكرة ، فإذاعقد لنا النصر فى الألعاب السويدية على مدرسة عباس مثلاً ، وظفرنا بالدرع الفضية التى كانت تسمى بالصينية هتفنا « صينية وكأس غيظة فى عباس » أما إذا كان النصر قد كتب لنا على القربية عدلنا الهتاف إلى : « كأس وصينية ، غيظة فى القربية » .

وإنى لأعتقد أنه نجاح ما بعده نجاح للرياضة فى تلك الأيام أن تكون المباراة بين المدارس الابتدائية ،محلاً لاهتمام الشعب ، مدفوعاً من تلقاء نفسه ، بغير إغراء من صحيفة ولا من سلطة .

وإذا كانت الكرة لعبة شعبية أشبه شىء بمعركة بين جيشين فيها هجوم ودفاع ، وهى بهذا قادرة على أن تستثير حب الناس وحماستهم ، فماذا تقول فى اهتمام الشعب أيضا بمباراة الفرق المدرسية فى المعاهد الابتدائية على الدرع الفضية التى عُرفت بين الشعب باسم (الصينية) والتى خصصت بالمسابقة بين هذه المعاهد فى الألعاب السويدية ؟

ولقد أثمرت هذه الروح الرياضية التلقائية فى أن تكون للرياضة فى مصر مجلة أسبوعية رائجة ، هى مجلة المضمار التى كان يصدرها حبيب أسعد داغر ، بلغة عربية صحيحة وينشر فى صحفتها الأولى صور فرقة مدرسة ابتدائية ظافرة .

ولكن لابد أن نذكر لمدرسة محمد على الفضل فى بذر بذور هذه الروح وفى تعهدها وإشاعتها بين الناس . ولهذا كان من حق الحى فى السيدة زينب أن يفخر بمدرسته ، وأن نعدها نحن معلماً من معالمه ، وقسمة من قسماته .

وأحسن أنه قد آن الأوان لنصل إلى تاج الحى كله ، إلى مسجد السيدة زينب ، الذى منح الحى اسمه ، وقد يهمك أن تعلم أنه لا ينافس مسجد السيدة زينب من مساجد مصر كلها إلا مسجد شقيقها الإمام الحسين بن على .

ومع ذلك فإن حصيلة صندوق النذور فى المسجدين الزينبى والحسينى تدل على تقدم مسجد السيدة زينب على مسجد الحسين بكثير . فقد بلغت حصيلة صندوق النذور فى المسجد الزينبى سنة ١٩٧٠ (٥٣ ألفا) وصندوق السيد البدوى (٥٠ ألفاً) وصندوق الحسين (٣٣ ألفاً) .

ولعل مرجع ذلك أن المرأة القديسة أقرب إلى قلوب الشعب من أولياء الله من الرجال مهما علا مقامهم . فالمرأة إلى جانب طهرها وقداستها تمثل لأصحاب الحاجات ، من النساء والمستضعفين الأم الحانية التى تطيل عليهم صبرها ، والتى تعرف ضعفهم وعجزهم وقلة حيلتهم . والسيدة زينب هى (أم العواجز) (وأم هاشم) فهى الأم . ولذلك فالذين يقصدونها فى الأزمات والضوائق والآلام والشدائد أكثر من الذين يقصدون سواها ، حتى ولو كان أخاها . وقد تحققت بركة أم العواجز ، وأصبح الحى الذى يحمل اسمها هو أشهر الأحياء ، وأعظمها فضلا ويداً على مصر . ففى حى السيدة زينب قامت جريدة اللواء التى أصدرها مصطفى كامل ، وكانت دارها مقرًا لنشاطه السياسى والوطنى ، وفى هذا الحى قام (بيت الأمة) الذى اتخذه المصريون مركزاً لثورة سنة ١٩١٩ ، وإلى هذا الحى انتسب عدد من كبار المفكرين والكتاب فى مقدمتهم مصطفى لطفى المنفلوطى أشهر كتاب مصر فى العقد الثانى من القرن العشرين ، والذى استمرت كتبه مصدراً لإلهام الشباب والشابات فى أعقاب ثورة ١٩١٩ لمدة ربع قرن من الزمان ، ومن هؤلاء الكتاب أيضاً الشيخ عبد العزيز البشرى ، صاحب مقالات فى (المرآة) التى كان ينشرها فى جريدة السياسية الأسبوعية ، فذهبت نموذجا للأدب العربى القديم فى ثوبه القشيب ، وفى هذا الحى ، عاش الشاعر أحمد رامى ، شاعر الشباب وقد شهد مولد شهرته وذيوع اسمه ، وفى شارع سلامة الذى عشت فيه سنين عاش توفيق الحكيم وخلده فى روايته « عودة الروح » ، كما عاش الشاعر على الجارم والأديب محمد السباعى مترجم رباعيات الخيام . وفى هذا الحى كانت عيادة الدكتور محجوب ثابت أحد أبطال ثورة سنة ١٩١٩ ، وواحد من أطرف شخصيات مصر ، وأوفرها حيوية ، وأغناها بالمواهب المتنوعة والمتنافرة ، وعن هذا الحى ، كتب يحيى حقى قصته القصيرة « قنديل أم هاشم » التى أكسبته إعجاب القراء ، ومنحته أول قسط من أقساط شهرته الأدبية ، وفى هذا الحى أقام ثلاثة من أصحاب أجمل الأصوات وأندرها ، أقام سلامة حجازى فى بركة الفيل ، كما أقام فيها الشيخ أحمد ندا قارىء القرآن فى مسجد السيدة الذى كان صوته يملأ صحن الجامع فى جلال ووقار والشيخ محمد رفعت أشهر قارئى القرآن فى العصر الحديث . وفى شارع محكمة السيدة زينب كان مقر جريدة (الكشكول) التى يعدها التاريخ الصحفى أول مجلة سياسية نقدية ، زودت بصور الكاريكاتور بالأسلوب الجديد ، والتى أسهمت فى رفع

مستوى الأسلوب الأدبى فى النقد السياسى الفكاهى ، وفى شارع المبتديان قامت أكبر دار للصحف الأسبوعية المصورة وهى دار الهلال التى أخرجت إحدى مجلتين أدبيتين عظيمتين هما الهلال والمقتطف ، وغير بعيد من دار الهلال ، قامت جريدة المقطم جريدة الاحتلاليين والاحتلال ، وصدرت عن نفس دارها مجلة المقتطف هذه ، لتكون أولى المجلات الأدبية العلمية فى الشرق العربى ، وأطولها عمراً وأعظمها أثراً .

وفى بيوت من بيوت هذا الحى ، اجتمع وسهر إلى الصباح شبان كان لهم شأن فى الحياة الأدبية والسياسية ، اجتمعوا ثم تفرقت بهم السبل ، كان منهم أحمد محمود حسين تلميذ مدرسة محمد على الابتدائية فالخديوية ، وقد عرف أحمد محمود فيها بعد باسم أحمد حسين عندما ابتدع مشروع القرش ، ثم أسس جمعية « مصر الفتاة » التى أصبحت حزب مصر الاشتراكى ، وعقد صلاته بيوسف فهمى حلمى الذى عرف باسم يوسف حلمى الكاتب والصحفى والقصاص والوفدى فالوطنى فنصير السلام ، فالرائد اليسارى الذى عانى السجن والاعتقال فالتشرد فالمرض الرهيب فالموت المأساوى الفاجع ، ثم مصطفى كامل الشناوى الأزهرى ، فالصحفى المبتدىء فالشاعر ، فصديق العظماء والكبراء ، فالنائب فالصحفى الذائع الصيت الذى أنشأ مدرسة للفكاهة والنقد الاجتماعى ، باللسان فى ندوات بدور الصحف ، وفى الفنادق يمتد فيها السهر إلى الصباح فيقلد العظماء والشعراء خلالها ويسخر منهم ويتلو شعره وشعرهم ثم محمد نزيه الذى لم يتح له قط أن يصل إلى الشهرة وما كان أهلاً له . وفى بيت بشارع السيدة زينب أنشأ حافظ محمود جمعية القلم وراح يخطب فى عدد من صغار الشبان كنت واحداً منهم .

ولكى تكمل صورة هذا الحى ، يجب أن نشير إلى قلعة الكبش وحى طولون ، حيث الفقر المدقع ، والجريمة الحقيرة والدعارة الرخيصة التعيسة ، وإلى شوارع وشياخات أقام فيها شيوخ أزهر سابقون ، وأساتذة فى المدارس العليا ، التى أصبحت كليات ، ومن هؤلاء محمد خليل عبد الخالق أحد السابقين إلى البحث العلمى فى بلادنا وأخوه أحمد نقيب طب الأطفال فى مصر ، بعد عبد العزيز نظمى ، فإبراهيم شوقى ، فقد عاش هذان الصبيان الكبيران فى حارة البهلوان غير بعيدين

عن شارع الشيخ سليم الذى يحمل اسم الشيخ سليم البشرى شيخ الأزهر ووالد عبد العزيز الكاتب .

ولكن الحى يمتد ليشمل حى الإنشاء ، حيث تتجاور بيوت الباشوات وكبار رجال الدولة المدنيين والعسكريين ، ثم حى المنيرة والمبتديان ، حيث ترتفع درجة الثراء فتجد عدداً من أثرى أثرياء مصر كما تجد بيت أمين باشا سامى أحد كبار المربين الذى ترك تقويم النيل أثراً باقيا من آثاره الأدبية . وفى هذا الحى يقوم معهد كان فريد عصره ، ونسيجاً وحده ، لعب فى الحياة المصرية الأدبية والسياسية ، أضعاف ما لعبته مدرسة محمد على ، ذلك المعهد هو دار العلوم ، الذى أنشأه على باشا مبارك سنة ١٨٧١ ، فأنقذ به اللغة العربية . فقد أخرجت هذه الدار العلماء والفقهاء والأدباء ، فأحبوا اللغة والأدب ، وأسمعوا الناس خلال نصف قرن ، من متع اللغة العربية ، وكشفوا لهم عن كنوزها ما جذبهم إليها ، وأعاد ثقتهم فيها . وقد ولدت دار العلوم فى درب الجماميز ، ثم انتقلت إلى مبنى مدرسة السنية الحالى ثم استقرت فى مبناها الكائن على ناصيتى شارع عز العرب وأمين سامى ، وقد قدمت دار العلوم لمصر خيراً كثيراً تجسد فى الأعلام الذين لم يدعوا درباً من دروب العمل الوطنى والأدبى ، إلا أسهموا فيه ، فمن أبنائها الغر الميامين عبد العزيز شاويش ، ومحمد المهدى ، ومحمد عبد المطلب ، ومحمد الخضرى ، وأحمد ضيف ، وأحمد الإسكندرى وأحمد إبراهيم ، ومصطفى السقا ، وأبو العلا عفيفى ، ولم يعلم أبناء دار العلوم اللغة العربية ، والفلسفة الإسلامية والشريعة والفقة الإسلامى فى مصر وحدها ، بل علم بعضهم ذلك فى جامعات أوروبا ، وفى مقدمة هؤلاء حسن توفيق العدل الذى علم فى برلين وكمبريدج ، ومحمد حسنين الغمراوى الذى علم فى أكسفورد مع زميليه منصور سليمان ومحمد أحمد جاد المولى ، كما علم فى كمبريدج كل من محمد على مصطفى وأبو العلا عفيفى ، والطريف أن مدرسة دار العلوم لم تقنع بتخريج أساتذة للغة العربية والعلوم الإسلامية ، بل تخرج فيها قضاة ؛ جلسوا فى أعلى محاكم القضاء الأهلى كمحمد صالح باشا رئيس محكمة الاستئناف ، وعبد الرحمن سيد أحمد وكيل محكمة النقض ، وحفنى ناصف الذى تقلب فى مناصب القضاء الأهلى ، وعلا اسمه أديباً وشاعراً ونحويًا .

وقد أثبت أشبال دار العلوم أن تجددهم اللغوى أمدهم بمدد ثورى ، فقد قرروا

أن يخلعوا العمامة والجبة والقفطان ، وأن يلبسوا البذلة الأوربية ، فعدت الحكومة ذلك تمرداً ومروقاً ، فأرادت أن ترد عن مدرسة دار العلوم ، الأفندية الجدد،ولكن الثوار صمدوا بقيادة الشاب طاهر الطناحى ، فكتب لهم الفوز ، وسجلوا للتطور الاجتماعى نصراً لم يكن فى أيامه بالقليل .

أما طاهر الطناحى فقد كان له فضل فى دنيا الصحافة والأدب غير قليل .

وعلى مرمى حجر من مدرسة دار العلوم قامت المدرسة السنية التى تستطيع أن تنافس دار العلوم ومدرسة محمد على فى غير مشقة فى الخدمات التى أدتها لبلادنا ، والأيادى التى أسدتها للمرأة . فقد أنشأها الخديوى اسماعيل ، فكانت واحدة من أقدم مدارس البنات فى الشرق كله ، من المغرب إلى اليابان ، وقد أخرجت لنا هذه المدرسة كل رائدات التربية النسوية لمدة ربع قرن من الزمان ؛ فكانت من أولئك الرائدات ملك حفنى ناصف ، وشقيقتها كوكب ، فنبوية موسى ، فسنية عزمى ،

فعايدة وفائى . فالأخوات فكتوريا ومارى وماتيلدة عوض ، فإنصاف سرى فكريمة السعيد ، فبهية كرم ، فدولت الصدر ، وبذلك يمكن أن نقول إن حىّ السيدة زينب بثالوثه التربوى : محمد على فدار العلوم فالسنية له أن يدل على جميع أحياء القاهرة كما له أن يدل بثالوثه الصحفى : اللواء القديم ، فالسياسة اليومية ، فالكشكول ، ثم بثالوثه فى الطباعة والنشر : دار الهلال ، فدار المقطم والمقتطف ، ولطائف المصورة فمطبعة مصر فى مرحلة من مراحلها ، ثم بدار البلاغ لعبد القادر حمزة ، فالجهاد لتوفيق دياب فمجلتى الصباح وأبى الهول اللتين أصدرهما الصحفى العصامى مصطفى القشاشى ، فأصبحتا ميدانين جرب فيهما عدد من كبار كتابنا أقلامهم قبل أن تدانيهم الشهرة ، كفكرى أباظة وسعيد عبده والصحفية منيرة ثابت . وفى الحى نفسه أقام سلامة موسى مطبعته ومجلته الشهرية « المجلة الجديدة » بشارع الدواوين سابقاً . ثم جمع الحى المتناقضات : الفقر والغنى ، جريدة الحزب الوطنى ، حزب المقاومة للإنجليز وجريدة السياسة لسان حال حزب الأحرار الدستوريين حزب المعتدلين ، فبيت الأمة ، فدار المندوب السامى مقر الاحتلال ومجلس الوزراء ووزارات الداخلية والعدل والمالية أى الاقتصاد والخزانة الآن ، ثم مقر الجمعية التشريعية أول مجلس نيابى فى تاريخ مصر الحديثة ، فمجلس النواب ، فمجلس الأمة ، فمجلس الشعب .

على أن فى صفحات حى السيدة زينب أشياء أخرى لا ينافسه فيها حى آخر ، فقد وقعت على أرضه أكبر أحداث مصر الكبرى : وقعت فيه أول حادثة قتل سياسى ، إذ قتل بطرس غالى باشا رئيس الوزراء برصاص إبراهيم ناصف الوردانى فى فبراير سنة ١٩١٠ ، وقتل أحمد ماهر فى مجلس الأمة فى فبراير سنة ١٩٤٥ ثم قتل محمود فهمى النقراشى فى ديسمبر سنة ١٩٤٩ . فكان جميع الرؤساء الذين قتلوا لقوا حتفهم فى هذا الحى ، كما شرع فى قتل اثنين من رؤساء الوزارات فى الحى نفسه أولهما توفيق نسيم فى ١٢ من يونية سنة ١٩٢٠ بشارع الشيخ ريحان ، وثانيهما مصطفى النحاس فى شارع قصر العينى وشارع النباتات سنة ١٩٤٩ .

وقد قتل السيرلى ستاك سردار الجيش المصرى وحاكم السودان فى نوفمبر سنة ١٩٤٩ فى شارع الطرقة الشرقى ، ومات حسن البنا فى مستشفى قصر العينى فى سنة ١٩٥٠ .

ومستشفى قصر العينى معلم بارز من معالم حى السيدة زينب ، وهو أشهر مستشفيات مصر كلها ، ولو جمع ما كتب عنه ، مدحاً وقدحاً وثناء وهجواً ، وما جرى حوله من استجوابات وأسئلة فى المجالس النيابية ، وما نشر عنه فى الصحف وما خرج من أساتذة كبار فى الطب ، وما اقترن به من أسماء أعلام من كلوت بك إلى على إبراهيم باشا لفاقت هذه الكتب ضخامة ووزناً ، كل ما كتب عن غير هذا المستشفى من الأبنية والمؤسسات والدور فى طول البلاد وعرضها . ولقد شهد هذا المستشفى كثيراً من جرحى وقتلى حوداث الوطن والسياسة .

ويستمر حى السيدة زينب طولاً وعرضاً حتى ينتهى إلى النيل ، حيث تقوم أجمل القصور وأغناها ، يسكنها كبار الطبقة الأرستقراطية التركية أمثال عدلى يكن ، والأرستقراطية الريفية أمثال بدراوى عاشور ، والأرستقراطية المحدثة والتى نعرف الكثير من أسماء أصحابها ، ثم أرستقراطية المال الأوربى ، من رؤساء ومديرى البنوك والشركات التجارية والمالية والعقارية ثم دور السفارات ، وموظفوها الذين يفيضون أناقة ، وتتأرج شوارع جاردن سيتى بعطر حدائق بيوتهم ، وعطر زوجاتهم وبناتهم اللواتى ينظرن إلى مصر ، أول مجيئهن إليها ؛ بعيون مفتوحة دهشة واستغرابا ، ثم لا يلبثن أن يقعن فى هواها ، ويحببن كل ما فيها ، حتى نومها وبصلها وقثاءها .

ويطل على هذا كله المسجد الزينبى ، وكأنه الأب الكبير الذى اتسع مع الزمن صبره وصدره ، فنظر إلى دار المندوب السامى ، الدخيل الغازى ، وإلى عشش الفقر والشعب المطحون والأصيل الطاوى ، وهو يفهم الصلة بين هذين الطرفين وهما يبدوان للناس وكأنهما ينتسبان إلى عالمين جد بعيدين . وقد كان المسجد الزينبى على أيامنا مصدراً لحياة كاملة لأهل القاهرة بل لأهل مصر كلها . فالناس تقصده من كل حدب وصوب ، والوصول الى ضريح صاحبته عند الملايين من أهل مصر ، فى الوجهين البحرى والقبلى . فى السواحل والصحارى وفى الواحات يكاد يكون كشد الرحال إلى الكعبة وكثيراً ما تفد العائلة الريفية من القرية بقضها وقضيضها ، وقد لا يسعفها ما عندها من مال قليل للنزول فى فندق من فنادق الحى ، فيفرشون الغبراء ويلتحفون السماء ، وهم لا يشكون تعباً ولايملون من تحمل هذا الحرمان ، فإذا وضع الرجل أو المرأة يده على شباك ضريح السيدة ، أحسست وأنت تراهم وتسمعهم ، بأن هذا لقاء غرامى ، يصل فيه المحبون إلى أقصى درجات الوجد والوله ، فالدموع تهطل ، والآهات تصعد ، والقبلات تتوالى ، ومناجاة تدور فى صوت خفيض صادق . وإنى لا أزال أذكر هذا الرجاء الحار : « والنبى يا ست يا طاهرة . . يا أم هاشم . . يا أم العواجز . . يا بنت الإمام . . يا أخت الإمام . . نظرة . . والنبى » .

وفى بعض الأحيان يصل إلى حد الاغماء والغيبوبة ، وفى هذا الجو ينشط عدد كبير من الأذكياء ، ليستغلوا هذا الاستسلام والوجد ، فتباع الأحجبة ، ويظهر العديد من الدجالين والمحتالين ، فى أثواب عديدة ، فهذا مجذوب ، وذاك ولىّ ، والثالث يعرف شيخاً مطمطماً له أوثق الصلات بالحكام وأصحاب النفوذ وبهذا يختلط الدين بالدنيا ، ويتنافس أولياء الله وأولياء الشيطان فى كسب الأنصار والأتباع .

فإذا كان المولد امتلأ الميدان بالمئات نهاراً والألوف ليلاً ، فماجت الشوارع بالأجسام المتلاصقة وتلألأت الأنوار على واجهات الحوانيت ، ونشطت التجارة نشاطاً عظيماً ، ونشطت معها صنوف من الحرام بأنواعه : تباع السبح ، وعلب السعوط ، والمصاحف ، كما تتداول الأيدى أنواعاً لا حصر لها من المكيفات منها ما يؤكل ، ومنها ما يشرب ، ومنها ما يدخن . وفى الأزقة والعطوف ، يجد شيطان

الهوى ، فرصاً لا يجدها طالبو لذات البدن فى غير مناسبة المولد ، هذه المناسبة الروحية فانظر وتعجب !

فإذا دخلت المسجد ، وطفت فى قاعاته ، ورأيت الأضواء المتلألئة ، والثريات المتوهجة ، خيل إليك أن النور غسل الناس من أحزانهم وأحقادهم ، وأنهم جميعاً سعداء فرحون ، يكادون يطيرون فى الهواء من السرور والنشوة ، ويبلغون الغاية فى الليلة الكبيرة لمولد السيدة ففى هذه الليلة يشعر الناس ، بأنهم موشكون على العودة والانفضاض ، فيخالط السعادة حزن وحسرة ، فتجتمع للناس فى تلك الليلة أقوى الانفعالات البشرية .

ويوم الجمعة هو عيد أسبوعى لأهل الحى ، ففيه يأتى الناس إلى المسجد الزينبى ليسمعوا القارىء العظيم الشيخ أحمد ندا ، صاحب الصوت الجهورى العميق ، ذى الطبقات ، الذى يتردد فى جنبات المسجد بلا مكبرات ، فتخشع القلوب ، وتهدأ النفوس ، فإذا فرغت التلاوة صعد الشيخ مصطفى الحمامى إلى المنبر ، ليهدر هدير الرعد بما تتزلزل له قلوب المؤمنين من الخشية والرهبة . فإذا وقفوا بعد ذلك صفوفاً وخرجوا ، حسبوا أن ما سمعوه من الخطيب ومن القرآن ، قد حررهم من هموم دنياهم ومخاوفهم فترة يمكن أن يعيشوا على زادها أسبوعاً . واستقبلهم على باب المسجد ، صنوف من أصحاب العاهات من عمى ، ومقطوعى الأيدى والأرجل ، والمعتوهين ومدعى الجنون ، وكل منهم يحسب عاهته ، أكبر مقاماً وأحق بالتقدير والرعاية ، ومن خلفهم يقف طابور من بائعى البخور وخشب المسواك ، والعطور ذات الرائحة النفاذة التى تدير الرءوس وأشياء كثيرة يخطئها العد والحصر . . .

ولنا آخر الأمر أن نتساءل : أيكون سحر حى السيدة زينب وسرها « الباتع » هو الذى قرر أنه لايتصل بحيها مكان ولا إنسان ، إلا ارتفع شأنه وعلا مقامه ؟ ولو خالجك شك فى ذلك فلنسرد عدداً آخر من الأسماء :

مات أحمد عرابى زعيم أول ثورة مصرية فى تاريخها المعاصر ، بمنزل فى شارع خيرت من شوارع الحى العتيد ، كما مات فى شارع آخر مصطفى كامل زعيم الثورة الثانية وفى شارع ثالث مات سعد زغلول زعيم ثورة سنة ١٩١٩ وفى شارع قريب من بيته أقيم ضريحه الفرعونى .

وقد شيعت مصر جثمان مصطفى كامل من دار اللواء التى كانت قائمة قريباً من ميدان لاظوغلى مرتين ، مرة يوم ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ ، بعد وفاته والثانية فى سنة ١٩٥٣ ، حينما قررت الثورة نقل هذا الجثمان الطاهر إلى ضريحه الجديد فى ميدان صلاح الدين ، ومن الدار نفسها شيعت مصر جثمان محمد فريد إلى ضريحه مع زميله مصطفى وذلك فى ١٥ نوفمبر ١٩٥٣ .

وفى دار من دور هذا الحى انعقد المؤتمر الوطنى سنة ١٩٢٦ ، هى دار محمد محمود بشارع الفلكى ، للمطالبة بعودة الدستور ، بعد وأده فى سنة ١٩٢٥ بعد مقتل السردار ، وفى دار أخرى فى الحى ربض عبد الرحمن فهمى ، قائد ثورة سنة ١٩١٩ . ورئيس أركان جهادها ، ليدير هذه الثورة بشجاعة ومهارة ورباطة جأش مدة سنتين ، كان سعد وصحبه خلالها فى أوربا ينتظرون المفاوضة مع الإنجليز ويفاوضون مندوبيهم فى باريس ولندن .

وبعد ، ألا ترى معى أن تاريخ مصر الحديث كله ، يرتبط بهذا الحى الفريد الفذ ؟!

شارع سلامة

إذا كان حيّ السيدة زينب كله جديراً بأن أكتب عنه فصلا قائماً بذاته ، لأنه وطن طفولتى وصباى ، ومطالع شبابى ، فإن شارع سلامة ، هو الشريان الذى تدفقت منه الحياة لأيامى فى هذا الحى . فهو الشارع الذى كان فيه بيتى ، وهو الذى شهد أولا عدوى وركضى وصراخى وشجارى ولعبى ولهوى ، وقد عرفت زملائى ولداتى فيه وعلى جوانبه ، ثم أخذت حياتى تتفرع منه إلى شوارع أخرى فى حى السيدة زينب ، ثم إلى دروب وعطوف وحوار وأحواش ، حتى أصبح هذا الحى امتداداً لوجودى .

هل أحببت شارع سلامة وأنا صغير؟ هل أحببت منظره وأهله ؟ لقد سألت نفسى اليوم هذا السؤال ، أى بعد أكثر من نصف قرن مضى ، حينما كان هذا الشارع مسرح طفولتى ، وميدان مرحى ولهوى . ولعلى لم أسأل نفسى - وأنا طفل ــ هذا السؤال .

فقد كنت طفلا كثير الحركة لايكف عن اللعب ، ولا يشكو من شىء ولا من إنسان ولا يعرف الانزواء ، وتمضى علاقته بالإخوان والزملاء طبيعية كعلاقة الأطفال بعضهم ببعض ، يتشاجرون ويعودون إلى الصلح ، ثم يتشاجرون من جديد ، وشجارهم وصلحهم جزء من اللعب لا تعرف كيف تفرق بينهما ، وقد كنت ألعب مع عدد كبير من الأولاد فى سنى ، أو الذين كانوا يصغروننى قليلا ،

أو يكبروننى قليلا ، بدون أن تنشأ بينى وبين واحد منهم صداقة خاصة ، لا أذكر أن أحدهم اعتاد التردد على منزلنا ، ليلعب معى فى إحدى حجرات منزلى ، ولاسيما فى حالات المرض الكثيرة ، كما لا أذكر أننى زرت أحداً فى بيته ، وترددت على هذا البيت حتى ألفته ، وأصبحت من أهله .

كلها علاقات ظاهرية سطحية على الرغم من حيويتها وحرارتها . كنا كذرات الماء المغلى ، لا تستقر ، تعلو وتهبط ، وتتجه يميناً ، وتتجه يساراً ، بلا هدف إلا أن تكون الحركة نفسها هى الهدف ، وهى السعادة . كان السكون معناه الموت وما دمنا أحياء فلابد أن نتحرك ، وماذا فى هذا من الغرابة ؟ أليست الأرض دائمة الدوران حول نفسها ، ودائمة الدوران حول الشمس ؟ أو ليست الكواكب تفعل مثل ذلك منذ ملايين السنين ، وبلايين السنين ؟ أو ليست هذه الأجرام السماوية الضخمة التى تزيد ألوف الملايين من المرات على حجم طفل مثلى ، حينما كان يجرى ويلعب فى شارع سلامة ، تدور فى أفلاكها ؟ فأنا مثلها أو هى مثلى ، لا تكف عن الجرى والركض ، واللف والدوران . ولكنها تدور حول محاور مـائلة ، لسبب لايدريـه أحد . فأنا أحسن حالاً منها ، فأنا أجرى فى خطوط مستقيمة أو دوائر ، فى وضع

طبيعى لاميل فيه ولا انحراف . وأجلس الآن لأتأمل شارع سلامة وأستعيد صورته بعد هذه السنوات الطويلة . فأراه أمامى شارعاً فسيحاً نسبياً . مستقيماً وتصطف البيوت على جانبيه فى استقامة . وهى بيوت ليس بينها تفاوت كبير . فليس فيهـا الرفيع الذى يتعالى بغناه وثرائه على ما حوله . لا قصور ولا أكواخ ، تعيش فى هذه البيوت عائلات من الطبقة المتوسطة الكبيرة . فيهم المهندس والقاضى ، والتاجر وصاحب الأملاك . وقد شذ عن القاعدة العامة بيتان : أولهما كان له حديقة كبيرة ، ومظهر القصر الصغير ، والثانى كانت تسكنه أسرة غنية نوعـاً ما ، كـان ربها من بكوات ذلك العهد ، وقد زوج ابنته الجميلة إلى موظف كبير ، ووصل إلى منصب ذى أهمية ، إلا أن أهل البيتين كانوا كسائر أهل الشوارع بساطـة وطباعـاً ومظهـراً . والغريب فى شارع سلامة أنه ينتهى إلى جبل طولون . وقد بنت الحكومة سلالم من الحجر ، ليصعد الناس فى الجبل ، لأن البيوت بنيت على هذا التل ، وزاد عـدد سكانها . ولكن مع بناء هذه السلالم لم تدب الحركة فى العلاقة بين أهل الجبل الذين يعيشون فوقه ، وأهل الشارع الذين استوطنوا سفحه . فلم يفد علينا نحن أطفال

شارع سلامة مثلا عدد من أطفال التل ، يشاركوننا اللعب ، أو يغزون حينا بالطوب والمقلاع ! .

والطريف الذى أذكره الآن أن الأباء والأمهات كانوا بالنسبة لأطفال الشارع أشباحاً بلا أرواح . إذ لم تنشب أى علاقة بيننا وبينهم . كنا نرى السيدات أمهات زملائنا يخرجن من البيوت ، ويسرن فى الشارع ، ثم يعدن إلى بيوتهن ، وهن يرتدين الحبرة أو (التزييرة) وهى زى للسيدات يتكون من جزءين من القماش الأسود ، واحد يوضع حول الرأس ، ويدور حول الوجه ، والثانى (كالجونلة) أو (الجيب) بلغة اليوم ، فى حين يغطى وجه السيدة نقاب من الحرير الأبيض ، فيحجب فمها وذقنها ويترك عينيها وجبهتها . كنا ننظر إليهن فلا نحييهن ولا يحييننا ، ولا يدور بيننا حديث كذلك يخرج الرجال إلى أعمالهم ، أكثرهم يرتدى البذلة والطربوش ، ومنهم من يحمل فى يده عصا أو منشة ، ومنهم من يحمل فى يده كتاباً أو مظروفاً أو جريدة فننظر إليهم كذلك ولا يرون ولا نرى ما يدعو إلى السؤال أو الكلام أو التحية .

عالم الصغار قائم بذاته ، وعالم الكبار قائم وحده ، وهما متجاوران ، ولكن بغير اتصال !

وأحاول الآن أن أتذكر وجه أم من أمهات أصدقائى ، فأعجز تماماً ، وأعجز أيضاً عن تذكر وجوه آباء هؤلاء الأصدقاء ، بل أسمائهم ، وأستثنى من ذلك رجلا واحداً . لم يكن والد أحد أصدقائى ، وإنما كان والد شاب يكبرنا قليلا ، ومن ثم لا يشاركنا فى لعبنا . وإن كنا نراه ويرانا ، ولكن هذا الرجل نجح فى شىء لم ينجح فيه رجل آخر من آباء زملائى ومن كل جيراننا ، ذلك أنه أقنع والدى بأن يذهب معه لمشاهدة مباراة كرة قدم بين فريق مصرى ، يرأسه بطل مصر فى كرة القدم ، فى تلك الأيام : حسين حجازى ، وبين فريق إحدى فرق الجيش البريطانى ، على أرض نادى المختلط التى قامت عليها فيما بعد مبانى المحكمة المختلطة التى أصبحت بدورها دار القضاء العالى . وكلما تذكرت أن الشوارع التى نراها الآن مزدانة بالمبانى الضخمة ، والتى تختنق بالحركة ، وتموج بالسائرين والسائرات ، كانت فى أيام صباى أرضاً زراعية ، يلعب الناس عليها الكرة . أخذتنى الدهشة لسرعة سير

الحياة ، ولضخامة التطورات التى وقعت فى مدينتنا المحبوبة « القاهرة » ، ولا أزال أذكر يوم ذهبت مع والدى وجاره وابن جاره لنشاهد هذه المبارة التى لم أشاهد غيرها مع والدى إلى آخر العمر ، ولكن لا أذكر شيئا من شعورى يومذاك إلا خاطراً واحداً استولى علىّ يومها ، ذلك هو تساؤ لى كيف نلعب مع الإنجليز ؟ ولقد تأملت اللاعبين الإنجليز ، وهم ينزلون إلى الملعب ، وهم يصطدمون باللاعبين المصريين ، وهم يسابقونهم إلى الكرة ، ثم وهم يقعون على الأرض ، وكأنما أشاهد عفاريت استؤنسوا ، أو غيلانا روضوا . لقد كان عهدى بالإنجليز أنهم يلبسون الخوذات ، ويكومون فى سيارات ضخمة ، فيبعث منظرهم الرعب فى القلوب ، فكيف يلعبون معنا وكيف يسمحون لنا أنْ نلقى بهم فى الأرض ، ونخطف منهم الكرة ، ونلقى بها فى شباكهم ؟

هذا وحده الذى بقى من ذكرى هذا اليوم ، أما صورة الملعب واحتشاده ، وصورة حسين حجازى وهو يقود الفريق المصرى ، كأنه قائد مظفر يقود جيشاً فى رصانة ووقار وثبات ، فأمور لا تبدو لى واضحة ، وإنما تطل علىّ وكأنها وجه يبدو من خلال سحاب !

أما جارنا فقد كان رجلا عجوزاً ، فقد إحدى عينيه وكان قصير القامة نحيلا سريع الحركة نشيطاً ، وكان طوال المباراة ، يقفز طرباً لرمية موفقة منا ، ويقفز رعبا لهجمة موفقة من الإنجليز علينا .

بيد أنى أذكر شيئاً غريباً ، ذلك أننى دخلت فى منزل من المنازل المجاورة لنا ، لسبب لا أدريه الآن ، فرأيت رب البيت ـ ولم يكن من أولاده من يقاربنى فى السن ـ رأيته يلبس جلباباً واسعاً ، مفتوحاً حول العنق ، وكنت أرى هذا الرجل فى جبة وقفطان وفوق رأسه عمامة ، فيبدو لى مهيباً محترماً ، فلما فوجئت به فى منزله بجلباب ، ورأيت عنقه الضخم الأسمر ، خيل إلى أنه أشبه شىء (ببالونة) فقئت ، فتهاوت وأصبحت جلدا متغضنا مترهلاً وقد بقيت ذاهلا أنظر إلى الرجل وفى نفسى شعور من الخجل له ، وخيبة الأمل فيه ، وقد عانيت من هذا الشعور نفسه بعد ذلك سنين حينما زرت مع خالى مدرس اللغة العربية فى مدرسة محمد على ، وكان رجلا طويلا القامة ، ذا لحية يخالطها شيب ، فلما وقع نظرى عليه فى

جلبابه أحسست وكأنى ضبطته متلبساً بجرم ، ولو استطعت أن أدير عينى عن منظره لفعلت . . . وكم كانت دهشتى حينما رأيته فى اليوم التالى فى المدرسة فى جبته وقفطانه وعمامته ، فقد أحسست يومذاك أن هذا المنظر زائف ، أشبه شىء بثوب يرتديه ممثل لأداء دور . فى حين أنى أعرف الممثل خارج المسرح على حقيقته . ليس ملكاً مثلا ولا وزيراً ولا قائداً . . . وقد بقيت فترة أجترىء على الشيخ محمد رزق ، حتى ضربنى بشدة ، ونسيت جلبابه ، وعدت أثق فى هيبة زيه الرسمى .

ما أذكر عن شارع سلامة ؟ . . . أشياء متناثرة ، لست أدرى أولاها بالتقديم أذكر وقائع ، وأذكر شخصيات ، وأذكر ظواهر تتكرر فيه .

فمن الوقائع ، المعركة الدامية التى اجتمع فيهاعلىعدد من الصبيان ممن كانوا يلعبون معى ، وقد وفدوا مسلحين بعصى الخيزران يتقدمهم شاب أكبر منى سنًا ، وأقوى منى جسماً ، وأكثر منى طولا . كانت به شراسة فى طفولته لم تحل دون وصوله الى وظيفة السفير فيما بعد ، وأحاطوا بى فى حوش أيوب بك ، وانهالوا علىّ ضرباً بالعصى ، ولم يكن معى عصا . أدفع بها ، ولم يكن لدىّ علم بمقدمهم أو غزوتهم . . ولم أستطع أن أحبس دموعى . ولست أدرى ما الذى نقل المعركة إلى شارع سلامة ، ولكن الذى أذكره أن فتاة لا علم لى حتى باسمها ، ولا صلة تربطنى بها ، لا قبل العدوان ولا بعده ، خرجت من أى مكان فى الشارع ، لست أدرى وقد راعتها نذالة المعتدين وكثرتهم ، فانهالت عليهم بلسان نشيط قوى حاد وبكلمات كقذائف المدفع الرشاش ، فوجم المعتدون ولم ينبس أحد منهم ببنت شفة ، ونسيت نفسى ، ونسيت الألم الذى أصابنى ومرارة الغدر ، وقسوة الضرب وتفاهه السبب ،

واستمعت إلى هذه الفتاة التى كانت مثالا للدفاع عن الحق بغير غرض ولا هوى . فهى لم تكن تعرفنى ولا تعرف أحداً من أهلى ولا أنا لجأت إليها طالباً منها العون والحماية . ولكن الشعور بالظلم وكراهة الغدر هما اللذان ألهماها ، وقد اجتمع الناس حولها وحولى فى حلقة ، وأنصتوا لكلامها مأخوذين معجبين ، ورأيت وجوه الصبيان المعتدين وقد علاها خجل مر ، وألم واضح . وبعد قليل ابتدأت أشعر بمرارة الهزيمة من جديد ، فأنا لم أدفع عن نفسى باليد ، ثم لم أدفع عنها باللسان وهاهى ذى فتاة لاتعرفنى قد آلمها ضعفى فانتصفت لى . .

ولكن الذى عزانى يومذاك ، وأنا طفل دون السابعة ، شعور غريب أراه قد جاءنى مبكراً قبل الأوان ، ولكنه كان شعوراً واضحاً كاملا ، إلى الحد الذى لا أزال أذكره إلى اليوم ، غير مختلط بسواه ، أدركت أن العدوان أصابنى انتقاماً من شقيق زوج أختى ، الذى اصطدم بزعيم الصبيان فى يوم سابق فضربه صهرى ضرباً موجعاً ، على الطريقة الريفية ، فلم يكن صهرى ممن يحسنون الملاكمة ، أو استعمال (المقص) أو استعمال (الروسية) فهذه فنون من الضرب وقف على القاهرة وحدها ، إنما كان يتقن تماماً أن يحيط بخصر عدوه فيعصره عصراً ، حتى تكاد روحه تخرج من فمه ، ثم يستطيع أن ينهال على رأسه وصدره بقبضة حديدية ، ولا مانع من لىّ الذراع وضرب الركبة فى أسفل البطن وهو موطن حساس يفقد المضروب معه الاحساس ويغيب عن صوابه ، دارت المعركة سريعة وضرب عدونا ضرباً موجعاً وسار يتمايل ولايكاد يدرى رأسه من قدمه ولما انتهى القتال دعوت صهرى إلى قطعة من الشوكولاته الهولندية التي كنت أحبها ، وآكل منها بإسراف . صحبته إلى حانوت كان يبيعها فدفعت ثمنها ، وأخذتها وقبل أن أسلمها لصهرى رحت أتأمل صورة غلافها الجميلة وهى صورة فتاة هولندية تلبس قبقاباً خشبياً ، وقبعة من القماش الأبيض ومن خلفها طاحونة من طواحين الهواء ، وأكل الفارس الشيكولاته المهداة وتلمظ بها ، ولسان حاله يقول : إذا كان مقابل كل عركة كهذه شيكولاته كتلك ، فسأضرب لك صبيان الحى جميعاً !

أما الحادثة الثانية فهى اشتراكى فى لعبة عسكرية ، لا أدرى لماذا اختفت من شوارع القاهرة ، فأنا لم أعد أراها ، ولا أسمع عنها . لعبة اسمها (أبونا ! ضربونا) . ينقسم فيها اللاعبون إلى فريقين : فريق يختفى ، وفريق يطارد . والفريق المطارد ينقسم بدوره إلى قسمين : قسم يبقى عند الأم ، وقسم يشترك فى المطاردة أما الفريق الآخر ، الفريق الفار ، فهو يختفى ، ثم يفاجىء القسم الباقى عند الأم ، فإذا صرخ هذا القسم عند هول الهجمة المفاجئة (أبونا ! ضربونا) كان على المطاردين ، أن يلبوا النداء ، ويسرعوا إلى النجدة ، فإذا لم يسمعوا أو كانوا بعيدين ، يستمر ضرب القسم اللائذ بحضن الأم . ولا تنتهى اللعبة إلا بالقبض على فريق الفارين ، وكلما ابتعدوا عن ميدان اللعبة ، صعب وضع اليد عليهم ، وتعرض القسم الباقى ، الذى لا حيلة له فى دفع العدوان لضرب عنيف . وأذكر أنى

اشتركت فى هذه اللعبة فى ليلة من ليالى رمضان ، وابتعدت ابتعاداً شديداً عن شارع سلامة ، فذهبت إلى شارع السد البرانى ، ورحت أعدو ، ولا خوف علىّ من ضبطى وإحضارى مقبوضاً علىّ . وفوجئت بواحد من الفريق الآخر ، أمامى وجهاً لوجه ، فانطلقت أعدو ، وسط الجماهير ، وأشق طريقى كالسهم المارق ، ومن خلفى عدوى ، لا يسمح لى بالاختفاء عن ناظريه . إنما أذكر أن السعادة كانت تغمرنى وأنا فار من وجه الذى يتعقبنى ، فقد كان إحساسى وأنا أسير فى شارع السد وحيداً لا يسأل عنى أحد ، ولا يهتم بى عضو من أعضاء الفريق الأخر ، بأن لا قيمة لى ولاشأن، وأحسست بأن اللعبة فقدت مذاقها ، أما الآن فقد دبت فى اللعبة الحماسة وتولانى شعور برد الاعتبار .

وهكذا أدركت ، وأنا بعد طفل صغير ، أن الأمن والطمأنينة وإن كانا من أغلى ما يطمح فيه الإنسان فإنهما إذا اتسما بالركود ، وضآلة الشأن ، كانا شعورين مرين ، لا يقبلهما الإنسان ، ويقبل أن يضحى بهما فى مقابل شعور من الأهمية والمكانة . . .

ومن وقائع حياتى الصغيرة ، التى جرت فى شارع سلامة ، واقعة أذكرها إلى الآن ، أرى نفسى فيها على « بسطة » بأعلى درجات سلم فى منزل يقع فى شارع سلامة ، أو فى حارة متفرعة منه ، ويومها لم أكن وحدى بل كنت مع غيرى من الأطفال الذين كانوا فى مثل سنى ، والذين كانوا يكبروننى ، وبينهم بنات فى سن الشباب . ويبدو أن الأطفال الآخرين والبنات الذين كانوا معى على هذه « البسطة » كانوا يدرون لم تجمعوا على هذا البسطة ولم تزاحموا على الباب المتصل بها ؟ أما أنا — ربما لصغر سنى — فكنت واقفاً هناك بحكم قانون القطيع ، فأفراد القطيع من الماعز والبقر تسير وهى لا تدرى إلى أين تذهب ، يدفعها فى المسير روح الجماعة والاطمئنان إليها ، ولكن قليلا من المعلومات بدأ يتسرب إلىّ ، وأنا واقف هناك ، لا أستطيع النزول إلى أسفل السلم ، ولا أستطيع النفوذ إلى داخل الشقة التى تجمعنا على بابها ، وأول ما وصلنى من هذه المعلومات أن بالداخل « زاراً » وصافحت الكلمة أذنى ، ولكنها لم تنقل إلىّ معنى ولا جزءاً من معنى ، وتكلمت فتاة قاربت سن الشباب ، وكانت سمينة مليئة بالحيوية لاأزال أذكر اسمها كان « عائشة » فقالت الفتاة : « الستات بيتنططوا جوه علشان العفاريت راكباهم » . ولم أجزع من اسم العفاريت التى ظهرت فى « عز الظهر » فقد كنا فعلا فى الظهيرة ولكن لم أفهم كيف

تركب العفاريت (الستات) ولا السبب الذى جعل العفاريت تختار هذا المكان لتدخله ولتعبث بالسيدات هذا العبث العلنى الصريح ، وأغرب شىء أن فضولى لم يتحرك ، فلم أبذل جهداً ما لشق طريقى إلى الداخل الأمر الذى كنت أفعله لمجرد وجود سد بشرى أمامى بدون أن أسال ماذا وراء هذا السد ؟ الدافع وحده هو الإغراء ، فلماذا لم ينتبنى شىء من لذع الإغراء واستدراجه لنا جميعاً أبناء هذه القبيلة الضخمة قبيلة بنى آدم ؟ لعلنى كنت سعيداً لأننى واحد من جماعة تقف متآلفة ، شاعرة بالأنس ، على « البسطة » ولعل الركود وعدم التطلع إلى شىء جديد ، للحظة متعة من متع النفس الإنسانية ونحن لا ندرى ، ومن يدرى ؟ فلعل هذه التجربة تجربة الوقوف فى أعلى سلم ، وأمامنا أناس متزاحمون ، ومن ورائهم شىء مجهول ، لذة لم نمارسها من قبل ، فلم يكن بأس من إطالتها يومذاك قليلا ثم دبّ فى الموقف ، شىء جميل ، فقد دوى فى الداخل صوت رهيب ، دفعة واحدة ، لم أجزع منه ، ولكن أحسست أن كل مشاعرى قد تنبهت . ثم توالى الدوىّ . وسط نغم منظم ، رتيب ، متشابه ، قوى . ثم وقفت عائشة على أطراف أصابعها حتى بدت ركبتاها من تحت الثوب ، فاتجهت أنظارنا ، نحن الأطفال إلى هذا الجزء من جسمها الذى تعرى ، بدون أن نفكر بمجرد حركة غريزية ودفعت عائشة الفتاة أو المرأة التى تقف إلى جوارها فاهتز ثدياها ، فزاغت أبصارنا كذلك ، بدون أن ندرى . وقالت لنا ، وكأنما هى صاحب « صندوق الدنيا » الذى يروى لنا ما نراه من صور الصندوق وهو يغنى : اتفرج ياسلام !

« الشيخ حط على وشه طرحه بيضاء » ثم بعد لحظة : « العفريت لبس الشيخ ، العفريت بيتكلم . . . هس . . . هس . . . والنبى خلينى أسمع » .

لقد كانت هذه التصريحات كثيرة وهائلة ، وكأنما هى كلمة السر :

افتح ياسمسم ! هكذا مرة واحدة . عفريت لبس الشيخ ! . . ثم أخذ يتكلم من خلال الشيخ ! . . عفريت ؟ كيف يكون وماذا يكون ؟ وما شكله ؟ ، هل له قرنان ؟ وله أرجل مثل أرجل التيس أو الخروف ، كما شاهدت فى كتاب إنجليزى كانت أختى تروى لى منه قصة أم الطرطور الأحمر والشجرة والعفريت ؟

ولكن حالى يومذاك كان عجباً ، فأنا لم أتحرك من مكانى ، لأرى هذا العفريت

أو على الأقل لأسمعه ، بل أنا لم أسأل أحداً ممن حولى من الأطفال أو الصبيان عن هذه الحقائق الضخمة التى تكشفت لنا بهذا الكرم السخى . بل لعلنا كنا مشغولين بأمور تافهة مما تشغل الأولاد ، كفتلة (دوبارة) نتنازعها ، أو (بلية) سقطت من يد أحدنا فخطفها الثانى وهكذا . . .

ثم علا الصوت ، وسمعنا دويًا منتظماً يجرى مع الصوت العميق الرهيب المجوف وعلمنا أن الصوت المصاحب هو وقع أقدام السيدات اللواتى كن يقفزن فى الداخل قفزاً منتظماً ، وبعد قليل خرج شابان أو صبيان يكبراننا ببضع سنوات ، وهما يتضاحكان ، وكان وجه أحدهما محتقنا بالدم ، خجلا من شىء لا أدريه ، وفى هذه اللحظة سمعت الشاب الثانى يقول بصوت حاول أن يكون همساً ولكنى سمعته : « شفت تيزة نظيرة . . وهى بتنط . . » ثم قال كلمة جمدنا لها ، ولعلنا لم نفهمها إلا بالغريزة ثم أضاف : « يابوى . . . دا أنا كنت عاوز أبوط فيها » . ولما انصرف الشبان ، ضحكت عائشة وقالت : «الله يخيبك . . يافوزى . . والنبى لاقول لأمه . . أبوط فيها آل شوف القباحة » وفى هذه اللحظة خرجت سيدة لا أذكر وجهها وصرخت فينا ودفعتنا بيدها دفعا فانزحنا من فوق « البسطة » ، اثنين اثنين ، أو ثلاثة ثلاثة ، كأنما نحن بناء انهار فجأة . . ولم نكد نصل إلى منتصف السلم ، حتى عاد بعضنا مسرعين إلى أعلى السلم ، وهم أشد عزما على البقاء ، وبعض آخر انصرف وأخذ يتحدث مع زملائه ، بغير ألم ولا أسف ، كأنما لم يحدث شىء .

الحادثة الثانية كانت يومها بالنسبة لى كالكابوس ، ولا أذكرها اليوم حتى تبدو لى وفيها جميع خصائص ومزايا الكابوس ، فقد كان على مقربة من دارنا فى طريقى إلى مدرسة محمد على منزل فى دوره الأرضى أو الأسفل نافذة كان يجتمع فيها عدد من الأطفال الذين يكبروننى فى السن ، وينظرون إلى الطريق من وراء قضبان حديدية وضعت على النافذة ، فإذا وصلت فى سيرى إلى مقربة من هذه النافذة سمعت لهم صوتاً كأنه فحيح الأفاعى ، ثم مدوّا أيديهم وأخرجوا ألسنتهم ، فتولانى فزع لم أعرف مثله من قبل ومن بعد ، فعدت أدراجى إلى منزلى ، وأنا لا ألوى على شىء . ورفضت العودة إلا ومعى أحد أهل المنزل ، ليحمينى من هؤلاء الأطفال ، وفى كل مرة يذهب معى واحد ، وفى كل مرة كان هؤلاء الأطفال يصمتون صمتا مطبقاً وكأنما

هم الذين استولى بدورهم عليهم الفزع ، فينظرون إلىّ فى عيون زائغة ، ووجوه شاحبة ، إلى حد أنهم كانوا يذكروننى دائماً بالكلاب الضالة الملتقطة من عرض الطريق ، والموضوعة فى عربة الكلاب . . والغريب أن هذا الخوف يتولانى فقط فى صباح اليوم ، أما طوال النهار ، فلا أراهم ولا أخاف منهم إن رأيتهم ، بل لعلهم لايحاولون إخافتى إلا فى هذه الساعة المبكرة من النهار . من هم هؤلاء الأطفال ؟ متى رحلوا من هذا المكان ، لماذا كنت أخاف منهم ساعة من النهار ؟ ثم لاأشغل بهم ، ولا أسأل عنهم طوال النهار ؟ هذه أشياء لم أجد لها حلا ، وأسئلة لم أعرف لها جواباً .

وفى هذا الشارع أستطيع أن أذكر نفسى فى موقفين متناقضين : أولهما فى آخر الشارع عند السلالم المفضية إلى جبل المقطم ، والثانى فى منتصف الطريق . فعند آخر الشارع أقامت عائلة غنية فى بيتها الكبير المواجه للتل مباشرة ، حفلة زفاف كبيرة ، عندما تزوجت كبرى بنات العائلة ، بموظف عالى المقام فى الدولة وقد دعيت مع أهلى لحضور هذا الفرح ، ولست أذكر نفسى فى أى موضع فى هذا المنزل ، ولكنى أذكر نفسى جالساً مع فرقة موسيقى الشرطة ، وكانت أيامها تحيى الحفلات مقابل أجر غير كبير ، فتبعث فى الحى كله بهجة وسروراً عظيمين ، لا بألحانها وموسيقاها فقط ، بل بحسن هندام أعضائها وأناقتهم ، وجمال الآلات النحاسية ، وبريقها الساطع . وأذكر جيداً كيف جلست على كرسى خيزران وسط الفرقة أو على مقربة منها ، وأنا غير مأخوذ بأنوار الفرح ، أو بموسيقى الفرقة ، بل لعلى كنت لحظتها شاعراً ببعض الضيق ، لأن حذائى الجديد لايسمح بالحركة الحرة ، وبذلتى الجديدة وفيها ربطة عنق فى أعلى السترة ، تشغلنى قليلا لعدم ثباتها ، ولاأذكر أنى صادقت ليلتها طفلا أو طفلة فى مثل سنى يؤنس وحدتى .

أما الموقع الثانى فقد كان فى منتصف شارع سلامة وكان فيه سرادق مأتم رجل كانت زوجته صديقة لأمى ، وهى سيدة طويلة ، ذات صوت أجش ، أشبه بصوت الرجال ، كانت فى أسلوب كلامها كالمشايخ قارئى القرآن . ولم يطلب أحد منى عندما مات الرجل أن أشارك فى العزاء ، ولكنى ارتديت بذلتى ببنطلونها القصير ، وجلست فى السرادق بين الرجال . ومازلت أذكر إلى اليوم أن السرادق لم يكن

مزدحماً ، وأننى جلست تسامرنى خواطر غريبة ، تفد على عادة فى مثل هذه المواقف التى يقرأ فيها القرآن ، ويتظاهر فيها الناس بالوقار والحزن والتجلد ، ففى هذه المواقف يخيل إلى أننى عارة فى الطيبة ، وأنه يمكن أن أكون وليًا من أولياء الله ، أو شيئاً أعظم من ذلك ، وأحسب ــ لحظتها ــ أن الناس الذين حولى يدركون هذا ، ويفهمونه جيداً ، وإن كانوا لا ينطقون به ولا يعلنونه . وبطبيعة الحال لا أكاد أضع قدمى خارج السرادق حتى أنسى هذا كله ، وأندفع عدواً وركضاً ، وصراخى يبلغ عنان السماء .

أما شخصيات شارع سلامة فأذكر منها اثنتين :

أما الشخصية الأولى فرجل فقد عقله ، كان يسير مطرقاً ، وينظر إلينا بعيون واسعة جدًّا ، سوداء رصينة ، كأنها عيون البقر ، تدور فى وجه حليق ، لا شارب فيه ولا لحية ، والرجل صموت لا يخاطب أحداً ، ولا يهاجم غيره ، ولا تمتد يده بأذى . ولكن الأطفال عرفوا سر ضعفه ، وهو أنه لايطيق أن تمتد يد إلى جسمه ، وعلى مر الأيام أصبحت الأيدى تمتد إلى موضع يستثير الحليم لمسه ولايكاد يحدث هذا حتى يخلع الرجل جلبابه ، ويبدو عارياً تماماً ، ويصرخ « ياعسكرى ! ياعسكرى ! » مرتين أو ثلاثاً ، ثم يضع جلبابه على جسمه ، كأنما أدى واجبه ، ثم يسير فى الطريق مطرقا صموتاً رصيناً رزيناً .

أما الشخصية الثانية فلرجل كان يرتدى عباءة خضراء ، ويمسك فى يده سيفاً خشبياً ، ويضع على رأسه عمامة سوداء أو خضراء لست أدرى ، ويعدو فى الشارع عدواً ومن خلفه عدد من الأطفال الذكور والإناث ، وهو يهتف وهم يرددون : « الله حى عباس جى . » فإذا وصل إلى موضع من الشارع يستدير وفى يده سيفه الخشبى ، وأخذ وضع من يطلق بندقية ، فيقع الأطفال فى الأرض صرعى طلقاته ببندقيته الموهومة ، ثم يقفز من فوق جثث صرعاه ، فإذا بعد عنهم قليلا ، قاموا وتابعوه . وهكذا تتكرر هذه الموقعة الجميلة التى تبعث فى الطريق حركة وفى نفوس الأطفال بهجة ، وفى نفوس الكبار رضا يرسم على وجوههم ابتسامة . ذلك لأن اسم عباس كان فى ذلك الحين رمزاً على ما يتمناه المصريون من تغيير ، لأنه اسم الخديو عباس الذى عزله الإنجليز ، والذى عاش المصريون سنتين أو ثلاثاً من سنى الحرب

العالمية الأولى ، وهم يسمعون أنه قادم على رأس جيش تركى . سيغزو مصر من ناحية الشرق عابراً قناة السويس . وهو حلم لم يتحقق ، ولكنه بقى يراود المصريين ، وكلما اشتدت قبضة الإنجليز ، أو ساءت سمعة السلطان فؤاد الذى أصبح ملكاً ، تاق المصريون إلى رجل يغير لهم الأمر القائم ، ويزيل الحكومة ، لتحل محلها حكومة وطنية ، تكره الإنجليز ، وتطردهم من البلاد .

ولقد كانت السلطات جديرة بأن تمنع مظاهرات الشيخ على ، لأنها تذكر المصريين بالخديو عباس ، ولكن الإنجليز أخبث من أن يقعوا فى هذا الخطأ . لاحظوا أن هذه المظاهر ترضى الناس ولا ينجم عنها أدنى خطر ، حتى أصبحت مظاهرته رمزاً على الأمل الكاذب ، والهلوسة المضحكة .

ثم إن الإنجليز كانوا يحبون أن يبقوا السلطان فؤاد فى خوف مستمر من عودة عباس ، فيمسكونه من خطامه ، ويجرونه بفضل خوفه إلى حيث يريدون ، كذلك يحبون أن يشعروا الملك أن الشعب لايحبه ، وأنه ينتظر عودة عباس ، فلا تأمن لهذا الشعب ، واحتم بنا .

وهكذا نعلم ، من منظر فولكلورى شعبى صغير ، كيف تعمل السياسة البريطانية وكيف تتجه .

* * *

وكانت تقع فى شارع سلامة مشاهد كأنما هى مناظر من رواية استعراضية دائمة تتعاقب على طول شهور السنة .

وإنى أود أن أغمض عينى لأحصى هذه الظواهر جميعاً ، حتى لا تفلت من ذاكرتى وتمن العد والإحصاء واحدة منها :

موكب وفاء النيل ، وصينية « عاشورة » وجولة المسحراتى الليلية فى ليالى رمضان والنهارية فى أيام العيد ، وموكب الزفاف مع رقصة النقرزان ، وزفة المطاهر فى عربات الحنطور ، والشحاذة من أجل مولود يلتمس أهله له الحياة . . . هذه مشاهد غنية ملونة ، ترى إلى أى حد تمتلىء حياة أهل القاهرة بنفحات الفن

الجميل ، فن الرقص والغناء المرتبطين بمعتقدات الشعب الموروثة ، وتقاليده المحفوظة .

فموكب وفاء النيل لا أعنى به مطلقاً هذا الموكب الرسمى الذى تنظمه الحكومة فى النهر ، وتسير من أجله باخرة تخرج من روض الفرج إلى فم الخليج ، عندما يبلغ الفيضان قمته ، وتجبى ــ حسب التقاليد القديمة ــ الضريبة على الأراضى الزراعية .

وإنما أقصد موكباً محليًا متواضعاً ، قوامه رجل ريفى يبدو على ملابسه وعلى شكله أنه آت لتوه من إحدى قرى الريف المجاورة للقاهرة ، ومن خلفه فتاتان وصبيان أو ثلاثة ، كلهم بثياب الريف ، ويحمل الرجل وبعض أفراد هذا الموكب علمين أو ثلاثة أعلام قديمة بالية ممزقة قذرة ، لست أدرى مسوِّغ حملها ، ثم يرددون معاً فى صوت خال من البهجة والحرارة ، غناء لا أذكر منه شيئاً إلا أنه ينتهى بمقطع « عوفا الليه » . ولاأدرى أيضاً مامعنى هذه العبارة ، ولقد فكرت فيا يحمل هذا الرجل وأولاده على الاعتقاد بأن من حقهم أن يلتمسوا الصدقة والإحسان بمناسبة بلوغ الفيضان غايته ؟ ولكن بعد قليل من التفكير تبينت أنه محق . ففيضان النيل هو مصدر الخير للبلاد ، والفيضان المنخفض هو كارثة الكوارث لمصر ، قد تسبب المجاعات ، إذ لم يكن لمصر مصدر رزق سوى الزراعة التى تعتمد على النيل وفيضانه ، فالرجل بأعلامه يحمل إلى الناس البشرى بأن الخير وافى وينتظر لقاء هذه البشرى الجميلة أن يعطوه شيئاً من الخير الذى سيعمهم . أما هذه الأعلام ففى الأغلب أنها البقية الباقية من أعلام كثيرة ، كان يحملها أتباع الطرق الصوفية يخرجون بها فى موكب حافل ، ويطوفون الأحياء ، فى مناسبة هذا العيد القومى ، فتقلصت هذه المواكب وانحسرت عن الأحياء والشوارع الفرعية ، فبقى هذا الرجل وموكبه إشارة اليها وبقية منها .

أما الظاهرة الثانية ، فهى لا تزيد عن صينية كبيرة يحملها رجل على رأسه ، وفيها شىء كالدقيق الملون ، يوزع فى الصينية ، فى شكل مثلثات متجاورة ، مثلث منها أحمر ، والثانى أصفر ، والثالث أخضر ، والرابع أزرق ، وهكذا . . وتكون المثلثات المتجاورة دائرة مستديرة كاملة الاستدارة ، وهذا الدقيق الملون هو بخور

يبيعه الرجل وهو يغنى : بخروا السلالم من عين أم سالم ، بخروا السرير من عين أم سمير . . إلخ .

أما الظاهرة الثالثة ، فهى لا تحتاج إلى تصوير ، فهى ظاهرة معروفة لكل مصرى فى القاهرة وفى غيرها ، تلك ظاهرة المسحراتى،والذى يطوف بطبلة صغيرة فى إحدى يديه وجلدة فى يده الأخرى يدق الطبلة بالجلدة فى ليالى رمضان داعيا إلى الاستيقاظ ، وتناول السحور . ولكن مسحراتى شارع سلامة وما حوله كان شخصية فنية فذة ، لا يضارعه فى سحر غنائه مسحراتى آخر ، ممن سمعت فى أحياء مصر وإسكندرية وطنطا وبنى سويف وأسيوط ، وهى بلاد أقمت فيها وصمت خلال إقامتى بها شهر رمضان ، وسمعت صوت المسحراتى ، فلم أسمع فيها جميعاً صوتاً لمسحراتى ، كهذا الذى كان يوقظنا فى الليل البهيم ، فى شارع سلامة لنتناول طعامنا ولم يكن صوته عذبا ، وإنما كان صوتاً حيًّا منعشاً فياضاً بالبهجة ، وكان صاحبه شاعراً شعبيا ينظم المعانى الجميلة ، فى ألفاظ جميلة ، ويُحيى بها أهل كل بيت . وكان لدينا قط نحبه جميعاً اسمه « أصلان » فطلبت إلى هذا المسحراتى الفنان أن يحييه فيمن يحييهم من أهل البيت ، وهو لايدرى أنه قط ، فراح طوال شهر رمضان ، يصف كل ليلة أصلان هذا وصفاً لو أدرك القط معناه لتدلل علينا فوق دلاله ، كان يقول له : « ياسى أصلان بك ، يابن الكرم والجود ياللى يمر عليك رمضان بالفرح ويعود ، وريحتك الحلوة فايحة زى الورد والعود » .

بقى من مشاهد شارع سلامة رتل من الباعة يعرضون فيه حلواهم عرضاً خاصا ، كأن كل نوع من هذه الحلوى شخصية إنسان ، تخالف عداها من الشخصيات ، فلدينا بائع المداغة يبيعها على عمود طويل فى نهايته (شخشيخة) يهزها فتحدث صوتا يطير له صواب الأطفال ، فيخرجون من كل شق وفج ومعهم ملاليمهم ، والرجل الطويل كالعمود فإذا جاءه الطفل شد الحلوى البيضاء الملتفة حول العمود ، وهى تمتد فى يده إلى أى بعد شاء ، ثم يدفعها إلى الطفل المتلهف . ثم يأتى بعده بائع (الدندرمة كيمك) وهى المثلجات التى عرفت فيما بعد بالجيلاتى الإيطالية و(الجلاس) الفرنسية و (الآيس كريم) الإنجليزية ، ولايبيع هذه لكيمك إلا رجل تركى أبيض اللون والشعر ، يرتدى قميصاً أبيض ناصع البياض ، تحت معطف أبيض فى مثل نصاعة القميص ، والكل ينافس المثلجات

،لبنية فى بياضها . فإذا مضى هذا الرجل جاء فى أعقابه (بائع الفانيليا) وهى رقائق من الدقيق ، يضعها الرجل فى صندوق أسطوانى الشكل ، يحمله على ظهره ، وفى يده بوق صغير ، ينفخ فيه ، وقطعتا خشب تحدثان صوتاً خاصاً نعرفه ، فإذا سمعناه وسمعنا (بسكوت فانيليا) نتدحرج على الطريق وفى أيدينا ملاليمنا ، فإذا اختفى ظهرت على قارعة الطريق فتاة تحمل فى يدها طبقاً من الصاج المقشور القذر ، وفى يدها معلقة من الصفيح الملتوى ، وراحت تغنى على ما تسميه (على لوز) وهو حلوى مصنوعة من السكر المعقود وفوقه بعض حبات من اللوز المقشور وبعض أجزاء من (الكراميلا) ولا تكاد بائعة على لوز تذهب حتى يهل من خلفها بائع (غزل البنات) الذى يصنع على عربة تحمل صينية من الزنك ، وفى وسطها دائرة تدور بسرعة ، فتنسج حسب نظرية الطرد المركزى شعراً من السكر ، هو غزل البنات الذى لا يسمن ولا يغنى من جوع ، ولكن منظره وهو يصنع ، هو سر فتنته وسحره .

ولست أريد أن أحدثك عن بائع القصب وندائه (سليم ياقصب) ولا بائع الملانة ولا بائع العنب الذى هو « بيض اليمام حيناً وبيض الحمام حيناً » وإنما أريد أن أنتقل بك إلى صنف آخر من عارضى الفنون الشعبية ، وأبدأ ببائع (حب العزيز) لأنه وسط بين باعة الحلوى وفنانى الشارع ، فحب العزيز يباع على طبلية يحملها رجل ، ولكن يصحبه آخران ، فإذا وقفا فى شارع سلامة راحا يؤديان منولوجا محبوباً ومعروفاً مطلعه « حب العزيز الربعة بقرش » .

ثم يسمعون المارة (منولوجات) مختلفة ، وأغانى مشهورة ومعروفة ، بأصوات لا بأس بها ، تفتح لها الشبابيك ، أو تبقى مغلقة لتطل من خلفها الآنسات والسيدات فترتفع أعين الشبان ، متصورة من جمال الناظرات مالا وجود له فى الأغلب من الأحوال .

ومثل بائع حب العزيز قدرة فى استثارة اهتمام المارة وأهل البيوت : القرداتى ، فصاحب الأراجوز ، فالغازية التى ترقص ، ومعها رجل يطبل وصبى يصفر ويسير وراءها صف طويل من الأطفال والصبيان .

ويأتى فى ذيل هذا الصف من الفنانين صاحب صندوق الدنيا ، وهو دائماً رجل فرغ من الحياة يسعل سعالا متصلا ، يضع صندوقه ، وأمامه مقعد خشبى طويل ، يجلس عليه ويسدل فوق رءوسنا جزءاً من ستارة قذرة أو ممزقة ونطل من فتحتين زجاجتين تكبران الصور ، فنرى السفيرة عزيزة وغيرها من الصور المرسومة بيد فنان لايتقدم بحيث لا تستطيع أن تميز وجوه الآدميين فى صوره من وجوه خيله وحميره .

ولا يكاد يخلى صندوق الدنيا مكانه حتى تأتى غجرية (نبين زين ونخط بالودع) أو (نبين زين وندج ونطاهر) فهى فنانة وطبيبة فى الوقت نفسه ، تجرى عملية الختان الوحشية للبنات ، وهذه الغجرية دائماً طويلة فارعة القوام ، مكحولة العينين ، سمراء الوجه ، لها صوت أجش من كثرة النداء ، ولكن لمشيتها وخيلائها سحر فى نفوس الرجال الذين يجلسون على أبواب المنازل ينظرون اليها وهم يتأوهون .

فشارع سلامة كما ترى شارع مائج بالحركة ، فياض بالفن ، كل مافيه يبعث البهجة ، ويحرك الماضى ، ويمزج بين طلب الرزق ، وإشباع الروح ، فى تواضع ينفطر له قلب الرحيم ، فكل ما يطمح فيه البائع الفنان هو ملاليم يجود بها الأطفال ، ومع ذلك فالفن يزدهر ، والتجارة تستمر ، والأطفال لايكفون عن دفع ملاليمهم الصغيرة ، إلى أيد ضخمة سمراء ، تشققت من طول الكدح والسعى من أجل الرزق الضنين .

على أنه بقى فى جعبتى من مشاهد شارع سلامة منظران كلاهما يفيض بالنور ، أول المشهدين وقع فى ليلة أن أدخلت مصلحة التنظيم فوانيس غاز الاستصباح إلى شارعنا فأضاءت لنا فى هذا الشارع بنور أبيض ساطع لم نر مثله من قبل ، فسهرنا ليلتها تحت الفانوس حتى الصباح ، لم يستطع واحد منا أن يذهب إلى بيته وأن يدع هذا النور الغريب الذى فاق نور القمر بهاء فضلا عن قربه منا . وقد كان فى بيتنا نور الكهرباء ، فقد دخلها قبل تلك الليلة بسنين قليلة ، ولكن أن يضاء شارعنا بنور أخاذ فتلك هى السعادة الجماعية . . ولقد كان لهذا النور يد أخرى فى أعناقنا فقد أضاف إلى شخصيات شارعنا شخصية لم نكن نعرفها بعد ، فأدخلناها ضمن شخصياتنا المحبوبة : تلك هى شخصية (عفريت الليل) الذى كنا نحييه بأغنية القاهرة المعروفة ، « عفريت الليل بسبع رجلين وأسنانه سود من أكل الدود » .

أما المشهد الثانى فمشهد أشعلت فيه لأول مرة (كبريت الهواء) فى ليلة من ليالى رمضان . ثم أشعلت فى أعقابه (الشمس والقمر والنجوم) . . . كان كبريت الهواء عيداناً طويلة ، فإذا أشعلناها وأدرنا بها يدنا طويلا ثم قذفناها فى الهواء شملت المكان ألوان منها الأحمر والأزرق والأخضر . ولم تشهد بلادنا بعد ذلك هذا اللون من الكبريت الوضاء الباهر . ولم تشهد بعد الشمس والقمر والنجوم بجمالها وبريقها الذى كانت تشعه أصابع من السلك مغطاة بطبقة مما يشبه الإردواز فقد تدهورت هذه اللعبة فيما بعد . حتى نسيها الأطفال إذ أصبحت اسماً على غير مسمى . . أما نحن فقد منحتنا ليالى كانت آية من آيات الفن الجميل ، ومتعة من متع النور الذى تتعدد ألوانه وتتوالى موجاته وتتسع دائرة بهجته وفرحته .

* * *

وقد بقيت زمناً ، لاأعرف من يكون « سلامة » الذى سمى شارعنا العتيد باسمه ، حتى عرفت من خطط على مبارك ، أنه أمير ومهندس ومدير لديوان الأشغال العمومية ، فسرنى أن يكون الشارع الحبيب ، قد حمل اسم مهندس كأبى ، ولم يحمل اسم أمير جاهل . . .

بيت ملياديان

انتقلنا من بيت الحكيم فى الجيزة إلى بيت مليا ديان فى شارع سلامة وكان هذا المنزل هو مرتع طفولتى بحق . إذ شهد من سنى حياتى ما سبق دخولى المدرسة الابتدائية . والسنتان الأوليان من حياتى بهذه المدرسة ومعهما سنتان قضيتهما فى مكتب أولى ، هى سنوات طفولتى الأربع ، أما ما بعد ذلك فقد كان عهد الصبا .

وكان بيت مليا ديان يقع على ناصية شارع سلامة وشارع آخر متفرع منه ، نسيت اسمه تماماً ، وكان الشارع الفرعى كالشارع الأصلى فسيحاً نظيفاً خالياً من الحوانيت ، تقع على جانبيه بيوت يمكن عدّها فى جملتها فوق المستوى المتوسط لبيوت القاهرة .

ولم أكن أعرف من تكون مليا ديان يوم سكنا فى هذا المنزل ، وبقيت أجهل دورها فى الحياة العامة حتى شببت عن الطوق ، وقرأت جرائد ومجلات المسرح ، فعلمت أن مليا ديان هذه كانت نجمة مسرح سلامة حجازى ، مثلت معه أكبر رواياته ، وبقيت جاهلا أنها سيدة يهودية ، حتى ذاع اسم موشى ديان القائد الصهيونى ولاحظت الشبه بين الاسمين ، ثم تأكدت من أنها يهودية مما كتب عن تاريخ المسرح المصرى .

ولما انتقلنا من الجيزة إلى القاهرة ، وسكنا هذا المنزل ، انتقلت معنا أم حسين الطباخة السوادنية ، وحفيدتها صديقتى وفريسة شقاوتى (حميدة) ولكن لم تلبث أن

تركتنا وحلت محلها سيدة مصرية اسمها أم جليلة ، صاحبتنا طوال حياتنا فى القاهرة ، وبقيت على صلة بنا حتى بعد أن تركنا القاهرة ، فقد قدمت لنا أكثر من قريبة لها لخدمتنا ، حتى أصبحن منا . ولما اشتغلت بالمحاماة فى القاهرة بقيت أم جليلة على ودها ، تزورنى وتدعو لى وأفرح بزيارتها ، لأنها صديقة أمى ، ورفيقة حياتها سنوات طويلة .

وكان مع أم جليلة شخصية أخرى ، هى عبد الله الفلاح الذى وفد مع عائلتنا من الخيس ، وبعبارة أدق من عزبة حمدى ، فأصبح بندريًا ، وعرف مداخل ومخارج الحياة فى القاهرة ، وكان له دور فى حياتنا ، فقد استمر يعمل فى بيوت العائلة . بدأ عمله فى بيت جدتى الذى كان يقع قريباً من بيت (مليا ديان) فى شارع سلامة ، ثم عمل عندنا فى هذا البيت الآخر ، ولما تزوج خالى الأوسط ذهب معه وعمل معه ، وأحب فتاة كانت تعمل عند شقيقة جدتى فى منزل قاسم باشا ، فلما توفيت سيدتها ، ورثتها جدتى ، ثم لما تزوج خالى عاشت معه أمى ، وعاش معها من كان يخدمها . أحب عبد الله حورية ، فانطبق عليهما بيت الشعر البدوى :

وأحبها وتحبنى ويحب ناقتها بعيرى

وقد تم الزواج بعد حب عنيف ، ختم به عبد الله مغامراته العاطفية ، ولما سافر خالى لأقصى الصعيد مفتشاً للرى آثر عبد الله أن يبقى فى القاهرة ، فعينته فراشاً بمكتب لجنة مشروع القرش ، فلما طرد رجوت الدكتور عبد الواحد الوكيل وكيل وزارة الصحة ، فتلطف الرجل وعينه على إحدى حنفيات المياه بالقاهرة ، فلما فصل من عمله تولته وزارة الأوقاف بشىء من برها ، حتى توفاه الله بعد مرض طويل .

ولا يحسبن القارىء أن من الإسراف ، أن أستوقفه لأحدثه عن عبد الله هذا ، وعن أم جليلة ، هذه ، فهما شخصيتان ــ وإن كانا من عامة الناس ــ غنيتان بمزايا إنسانية لا يستهان بها .

أما أم جليلة فنموذج لنساء أهل القاهرة اللواتى نقول عنهن (بنات البلد) ولا يبعد أن يكون أجدادها من شراكسة المماليك الذين كانوا يحكمون القاهرة ومصر كلها ، والذين فقدوا سلطانهم ، ثم فقدوا ثرواتهم ، شيئاً فشيئاً ، فازدادوا اقتراباً من طبقات الشعب الدنيا وذوباناً فيها ، ثم فناء تاما فى خصائصها العقلية

والروحية ، فقد كانت بيضاء وكانت عيونها الضعيفة خضراء أو زرقاء ، وكان لها ولد اسمه (سيد) قوى البنية ، عالماً بفنون الشجار فى الحارات ، لا يكف عن الصدام مع غيره ، ولا ينقطع عن شج الرءوس وكسر الضلوع وإسالة الدماء والدخول إلى أقسام « البوليس » فالسجون فالعودة إلى الحرية وهكذا دواليك .

وارتقى هذا الشاب المغامر فى درجات الشجار حتى أصبح (فتوة) الحارة التى يعيش فيها ، ثم الحى ، فارتفع اسمه ، وذاع صيته ، وبالتالى كثرت قضاياه ، وكثر إبلاغ أمه بأزماته ومتاعبه . وكانت لاتقوى على البقاء أمام حلل الطبيخ لحظة ، بعد سماع نبأ من أنباء ابنها العزيز المثيرة ، فقد كانت تخطف ملاءتها ، وتلقيها على رأسها ثم تندفع لاتلوى على شىء ، فإذا عادت وهى تعلم أن ابنها رهن الحبس ، فقدت حيويتها وكف لسانها عن الكلام ، وذهبت إلى فراشها لتنام ، فى ساعة مبكرة من الليل . فاذا أفرج عنه ، ولو بكفالة ، عادت إليها بهجتها ، وأعادت إلينا البهجة .

وكانت أمى تألفها ، وتأنس إليها ، وتسمع لها أقاصيص بعضها من نسج الخيال وبعضها مآس حقيقية ، كان أهلوها وجيرانها أبطالها وفى الحالين كانت المبالغة أسلوبها المفضل .

وقد عودتنا أمى أن تعيد لنا رواية بعض حكاياتها ، وهى لا تقوى على الكلام من شدة الضحك . فأم جليلة لاتعرف من الناس إلا كل ذى مقام كبير ، ولما كان كل الذين تعرفهم لايزيد الواحد منهم على أن يكون سقاء أو شيالا أو نجاراً ، فالوصف الدائم لهؤلاء جميعاً أنهم من الكبار ، ففلان زوج بنت عمتها . . . سقا ، « ولكن ياست سقا من الكبار . . الكبار قوى » أما ابن بنت خالها فهو شيال « اسم الله على مقامك ياست . . . بس شيال كبير كبير قوى أد الدنيا » وإذا جاء عسكرى لابنها يسوقه إلى السجن ، فهو عسكرى شاويش . . . طويل طول الباب ، وشنباته والنبى ياست صدق اللى قال يقف عليها الصقر . . وهف ابنى قلم . . الناس سمعت صوته كده زى المدفع . . . وصل من هنا للعتبة . . فابنى رد عليه بروسية كومته حته واحدة فى الأرض ، وإذا وصفت أم جليلة سيدة جميلة ، فحواجب هذه السيدة (أد كده) وتشير بأصابع يدها الخمسة مبسوطة ، أما رموشها (فأد كده) وتشير بكف يدها مفتوحاً ، أما شعرها ففى طول ذراعيها معاً . . وكانت أمى تعلق

على هذا الأسلوب المضحك ، بأنه يشبه أسلوب ألف ليلة وليلة ، والـذى يروى قصص الجان والعفاريت والعمالقة والأقزام ، ويبالغ مبالغات لايقبلها عقل ، وأن هذا سحر الحكاية فى كل زمان ومكان .

ولما كبرت ، وأصبحت أجد متاعاً ما بعـده متاع فى تـأمل شخصيـات أولاد البلد ، أدركت أن هذه من سلالة حاكمين ، وأن ابنها المقاتل المصارع ، تجرى فى عروقه دماء أجداد كانوا يتخذون من المعارك بالسيف والخنجر فوق صهوة الحصان مصدر رزق ، وسبيلا إلى السلطة وفنًا للترويح وتجديد الحياة . والأم والابن كلاهما كان يعوض نفسه عن القوة الزائلة ، بالخيـال والاصطدام بـالناس . هى تـروى قصص عظماء ، تخلقهم من أهل حارتها الفقـراء الضعفاء ، وتتحـدى الواقـع ، ولا يهمها فى قليل أو كثير ، وهو يعدّ أهل الحارة قادة أو أمراء ينافسهم ويدخل معهم فى نزال لا ينتهى .

وإذا فرغت أم جليلة من عملها ، وأوت أمى إلى فراشها ، والتمست النوم ، جلست أم جليلة تروى الحكاية فى إثر الحكاية ، وأمى تسمع وتضحك ، أو تسمع وتسأل ، أو تسمع وتستعيد بعض ما سمعته ، حتى يوافى ساحر الليـل الباهـر ، فيعقد أجفانها فتنام ، وتبقى أم جليلة تحكى وتحكى ، أشبه شىء (بترانزستور) هذه الأيام ، نديره إلى جانب وسادة النوم ثم ننام . . وننساه ، ويسترسل فى الغناء والحكاية والتمثيل والتعليق . . . لكن أم جليلة لم تكن لتحتج قط ، إذا أدركت أن كلامها ذهب فى الهواء ، فقد كان يسرها أن تتكلم ، ولايهم أن تجد سامعاً ، فإذا وجدت من يسمع ثلاثة أرباع كلامها ، ويبدى الإعجاب والمشاركة ؛ فإن الربع الأخير صدقة ، لأنها وجدت رفيقاً يطلب منها أن تتكلم .

ولكن هذه المحدثة الودود وتلك الأم المتلهفة على ابنها ، لاتلبث أن تخرج من إهاب طيبتها إلى امرأة أخرى طويلة اللسان ، تـرفض وتحتج وتغضب ، وتحمـل ملاءتها وتترك المنزل لأنها تأبى أن (يدوس على طرفها أحد) ثم تهدأ وتصفح وتعود .

أما عبد الله فطراز آخر ، ريفي ، يحمل فى نفسه خصائص خريج الريف ، الذى عرف أن السبيل للنجاة من العذاب والظلم ، هو ضبط النفس وكتم الرأى والمداراة ، وأنه لا يأخذ حقه صراحة ، وإنما خطفاً وغشا وتدليساً ، وفى الأغلب

يأخذ أكثر من حقه . وهو يرى أن ذلك هو القانون الذى ارتضاه السادة : أن يغبنوه فلا يدفعون له أجره ويهينوه فلا يقيمون لـه وزنا ، ويتجنـوا عليه ، فـلا يحسبون لكرامته حساباً . كان أبو عبد الله ، حارساً لخلايا النحل التى أقامها جدى ، يقتل (الزنابير) ويهيىء لها ما يلزمها ، فلما جاءت جدتى إلى القاهرة ومعها أولادها ، جاء معهم عبد الله . ولكنه لم يلبث حتى تخفف من أخلاق أهل الريف وثيابهم ، وأحب القاهرة وعرف لغة أهلها ، وأسلوب معيشتهم ، فبز كثيراً منهم . فقد أصبح له صندوق من الخشب الغالى ـ من خشب الموجانا ـ ملأه بكل الكتب الشعبية : كتاب ألف ليلة وليلة ، مجلداً تجليداً جميلا ، وسيرة سيف بن ذى يـزن ، وسيرة الظاهر بيبرس ، وسيرة عنترة بن شداد ، وكتاب ابن سيرين فى تفسير الأحلام ، وكتاب (أبو معشر) ، وفوق كل ذلك الكتاب الشهير « رجوع الشيخ إلى صباه » . وكان فى الصندوق إلى جانب هذه المكتبة الثمينة التى لا يقتنيها إنسان فى مرتبة عبد الله وثقافته ، ملابس صيفية وأخرى شتوية ، وعصا من الأبنوس الجيد ، وجوارب مليئة بأنواع (البلى) البلورى والبلى المصنوع من النيكل ، تكاد تكون من انتقاء هاو من هواة جمع التحف ، كجمع الفراشات أو الطوابع أو الأصداف ، وكانت له بعد ذلك ساعة فضية ضخمة ذات سلسلة فضية جميلة .

وبهذه الخصائص الثقافية ، ثم بهذه المقتنيات الثمينة ، أصبح لعبد الله ، مكانة بين الطهاة والعاملين فى المنازل التى تعلو منزلنا ثراء وفخامة ونفـوذاً ، فقد اعتـاد هؤلاء أن يجتمعوا عند (صادق) الذى ينطقون الصاد فى اسمه مخففة حتى تصبح سيناً . وصادق هذا هو طاهى القاضى (لبيب عطية) الذى أصبح فيها بعد نائباً عاما ووكيلا لمحكمة النقض ، ولأن بيت القاضى هو دائماً ، بيت ممتاز بـين بيوت أى حى ، فقد كان الاجتماع عند طاهى هذا المنزل أمراً متفقاً مع تقاليد هذا الشعب العريق الذى يجعل للعدالة مكانها المرموق ، وللقاضى مركزه الفذ ، ويضفى على كل من يتصل بالقاضى المهابة والاحترام .

وكنا نروح ونغدو فى الأمسيات والأصائل ، فنرى عبد الله جالساً ، ومعه كتاب يتلو منه بصوت مسموع ، والجميع قد تحلقوا حوله ، يسمعون كأن على رءوسهم الطير ، ولم أكن أدرى وأنا طفل أن هذه حظوة أتاحها الله لعبد الله ، حتى كبرت وعرفت قدر الكتاب .

ولما أصبحت قادراً على أن أسمع (الحواديت) المكتوبة فى الكتب ، والتى تطول نوعا ما ، وتتعقد فيها الحوادث ، طلبت من عبد الله أن يقص علّى بعضها فقص على من قصص ألف ليلة وليلة ، ما كان أول بداياتى الفنية والفكرية معاً . وإنى لأكاد أقول ــ لولا أننى لا أريد أن أظلم عبد الله ــ إن عبد الله كان يخلط بين قصص ألف ليلة وليلة وبين قصص رجوع الشيخ إلى صباه ، عمداً أو سهواً ، والفارق بينهما فى الواقع ضعيف ، فبعض قصص ألف ليلة وليلة ، تكاد تكون قصصاً أخطأت طريقها إلى كتاب رجوع الشيخ .

ولكن عبد الله كان مضطراً لتمويل مكتبته وتنمية مقتنياته إلى أن يتورط فى بعض الانحراف ، وكان لا يقوى على رد نفسه عنه ، فقد كانت جدتى أضعف من أن ترده ، وكان خالاى الأكبر والأصغر ، ألين من أن يخيفاه ، ولكنه حينما عمل عندنا رأى من أمى أسلوبا آخر فى التقويم والتهذيب والإصلاح .

لقد كان وجه عبد الله نحيفاً ، تبرز منه عظام وجنتيه ، وكانت عيناه قد أفسدهما رمد أو مرض فى الريف ، فأصبحتا نقطتين لا نتبين لونهما .

وسرت يوماً فى طريق السَّد البرَّانى مع عبد الله وكان فى جيب جلبابه الصغير الموجود فى أعلى الصدر جنيه من ورق . . وفجأة رأيت عبد الله يصيح : ابن الكلب . . . سرق الجنيه ؟ . . ! وفهمت من كلامه وصراخه أن نشالا خطف الجنيه . . والحق أننى لم أر إنساناً يقترب منا فى هذه اللحظة ، ولا إنساناً يحاول الفرار . . صحيح أن هذا الشارع ، مزدحم دائماً ، ولكن فى هذه اللحظة لم نكن فى قلب الزحام ، فعبد الله أساء اختيار اللحظة . وعدنا إلى المنزل ، وجرى تحقيق سريع ، كان عبد الله ينتظر منى ، وأنا الذى أنتفع بمكتبته وأسمع قصصه ، ثم جوارب البلى التى صادرت أمى بعضها قسراً لتمنحنى إياها ، أن أشهد لمصلحته . والحق أنه لم يفاوضنى فى ذلك قبل التحقيق ، لاطمئنانه إلى محاباتى له وانحيازى إلى جانبه ، ولكنى قلت بسذاجة ، وأنا لاأدرى عواقب هذا القول : إنى لم أر أحداً يقترب منا . وعدّ عبد الله سارقاً ، ولكنه لم يضرب ولم يهن هذه المرة .

ومرت أيام ثم مرضت بالتيفويد ، وطال مرضى ، ودخل علىّ عبد الله ليحيينى ، ولما قلت له إننى أعانى من المرض ، قال : هذا ذنبى ! قلت ببراءة تامة :

كيف ؟ قال : ألم تشهد ضدى كذباً ؟ وحدقت فى وجه عبد الله تحديقاً شديداً وأنا لا أصدق أنه يقسو على هذه القسوة البالغة ، فيعد مرضى الطويل الخطير ، عقاباً لى لأنى لم أحابه ، واصفر وجه عبد الله ولم يتكلم ، وانصرف مستخذياً . . وعرفت أنى ظلمت أمى وأنها لم تقس عليه يوم ضربته . . وانقطعت صلتى بعبد الله فلم أعد أطلب منه قصصاً ، ولم يعد يحسبنى من أصدقائه . .

* * *

أما بيت مليا ديان فحقيق بكلام طويل . .

فقد تفتحت فيه طفولتى ونضجت ، إذا جاز أن الطفولة والنضج يقترنان .

وما أعنيه بنضج الطفولة ، هو استقرار الصورة فى ذهن الطفل ، ومعرفة عدد من الأسماء وآخر من المهارات ، يبرز شخصيته كطفل ، فيكون للناس حكم عليه ، فيقولون عنه إنه ذكى أو خواف أو شرس أو مريض أو عبيط أو مكار . . لاشك أن الناس تميز بين طفل وطفل ، فيحبون طفلا ، ويبتهجون لحيله وأسلوب كلامه ، ويضيقون بآخر ويفرون منه .

وقد كنت فى بيت مليا ديان أجمع بين صفتين متناقضتين ، فأنا دائم المرض ، ولكن ما أكاد أستعيد بعض قوتى حتى اندفع إلى اللعب والحركة ، كأنى لم أكن مريضاً منذ لحظة . ولا أكف عن اللعب العنيف والوثب والقفز والصياح حتى ترتفع درجة حرارتى ، ويحمر وجهى من أثر حرارة بدنى ، وتسلمنى الحرارة الشديدة إلى ما يشبه الهذيان . وسر ضعف صحتى ، هو سرعة احتقان لوزتىّ ، وإذا احتقنتا ارتفعت حرارتى ، وانقطعت عن الحركة وعن الطعام وأخلدت إلى الفراش وانشغل البيت كله بى .

ولاأكتم أننى ـ وإن كنت أعانى أشد المعاناة من مرضى ـ كنت أستمتع بهذا المرض ، حتى لقد خيل إلى بعد أن كبرت وقرأت شيئاً فى علم النفس ، وأصبحت أميل إلى التأمل فى نفوس الناس ، وإلى مراقبة الأطفال ، أنه كان لإرادتى دخل فى مرضى ، بعبارة أخرى أننى كنت أمرض نفسى ، لا افتعالاً ولا ادعاء ، فقد كان مرضى حقيقيًّا وكان الأطباء يعالجوننى ، ويترددون على بيتى ، وكان منهم أكبر أطباء

الأطفال فى تلك الأيام ، فى مقدمتهم الدكتور عبد العزيز نظمى أول طبيب أطفال ، تعلم فى مصر وفى فرنسا .

ولكنى حينما أذكر كيف كنت أرقد على الفراش ، وإلى جوارى أمى ، وأمامى منضدة صغيرة عليها الأدوية (ودورق) به عصير الليمون ، وإناء به ماء مثلج وقطع من القماش ، توضع على رأسى ، لتلطيف الحرارة ، وأهل البيت ، وأخوالى ، والجيران يسألون عنى ، ولما كان أهل البيت جميعاً لا ينتابهم المرض إلا قليلا ، وإن مرض أحدهم لم يطل مرضه . . أصبح مرضى امتيازاً لى ، لا يشاركنى فيه أحد ، وكان هذا المرض ، سبيلا الى الاستئثار بحب خاص من أمى ، وبقلق خاص من أبى وقد عزز هذا كله كونى الولد الوحيد بين أخواتى البنات .

ولما كانت معاناتى حقيقية ، وآلامى إبان المرض شديدة ، فقد كان العطف على مشروعاً ، ولم يكن هناك من يشكك فى كونه حقًا لى ، ولكنى لاأكاد أضع قدمى على عتبة الصحة حتى أنطلق كأشد ما يكون الطفل الصحيح حركة ، انطلاقاً من البيت وتفننا فى اللعب . .

فلست إذن ممن يتخذون من المرض سبيلا إلى استبقاء العطف بعد الخروج من أسره ، ولم يكن كل آلامى من احتقان اللوزتين ، وإن كانتا هما مصدر المرض الرئيسى ، فقد أصبت فى بيت مليا ديان بالدفتريا وكانت وقتذاك مرضاً مميتاً ، وكان علاجها عسيراً ، إذا تأخر تشخيصها ، وقد بدا ضعفى فصحبنى خالى حسين إلى عيادة طبيب على ناصية شارع الشيخ ريحان ، فعرف فى الحال أنها الدفتيريا ، فأعطانى المصل المضاد ، ونجوت بعد أن كنت من الموت قاب قوسين أو أدنى ، وقد بقى خالى يمن علىّ إلى آخر العمر بأنه أنقذنى من الموت وأنه لولاه لما نفع فى رد الموت عنى طب ولا طبيب . ويومها ذهبت أختى أمينة إلى بيت جدتى ، لتصيح بأعلى صوتها أن حلقى قد سدّ ، وأنى موشك أن أموت ، ففزع الجميع ، وأسرعوا إلىّ ، بعد عودتى من عيادة الطبيب ، وعلى وجوههم وجوم الخوف المكتوم ، وفى نظراتهم لزائغة دعاء مرتجف من هول العاقبة ، إن لم تتفتح أبواب السماء له .

ويبدو لى أنى لم أقنع بالأمراض المألوفة ، فأردت أن أضيف إليها الحوادث ففى ذات يوم سمعت صوت بائع (الدندرمة كيمك) فوثبت من أعلى السلم إلى البسطة

التالية ، وكانت هذه عادتى فى النزول على السلم ، وكنت دائما موفقاً فى هذا القفز ، ولكن فى ذلك اليوم اختل توازنى فهويت على أم رأسى ، فحملت وأنا غائب عن صوابى . ولم ينجم عن هذه السقطة ارتجاج فى المخ ، واقتصر الأمر على إلزامى فراشى الحبيب يومين ، ولست أنسى فى الليلة الأولى وأنا بين الإفاقة والذهول ، أن دخل إلى حجرة نومى خطيب أختى الكبيرة ، وكان رجلاً جادًا ، طويل القامة لا يعرف المزاح ، وقد جلس إلى جانبى دقائق ، وتحدث مع أبى حديثاً عرفت منه أنه يشارك العائلة قلقها . وقد بقيت هذه الليلة وما جرى فيها عالقاً فى ذهنى ، كأنه مشهد فى مسرحية . يتكون من سكون الليل وطفل مسجى على الفراش لاينطق ، ووالد يعقد الحزن لسانه ، ورجل طويل يدخل على أطراف أصابعه ولا يتكلم إلا قليلا .

وأصبت بالحمى (القرمزية) ، وهى حمى لا تعرف كثيراً فى مصر ، ولذلك كان الأطباء يقولون لأهلى ، إننى لا أكتفى بالأمراض الجسمية المعروفة ، فأضيف إلى سجلى الأمراض النادرة الوقوع ، ثم أصبت بحمى البراتيفويد ، ثم التيفود ، وقد سمعت وقتها أن من يصاب بواحدة منها لايصاب بالثانية ، ولقد بلغ من كثرة تردد الأطباء على بيتنا أنهم أصبحوا يعرفون أخواتى بالشكل والاسم ، ثم يعرفون (عبد الله) ، و (أم حسين السودانية) و (أم جليلة) التى حلت محلها .

ولذلك كانت صدمة أبى عظيمة حينما أصبت بأحد أمراضى الكثيرة ، فاتصل تليفونيًا بالطبيب الذى كان يتولى علاجى فى كل مرة بصفة أساسية ، وإن كان بعض كبار الأطباء يساعدونه بين الحين والحين عندما تشتد الحالة أو تغمض ، فى تلك المرة تظاهر الطبيب حينما أخبره والدى باسمه أنه لا يذكر هذا الاسم ، فألح عليه قائلا كيف لا تعرفنى يادكتور ، وأنت لاينقضى شهر بدون أن تشرفنا بزيارة ؟ فكان جواب الطبيب : ما علينا ! المهم هل تعرف كم أجر العيادة ؟ إنه أصبح الآن جنيهاً ونصف جنيه أى أنه زاد نصف جنيه ، فغلى الدم فى رأس أبى ، وكادت عصبيته المكتومة أن تخرجه من هدوئه ، فينهى المكالمة ويلقى بالسماعة ، ولكن خوفه الشديد علّى ، حمله على ضبط نفسه ، فقال وهو يعانى أشد المعاناة من هذا الإسفاف تعال يادكتور وخذ ما تشاء ! والعجيب أن هذا الطبيب نفسه حينما جاء إلينا ، لم يستمر فى

ادعائه الجديد أنه لا يذكر أبى ، ولا يذكرنى ، إذ راح يداعب هذا ، ويمازح تلك ، ويحدثنى عن سابق أمراضى بما يدل على علمه الكامل بكل ما يتصل بى . ولما علم أهل البيت بهذا التصرف المرذول من الطبيب الشهير ، طالب أكثرهم بألا يسمح له بأن يضع قدمه فى دارنا ، والأعمار بيد الله .

والعجيب فى أمر هذا الطبيب أنه كان من أصحاب الأسماء الذائعة فى ميدان الخدمة الاجتماعية ، وأنه كان يكتب فى الصحف ، وقد حصل على إجازة الحقوق من فرنسا ، وحق له أن يشتغل بالمحاماة ، وقد أبت الأيام إلا أن تجمعنى بهذا الطبيب الشهير ، فى مناسبة ، فاضت فيها نفسى شفقة عليه ، وأسى له ، فقد طلب أحد أصحابى أن أكتب خطاباً إلى صاحب الدار التى يسكن فيها ، لخلاف بينهما ، فدهشت إذ رأيت أن صاحب هذه الدار ، هو طبيبى السابق صاحب الشهرة القديمة ، وزادت دهشتى حينما رأيته بنفسه فى مكتبى ، بمجرد تسلمه خطابى ، فأدركت للوهلة الأولى ، أن الزمن أدار له ظهره ، وأن حالته أصبحت رقيقة ، فاستمعت له فى صبر وسعة صدر ، وحاولت ما استطعت أن أوفق بينه وبين خصمه ، وحدثته عن دينه فى عنقى ، وأن حقنة منه ضد الدفتريا قد أنقذت حياتى ، وسرنى من الرجل أن هذه الذكريات لم تهزه ، فكأنه نسى الماضى تماماً ، وقنع بالحاضر ، فلم أسترسل فى حديث يثير الذكريات ، وأحسنت توديعه ، وقلبى أنا موجوع حزين .

* * *

علمت من أخواتى أن مليا ديان ، بطلة مسرح سلامة حجازى ، وصاحبة منزلنا ، كانت تزورنا من حين إلى آخر ، لتطمئن على منزلها ، ولتحصل أحياناً الإيجار المستحق لها . وحدثونى أنها فى كل مرة كانت تتفضل علينا فيها بالزيارة فى عربتها الخاصة التى يجرها جوادان ، كان أهل الحى ، يجتمعون حول بيتنا عند نزولها من العربة ، وصعودها إلينا . والحق أننى لا أذكر شيئا عن هذه الزيارات ، ولا كيف كان قوام هذه الممثلة الذائعة الصيت ، ولا قسمة واحدة من قسمات وجهها ، ولكن لغريب أننى أتصور أنها كانت سمينة وبيضاء ، وأنها كانت طويلة ، وأنها كانت ذات

أذرع بضة ملفوفة ، ومازلت إلى اليوم لا أذكر اسم ملياديان حتى تتـداعى أمامى صورة ذراع واحدة بيضاء لسيدة طويلة ضخمة ، تجلس على مقعد ، ووجهها متجه إلى غير الموضع الذى أجلس أنا فيه ، لماذا لا يبقى فى ذاكرتى من ملياديان إلا هذا الجانب ؟ وقد يكون جانباً زائفاً ! فقد لا تكون طويلة ولا سمينة ولا بيضاء ، ولكن هذه إحدى عجائب العقل الإنسانى وعبث الذاكرة الإنسانية .

ويقولون لى إن ملياديان طلبت علبة سجائر كريازى ، وإننى تبرعت بشرائها من بائع سجائر ، مازلت إلى الآن أذكر وضعه فى شارع زين العابدين الذى يتقاطع مع شارع سلامة .

ولما كبرت عرفت أن علب سجائر كريازى ، تحمل صورة سبع ، تدخن أمامه امرأة جميلة بضة ، سيجارة من سجائر كريازى ، وتنفث الدخان فى وجه السبع ، الذى يستنشق هذا الدخان فى لذة ظاهرة ، تعلن عن عمقها عيناه المغمضتان من فرط المتعة .

ولقد قلت فى أكثر من حـديث صحفى بعد ذلـك إننى يومهـا عدت بعلبـة السجائر ، وأنا سعيد بالنظر إلى الصورة التى تعلوها ، وإنه خيل إلى أن هذه صورة مليا ، وإنى بتقديمى العلبة إليها أحييها تحية فى طياتها غزل مكتوم . ولست أدرى لماذا قلت هذا كله ولماذا كررته . مع أن شيئاً منه لم يحدث ، أو على الأقل لست أذكر شيئاً مطلقاً إلا أننى ذهبت لشراء علبة سجائر من بائع سجائر أذكر موضع دكانه تماماً ، وأذكر نفسى واقفاً فى الشارع ، مادًا يدى بالنقود نحو صاحب المحل أو عامله بدون أن تظهر على لوحة ذاكرتى صورة هذا الرجل ، أيًا كان هو .

ويشبه هذا كثيراً ما ذاع فى وسط العائلة ، من أننى أردت أن أحرق منزل جارنا الذى يفصلنا عنه شارع ، فأوقدت النار فى منزلنا نحن ، لكى تنتقل النار من دارنا إلى داره . وقد رددت هذه الأكـذوبة ، وضحـك لها أهـلى وأصدقـاؤهم ، وهى لا أساس لها من الصحة ولا نصيب . وحقيقة الأمر فيها أننى كنت أمـر فى شارع السّد البرانى أمام دكان يبيع أدوات منزلية ، وكان من هذه الأدوات موقد للفحم (كانون) وكان (كانوناً) صغيراً هو إلى اللعبة أقرب ، وقد بقيت شهوراً أو سنين أرجو أمى ، كلما مررنا أمام هذا الدكان ، أن تشترى هذا الكانون . وكانت ترفض

بحزم وشدة قائلة : ماذا تعمل به ؟ ولكن منظر الموقد كان مثيراً لخيالى إلى حد أننى لم أقو قط على كبح رغبتى فى الحصول عليه ؛ والغريب أن هذا الموقـد أبى أن يترك مكانه ، فلم يُبَعْ لأحد ، ولم يختف وراء سلعة من السلع الكثيرة التى كانت تملأ الحانوت وفى ذات يوم ضعفت أمى لهذا الرجاء اللحـوح ، واشترت لى المـوقد ، وحملته إلى البيت . وكأنى أحمل تحفة من أجمل تحف الدنيا ، ومضيت مدة أتـأمله وأعرضه على الضيوف والأصدقاء ، فيعجبون به ، لأنه كان حقيقة شيئاً لطيفاً ، ولكنى حرت بعد أن هدأت حرارة رغبة الاستحواذ والتملك ، ماذا أفعل به ؟ إن السبيل الوحيد للاستمتاع بهذا الموقد ، أن أضع فيه الفحم ، وأن أشعله ، ولـو وجدت من يعاوننى لكان من الممكن اللعب به على هذا المنوال ، بدون أن يصيب الناس ضر ، ولكن لم أجد من أحد عوناً ، وفى ذات أصيل كنت فى سطح منزلى شاعراً بالملل . غيرواجد ما أزجى به الوقت الفارغ ، فبدا لى فجأة أن محاولة إشعال هذا الموقد تسلية لابأس بها ، فجمعت أوراقاً وأخشاباً صغيرة من هنـا وهناك ، وأشعلت ثقاب كبريت ، فهبت النـار ، فجزعت وجـريت . والظاهـر أن واحداً أو واحدة من الجيران كان على سطح منزلهم . فرأى النار فأخبر أهلى ، فأسرعت أختى الكبيرة إلى موضع النار ، وحملت إناء أو إناءين من الماء ، أطفأت بهما النار . وبحثوا عنى ، وقبضوا علىّ ، وعند السؤال الأول رأيتنى أقول إننى أردت أن أعاقب فلانا من أبناء الجيران لأنه عاكسنى . وصرف عنى هذا الاعتذار السخيف الغضب ، وانقلب الموقف من محاكمة وتهديد بالعقاب إلى ضحك واستعادة هذا الجـواب . ونجوت من عذاب أليم ، واستمرت هذه الحكاية ، محلا للإعجاب والرضا . وهى من أكاذيب التاريخ .

* * *

وفى بيت ملياديان بدأ أول اتصال بينى وبين القراءة والأدب . فقد كنت أشاهد فى ميدان العتبة الخضراء ، حينما يصحبنى أحد أقاربى فى رحلة عمل أو نزهـة فى الترام ، فى أيدى باعة الصحف ، مجلة لم تكن على شاكلة سواها من المجلات التى كنت أراها فى أيدى أقاربى ، أو أيدى الباعة حول منزلنا . فطلبت من والدى أن يشترى لى نسخة منها ، فأخذ والدى يستفسر منى عما تكون هذه المجلة ، وبعد طوال السؤال والتعثر فى الجواب هزّ والدى رأسه وقال : « آه . . عرفتها . . اللطائف

المصورة » . ولم أعارضه لأنى لم أكن أعرف اسم هذه المجلة ، فقد كانت صلتى بها من الظاهر ، وحضر أبى ذات يوم ومعه المجلة المنتظرة ، فتلقفتها فى سرعة ، وبسطتها بين يدى ، وكم كانت خيبة أملى إذ ظهر لى أنها ليست ضالتى المنشودة ، ظهر لى أنها « اللطائف المصورة » ، صحيح ان بعض صفحاتها كانت مزينة بالصور ولكن أى صور ؟ صور أشخاص ثابتة خالية من الحركة ، كأنهم جميعاً رءوس قتلى تحدّق فى وجه الناظر اليها ، نظرة جامدة ، ولكن لم يكن هناك بدّ من أن أنظر إلى هذه الصور ، وأن أقرأ بعض ما فى المجلة نفسها . وكم كان سرورى إذ رأيت أن الطبيب الذى يعالجنى والذى أعرفه جيداً ، تشغل صورته مكاناً ضخماً فى إحدى الصفحات ، وفهمت من الكلام المكتوب تحت الصورة وحولها أنه يدور حول ملجأ الحرية الذى كان يدعو إليه الطبيب على أنه مؤسسة من المؤسسات التى تستلزمها الوطنية . ولم أدرك يومها أن هذا مصداق لعقيدة تملكتنى منذ مطالع شبابى ، وبقيت تلازمنى حتى كتابة هذه السطور . وقوام هذه العقيدة أن النهضة لا تأتى « بالقطاعى » وإنما تأتى جملة ، ولا بد لمجيئها أن يشمل الأمة شعور سائد بالغضب ، أو شعور سائد بالحب ، يوقظ ملكاتها ، ويحرك الساكن من فضائلها ، فإذا الحياة تدب فى كل فرع من فروع النشاط : الطلبة والنساء والعمال والصحافة والأدب والفن والاقتصاد ، كل شىء يتغير ، وكل إنسان يتحرك ، وكل مشروع قديم يطالب بالتحقق وهكذا .

وعلى الرغم من أن عدد اللطائف المصورة لم يرضنى تماماً فإنه ربطنى بالصحافة والأشياء المطبوعة ، التى استولى هواها على قلبى ، حتى باتت رائحة الكتب أحب الروائح إلى أنفى ، ولمس الورق المصقول أجمل ما تجرى عليه يدى ، ولست أنسى يوم أن اشتريت كتاب مبادىء القراءة الرشيدة من مصروفى الخاص ، من مكتبة بميدان السيدة زينب ، وكان طبعه أنيقاً ، وورقه مصقولا ، وصوره جميلة ، وعدت به إلى البيت ، لا أخطو خطوة حتى أدنيه من أنفى ، وأجذب نفساً عميقاً ، كأنى أود أن أستنشق الكتاب كله ، وبقيت هذه عادتى طوال سنى الطفولة ، ففى اليوم الذى توزع علينا الكتب المدرسية كنت أحتضن الكتب ، وأذهب بها إلى فراشى ، وأروح أتأمل فيها ، وأقلبها ، ثم أشم رائحتها ، كأنها أجمل الورود ولست أدرى لماذا لم أهو عليها أقبلها ؟!

وبقيت ــ بعد أن قرأت اللطائف المصورة ــ أنتظر اللحظة التى سأعثر فيها على المجلة التى رأيتها فى العتبة الخضراء من بعيد ، والتى بقيت جاهلا اسمها ، حتى رأيتها وجهاً لوجه فى يد أحد الباعة ، فصرخت ، كأنى أمّ عثرت على وليدها الضال ، وروع من كان معى وسأل : ماذا حدث ؟ فقلت : الحقيقة ! فلم يفهم ، ولم أنتظر لأشرح له ، فقد مددت يدى نحو مجلة (الحقيقة) فى يد البائع ، وأخذتها ، ورحت أقلب صفحاتها ، غير ملتفت إليه ، ولا إلى من كان معى وعرفت وقتها كم كان الفرق شاسعاً بين هذه المجلة والمجلات المصرية . وقد كان إدراكى لهذا الفرق شهادة لى بتبكيرى فى معرفة حقائق الطباعة وما يتصل بها ، فقد كانت « الحقيقة » مجلة دعاية تصدرها إدراة الدعاية البريطانية ، لتبالغ فى انتصارات بريطانيا وحلفائها ، ولتبالغ فى هزائم ألمانيا وحلفائها ، ولتبين مظاهر العدل والحضارة البريطانية ، وآيات الظلم والاستبداد الألمانى . وكانت مطبوعة خارج مصر بطريقة (الروتوغرافور) الذى لم تعرفه صحافتنا إلا بعد ذلك بسنين ، وقد تناولها من كان معى فى ذلك اليوم ، وقلبها ، وهو يهز رأسه ويقول : « ولاد كلب ! الملاعين ! ياسلام » ولم أفهم يومها من هم أولاد الكلب ، ومن هم الملاعين ، بل كنت أتحرق إلى عودة المجلة إلى يدى وعادت إلى فهبت علىَّ رائحة الحبر المستعمل فى طباعة الروتوغرافور ، فأسكرنى ، ثم تأملت فرأيت صوراً جميلة غاية الجمال ، ولا أنسى كيف قضيت الدقائق الطويلة ، وأنا أتأمل صورة رجل قوى البدن ، كشف عن ظهره ، وهوى رجل آخر بسوط ذى شعب على هذا الظهر العارى كانت الصورة أخاذة وناطقة ، حتى خيل إلىّ أن من واجبى أن أرفع يدى لأمنع السوط من أن يقع على الظهر . . وعدت الى البيت فأثارت المجلة فيه ضجة ، فقد تخاطفها كل من كان فيه ، وتساءلوا : « ولماذا لا نطبع مجلاتنا بهذه الطريقة ؟ » وسمعت تعليقاً من هنا ، وتعليقاً من هناك ، كانت كلها بذور ثقافتى السياسية ، وبعد يومين جاء خالى المهندس ورآنى مكبا على النظر فى الصور ، مأخوذ اللب بها ، فمط شفتيه على عادته اشمئزازاً وقال : « تعجبك مجلة الإنجليز . . الأعداء » وصدمنى أن تكون هذه المجلة الجميلة عملاً كريها ، وإن كانت تعليقات أهل بيتى هيأتنى لأسمع هذا التصريح الحاسم . وأمسك خالى بالمجلة ، وأشار إلى الصورة التى أعجبتنى وقال : هذه الصورة مثلا ، ماذا يريدون منها ؟ يريدون أن يقولوا إن الألمان يجلدون أهل

أفريقيا . . وهم ألا يجلدوننا نحن ؟ . . والحق أنني كنت مستعداً أن أسمع المزيد من هذه التعليقات غير المفهومة ، وسرني أن خالي احترمني ، فقال لي كلاماً يوجه عادة إلى من هم أكبر مني سناً . ولكني لم أكن مستعدًا أن أغير رأيي في هذه المجلة الجميلة الأنيقة . وبقيت أباهي بها الأطفال الذين لايعرفون شيئاً عن المجلات .

ولاحظت نموّ حبي للكتب والصحف ، ففي ذات صباح كنت واقفاً على ناصية شارع سلامة ، عند تقاطعه بشارع زين العابدين ، وكان بائع الصحف يقف هناك يبيع الصحف الصباحية ، فهل علينا شاب أزهري ، جميل الطلعة ، يلبس جبة وقفطاناً حريرين أنيقين ، وأخرج من جيبه خمسة قروش ، واشترى كل الصحف النهارية : الأهرام والسياسة ووادي النيل . وسلم البائع له الجرائد الثلاث ، وهي بعد مصقولة ، وشعرت بحسد شديد ، إذ لم يكن في وسعي أن أشتري هذه الجرائد الثلاث ، لأني لم أكن أعرف القراءة جيداً بعد . وبقيت أتأمل الشاب الأزهري وهو يحمل الصحف حتى اختفى ومضت سنون طويلة حتى عرفت أنه الشيخ عبد الرحمن الجديلي ، من شبان ثورة ١٩١٩ .

وفي بيت مليا ديان عرفت أول ما عرفت مصطلحات الحياة السياسية التي أذاعتها ثورة سنة ١٩١٩ وكان أول اتصالي بأحداث ثورة ١٩١٩ ، في ميدان السيدة زينب ، فقد كنت واقفاً هناك أمام بائعة فاكهة . وفي الحال أحسست كأن كل ما في الميدان قد صمت ، حتى الترام الذي يبعث ضجيجاً متصلا . وخيل إلي وكأنهم أشخاص في صورة السينما ، التي تقف فيها الحركة فجأة ، فيبقى كل إنسان في موضعه لا يكمل حركته . من مد قدمه تبقى قدمه ممدودة . ومن رفع يده تبقى يده مرفوعة . ومن انحنى ليلتقط شيئاً يبقى منحنياً لا يرفع رأسه ، ومن وضع يده ليخرج منديلا تركها في جيبه ، وهكذا وتلفت حواليّ . بحركة غريزية لأتبين ما هنالك . فرأيت منظراً جمد له الدم في عروقي . فقد رأيت سيارة ضخمة تكدس فيها عدد من الجنود الإنجليز الذين لبسوا الخوذات الحديدية فوق رءوسهم ، وحملوا في أيديهم البنادق ، وتبادل الجمهور المنتشر والمنتثر في الميدان معهم نظرات صامتة ، ولكنها كانت تفيض بالتوجس والتوقع والكراهية ، تصورت لحظتها أن الجمهور هو الذي كان خائفاً ، ولكن حينما تقدم بي العمر عرفت أن لابسي الخوذات الحديدية ، وحاملي البنادق الإنجليزية ، كانوا أشد خوفاً ، وأن من يطلب منه أن يخيف يلبي

الطلب وهو خائف . صور لنا هذه المشاعر كثيرون من الكتاب والقصاصين أمثال تولستوى فى رائعته « الحرب والسلام » وبرنارد شو فى مسرحية « الإنسان والسلاح » . وقطعت البائعة التى كنت واقفاً أمامها الصمت الرهيب بقولها : « الله يكفيكم شرهم ! » ثم زال الجمود عن الناس كعادة كل البشر ، لا شىء عندهم يدوم ، وما يحسبه الإنسان خالداً يزول سريعاً ، فقد ذهب الروع عن الناس ، وتحركوا ، وتكلموا ، وعادوا إلى ما كانوا فيه من بيع وشراء ، وشجار وخصام ، بل عاد الذين كانوا يلعبون الطاولة فى المقاهى إلى اللعب . وخيل إلَى أننى بدأت أسمع من هنا وهناك عبارات غير عالية ولكن مسموعة مثل : « ولاد الكلب . . شوطة تشيلهم . . ياسلام ! شياطين ولاد شياطين » .

وعدت إلى بيتى متحمساً ، وخيل إلى أننى أود أن أخطب ، ولكن لم أعرف ماذا أقول ، فقد كان علمى بالسياسة ضئيلا .

ولكنى رأيت بعد ذلك فى ميدان السيدة زينب منظراً مناقضاً تماماً لهذا المنظر ، ولذلك ضايقنى ، ولم أجد ما أفسره به . فقد مررت يوماً بقسم السيدة ، فرأيت جمعاً من النساء قد احتشد تحت إحدى نوافذ قسم السيدة زينب المطلة على شارع زين العابدين ، وسألت ما الخبر؟ فعلمت أن أحد جنود الجيش البريطانى الذين وضعوا فى قسم السيدة زينب لمواجهة الطوارىء ، قد تعلم بعض الألفاظ المصرية ثم بعض الأغانى الشعبية ، بل الأغانى الوطنية ، مثل : « ياعزيز عينى وأنا بدى أروح بلدى . . بلدى يابلدى والسلطة خدت ولدى » . وأنه اعتاد أن يستعير من أحد الواقفين طربوشه ، فيضعه على رأسه ، ويأخذ يردد هذه المقاطع راقصاً ، مقلداً حركات المغنين المصريين ، والجمهور يردّ عليه ، ويعلمه بعض العبارات المصرية الجديدة ، وهو يعلمهم بعض الألفاظ الإنجليزية ، والجميع سعداء ولاشك أن الإنجليز كانوا راضين عن هذا التودد الذى ساقته الأيام سوقاً . وكان أحد الشبان الذين يعملون عندنا يذهب إلى هذه الندوة ، ويعود محملا بالعديد من التعليقات والفكاهات ، والنوادر .

وقد كان أول مصطلحات الثورة مصافحة لأذنى هو لفظ « الاعتصاب » ، فلم تكن كلمة « الإضراب » قد عرفت بعد وشاعت ، وأول معتصب عرفته هو خالى ،

فقد كان طالباً بمدرسة الحقوق السلطانية ، وكانت هذه المدرسة هى ومدرسة الطب أسبق المدارس العليا إلى الاعتصاب . ولم أفهم يومها معنى الكلمة ، إلا أنى رأيت خالى قد زارنا فى الصباح على غير عادته ، وكان فى ملابس المنزل ، فسألت عن سر انقطاعه عن المدرسة فقالوا : فيه اعتصاب ! وما لبثت الأحداث أن توالت لتزيدنى اتصالا بحوداث ثورة ١٩١٩ ، فقد طردت أختى من المدرسة ، وجاءت إلى البيت وهى فى ثورة من الحماسة والنشوة ، ثم راحت تقص على أمى وأختى شيئاً سمعته وأنا لاأكاد أفهم منه حرفاً ، فقد قالت إنها قادت المظاهرة ، وخطبت فى التلميذات ، وخرجن من المدرسة هاتفات ، فكانت هذه الرواية جرعة ضخمة من قاموس الثورة : المظاهرة ! وهاتفات ! وخطبت ! من لى بشرح هذه الألفاظ الجديدة التى بعثت فى يوم وليلة ، وكأنها عفاريت خرجت من قمقم ؟!

وجاءت ثالثة الأثافى فى رواية يحكيها أبى عن رحلة إلى مقر عمله فى مدينة الواسطى ، بوصفه مهندس رى هذا المركز ، فقد سمعت منه أنه لم يسافر إليها فى القطار ، وإنما فى مركب شراعى ، لأن القطارات توقفت والسكك الحديدية خطوطها قطعت .

لماذا توقفت القطارات ؟ ولماذا قطعت السكك الحديدية ؟ لم أجد من يستطيع أن يشرح لى هذه الألغاز شرحاً يتناسب مع سنى ، فقد كنت لم أتم بعد الثامنة ولم يكن لبلادى عهد بالثورات والمظاهرات وتقطيع السكك الحديدية ، واعتصاب التلاميذ والعمال . ثم رأيت بنفسى مظاهر هذا الحدث الضخم الهائل ، فقد ذهبت إلى ميدان السيدة زينب فرأيته هادئاً لا جلبة فيه ، فأدرت نظرى فى نواحى هذا الميدان المائج بالحركة الممتلىء بالضجة ، فلم أجد أثراً للترام صاحب النصيب الأوفى فى الصخب . وفى ميدان السيدة كانت تلتقى خطوط عديدة ، ثم لم أجد أثراً لعربات سوارس ، ولا لعربات الحنطور ، ولم نجد إلا موقف الحمير ، ومع ذلك خلا من حميره ، إذ استعاض بها الناس عن وسائل المواصلات الأخرى التى اختفت .

ولم يمض وقت طويل حتى اتصلت بأحداث سنة ١٩١٩ اتصالا مباشراً ، فقد علمت من والدتى أننا غداً ذاهبون إلى عيادة طب الأسنان الأرمنى مسيو

« دمرجيان » ، الذى تقع العمارة التى اختار فيها عيادته أمام فندق شبرد بشارع كامل الذى أصبح فيما بعد شارع إبراهيم باشا ، ثم أصبح الآن شارع الجمهورية وفى اليوم التالى حضرت عربة حنطور أمام باب بيتنا ، ونزلنا جميعاً : أمى وأخواتى ، وفى يد بعضنا علم مصرى أحمر ذو هلال ونجوم ثلاثة ، ومضينا إلى شارع كامل نشق طريقنا وسط كتل بشرية متراصة ، تملأ الطرق ، وتسد المنافذ ، وقد شمل الجميع حماسة لا تعرف مصدرها ولا غايتها ، هتافات ، وصيحات ، وأيد تلوح بالأعلام وعرق يتفصد من الجباه ، وتدافع وتراجع ، وأناس يتبادلون التهانى . وزغاريد تتعالى ، ونوافذ امتلأت برءوس تطل إلى الشوارع ، ورجال شرطة يسيرون جماعات ، ويسيرون فرادى ، وفرسان يمتطون صهوات الخيل فى رشاقة آخذة ، ووصلنا بشق الأنفس إلى العمارة التى كانت فى تلك الأيام قديمة ، ومع ذلك بقيت قائمة إلى اليوم بعد انقضاء أكثر من نصف قرن ، وأردنا أن نصعد سلالم العمارة فإذا بابها العام مغلق ، فراحت الأيدى تطرقه وتدقه ، وارتفعت أصواتنا بصياح الاحتجاج ، ففتح لنا البواب الباب بعد لأى ، ثم صعدنا سراعاً إلى الدور الثانى أو الثالث حيث شقة الطبيب الأرمنى ، وفوجئنا عند وصولنا إليها ، أن بابها مغلق كذلك ، وعاودنا الطرق والصياح ، فلم يرد علينا أحد فازداد الطرق وعلا الصياح ، ففتح الطبيب بالباب مواربا ، وقدمه خلف الباب خشية الاكتساح ، وصرخت أمى فى وجهه ، وذكرته بأنها أرسلت إليه العلم المعلق على شرفة منزله ، فصرخ بدوره : « البيت سيقع ، والشرفة ستأخذ من فيها وتهوى إلى الشارع » ، فدفعنا الباب دفعاً وهو يسب ويلعن ، ووصلنا إلى موقع فى الشرفة فحالت قامتى القصيرة دون أن أرى شيئاً ، ولكن مع الصبر والمثابرة ، تسربت إلى موقع فى الشرفة بين سيدتين ونظرت إلى الطريق ، فرأيت يوم الحشر : ألوفاً فوق ألوف على الصفين ورءوساً إلى حيث يمتد النظر فى النوافذ ، وفى الشرفات وعلى فروع الأشجار ، وفوق أعمدة النور والتليفون ، وفوق ظهور العربات ، وأعلام حمراء هى أعلام مصر وقتذاك ، ترفرف فى كل مكان ، ويلاعبها الهواء ، فيبعث منظرها فى النفوس حماسة وبهجة وسروراً . وبقينا هكذا لانرى إلا بشراً حتى بدا من آخر الطريق موكب تتقدمه سيارة عرفنا فيما بعد أنها سيارة الشاب الغنى على كامل فهمى ، الذى قتلته فيما بعد زوجته الإنجليزية مرجريت ، ثم برأ القضاء البريطانى ساحتها . فقد وضع سيارته الفخمة فى خدمة سعد زغلول العائد إلى بلاده بعد أن قضى فى المنفى بمالطة أقل من

شهر ، ثم سنتين قضاهما بين باريس ولندن يفاوض الإنجليز حتى أسفرت المحادثات عن مشروع ملنر . . . ولم أر إلا شيخاً طويلا شاب كل رأسه ، وهو يُحيى الناس ، يميناً ويساراً ، بحركة رتيبة وئيدة من ذراعيه ، ولكن هذا الذى رأيته ورآه كل من اصطف يومذاك فى الشوارع أو احتشد فى الشرفات والنوافذ ، كان كافيا ليدخل إلى كل قلب السعادة والسرور ، بل الفخر والزهو .

والحق أن الشعوب تسكرها سعادة لاسبيل إلى وصفها حينما تجتمع وتتراص ، وتحس أنها أصبحت شخصاً واحداً ، ولا يهم يوم هذا الاجتماع أن تسأل ماذا حققت بهذا الاجتماع ؟ فاجتماعها ووحدة صفها والتقاؤها فى مشاعر واحدة ، هو نفسه غاية ، إذ ما أصعب أن تجتمع الشعوب هكذا وما أقل اللحظات التى تبلغ فيها نشوة الأمم باجتماعها المبلغ الذى وصل إليه الشعب المصرى فى يوم عودة سعد من أوربا ، بعد سنتين من الغياب . .

لم يسأل أحد نفسه يومها ماذا فعل سعد فى هاتين السنتين ؟ ولماذا ترك بلاده وأقام فى عواصم أوربا بدون أن يتولى بنفسه قيادة الحركة الوطنية التى احتدمت خلال غيابه ، وتفوقت على نفسها خصوصاً فى شهر أبريل سنة ١٩١٩ ، هذا الشهر الدامى المجيد ؟

بل لقد نسيت الأمة فى هذا اللقاء التاريخى النادر تاريخ سعد كله ، وكيف عاش يؤمن بالتعاون مع الاحتلال البريطانى ويدافع عنه ، ويبذل صداقته فى سخاء وبلا تحفظ لعميد الاحتلال الماكر الخبيث : كرومر ، وأنه احتفل بتوديعه حينما سقط من كرسى سلطانه ، بعد حملات مصطفى كامل عليه وعلى دولته وعلى سلطات الاحتلال ، فى أعقاب فاجعة دنشواى الرهيبة .

والحق أن هذا الاجتماع ، وهذا التراص ، وهذه الفرحة المشتركة ، وهذا النظام فى الوقوف والتحية ، وهذا الانبعاث التلقائى إلى الشوارع ، مع الأعلام والهتاف الموحد ، ومع الفرحة المشتركة ، والإحساس بوجود مصر ، وعظمتها كل أولئك شهادة عالية لمصر ولشعبها ولأولادها .

وباتت مصر ليلتها قريرة العين ، مستريحة الخاطر ، سعيدة ، تؤنسها أحلام جميلة فى مستقبل سعيد .

ولقد شاركت بالطريقة والأسلوب نفسهما فى يوم آخر ، هو يوم إطلاق سراح المعتقلين المصريين من مالطة ، فى ٨ أبريل سنة ١٩١٩ . فقد سمع المصريون أن سعداً وأصحابه الثلاثة ، محمد محمود وإسماعيل صدقى وحمد الباسل ، قد أطلق سراحهم من منفاهم فى مالطة ، وأنهم عائدون إلى مصر ، ومعهم الاستقلال فخرجوا ألوفاً ، ولكن لايدرون إلى أين ؟ رفعوا الأعلام ، وركبوا العربات ، وملأوا الشوارع ، ولكن لأنه لم يكن يومذاك شخص يستقبلونه أو مكان يقصدونه أعوزتهم رابطة ووحدة يوم ٥ أبريل ١٩٢١ ، مع ذلك كانوا فى نشوة وسرور ، بيد أن سرورهم لم يطل ، فإن زعماءهم لم يعودوا يومها ، وبدلا من أن يروا هؤلاء الزعماء سمعوا رصاصاً يطلق وشهداء يصرعون فساد الجماهير فزع وحزن ، وخيبة أمل تنشر أجنحتها الكئيبة القاتمة . .

عاد الناس وأعلامهم منكسة ، ونفوسهم كسيرة ، ولكن رغبتهم فى القتال أعظم ، وكراهيتهم للاحتلال أكثر . .

ومن ذكرياتى فى حى السيدة زينب عن ثورة سنة ١٩١٩ ، حضورى اجتماعاً سياسياً فى مسجد السيدة زينب ، سمعت فيه اثنين ممن كنت أعرف أسماءهم ، وآخرين لم أكن أعرف أسماءهم حين سمعتهم ، وغابت أسماؤهم عن ذاكرتى ، بعد أن سمعتها يومذاك . أول الاثنين كان محاميا زميلا لخالى فى مدرسة الحقوق ، اسمه محمد أمين عبده ، وكان خالى وأخواتى ، يضحكون من طريقته الخطابية ، لأنها تميل إلى المبالغة فى الحركات ، حتى قيل إنه كان يشد شعر رأسه الطويل الناعم ، من فرط الحماسة ، ويمثل الغضب والحزن والسرور بحركات وجهه وتلويحات يديه بل ذراعيه ، فى حين كان الثانى على النقيض منه : هدوءاً وبساطة وترسلا فى القول ، واتصالا فى المعنى ، وكان أيضاً من المحامين وكان أبوه الشيخ محمد عز العرب محامياً شرعياً كبيراً ، أما ابنه أمين فكان محامياً أهليًّا ، وكان جديراً بأن يصل إلى مرتبة الزعامة ، فيكون ندًّا لعاطف بركات وسينوت حنا وأضرابهما الذين نفوا مع سعد إلى جزيرة سيشل ، لولا أنه نفذ إنذار اللبى المندوب السامى الذى وجهه إلى زعماء الوفد ، فى سنة ١٩٢١ ، طالباً منهم فيه أن يتركوا العاصمة ، ويقيموا فى قراهم . وقد شاع فى تلك الأيام اسم لأمين عز العرب ، على لسان خصومه إذ أسموه « عز الهرب » وكم تتردد فى الثورات من أسماء ثم لا تلبث أن تختفى ، ولكن الذى أعجب

له كثيراً أننى حضرت هذا الاجتماع السياسى ، وجلست هادئاً بين الذين يكبروننى فى السن ، وأنا الذى لا أطيق البقاء فى مكانى دقائق متصلة ، والأعجب من ذلك أننى سعيت إلى هذا الاجتماع وفرحت بالنجاح فى الوصول إلى المسجد ، فى حين أنى لم أكن أفهم مما قيل فى هذا الاجتماع حرفاً واحداً ، فقد كنت فى حدود الثامنة لم أكملها ، أو أكملتها وتجاوزتها بشهور قليلة .

ولم يكن الفضول وحده كافياً لتفسير سعيى إلى المسجد ودخولى فيه ، إلا أن يكون الاجتماع قد عقد بعد صلاة الجمعة ، التى كنت أحضرها بين الحين والحين ، فأسمع فى المسجد قراءة الشيخ ندا الذى كان من شخصيات حيِّنا ، إذ كان قارئاً شهيراً وكنت أراه يخرج من داره قريباً من منزلنا ، وقوراً صموتا يلم أطراف جبته وقفطانه ، كأنما يخشى أن يصيبها من تراب الأرض سوء ، وقد كان ابنه رئيساً لفرقة كرة القدم فى مدرستنا ، فكان صورة من أبيه ، أناقة فى الملبس ، ووقاراً فى الحركة ، وطولا فى القامة ، وجموداً فى تقاطيع الوجه .

ولم يبق من ذكريات الثورة فى حى السيدة إلا رؤيتى بطريق المصادفة جنازة شهيد من شهدائها ، تمر فى شارع السد البرانى ، وهو شارع تجارى لم أفهم سر سير الجنازة فيه ، وقد رأيت فى هذه الجنازة العلم المصرى يتوسط هلاله الأبيض صليب ، ويتقدم الجنازة شيوخ من الأزهر مع قسيسين ، وكانت تسبق النعش فرقة موسيقية لإحدى جماعات الكشافة ، توقع لحناً جنائزيًّا حزينا وبسيطاً ، فى حين يترك أصحاب الحوانيت أعمالهم ، ويقف الجميع فى وقار وصمت جديرين بالإعجاب . وهكذا توالت لى البراهين على أنه حسب الأمة أن تشملها روح عامة ، حتى تبعث فيها خير فضائلها ، وتخفى رذائلها .

أنا والفن

حياة المصريين فى أحياء القاهرة حياة ممتلئة بنعم الفن وآثاره ، وإن كان فنا ساذجاً بسيطاً ، لكنه فن على كل حال . فكل من فى الطريق يغنى أو يرقص ، أو يغنى ويرقص معاً . بائع العنب والجوافة والمشمش بالذات يغنون غناء حلواً ، يطرون فيه بضاعتهم ، والمسحراتى يغنى ، والآذان غناء ، والقران فى المآتم والأفراح والمناسبات الدينية ترتيل ومواكب الفرق الدينية ، توقع ألحاناً موسيقية وتؤدى قطعاً غنائية ، وهى فى المساء بفوانيسها المضاءة فى خيام صغيرة من القماش الأبيض ، لوحة فنية تحرك حاسة الجمال فى الأطفال . وضاربة الودع لوحة فنية أخرى ، ومواكب الزفاف والختان لاينقضى أسبوع دون أن تمر واحدة منها فى شارعنا أو الشوارع القريبة منها .

أما العروض الفنية المباشرة فهى (الأراجوز) و (القرداتى) و(الحاوى) و(صندوق الدنيا) . ولا أكتم القارىء العزيز أن هذه العروض جميعاً كانت لا تستهوينى ولكنى كنت أشهدها ، تطبيقاً لمبدأ (شىء خير من لا شىء) ولكن لم أكن أزاحم لأصل إليها ، ولم أكن لأسف إذا فاتتنى ، وإذا وقفت أشاهد العرض فعلت ذلك وأنا بارد الإحساس ، ولو عرفت أن أعبر عن نفسى لقلت ببساطة . ما هذا السخف ؟

ولكنى لا أنكر أن شخصية الأراجوز كانت تعجبنى وصوته الغريب الذى لاأعرف من أين يصدر كان يطربنى ، وحركات الأراجوز نفسه وحركات زوجته

والعراك الذى يدور بينهما ، كان يبعث على شفتى ابتسامة ، وباختصار كان القالب ناجحاً يظفر برضائى ، ولكن الموضوع فى هذا القالب ، كان باعثاً على الملل لتكراره من جهة ، ولخلوه مما يضحك من جهة أخرى .

ولكن مامن مرة رأيت الأراجوز إلا وقفت وشاهدت ، فاذا انتقل نقلة قريبة ذهبت وراءه ، وإذا سمعت طبلته وكنا فى المنزل أطللت من الشرفة ، وقد أجد عندى النشاط الكافى للإسراع إلى الشارع ، ولايهم إن استطعت اللحاق به أو لم أستطع . فالحركة بركة ، والاجتماع بالناس متعة . ولا يبعد أن أحاول تقليد صوت الأراجوز ، بدون الإعجاب بألفاظه نفسها .

ولقد قادنى الأراجوز يوماً إلى قلعة الكبش ، فقد صعدت درجات السلم المبنى فى آخر شارع سلامة ، حيث أقام صاحب أراجوز خيمة ثابتة ، وضع فيها مقاعد خشبية مستطيلة ولأول مرة فى إحدى زياراتى هذه الخيمة عرفت سر الأراجوز . فقد كنا فى فترة استراحة ، فرأيت الفنان الذى يلعب الأراجوز وقد أخرج من فمه قطعة صغيرة من الصفيح ، وراح يعالجها ، ثم يبصق ، ثم يخرج منها صوتاً قصيراً ثم يبصق ، فصرخت إذ كشفت السر ، وقلت ما معناه ، « إننى عرفت السر » . وعلى الرغم من أن الخطأ كان خطأ الفنان لا خطئى وعلى الرغم من أن هذا الخطأ كان من الناحية الفنية فى نظرى جسيماً إلى أبعد حدّ ، إذ لايجوز لفنان أن يهتك سرّ العمل الفنى أمام النظارة بهذه البساطة بل إن هذه هى الخيانة العظمى نفسها فإن الرجل لم يتردد فى أن يسبنى سبًّا قبيحاً كان أول سب أتعرض له فى حياتى فشعرت له بالإهانة وأحسست بأن دمى قد غلى فى رأسى ، وخيل إلى أننى تسببت فى جرح دام لأمى التى أحبها وأجلها ، والتى كانت دائماً عنوان الاحترام بين الرجال والنساء . وشعرت بالعجز المهين ، إذا لم أستطع أن أهجم على الرجل ، وأخنقه بيدى ، أو أجره إلى القسم ، أو أحرض عليه رجلا فى مثل سنه ، لا ليضربه ، بل ليقتله . والعجيب أننى بقيت فى مكانى ، وشاهدت العرض الى نهايته . ولكن لا حرصاً على المشاهدة ولا إعجاباً بها ، بل لأنى جمدت فى مكانى ، وفى المساء ، لم أنم جيداً ، وبقيت أياماً لا أستطيع أن أرفع وجهى إلى وجه أمى مدركاً أن الذى فعلته هو ذنب لا يرقى إليه عفو . ولم أخف عن أهلى من الذنوب إلا هذا الذنب ، وآخر لايبلغ مبلغه من الجسامة ، ولكنى جبنت عن أن أكشف عنه ، لملابسة نفسية اتصلت به ، فقد

أخفيته ، لأنه كان دليلا على عجزى أو قل خيبتى ، والإقرار بهذا العجز لدى ولد لايكف عن اللعب والحركة ، وما يسميه الناس (الشقاوة) كان مهيناً للكرامة ، إلى أقصى الحد . وخلاصة الأمر ــ ولو خرجنا عن السياق قليلا ــ أننى ذهبت ومعى (النبلة) ، ووقفت أمام دارنا أصوب القذائف يمينا ويساراً ، فإذا واحدة من هذه القذائف تصيب لوح زجاج فى منزلنا نحن ، ولم يكسر اللوح ، وإنما شق شقًّا عرضيًّا ، وبقى اللوح فى مكانه ، وعدت إلى المنزل بعد ساعات ، خائفاً أترقب ، ولكن الكسر لم يكتشف إلا بعد أيام ، وحار أهل البيت عند اكتشافه فى تفسيره ، وكان تعليل كل واحد منهم ، بالنسبة لى ، شيئا ممتعاً إذ كان ذلك أول تجربة أعرف فيها قصور العقل الإنسانى ، وبعد استنتاجاته وفروضه عن المنطق حيناً ، وعن الواقع أحياناً فأرى فيها الأبرياء الذين يذهبون ضحايا هذه الفروض وتلك الاستنتاجات .

وإذا كان إعجابى بالأراجوز من حيث موضوعه ضعيفاً ، وإن كان إعجابى بقالبه عظيماً ، فإن علاقتى بصندوق الدنيا ، كانت فاترة فتوراً شديداً . فالصور التى كان يعرضها كانت من الجمود والقبح إلى الحد الذى لم يكن يبعث فى نفسى سروراً قط ولكن مجرد الجلوس أمام العدسة الكبيرة ، والتميز عن باقى الأطفال كان متعة فى نفسه ، أما المتعة الحقيقية فقد كانت مشاهدة (الحاوى) . كان الحاوى فى نظرى فناناً لا يشق له غبار ، لا لغرابة الألعاب التى يأتيها والتى لا نعرف لها تفسيراً بل لسرعة يده وخفتها ، ولطف الألفاظ والعبارات التى يرددها ، ولتنوع الألعاب التى يتقنها ، كان فناناً يختلف عن الآخرين ، لأن لديه فوق البراعة ، ولطف الإيحاء وسرعة الحركة ، الغموض الذى لا يقوى أحد على تقليده أو حتى تفسيره . ولما دخلت المدرسة ، وعلمت شيئاً من علوم الرياضة ، كنت أرى هذا الفنان عالماً لأنه يأتى بما يُعَدُّ من خوارق الطبيعة وما يتحدى قوانينها .

فأدواته تتحدى قانون الجاذبية ، وتخالف قواعد الجمع والطرح ، وهو يُحيى الموتى ، ويأكل النار فلا يحرق ، ويدخل السيوف فى حلقه ، فلا يجرح ، ومع علمه هذا ، وبراعته تلك ، متواضع يقيم مسرحه على أرض الطريق ، ويأخذ منا ملاليم بلا تأفف ولا تعال .

ولكنى ارتقيت فى سلم الفن درجة درجة حينما صحبنى خالى الأوسط إلى سينما (ايديال) فى شارع عابدين ليلة ، ثم إلى سينما أوليمبيا ليلة ثانية ، وفى أخرى تلك المرتين ذهبنا متأخرين قليلا ، فشققنا طريقنا فى الظلام ، ثم التفت ناحية الشاشة الفضية ، فرأيت ما سحرنى ، رأيت طاقة مفتوحة مضيئة ، أطللت منها على عالم كل ما فيه عجيب وعذب ومحير : حدائق وقصور ، ونساء جميلات ، يلبسن أثواباً لا أعرف كيف أصفها ، وسيارات وجيوشاً ، وجلست إلى جوار خالى ، يؤلمنى قليلا تعاليه . ولكن كان يهون علىّ هذا المسلك أنه كان لدىّ رصيد من الكبرياء يجعلنى أقابل تعاليه بعدم الاكتراث . وكانت السينما عزاء عظيماً ، وإن كنت لا أفهم مما يجرى على الشاشة شيئاً ، ولكن رحت أتابع هذه المناظر مأخوذاً بالنور وبالحركة وبهذه الطاقة المفتوحة على عالم ، لا أعرف من أين قفز ليقف أمامى . . لقد كان الحاوى ، أعظم الفنانين عندى ، وكانت السينما حاوياً من طراز لا يشبهه شىء فى الدنيا .

ثم جاءت تجربتى فى سينما أوليمبيا ، فكانت خطوة أخرى نحو عالم السحر ، فقد ذهبنا ، إلى (بنوار) مطل على القاعة ، وكان فى جوارنا عازف أعمى يلعب على (البيانو) ، ولكنى ليلتها لم أعرف مصدر الصوت ولا موضعه ، وإنما كنت أسمع صوتاً عميقاً امتزج بظلام السينما . وبمنظر رءوس النظارة الجالسين فى نظام وهدوء واحترام وصمت ، مع الضوء المنبعث من هذه الشاشة السحرية ، فأسكرنى كل هذا ، حتى غبت عن الوجود حقًّا لا مجازاً . ولقد حمدت الله أن كبرياء خالى حال بينه وبين الكلام ، إذ لو تكلم لبدد هذه الحالة العجيبة التى استغرقت فيها منذ وضعت قدمى فى السينما . وتوالت المناظر التى لا أفهم لها سياقاً ولا أتبين رباطاً يربط بعضها ببعض وأنا أتابعها بعين مفتوحة ، وأنفاس مبهورة ، وسعادة لا توصف . . ولما أضاءت السينما ، وبدا الفارق شاسعاً بين الأنوار الفضية التى تعكسها الشاشة ، والأضواء القريبة إلى الاحمرار التى تضاء بها القاعة والطرقات ، كان ذلك بمثابة شروق الشمس بعد نور الفجر الخافت الفضى الهادىء الذى لا تعرف أين مبعثه . وركبنا الترام معاً وقد أحسست أن خالى نزل قليلا عن كبريائه . لأنه رآنى مكتفياً بذاتى ، مشغولاً مع خواطرى ، لا أوجه إليه حديثاً . ولا أسأله عن شىء ، فبدوت له إنساناً وقوراً يستحق الاحترام .

ولم يمض إلا القليل حتى خطوت خطوة ثالثة فى عالم الفن ، ففى يوم سمعت

أمى تكلم إحدى أخواتى ثم تقتضب كلامها فجأة وتحول مجراه ، وكأنما تورطت فيها لم تكن تحب أن أسمعه ، ثم رأيت وجهها يحمر من ضغط ضحك تحاول أن تكتمه ، فلم أفهم شيئاً ولم يتحرك فضولى ، ولكن أمى التى طبعت على الصراحة ، لم تلبث حتى قالت « دعك من هذه المرة ، والمرة القادمة سنأخذكم معنا » وبدأ فضولى يشتد فقلت : هذه المرة ؟ أى مرة ؟ وتأخذوننا إلى أين ؟ فقالت شقيقتى : « لا تتضايق لقد ذهبنا ليلة أمس إلى مسرح سلامة حجازى ، ولم نأخذكم لأنه يتأخر كثيراً فى الليل » ، ويبدو أن أمى وأختى أصيبتا بخيبة أمل لأنهما لم يسمعا منى احتجاجاً ، فقد كنت لا أعرف شيئاً كثيراً عن المسرح ، ولذلك لم يكن حرمانى منه ، شيئاً مؤلما ، ولما سمعت أنهم ذهبوا قبل ذلك إلى « الأنتيكخانة » قمت وتركتهما ، لأنى لم أفهم بالضبط ماذا تكون « الأنتيكخانة » .

ولكن لما زاد سماعى لاسم الشيخ سلامة حجازى ، ولأنباء المسرح ، بدأت أحس بأنى خسرت شيئاً ما ، ولم يطل ألمى ، فقد ذهبت إلى المسرح مرتين : مرة إلى مسرح الكسار ، فى شارع عماد الدين فى دار (الإجبسيانة) ومرة فى مسرح كشكش بك ، ولم يبق فى ذاكرتى من المرة الثانية شىء إلا صورة (كشكش) وهو يلبس العمامة والجبة والقفطان وقد بدا لى وجهه شديد الحمرة بسبب ألوان (التنكر) ، كما بدت لى الراقصات وهن يقفزن غير مفهومات ، ولكنى تابعت حركاتهن فى سرور ليس خالصاً للفن كله ، وإن كنت دون السابعة ، أما العرض الذى رأيته على مسرح على الكسار ، فقد سبب لى أول الأمر خيبة أمل فقد كنت أسمع اسم على الكسار ، وبطبيعة الحال كنت أتمنى أن أراه ، فإذا بالرواية التى جئت لمشاهدتها ، واسمها (راحت عليك) لا يظهر فيها على الكسار ، وإنما يلعب دور البطل فيها ممثل كان معروفاً فى تلك الأيام اسمه (محمد بهجت) وكانت تتقاسم معه البطولة المطربة الشهيرة (فتحية أحمد) .

ولم يبق من هذه المسرحية فى ذهنى إلا القليل ، أذكر أنها انتهت بمشهد تلف فيه بطلة الرواية نفسها بالعلم المصرى ، فقد كانت الروح الوطنية على أشدها وكان كل غناء وكل تمثيل ، وكل خطابة وكتابة تصرح أو تلمح للحالة السياسية ، كما كانت أسماء المحال ، وأسماء المصنوعات والملبوسات والمشروبات تحمل أسماء ورموزاً

مصرية قديمة وجديدة كالأهرام وأبى الهول والهلال ، وألفاظ الحرية والاستقلال والوطن ومصر ، ووادى النيل ، والتضامن والإخاء . ثم تزوجت أختى الكبرى الأستاذ كامل أحمد ، وكان على صرامة خلقه ، وميله إلى الجد ، فى كل ما يقول ويفعل ، محبًا للأدب ، قارئاً للشعر ، يتزود ببعض الفن ، ومن هنا صحبنى مراراً إلى شاطىء روض الفرج الذى كان فى الصيف مصيفاً لأهل القاهرة ، يلتمسون فى الأصائل والأمسيات بعض النسمات الرطبة التى تهب عليهم من النيل ، فى محال تقدم المشروبات المثلجة ، وفرق من الدرجة الثانية تعرض مسرحيات الفرق الكبرى الناجحة ، فكان فوزى منيب يمثل مسرحيات الكسار وكان يوسف عز الدين وفؤاد الجزايرلى يقدمان مسرحيات الريحانى ، ولذلك مافاتنى من هذه المسرحيات الكبرى ، على مسارحها الكبرى رأيته فى هذه المسارح الرخيصة المتواضعة ، ويبدو أنها لم تعجبنى كثيراً ، فلست أذكر شيئاً من وقائعها ، كما لا أذكر شيئاً من وقعها فى نفسى . ولكن لابد أن أثرها اندس فى عقلى ، وبقى مخزوناً ، يمدنى بما أحتاج إليه عندما ألجأ إلى العامية فى الكتابة والتعبير عن شخصيات مصرية وبلدية وقد تدهش إذا علمت أن أكبر تجربتين فنيتين فى حياتى كانتا أبعد ما تكون عن المسارح الكبرى ، أولاهما فى حفلة مدرسية ، فى مصر القديمة ، أقامتها إحدى المدارس القبطية للأطفال وكانت الممثلة التى أعجبتنى ، وأثرت فى نفسى ، طفلة صغيرة ، تروى شيئاً أصابها لا أذكره الآن . ولكن صوت الطفلة ، كان مسموعاً برغم الضجيج والفوضى اللذين يلازمان الحفلات المدرسية ، وكانت ألفاظه مفهومة ، وكان فى نبرتها تعبير عن حزن وانكسار ، أحسست معهما أن هذا العرض كان ناجحاً ، لأنى صدقته ، وقد بقى هذا هو معيارى ، فى الحكم ، على كل عمل فنى .

■ أما التجربة الفنية الثانية فكانت مع حكايات للأطفال ، فى كتاب باللغة الإنجليزية كانت أختى الوسطى تقرؤه وتروى لى منه ما تقرؤه ، وتدعنى أنظر إلى صور الكتاب . وعلى الرغم من أن ورق الكتاب ــ على غير عادة الكتب الإنجليزية للأطفال ــ كان خشناً ، والصور فيه كانت رسوماً بالقلم ، وليست صوراً فوتغرافية ، فإن وقائع الحكايات ، ورسوماتها ، ملأت على دنياى ، بعالم سحرى فاتن . عرفت أم الطرطور الأحمر التى كانت تحمل لجدتها كل صباح ، فى سلة من القش ، إفطارها من الجبن والمربى والفاكهة ، وعرفت قصة الولد الخائب الذى باع

بقرة العائلة بكيس من الفول ، فرمت أمه فى وجهه الكيس فأنبتت حبة منه شجرة ضخمة صعد إليها يوماً ، فرأى فى نهايتها طريقا طويلا ، يؤدى إلى بيت الغول .

وعرفت الساحرة ومكنستها ، والطفلة اليتيمة التى كانت تعذبها الساحرة ، حتى أنقذها الأمير الشاب وتزوجها ، وقتل الساحرة ، ثم عرفت أخيراً سندريلا ، وحذاءها الزجاجى وعربتها التى تجرها خيول من الفئران .

والمدهش أننى لم أستجب كثيراً لحكاياتنا : حكاية الشاطر حسن ، وعقلة الصباع ، ربما لأن الحكايات الإنجليزية ، كانت مزودة بالصورة ولأن الصورة عرضت علىّ عالماً ليس من السهل مقاومته : عالم الغابة وأشجارها الملتفة ، وطرقها وسط الحشائش وجذوع تلك الأشجار ، والغول وآلته الموسيقية ، وبيته حيث الإوزة التى تلد بيضاً ، بيضة من ذهب ، وأخرى من فضة ، ورحت أقص للأطفال ، هذه الحكايات ، فكانت أول عمل إنشائى أقوم به .

وكان الفن فى أيام طفولتى ، فى طفولته ، ولكن العجيب ، أنه استمر فى هذه الطفولة رافضاً أن يتجاوزها إلى الصبا فالشباب .

كانت الأغنية الفردية التى تحكى عاطفة الفنان ، وبلواه فى الحب ، وشقاءه فى الهجر ، ومذلته فى الصد ، وسهره فى البعد ، هى أعلى مراتب الفن ، وقد بقيت حتى اليوم ، متربعة على عرشه ، وبقيت محتفظة بخصائصها الأولى ، وملابساتها ، وجوها القديم فى الأداء ، والاستماع ، فالتكرار الذى يستنفد كل صبر هو سمة الأداء البارزة ، أما المعانى فهى هى ، فالمحبوب ، هو الشمس والقمر ، وهو البداية والنهاية ، وهو عمر المحب ، وخمره ومن وراء هذا التدله والتذلل ، إيماءات جنسية صارخة حيناً ، متوارية حيناً آخر . أما حفلات الطرب فى الماضى فهى خليط من الزار والشجار ، ومن ضجيج الحانات ، وفحش الأزقة : صراخ حاد ، وقفز عنيف ، وتشنج وارتماء على الأرض ، وعبارات يتبادلها السامعون ـ وغالباً ما يكونون من السكارى ـ تبلغ فى البذاءة الغاية ، ودعابات تهبط فى خدش الحياء إلى الدرك الأسفل ، مع حركات بالجسم والأيدى ، لا يجد الإنسان أية صعوبة ، فى فهم مراميها ودلالتها ، فإذا انتهت الحفلة قبيل الصباح ، خرج السامعون ، وكأنما هم العائدون من معركة : عيون احمرت من طول السهر ، وحناجر أجهدت من كثرة

الصـراخ ، وأذرع تهدلت ، من شـدة التلوى والتلويـح . والكتـابـة ، عن الفن والفنانين ، وذكر أنبائهم فى الصحف ، لا يعدو أن يكون غمزاً ولمزاً عند الغضب ، وتأليهاً وتمجيداً عند الرضا .

أما المسرح فالنجاح فيه لا علاقة له بفكرة المسرحية ، ولا حسن بنائها إلا فى النادر الذى لا يحسب له حساب ، فالاعتماد فيه على مدى ما تتيحه وقائع المسرحية للممثلين والممثلات ، من حركات وإشارات أيديهم وحواجبهم ، وتلويهم وتطاولهم وتقاصرهم ، والصفع على الأقفية والركل فى الظهور والجرى والرمح عـلى خشبة المسرح ، أو صراخ الممثل وقوة حنجرته ، وكثرة الصرعى والجرحى وارتفاع العويل والبكاء .

ولاشك أن ثورة سنة ١٩١٩ قد ألهمت بديع خيرى (المغبون) وسيد درويش بعدد من الألحان جميلة المبنى والمعنى ، واللحن والأداء ، وقـد أوشكت المسرحيـة الغنائية ، والأناشيد ، والأغانى الجماعية ، أن تتخلص من الغناء الفردى ، وتقاليد (الصالات) ، ولكن هذه المحاولة أجهضت ، وضاعت « ياعزيز عينى وانا بدى أروح بلدى » و « بلادى بلادى » و « ياعم حمزة » فى بحـر طام من أغـان جنسية صارخة بعضها لعبد اللطيف البنا ، مثل « تعالى يا شاطر نروح القناطر » و « ارخى الستارة اللى فى ريحنا ، لاحسن جيراننا تجرحنـا » وأغان أخـرى مثل « أنـا واحدة سيجوريا ، فى العشق يأأنته واخده البكالوريا » وكان ألطف هذه الأغانى « أسمر ملك روحى » لمنيرة المهدية ، و « زورونى فى السنة مرة » من تلحين سيد درويش فى حين بقيت أسطوانـات سلامـة حجازى القـديمة . مثـل « أجولييت ، مـا هـذا السكوت » و « المشرقان عليك ينتحبان » تهبان على المصريين ، كأنهما أنسام آتية من بعيد .

هذا الغناء الفردى كان أكثر غذاء الشعب الفنى فى تلك الأيام ، غير أن البليَّة كانت تخف بفرط الاهتمام بقصائد شوقى وحافظ فنشر القصيدة فى الصفحة الأولى من الجريدة كان حدثًا فنيًا وقوميًا تسمع صداه فى كل بيت ، ويتحدث الناس عنه فى الدواوين والمقاهى ويقرأون القصيدة ، وينتقدونها . كذلك كانت المقالة الجيدة ، والخطبة الرائعة ، والبيان السياسى الجميل ، والمرافعة العظيمة مدداً روحيًا للشعب

والخاصة ، ولقد شهدت بنفسى آثار هذه الأعمال الأدبية وأنا لاأعى سر الاهتمام ، ولا سبب الاجتماع حول شىء يقرأ بصوت عال ، والسامعون من عائلتى منصتون ، مندمجون مع القارىء صامتون كأن على رءوسهم الطير .

شعب بلغ حبه للفظ الجميل ، وللعمل الأدبى ، هذا المبلغ ، كان جديراً — إن وجد من يحسن قيادته — أن يخطو فى دنيا الفن ، خطوات رائعة ، تحققت بداياتها الكبرى ، بتمثال نهضة مصر ، وبمحاولات المسرحيات الغنائية التى شهدت مصر ميلادها ، فى فترة صباى . ولكن الثورة خبت نيرانها فاتأدت الخطوات التى كانت سريعة وهدأ التيار الذى كان مندفعاً .

ثلاث مدارس

تنقلت فى حىّ السيدة زينب بين ثلاث مدارس كانت كل منها تمثل نوعاً من أنواع المدارس التى كانت تعلم أولاد المصريين فى تلك الأيام : الأولى منها مكتب محمد سعيد ، فى حارة متفرعة من شارع زين العابدين النابع من ميـدان السيدة الرئيسى ، والمتقاطع مع شارع سلامة ، والثانية مدرسة الجمعية الأهلية المصرية ، وهى مدرسة أهلية ، والثالثة مدرسة محمد على التى حدثتك عنها .

أما الأولى من الثلاث فلا أدرى لماذا كانت تسمى مكتباً ، وليس فى شىء من أثاثها ولا بنائها ولا نظام العمل فيها ، ولا الكتب التى تدرس بهـا ، ما هـو أدنى أو أقل شأناً من المدارس الابتـدائية ، إلا أننـا كنا نعفى من الـذهاب إلى المكتب بالبذلات ، إذ كان الملبس المسموح به هو الجلبـاب فقط أو الجلباب والبـالطو فى الشتاء ، والجلباب والسترة فى الصيف مع الطرابيش بطبيعة الحال .

ولم يكن هذا كل الفارق بين المدرسة والمكتب الذى بدأت به تعليمى ، فقد أعفينا فى هذا المكتب من تعلم اللغة الإنجليزية ، وهذا هو الفارق الثانى أما الفارق الثالث والأخير فهو أن ناظر المدرسة كان شيخاً معمماً ، والغريب أننى لاأذكر من هيئة التدريس وإدارة هذا المكتب ، أحداً ، إلى حد كنت أتصور أنه كان كل موظفى المكتب ، وهذا غير ممكن ، إذ كان المكتب يضم سنوات أربعاً وكانت الفصول تتلقى الدروس فى وقت واحد ، مما يستلزم وجود أكثر من مدرس ، ولكنى لا أذكر واحدا

من هؤلاء كما لاأذكر اسم أو وجه فراش واحد ولابد أنه كان هناك فراشون . ولكن هذا الاختفاء من ألغاز الذاكرة ، التى يلذ لها أن تتمسك بأشياء ، وتسقط من ثقوبها أشياء ، ولاتدرى لماذا أبقت ما أبقت ولماذا تخلت عما تخلت .

لاأذكر أحداً إلا ناظر المكتب ، وأذكر الصورة العامة لوجهه ، وهو وجه فلاح مصرى عادى التقاطيع ، ليس فيه عيب من العيوب الشائعة فى وجوه أبناء ريفنا ، من جبهة بارزة ، أوعيون غائرة فى محاجرها ، أو أنف غليظ فى شكل غير معروف . ولكن السمة الأساسية التى بقيت فى ذاكرتى من جسم هذا الناظر هو عظمة عنقه المعروفة بجوزة آدم ، فقد كانت بارزة بروزاً ملفتاً للنظر . وكان الرجل جادًّا ، والمكتب الذى يشرف عليه نظيفاً ، وحجراته واسعة ، وسلالمه من الحجر الجيرى الذى كان يغسل كل يوم جمعة فنرى آثار الماء عليه يوم السبت والذى أرجحه أننى كنت بعد فى غيبوبة الطفولة ، فلم أستفد من المكتب شيئاً . ولم يعلق فى رأسى حرف مما قيل لى فيه . والذكرى الواحدة التى أذكرها عن حياتى فى هذا المعهد أننى اشتريت معطفاً أسود اللون ، غالى الثمن ، وذهبت به إلى المكتب ، وفى اليوم الذى ذهبت به إلى المكتب أو فى يوم تال رسم لنا الشيخ الهيكل العظمى للإنسان ، وأذكر أنه كان رسما جيداً أعجب إلى اليوم كيف تأتى لشيخ فى تلك الأيام أن يقوم به ، واستعان فى هذا الرسم بطباشير ملون ، فاخر فأخذنا نتأمل فى هذا الرسم الملون ، ونحن فرحون به ، وفرحون أيضاً بهذا الترديد المنغم الذى قمنا به ، مقتدين بأستاذنا : « الجمجمة ، الرأس ، الصدر . . . » ولما فرغنا من هذا الغناء المدرسى ، آن أن يمحى هذا الرسم الغالى بألوانه الباهرة ، فسأل الشيخ من يتبرع بعملية المحو ، فمددنا أذرعنا ، ورفعنا أصابعنا فى حرارة ونشاط ، فوقع الاختيار علىّ ، ربما لتميزى بهذا المعطف الذى لا يتيسر كثيراً لأولاد المكتب ــ وأكثرهم من أبناء العمال فى المنطقة ــ شراؤه ، فأسرعت إلى قطعة القماس التى تستعمل فى تنظيف السبورة والتى كانت تعرف « بالبشاورة » وأنسانى هذا التميز ، المعطف ، فألصقت جسمى الصغير بالسبورة وخرجت من هذه العملية بمعطف ملون . . . حزنت عليه حزناً شديداً وعدت الى البيت وأنا مطأطىء الرأس كسير الخاطر ، شاعراً بخيبتى ، وقلة حيلتى . . . وبقى هذا الشعور إلى اليوم لايفارقنى . .

ثم انتقلت إلى مدرسة الجمعية الأهلية المصرية ، الواقعة فى القسم الثانى من

شارع سلامة ، وهى مدرسة أهلية لاتديرها الحكومة ، وقد كان هذا الطراز من المدارس منتشراً غاية الانتشار فى أعقاب ثورة سنة ١٩١٩ ، وقد ازدادت الحاجة إليه لما كثر إقبال الناس على تعليم أولادهم ، وقامت العوائق دون إلحاق هؤلاء الأبناء بالمدارس الحكومية ، إما لأن سنهم أكبر من السن التى تسمح بها قوانين الحكومة ، وإما لأنهم سقطوا أكثر من ثلاث سنوات ففصلوا لليأس من تربيتهم وتعليمهم ، وإما لأن مصروفات المدرسة الأهلية أخف ، ويجوز المساومة فيها ، ويجوز هضم بعضها ، ويجوز أشياء أخرى ، منها أن يقفز التلميذ البليد سنة أو سنتين من التعليم فبدلا من أن يدخل فى السنة الثانية مثلا ، يدخل فى السنة الرابعة ، وكل شىء بثمنه . ولذلك كانت المدارس الأهلية سيئة السمعة ، وزاد سمعتها سوءاً أن كثيراً ممن سُدّت فى وجوههم أبواب الرزق ، بعد أن التمسوا معاشهم كسماسرة أو وسطاء أو ممثلين أو موظفى حكومة ، يجربون حظهم فى المدارس الأهلية ، وقد يوفقون ، فتنهال عليهم الأموال ، وقد يحملهم النجاح على التزام قدر قليل من الأمانة ، وفرض حد بسيط من الضبط والربط فى المدرسة ، فتتحسن سمعتها وسمعته ، فيزداد أمانة وثقة ، وهكذا ، حتى يخرج من جماعة المشبوهين إلى جماعة المربين ، وقد يصبح ــ بفضل الإعلانات ــ المربى الكبير وترسم له صور فى الصحف ، ويحضر مؤتمرات التربية والتعليم ، وقد يسافر إلى الخارج لقضاء عطلة الصيف ، فيعلن أنه اشترى لمدرسته المعامل والأدوات الهندسية ، وأجهزة الطبيعة والكيمياء ، مما لا يتوافر فى المدارس الحكومية ، وهكذا دواليك .

أما مدرسة الجمعية الأهلية المصرية ، فقد كان على رأسها رجل وطنى فاضل ، لأنه كان مهندساً من زملاء والدى ، وكان وطنيًّا ، اتهم مع بضع عشرة من الموظفين المتطرفين فى أعقاب قضية مقتل بطرس غالى بأنه كان شريكا بالاتفاق مع قاتل رئيس الوزراء ، إبراهيم ناصف الوردانى ، وقدم هو وزملاؤه إلى قاضى الإحالة متولى غنيم بك ، فأفرج عنه وعنهم ، على أساس ، أن الشروع فى الشروع لايعاقب عليه قانون العقوبات فى مصر ، فوضعت الحكومة تشريعاً خاصًا لسد هذه الثغرة ، فأنشأت جريمة الاتفاق الجنائى ، التى يعاقب فيها الناس على مجرد الاتفاق على الجريمة ولو لم يشرعوا فى تنفيذها .

فدافع أبى إلى اختيار هذه المدرسة كان دافعاً وطنيًّا . ولكن هذا لم يغير شيئاً فى

الأمر ، فقد كانت مدرسة أهلية بكل عيوب المدرسة الأهلية . . . ولكننى أشهد أن بناء المدرسة ، كان صالحاً لأن يكون مدرسة ، وكانت حجراتها فسيحة وطرقاتها مستقيمة والأدوات المستعملة من مقاعد نجلس عليها ، وسبورة يستعين بها المدرسون فى الشرح ، إلى آخر هذا الأثاث كانت فى حالة جيدة . ولكنى انتقلت من مكتب محمد سعيد إلى المدرسة الأهلية ، وكل جوارحى نائمة ، فلا أذكر أننى انتفعت منها بشىء . .

ولكنى أذكر أن أسوأ ما مر فى حياتى المدرسية وقع لى فى هذه المدرسة ، ضربت أقسى ضرب من مدرس الدين ، لأنه طلب أن أسمع له سورة « البيِّنة » ومازلت أذكر حتى اليوم كأن ماحدث كان فى الأمس فقط ، أذكر أمى جالسة إلى جانب مصباح يضاء بالبترول ، وهى تطالع الأهرام ، وشفتاها تتحركان حركة خفيفة ، كعادتها ، وقد تقدمت إليها وفى يدى كتاب يضم سور جزء عم ، لأسمّع لها سورة البينة ، تلوت السورة ، فظهر أنى لم أحسن حفظها ، فعاودت المحاولة ، مرة ومرة ، ثم ذهبت لأنام وأنا لم أتقن الحفظ . وفى اليوم التالى قرأت السورة فتعثرت كثيراً فانهال على الشيخ ، وكان رجلا طويلا ، بعصا فى مثل طوله ، واشتد ألمى ، وانفجرت باكيا ، ويبدو أن وجود فريسة أمام الإنسان يغرى بالإسراف فى العدوان عليها ، فالشيخ ازداد ضربه ، فى تصاعد مخيف ، وأنا أصرخ وأتلوى ، بدون أن يحرك منظرى الرحمة فى قلبه . وذهبت إلى البيت كسير القلب ، شاعراً بالإهانة ، وبأنى ظلمت بقوة ، ولم أستطع أن أحفظ هذه السورة طول حياتى حتى سنين قليلة مضت ، فقد شرعت أحفظ القرآن فى المعتقل وبدأت بسور جزء عم فحفظتها جميعاً فى يسر وسهولة ، لكن عقلى رفض رفضاً باتا أن يحفظ سورة البينة وحدها بل إنى تخطيتها أول الأمر ، كأنى أتحاشى أن أمر بيدى على ندبة جرح لا يزال جديداً .

أما الحادثة الثانية ، فقد كان ظلمى فيها أفدح ، فقد ذهب تلميذ من زملائى إلى مدرس الحساب ليصحح أحد كراريسه فألقى إلى المدرس هامسا : « إن التلميذ المجاور لرضوان ، يمضغ اللبان » . وسمع المدرس أن (رضوان) هو الذى يمضغ اللبان ، فنادانى وانهال علىّ ضرباً . وخاف زميلى أن يصحح للمدرس خطأه . فتركنى أضرب بلا ذنب ولا جريرة وحاولت أن أمسح دموعى بمنديل ، فوضعت يدى فى جيبى ، فخرجت يدى بساعة فضية كان أبى قد اشتراها لى ، ولم أجد منديلا

فزاد ذلك من ألمى وشعورى بالإهانة ، والعجب أن هذا الزميل الذى تسبب فى إيذائى ، عن غير قصد ، بقى شخصاً مخيفاً بالنسبة لى ، بل إنى لم أستطع أن أحب كل عائلته ، وقد تصادف أن عرفت بعض أفرادها فيما بعد ، وكانت عائلة مقاولى بياض وبنائين ، وتغلب عليها طباع عمال هذه المهنة ، وإن كانوا يلبسون البذلات الأوربية . .

وقد مرت بى فى المدرسة الأهلية تجربة نفسية ذات قيمة كبيرة ، فقد كان من بين زملائى وجيرانى فى الحى ، صبى مصاب بالشلل ، فأردت أن أداعبه يوماً ، فأوهمته أنى سأقوده إلى حجرة الناظر . التى كنت أجهلها فى الحقيقة ، إذ لم تطرأ المناسبة التى تدعونى إلى الدخول فيها ، بل الاقتراب منها . فإذا بالفزع يركب هذا الزميل المنكوب ، إلى الحد الذى أدهشنى ، وأطمعنى فيه . وفى اليوم التالى كررت التهديد وخطوت معه خطوة جديدة ، إذ سحبته من يده إلى حجرة الناظر ، وتشبث المسكين بالحائط ، وبالباب ، وكلما زاد خوفه ، زدت إصراراً على سحبه ، حتى إذا بلغ فزعه إلى الغاية تركته لأفعل شيئاً غريباً إلى أقصى حد : تركته لأنزوى جانباً ، ثم أنفجر فى بكاء حار صادق ، لو ضبطنى أحد متلبساً به لظن أن فاجعة كبرى قد حلت بى . وأصبحت هذه العملية القبيحة ، عادة لى ، كل فسحة ظهر أسحبه ، ويفزع ، ثم أتركه وأبكى .

ولست أدرى ماالذى أوقف هذه العادة ؟ ولا متى وقفت ؟ ولقد مضت سنوات وأنا لا أكف عن تذكر فعلتى الشنعاء هذه ، ثم بدأت أحللها لما كبرت واستطعت أن أتأمل الظواهر النفسية ، وأن أزداد معرفة لنوازعى ، ومداخل نفسى ومخارجها .

ولو استرسلت فى الكتابة عن هذه الواقعة ، لاستطعت أن أضع فيها كتاباً ولكن ما أستطيع أن أقوله عنها بإجمال إنه ليس لها شبيه فى حياتى بعد ذلك من قريب أو من بعيد ، فأنا أكره تعذيب الأشخاص والحيوانات والحشرات . فلست أطيق أن أرى مثلا فأراً داخل مصيدة ، وهو يهز فيها بعنف لقتله ، وكم نهيت بشدة أطفالا فى الطريق العام إذا رأيتهم يجرون قطة بحبل من رقبتها . بل إن مجرد دخول عصفور ضال فى حجرتى وتخبطه فى زجاج النافذة ، يجعلنى فى حالة شبيهة بحالة غريق مشرف على الموت فى بحر متلاطم الأمواج . ثم إنى لست ممن يستعذبون تعذيب أنفسهم ،

ومن الناس من يسره أن يستحضر الذكريات المحزنة ، والمواقف المؤلمة ، بل إنى أنفى عن نفسى هذه الذكريات وأنجح فى ذلك نجاحاً عظيماً . ولاشك فى أن عملية سحب هذا الزميل التعس والتألم لمرآه ويده المشلولة ترتفع وتنخفض فى الهواء هى ضرب من (السادية) ، أى التلذذ بتعذيب الغير ، ثم الانفجار فى البكاء والشعور بالارتياح ضرب من (الماسوشزم) وهى التلذذ بتعذيب النفس . وربما كانت العملية كلها ضرباً من هذا التعذيب الأخير ، بمعنى أننى لم أكن أبغى تعذيبه ، وإنما أبغى تعذيب نفسى بدلالة شعورى بالارتياح التام بعد انفجارى بالبكاء . والحق أنه كان بكاء مريحاً للنفس ، يغسل الهموم ، ويرفع عنها ثقلا لست أدرى أين مصدره وأنا طفل صغير .

أيكون حرمانى من الأصدقاء فى هذه المرحلة ، وعدم تقدمى فى الدراسة ، وعدم شعورى باهتمام أحد بى قد أحدث فى نفسى اضطراباً ، وكان يجد متنفساً فى هذه العملية الفريدة ؟ أم يكون ذلك التصرف استجابة طبيعية لأن كل إنسان ميال لممارسة القوة عندما يجد الفرصة متاحة ، والعقبات مرفوعة ، والجزاء غير محتمل ؟!

الذى أحمد الله عليه أننى حينما تركنا المدرسة الأهلية ، ذهبنا معاً ــ أقصد أنا وزميلى المشلول ــ إلى مدرسة محمد على ، فلم أكرر هذا العدوان القبيح ، وكان هذا نعمة وفضلا من الله على ، ولكن الذى كان عندى أهم وأعلى درجة أن زميلى تقابل معى وكأن شيئاً لم يحدث منى : لم يبتعد عنّى ، ولم يتجهم يوماً لمرآى ، ولم يبلغ ضدى بحق أو بباطل إدارة المدرسة كما يفعل الزملاء . والأغرب من هذا كله أنه لم يشر قط إلى فعلتى هذه تلميحاً أو تصريحاً .

مضت الأيام ، وأتممنا تعليمنا ، وأصبحت أرى زميلى هذا ، لا تزال العاهة تلازمه ، ولكنه يسير واثق النفس ، معتدًّا ، أنيقاً ، ويبدو لى أنه وفق فى حياته العملية ، ولم يدر هو أننى كلما رأيته على هذه الصورة حمدت الله ، وفرحت بنجاحه ، كأن هذا النجاح تعويض لى أنا وعزاء .

ثم انتقلت إلى مدرسة محمد على ، ومرت الأيام فيها عادية ليس فيها ما يستحق أن أذكره ، ولكن التجربة كلها تستحق أن يستخرج منها بعض المعانى ، وأن توحى بغير قليل من الخواطر .

فمدرسة محمد على مدرسة حكومية ، والتعليم فى مدارس أوربا ، خصوصاً ما كان فى مراحله الابتدائية ، وما كان محليًا ، من شأن الجمعيات الأهلية ، والمجالس البلدية ، وكون التعليم الابتدائى بل التعليم بكل مراحله ، نشاطاً حكوميًّا من عهد محمد على ، ظاهرة اشتراكية سبقت بها مصر ، كثيراً من البلادالاشتراكية ، فمرافق المواصلات منذ أكثر من قرن ونصف قرن ، مملوكة للحكومة وتدار لحسابها .

وأشهد أن المدارس الحكومية كانت على مستوى جيد من كل ناحية . فالمبانى لائقة بالمدرسة ، نظيفة ، بها من الملاعب والمعامل والمدرجات مايتيح تربية علمية ورياضية جيدة . وكانت الكتب حسنة الطبع ، انيقة ، مصورة توزع فى الأيام الأولى للدراسة ، فلا يتأخر التلاميذ فى تلقى علومهم بسبب تأخير وصول الكتب والكراسات ، كما حدث ذلك فيما بعد ، حينما سمعنا الكثير عن الديمقراطية والاشتراكية ، وعن إصلاح الإدارة الحكومية ، وعندما اشتدت حماستنا الوطنية ، فخضنا المعارك مع الأجانب والإنجليز ، وأشهد كذلك أن نظارنا ومدرسينا ، بل وفراشى المدرسة وعمالها ، كانوا جميعاً عظيمى الإحساس بالواجب ، يؤدونه فى حماسة ، ويفرحون بنجاحنا ، ويحزنون لتعثرنا ، ولست أذكر أن واحداً منهم ، كان مثلا سيئاً ، حقيقة لقد مضت السنون بدون أن تقدم لنا المدرسة شخصية فريدة ، نذكرها بإعزاز خاص ، أو تترك هى فى حياتنا أثراً خاصًّا . شخصيات عادية ، متقاربة : فالكل متشابهون تقريباً فى الملبس وطريقة الأداء ، وفى النوازع مع التفاوت الحتمى الموجود بين إنسان وإنسان . ولعله من المؤسف أن أقول إنى لاأستطيع أن أذكر لواحد من هؤلاء الأساتذة جميعاً كلمة وطنية ، أو إيحاء جريئاً ، أو دعوة للمجازفة فى الحياة ، أو حكاية طريفة ، أو خاطرة غير عادية كلامهم كلام طيب فى عمومه ، يتصل بالمدرسة نفسها ، ولا يخرج عن نطاق الكتاب والمدرس ، ليس فيه مايعاب وليس فيه ما يؤذى الشخصية ، أو يسوّغ الضعف أو يفتح السبيل للانحراف أو التهاون فى الواجب أو الشرف ، ولكن خلت حياتنا فى مدرسة محمد على من نماذج رفيعة ، أو كلمات عظيمة أو شخصيات فذة . . كل شىء رتيب فى مستوى جيد .

وأحسب أن الرتابة فى مدرسة محمد على كانت قانون الحياة فى مصر : فى البيوت

كل شىء يتم فى اليوم كما تم فى الأمس ، وكما سيتم فى الغد . نظام المأكل والملبس نفسه ، التحيات والمجاملات نفسها ، وأسباب النكد ، ودواعى السرور . . . وبعد العمل : المقهى نفسه فى الموقع نفسه ، مع الأصدقاء أنفسهم ، ليقولوا الكلام عينه وليتبادلوا النكات نفسها . . لم أذهب إلى مدرسة محمد على فى يوم من الأيام خائفاً كارهاً لها ، ولم أذهب فرحاً بالذهاب إليها ، ومتوقعاً شيئاً عظيماً أو مفرحاً .

وأعترف أن السنوات الثلاث الأولى لى فى المدرسة كانت امتداداً لحياتى فى المدرسة فى مكتب محمد سعيد والأهلية المصرية ، أعنى فترة (بيات) ذهنى ، أى نوم ، وإن لم أكن قط فى مؤخرة الصف ، ولا من زمرة السيئين أو الفاشلين . ربما كانت السنة الأولى الابتدائية فى محمد على سنة يقظة ، فقد كنت من العشرة الأوائل ، وكان أسلوبى فى الكلام ، ومسلكى بين الزملاء ملفتاً للنظر بدليل أن المدرس الشهير (حسين سليمان) قال لى يوماً وهو محنق لفعل صدر منى : نعم ياحضرة الفيلسوف ، ولكن لماذا قال هذا ؟ لست أدرى حتى الآن .

فإذا كانت السنة الثالثة بدأت بوادر اليقظة تتوالى ، فقد دخلت فى مناقشة أدبية مع محمد كامل عبد السلام زميلنا الذى بدت بوادر مواهبه الأدبية ، فى وقت مبكر فقد كتب صوراً قصصية وصفه الشيخ هاشم عطية بفضلها بأنه (المويلحى) ، ولم نكن نعرف ماذا يكون المويلحى ، وبعد أن شببنا عن الطوق وبدأنا نقرأ المنفلوطى وغيره ، عرفنا من يكون المويلحى ، فلما كانت السنة الرابعة بدأت أحس بوجودى جيداً ، وكتبت ما استوقف المدرسين ، ولكن هذا حديث فترة تالية ، هى فترة الصبا ، فلا يحق لنا أن نتناولها بالكلام ، حتى نستوفى القول فى فترة الطفولة .

أحاول أن أذكر من بين مدرسى وموظفى مدرسة محمد على ، من يستحق أن يوصف بالشخصية فلا أجد .

صحيح أن حسين سليمان مدرس الكرة ، كان شخصاً مؤثراً فى حياة لاعبى كرة القدم فى المدرسة ، وأنه استطاع أن يستثير حب هذه اللعبة فى نفوس تلاميذه وأن يخرج الكثيرين من أبطال الكرة فى مصر ، الأمر الذى يجعله بحق رائداً من رواد التربية البدنية فى بلادنا . وصحيح أيضاً أن رعايته للعبة كرة القدم كانت نشاطاً إضافيًا لعمله الأصلى ، وهو تدريس اللغة الإنجليزية ، مما يزيد من فضله ، فقد

كان هذا التطوع من جانبه قلبياً حماسياً ، يبذل فى سبيله من الوقت والجهد كأنه كل عمله ، وكأنه يقتات منه . ولكنه بعد ذلك كله إنسان عادى لا يستوقفك فى مظهره ، ولا فى أسلوب تدريسه ، ولا فى علاقته بالتلاميذ ، شىء يميزه عن سواه .

فإذا كان لابد أن نضفى لقب شخصية على أحد من مدرسى وموظفى مدرسة محمد على ، فسأختار ثلاثة لا لأنهم يستوفون (صفات الشخصية) ، بل لأنهم أقرب مايكونون من (الشخصية) أولهم مدرس للغة العربية ، بقى يحتفظ بالعمامة والجبة والقفطان ، و(المركوب) .

والمركوب هنا عنصر مهم فقد هجر ــ أيام طفولتنا ــ رجال الأزهر هذا النوع من الأحذية ولكنه احتفظ به ، وإن لم يحتفظ بشىء من صفات الأزهريين القدماء كالحرص على التكلم بالعربية الفصحى فى شئون الحياة اليومية ، مثل طلب كوب ماء ، أو أصبع طباشير . فقد كانت لغته سهلة وبسيطة ، وكان على شدته لايبالغ فى هذه الناحية المبالغة التى تخرج التلاميذ عن طاعته ، وتجعله هدفاً لسخريتهم ، ولكن كانت له لازمتان ، أولاهما : أنه كان ينفق جزءا كبيراً من وقته فى الحصص فى عمل غاية فى الغرابة ، ذلك هو كتابة جدول الحصص المقررة عليه على ظهر علبة من علب سجائره ، فهو يبدأ بإعداد هذا الظهر ، ثم يرسم جدول الحصص بالقلم والمسطرة ، ثم يكتب الحصص فى أناة ودقة ، ثم يتأمل الجدول بعد ذلك ، ويطيل التأمل فيه ، ثم لايلبث أن يلقيه فى سلة المهملات ، فيبدأ يُعدّ جدولا جديداً ، وهكذا . . . فإذا كانت الحصة التالية خيل إليك أنه فرغ من هذا الجدول ، وأنه لم يعد بحاجة إلى تحضير نسخة جديدة منه ، ولكنه لايكاد يكلفنا بواجب مدرسى ونشغل به حتى يخرج علبه سجائره الفارغة ويشرع فى همة وانشغال بال يسطر ويكتب الجدول

وكان يكمل هذه اللازمة عنايته الشديدةُ ببرى قلم رصاص صغير ، يعلوه غطاء من الصفيح الأبيض ، كنا نسميه (لبيسة) فقلم هذا الأستاذ يجب أن يكون قصيراً تمسك به الأصابع بصعوبة ، ولابد من غطائه الصفيح ، ولابد من (بريه) كلما سمحت الظروف بإعداد جدول جديد . فإذا فرغ من برى القلم بمطواة يضعها فى جيب صغير ، تحت حزام قفطانه نظر فى سن القلم طويلا ، حتى إذا اطمأن إلى أنه حاد ، كحد السيف ، شرع يكتب .

فإذا فرغ من الأمرين معاً أخذ فى برى أقلام بسط ، وهى أقلام من البوص أو الغاب ، كنا نستعملها فى درس الخط العربى ، الذى كان ضماناً لتحسين خطوطنا . ما أشد حاجتنا إليه الآن !

أما الظاهرة الثانية فهى حرصه الشديد على أن يضرب التلاميذ المخطئين بكل كفه ، على أعلى طرابيشهم ، فيطبقها تطبيقاً . ولعل هذه الحركة كانت تعبيراً (سيكولوجياً) عن رغبته فى إلحاق الإهانة مع الألم بالتلميذ المسىء . فقد كان الطربوش فى تلك الأيام ، عنوان الشرف ، فتحطيمه تحطيم لشخصية المعاقب . وربما كان هذا اللون من العقاب ، ضرباً من التعبير عن كراهية الشيخ للطربوش وما يعنيه من الخروج عن النظام القديم الذى تمثله العمامة والجبة والقفطان والمركوب .

ولقد درس لنا الشيخ التاريخ المصرى القديم فى السنة الثالثة ، ولست أنسى تعليقه يوم أن وصلنا إلى تاريخ (إخناتون) فقد قال فى أسف صادق : « يقولون إنه اهتدى إلى فكرة التوحيد ، فظننت أنه عرف الله ، فإذا هو يدعو إلى عبادة الشمس » .

وربما كان هذا هو التعليق الوحيد الذى يحمل تصريحاً واضحاً لرأى الشيخ ولكنى كنت أحبه ، وقد أحبنى ، فوكل إلىّ فى درس الدين أن أقرأ كل الحصة شيئاً فى كتاب الديانة والتهذيب ، حتى تدق الحصة ويدق الجرس .

ولكم أحزننى أن بعض التلاميذ كانوا يضعون فى موضع الزر من طربوشهم دبوساً ، كأنه مانعة الصواعق ، حتى إذا أهوى بكفه على رءوسهم ، اخترق الدبوس لحمه ، وقد أصابه من ذلك أول الأمر ، ألم شديد ، ولكنه تجلد ، واستعاض عن الضرب بالكف ، بالضرب بالعصا ، فوق الطرابيش والرءوس معاً ، وعجز التلاميذ عن مواجهة السلاح الجديد ، بسلاح مثله ، مع أن الثابت أن الإنسان لا يوفق إلى سلاح ، حتى يوفق الأعداء إلى سلاح يلغى أثره . . رحم الله أستاذنا ورحم تلك الأيام !.

أما الشخصية الثانية فمدرس للغة العربية ينتهى اسمه بهاشم ، وهو من عائلة هاشم التى أخرجت عدداً من الأساتذة ، وقيل لى إن اسمه عطية هاشم أو هاشم عطية ، وقد كان سميناً ، أقرب إلى القصير ، يسير مفتوح الصدر ، عرف بين التلاميذ (بعنترة) ، لأنه كان شديد الإعجاب بعنترة بن شداد ، يروى لنا شعره ، ويشرح لنا بطولات فروسيته وحروبه ، وكان عصريًّا مجدداً ، لا يميل إلى ضرب تلاميذه ، وكان يحدثنا عن الأدب الحديث ، ويدعونا إلى الكتابة فى الأمور الجارية .

أما الشخصية الثالثة فهى شخصية الشيخ مصطفى ، ولكنه لم يكن مدرساً ولا معاوناً أو ضابطاً ، وإنما كان فراشاً ارتقى بهمته وحيويته وطموحه إلى أن يكون شيخ الفراشين ، واستطاع بهذه الفضائل أن يجعل شيخ الفراشين موظفاً أقرب إلى السلطات العليا منه إلى طبقة الفراشين وإن كان رئيسهم . كان يتبع الناظر وهو يوزع الشهادات على المتفوقين ، وكان يتولى توزيع الكتب الجديدة ، ونلجأ إليه كلما أردنا أن نستعلم عن شىء يتعلق بالامتحانات أو سداد الرسوم أو الحصول على الإيصالات ، وكان له نشاط لا أذكره حتى أترحم عليه ، وأترحم على أيامه ، ففى تلك الأيام كان نظام التوفير بطوابع البريد سائداً فى المدارس . وكان الشيخ مصطفى يوزع علينا ورقة مقسمة إلى مربعات ، وكان المطلوب منا أن نلصق فى هذه المربعات ، طابع بريد من فئة الخمسة مليمات ، فإذا أتممنا لصق عشرة طوابع فى المربعات العشرة سلمنا الورقة ، وقيد لنا فى الدفتر خمسة قروش وهكذا . . . وكان الشيخ مصطفى يستحثنا على ملء المربعات بالطوابع ، يهنئنا كلما ادخرنا جنيهاً . . وكان كل ذلك تربية اقتصادية وقومية من الطراز الأول .

وقد كان الشيخ مصطفى سميناً فى غير ترهل ، ولكن سمنته لم تحل بينه وبين الحركة الدائبة ، رأيته يوماً والناظر يحضر للحفلة الرياضية التى تقام آخر السنة ، يعدو فى حوش المدرسة ، ليرى بعض التلاميذ المطلوب منهم الاشتراك فى مسابقة قد اصطفوا ليمارسوها ، فانحل شال عمامته ، وضحك الناظر ، وضحك التلاميذ ، وعاد هو إلى موقعه إلى جانب الناظر ، وهو يعدل شال العمامة ، ويلهث ويضحك .

أما الشيخ عجاج فلا يعدّ من الشخصيات ، وإنما لا أستطيع أن أتحدث عن مدرسة محمد على وأيامى فيها ولا أذكره ، فقد كان مثالا للمدرس الذى يستطيع بغير العصا والتهديد أن يحبب إلى تلاميذه المادة التى يدرسها لهم ، وإن كانت قليلة الشأن

رسميًا . فقد درس لنا مادة الدين ، وهى مادة لا تدخل فى مواد المجموع الذى يتحدد ترتيبنا بناء على درجاته ، والرسوب فيها لا يؤدى إلى السقوط فى الامتحان .

وهى تدرس فى حصة واحدة يتيمة تأتى فى ذيل حصص اليوم ، إشعاراً للجميع ، بأنه مادة فى الذيل . . ولكن الشيخ عجاج استطاع أن يقلب الأمور رأساً على عقب ، قلباً طيباً ، وبغير ضجيج ولا عجيج ، مع أنه عجاج .

إنه لم يعلمنا الدين بحسبانه وعظاً ، ولكنه قص علينا من تاريخ الإسلام قصة إسلام (عمر) ، بطريقة استدرت الدمع من عيوننا ، فقد روى لنا كيف سمع عمر بإسلام أخته وزوجها سعيد ، فذهب إلى بيتها ، بعد رحلة صيد متمنطقاً بقوسه وسهمه ، فلما وصل إلى البيت سمع صوتاً يتلو شيئاً لا عهد له به ، فأنصت فإذا هو سورة (طه) . وقرأ لنا فى الحال ، من سورة (طه) ، بصوت جميل مؤثر الآيات الأولى فجاشت عواطفنا ودمعت عيوننا ، وأصبحنا جميعاً فى أشد الشوق لمعرفة ماذا أصاب فاطمة بنت الخطاب وزوجها رضى الله عنهما ، فلما أخبرنا الشيخ عجاج أن عمر فتح الباب برفق أحسسنا كلنا أن وراء هذا الباب مفاجأة لنا نحن . . وروى بعد ذلك مادار بين فاطمة المؤمنة الضعيفة وعمر الكاسر القاهر ، حتى إذا ما انتهت القصة بانتصار الإيمان مع الرفق ، على الكفر مع الغلظة ، كدنا نصعق كما كنا نفعل فى حلقات الشاشة الفضية . . وبهذا الأسلوب القصصى الجميل استولى الشيخ على قلوبنا ، فأصبحنا طوع بنانه ، أوحى إلينا أن نصلى ، فاجتمعنا فى اليوم التالى ، بقضنا وقضيضنا فى المصلى بالمدرسة ، ودهش زملاؤنا فى الفصول الأخرى ، لهذا التغير المفاجىء الذى أصابنا فقلدونا ، وسرت العدوى إلى الفصول الأخرى ، وأدرك ناظر المدرسة ، أن سر هذا كله صوت الشيخ عجاج الجميل ، وحماسته لواجبه ، وأسلوبه المؤثر فى التربية . . وبقى الشيخ مثلا عندى على المدرس الناجح ، وعلى القدوة وأثرها الذى لا يرد ، وقوتها التى لا تغلب . .

أنا والريف

صحبتنى أمى ، وأختى الكبرى ، إلى الريف ، وأنا طفل دون السابعة بل دون السادسة ، أكثر من مرة ، فعرفت ريف مصر ، فى هذا الوقت المبكر ، وأصبحت أفرق بين المحراث والنورج ، وبين الشادوف والطنبورة ، وبين الساقية والمسقى ، ووعيت معانى أسماء كالعمدة وشيخ البلد ، والخفير وشيخ الخفراء ، والنقطة وملاحظ البوليس . ورأيت رأى العين حقول القطن ، وسمعت بأذنى غناء الأطفال ذكوراً وإناثاً ، وهم يجمعون زهرات القطن فى حجورهم ، كما رأيتهم يلتقطون دودة الورق ، ودودة اللوز ، فى كيزان يحملونها ، ومن ورائهم « ريس » يشهر فوق رءوسهم عصا ممدودة ، وجلست فى الأمسيات على قناطر صغيرة أقيمت فوق ترع ومساق ، وأصبحت لأهل الريف كشاطىء النيل فى القاهرة ، يلتمسون عندها ، بعد غروب الشمس ، وعناء اليوم نسمات خفيفة ، يروحون بها عن أنفسهم . ثم دخلت أكواخ الفلاحين ، وشربت من القلة التى يشربون منها ، متقززاً نوعاً ما ، ولكن تجلدى وشدة حرصى على عواطف الآخرين ، أعانانى دائماً على أن أخفى مشاعرى . وركبت الحمار والحصان والبغل وعربات فى الريف قديمة ، كما ركبت فوق النورج ، ودخلت زريبة المواشى ، وميزت بين البقرة والجاموسة ، وعرفت ماذا يكون الشنبرى وماذا يكون الجدى ثم أتيحت لى فرصة ما أظن أنها أتيحت لسواى ، فقد زرت ضياعاً قامت فى إصلاح الأراضى البور على الوسائل الحديثة ، فرأيت قطار (الديكوفيل) وهو قطار سكة حديدية صغير ، يجرى فوق قضبان حديدية من مقاس صغير ، وهو قطار يستعمل لرفع الأتربة ، ولنقل الطمى المطلوب

للأرض المراد استصلاحها ، وركبت إلى جانب سائق هذه السكة الحديدية الصغيرة ، وأبهجنى صوت صفارته والوقوف فى محطاته التى تشبه السكك الحديدية الحكومية ، ثم رأيت زراعات جديدة فى مصر ، كزراعة الحناء والفول السودانى ، ورأيت أكياس الحناء بعد سحق أوراقها ، وقضيت أياماً سعيدة فى الريف ، ولكن لا فرحاً بحياة الريف نفسها ، لأننى كنت أجد فى كل زيارة قمت بها للريف صديقاً أو أصدقاء ألعب معهم ، وأتسلى بصحبتهم . أما الريف نفسه ، فلم يكن يروقنى كثيراً ، وإن كنت لا أكرهه ، ولا أضيق بالبقاء فيه ، وأشعر بالحنين إلى المدينة . ولكنى لم أجد فى الريف ، متعة لم أجدها فى المدينة ، فالبيوت التى كنت أنزل بها فى أثناء زياراتى الريفية ، هى أشبه ببيوت القاهرة بناء وأثاثاً ، والخدمة فيها تكاد تكون الخدمة التى أعرفها فى مصر ، والناس الذين أعايشهم فى القرية ، وأتحدث إليهم ، وألهو معهم ، وأخرج للنزهة فى صحبتهم ، هم حضريون ، تلاميذ مدارس ، وأقرباؤ هم من النساء والرجال من الذين يلبسون ملابس المدينة ، ويتكلمون لغتها ، ويفكرون تفكيرها .

أما طعام الريف الذى كنت أحب بعضه كثيراً ، كاللبن « الرايب » الذى يعدّ فى آنية فخارية يسمى كل منها (مترد) ، والقشدة والفطير « المشلتت » ، وعسل النحل ، فهذه أشياء كانت ترد إلينا ، ونحن فى المدينة ، وفى شوارع القاهرة كانت عربات اليد ، والعربات التى يجرها الحمار ، والمشنات والمقاطف والأقفصة ، تقدم إلينا حتى أبواب منازلنا خيرات الريف من الخضر والفاكهة ، فالقصب والجزر ، والخس والجرجير ، والتفاح والموز ، والبرتقال واليوسفى ، والخيار والقثاء ، والليمون والفجل ، نراها ، ورائحة الغيط تفوح منها ووحله يغمرها ، والذين يبيعون لنا فلاحون وفلاحات بملابسهم ، يخاطبوننا بلغتهم . وفى القرية تمارس هوايات أهل المدن من التصوير ، والتحميض ، والصيد بالبندقية ، ولعب النرد والشطرنج والدومينو ، وقراءة الصحف والمجلات ، وسماع أقراص « الفونغراف » .

ولذلك بقى الريف بعيداً عنى ، وأنا أسير فى حارات القرية وأزقتها ، وأحيّى شيوخها وكبارها ، وألاعب صبيانها وفتيانها ، فلم تتضح لى صورة الريف

بتفاصيلها ، ومعانى هذه التفاصيل . لم أميز بين رجل ورجل ، ولا بين صبى وصبى فالجميع كانوا أشبه براقصات الباليه على المسرح ، وبالجنود فى الصف . فمن الصعب على المشاهد أن يحس أن لراقصة « باليه » فى المجموعات ، ميزة عن زميلتها ، وإلا كان هذا عيباً فنيًا فى العرض ، إذ يبلغ النجاح قمته ، عندما تتشابه الراقصات أو الراقصون ، كما يتشابه الجنود ، السائرون أمامك ، لا تقوى على تبين ملامح واحد منهم ، لأنهم جميعاً أجزاء صغيرة فى صورة كبيرة المفروض أنك تعرفها فى جملتها الشاملة .

وكما ينجح التدريب فى الباليه والجيش والعروض الرياضية ، فى تحويل الأفراد إلى مجرد وحدات ، لا شخصية خاصة لها ، كذلك استطاع النظام الرتيب المستقر ، فى تحويل الفلاحين نساء ورجالا إلى مجرد وحدات تراها من بعيد أو قريب ، فلا تبعث فى نفسك إحساساً خاصاً . فالجميع فلاحون يرتدون ثياباً سوداء أو قاتمة متشابهة ، ويسيرون فى خطوة واحدة ، وتبدو على وجوههم السمات نفسها . وهم إذ يكلمونك يقولون الكلام نفسه ، وهو فى الأغلب الأعم كلام أملس خال من المعانى المحددة ، فأكثر عباراتهم « الله أعلم ، ربنا يسهل ، إن عشنا ، تعيش يا سيدى ، حاضر على عينى ، ما شفتش ، ما سمعتش ، ماجلتش ، مظلوم ياسعادة البيه . . إلخ إلخ » .

لذلك لم أستطيع أن أنشىء علاقة مودة خاصة مع أحد فى الريف ، إلا حيث يكون العمل قد أتاح للفلاح أن تتكون له شخصية ، فأكثر أصدقائى ، وأنا طفل ، كانوا «أوسطى» وابور المياه مثلا ، أو سائق قطار « الديكوفيل » ، أو الفلاح الذى يرسل إلى المركز لشراء الحاجيات والجرائد ، أو صبى جميل الصوت ، أو فتاة تحفظ بعض أغانى المدينة ، فهؤلاء وحدهم تستطيع أن تميزهم ، ويمكنك أن تتحدث إليهم ويتحدثون إليك ، وإن كانت القشرة التى تتكون خارج شخصيتهم رقيقة ، لا تكاد تقشطها بالمطواة ، حتى ترى أن ما تحتها هو فلاح بلا شخصية ، لا يعى من أمور الدنيا إلا أقل القليل ، وأنه يعود فى الحال إلى اللوح المحفوظ . يكرره عن ظهر قلب : « الله أعلم ، ربنا يسهل ، قسمة ونصيب ، يعدلها سيدك ، حد الله ماجلت ولا سمعت . . إلخ » .

ولكن قد كانت لى فى الريف أشياء أحبها ، وإن كنت لا أذهب فى حبها إلى حد الحماسة ، كعادتى حينما أحب ، أو أشغف بشىء أو هواية أو مكان . كان ضوء القمر المنبسط على حقل القطن ، يأخذ بمجامع قلبى . وكان الإحساس الذى يشملنى حين أرى هذا المنظر ، كيف أحتويه احتواء . وكيف أضم هذا الضوء الأبيض الهادىء ، مع هذه الشجيرات التى تمتد إلى أقصى حدود البصر ، فى وحدة واحدة ، كجرعة أو كلقمة مثلا ، أشربها أو آكلها ، فأرتوى أو أشبع وأنصرف . لم أكن أحب انعكاس القمر على سطوح الماء الواسعة ، كالبحر أو النيل ، بقدر ما أحب انعكاس نوره على مجارى الماء الصغيرة ، كمسقى أو ترعة ، فذرات الماء تتحول إلى فصوص ماسية ، لا أعرف كيف أجمعها فى يدى ، وأشبع من التأمل فيها .

وقد كان نقيق الضفادع ، مع صفير الصراصير الحقلية فى الليل يبعث فى نفسى شعوراً غريباً ، أقرب ما يكون إلى الحزن ، ولكنه مع ذلك ، شعور أستعذبه وتصفو نفسى له . لعله كان يمثل أنين الريف كله ، وانكساره ، ورتابته وعجزه. وكلما اشتدت حلكة الليل زاد أثر هذا الصوت فى نفسى عمقاً ليسلمنى إلى الحزن الهادىء .

أما الشعور الثالث الذى كان يبعثه فى نفسى الريف ، فهو شعور بالأمن القلق . حينما نخرج بالليل فى زيارة ، ومن خلفنا خفير يجرى وهو يحمل على كتفه بندقية ، وأحد أقاربى أو أصدقائى أو زملائى فى الرحلة ، يحمل مسدساً ، يتأمله فى بداية الرحلة ، على ضوء مصباح ذى فتيلة ، أو على ضوء القمر ، ثم تسير بنا (الركايب) خبباً ، ومن حين إلى آخر نسمع صوتاً فى الغيط المجاور فترفع الحمير أو الخيل آذانها ، توقعاً ، ودراسة للموقف . فى هذه اللحظات لا ينتابنى الخوف ، وإنما أشعر بالأمن ، إذ لم يدر بخلدى قط أن نكون هدفاً لرصاص الأعداء أو لهجوم ، وإنما لا أستبعد ذلك تماماً . فإذا انتهت الرحلة شعرت بسعادة من كان فى مغامرة ، ومن انتهت مغامرته على خير .

وقد كان لعواء الكلاب فى الليل ، أثر يبعث فى نفسى الشعور بالأمن كاملا ، لا سيما إذا كنت فى فراشى ، وهذا الصوت يترامى إلىّ من بعيد ، فأتصور مدى

البعد الذى جاءنى عبره الصوت . الناس فى الخارج ، وأنا فى فراشى ، ملتحف بغطائى ، والكلاب تنبح تنبيهاً لخطر ، أو ردًّا لعدوّ .

ومن الروائح التى كنت أحبها رائحة الخبيز ، حينما أمرّ بناحية الفرن الريفى ، وأشم رائحة العجين ، وقد بدأت النار تشويه . كما كنت أحب رائحة إسطبل الخيل الذى ترعاه أيد خبيرة ، كما كان يستهوينى منظر الخيول ، وقد أطلت برءوسها من فوق الحاجز الخشبى الأخضر ، وهى تنظر بعيون واسعة إلى الناس ، وقد خلت نظراتها من الهم والقلق .

وقد كانت فى الريف فواكه محببة ، أقدمها على مثيلاتها من فاكهة المدينة ، فأنا أحب التوت أكثر من حبى للفراولة ، وأحب الجميز الناضج أكثر من حبى للخوخ ولو كان جيداً . وأحب اللبن « الرايب » أكثر من القشدة . وأحب الجريدة التى يحملها ساعى البريد الذى يركب الحمار ، ويضع المنديل المحلاوى تحت طربوشه ، أكثر من الجريدة التى يبيعها لى بائع الجرائد فى القاهرة .

وفى فترة طفولتى انطبعت فى ذاكرتى صورتان لشخصيتين فى الريف ، أولاهما « بكير بك » ناظر الزراعة التركى ، ذو الشوارب الكثيفة ، الهادىء الطبع ، الذى يسير وئيداً ، ولا ينفعل أبداً على العكس من زوج خالتى الذى يناظره ، والذى كان أحمر الوجه ، شديداً ، سريع الغضب ، عنيفاً مع مرءوسيه ، ورؤسائه معاً . رأيت بكير بك فى محلة موسى ذات ليلة ، وكنا جلوساً فى الحديقة ، ولما حانت ساعة العودة أخرج مسدسه ، فى نور القمر الذى كان قد تسرب إلينا من خلال ورق الشجر ، وهمّ فى سكون إلى حصانه ، وكأن كل ما أراه مشهد من مشاهد السينما .

أما الشخصية الثانية ، فسودانى بلغ سن الهرم ، وسقطت أسنانه ، وكان « أسطى » لوابور مياه ، ومعه كلب يزامله المعيشة فى هذا الوابور خارج القرية فإذا جاء الرؤساء ، غنى لهم ، الشيخ ، وهو يرقص : طلعت أدب نزلت أدب . وهو يضحك . . كان عم سعيد أيضاً شخصية تصلح للمسرح أو لقصة فى كتاب وقد انتفعت بها فعلا ، فكان بقاؤها فى ذاكرتى ، وتأثرى بها ، دليلا على أن الريف المصرى ، ترك فى نفسى ، من الذكريات مالاينحوه الزمان .

الخليج العاشق

مملكة الطفولة

لقد كشف لنا تاريخ الإنسانية على مر عصوره وأدواره أن الحدود هى مبعث الخلافات ، ومثار الحروب بعد المنازعات ، تنازعت القبائل ، وهى تبحث عن المرعى من جراء حدود الأراضى ، واختلفت الدويلات على ما يدخل فى أرضها وما يخرج من أرض الجيران ، لأن بضعة فراسخ تروح يمينا ، أو تمضى شمالا تعنى منبعا لنهر ، أو منجما من ذهب ، أو بئرا من نفط ، أو ثغرا على بحر ، أو قمة فوق جبل ، أو موقعا منيعا يصد الغزاة ، أو مدخلا سهلا يتسلل منه العداة .

وقد كنت أحسب أن الحدود المثيرة للنزاع ، هى الحدود المرسومة بالقلم والمسطرة على خريطة ، فلما عزمت أن أكتب قصة هذا الصبى المصرى بعد أن فرغت من كتابة قصة طفولته فى كتاب « خط العتبة » رأيت جانبا طريفا من مشكلة الحدود ، فقد كنت أحسب أن الحدود بين أدوار عمر الإنسان واضحة المعالم ، بينة المواقع لا يختلف فيها اثنان ، ولا ينتطح عنزان ! ولكن لم ألبث حتى عرفت عكس ما وهمت ، ففى أدوار العمر الإنسانى حلقات يتنازعها الجيران ، حتى لا تكاد تعرف لها فى حياة الإنسان حيزا تقنع به ، ويقنع بها : فالطفولة دور له مقام يقربه الجميع ، وتؤلف فيه الكتب وتنظم القصائد ، وتنشأ حبا وتقديرا له المؤسسات ، وتقام من أجله الدور ، وينافسه فى كل هذه المزايا الشباب ، فالطفولة هى البداية ، وهى البراءة ، والطفل هو ابتسامة الحياة ، وقرة أعين الأبوين ، وضحكته فى البيت الحزين ناقوس من ذهب ، يبدد ظلام الحزن .

أما الشباب فهو ربيع الحياة تصل به إلى قمتها ، وتبلغ أجمل فتنتها ، وتصبح الدنيا أمامه ، ساحة فسيحة يتألق الجمال على جانبيها ، تتخللها الينابيع الضاحكة بمائها المتلألىء ، وخريرها المهموس ، وجريانها المتوارى غير المحسوس ، وهى مع ذلك ميدان معركة يطيب فيها الصولان والجولان بحثا عن الحب والمجد ، والتضحية التى توهم بالخلود ، وتوحى بالعظائم .

ولكن قل لى بربك : ماذا يكون دور (الصبا) ، بين مراحل الحيٰاة ؟ وماذا يكون الصبى بين الطفل والشباب ؟ لا هو البداية ، ولا هو النهاية ، ولا هو أقصى القوة ، ولا هو غاية الضعف ، لا يذكره ذاكر ، ولا يطربه ناثر أو شاعر ، واذا سألت الكتب أو الناس عن السن التى يبدأ بها الصبى صباه لم تجد جوابا شافيا ولا ردا هاديا وقد فرحت إذ ذكرت أن القرآن الكريم جاء فى موضعين منه لفظ الصبى مقرونا باسم نبيين كريمين ، وفى سورة واحدة هى سورة مريم ، ولكن الأمر زاد غموضا عندما لجأت إلى تفسير المفسرين :

فى أحد الموضعين : جاءت مريم عليها السلام تحمل عيسى ، وهى لم يمسسها بشر ، فهال الأمر قومها ، فسألوها كيف تلد وهى لم تزف إلى رجل ولم يعرف عنها ولا عن أمها سوء ؟ فكان جوابها كما قال الله تعالى : « فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ؟» .

ولعلك معى فى أن اجتماع لفظى ، « المهد » و « صبيا » يزيد الباحث حيرة ، ويزيد البحث تعقيدا : فالمهد من خصائص الطفل ولوازمه ، أما الصبى الذي تقول كتب الطب إنه يكون فى السابعة ـ فكيف يحمل وهو فى هذه السن أو حتى الرابعة فى مهد ؟ وإن جاز أن يحمل على كتف بشىء من التجاوز والتسامح ، ولجأت إلى كتب التفسير ، فلم أظفر منها بما ينقع الغلة ، فقد قال القرطبى : « وروى أن عيسى عليه السلام إنما تكلم فى طفولته بهذه الآية ثم عاد إلى حالة الأطفال ، حتى مشى على عادة البشر إلى أن بلغ مبلغ الصبيان ، فكان نطقه إظهار براءة أمه » .

فعيسى عليه السلام فى رأى المفسر العظيم ، كان طفلا يحمل على الأيدى ، أو يرفع فى المهد ، ولكنه حينما تكلم كان صبيا ، انتقل من الطفولة إلى الصبا للحظة ، وعاد إلى طفولته ، ولكن تبقى الطفولة والصبا متداخلتين ، بل إن بعض الشراح

يقولون : إن عيسى كان يرضع فلما سمع كلامهم ترك الرضاعة ، وأقبل عليهم بوجهه واتكأ على يساره وأشار إليهم بسبابته اليمنى .

وفى موضع آخر من سورة مريم ، جاء عن نبى الله « يحيى » عليه السلام : (يحيى خذ الكتاب بقوة ، وآتيناه الحكم صبيا) وجاء فى تفسير القرطبى عن الرازى عن « معمر » أن الصبيان قالوا ليحيى : اذهب بنا نلعب ، فقال : ما للعب خلقت . فأنزل الله تعالى (وآتيناه الحكم صبيا) وقال قتادة : كان ابن سنتين أو ثلاث سنين . وقال مقاتل : كان ابن ثلاث سنين . ومن هنا ترى أن اثنين من كبار رواة الحديث الشريف ، يعتبران الصبى من بلغ الثانية أو الثالثة ، ولست أدرى : كم يكون عمر الطفل إذن ؟ كما لا أدرى إلى كم من السنين تمتد سنوات الصبا ؟

وهأنتذا ترى أن شكواى من ميوعة الحدود بين الطفولة والصبا شكوى تقوم على رجلين ، وأنها تخلو من المبالغة . ولا ذنب لعهد الصبا إلا فى أنه بين عهدين عظيمين ، ظفرا من أهل الأدب : كتابا وشعراء ومفكرين من العناية ، ما استنفد اهتمامهم ، فلم يعد باقيا منها ما يمكن صرفه إلى عهد الصبا الذى حرمه الله جاذبية الطفولة ، ورواء الشباب .

فإذا طالت قامة الصبى ، واشتد عوده ، ودبت إلى صوته خشونة ، وامتلأ بدنه بالقوة ، وأصبحت له لحية كثيفة تتدلى على صدره ، وشاربان حادان ، تصل أطرافهما كنصلى السيف إلى ما فوق الوجنات ، قريبا من جفون العيون فإن طفولة الإنسان تبقى من خلف هذه المظاهر الغليظة وذلك التنكر الثقيل : فالرجل طفل كبير ، حسبه أن تنزل به النازلة ، أو يستبد به هوى شىء مما يسيل له لعاب الرجال : امرأة يهواها ، أو منصب يحلم به ، أو صفقة يتمناها ، أو مكيدة يفتل حبالها ، حتى تتعرى طفولته ، وتسقط عنها الأستار ، فإذا هو يبكى بكاء الأطفال ، أو يفرح فرحهم ، أو يتحلل من أسر الوقار ، أو يخرج من حدود الاحتشام ، فإذا تكلم وهو فى حالة من تلك الحالات ــ أدهشك أن ينقلب الجاد المتزمت الرصين فى لحظة إلى طفل لا يضبط نفسه ، ولا يلزمها جانب الاعتدال ، بل يتركها على سجيتها تهزل وتسف ، وتبكى وتصرخ ، أو تقفز فى الهواء ، أو ترتمى فى الأرض لا تبالى أن يراها

الناس على هذه الصورة ، وأن يكون الحافز على كل هذا أهون من أن يستدر من العيون دمعة ، أو يبعث من الصدور أنة .

والغريب أنه كلما تقدم بالإنسان العمر ، اقترب من الطفولة ، فبدت عليه مخائلها ، لا فى تصرفاته ومسلكه ، وما يحب وما يكره بل فى خصائصه البدنية فصوته يرق وخطاه تقصر وحاجته إلى رعاية الناس تزيد ، وميله إلى الثرثرة يشتد ، ومن هنا ترى أن الأجداد والحفدة يتبادلون الحب والود ، وطيب الأحاديث ، ويسهل عليهم التعامل والتفاهم ، فإذا وصل الإنسان إلى أرذل العمر ، انقلب طفلا كامل الطفولة !

فلا عجب بعد ذلك أن يبهت دور الصبى إلى جانب دور الطفل ، وأن يصبح الحديث عن قصة الصبى أصعب من الحديث عن الطفل ، وغرائب أطواره ، ولطائف أدواره ، وأشق من قصة الشاب ، بمجازفاته فى دنيا الحب ، ومغامراته من أجل المجد ، ولكن لابد ، مما ليس منه بد !

فما دمت قد فرغت من قصة « خط العتبة » التى رويت فيها قصة هذا الطفل المصرى الذى كان بطلها فالترتيب إذن على قصة الصبى الذى استحال إليه الطفل .

طالت قامته وإن بقى نحيفا ، وأصبح أقل حركة وإن بقى قلقا لا يستقر على حال ، سريعا لا يعرف المسير إلا عدوا ، والنزول على السلم إلا قفزا ، والصعود إلا وثبا ، وتناول الطعام إلا خطفا . لا تراه أبدا إلا وفى يده « منديل » كأنه العلم المنشور ، يضعه بين أسنانه حينا ، ولكنه فى جميع الأحوال لايفارقه ، ثم هو محتقن الوجه ، متصبب العرق لاهثا ، يلقف أنفاسه : كأنه فى سباق مستمر مع منافس مجهول فى حلبة غير منظورة ومن أجل خاتمة غير مرئية يمارس كل ما يمارسه الصبيان وربما ساهم فى لعبتين أو ثلاث خلف المرمى (البلى) بين كل هجمتين أو يرى فى يد صبى مثله طائرة من الورق فيأخذها منه غصبا أو عن رضا ، فيفرح بمرآها وهى تصعد وتعلو وتتأرجح فى الهواء ، وتكاد تهوى على الأرض ، فإذا ما اقترب الأعداء من الحمى الذى يحميه أسلمها لصاحبها وأنقذ الشرف ، وأدى الواجب ، وعاد يبحث عن شىء آخر ، ولكن إذا كانت المباراة حامية الوطيس واللعب يستأهل التركيز رأيته فى المرمى ، أو على خطوط الدفاع على الرغم من ضعف جسمه ونحوله متوثبا متأهبا ، تكاد نفسه تذهب حسرة وألما ، لو أفلتت منه الكرة .

والحق أنه حمل جسمه أكثر مما يحتمل فقد كان كثير المرض ، لا يكاد يشفى من التهاب فى لوزتيه حتى يصاب بألم فيها من جديد ، وفى كل مرة يعد بأنه لن يعود إلى العنيف من عدوه وركضه ، ووثبه وقفزه ، وصياحه وصراخه ، وتشتت ذهنه بين الألعاب ، حتى يكمل شفاؤه ، ولكنه ما كاد يستطيع أن يرفع رأسه عن وسادة المرض – والصفرة بادية فى وجنتيه . والضعف مطل من عينيه حتى تراه فى الطريق ومنديله فى يده يعلو ويهبط ، وينشر ويطوى ، وهو كريشة فى مهب الريح ، قلة وزن ، وكثرة تأرجح ، وسرعة عطب ، ولكن مغالبة المرض وإنكار حقه فى طلب الراحة والاستجمام كانت لذة هذا الصبى الضعيف الواهن ، وكأنها لعبة من ألعابه الكثيرة بيد أن هذا الصبى المسكين كان أشبه شىء « بدون جوان » أحب كثيرا ، لأنه لم يحب واحدة . فلو استأثرت به إحدى معشوقاته فآمن بها . واطمأن إليها ، ما أحب سواها ، ولانقطع لها ، فهو عاشق فاشل وإن بدا عاشقا غازيا فهو كشهريار قتل معشوقاته ، لأنهن جميعا كن لا يصمدن لتذبذبه ، وتقلب هواه !

كذلك أحب الصبى كرة القدم والملاكمة والمصارعة ، ولعب « البلى » وركوب « الدراجات » وممارسة الألعاب الأخرى على اختلاف أسمائها وتباين قواعدها : فمن لعبة « الرستة » أو « الأولى » وإن كانت لعبة بنات أو لعبة الحجلة المعروفة باسمها الفرنسى (أتانسيو) أى الاهتمام ، والقفز على الحبل ، وإن لم يتقنه قط ، دع عنك ألعابا لا أدرى هل كنت قد سمعت عنها ؟ مثل (الجديد) و (اليدس) والنطة « الإنجليزى » والطرة ، والقطة العمياء . وألعاب « الكوتشينة » والطاولة والدومينو . ومغازلة الشطرنج عند الاقتراب من سن الشباب ، وألعاب الذاكرة ، والذكاء ، والألغاز والفوازير . عشرات من الألعاب لكل منها سحر ولكل منها وقت ، ولكل منها موسم يشتد الإقبال فيه عليها ، ثم تُنسى ثم يتجدد الاهتمام بها والإقبال عليها . كأنها عرفت لتوها .

ففى الشتاء تحلو ألعاب البيت ، وتحلو هذه الألعاب فى الأمسيات والليل ، أما فى الصيف فتحلو ألعاب الطريق العام ، والأندية التى لم تكن نسميها « الشعبية » لأن هذه الكلمة لم تكن قد عرفت بعد . ولم نكن نقول قط عن أحد من الكبار أو الصغار : إن له « شعبية » لأننا كنا نقول : رجل طيب أو محبوب . أو « عشرى » : أو « خدوم » ، أو « شهم » .

والحق أننا كنا سعداء بألفاظنا المتواضعة تؤدى لنا معانيها ، على أحسن منوال ، وتزيد علائقنا توثقا كأننا أسرة واحدة تضم جميع الصبيان فى جميع الأحياء فى القاهرة كلها ، وكأنهم نشئوا فى بيت واحد . وتلقنوا فى التربية أسلوبا مشتركا ، فما من مرة تجاوزنا الحى الذى نعيش فيه ، إلا رأينا أنفسنا أمام نفس الألفاظ ، وذات الألعاب ، وعين القواعد !

ولقد ماتت الألفاظ التى كان قاموسنا يعرفها ، اختفت ولم يعد أحد يذكرها ، بل لم يؤبنها أحد ، كأنها لم تضع نفسها فى خدمتنا طويلا ، وكأنها لم تمنح كلامنا حرارة ولطفا وأنسا ، لم نكن نقول : « تخمنى » لبيان محاولة إدخال الغش والخديعة والغفلة علينا ، ولكن كنا نقول : تستغفلنى وتستكردنى ، وكنا نقول عن الخام غير المجرب كروديا ، وخشنى ، كما كنا نقول عمن أعوزته رقة الإحساس : « بأف » و « دغف » .

لم تكن قد ولدت بعد ذلك ألفاظ مثل : هنبكة وبعككة ، و « على ودنه » ، ولكن هذه كلها ألفاظ الطريق فى أيامنا لا تصل أبدا إلى حجرة الدراسة ، ولا إلى البيت ، ولا تتسرب إلى لغة الصحف ، ثم قل أن تسمعها فى المسرحيات الفكاهية ، حتى لو كانت فى مسارح الدرجة الثالثة ، كان الناس فى تلك الأيام أشد حرصا على استعمال الألفاظ : وأكثر إحساسا بالجمال والقبح ! ربما لأن كل شىء كان يتم فى نطاق محدود ، يخلو من الزحام والتدافع ومن ثم ينجو من الضجيج والصراخ الذى يعود الإنسان كل ما هو غليظ وجاف . ولم يكن هناك سوى « الفونغراف » وقد كان صوته بالنسبة إلى أصوات مكبرات الصوت المستعملة فى السرادقات ، والمدارس والأندية وفى الحفلات رقيقا متواربا محتشما ، أما صوت أجهزة الإذاعة التى تعمل اليوم بالكهرباء أو بالبطاريات الجافة — فقد عودت الناس فرقعة كدوى القنابل حتى أصبحت الأعصاب فى حاجة إلى غلاف خارجى غليظ فى مثل غلظة ظهر التمساح أو الفيل ، وفى ظروف كهذه تجد الألفاظ السمجة الجارحة الباب مفتوحا تدخل منه إلى البيت والجامعة والصحيفة .

ولد هذا « الصبى » القلق الكثير الحركة . السقيم البدن ، الضعيف البنية فى عصر كله حركة ، وكانت لهذا العصر مفاخره العظيمة ، ومآثره الرائعة ، ولكنه لم

يكن عهدا بلا أسقام وبلا علل ، بل كانت أزماته ومآزقه وسقطاته وعيوبه فى مثل ضخامة أمجاده وجلال آثاره !

مات مصطفى كامل قبل أن يولد « الصبى » بثلاث سنوات ، ولكن بقى العصر موسوما بميسم منسوب إليه ، متأثر به ، كانت جنازته التى احتشد لها الشعب كله أول حدث من نوعه فى مصر منذ قرون ، ولعل مصر لم تشهد مثله من قبل ، وكانت صور هذه الجنازة حية فى الأذهان والنفوس ، وما هزت به وجدان المصريين ، وما استثارت من شعر الشعراء وقول الكتاب وتعليق الساسة ، وما أدت إليه من خروج السيدات والعقائل إلى الشوارع يشهدن ويخطبن ، وما أعلنته من إرادة الشعب وتصميمه بكل طبقاته . فى مقدمة هذه الطبقات جميعا . الفلاحون الذين مثلهم سجناء دنشواى الذين فك قلم مصطفى كامل ولسانه إسارهم . وأعادهم إلى الحرية .

وكان قد سبق مصطفى كامل إلى ختام رحلة الحياة ، محمد عبده ، ولحق به فى العام نفسه قاسم أمين ، وكان فريد قد نزل إلى الساحة جادا صارما . لا يحسن المداورة ولا يعرفها ؛ فاشتد الصراع بفضله بين الشعب ممثلا فى الحزب الوطنى ، وبين الإنجليز ، فحمى وطيس المعركة وسقط أول قتيل من الساسة فى معركة الوطنية ، وخفت صوت أصدقاء الاحتلال البريطانى ، وتواروا عن المسرح إلا أن يكونوا وزراء تقتحمهم الأعين وتسلقهم الألسن ، وتسىء الأمة بهم الظن ، ثم لم تلبث الحرب العالمية الأولى أن انفجرت فى دوى هائل هز أركان العالم ، حتى كاد يتهاوى واشتد أوارها حتى رأت الإنسانية على ضوء نيرانها المشبوبة عالما جديدا تتداعى فيه عروش الأباطرة والقياصرة وتخرج من أحشاء التاريخ القديم مواليد جديدة لم يسمع الناس بها من قبل : كحق تقرير المصير والديموقراطية للشعوب المغلوبة على أمرها ، والاشتراكية بأنواعها ودرجاتها ، والشيوعية بمصطلحاتها ومدلولاتها .

وفى مصر ساد الظلم ، فكسرت الأقلام ، وكممت الأفواه ، ونهبت الأرزاق ، وفتحت السجون ، وابتلعت المعتقلات شباب مصر الرافضين لسلطة الغاصب ، ولو دجج بالسلاح جيوشه ، ولو غطت الشمس أعلامه ، فأصبحت مصر كلها

تهجس بالثورة ، وإن كانت لا تعرف كيف تندلع ولا على أى صورة تبدأ ، وأثمرت دعاية الحزب الوطنى وإن غاب زعماؤه بالموت والنفى ثمرتها ، فما كادت الحرب تضع أوزارها حتى اندلعت ثورة مصر فى التاسع من مارس سنة ١٩١٩ بتلقائية ، ولم يعرف التاريخ لها نظيرا ، وتشابهت أعمال أبطالها فى أقصى الشمال ، وأقصى الجنوب دون زعامة توحى ولا قيادة ترسم ، واختفت تماما كل عبارات الظن الحسن فى الاحتلال البريطانى والرغبة فى التعاون معه ، وبدا هذا الاحتلال على حقيقته شيطانا مريدا ، لا يبغى إلا الفساد فى الأرض واسترقاق الأحرار واستعباد الأمم والشعوب .

فى هذا العصر الحر الملىء بإرهاصات مستقبل جديد ومجيد تتنفس فيه الآراء الجريئة وتخرج بفضله بطولات ــ طال انتظار مصر لها ولد « الصبى » .

وقد تأثر « الصبى » بهذه الثورة ، لأنها كانت فى الهواء الذى يستنشقه هو ، ويستنشقه كل الناس ، وقد دخلت إلى بيته ، ووصلت إلى مدرسته . وسمعها ورآها فى الحى الذى يقيم فيه أناشيد ترتل ، وجنازات للشهداء تخترق الطرق ، ومظاهرات تبدو له فى الأفق ، ويهل عليه صوتها الهادر من بعيد ، ثم تقترب ، فيرى الأعلام تخفق وتهتز فى أيد ترتعش من فرط الحماسة قد امتلأت وجوه أصحابها بالدم وهم يتصورون عدوا ينازلونه : ويحاصرونه ويقضون عليه ، حتى يظهر هذا العدو حقا فى سيارات مصفحة وبنادق مصوبة ، ومدافع مسلطة ، ووجوه كريهة تعلوها خوذات ثقيلة تهدد بالموت وتنذر بالشر ! ثم تقع الواقعة فيدمدم الرصاص فى صوت متلاحق مكتوم ، ثم تسقط الضحايا ، فيغسل وجه الأرض دم فى مثل لون العلم المصرى الأحمر الذى كان يرفرف فوق الرءوس ، ويعلو على الهامات .

لوحات إثر لوحات تصل إلى أعمق الأعماق ، فتهز النفوس هزا ، وتنفض عنها أقبح عيوبها ، وأسوأ أمراضها : الخوف والحرص على الحياة وتبعث فيها أجمل فضائلها : استهداف الخطر من أجل خير عميم ، وأمل عظيم .

ولكن هذه الثورة التى صاحبت صبا الصبى لم تلبث أن خبا أوارها ، واختفى نهارها ، وحلت محلها حرب أهلية دبر لها الغاصب ، فأحسن التدبير . وتورطنا فيها فى غفلة ليس لها نظير ، وقد كان لهذا كله ، صداه فى حياة الصبى ، فقد كان يرى

ويسمع ، وكان ما يراه ويسمعه يعلمه ، عن طريق أن الحياة لا تسير على وتيرة واحدة ، وأنه كما يمرض هو ويطول مرضه ، تضعف النفوس وتمرض الشعوب ، ولكنها تعود إلى الشفاء ربما على مهل وفى بطء ، وقد تكون العلة بابا إلى عافية أكمل ، وقد يكون المرض درسا يقى من علل أعظم .

الزمان والمكان

الإنسان يحسب أنه يتأثر بالمكان أكثر من تأثره بالزمان ، وهو لذلك يرد كل تاريخه إلى الأمكنة التى عاش فيها واتصل بها . وانتقل إليها . تاريخنا : تاريخ مدن وبلدان ، الوقائع منسوبة إلى موقع من الأرض ، لا إلى فترة من زمن ، فنحن نقول : « بدر » و« القادسية » و« جبل طارق » و« العلمين » و« وترلو » و« رشيد » و« إمبابة والأهرام » ، ولا أحد منا يقول موقعة السابع عشر من رمضان ، فى السنة الثانية من الهجرة . ولو قال ما فهم عنه السامعون شيئاً إلا أن يكون بين السامعين عالم بالتاريخ أو دارس له .

وتفسير هذا سهل ميسور ، فالإنسان مجبول على فهم المادى من الأمور ، والإحاطة به أما المجرد فلا تطيقه إلا عقول الفلاسفة والشعراء ، ومن ثم هبط العامة ، بالدين من الكليات إلى الجزئيات ، ومن المجرد إلى الملموس . فهم يقسمون بالنبى ، أكثر مما يحلفون بالله ويعرفون المصحف أكثر مما يعرفون القرآن . ويعرفون الولى أكثر مما يعرفون النبى ، ويحبون الضريح والقبة ويتبركون ويتمسحون بها أضعاف ما يتأثرون بالمعانى المجردة فى دينهم ، كلها حركات متصلة بالمكان ، ولهذا كله أحببت أن أحدثك عن ثلاثة بيوت عاش فيها الصبى ، حياة صباه وكلها فى حى السيدة زينب وأنا أروى لك قصة طفولة هذا الصبى .

أقول لك عن البيت الأول . فى (خط العتبة) إن صاحبته كانت ممثلة مشهورة فى أيام صبا هذا الغلام ، لأنها كانت الممثلة الأولى فى فرقة المطرب الأول فى مصر فى

تلك الأيام ، كان اسمها « مليا ديان » ، كانت تؤدى الأدوار النسائية الأولى فى تراجيديا سلامة حجازى ، ولقد صورها له الخيال سيدة طويلة القامة ، مملوءة الجسم فى غير ترهل ، ذات أذرع بيضاء سمينة وطلعة بهية ، وصوت جهورى يملأ القاعة فأمن على هذا التصور من رآها رأى العين ، وسمعها على المسرح تشارك سلامة حجازى فى أدوارها . وقد درج الصبى على القول بأنها حين كانت تزوره فى بيتنا الذى استأجرناه منها ، فى عربة تجرها الخيول ، تبعث زيارتها فى الشارع حركة ، فيجتمع الناس ، ليروها وهى تهبط من عربتها الفاخرة ذات الخيول المطهمة ، فيبعث ذلك كله فى نفس الصبى شعورا بالزهو ، لأنه يقيم فى بيت تملكه فنانة جميلة مهيبة ذائعة الصيت . تشارك فى البطولة أحب المطربين إلى قلوب أهل بلدنا والبلاد العربية المجاورة ، وأستطيع أن أعترف لك الآن أن شيئاً من هذا لم يحدث ، فلا أنا أذكر أنها كانت تملك عربة فاخرة ، ولم يخبرنى أحد أن هذه العربة كانت تجرها الخيول المطهمة ، ولا أن هذه الزيارة كانت تبعث فى الحى حركة ، وفى الشارع زحاماً أمام دارنا ، ولكن بقى أن تفسر لى ما الذى حملنى على أن أقول هذا الكلام فى أكثر من موضع دون أن أعنى تزييف الواقع ، ولا تجميله ، ولا أطرف السامع بشىء يرضى فى الواقع صورا يتمناها ، أى يتمنى لو حصلت فعلا فى حياته ، لتضفى عليه أهمية وخطرا ، ثم يحسب الخيال حقيقة ، ثم يستولى الواقع على الوهم ، ويدمجه فى ذاته ويأبى النزول عنه ، ويرفض أن يطلقه من قيده وأسره .

هأنذا أروى الواقع ، وأضعه بين يديك ، وأدع لك أن تحكم كما تشاء ، ولن أرفع أصبعى احتجاجا واعتراضا ، بل حسبى أنى كذبت نفسى ، وأنا طفل وصبى ، لينتفع الأدب وعلم النفس إن كان فى حياة هذا الصبى شىء ينفع الناس .

ولست أدرى ما الذى جعل الصبى يتصور هذا البيت الأول على هذه الصورة أيكون مرد ذلك إلى أن الصبى كان ــ فى أثناء إقامته فى ذلك البيت ــ فى مطلع حياته ، فكان كل شىء وكل شخص يكبره كبيرا ، ولكنه حينما تقدم به العمر أصبح إحساسه بكبر الآخرين بالنسبة إليه ، وصغره هو أضعف .

فى هذا البيت ــ عرف الصبى أول امتحان فى حياته ، ولم يكن امتحاناً فى العلم ، وإنما كان كشفاً صحياً ، فقد كان دخول التلميذ إلى المدرسة الحكومية معلقاً

على نتيجة الكشف الطبى ، وقد كان من أكبر عناصر هذا الامتحان امتحان قوة إبصار التلميذ ، ولما كان ، قادراً على أن يقرأ الصحيفة أو الكتاب على بعد أمتار فقد كان نجاحه مضمونا . ولكنه عاد إلى بيته شاعراً بالنصر ، ولم يقلل من هذا الشعور أن جميع الذين اختبروا معه نجحوا نجاحه فقد كان يداخله شعور بأن نجاحه هو من نوع يخالف نجاحهم ، إذ ليس فيهم من يدانيه فى قوة النظر !

وفى أثناء إقامته بهذا البيت وقع أول تماسك بالأيدى بينه وبين زميل له ، والتماسك بالأيدى ــ وإن كان جزءاً عادياً من نشاط الصبيان ــ كان بالنسبة لهذا الصبى حدثاً ذا قيمة نفسية بارزة فقد عرف نفسه فى ذلك اليوم . وبقى ما عرفه جزءا من تجربته النفسية ، لم تغيره الأيام ، فقد أدرك أنه لا يصلح لهذا اللون من النشاط الحيوى الطبيعى ، لا لأنه فقط ضعيف البدن كثير الأمراض ، فقد لاحظ أن أقدر زملائه على الشجار ، وأبرعهم فيه وأحبهم له ليسوا أقوى زملائه بدنا ، فالقدرة على الصراع البدنى نوع من اللياقة العصبية أكثر منه لياقة جسمية ، وأبطال المعارك فى حارات القاهرة ، لم يكونوا قط من ذوى الأجسام الطويلة العريضة منهم ، بل كانوا فى الغالب على النقيض من ذلك رجالا أميل إلى القصر منهم إلى الطول ، ومن الهدوء إلى الصخب ، ومن النحول إلى البدانة ، ولكنهم عندما يجد الجد تبدو عليهم شراسة لا تدرى من أين جاءت ، وميل إلى الإيذاء لا يوقفه دم سائل ، ولا سلاح مشهر ، ولا سلطة تهدد بالعقاب والجزاء .

فى ذلك اليوم أمسك الصبى بتلابيب زميله ، وأمسك زميله بتلابيبه ، وكان الزمان ساعة مبكرة فى صباح اليوم المدرسى . وساحة المدرسة لم تمتلىء بعد بالتلاميذ ، وهو لا يذكر سبب هذا الشجار ، ولكنه يذكر تماما اليوم ــ ماذا كان يساوره فى تلك اللحظات ، كانت كل لحظة جزءا منفصلا عما قبلها ، وعما بعدها ، يذكر موقفه من صاحبه ، ويرى فى وضوح كامل يده على ملابس زميله ، فهو لم يغب قط عن وعيه . ولم يصرفه الغضب ، ولا الرغبة فى النصر عن تتبع حركاته وحركات خصمه ، فأدرك فى الحال ، أن هذه معركة خاسرة ، أو بعبارة أخرى أنها ليست معركة إطلاقا ، فلا هو حريص على الوصول بها إلى غايتها ، ولا هو مؤمن بضرورتها ، وحتميتها فليس هو إذن مقاتلا فى هذا الطراز من الصراع ، فأكبر

ضرورات القتال أن ينسى الإنسان نفسه وألا يشغله مطلقا ماذا سيصيبه من هذا القتال أو ماذا سيصيب عدوه ؟ وأن يأبى أن ينهى المعركة متدخل .

أدرك الصبى أن طاقته الغضبية محدودة إذا ما وصلت إلى نطاق الأيدى ، وأنها تبلغ أقصى الغاية حينما تكون فى نطاق الإحساس والفكرة ، لقد مزق لزميله شيئا فى ثيابه . ومزق زميله ياقة حلته ، وجاء شيخ الفراشين فقال « أمسكوهم ! » . وتدخل التلاميذ وانتهت المعركة !

ولكن الصبى شعر بإهانة بالغة سممت حياته أسبوعا أو أكثر ، لا لأنه هزم ، فهو لم يهزم ، ولا لأن حلته تمزقت ، فقد كان قليل الاحتفال بخسائر من هذا القبيل ، ولكنه أدرك ــ كما قلت لك ــ أنه ليس من طراز المقاتلين الذين يراهم من زملائه ، يدخلون فى اليوم الواحد عشرات المعارك ، يضربون ويتلقون الضربات ، ويجندلون فى الأرض ضحاياهم ، ويسقطون معهم ، ثم يقفون ويستأنفون القتال فى إيمان وثقة وتلذذ !

آه لو كان واحدا من هؤلاء وإن كان أكثر هؤلاء من أقل التلاميذ حظا من النجاح فى الدراسة ، وأقلهم نصيبا من احترام المدرسين والزملاء ! ولكن إلى الجحيم الدراسة والنجاح فيها ، وإلى الجحيم الاحترام إلى جانب أن يكون الإنسان طليقا من القيود النفسية قادرا على أن يستغرقه الغضب ، فتهوى قبضة يده على الوجه والعين حيثما اتفق الضرب بلا تفكير فى النتيجة ، ولا حساب لها .

هذا التنبه الدائم لنتائج الكلام ونشاط الأيدى عبء يحمله الإنسان على صدره ، وكأنه ظهر السلحفاة الثقيل الذى يذهب معها أينما ذهبت ، أما هذا التفجر بالغضب وانطلاق ألفاظ السباب كأنما هى حمم من بركان ــ فتلك هى الحرية حقا !

وقد زاد من شعور الصبى بالإهانة أنه حينما رأى زميله فى المشاجرة بعد ذلك لم يحس له بالكره ولا بالرغبة فى معاودة القتال معه ، بل إنهما اجتمعا فى صف واحد ، فكلمه زميله فى لهجة المتودد ، فأوجعته هذه اللهجة ، لا لأنه ألفى صاحبه متسامحا ، فيكون أكثر منه سموا ، فمثل هذا المعنى لا يرد على خاطر هذا الصبى ، مهما أردنا أن نصفه بالنضج العقلى أو العاطفى ، وإنما كان مصدر الشعور بالإهانة أن هذا

التلطف البالغ أطلعه على أن خصمه فى الشجار لم يأخذه مأخذ الجد ، ولم يأخذ شجاره كما يفعل المتشاجرون عادة عراكا بحق ، وقد يدهشك أن تعلم أن الصبى عاش سنين يتحاشى الاتصال بهذا الصبى أو الاقتراب منه ، لأنه كلما كلمه رآه لا يذكر من واقعة الشجار شيئا ، وهو اليوم يؤكد لنفسه أنه يجهل اسم هذا الزميل ، ولا يستطيع أن يتذكر ملامحه ، وأغلب الظن أن نسيانه لاسم خصمه وملامحه ، ضيق بالمشاعر التى خلفتها هذه الموقعة .

وفى هذا البيت مرت بالصبى تجربة نفسية أخرى لم يحدث بها أحدا لا عند وقوعها ولا بعد وقوعها ، حتى ظن أنه نسيها تماما ، ولكنه حينما بدأ يستعيد ذكريات صباه إذا بها تقفز بقوة مملوءة بالحياة وبالحيوية معا ، وإذا به يحس بكل آلام الغربة التى كابدها يوم وقعت هذه الحادثة البسيطة التى كانت عنده يومذاك كبيرة وضخمة .

كان يلعب مع صاحبه « محمد » فى حجرة « بيدرون » المنزل ، وكان هو يعيش مع أسرته فى الدور الأعلى ، و « محمد » وأهله فى الدور الثانى ، وما يتبعه من حجرات فى أسفل المنزل ، وكان أبوه ووالد محمد مهندسين تخرجا فى مدرسة واحدة ، ولكن والد الصبى اشتغل فى مصلحة الرى ، واشتغل والد زميله فى إدارة بمصلحة المساحة تسمى « إدارة نزع الملكية » . وكان والد محمد ينتمى إلى أسرة تنتسب إلى « باشا » ، ثم خرج منها فيما بعد رجلان اشتغلا بالسياسة ، ووصل كل منهما إلى رياسة الوزارة كما خرج محام شهير اختير عضوا بالوفد عندما التهبت البلاد بالثورة ، فأسرة صديقه إذن أسرة لها مكانها فى المجتمع ، ولكن ما كان يدخل شىء من ذلك فى عقل الصبى ولا تقديره ، فهو وصاحبه متساويان ، بل إنه يحس أن فى صاحبه سذاجة تدنيه شيئا ما من الغفلة وقلة الحيلة ، ولكن إحساسا جديدا غمر الصبى ، وأوجعه ، إذ فُتح الباب ذات يوم عليهما وهما يلعبان ، وإذا بهما فجأة أمام والد محمد ، دخل وهو يزم شفتيه وأنفاسه تتردد فى صدره ، مضطربة ، كأنما قطع شوطا ، ثم جلس على مقعد كان قريبا من الباب الذى فتحه ، ثم سحب ابنه من يده وبلا كلام أو مقدمات ، ثم وضع رأس محمد على أحد فخذيه ، وراح يضربه على إليتيه ضرباً متلاحقاً بكف يديه بطريقة لا توجع ، ثم دفعه إلى الوراء وانطلق من الباب لا ينظر إلى وجوهنا ، ولا يقول شيئا .

تمت هذه العملية فى سرعة خاطفة ، ثم وقع نظر الصبى ، على وجه صاحبه فإذا صاحبه حائر لا يدرى ماذا يقول مستخذيا لا يستطيع أن يرفع عينيه فى وجه الصبى الذى شعر بأن صدره يكاد ينفجر ألما ؟ وشعر بأن والد صاحبه ، جبار يستحق أن يعاقب أشد ما يكون العقاب ، ولكنه شعر أيضا بأنه عاجز عن أن يفعل شيئا ! فانطلق من نفس الباب دون أن يقول لصاحبه حرفا ، فلما بعد عنه انفجر فى البكاء ، ومضى يعدو حتى وصل إلى أولى درجات السلم المؤدى إلى الدور الذى يقيم فيه وكان له باب مطل على شارع آخر ، لا يفتح عليه « البدرون » الذى كان يلعب فيه الصبيان .

والغريب أنه لم يجد عنده الرغبة فى الصعود إلى بيته ، فقد جلس على الدرجة الأولى ، وراح ينتحب حتى شعر بأن ما كان عنده من دموع نفد ! ثم قام يصعد السلم كأنه يعانى من دوار ، فما كاد يصل إلى بيته حتى هال أمه منظره ، فاحتوته بين ذراعيها ، وهى تكاد تذهب نفسها حسرة على منظره الباكى ، وشعر بالحاجة إلى البكاء تتجدد .. ومضى يبكى زمنا ، فلما هدأت نفسه روى لأمه ما جرى ، وهو يود لو ينعت والد صاحبه بأقسى النعوت ، ثم طيبت أمه خاطره ، فانتحى جانبا شاعرا بالميل إلى العزلة فترة ، ولكن الصبى لم يلبث أن أدرك أن بكاءه لم يكن كله إشفاقا على صاحبه ، ولا مشاركة له ، بل رأى فى أعماق نفسه شعورين لا يكاد يستطيع أن يحدث الناس عنهما ، كان أولهما شعورا عاديا مفهوما أن يساور مثله ذلك شعور الرعب من الوالد ، والقسوة التى اتسم بها أداء العقاب ، مع أن العقاب نفسه كان بسيطا وهينا ، ولكن انفعال الوالد المكتوم الذى عاقه عن الكلام أضفى على الوالد ـ وهو مشهور بالطيبة ـ شكل الجلاد ، أما الشعور الغريب الذى أحس به الصبى ـ يومذاك أيضاً ، والذى لم يفض به إلى أحد ـ فذلك هو إحساسه بأن محمدا ووالده من طبقة أعلى من طبقته . فهذا الأسلوب فى العقاب لا يجرى فى بيته ، وهذا الصمت الوقور الذى صاحب العقاب بدا كأنه علامة من علامات الحياة الرفيعة . وضايق الصبى أن يرى هذا كله . وقد كان ذلك فى الواقع مبعث تألمه ، وإحساسه بأنه جرح ، كان إحساسه غامضا بطبيعة الحال ، فلم يستطع أن يصفه لأمه ، ولو وجد من يستمع إليه لفرج عن ضيقه وسرى عن نفسه

ومضت الأيام وأصبح والد صاحبه « باشا » ، وما من مرة رآه الصبى إلا تداعت صورة ذلك اليوم وما جرى فيه ، واضحة أكثر ما يكون الوضوح . . وكبر الصبى ، حتى أصبح شبابه مقلقا لبعض الناس . . ومنهم الحكام فأودع السجون فى قضية الشروع فى قتل رئيس الوزراء ، وأحكمت الرقابة على الزنازين التى نزل فيها ، ونزل فيها زملاؤه فى القضية وشددت الحراسة ، وندبت مصلحة السجون كل ليلة ضابطا يقضى الليل فى السجن ساهرا زيادة فى التوقى والاحتياط ، على أن باب السجن الرئيسى كان يغلق بمفتاح فى ذلك الباب . . . ويودع المفتاح ظرفاً يختم بالشمع الأحمر ، ولا يفض إلا فى صباح اليوم التالى بمحضر يثبت فيه أن الختم لم يمس .

وفى ذات ليلة ، وكان السكون يشمل السجن . . . وكان المساجين قد أخلدوا إلى الراحة أو كادوا ، فهدأ صياحهم ، وغناؤهم وشجارهم ، وانقطع كلام المحبوسين على ذمة القضية السياسية من شراعات الزنازين ، ثم دبت حركة غير عادية ، أفزعت الجميع . فنفى النائمون النوم عن عيونهم ، وانتبه الذين كانوا قد لاذوا بالصمت فى إغفاءة تمهيدا للنوم أو استحضارا له وسمع لمزاليج الباب الكبير دوى فى الليل الساكن ، كما سمع وقع أقدام تروح وتغدو ، كأن حدثا هاما قد وقع ، أو شخصية كبيرة رأت أن تفاجىء السجن ، وأن تتيقن من يقظة الحراس . وسلامة إجراءات الأمن والاحتياط ، وانتبه الصبى ، أو انتبه الشاب الذى نحكى قصة صباه . وتساءل بدوره ماذا يكون قد حدث ؟ أتطور جديد فى القضية ، أم قضية جديدة مماثلة ، أم مسجون لفظ أنفاسه فى الزنزانة ، أم اشتدت به العلة أو الوجع ؟

وفيما يتساءل إذا بباب زنزانته قد فتح ، وبدا على الباب ضابط سمين . تتردد على شفتيه ابتسامة خجلة . وكرت الأيام إلى الوراء فى لحظة أو جزء من لحظة ، ونسى كل ما كان حوله : نسى السجن ، والزنزانة والقضية التى حبس من أجلها ، بل نسى الضابط الذى كان واقفا على الباب ، وخجله يمنعه من أن يتصرف كما كان زملاؤه يفعلون : فقد رأى الصبى الذى أصبح سجينا سياسيا : رأى محمد صديقه فى بيت شارع سلامة . . ورآه صبيا صغيرا ، واقفا خلف باب حجرة فى « البدرون » بعد أن ضربه أبوه . على طريقة أهل الأرستقراطية وبأسلوب الذوات ، ومد الضابط

لـه يده ، والسعـادة والألفة والامتنـان تشمله ، وأمر الضـابط ، فى حياتـه الذى لا يفارقه السجان أن ينصرف ، وأغلق الباب خلفه . وجلس يتحدث إلى صاحبه ، حديث صبيين صغيرين ، ومضت الساعات فى كلام من هنا ، ومن هناك لا انتظام له ولا ارتباط ، فقد كان « محمد » ممن لم تمنحهم السماء موهبة الحديث الطلى ، ولكن فى مثل تلك الظروف يصبح أى حديث من ضابط مع مسجون طليا وشهيا معا ، وزاد من طلاوته ومن حلاوته أن رئيس ديوان الملك القائم آنذاك فى الحكم كان قريبا لمحمد . . . أما المساجين الآخرون فقد تعبت أقـدامهم من طول مـا وقفوا عـلى مقاعدهم الخشبية ، ليعرفوا ماذا هناك وكلت أذهانهم من طول ما تساءلوا : ما معنى هذه الزيارة ؟ ومن الزائر ؟ وما وراءه ؟ وعرفوا فى الصباح شيئا عنها من الصبى الذى أصبح شابا ، وتكررت الزيارة ، كلما جاء دور محمد ليؤدى واجب الحراسة ، ثم أفرج عن الصبى ، وأنسته الأيام كل ما كان فى السجن ، وفى ذات يـوم قرر أن يبحث عن صاحبه ، وأن يزوره : فى بيته أو فى عمله ، ثم نسى ذلك أياما ، ثم تذكر ، وخرج من بيته على نية أن يؤدى الزيارة لصاحبه بأى ثمن حالما يفرغ من قضية كان عليه أن يترافع فيها ، وفى أثناء جلوسه فى مقعد المحامين ، ينتظر بصبر نافد أن يحضر السادة القضاة ، مد يده إلى جريدة الصباح ، وأجال فيها نظره ، لغير غرض واضح ، سوى دفع السأم الذى تملكـه ، وسقطت الجـريدة من يـده حقا لا مجازا ، فقد قرأ فى رأس العمود الأول فى صفحة الوفيات اسم صاحبه وزميل طفولته ، ولم يستطع أن يفكر ، كما لم يستطع أن يبقى فى مكانه ، والتفت بمشقة إلى زميل كان يشاركه فى الجلوس فى المقعد بقاعة المحكمة أن يحضر عنه فى القضية . ويلتمس التأجيل فيها لأنه قرأ الآن نبأ وفاة عزيز عليه ، ومضى تائها فى الشوارع لا يدرى أين يذهب ؟ ولا ماذا يفعل ؟ وكلما رأى والد صاحبه بعد ذلك ود لو يأخذ يده ليقبلها وما من مرة نظر إلى وجه الباشا والد محمد ، إلا رأى فيهـا صورة من تقاطيع والده هو ، وإن كان الشبه بينهـما فى الواقـع ضعيفاً . فكيف تحـول والد « محمد » من جلاد إلى والد حنون ومحبوب ؟

وفى بيت شارع سلامة ، وقعت حادثتان صغيرتان ، غاية الصغر للصبى ككل حوادث صباه ، ولكن بقى أثرهما ــ كالعادة أيضا ــ فى نفسه طويلا . . وجـرت الحادثتان فى المدرسة .

كان من بين الذين درسوا للصبى . فى مدرسة محمد على شاب طويل من خريجى دار العلوم الذين اختاروا البذلة الأوربية والطربوش زيا لهم ، ونضوا عن أنفسهم العمامة والجبة والقفطان ، وكان أفراد هذه الطليعة الثائرة آنذاك قليلين ، وغاب المدرس عن المدرسة وقيل : إنه مريض ، ثم قيل إنه توفى ، وكان هذا أول نبأ وفاة يقع فى محيط الصبى ، ومر على النبأ دون أن يستوقفه طويلا ، فإن أحدا من زملاء المدرس لم يكلف خاطره أن يقول شيئا عن الزميل الذى غاب ، ولكن أصبح لهذه الوفاة معنى أكبر ، حينما وصل عدد مجلة اللطائف المصورة إلى بيت الصبى ، إذ رأى فيها صورة غير صغيرة لأستاذه ، وقد كتب تحتها أنه مات على إثر عملية جراحية بسبب « قيلة مائية » ! ارتفع مقام المدرس الفقيد فى عين الصبى ، فقد كانت اللطائف المصورة عنده ذات خطر ، فلم يكن يرى فيها إلا صور أناس كان يعرف من ذوى قرباه أنهم أشخاص مهمون وعظماء ، فإن ينضم إلى قائمتهم أحد معلميه فلابد أن يكون عظيماً بدوره . ولكن الذى احتاج إلى تفسير وبيان ، هو ما جاء تحت الصورة عن العملية الجراحية وعن القيلة المائية ، وقد كانت العمليات الجراحية فى تلك الفترة غاية فى الندرة ، لذلك احتاج الصبى أن يشرح له خاله معناها ، وتيسر له أن يفهم هذا الشرح . ولكن الذى صدمه ، أن يعرف أن « القيلة المائية » فتق فى الخصية وأذهله أن يموت مدرسه لهذا السبب . وزاد من دهشته أن تنشر الصحف صورة رجل مات لعملية جرت له بسبب هذا المرض . وعبثا حاول خاله أن يفهمه أن هذه عملية ككل عملية أخرى ، وأن مدرسه لابد له فى وفاته ، وأن المجلة لم تخطىء إذ نشرت صورته ، فلابد أن يكون رجلاً فاضلاً وأن عليه أن يهنىء نفسه أن يكون فى مدرسة تنشر المجلات صور العاملين فيها أحياء أو أمواتا !

وفى نفس السنة الدراسية وإلى نفس الفصل المدرسى الذى كان يدرس فيه المدرس الفقيد ذهب الصبى إلى المدرسة ببذلة من قماش « السكروتة » ، وحول عنقه ربطة عنق من نوع (البابيو) ولكنها كانت ربطة عنق حريرية حمراء فاقعة الحمرة ، فمر به مدرس الرسم ، وهو يوزع عليهم أقلام « الباستيل » فقال للصبى دون أن يتوقف : أأنت بولشفيكى ؟ .

وسأل الصبى جميع زملائه عن معنى الكلمة ، وخشى أن تكون لفظا مهينا فلم يجد عند أحدهم الجواب ، ومضى إلى خاله ، وسأله ، ما معنى هذه الكلمة . .

وأجهد خاله نفسه فى شرحها ولكن الأمر ازداد عند الصبى غموضا ، كان عليه أن ينتظر وقتا غير قصير ، حتى يفهم معناها ، فهما كاملا . .

منازل وأرواح

وجد العقاد يوما فى رفوف مكتبته مسرحية « عطيل » لشكسبير ، إلى جوار رواية « الزنبقة الحمراء » لأناتول فرانس ، وكلتاهما تدور حول عاطفة الغيرة ، فهتف : إن للكتب أرواحا فشبيه الشيء منجذب إليه ، لذلك سعت الزنبقة إلى عطيل أو سعى عطيل إليها ، ولا يعلم إلا الله ، ماذا قالت إحداهما للأخرى . .

ولكن يبدو أن لكل شيء فى هذا الكون الرحيب روحا ، ومن بين عناصر هذا الكون ، التى تتضح آثار روحها ، وتعبيراتها ناطقة معبرة المنازل من قصور وأكواخ

والصبى الذى نروى ذكريات حياته يأبى أن يترك حديثه عن منزله بشارع سلامة ، من حى السيدة زينب ، وهو شارع يكاد يبز شوارع القاهرة جميعا ، إذ اجتمع فيه فى جوار حميم عدد من كبار الكتاب لم يجتمع فى وقت واحد فى شارع آخر ، أما الذين اجتمعوا فى الشوارع القريبة غاية القرب من شارع سلامة ، فأفذاذ مرموقون ، وهم كثيرون أيضا مع آخرين من ذوى الصيت الذائع والشهرة المستفيضة . فى دنيا الفن والفكر .

فقد كان يلاصق بيت الصبى فى شارع سلامة ؛ الشاعر على الجارم ، وكان آنذاك معمما عاد لتوه من انجلترا بعد بعثة ضمت عددا من الصفوة من أبناء دار العلوم الذين سهروا على اللغة العربية ، وجددوا شبابها ، فكان منهم الكتاب والخطباء والمربون .

ولاينسى الصبى أن أول مظاهرة سمع بها ، أو سمع هتافها كانت المظاهرة التى اجتمعت فى مساء ذات يوم من أمام منزل على الجارم ، ثم هتفت بسقوطه ، فأطل من شرفة منزله ، وأطلت عشرات من الرءوس. رءوس الصبيان والفتيات والنساء والرجال ، وهم لايعرفون ماذا يجرى ، ولايفهمون لهذا الصياح معنى ، فقد كان عهد المصريين بالمظاهرات جديدا غاية الجدة وخصوصا إذا كانت مظاهرات محلية ، فى شوارع جانبية ولو أن المناسبة التى هتف فيها المتظاهرون بسقوط الجارم كانت مناسبة عامة ، فإن الخلاف بين سعد وعدلى كان قد اشتد ، وكان كل من يقف مع عدلى ، يعتبر خائنا للوطن ، وخارجا على الإجماع ويستحق أن يهتف بسقوطه ، وقد كان هوى الشاعر الجارم كأكثر كبار الموظفين فى تلك الأيام مع عدلى باعتباره ممثل الصفوة الرصينة ، فى حين كان سعد ممثل الرعاع وأصحاب الجلاليب الزرقاء ، وقد كان ذلك مصدر تفوق سعد على خصومه الذين كانوا من نفس مدرسته وسر التفاف الناس حوله دونهم . .

وغير بعيد من منزل الجارم كان يسكن مدرس فى المدرسة الإعدادية ، الثانوية التى أنشأها عبد العزيز جاويش يدرس فيها الترجمة والتاريخ ، ولم يكن اسمه قد بزغ ، ولاشهرته قد بدأت ، ذلك هو إبراهيم عبد القادر المازنى. وفى ذات ليلة عادت أخت الصبى الكبرى مع خاله وخالها ، وكانت نافذة حجرة المازنى مضاءة ، فأشار إليها وهو يقول : هذا بيت مدرس سيكون له شأن كبير . وبقيت الكلمة فى ذاكرة أخت الصبى ! فذكرته بها مرارا ، كلما وجدت فى يده كتابا للمازنى .

وفى نفس الشارع . عاش طالب فى مدرسة الحقوق السلطانية ، لم يكن أحد قد سمع بشى مما يؤلفه ، ولم يكن الفرع الذى اختاره ميدانا لقلمه ، مما اعتادت أقلام الكتاب والمؤلفين المصريين والعرب أن تقترب منه ، أو تجول فيه ، ذلك ميدان التأليف المسرحى ، ولم يكن ذلك الطالب سوى توفيق الحكيم الذى اتخذ من شارع سلامة وداره فيها ميدانا لحوادث روايته « عودة الروح » .

وخلف شارع سلامة أو بعده بشارعين اثنين منزل أحب كتاب مصر إلى قلوب شبابها ورجالها فى ذلك العهد ، ألاوهو السيد مصطفى لطفى المنفلوطى صاحب « مجدولين » والعبرات والنظرات ، والتاج والفضيلة الذى جعل النثر العربى مزاجا من الموسيقى السهلة ، والأناقة المرسلة .

وفى نفس البقعة كان يقيم الشيخ عبد العزيز البشرى وهو كاتب فحل آخر لانت العربية الفصحى فى يده فاستعملها فيما لم تستعمل فيه من قبل ، حتى استطاعت أن تحمل إلى قلوب وعقول نكات ومداعبات وقفشات « أبناء البلد » فى لغة من الفصحى النقية ، فى رصانة لا تصد الناس عن تذوقها ، وكأن « الجاحظ » قد بعث ليكتب فى شئون حياة المصريين اليومية ، وجلساتهم على أفاريز الشوارع فى المقاهى والأندية و« البارات » وفى الأفراح والسهرات ، وقد كانت له فكاهات ومداعبات تروج على ألسنة ظرفاء أيامه كشاعر النيل حافظ إبراهيم ، والشاعر إمام العبد وعميد الظرفاء محمد البابلى ، وقد ذاعت له دعابة لاذعة . عندما خلع الجارم العمامة ولبس البذلة الأوربية ، فقد قال : إن حافظا والبابلى يذهبان كل مساء بالجارم وهو يعتمد على ذراعيهما من يمين ويسار ، إلى ميدان عابدين يعلمانه المشى بالبذلة وقد كان ميدان عابدين المكان الذى يتمرن فيه الصبيان على ركوب الدراجات ، عند بداية التعليم .

وقبل أن أصف لك شخصية بيت شارع سلامة ، كما وقعت صورتها فى نفس الصبى ، وبالقدر الذى كان يعى به الأمور ويفهمها ــ أحب أن أروى لك ، آخر ما بقى فى ذاكرة الصبى عن هذا المنزل من وقائع ، فقد عرف فيه أولى السيدات العاملات اللاتى صادفهن ، فقد كانت المرأة العاملة كالمدرسة والطبيبة أو الحكيمة أو الممثلة أندر من الكبريت الأحمر ، ففى محيط عشرات بل مئات من الأسر لا يسمع الإنسان عن واحدة ، تخرج كل صباح إلى عملها فى ديوان من دواوين الحكومة أو فى مكتب أو فى شركة ، ولذلك كان من الطريف الذى يستحق الذكر أن يكون أمام دار الصبى فى شارع سلامة سيدة تعمل ضابطة فى إحدى مدارس البنات الحكومية ، وهو لا يزال يذكرها طويلة عريضة ، مملوءة بالحيوية ، وبالطيبة وكان زوجها على النقيض منها قصيرا نحيلا ولكنه رجل يجمع بين الطيبة أيضا والذكاء والهمة ، وكان عائدا لتوه من انجلترا ، فكان بدوره شخصية جديرة بأن تثير الاهتمام فى النفوس ، إذ كان العائدون من أوربا كالعائدين من القمر ! وكان ما يروونه عن مشاهداتهم فى بلاد بره ، أشبه بمجازفات أبطال المغامرات فى أدغال أفريقيا ، ولا ينسى الصبى ، أنه سمع فى غرفة المحامين بمدينة الزقازيق ، حديث المحامى الأستاذ السيد حامد فهمى ، شقيق أستاذ القانون محمد فهمى ، الذى درس « المرافعات » بعد ذلك

بعشر سنوات وقد تحلق المحامون حول زميلهم ، وهو يروى لهم شيئا غريبا غاية الغـرابة رآه فى بـاريس ، فما تـظن أن يكون هـذا الشىء الغريب ، كـان تحدث المستمعين إليه عن « المنادى » الذى يفتح لك باب السيارة ، أو « التاكسى » من غير أن تدعوه لذلك ، ثم تكون بعد ذلك ملزما بأن تدفع له مبلغا من المال ، لم يصدق المحامون ذلـك ، وانهالوا عـلى زميلهم بالأسئلة : مـاذا يحدث لـك إذا لم تدفـع « البقشيش » . وهل الحكومة تترك هؤلاء الأشخاص يفرضون أنفسهم على الناس وهل جرؤت على عدم دفع هذه الضريبة التى يفرضها هؤلاء السمجاء ؟ ولم يدر هؤلاء السامعون أن هذا الذى أثـار تعجبهم ، وتساؤلهم واحتجـاجهم سيصبح ظاهرة عادية ومألوفة فى بلادنا بعد حين .

وقد كان لهذه الأسرة الكريمة فى المنزل المقابل أثر فى حياة الصبى أى أثر ، لا لأن هذه الأسرة ، رزقت أول ما رزقت من الأطفال بنتا ولا لأن أم الطفلة خطبته ــ وهو صبى ــ لابنتها ــ على عادة الأسر التى تربط الصداقة والمودة إحداهما بالأخرى ــ والصبى يسمع عن هذه الخطبة ولا يشعر بشىء لا من الزهو ولا من الرضا ولا من السخط ، لأنه لايدرى من هذا الكلام شيئا ، وإنما كان أثر هذه الأسرة فى حياته ، على وجه آخر ، فقد رشحت هذه الأسرة لأخت الصبى الكبرى زوجا ، وكان من أصدقاء الزوج الحميمين ، فشهد الصبى ، مراحل الخطبة وعقد القران والزفاف ، وهى تجـارب تحفـز ذهن الأطفـال ، وتـطلعهم عـلى جـانب من الحيـاة ، يثقف وجدانهم . ويوسع إدراكهم . ولكن كان لهذه الخطبة فى نفس وحياة الصبى ، أثر أعمق ، فخطيب أخته ثم زوجها بعد ذلك أصبح للصبى صديقا حميما مع أن فارق السن فى ذلك الحين كان ربع القرن أو يقل قليـلا ، كان زوج أختـه من تلاميـذ مصطفى كامل ، فثبت عند الصبى حبه لمصطفى ، وإعجابه به . وإيمانه بمبدئه وكان قارئاً نهماً ، لا يكف عن القراءة ، فقوى الميل فى نفس الصبى إلى القراءة ، وكان ميالا للدراسة القانونية ، فانتسب إلى كلية الحقوق مع أنه كان قد أتم تعليمه العالى بنجاح ، فجعل عزم الصبى على أن يكون محاميا ومن رجال القانون قرارا لا رجعة فيه ، وهو بعد يكاد (يفك الخط) متعثرا .

ومن أمتع المشاعر التى مرت بالصبى حينما كبر ، وشاب رأسـه ــ أن يسمع بولدين . لهذه الأسرة المحبة المجاورة (ولدا فى صباه ، ورأى أحدهما فى المهـد ،

ورأى صورة الآخر طفلا تسنده يد من خلفه « ليصور » وقد أصبحا ضابطين كبيرين أديا فى حياة مصر ، فى الحرب والسلم دورين كبيرين ، ومازال دورهما ممدودا إلى اليوم . وقد تعجب أنه لم يلتق بأى منهما قط وأنهما إذا رأياه فقد لا يعرفان من هو . وماذا يكون منهما ؟ وقد بقى جاهلا لاسميهما حتى نبهته إحدى أخواته ، وهو يطالع خبراً في الصحف ، أن ذلك الضابط الكبير هو الطفل الذى سمعت بمولده إبان كنا فى شارع سلامة . . وسكت الصبى – وكان آنذاك رجلاً بل كهلاً – وهو يعجب من دورة الزمان !

وإذا كنا نود أن نخرج من نطاق ذكريات الصبى فى شارع سلامة ، لننتقل إلى سواها – فلابد أن نذكر أن قاضيا شابا عاش فى هذا الشارع على ماروى الصبى فى قصة طفولته . وقد أبى الشارع الذى اجتمع فيه وحوله الأدباء إلا أن يدرك بآفته آفة الأدب . هذا الشاب القاضى . فأحب بدوره الأدب . فلما عمل فى مكتب النائب العام محمد عبد الخالق ثروت باشا الذى ترافع فى قضية الوردانى ، ثم فى قضية إمام واكد ومحمود طاهر العربى ومحمد عبد السلام الذين اتهموا بالشروع فى قتل اللورد كتشنر والخديو عباس ورئيس الوزراء محمد سعيد باشا – وجد أن أستاذه ثروت باشا محب للأدب ، والأدب القديم ، أدب العقد الفريد والكامل ونفح الطيب وصبح الأعشى حتى كانت مرافعاته فى تلك القضايا قطعا من أدب القضاء والقانون ، فنسج القاضى الشاب على هذا المنوال ، فلما أصبح نائباً عاماً بدوره ، وحصل على الباشوية وأصبح محمد لبيب عطية باشا ، وترافع فى قضايا الاغتيال السياسى ، كما ترافع أستاذه من قبل ، ومنها قضية « الفلال » الذى شرع فى قتل رئيس الوزراء صدقى باشا ألقى مرافعة حسنة الديباجة ، ولكن الوفديين الذين كانوا خصوماً للبيب عطية باشا ، تندروا ما استطاعوا على عبارات فى هذه المرافعات ، ووصموها بالتكلف . وهكذا دخل شارع سلامة فى تاريخ الأدب المصرى . لا بمن أقام فيه من الأدباء فقط ، بل بمن سكنوه من أدباء القضاة . . ولاتنس أن الشيخ عبد العزيز البشرى لم يكن أديباً منقطعاً للأدب ، وإنما كان قاضياً فى المحاكم الشرعية ، كما كان الحكيم وكيلاً للنائب العام ، فكلهم أدباء قانونيون أو قانونيون أدباء .

فماذا كانت صورة منزل الصبى فى شارع سلامة فى نفس الصبى أيام صباه . كان يبدو له هذا المنزل كرجل قليل الكلام ، يحترمه الناس ، ولا يعرفون ماذا يدور

فى نفسه . أنيق بغير إسراف . يطل على الناس من عل ، ولكن بغير استكبار ولا تعال .

فماذا كان من أمر البيت الثانى الذى عاش فيه الصبى فى نفس الحى ، المعبق بذكريات الماضى ، وبآثار الأولياء ، وبأحداث تاريخ مصر الحديث الكبرى .

يكفى تقديمه . بأن أقول لك ، إن هذا المنزل حينما هدم أقيم على جزء من أرضه سينما كاملة ، هى السينما الأهلى ، بميدان السيدة زينب ، ولما أقيمت هذه السينما ، ذهب الصبى ، إليها ، لا ليشاهد فيلما . فإن الأفلام التى تعرضها ، لم تكن لتستهوى الصبى . وإنما ذهب ، ليرى كيف أقيمت على الأرض التى كانت مرتعا من مراتع صباه دار عامة . تؤمها المئات فى الساعة الواحدة أوفى الوقت الواحد مئات لا يعرف بعضهم بعضا ، بعد أن كانت هذه الأرض ذاتها تقل بيتا يضم أسرة صغيرة لا يزيد أفرادها عن سبعة . ومعهم ثلاثة آخرون يعينونهم على شئون الحياة . سيدة وشابة ورجل . .

ولم يكن من خصائص الصبى الحنين المفرط للماضى فهو يذكره ، ولا يتجاهله ولا يتنكر له ، ولكن لا تنتابه عواطف الحزن ، ولا الأسف على الأيام التى انقضت ، ربما لفرط انشغاله بالحاضر ، أو لشدة تشوفه وتطلعه للمستقبل ، وربما لطبيعة مزاجه الذى لا يد له فيه ، والذى يختلف الناس بعضهم وبعض فى نصيبهم منه ، ثم يفلسفون الأمور بعد ذلك ، واهمين أن طبائعهم تخضع لفلسفاتهم وأن العكس ليس صحيحا . .

ولكن لنبادر بسؤالنا عن شخصية هذا البيت الذى يتكون من ثلاثة أدوار غير سطحه والذى كان يضم فناء ، طالما اتخذه الصبى ميدانا للعب كرة القدم مع لداته وأصحابه .

حاول الصبى حينما سمع هذا السؤال أن يسترجع صورة هذا البيت فى نفسه ، وبعد جهد استطاع أن يقول إنه بين البيوت كرجل لا شخصية له بين الآدميين ! وكثيرا ما نلقى من الرجال أو النساء فردا نحار فى وصف أثره فى نفوسنا . وإذا كان من السهل تقريب الأشخاص إلى النفوس والعقول باستعارة مذاق الأطعمة والأشربة : فنقول - هذا حامض ! وذاك لاذع . وذلك حريف ، والرابع حلو ،

والخامس مر – فهذا البيت لا طعم له ! فهو لا يبعث البهجة ، ولا الانقباض ، ولا يستمتع بالهيبة ، ولا بالتواضع . تمر به فلا يستوقفك ، وتدخله فلا تحس أنك دخلت مكانا جديدا ، وإن كان تصميمه غريبا نوعا ، ممعناً فى الغرابة :

فعلى السلالم عدد من الحجرات الصغيرة التى تسمى بمصطلح المصريين « المسروقة » . وكل دور فيه على اتساعه يضم أربع حجرات فقط ، لا تلتزم منهجا ذا منطق . تصل بين طرفيه طرقة طويلة رفيعة ، لا يمكن الانتفاع بها فى شىء . وفى أحد الطرفين حجرة فسيحة تكاد تصلح قاعة للمحاضرات ، ثم فى الطرف الآخر حجرة أقل منها اتساعا تفضى إلى حجرة صغيرة ضيقة ، فما الذى انتاب عقل المهندس مصمم المنزل . ليبدد هذه المساحة الكبيرة على هذه الصورة التى تكاد تكون سفها . وكان المنزل يطل على شارعين أحدهما جديد . يجرى فيه « الترام » هو شارع الخليج المصرى ، والآخر قديم غاية القدم ، والطريف أن هذا الشارع القديم اسمه « الدرب الجديد » وأن الشارع الجديد ، هو فى الواقع أقدم شوارع القاهرة لأنه الشارع الذى كان منذ قرون خليجاً تجرى فيه المياه ، وكأنه شارع من شوارع البندقية . التى تحل فيها القنوات محل الطرقات . وتحل فيها قوارب الجندول محل العربات والسيارات .

ولكن هذا الخليج ردم ، فقد ألف المصريون أن يلقوا فيه جيف الحيوانات والدجاج والكلاب والقطط ، وأن يملأوه بأقذار القمامة ، حتى إذا أصبح مستودعا للنجاسة ، ومصدرا للأمراض ، اغتسلوا فيه وغسلوا فيه أوعيتهم ومواعينهم التى يأكلون فيها ويشربون ، فكان لا مفر من ردمه .

وكان هذا الخليج يشق القاهرة من أقصى الجنوب عند مصر القديمة ، وبالضبط عند فم الخليج حتى غمرة . فلما ردم الخليج . حل محله شارع جديد ، طويل غاية الطول ، تبلغ أرقام المنازل فيه بالمئات وتكاد تصل إلى الألف أو تتجاوزه .

وقد كان فى المنزل شرفات تطل على شارع الخليج مصنوعة على طراز « المشربيات » التى يرى الناظر منها الناس ، وهم لا يرونه ، مما يؤكد أن المرأة حتى فى أشد عصور الحجاب ، كانت على صلة بالحياة الخارجية ، بل لعل صلتها بتلك الحياة كانت أقوى ، لأنها صلة ممزوجة بالشعور بالحرمان . مما يرهف الإحساس بالدقيق والرقيق والخفى من الأمور ، ذلك لأن الحرمان يزيد إحساس المحرومين

بلذائذ الحياة ، فيحصلون منها على مالا يحصل عليه المتنعمون المتخمون ، فكسرة الخبز عند الجائع الفقير تمنحه من المتعة والشبع ، مالا يمنحه خروف حنيذ لمترف غنى .

ولقد كان الصبى يقف وراء نوافذ هذه الشرفات ، وينظر من خلال ثقوبها ، أو من النافذة الصغيرة التى تتوسط الضلع الأكبر من أضلاع الشرفة ، ويغطى هذه النافذة غطاء مصنوع من خشب المشربيات يدفع إلى الأمام ، فيرى الناظر بغير حجاب ولا ساتر ، ولما كان أهم عناصر شارع الخليج هو « الترام » وكان الترام فى ذلك العهد سيد الشوارع التى يمر فيها ، إذ لم تكن القاهرة تعرف من وسائل الانتقال ما تعرفه الآن ، وما عرفته بعد أيام صبا بطل قصتنا من الأتوبيسات وسيارات الأجرة والسيارات الخصوصية ، ووسائل النقل الخفيف من دراجات بخارية ، فكان « الترام » محورا لحياة متعددة الصور ، وكأنها شريط من الصور المتحركة ، لا نهاية له .

وقد زاد من ضخامة دور الترام فى حياة الصبى أن بيته كان على مرمى حجر من ميدان السيدة زينب ، وقد كان هذا الميدان نهاية خطوط عدة من خطوط الترام ، فكانت المحطة الانتهائية عالما حافلا بالحركة والحياة ، تلتقى فيه طوائف من البشر ، من النساء والرجال والأطفال من أهل المدينة ، ومن أهل الريف ، من الأغنياء والفقراء ومتوسطى الحال ، فى أزياء لا حصر لها ، أشار إليها الصبى فى قصة طفولته . وكان إلى جانب ركاب الترام سائقو الترام ومحصلوه ، « الكمسارية » ثم المفتشون من المصريين . ثم كبار المفتشين من الأجانب ، ثم الشيالون الذين ينتظرون فى المحطات ، ثم بائعو الخردوات ، من « الفراتيك » والفلايات والأمشاط والدبابيس والأزرار . ثم بائعو الحلوى ، وبائعو الصحف ، وبائعو لعب الأطفال . وفى كلمة ، كان سلم الترام ، سوقاً تتحرك معه . ويتوالى فيها عرض البضائع وقد تبلغ هذه البضائع من الجسامة بحيث تشمل قطع القماش أو الكتب والمصاحف والنظارات وورق اليانصيب .

والطريف الممتع أن هؤلاء الباعة ، عرفوا كيف يتقنون فنون البهلوانية الخاصة بهذا الترام ، فهم يقفزون إليه وهو سائر بأقصى سرعته ويقفزون منه ، ووجوههم متجهة إلى اتجاه الترام . إذ يديرون وجوههم ، ويقفزون فى اتجاه مضاد .

وبضائعهم فوق أكفهم ، ولا تسقط ، ولا يسقط منها شيء ثم تدربوا وتقدموا فى هذا الفن الرائع ، فأصبحوا يقفزون من الجانب الأيسر من الترام ، وهو جانب تمد عليه قضبان حديدية لتمنع النزول منه ، ويرفع فيه سلم الترام ، فيصبح المتعلق بقطاره أو عربته من هذا الجانب كأنه متعلق بالهواء ، ولكنهم على هذا الجانب المحفوف بالخطر لا تقف فى أجسادهم شعرة ، ويستمرون فى عرض البضائع والسلع ، كأنهم فى حوانيتهم على مقاعد وثيرة ، لا يحسون بخطر ، ولا يهددهم الموت .

وقد جردت المحافظة أعوانا لها لا هم لهم إلا مطاردة هؤلاء الباعة الأبطال ، ومنعهم من القفز إلى الترام والقفز منه ، ولا سيما القفز من الجانب الأيسر ، فأصبحت هذه المطاردة لونا طريفا من ألوان « سيرك الترام » ، يطيب لمحبى التأمل فى حياة الشوارع أن يتابعوه ، وكأنها فصل فذ من فصول رواية ،من روايات مغامرات السينما التى بدأت تغزو قلوب وعقول وجيوب الصبيان والشبان ، ولا سيما شبان هذه الجماعة المجاهدة من باعة الطريق ، وممارسى الرياضة المحفوفة بالمخاطر على سلالم الترام .

ولقد كان للسيدات قسم خاص فى كل عربة ترام ، مكتوب على بابها « حريم » وكانت هذه الكتابة فى لوحة من الصاج ، وكانت الكتابة بالميناء البيضاء على أرضية زرقاء . وقد كان للشبان الذين يقفزون إلى الترام تشبها بالجماعة الجائلين ، غرام شديد بالوقوف على باب حجرة الحريم ، ليغازلوا علنا أو على استحياء ، سيدات وآنسات ، أسدلن على وجوههن ، براقع بيضاء من الموسلين الرقيق ، فزادتهم هذه الغلالة جمالا وإغراء ، إذ أخفت التقاطيع التى لا تستقيم كثيرا فى وجوه المصريات ، وتركت العيون التى هى أجمل ما فى المرأة المصرية ، لتؤدى دورها ، فى إثارة شجون ، وأوهام المحرومين .

وكثيرا ما كانت تسفر المغازلة عن ظفر الشاب الذى غامر بحياته ليقترب من حرم « الحريم » بصفعتين قويتين من شرطى يرتدى جلبابا للتخفى ، ثم يضع يده على كتف الشاب لجره إلى قسم الشرطة ، ولكن الشاب عادة يقفز إلى الطريق ويعدو ، ومن خلفه غريمه ، فتضحك السيدات والآنسات من هذه المفاجأة التى أنهت مغامرة ، وقعت من أجل سواد عيونهن حقا لا مجازا .

فلا عجب أن يكون « الترام » صديقـا للصبى . يتابعـه خارجـا من المحطة النهائية فى ميدان السيدة زينب وعائدا إليها محملا بحمولته البشرية ، وكأنه مدينة صغيرة تنتقل فى بطء من مكان إلى مكان فى المدينة العظيمة وقد أصبحت للصبى دراية أكبر بأرقام خطوط الترام واتجاهات مسارها ، ثم معرفة بوجوه سائقى القطر الذين كانوا يقفون أمام جهاز التسيير البسيط . ويميز بين عادات الواحد منهم عن الآخر . وكان فى المحطة النهائية مطعم خاص لعمال الترام من قادة و« كمسارية » ومفتشين صغار ، وهو عبارة عن منضدة يباع فيها لحم رأس الضأن ، فى أرغفة ، كأنها الوالد الشرعى ، لما عرف بعد ذلك « بالساندويتش » الإنجليزى الذى كان غرامه بـالقمار سببـا فى ابتكار هـذا الأسلوب الميسر لتنـاول الطعـام على المـائدة الخضراء !

وكان أكثر قادة الترام يفضلون تناول طعامهم من لحم الرأس فى أرغفة يتصاعد منها بخار الموقد ، وهم يقودون قطرهم فيقضمـون قضمات كبيـرة ، تتضخم لها أشداقهم ، فتثير فى الصبى شهيته للطعام على الرغم من ضعف هذه الشهية وعزوفه عن الأكل لكثرة أسقامه . وقل أن رأى الصبى قائدا لترام يحمل بين يديه ، كوب شاى فلم يكن الغرام بالشاى قد استشرى استشراءه الآن ، فقد استأثرت القهوة بحب الناس فى تلك الأيام . وكان الناس يتناولونها فى هدوء . وصفو مزاج لا وقوفا ولا متحركين كما يفعل الآن قادة « الأوتوبيسات » فى مصر بالشاى الذى أصبح مرضاً عضالاً لا علاج له ، ولا شفاء منه !

وكان « للترام »دور آخر فى حياة الصبى . فقد كانت مظاهرات تلك الأيام تبدأ أحيانا ، وتنتهى أحيانا ثانية وتجرى مرة ثالثة فى الترام ، فإذا حدث فى البلد حدث سياسى مرت قطر الترام أمام الصبى مملوءة بتلاميـذ المدارس ، وقـد ركزوا علم معهدهم عند السائق . ثم تعلقوا بسلم الترام من الجانبين . وغيروا مسار الترام وراحوا يهتفون ملء رئاتهم ، وإلى أكـثر ماتستـطيع حنـاجرهم . فـإذا اشتد بهم الغضب واشتد بنفوسهم اليأس انقلبوا على صديقهم الترام فأحرقوه ، وقلبوه على الأرض كانوا يفعلون ذلك بطريقة لا شعورية يوحى بها العقل الباطن ، فانتظام سير الترام معناه استقرار الحال ، وانقطاع سيره معناه أن الأمور لا تجرى مجراها العادى . وأن الناس غاضبون وساخطون ، ومظهر المدينة الخالية من الحركة ومنظر العربات

المقلوبة ، والمحروقة ، بلاشك منظر كئيب قاتم ، وهو يناسب تماما بلدا لا ترضى عن حالها ، ولا عن القائمين بالأمر فيها .

وقد كان من حظ الصبى أن يشارك فى مظاهرة كهذه المظاهرات ، وأن ينتقل من دور المتفرج إلى دور الممثل ، وإن كان دورا ضئيلا شاركه فيه مئات الألوف من أمثاله من الصبيان ، وممن يكبرونه قليلا وكثيرا ، ومن السيدات ، والآنسات ، ممن كن يسمين فى ذلك العهد بالعقيلات وربات الخدور .

وكان ذلك فى يوم الثلاثاء الثامن من شهر يونيو سنة ١٩٢٠ ، عندما نقل جثمان الزعيم محمد فريد من برلين إلى القاهرة على نفقة تاجر من تجار الزقازيق وهو الشيخ عفيفى خليل فقد خرجت القاهرة كلها ، بل مصر بأسرها . تستقبل هذا الجثمان ، وهى تعرف أن صاحبه استشهد فى الغربة وحيدا . لا زوجة معه ولا ابن ولا رفيق ، مجردا من المال ومن السلطة فقيرا معدما لا يجد طعام يومه . ولا ثمن الدواء ليسكن آلام علة اشتدت به . وبرحت به أوجاعها كل ذلك من أجل مصر ، ومن أجل استقلالها وحريتها . قصت عليه أمه .

قصت عليه أخواته قصة هذا البطل ، فلم يستوعبها ويفهم معناها فحسب . بل إنه أحب صاحبها مع أنه كان يجد نفسه حائرا أمام هذه الهتافات التى كانت تملأ الجو بسقوط أشخاص وحياة أشخاص ولا أحد من أهله قادر على أن يقرب إلى ذهنه لماذا هذا الرضا ، ولماذا ذاك الغضب ولا الفارق - بين المغضوب عليهم ، والذين أنعم الوطن عليهم .

أما يوم الثامن من يونيو سنة ١٩٢٠ يوم أن ذهب الصبى ليستقبل جثمان رجل أبى إلا أن يحارب الإنجليز وقد تصور أنه قادر على أن يجليهم عن أرض وطنه ، فكان سعيدا غاية السعادة بأن يكون فردا فى هذا الجيش اللجب ، وأن يأخذ مكانه ضمن صفوف لا حصر لها ، وأن يسير على قدميه من ميدان السيدة زينب إلى ميدان المحطة ، وهى مسافة لا شك فى أنها طويلة وبعيدة لصبى ضعيف كثير الأمراض ، ثم سار فى نفس اليوم وبعد ساعات طويلة من ميدان المحطة فى أقصى المدينة ، إلى مدافن السيدة نفيسة فى أقصى المدينة من الطرف الآخر لها ، ثم يدخل إلى المدفن الذى لم يتسع إلا لمائة أو مائتين ، فكيف استطاع أن يكون ضمن هذا العدد القليل فى

ذلك اليوم الذى يشبه يوم الحشر . وسمع يومها واقفا خطبة رجل صاحب صوت مجلجل ومدو ، عرف فيما بعد أنه على فهمى كامل ، وحفظ كلامه ، وسرته طريقة نطقه لأسماء عواصم أوربا قال : سمعتكم تذكرون جهاد فريد فى برلين وباريس فقط . . وكأنه لم يجاهد فى فيينا وبروكسل ولوكسمبورج أيضا . .

كان يطيل هذه الأسماء ، وينطقها كما ينطق الفرنسيون ، فخيل إلى الصبى أنه طاف بهذه البلدان ، وعاد إلى بيته سائرا على قدميه يكاد يطير من فرط النشـوة ، ولكن رحلة ذلك اليوم كانت أكبر من أن يحتملها بدنه الواهن ، فمـرض مرضـا طويلا ، ليكون المرض تدشينا وتكريسا لحبه لفريد ، ولما يمثله فريد فى حياته ، وفى حياة مصر . .

الخليج العاشق

الخليج العاشق هو ـ كما سبق القول ـ الخليج المصرى الذى كان يشق القاهرة من أقصاها جنوباً عند « فم الخليج » أو مصر العتيقة إلى أقصاها شمالاً عند منطقة غمرة .

هذا الخليج القديم كانت تقام على جانبيه الحدائق والبساتين وقصور الخلفاء الفاطميين ، كما حدثنا عنه على مبارك فى خططه التوفيقية ، كان نزهة للعيـون ، وفرجة للنفوس ، ومنتجعا لطالبى الراحة والتسرية ، فى القوارب والمراكب الشراعية تتهادى فوق سطحه الهادىء ، وفيها أحيانا الطبل والدف والمزمار ، مما يستعمله من يسميهم المقريزى ، « أهل الخلاعة » ، حتى أمر الحاكم بأمر الله منع ركوب القوارب فى الخليج . ولكنى لم أكن أعرف أن هذا الخليج نفسه قد انتـابته لـواعج الهـوى والغرام ، فأحب فلم يجد محبوبة تشابهه ، وتصلح مطمحا لقلبه ، وغاية لشطحات وجده إلا « بركة الرطلى » ينتهى إليها ، ويصب ماءه فيها ، ويختلطان معا ، ويجد عندها ، بعد طول السفر الراحة والسكينة .

وقد شاء خيال المصريين « الفولكلورى » إلا أن يتخذ للقاء الحبيبين : الخليج والبركة ، عيدا ، تقام له زينات الأفراح ، وتتقاطر جموع القاهريين ، ومعهم وسائل الطرب ، يغنون ويرقصون ، وكأنهم فى مولد من موالـد الأولياء الصـالحين ، ثم تضرب الخيام ، لفنون التمثيل الشعبى من خيال الظل إلى الـ « قره قوز » ، ويعرض أصحاب المطاعم ما لذ وطاب من صنوف الحلوى وألوان اللحوم التى تتصاعد لها

أبخرة تدير الرءوس ، وتنشط شهية من أتخمهم كثرة الطعام كما أتخمتهم الفلوس ، ثم تدار الكئوس ، لتبلغ النشوة غايتهـا ، وتصل المتعـة قمتها ، ولكن يبقى لمن لا يشبعون بهذا القدر من اللذات الحلال والحرام بقية من نشاط فى زوايا مستورة ومفضوحة ، تبذل فيها ذوات الجمال اللهو والإثارة ، وتعددت صوره ، حتى لم يعد للحياء مكان ، ولا للفضيلة زمام ، فوصل الأمر إلى السلطان ، فجمع أهل الرأى والفتوى ، فأمروا أن يمنع هذا المولد ، العجيب ، فضاع على الفن عيد أى عيد !

وقد فاتنى أن أخبرك أن ختام حفلات هذا الموسم الفريد كان زفاف الخليج إلى عروسه « البركة » . وكان يرمز إلى الخليج بشاب ، ممشوق القوام جميل المحيا تفوح من أردائه أجمل العطور يتمخطر على وقع الطبول والزمور ، وترشقه الأوانس بالورود والزهور ، إذ يرون فى شخصه الجميل ، وقده النحيل ، فارس أحلامهم ، وبطل غرامهم ، أما العروس وهى بركة الرطلى فلم يجرؤ أهل القاهرة على أن يرمزوا لها بفتاة ، فأصبح العريس لا يؤ انسه إلا الخيال ، وهو ليس بالقليل على كل حال .

ولم يكن الصبى الذى نروى قصته وهو يطل من نافذته فى شرفته المصنوعة من خشب المشربيات على شارع الخليج المصرى يعرف من قصة هذا الشارع شيئا ، بل لعل اسمه ، لم يسترع نظره إلى أصله ، لأنه لم يكن يرى فيه ، إلا شارعـا ككل شوارع القاهرة ، ولم يكن أحد من أهله ولا معاصريه يلتفت إلى ما توحى إليه أسماء الشوارع من تاريخ قديم لها مثل بركة ، وقنطرة ، وساقية ، وبئر ، فلا يتصور أنه كان فى هذه الشوارع فى يوم من الأيام ، قنطرة حقا ، وساقية صدقا ، وبركة وبئر ، بل لم يفكر قط فى أن حى « البغالة » فى قسم السيدة زينب الذى عاش فيه وتَنقَّل فى نواحيه كان فعلا موطنا لتربية البغال ، وأن حى « الفجالة » كان غيطا لزرع الفجل وهكذا و هكذا . . .

نعود إلى الصبى ومنزله فى الخليج . وقد شهد فى هذا الشارع شخصية غريبة جديرة ، بأن تصور وتـذكر ، وحـادثة مؤلمـة حقيقة بـأن تروى وتقـرأ ، ومأسـاة إنسانية ، سالت لها دموع الصبى حينما وقعت ، وبقيت أياما وليالى ، تؤ رقه ويطارده خلالها شبح بطلتها التعسةَ الحظ .

أما الشخصية فلرجل قصير القامة متين البناء ملتح كانت لحيته الشديدة السوداء

السواد ، تدور حول وجه جميل التقاطيع ، تلمع فى صفحته عينان براقتان فوقهما حاجبان غليظان ، يتلاقيان ولا ينفرجان ، وكان الرجل لا يرتدى زيا من أزياء المصريين ، لا القاهريين ولا أهل الريف ، فلا هو ممن يلبسون الجلباب المصرى ولا الريفى ، ولا الجبة والكاكولة ، ولا البذلة والطربوش ، وإنما يصطنع لنفسه رداء أشبه شىء برداء بدو سوريا وفلسطين ، ينتعل « خفا » فى قدميه ، وشالا أبيض على رأسه ، يكوره بأسلوب خاص ، وتنسدل على ظهره من تحت هذا الشال ، ضفيرتان طويلتان . وكان عمل الرجل ، أغرب الأعمال ، لم يكن يشاركه فيه رجل آخر فى مصر ، على الأقل ، إلى حد علم الصبى آنذاك ، فقد كان يصنع أحذية وجهها من قماش أبيض كأحذية الألعاب الرياضية ، ولكن نعلها لا يصنع من المطاط ولا من الجلد ولا من الخشب ، وإنما من خيوط الحبال ، يضمها بعضها إلى بعض ، فوق قطعة من الخشب ، تنتثر فوقها بعض المسامير ، فيلف الحبال حول هذه المسامير ، ويدقها بمطرقة صغيرة من حديد ، لها يد من خشب ، ثم يستعين بفتاة قصيرة وفقيرة ودميمة لتشد وجه النعل إلى خيوط الحبل ، فتصبح حذاء خفيفا رخيصا .

ولكن العجيب هو أن أحدا لم يشارك « الشيخ سليم » فى مهنته هذه ، وقد اتخذ لممارستها حانوتاً يواجه منزل الصبى تماما ، وكان الشيخ سليم يتخذ من حانوته مصنعاً ومسكنا ومصلى وخلوة ، فهو يعمل فيه ، فإذا جاء المساء نام داخله على أريكة ، فإذا حانت ساعة الصلاة صلى ، وإذا فرغ من كل ذلك انتحى جانبا ، وتلا ما لم يدر الصبى كنهه : أدعية هى أو تراتيل أو تعاويذ أو « تعازيم » سحرية ؟

كان الرجل يعيش وحده ، كأنه يقيم فى جزيرة وسط المحيط ، ليس له أقارب ولا أصدقاء ولا عملاء ، ولكنه لا يقاطع جيرانه ، ولا يزورّ عنهم ولا يتعالى عليهم بدليل أن الصبى كان يتردد عليه ، ويتحدث إليه ، فلا يضيق به ، ولا يصرفه حتى برفق فضلا على أن يشتد فى الكلام معه ، ويحاول الصبى أن يذكر ماذا كان لديه من حديث . يهتم به هذا الرجل الغريب فلا يستطيع ، ولكن تعلق بذاكرته حادثتان أو ثلاث ، أولاهما أن كتاب حديث عيسى بن هشام وقع فى يد الصبى ، وكان فى طبعته الأولى ، فقرأ سطورا فى أول الكتاب ، تروى كيف سار عيسى بن هشام فى صحراء الإمام ، وقد خلا إلى خواطره ينادمها ، وإلى نفسه يناجيها والقبور من حوله يشملها

سكون عميق ، والصحراء أمامه ، يظللها ليل بهيم ، فخيل إلى الصبى أن هذا الكلام شبيه بما يقوله الشيخ سليم ، فأسرع بالكتاب إليه ، وقرأ منه سطورا ، فأنصت الشيخ وكف عن طرق حباله قليلا ، فلما رأى أن الأمر كله وصف طويل مطوطه ، وأنه لا يبش بفكرة عميقة ولا جديدة عاد إلى عمله ، وطوى الصبى كتابه .

الأمر الآخر يذكره الصبى عن هذا الشيخ أنه سأله يوما عن صلاته ، فوعده الشيخ ، أن يصلى أمامه بصوت جهير حينما يوافى موعد الصلاة ، وأنجز الشيخ وعده ، ووقف يصلى صلاة قريبة من صلاة المسلمين ، ولكنها لا تطابقها ، فلعل الشيخ سجد ولم يركع ، أو لعله ركع ولم يسجد ، وما تلاه لم يكن الفاتحة . وقد حارت البرية فى مذهب الشيخ وملته : فمن قائل : إنه درزى : ومن قائل : إنه علوى ؛ ومن قائل : إنه ينتمى إلى طائفة من الطوائف الكثيرة التى تخلفت عن الحركات المعادية للإسلام ، والحركات الباطنية التى يختلط فيها الإسلام بالمانوية الفارسية ، وبعض عقائد الهنود غير الإسلامية .

وقد حدث أن قرأ الصبى فى كتاب على فهمى كامل عن سيرة أخيه الزعيم مصطفى كامل أن الزعيم ولد مختونا ، فسأل الصبى عن معنى هذه اللفظة ، فقيل :

إنه ولد على حال لا يحتاج فيها إلى عملية الطهارة التى يعانى منها كل صبى ، وتبقى من ذكريات طفولته المريرة ، وقيل للصبى أيضا : إن الصبى الذى يولد هكذا لابد أن يكون ممن ترضى عنهم عناية الله ، وفهم فيما فهم يومذاك ، أن عملية الختان جزء من طقوس الإسلام لا يكمل إسلام المسلم إلا بها ، فاختزن هذا كله فى ذاكرته ولما جاءت المناسبة سأل « الشيخ سليم » : هل قام بعملية الختان ما دام يقول إنه مسلم ؟ وسكت الرجل ، ولم يبد عليه غضب ولا ضيق ، ولكن الصبى ذهب يوما إلى حانوت « المكوجى » المجاور لداره ، فإذا صاحب المحل يقول وهو لا يستطيع أن يتمالك نفسه من الضحك : ماذا قلت للشيخ سليم ؟ إنه يشكو من أنك سألته :

هل هو مختون ؟ وشعر الصبى بحرج شديد ، فلما أفضى إلى ذوى قرابته بما سمع هالهم أن ابنهم اجترأ على طرح السؤال على رجل لا تربطه به صلة حميمة بل على مجرد رجل ، وبقى هذا الأمر كله من ذكريات الصبى غير السعيدة .

ولا ينسى الصبى صورة الشيخ سليم فى يوم كان الصبى فيه فى منزله مطلا على شارع الخليج ، فقد رأى يومها الشيخ وقد ترك عمله ، ورفع إلى السماء عينيه يديرهما فى الفضاء وقد ارتسم على وجهه من آيات القلق ما استطاع الصبى أن يطالعه من هذا البعد ، واستمر الشيخ يفعل ذلك ، وهو جامد فى مكانه لا يترك وضعه ، وحار الصبى فى سر هذا الموقف حتى أدار رأسه مصادفة إلى المنزل المجاور ، فرأى فتاة ، واقفة على قاعدة نافذة مفتوحة ، وبيدها خرقة ، وهى تمسح بها زجاج النافذة ، فى همة وفى حركة سريعة متصلة ، وأشفق الشيخ على الفتاة من السقوط ، واستبد به الخوف ، حتى حال بينه وبين العمل ، الأمر الذى قل أن يصدر عنه ، وكانت أسنان الشيخ البيضاء تبدو لامعة ناصعة ، وهو يفتح فمه من فرط القلق ، وانطبعت هذه الصورة فى رأس الصبى ، وأحس أنها صورة إنسانية تفيض بحب الإنسان للإنسان وجزعه لمصاب من لا يعرفه ، فأحب الشيخ حبا عميقا .

وكان والد الصبى يزور الشيخ سليم فى حانوته بين الحين والحين ، زيارات قصيرة يتبادلان فيها التحية والسؤال عن الصحة ، ولكن قل أن يعود الوالد من إحدى زياراته دون أن يروى لأهل بيته ومنهم الصبى ، شيئا طريفا أو جميلا أو مؤثرا أو غريبا من حياة الشيخ .

وفى أحد الأيام أفضى الوالد إلى الأسرة ، بأن الشيخ واقع فى غرام الفتاة الفقيرة الضعيفة والدميمة التى تعاونه فى عمله ، والتى تأتى كل مساء لتسليم ما انتهت من إعداده من النعال ، وتتسلم الدفعة الجديدة منها ، وأن الشيخ بدأ يتحدث عن اهتمامه بالفتاة على استحياء ، فهو يتحدث عن ضعفها وشدة حاجتها إلى المعين ، وارتقى من ذلك إلى الحديث عن أمانتها واستقامتها ، فإلى الحديث عن ذكائها وخفة ظلها ، حتى ترقرقت عيناه بالدموع يوما ، وهو يتحدث عن مرضها ، وانقطاعها عن العمل لهذا السبب وواساه الوالد ، ودعا الله أن تكون الوعكة خفيفة وسريعة الزوال ، فمست هذه المواساة الرقيقة شغاف قلب الرجل الوحيد الغريب ، فانهمرت عيناه بالدموع ، حتى أخجله أن يضبط فى هذه الحالة من الوجد واللوعة . . .

وبقيت هذه القصة القصيرة تساور خيال الصبى ، وتتردد عليه ، وتدعوه لأن يتأملها من جديد فيتخذها موضوعا لقصة أو رواية ولكنها كانت بذرة لا تثمر .

أما المأساة التى وقعت والصبى فى بيت شارع الخليج فهى جديرة بهذا الاسم بلا مبالغة ، انها قصة زينب الفتاة التى عانت فى طفولتها من كساح ، فخرج بناء جسمها مختلا ، تحمل رأسا ضخما ، وكتفين عريضتين قويتين ، على جسم قصير ، وساقين ملتويتين قليلا ، وحوض ضيق ، ولكن زينب التى كان الناس يسمـونها « زينب المكسحة » . وربما نادوها مباشرة بهذا اللقب ، كأنه اسم أبيها ، كانت فتاة ذات حيوية قوية البدن ، تتكلم فى لفظ بين ، وتعى الأمور وعيا حسنا ، وتقوم بالعمل فى البيت الذى كانت تشتغل فيه على وجه لا يدعو إلى الشكوى ، كانت تعتنى بزينتها ، فتشترى لشعرها ضفائر مستعارة تضيفها إلى شعرها الأصيل ، فيبدو شعرا طويلا ، وتشترى لهذه الضفائر المستعارة قروشا ذهبية تسمى « خريات » تعلقها بهذا الشعر ، لتزيده جمالا ، وكانت فوق ذلك تقتصد من أجرها ، فتشترى من المصوغ الزائف عقدا يسمى « كردانا » .

وربما وضعت فى شعرها وثوبها رائحة رخيصة ، ولكنها تنم عن حرصها على أناقتها .

وكان الصبى يألفها ، ويضحك معها ، كلما رآها ، وكان أحيانا يدس يده فى صدرها فى براءة الطفل وسذاجته ، وشقاوته ، فتضحك ، وتتظاهر بـالغضب ، والطفل لا يرى فى كل ذلك ، ما يدعو إلى اللوم ، ولا يستوجب النقمة ، وفى ذات يوم شكت زينب من ألم مجهول ، ومرض غامض ، وحار أصحاب الدار التى كانت تعمل فيها فى تشخيص علتها ، ولما غم عليهم الأمر استعانـوا « بأم جليلة » التى كانت تعمل فى بيت الصبى ، وخلت أم جليلة بزينب التعسة حينا ، ثم خرجت لتعلن لأهل الدار شيئا بصوت هامس مرتعش ، وقد علا وجهها مظهر حزن صادق وعميق . مم تشكو زينب المسكينة ؟ أى علة دهمتها ؟ ولم يطل الأمر ، فقد استدعى أصحاب الدار عربة يجرها حمار ، ووضعوا « زينب » فوقها ، وتطوعت « أم جليلة » بالذهاب معها ، إلى أين ؟ عرف الصبى بعد ذلك أن العربة بحمارها وبمن تحمله ذاهبه إلى قصر العينى ! وأن قصر العينى هذا مستشفى ، وأن المستشفى مكان لمعالجة المرضى الميئوس منهم عادة ، وأنه قل من نجا من شر المستشفيات التى كانت تسمى فى أحيان كثيرة « الأشلا » ، لا نسبة إلى الأشلاء ، باعتبار أنه لا يذهب إليها إلا من أصبح أشلاء ، كما كان يظن الصبى ، بل تصحيفاً لكلمة تركية هى القشلاق .

وأدرك الصبى من الهمس أن « زينب » ارتكبت خطيئة ، وأنها تدفع ثمن هذه الخطيئة ، ولا ينسى الصبى شكل هذه الفتاة المسكينة التى كان يلعب معها ويعابثها ، ويخاصمها ويصالحها ، فقد كان وجهها شاحبا تعلوه صفرة الموق ، وكان جبينها يتفصد عرقا ، وكانت تقاطيعها تتحدث عن ألم عميق ، يعتصرها اعتصارا ، وكان مع ألم الجسم ألم ممض ، وهو ألم الشعور بالعار ، ومضت العربة بحمارها الهزيل ، والفتاة التعسة ، ملقاة على ظهرها ، كأنها جثة لفظت أنفاسها ، وظهر أم جليلة على العربة كأنه يروى ويتحدث ويبكى ويصرخ .. لا لمأساة زينب « المكسحة » ، بل لآلام الإنسانية كلها ، وضعفها ، وهوانها وقلة حيلتها .

ولم يبك الصبى ، ولكنه وقف أمام باب داره ، وقد تثلجت يداه ، وتخشبت ساقاه ، وزاغت عيناه ، وغص بريقه ، وصمت واجما حائرا لا يدرى ماذا يقول ؟ ولا ماذا يفعل ؟

كان بوده أن يصحب زينب ، لولا أنه لا يدرئ بالضبط بالأمر ، ولا إلى أى مكان تذهب ؟ ولما اختفت العربة خيل إلى الصبى أن كل شىء اختفى : بيته ، والشارع والترام ؛ وأنه نفسه لم يعد له وجود !

وشمله حزن غريب ، وقلت حركته ، وهو لا يكف عن الحركة ، وانقطع كلامه وهو لا ينقطع عن الثرثرة ، وسمع بعد ذلك من الأقاصيص والحواشى مازاده ألما ، ومابقى فى ذاكرته من هذه الأقاصيص والحواشى أن أحد أهل الشارع روى أنه كان عائداً متأخراً إلى بيته فى ذات ليلة فاصطدم هو برجل مخمور يتخبط فى الشارع ويصيح : يا بت يا زينب .. وقيل : إن هذا الرجل « عربجى » ، وأنه كان يلقى « زينب » فى ليال كثيرة فى حوش الدار التى تعمل فيها ولا أحد يحس بما يجرى هناك !

هل هذا خيال يوحى إلى الناس عند كل حادثة تقع ، أو أنه الحقيقة ؟ ولكن ما الفارق وقد اختفت زينب ولم يعد يسمع عنها أحد شيئا ؟ وقد قطع الجميع أنها لتشوه جسمها لم يكن وضعها للجنين إلا موتا محققا .

وإذا كان الصبى لم يشهد حادثة من الحوادث من شرفة منزله المطلة على شارع الخليج الذى يجرى فيه الترام أكثر مما يجرى فى أى شارع آخر بحسبان شارع الخليج هو أطول شوارع القاهرة فإنه تأثر بحادثة ترام لم يشهدها ، والغريب أنه لم يتأثر بها فور وقوعها بل بعد وقوعها بشهور :

ففى ذات يوم خرج من مدرسته إلى داره فرأى جمعا حاشدا على مقربة من ميدان السيدة زينب عند اتجاه الترام إلى شارع خيرت فميدان لاظوغلى ، وسأل عن الخبر فعلم أن صبيا كان يحاول التعلق فى الترام فسقط تحت عجلاته ، وأنه سيحمل فى عربة إسعاف إلى المستشفى ، وتمهل الصبى قليلا ثم مضى إلى حال سبيله ، فإذا كان اليوم التالى علم أن المصاب فى حادث الأمس زميل من زملاء الفصل ، فذكر أنه كان صبيا أبيض اللون مستدير الوجه هادئا لا تغرف عنه رعونة ولا خفة ، ومضت شهور ، وعاد الزميل المصاب ، وقد فقد إحدى ساقيه ، واستعاض عنها بأخرى صناعية ، وتهيب الصبى أن ينظر إليه ، وخاف أن تلتقى عيناه بعينى الزميل ، ولكن الزميل المصاب ، كان طبيعيا هادئا لم يبد عليه أنه شعر بأهمية خاصة لنفسه بعد هذه الإصابة ، فلم يشجع تصرفه هذا إخوانه على الالتفاف حوله ، والترحيب به . ومضت الأيام فإذا خلق هذا الصبى يتضح كلما كبر ، واشتد إحساسه بفقده ساقه ، فقد اتسم خلقه بالغلظة والجفاء ، لإخوانه أقرب إلى العدوان والرغبة فى المخاشنة ، وبقى هذا طابع مسلكه ، حتى بعد أن أتم تعليمه ، ونزل معترك الحياة العملية .

وكان من المشاهد التى كانت من صور الحياة الثابتة فى شارع الخليج على مقربة من منزل الصبى صورة أسرة مكونة من زوج وزوجته . كانت أسرة فقيرة مدقعة ، يعمل الزوج فى مصنع للسرر الحديدية على بعد خطوات من دار الصبى ، ولكنه لم يكن صانعا بل حمالا ، يرفع السرر إلى العربات التى تنقلها إلى حوانيت التجار أو بيوت العملاء أو ينزلها من العربات إذا كانت فى حاجة إلى طلاء أو ترميم أو إصلاح وهو يتقاضى لقاء هذا العمل التافه قروشا قليلة ، لم تعنه على شراء خرقة تستر بدنه ، فقد كان يلبس أجزاء من ثياب ، وكانت زوجته على مثل سوء حاله ، ولما كان أكثر وقتهما فراغا فقد كانا يشاهدان جالسين الواحد إلى جوار الآخر يتحدثان أو يأكلان معا قطعة من خبز ، وقليلا من إدام رخيص .

ولكن هدوء هذه الأسرة يفارقهما فجأة ، فكانا يبدآن النهار بشجار كلامى يحتدم قليلا ، فإذا أوشك النهار أن ينتصف تحول إلى صراع ، يحاول الرجل فيه أن يضرب زوجته فلا يستطيع ، لأنها أسرع منه حركة ، وأقوى منه بدنا ، فهى قادرة على أن تناله بأسنانها وأظفارها ، فيدمى وجهه ، وتقع من ثيابه الممزقة قطع ، فيزداد جسمه عريا ، ثم تظفر يد المرأة بأجزاء حساسة من جسم رجلها ، فيسقط مغشيا عليه ،

فيتدخل من الجيران بين الرجل وزوجه ، من يفصلهما الواحد عن الآخر ، فيتفرقان ثم يهدآن ويعودان كأن لم يكن بينهما شجار ، ثم يبدأ بينهما حوار عنيف فجأة ، ويزداد عنفاً ، فيفضى إلى التماسك ، ويقع الصراع من جديد ، وتسقط أجزاء من الخرق التى يرتديها الرجل ويزداد جسمه تعريا ، ثم يغمى عليه فيثوب إلى رشده ، وهكذا دواليك .

أيام وراء أيام والحال على هذا المنوال ، لم يشبعا من الضرب والصفع والركل والعض ، ولم يتغير وضع أحدهما من الآخر ، المرأة دائما أقوى وأشد افتتانا فى العراك ، والرجل دائما مغلوب على أمره ، ولكن لم يفترقا قط ، ولا تبدو عليهما نية الانفصال أو الاتفاق أو مبارحة المكان ، ولا يتدخل أحد من الجيران ولا من عمال المصنع ، ليصلح ذات البين بين هذين الرفيقين الغريبين ، ولكن الخاتمة وافت أخيرا ، فقد سمع صراخ عنيف رهيب ، ذات ضحى ، وخرج الناس من البيوت ، وأطلت النسوة من النوافذ فرأوا عجبا : رأوا الزوج لأول مرة وقد لف شعر المرأة على يديه ، وراح يلويه بعنف وهى تتلوى وتصرخ ، ثم أمسك بفتحة ثوبها القديم البالى فشده إلى ذيله ، فإذا هى عارية تماما ، وأغمى على المرأة ، وعبثا حاول الناس ، إعادتها إلى صوابها ، وبقيت هكذا ، حتى تبرعت لها سيدة بثوب ، وقميص فأعادها ذلك إلى صوابها وبدأت تدير عينيها ، واستخذى الرجل ، فذهب بعيدا ، فلما تحركت امرأته قام فسار بهدوء بعيدا عن المكان فى خُطى متثاقلة ، وأسندت المرأة ظهرها للجدار ، فلما مد رجل يده نحوها برغيف فيه بعض الطعام أخذت تقضم الرغيف وما بداخله فى هدوء وتثاقل وحزن ، فلما حل المساء مشت بدورها فى خطى متثاقلة ، ولم يعد أحد يرى أيا منهما أو يسمع عنهما .

حلاق الزعيم

أما الحلاق فهو الحاج طه ، وأما الزعيم فهو سعد زغلول .

وعلاقة الصبى الذى أروى لك حكايته بالحلاق وبالزعيم ــ أنه انتقل من بيت فى شارع الخليج إلى بيت يملكه الحاج طه .

ولم يكن الحاج طه شخصا عاديا بأى معيار قسته أو وزنته ، فقد كان حلاقا لرجل ، أحبته مصر حبا كاد يجاوز حبها وافتتانها ، بأى رجل سواه ، فقد نسجت حوله الأساطير ونسبت إليه المعجزات ، ورفعته إلى مراتب القديسين وأولياء الله ، ورفعه أقوام آخرون إلى مصاف أعلى وأسمى . وفى حياة الأمم والشعوب ، فترات يتقد فيها وجدانها ، وتلتهب مشاعرها ، حتى تصبح فى حاجة إلى ضرب من الوله تبحث له عن إنسان يجسده : ففرنسا مثلا فتنت بقائد لم يبلغ مبلغ « نابليون » فى البريق ولم يتمتع بما تمتع به الكورسيكى البطل من مخائل العبقرية وشارات النبوغ ، هو الجنرال « بولانجيه » ، وكاد تاريخ فرنسا يتغير بسبب هذا الوله المفاجىء ، لولا أن بطلها المرموق وضع حدا لموجة التدله فى حبه ، بأن وضع حدا لحياته كلها على قبر معشوقة ، لم تره أهلا للاستئثار بقلبها .

ماعلينا . .

وددت أن أحدثك عن الحاج طه ، وعن بيته الذى أدى فى حياة الصبى دورا بل أدوارا عظيمة وطويلة لولا أن لبيت الخليج المصرى ، فى ذمة التاريخ البسيط المتواضع الذى نرويه حقوقا صغيرة يجب أن نؤديها .

فقد مرض الصبى فى بيت الخليج مرضا طويلا يمكن أن نسميه مرضا عضالا أعيا نُطُس الأطباء حقا لا مجازا ، حسبك أن تعلم أن هذا المرض ألزم الصبى فراشه ستة أشهر أو يزيد ، منقطعا عن الدراسة تلح عليه آلام شديدة ، يحس بنارها الملتهبة ، وشوكها الحاد فى مفاصل يديه ورجليه ، ولم يقنع هذا الداء الكريه ، بما يسببه للصبى من أوجاع حتى أضاف إليها مضاعفتين : صعوبة الحركة ، وورما عند الركبتين ، قيل : إنه ناجم عن « ماء » تفرزه الأجزاء الغضروفية فى المواضع المريضة ، فيصبح محسوسا ، تتضخم له الركبة ، ويترجرج عند الحركة ، وكان يعالج الصبى آنذاك ، أكبر أطباء مصر الباطنيين وواحد من عباقرة العلماء فى مصر ، ذلك هو الدكتور عبد العزيز إسماعيل باشا ، وكان فى فترة مرض الصبى فى مطلع شهرته . قليل العناية بملبسه وبأثاث عيادته ، قليل الكلام مع مرضاه ، لا يهش لهم ، ولا يبش ، ولكنه لا يصل إلى مرتبة العبوس والتقطيب والخشونة .

وكان هذا الطبيب العظيم قد عالج الصبى نفسه من قبل من أمراض أخرى خطرة كالتيفود ، ولكن الذى يعنينا من مرض الصبى أن طبيبا آخر كان يقوم بمساعدة الدكتور عبد العزيز إسماعيل ، وكان لهذا الطبيب الشاب بأسرة الصبى أكثر من علاقة : فقد كان زميل خال الصبى فى الدراسة الثانوية ، وكان يساكن أسرة الصبى فى منزل شارع سلامة الذى حدثتك عنه ، وكان إلى جانب هذا كله الطبيب الخاص للصبى ، فلا ينقضى شهر حتى يعوده من أجل مرض بسيط أو خطير ..

ومرت الأيام وكبر الصبى ، وأصبح شابا ، ورأت السلطات أن تزج به إلى سجن الاستئناف وكان طبيبه هذا من أطباء مصلحة السجون.وشاءت المصادفة أن يكون الصبى فى صباح أحد الأيام الشتوية يتنزه فى ساحة السجن ، فإذا به وجها لوجه مع طبيبه وجاره السابق ، وصديق أسرته فاستولت عليه فرحة لم يشعر بها حينما أفرج عنه من قبل فى قضايا سياسة ، ولم تكن فرحته بالطبيب راجعة لأمل يعقده على الطبيب ، ولا لخدمة يطمع فى الحصول عليها فى السجن ، فقد كان أكثر موظفى السجن حريصين على التلطف للمسجون السياسى أياً كان مذهبه ؛ حتى لو اختلفوا معه فى الرأى ، إلا أن يكون موظف السجن دنيئا ضيق العقل ، قليل المروءة ، وقد كان أمثال هؤلاء قليلين فى تلك الأيام ، لتفاهة الصراع الحزبى ، وقلة جدواه فى نظر الناس ، وإن لم يصرحوا بذلك أو يدركوه بعقولهم .

فرح الصبى إذ رأى طبيبه يتكلم مع موظف آخر من موظفى السجن ، ولم ينتظر الصبى حتى يقبل عليه الطبيب ، ويحييه بحرارة ، ويسأله عن صحته ، وصحة الأسرة فرداً فرداً ، ويذكره بأيام شارع سلامة ، وأيام شارع الخليج ، وتصور الصبى العبارات التى سيقولها له الطبيب ، فخيل إليه أنه سيمسك بيده ، ثم يتأمل فى وجهه ثم يقول له : لقد مضت الأيام سراعا . . ولقد أصبح الطفل المريض شابا ، بل أصبح سياسيا . . دعنى أتأملك ، فإنى لا أصدق عينى ثم يلتفت الطبيب إلى زميله موظف السجون « قائلا : إنك لا تتصور كم كان طفلا ضئيلا . . وضعيفا . . » .

ولكن شيئا من كل هذا لم يحدث ، فقد مد الطبيب إلى الصبى ــ الذى أصبح شابا يداً لا حياة فيها ، وقال ما نسيه الصبى لشدة الصدمة وقبح المفاجأة ، وكأنه كان معه فى الأمس القريب . وحارت ابتسامة على شفتى الصبى لا يدرى كيف يتخلص منها ؟ واسترد يده ، وهو يحس أنها أصيبت ببلولة ، لم يدرِ أين مصدرها ، وعاد إلى الحائط الذى كان يسند إليه ظهره ، قبل أن يرى طبيبه القديم وعلى وجهه من آيات خيبة الأمل والحسرة مالا وصف له . .

ولا تحسب أن الرجل فعل ذلك عن خوف من الحكومة ، فقد كان يرى ويعرف أن موظفين أصغر منه وآخرين أكبر منه كانوا يجاملون المتهمين السياسيين ، ويتنافسون فى التسرية عنهم ، وإجابة طلباتهم التى لا تخالف قانونا ، ولا تسبب للحكومة أذى ، وإنما كان تصرفه راجعاً إلى فتور فى الإحساس ، وبلادة فى الشعور ، وثقل فى اللسان ، ولقد غفر الصبى له فى الحال ، لأنه كان يعرف خلقه ، وهو الخلق الذى كان يسميه الصبى ــ عندما شب عن الطوق ــ بالمزاج الليمفاوى ــ وهو لا يدرى حتى الآن نصيب هذا الاصطلاح من الصحة .

على أن الصبى لم يتعظ ، فقد عرف وهو طالب فى المدرسة الثانوية جارا آخر كان يعمل قاضيا فى محكمة أسيوط ، وكانت والدة القاضى صديقة حميمة لوالدة الصبى على الرغم من أنها تكبرها بكثير ، وعلى الرغم من أنها كانت دائمة الشكوى من تعصب المسلمين ضد الأقباط ..

وكانت هى من أسرة قبطية كبيرة ، وكانت والدة الصبى ، تحب هذه السيدة العجوز ، وتحب ما تصور به أعمال المسلمين وتجنيهم على الأقباط وتضحك ما يشاء

لها الضحك ، وتروى للصبى وأخواته ما يدور بينها وبين جارتها من طرائف ولطائف ، بل كانت هذه السيدة تحب الصبى ، وتؤثره بحلواها وكعكها ، وتجلسه إلى جانبها ، وتقبله فى جبينه وتدعو له بخير كثير ، ثم تختم هذا كله بضحكة تداريها بيدها الصغيرة النحيلة وهى تقول : بس إياك يتمر فيك . . وما تطلعش زى بقية المسلمين ! فيقبل الصبى يدها ويقول لها : نحن لا نقبل الرشوة ، فتتظاهر بالغضب وتدعى أنها ستخطف ما أمام الصبى من كعك أو فطير أو حلوى !

فذكريات الصبى مع القاضى وأمه كثيرة وحية وحميمة ، ومضت الأيام وتخرج الصبى فى كلية الحقوق واشتغل بالمحاماة ، وكانت له قضايا غير قليلة فى محكمة عابدين ، ونقل القاضى الجار إلى هذه المحكمة ، وفى ذات يوم لمح الصبى رجلا يشبهه يسير نحو حجرة القاضى ، فسأل الحاجب بلهفة : من يكون هذا الرجل الذى دخل الآن إلى غرفة المداولة ؟ فقال الحاجب : « زكى بك . . » وانتابت الصبى أو المحامى الشاب الذى كان صبيا من قبل فرحة شبيهة تماما بفرحته وهو فى سجن الاستئناف حينما رأى جاره الطبيب وهى فرحة بريئة خالية من الغرض ، لم يكن الباعث عليها أنه سيجد قاضيا يعرفه معرفة وثيقة ، فقد كان المحامى الشاب ، على صلة غاية فى الجودة بأكثر القضاة ، وكان منهم من يزوره فى مكتبه وفى بيته ، بل كان منهم فى القاهرة على الأقل ثلاثة من أبناء أسرته ، ولكن أن يرى الإنسان صديقا فى حال ثم يراه وقد اكتسب مكانا رسميا ، وقد كتب عليه أن يعامله فى حدود القانون فهذه هى السعادة . سعادة أشبهها بتظاهر الأب بعضّ ابنه مزاحا ودعابة ، ففرح الطرفين بهذه الدعابة ــ ترجمته : أنا أستطيع أن أعضك أو أؤلمك ، ولكنى لا أفعل ، لأنى أحبك . . وأنا أتظاهر بالعض ، لأقول لك : الآخرون يعضون حقا ، فمما يسعد أن يوجد من يستطيع أن يؤذينا ، ولكنه بدل الإيذاء يضحك معنا ويلعب . .

كذلك يقف المحامى الصديق أمام القاضى الصديق ، وكأنهما غير متعارفين ، ويتجهم القاضى ، ويعترض المحامى ، ويأخذ القانون كل حقه ، ولكن يحس الاثنان أن من وراء هذا كله حبا لا ينكر ، ومودة لا تنقص ، وعد لاً لا يميل . . .

وهم المحامى الشاب أن يندفع إلى حجرة القاضى ليرحب به ويحييه ويدعوه إلى بيته ويسأله عن والديه ! ولكنه قد كبر وأصبح شديد التحكم فى نفسه ، قليل

الاندفاع إلا فى المسائل العامة ، وانتظر حتى حانت الساعة التى وقف فيها أمام القاضى بعد أيام ونظر إليه وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة لا تكاد تلحظ ، وفوجىء بأن القاضى تجاهله تماما ولم يرد على هذه الابتسامة بمثلها أو بأقل منها . وعزى الشاب نفسه أن ذلك فرط حيدة من القاضى ، وتصادف أن الاثنين تقابلا فى نهاية النهار ، وقد فرغ كلاهما من عمله ، والتفت الشاب إلى القاضى فى حرارة مضبوطة جدا ، فإذا به يرى القاضى مندفعا فى النزول على درجات السلم ، ثم التفت فى سرعة خاطفة إلى الشاب وقال له : إزيك يا أستاذ ، وخيل للأستاذ الذى وجهت إليه التحية ، أن السماء أطبقت على الأرض ، ولكن حياته العامة ، وما رآه خلالها من سقطات الناس ، وأكاذيبهم ، ووضاعاتهم ودناياهم ــ كانت قد زودته بمناعة ضد الآلام الناجمة عن مثل هذه المواقف فقال للقاضى وهو يهبط درجات السلم بخطى أسرع من خطاه : « الله يحفظك » .

وطال عمل القاضى فى محكمة عابدين ، وتعددت المناسبات التى يتلاقى فيها والمحامى الشاب الذى عرفه صبيا ولم تخرج العلاقة بينهما عن حدود الرسميات المخففة بالمودة الناشئة عن كثرة التلاقى وعن احترام المحامى لزملائه : محامين وقضاة . وبقى الصبى الذى أصبح شابا يتساءل : ألم يئن لهذا الحاجز الزجاجى أن ينكسر ؟ وفى ذات يوم ذهب إلى محكمة جنايات الجيزة ليترافع فى جناية من أعقد ما مر به من قضايا ، قضية محيرة حقا ، لكن المستشارين لا يقرءونها حتى يستقر فى يقينهم أن عقوبة المتهم فى تلك الجناية يجب ألا تقل عن الموت شنقاً بحال . وترافع الشاب فى القضية مرافعة أراد الله أن تزلزل عقيدة المستشار الجار فى وجوب الحكم بالموت ، ولكنها لم تصل به إلى يقين آخر . يطمئن إليه ويرتاح . . وفى اليوم التالى للمرافعة وكانت القضية قد نظرت أياماً رأى المحامى الشاب جاره القديم ، ورئيس محكمة الجنايات آنذاك يتلطف معه ويسأله عن الصحة والأسرة . وهو مأخوذ لا يدرى ما هذا التحول المفاجىء ؟ ولكنه سرّ به على كل حال ، بيد أن عجبه لم يطل ، فقد خلت المحكمة للمداولة ، وإذا بالمستشار رئيس المحكمة يؤجل الجناية لسبب تافه إلى دور مقبل ، وكان أحد المستشارين تربطه بالشاب المحامى صلة ، فلم يرحرجاً فى أن يقول للمحامى بعد ذلك بأيام « زكى بك . . استأذننا فى التأجيل ، لأن صلاتكما وثيقة تكاد تكون فى مرتبة القرابة » وسرى أن تكون هذه

الصلة قد كانت ذات نفع على أى وجه ، للمستشار الجار فقد أنقذته من حيرة لم يكن يجد منها مخرجاً ! .

نعود إلى بيت شارع الخليج ، لنؤدى له ما بقى فى الذمة : أى فى الذاكرة من حقوق : أى من ذكريات . .

وقد حدثتك عن مرض الصبى الطويل فى أثناء إقامته فى هذا البيت ، وأريد أن أروى لك من ذكريات هذا المرض : اثنتين أولاهما هى فى واقع الأمر ظاهرة نفسية فى حاجة إلى محلل نفسى ، ليدرسها ، ويستخرج منها دلالتها ، فقد كان الصبى طوال مرضه يكتب بإصبعه السبابة على غطاء فراشه حرف الحاء بخط الرقعة بلا قلم ، عشرات المرات فى اليوم الواحد ، بل مئاتها ، وقد كانت المدارس الابتدائية فى تلك الأيام حريصة على أن تعلم الأولاد الكتابة المحسنة المتقنة بالحروف العربية ، وكانت توزع عليهم كراسات مستطيلة ، فى أعلى كل صفحة من صفحات هذه الكراسة سطر مطبوع إما بالخط الثلث واما بالخط النسخ ، وإما بالخط الرقعة وكانت هذه الكراسات تسمى « مشقا » .

ولما كان خط الصبى رديئاً إلى أقصى الحد ، فقد كانت حصة الخط ، وهى مرة فى الأسبوع ، من أثقل الحصص عنده ، ومن أكرهها إلى قلبه فقد قل أن تمر حصة من تلك الحصص دون أن ينال من مدرس الخط وبخاصة فى السنة الثالثة ، من الأستاذ عبد الحافظ عصا على كتفه ! وكانت مع الصبى ساعة لا ينظر إليها إلا فى حصة الخط ، فإذا نسيها أو تعطلت ، استعاض عنها بعد الستينات باعتبار أن كل ستين تساوى دقيقة فإذا انتهت الحصة والمدرس فى بداية الفصل تنفس الصبى الصعداء ، وارتفعت معنويته إذ نجا من ضريبة الضرب ، واستقبل الجزء الباقى من اليوم الدراسى سعيداً ، فإذا قاده سوء الخط ، إلى العصا المعهودة انقضى باقى يومه بغيضاً مراً .

وكان المفروض أن يكون الخط ، وكل ما يتصل به أبعد الأشياء عن خاطر الصبى المريض ، ولكنه بقى طوال الأشهر الستة ، يتمنى أن يبرأ ، وأن يستطيع أن يمسك القلم بين أصابعه المريضة الموجعة ، ليكتب حرف الحاء بخط الرقعة . . لماذا

الكتابة على الإطلاق ، ولماذا حرف الحاء ، ولماذا خط الرقعة ؟؟ معميات بقيت إلى اليوم ، بغير حل . والطريف أن الصبى حينما شفى من مرضه نسى تماما أمنيته القديمة .

وكان فراش الصبى غير بعيد عن الحجرة التى يتناول فيها باقى أسرته طعامهم وقد كانوا يجتمعون عند تناول وجبات الأكل ، وقل أن يتخلف أحد عن الغذاء بخاصة ، وإن كانت مواعيد الطعام جميعا محل احترام عظيم . وكان يترامى إلى سمع الصبى المسكين أصوات أبيه وأمه وأخواته وربما بعض الضيوف ، وهم يتناولون الطعام فكان يعذبه من هذه الأصوات ، دون باقيها : صوت المضغ أحيانا إذا وصل إلى سمعه ، والصوت الناشىء عن اصطدام « دورق » زجاجى بالأكواب التى على المائدة ، ففى هذه اللحظات كان يحس بالحرمان من متعة الطعام على الرغم من أنه كان يشكو أغلب سنى طفولته وصباه من فقد الشهية !

وفى الفترة السابقة على إصابة الصبى بالمرض بدأت صلاته بعالم الحيوان ، فاقتنى قطا صغيرا . وأطلق عليه اسم « جناكليس » لأن أباه كان يشرب سجائر يعدها مصنع أجنبى أغلب الظن أنه يونانى ، اسمه جناكليس ، وقد كانت مصانع السجائر فى ذلك العهد موزعة بين الأرمن . وبين اليونانيين وقليل منها للطليان وكان من أشهر السجائر الأرمنية « ماتوسيان » ثم سجائر « ملكونيان » ، وكان من أشهر سجائر اليونانيين جناكليس ، وأشهر سجائر الطليان كوتارللى وكريازى . .

ووقع الصبى فى تناقض ، إذ بقدر حبه للقط « جناكليس » أحب الفئران البيضاء ، فاقتنى منها اثنين أو ثلاثة وأودعها قفصا من خشب بأسلاك رقيقة من النحاس ، وأحسن تغذيتها . فتضخمت ولكن شاءت المصادفة أن تكون كلها من جنس واحد : ذكور أو أناث ، ولذلك لم تتوالد ، ولم يكتشف الصبى هذه الحقيقة ، حتى كبر . . والغريب أن القط لم يفكر قط فى أن يمس الفئران البيضاء بسوء ، حتى بعد أن شب عن الطوق : وهاج هائج شبابه . والتمس لنفسه رفيقة تكمل حياته ، فلما لم يجدها فى البيت انطلق يعوى فى الليل البهيم صارخا كأنه وحش جريح . .

ولكن حدث والصبى مريض لا يكاد يقوى على تحريك عضو من أعضاء جسمه ، وأسرته تتناول الغذاء أن سمع فى المنزل صوت ارتطام جسم ما بالأرض ،

ومضت لحظة دون أن ينتبه الصبى إلى أن هذا الصوت قد يكون سببه سقوط القفص الصغير المعلق فى ردهة المنزل الذى تعيش فيه فئرانه العزيزة ، وانفجرت هذه الفكرة كأنها ضوء برق خاطف لمع فى الظلام ، ثم اختفى فجأة ، وأحس الصبى بأن حياة جديدة لا عهد له بها ، وعزماً مفاجئاً لا يدرى من أين مبعثه قد استوليا عليه ، ليرفعاه من سريره ؟ وصرخ فى مكانه ، وأسرعت الأسرة إليه الأم والأب والأخوات وغيرهم ، فرأوا وجهاً مصفراً ، ويدين ترتعشان ، وشفتين تختلجان وبكاء مكتوما لا يستطيع أن ينفجر ، وبعد لأى أدركت الأم أن الطفل المريض قد عرف بحدسه أن الصوت الذى سمع هو صوت سقوط قفص الفئران ، فأسرعوا جميعا إلى حيث وجدوا القفص فى الأرض ، وقطاً غازياً قد تسلل إلى الدار ، ووقف فى عصبية وخوف يدور حول القفص وهو يرى هذه الفريسة الشهية فئران بيضاء سمينة ، لا يدرى كيف يطولها ، فأسلاك القفص لا تسمح له بأن يدخل يده ، وهو يشعر بغريزته أنه فى موقف خطر ، وأن عليه أن ينهى مجازفته سريعاً ، فلما شعر بدنو أهل الدار جرى فى حيرة وهو يتخبط بين الجدران باحثاً عن منفذ ! وحمل القفص إلى الصبى فرأى الفئران فى حالة من الاضطراب ، جعلها لا تستقر فى قفصها تروح وتغدو ويصطدم بعضها ببعض ولم يطق الصبى المريض أن يرى هذا المنظر ، فأغمض عينيه ، وهو يكاد يختنق بالخوف على أصدقائه الذين كان يحبهم حقاً !

وفى هذا الوقت نفسه كان الصبى قد بدأ يربى « دودة القز » بنجاح ، فهو يرى الدودة وقد تحولت إلى شرنقة ورأى الفراشة ، وهكذا دواليك وأدرك أنه يجب أن يقتل الفراشة حتى لا تقطع الخيوط الحريرية حينما يكمل ميلادها وتود أن تنطلق ، ولكن صعب عليه أن ينفذ الجزء الباقى من وضع الشرنقة فى ماء ساخن ، وأن يبدأ فى سحب الخيوط الحريرية البالغة غاية الدقة والرقة .

ومن غرائب ذكريات تلك الفترة أن الصبى بقى أعواماً يعتقد أنه كان إلى جوار بيته بيت قديم مبنى على الطراز الإسلامى الذى بنيت عليه دور أخرى فى القاهرة كدار السحيمى والسنارى وعثمان الكاشف المجاور لمدرسة السنية ، وأن هذا البيت القديم كان مهجورا ، وأن من بين حجراته ، حماماً مزيناً بالنوافذ الزجاجية الملونة التى فى سقفه ، والتى تسكب فيه ضوءاً جميلاً خاصاً بهذا الطراز من الحمامات وما أكثر ما رأى الصبى نفسه بعين الخيال أو بعين الذكرى ! فى هذا الحمام ينظر إلى

السقف ، ويسلم نفسه للإحساس الغريب يغمره وهو ينظر إلى النوافذ الزجاجية ، ثم ينتقل من هذا الإحساس المريح المنعش إلى شعور من الأشمئزاز ، والانقباض ، وهو يرى الأحجار المتساقطة ، بفعل الزمن من أسقف وجدران هذه الدار القديمة ، وما اختلط بها من أقذار الناس الذين اتخذوا من هذا المبنى الأنيق الجميل مرحاضاً دون أن تأخذهم رحمة بهذا العمل الفنى الذى ، يدل على مهارة صانعه وحسن ذوقه ، ولطف إحساس صاحبه ، والترف الذى كان يعيش فيه .

ولكن أهل الصبى جميعاً لا يؤيدون أنه كانت إلى جوار المنزل الذى فى شارع الخليج دار بالصفة التى يرويها لهم .

أكان ذلك كله خيالاً ؟ ولكن ما سر انبعاث هذا الخيال فى رأس الصبى ؟ وما سر ملازمته للصبى أعواماً بعد أعوام ؟

آن للصبى أن يرحل عن شارع الخليج وداره فى شارع الخليج إلى شقة بعمارة لا يفصلها عن دار الخليج إلا صف من المنازل ، أزيل بعد ذلك بأعوام فأصبح الشارعان شارعاً واحداً ، وكان يمكن أن تبقى الداران ، دار الخليج ودار شارع السيدة زينب متناظرتين ، تنظر إحداهما إلى الأخرى ، وتقول لها : بفضل هذا الصبى أصبحنا متكاملتين : إحدانا تفضى إلى الأخرى لولا أن يد الدهر أبت إلا أن تزيل الدار الأولى ، وأن تعفى على آثارها ، وأن تقيم مكانها داراً للسينما إحدى مفاخر العصر الحديث ، وإحدى آفاته أيضاً ، ويقتضينا المنطق أن نبدأ الحديث عن دار شارع السيدة زينب ، بصاحبها زعيم الحلاقين وحلاق الزعماء .

والحق أن الصبى لم يحترم أيام صباه أحداً كما احترم هذا الحلاق الزعيم أو حلاق الزعيم ، أو زعيم الحلاقين .

فقد كان المنزل الذى يملكه بمقاييس تلك الايام شيئاً ذا قيمة ، يتكون من خمسة أدوار بعشر شقق ، وكانت العمائر ذات الأدوار المتعددة والشقق الكثيرة أمراً نادراً فى تلك الأيام ، وقد بدأت تظهر العمائر فى المناطق التجارية ، ولغير أغراض السكنى ، فقد كانت هناك مثلا عمائر الخديو عباس التى أقيمت فى شارع عماد الدين ولا تزال قائمة إلى الآن ولكن أن تكون هناك عمارة بهذا الارتفاع فى حى سكنى محض ، وفى

حى محافظ كحى السيدة زينب ، وعلى مقربة من ضريح أم العواجز ، وأم هاشم ، وحفيدة الرسول ـ فأمر غريب غاية الغرابة .

ولكن الأمر الأكثر إثارة للدهشة ، هو الرجل الذى بنى هذه العمارة فى تلك الأيام ، فالحلاقون لم يعرف منهم آنذاك من يستطيع أن يجمع المال الذى يعينه على أن يملك هذا المبنى الفريد ، ولكن صاحب المبنى لم يقنع بهذا التفرد بين زملائه ، بل زاد عليه أنه بعث بأولاده جميعاً إلى المدارس يتعلمون العلم ويتهيئون لأن يكونوا أطباء وقضاة ومحامين ! ثم بقى فى جعبة هذا الرجل المجدد شىء أكثر طرافة ، وأكثر استحقاقا للاحترام : ذلك أنه بعث بابنته الوحيدة إلى مدرسة السنية فأكملت التعليم فيها ، ثم بعث بها إلى مدرسة المعلمات ، ولم يكن الآباء ينظرون إلى إرسال بناتهم لتحصيل العلم ثم تلقينه نظره رضا واطمئنان إلا أن يكونوا على قدر من الشجاعة يخرجهم من نطاق أمثالهم وأشباههم .

ولذلك لا يزال الناس يذكرون هؤلاء الآباء الذين سبقوا جيلهم ، فعلموا بناتهم ، فخرجت منهن المدرسة والطبيبة والكاتبة ، وفى مقدمة هؤلاء بلا جدال الكاتب الشاعر القاضى حفنى بك والد المجاهدين مجد الدين وعصام الدين ناصف ، ووالد ملك حفنى ناصف باحثة البادية ، وكوكب الطبيبة وأختها حنيفة ، ثم تبعه الأستاذ أحمد الصدر المحامى الوطنى الذى علم بناته ، فكانت منهن ودودة ودولت وكلتاهما بلغت أعلى وظائف التربية والتعليم فى مصر والخارج ، ثم الدكتور السعيد الذى كانت من بناته كريمة وعظيمة وأمينة السعيد ، ثم والد مفيدة عبد الرحمن المحامية ، وأختها كبيرة طبيبات وزارة التربية والتعليم .

ولكن لا يزال الحاج طه فى ذاته شخصاً فريداً ، فقد كان بيته يضم عشر أسر لكل أسرة رب ، وفى كل أسرة أولاد وبنات ، ومن هنا كانت العمارة تموج بالحركة من الصباح إلى المساء ، وكان كل فرد من سكان العمارة ينادى على أحد ما فى مناسبة ما ولو مرة فى السنة ، أو يسمع له صوت قهقهة ، أو سعال ، وهو صاعد أو هابط ، إلا شخصا واحداً لم يره أحد عند صعوده أو عند هبوطه ، وقد رآه الصبى مرة واحدة على السلم لم تعزز بأخرى، فرآه يصعد متسللاً لا يسمع لخطاه وقع كأنه لص ينتظر اللحظة التى يستطيع معها أن يدخل إلى شقة بعينها مع قبح هذا التشبيه ، وإن كان

هو أقرب الصور إلى بيان هذا الرفق البالغ ، والاحتشام المسرف من هذا الرجل الحيىّ .

وصعد الصبى إليه يوماً ليزوره مع والده ، وكان الصبى فى العاشرة أو الحادية عشرة من عمره ، ولكن كان عهده باللطائف المصورة ، المجلة المصورة الفريدة فى ذلك الوقت قد قدم وكانت قدرته على قرءاة الكتب والصحف قد توطدت فعرف ممن عرف من ساسة أوروبا الرئيس الفرنسى « كليمنصو » كبير وزرائها إبـان الحرب العالمية الأولى ، وكان من سماته الجسمية رأس كبير أصلع ، ولما كان الحاج « طه » متمتعاً بهذه الخصائص فقد خيل إلى الصبى أنه فى حضرة « كليمنصو » .

فقد رأى رجلاً طويلاً هادئاً إلى أقصى الحد ، مؤدباً خفيض الصوت ، يتكلم فى أناة وكأنه يفضى بتصريح خطير إلى صحفيين أذكياء ألباء يتربصون به المزالق ا والعجيب أنه تحدث عن الحرب العالمية الأولى ، وقال كلاماً عن الألمان والفرنسيين مما أكمل الاحساس لدى الصبى بأنه كليمنصو حقاً ، ولم يفض الصبى لأبيه بشعوره هذا . ولكن بقى يطوى عليه ، ويذكره بين الحين والحين ، ويحمل معه احتراماً لهذا الرجل .

وفى ذات يوم سار الصبى فى شارع خيرت ، فرأى دكان الحـاج طه ، وقـد انسدلت على بابه هذه الخيوط التى تنتظم حبات من الخرز الكبير الملون أحمر وأخضر وأزرق وأصفر ، وهى حبال ألف الحلاقون أن يستعملوها بديلاً عن الباب المغلق . فتحقق للناس فى الداخل الستر ، وتحول دون دخول الذباب الثقيـل ، ولا تمنع الهواء .

رأى الحـاج طه وفى يـده المقص وهو يحلق شعـر رأس ، فـراح فى خـواطـر متشابكة . أهذا الرجل الوقور المحترم الشبيه برئيس وزراء فرنسا يتواضع إلى حد استعمال المقص والفرشاة ، ليزين رءوس الناس وقال لنفسه : أأستطيع أن أدخل إلى هذا الحانوت ، وأجلس على كرسى من كراسيه ، فيكون لى شرف الحلاقة ، على يد حلاق الزعيم الكبير ؟ . ثم ماذا يفعل الزعيم حينما يخلو به حلاقه : أيطأطىء الرأس امتثالا لأمره ؟ وهل يدير الرأس يميناً ويساراً ؟ ثم كيف لم يتزاحم الناس على حانوت الحاج طه لتلمس رءوسهم وشعورهم الأنامل التى تلمس رأس وشعر الرجل الذى أحبوه حتى العبادة ؟

بيت الزعيم الحلاق

تحدث الصبى الذى نروى له ، ونروى عنه ذكريات صباه فقال :

لم أكن أعرف أن لبيت الحاج طه الذى أقمنا فيه سنين دوراً كبيراً ومؤثراً فى حياتى حتى اليوم الذى جلست فيه أستعيد أيام صباى ، وانبعثت من الذاكرة شوارد الذكريات أجمع ما تناثر من فتات أحداثها . وقد تعاظمنى أن يكون لهذا البيت الذى كان يملكه حلاق الزعيم ، أو زعيم الحلاقين ، أو الحلاق الزعيم ، كل هذا الأثر الباقى ، وأنا غافل منه ، غير مدرك لمقامه ،فتبينت أن شخصية الإنسان كطيات الثوب ، يعلو بعضها بعضاً ويخفى بعضها بعضاً ، حتى كأن ما اختفى قد زال من الوجود وانعدم ، وهو فى الواقع حى يتحرك وينتج ، فإذا سدت فى وجهه المسالك ، واشتد ظلم الناس له ، وتجاهلهم إياه آثر أسلوب التخريب والتدمير ، ليعلن عن وجوده ، لينتقم من ظالميه ، ولعل هذا بعض ما قال«فرويد»فى تبريرما يستتر فى خبايا العقل الإنسانى ، من ذكرياته وتجاربه المؤلمة هرباً من الضوء وخجلا من المواجهة أو كرها للعلانية ، فاذا طال الأمد بدأ يفعل فعل النجار ، يبحث عن نقطة ضعيفة فى قشرة الكرة الأرضية ليمزقها وينطلق منها فى صخب مدمر وضجيج مخرب .

ولكن ذكريات الصبا فى بيت الحلاق الزعيم ، ليس فيها ما يخجل ولا يحزن ، بل حتى لا تضيق له النفس ، فإذا كان قد غبن فعملا بقانون الحياة البشرية الذى يغبن بعض الفضلاء لغير علة مفهومة حتى ينصفهم الدهر ، بعد حين وهم أحياء ، أو بعد حين وهم موتى

ويقول الصبى :

لقد جرت لى فى هذا البيت أمور غريبة إذا قيست بمقياس الصبا وما يصح أن يقع فى أيام الصبا للصبيان ، وفريدة إذا قدرت الشخصيات التى تعرفت عليها خلال تلك الأيام وماكان من أمر هؤلاء فى حياته وحياة الناس بعد ذلك .

عرفت إبان أقامتى فى ذلك البيت الفريد الذى يملكه شخص فريد « أحمد سالم الذى » كان آنذاك تلميذاً بالمدرسة الخديوية ، أشهر مدارس مصر الثانوية وأقدمها جميعاً ، وأحمد سالم قام بدور فى الحياة العامة ، طياراً وممثلاً ، ومغامراً وصاحب قضايا ، ثم تعرفت بشاب كان صاحب دور غريب جدا فى الصحافة والسياسة لم تكتب له الشهرة التى كان يطمح لها ، ويعمل لها ، ويحلم بها . ولم يكتب له النجاح الذى كان يؤمن بأنه يستحقه ولا المركز العظيم الذى كان يقول بلسانه وبكل جارحة فيه إنه إذا لم يسع المركز إليه ، ويرجُه أن يعلو هامه ، ويرتقى سنامه ـ ركله بقدمه ، وأدار له ظهره . . ولم يكن هذا الشاب سوى عبد الرحمن العيسوى .

ثم عرفت الأستاذ « حافظ محمود » وكان بيته على مقربة من بيت الحلاق الزعيم أو الزعيم الحلاق لايفصله عنه سوى بيت أوبيتين ، وكان قد فرغ لتوه من تأسيس جمعية القلم . وبدأ يلقى خطبه وأحاديثه علينا ، فرأينا لوناً جديداً من الخطابة فيه من توفيق دياب أشياء ومن منصور فهمى وحافظ رمضان وسعد زغلول شىء ، والباقى كله لحافظ محمود ذاته .

وعرفت فى ذلك البيت نفسه شباناً صغاراً ، غابوا فى زحمة الحياة ، ولم يطف على سطحها منهم قليل أو كثير ، ومع ذلك بقيت وفياً لذكراهم ، أستعيد ما كان منهم ، من قول وفعل ، فأضحك فى وحدتى فى أنس وراحة بال ، حتى تدمع عيناى ، وأذكر ما كانوا يعانونه من مشقات الحياة وشظفها ، ومن قلة وفائها وكثرة جحودها ، فأبكى لهم وأرثى لحالهم .

وكيف أنسى الأستاذ « بدر » الذى كان يجلس معه أنداد له فى سنه ، وهم جميعاً يرتدون جلابيبهم تعلوها جاكتات ويسندون مقاعدهم إلى جدار المنزل على الرصيف الذى فوقه بيتنا العتيد ، ثم يتكلمون فى السياسة والأدب والطب والتاريخ واللغة

ويروون الفكاهات ، ويتندرون على المارة دون أن يجرحوا إحساساً أو يخرقوا قانوناً أو يؤذوا سمعاً !

وكان من بينهم«محسن»الضخم السمين ، الطيب الذى عاد من أوربا دون أن يحصل على شهادة مكتفياً بآلة تصوير كانت بمقياس أيامنا ثروة لا يستهان بها ، فقد كانت تصور الصور فى حجم « كابينت » وهو حجم يساوى ضعف«الكارت بوستال» فكان يحمض الصور ويخرجها ، وانضم إلى جمعية رحلات ضمت طالباً فى مدرسة الحقوق ، كان جديراً بأن يكون محامياً متفوقاً ، فقد كان جهير الصوت ، خفيف الظل حاضر البديهة ، يضع على رأسه عمامة فيتلو القرآن كقارىء متمكن قوى الأداء ، حلو النبرات ، ثم يخلع العمامة ويتربع على كرسى ليتلو شعراً من طراز الشعر « الحلمنتيشى » الذى كان ينظمه حسين شفيق المصرى ، وبيرم التونسى مقلداً المعلقات وقصائد الكبار ! ثم يضع حول وسطه شالاً فيرقص ، ثم يختم هذا النشاط كله ، بخطبة يرتجلها ، فيأتى فيها بالقول المحكم والعبارة الرصينة وإن كانت كلها هذراً وسخرية بالناس والأشياء .

ولكن هذه المواهب كلها قبرها صاحبها فى وظيفة معاون إدارة فى الفيوم ، وقد أدهشنا أن فتاة من أصل شركسى جميلة وميسورة الحال تعيش فى حينا قبلت أن تتزوج هذا المهرج مع أن والدته كانت تسير فى الشوارع المحيطة بنا بالملاءة والشبشب ! وزادت دهشتنا أن حياتها الزوجية كانت سعيدة ؛ فإن زوجها كان معاون إدارة ناجحاً ، ينسى كل مواهبه على عتبة مكتبه الحكومى ، ويضع على وجهه نقاباً من الوقار والصرامة ، فاستطاع أن يرتقى الدرجات الحكومية واحدة فى إثر الأخرى .

ولكن لو اطلعنا على الغيب مارأينا فى أيامنا فى ذلك شيئاً من الغرابة ، فقد أسندت الآن وزارة التربية إدارة مدارس كبيرة لها لممثلين فكاهيين فى بلادنا ، لا يعرضون نشاطهم فى الحفلات الخاصة فقط ، بل فى كل بيت عن طريق الشاشة السحرية التى اسمها« **التليفزيون** » باللاتينية « والمرناء » بعربية المجمع اللغوى !

على أنى لن أحدثك عن كل الشخصيات الكبيرة التى مرت فى بيت زعيم الحلاقين إلا بعد أن أحدثك عن الشخصيات الثانوية أولاً :

وأولى هذه الشخصيات بالحديث هو الأستاذ بدر الذى كنا نجهل نحن الصبيان

وظيفته ولا المصلحة أو الوزارة التي يعمل فيها ، ولا الدرجة أو المرتبة التي وصل إليها ، وإنما كان يبدو لنا أنه مرجعنا فى شئون الثقافة والكتابة ، وكان يعاملنا ببساطة لا يتعالى علينا ، ولا يدعنا نألفه أكثر مما يجب . لقد كان له فضل على عظيم ، ذلك لأنني مدين له بأول سطور تنشر لى مطبوعة وممهورة باسمى الثلاثى الذى اختفى منه الاسم الأول بعد سنوات من الصبا !

وجملة الحكاية أن مجلة ظهرت تحمل اسم «الصور المتحركة» ، وكان ظهورها آنذاك فى حياة الصبيان أمثالى ، بل فى خياة الشبان الذين يكبروننا حدثاً يروى ويذكر ويؤرخ : ذلك أن السينما كانت لنا متعة وسحراً ، ومصدراً للإلهام ، ومدرسة نتعلم فيها فنون الشر ، وبعض أعمال الخير . فأصبحت أسماء الممثلين ولاسيما أبطال المسلسلات مثال : أيدى بولو ، ودوجلا فيرابنكس ، وآرت أكورد ، دع عنك مسلسلات القوة مثل : ما شيست البطل الهرقلى الذى يصرع الرجال ، ويخلب ألبابنا بقوة بدن رائع وجميل ومتناسق ، وطرزان الذى علمنا من التاريخ الطبيعى ، وشئون الغابة ، وصور الأدغال ــ ما أعجز التاريخ الطبيعى ودروسه أن يلقننا إياه فأذا أضفت إلى هذا كله حلقات المضحكين والمهرجين الذين لم يسمع أبناء الجيل الجديد من أسمائهم إلا باسم « شارلى شابلن » لأنه عمر فوق ما يستطيع العاديون من الناس ، أما « زيجوتو » و « هارولد لويد » . ولارى سيمون الذين لم يأت الزمن بأشباههم ، والذى لم يلحق بغبارهم « لوريل وهاردى » وإخوان ماركس ، « ولويس دى فنيس » والمهرج البريطانى « نورمان ويزدوم » فهؤلاء حرم أبناء هذه الأيام لذائذ وطرائف فنهم .

ومن أجل ذلك كانت مجلة الصور المتحركة امتداداً لحياتنا فى السينما ، فكان يسكرنا ، ويدير رءوسنا أن نجد بين أيدينا مجلة تنقل إلينا صور الممثلين وأنباءهم ، وتجعلنا على علم بزواجهم وطلاقهم ، وشرائطهم التى مثلت ورأيناها ، وشرائطهم التى مثلت ولم نرها ، لقد استطاعت هذه المجلة ، أن تفطن إلى ما لم تفطن إليه الصحافة المصرية إلا بعد أجيال إذ فتحت صفحاتها لأقلام قرائها ، وأقامت منبراً خطيراً وحرًّا يقترحون فيه ويعترضون ويناقشون .

وكان من بين الموضوعات التى طرحتها مجلة الصور المتحركة هى «السينما الناطقة» وكانت هذه السينما التى تتكلم وتغنى ، وتسمعنا فرقعة البنادق ، ودوى

القناديل ، وهدير المدافع ، وزئير السباع ونباح الكلاب ، ووقع القبلات ، وهمس المحبين والمحبات ــ كانت هذه السينما بكل سحرها الأخاذ ، وجوها الفتان ــ غيباً من الغيب . ولكننا كنا نسمع أنباء إرهاصاتها ، فسألتنا مجلة الصور المتحركة : هل نحن من أنصار السينما الناطقة أو خصومها ؟ ولما كنت عاشقاً من عشاق فن « شارلى شابلن » لا أقدم عليه بطلاً من أبطال الضرب واللكم والقفز على ظهور الخيل ، وكنا قد سمعنا أن شارلى العظيم ضد السينما الناطقة ، وأنه قال : إن نطق السينما يذهب بسحر صمتها ، وإنه يحد من عالميتها ؛ إذ تخاطب السينما الصامتة الناس جميعاً باللغة الإنسانية الخالدة : الإشارة تصدر عن اليد ، وتصدر عن الفم ــ فقد اعتنقت هذا المبدأ ، وجلست أكتب سطوراً ، تعبر عن اقتناعى «لا عن قناعتى » ، وأسرعت إلى أستاذنا بدر فالتمسته فى مكانه على الرصيف ، فوجدته بجلبابه ، وجاكتته على كرسيه ، وعرضت عليه سطورى فابتسم الأستاذ الذى وجد أول ثمار غرسه . ولم يكن يزعجه أن تكون هذه الثمار فجة غير ناضجة . مرة غير حلوة ، فقد كان يعلم أنها البداية ، إذ اكتفى بأن أدار عينيه فيما كتبت ، وأضاف كلمة هنا ، وحذف حرفاً هناك ، ثم قدم وأخر ، وتبرع لى بجملة ضخمة لم يكن علمى باللغة قد ارتقى إليها ، فضمنها هذه السطور المتواضعة ، فأصبحت مقالاً صغيراً ، ثم أرسلتها إلى المجلة بشارع محمد على ، بعمارة فى مواجهة دار الكتب فى البريد ، ولم يمض أسبوع حتى كانت مجلة الصور المتحركة فى يدى وفى يد كل صبيان الحى ، يحدقون فيها قبل أن يقرءوها ثم أخذوا يقرءونها ، ثم يستعيدونها ، وذهبت إلى الأستاذ بدر فالتمسته فى الأصيل فى مكانه على الرصيف فى جلبابه وجاكتته ، فأمسك المجلة ، وتصفح ما كتبه وعلى شفتيه ابتسامة رصينة تليق بأستاذ ، وهنأنى إذ كنت سعيد الحظ بنشر هذه السطور غير القليلة فى رأس الصفحة ، قبل أى كلمة أخرى مماثلة ، وسرنى أننى لم ألمح فى كلامه أثراً ولو خفيفاً من الغيرة ، وكثيراً ما يغار الأستاذ من تلميذه وخصوصاً إذا عق التلميذ أستاذه صاحب الفضل عليه !

ولقد كان لهذه السطور أثران : أولهما أن مربياً فاضلاً عائداً من انجلترا لتوه ، وقد حدثتك عنه فى موضع تسابقْ زارنا ، فقدمت له المجلة فقرأها ، والتفت إلى وقال : أكل هذه السطور لك ؟ فأرضى هذا السؤال كبريائى «أكل هذه السطور لك ؟»، إذ معنى هذا أنها سطور كثيرة ، ولما كنت أبعد الناس عن عالم المطابع

والسطور ، ومعايير الشهرة والقيمة ــ فقد صدقت هذا السؤال المنطوى على مديح عظيم .

أما الأثر الآخر فقد تمثل فى أن هذه السطور نقلتنى من نطاق التفكير إلى مجال الحركة ؛ فقد ذهبت وحدى دون أن يصحبنى أحد إلى مقر مجلة الصور المتحركة وشعرت بسعادة لاتقل عن سعادة « خروستوف كولمب » حينما وصل إلى جزر الهند الغربية التى حسبها جزر الهند الشرقية ، حينما اهتديت إلى مقر المجلة ، ولم يكسر خيالى ولم يصبنى بخيبة أمل حينما اكتشفت أن مقر المجلة كله ، تحريراً وإدارة وتصحيحاً وإخراجاً ، هو أقل من حجرة ؛ إذ لم يزد عن أن يكون «قاطوعاً» خشبياً به ألواح زجاجية من الزجاج « المصنفر » ، وأن هذا الجانب المقتطع من الحجرة لا يضم سوى مكتب واحد ، وراءه مقعد واحد ، ويعلو المكتب أكداس من الورق !

وكدت أحرم التشرف بمقابلة صاحب المجلة العزيزة ومحررها لولا أننى استطعت أن ألحق به وهو يهم بإقفال الإدراة متأبطاً مجموعة من الصحف والمجلات . . ثم استطعت أن أختلس نظرة إلى داخل المكتب وأن أرى بساطته التى أسكرتنى وأسعدتنى أضعاف ما أسعدنى بعد ذلك بسنين أن أجول فى المكاتب وطرقات جرائد العالم الكبرى : الديلى تلجراف ، والديلى هرالد ، والتيمس نفسها فى شارع « فليت ستريت » بلندن ، ودار وكالة الأنباء البريطانية « رويتر » التى فى عمارة بذاتها .

وقد بلغ من استغراق هيام الصحافة والسينما لى أن فرحتى بهذه المناسبة لم تقل ولا بمقدار خردلة حينما رأيت أن صاحب المجلة المرموقة كان يرتدى نفس الزى الذى يرتديه أستاذى بدر على رصيف شارع السيدة زينب : الجلباب والجاكتة .

وكان صاحب المجلة فى ذلك اليوم يعانى من عملية جراحية صغيرة فى عنقه لعلها أجريت له لفتح « خراج » فقد كانت الأربطة الطبية حول عنقه ؛ مما جعل إدارته لعنقه صعبة ، فكان يحدثنى من زوايا غير مألوفة بين المتحدثين عادة ، تقليلاً لحركة العنق ، فخيل إلى أن كل هذا من مستلزمات العظمة الصحفية ، فإن يكن صاحب الجريدة مصاباً بجرح ، وإن يكن حول الجرح أربطة طبية ، وإن يكن تحت ذراعه حمل مجلات وصحف ، وإن يكن حديثه معى مقتضباً ــ فهذه هى سمات العظمة وخصائصها . وقد بلغت نشوتى قمتها حينما ذكرت لأول صحفى أراه فى

حياتى على عتبة مقر الجريدة التى سعيت إليها بنفسى ، غير معان ولا مصحوب بأحد ــ اسم ممثل فكاهى أمريكى هو « فاتى » . فقد بادرنى بالقول بأنه لن يكتب عنه حرفاً واحداً لأنه صدر ضده حكم من محكمة فى بلاده ، لتهربه من أداء الضرائب ، ولم أفهم ساعتها أكثر من هذا الكلام ، فالضرائب لم تكن معروفة فى بلادنا بفضل وجود الامتيازات الأجنبية التى كانت تحمى الأجانب من دفع ضرائب الدخل بأنواعها والإيراد العام ، فأعفى المصريون مساواة لهم بالأجانب ، ولكن الصحفى الأول فى حياتى قال : نحن نهتم بالأخلاق !

وإنى أدع لك أن تتصور مدى فخرى واعتزازى بصاحب المجلة التى نشرت لى أول سطور فى حياتى ؛ لأنه لا يكتب عن السينما فحسب ، بل يحرص على الأخلاق ، لو عرفت يومها ماذا يفعل الناس فى العالم كله ، ليفروا من أعباء الضرائب ــ لاعتبرت أستاذى الجديد قديساً لشدة حرصه على حقوق الخزانة العامة فى أمريكا لا فى مصر ؟

ولكن بقيت لهذه السطور الأولى فى مجلة الصور المتحركة آثار ظهرت بعد ثلاثين عاماً من ظهورها . ذلك أننى بعد سنين طويلة أسندت إلى أمور وزارة ما ، لفترة كان فيها وزير الوزارة الأصل فى الخارج ، فلما عاد إلى بلاده ، رأيت أن نمر معاً على مكاتب الموظفين ، أنا أودِّع وهو يُحيى .

وفرغنا من زيارة المكاتب الفاخرة ، مكاتب الوكلاء فمكاتب الوكلاء المساعدين فالمديرين حتى نزلنا إلى الحجرات الأرضية التى نسيمها البدرون ووجدت فى ركن من أركان هذه الحجرات شخصاً ارتبك لمرآى ، ثم ابتسم ثم صافحنى ، وفى الحال رأيت ذكريات ثلاثين عاماً ، تتدفق على متدافعة ، متزاحمة كسيل اكتسح أمامه سدًّا . . . فلم يكن أمامى سوى أستاذى « بدر » صاحب الفضل على فى أولى خطواتى فى طريق الكتابة والنشر فى الصحف والمجلات .

وأرجوك أن تعفينى من محاولة ــ مجرد محاولة ــ وصف مشاعرى فى هذه اللحظة : ولكن المرور على الموظفين كان سريعاً ، وكنت مرتبطاً بزميلى ، فخرجت من الحجرة ، وأنا أكاد أتعثر أو أنكفىء على وجهى من فرط الانفعال !

وفى اليوم التالى ذهبت إلى مكتبى الأصيل فى الوزراة ، فجاء من أخبرنى أن بالباب ساعياً يحمل إلى خطاباً من وزارة أخرى ، وأدخلت الساعى ، وأخذت

الخطاب الذى كان يحمله ، والذى جاء لينقله إلى ، فماذا تظن فحوى هذا الخطاب ؟

إنه أولاً من الأستاذ « بدر » وكانت هذه وحدها كافية ؛ لتجعلنى هدفاً لانفعالات لا أقوى على احتمالها ، وكان الخطاب أخيراً يتضمن طلب قرض مبلغ عشرة جنيهات ، ومعه صك بهذا المبلغ وتعهد بسداده أقساطاً !

لست أدرى أى شيطان ألقى فى وهمى أن التعامل على هذه الصورة لا تسمح به واجبات الوظيفة ولا ظروفها ، وصرفت الساعى ، ولم أرسل المبلغ المطلوب ، ورددت بطبيعة الحال الصك ، بل رددت معه الخطاب ذاته فى ظرف جديد .

ثم جرت الأحداث بشدة غير عادية ، فنسيت تماماً هذا المطلب الإنسانى البسيط ، فلما ذكرته كانت أيام وأسابيع كثيرة قد مرت ، ومرة أخرى لم أجرؤ على الاتصال بالأستاذ « بدر » والجلوس معه ؟ كما كنا نجلس على رصيف الشارع ، لأعتذر له ، وأستعيد ذكريات سنين سعيدة . وعشت بعد ذلك لا أذكر هذه الواقعة إلا أحس بالألم بل الخزى !

ولعل إطالتى الوقوف أمام هذه الذكرى المحزنة نوع من تعذيب النفس ، شعوراً بالإثم . على أن مجلة الصور المتحركة ، وسطورها لم تكن التجربة الصحفية الفريدة فى أيام صباى ،إبان إقامتى فى بيت « الحلاق الزعيم » فقد كنت من قراء مجلة «النديم الروائى» التى كان يصدرها أحد أفراد أسرة صروف وهم أصحاب جريدة المقطم ، وقد بدأت صلتى بها فى أثناء إقامتى فى بيت شارع الخليج الذى أسميه « بالخليج العاشق » ، وقد كانت مجلة النديم الروائى ، تنشر مسلسلة بوليسية لكاتب مصرى بقى من اسمه فى ذاكرتى لقبه « خيرالله » . أما سائر القصص التى كانت تنشر فى هذا النديم الروائى ، فكانت مترجمة ، وفى ذات أصيل قصدت إلى مقر النديم الروائى ، فى شارع متفرع من شارع محمد على ، ولعله أول شارع فرعى بعد العتبة الخضراء فى طريقنا إلى القلعة . . وقد كانت إدارة متواضعة على الرغم من انتساب صاحبها إلى أسرة أثرت ثراء فاحشاً من الصحافة والاتجار بها فى دنيا السياسة ، ولاسيما دنيا سياسة الاستعمار ، فلم يزد مقر الجريدة على بيت ، فى أسفله المطابع ، وفى جانب منه سلم خشبى يؤدى إلى شرفة خشبية معلقة فوق المطابع ، يؤدى إليها

هذا السلم ، وفى هذه الشرفة مكاتب التحرير ، وتهبط أصول المقالات ، وتصعد التجارب عن طريق سلة مربوطة بحبل ، يشده رئيس التحرير ومعاونوه ويرخونه ، فيتم الاتصال بين عالمى التحرير والطباعة فى يسر وسهولة . كان الكاتب « خير الله » هو المثل الذى نرجو نحن الصبيان ، قراء النديم الروائى أن نحاكيه ، ونتأسى به ، لنصل إلى مقامه الرفيع ومكانه العالى . وفى اليوم الذى زرت فيه دار النديم وقفت أتحدث مع صاحب المجلة وكاتبها الأول فى الشارع أمام مقرها وذكرت بالتجلة والاحترام الكاتب المصرى الذى كان يكتب سلسلة المفتش « ماكنتوش » ولم نسترسل طويلاً فى الحديث حتى أهل علينا شاب ـ يكبرنى بسنين ـ يرتدى جلباباً « أبيضاً » وفوقه جاكتة ولم أكن أتصور أنه صاحب هذه السلسلة العظيمة ، ولكنه اقترب منا وحيا ، فحسبته أول الأمر أحد المعجبين بالمجلة من قرائها ، ولذلك كانت سعادتى لا توصف حينما رأيت ـ بعد أن تمت عملية التعارف بين القارىء والكاتب ـ أنى أضع يدى فى يد كاتب مرموق نقرأ له الصفحات ، وننتظر العدد القادم ؛ لنتابع الأحداث المدهشة التى يرويها لنا .

وبقيت أياماً لا أخلو إلى نفسى حتى تقفز من مكان ما من خيالى صورة خير الله قادماً من بعيد ، والهواء يعبث بذيل جلبابه ، وعلى شفتيه ابتسامة الثقة بالنفس والنجاح !

ولقد كانت مجلة النديم هى أولى المجلات التى قبلت أن توجه إلى خطاباً ، فقد أرسلت إليها شيئاً ما للنشر فأرسلت إلى «كارت بوستال» كانت تعده مصلحة البريد وعليه طابع بريد يغنى عن شراء « الكارت » ، ثم شراء الطابع ، وقد تفضل المحرر بتسميتى الأديب الفاضل ، ووقع باسمه الكريم « صروف » ولكن أحد أهل البيت تلقى البطاقة ، فضحك ملء شدقيه وقال لى : خروف . . أرسل إليك خطاباً !

وقد كانت هذه الملابسة المؤلمة جديرة بأن تنقص كثيراً سعادتى بوصول البطاقة ، ولكن البطاقة نفسها كانت قادرة على أن تنسينى كل شىء سواها ، فقضيت وقتاً سعيداً حقًا ، فلما نشرت لى النديم الروائى فى آخر صفحات عدد من أعدادها ، وفى ذيل هذه الصفحة خمسة عشر سطراً ، بعنوان : هل تعرف ؟ . . . وأوردت فى هذه السطور حقائق لم أكن أعرفها أنا بطبيعة الحال ؛ لأنى نقلتها من هنا وهناك ولكن سعادتى بنشرها لم تكن توصف .

شخصيات ونماذج

قال صاحبنا الذى نحكى قصة صباه والذى نروى عنه ما سمعه ورآه :

أرى نفسى بعد نصف قرن من الزمان بعين الذكرى على سطح المنزل الذى كنت أسكنه ، بشارع السيدة زينب غير بعيد من ميدان ضريحها وجامعها الشهير ، فأرانى واقفاً فى جلباب فى حين جلس على سور بهذا السطح صبى مثلى أكبر منى ببضع سنين ، وقد ارتسمت على شفتيه علامة اشمئزاز خفيفة ، عرفت فيما بعد أنها لازمة من لوازم أهل المال أو الشهرة أو المكانة ، تعبر عن برمهم بالناس ، وإحساسهم بالتميز الذى يجعل تحدث الناس إليهم شاقاً فعلاً أو ادعاء . وهذه الحركة شبيهة بما يرتسم على شفتى راقصات البطن فى بلادنا ، وهن يؤدين رقصهن فشفاههن تلتوى قليلاً ، بما يشبه البسمة ، لولا أنها تمتزج بالقرف ، فتدل بمعنييها المتناقضين : الابتسام والاشمئزاز بأنها ترقص لنا ، ولكنها لا تفعل ذلك إلا عن تفضل ، وبعض الناس يرى فى هذا إغراء يزيد من جمال الراقصة وفتنتها .

وفيما بعد حينما كبرت لم أكف عن ملاحظة ظاهرة « القرف » التى يعانى منها المشهورون وأصحاب المكانة ، ولاسيما المحدثون منهم ؛ فإنهم ينطقون بالألفاظ وكأنهم يبصقونها ، وهم يبدءون الجملة ، ولا يتمونها ، وفى عباراتهم القصيرة ، تكثر الجمل الاعتراضية ، وأغلبها جمل تدل على الشك وعدم التيقن وعدم الاهتمام ، وكلمة « يعنى » التى كثرت وشاعت هذه الأيام واحدة من قاموس هذه الطائفة .

وقد وقفت فى ذلك اليوم فى سطح منزل الحاج طه ، أمام « أحمد سالم » الذى جلس على السور يتحدث ـ بأسلوبه ـ عن جماعة أنصار السينما التى أنشئت فى هذا التاريخ المبكر من حياة السينما فى بلادنا . وكان أحمد سالم يعد بين تلاميذ المدارس الثانوية أقرب إلى الأغنياء منه إلى الفقراء وأوساط الناس . وكان يتردد على بيتنا ليزور خالته . وكلما جاء لإحدى زياراته سمعنا لمقدمه دوياً وضجيجاً حقا وصدقاً فقد كانت وسيلته للانتقال دراجة بخارية : وهى « موتوسيكل » أحمر فخم ضخم ، فلم يكن اقتناء السيارات قد بدأ أو عرف بين الأغنياء ، ولم يكن لأولادهم مندوحة عن شراء « الموتوسيكلات » إذا أرادوا أن يشبعوا فى أنفسهم حب الاقتناء والتميز ولا أحسب أن السيارة الفاخرة أشبعت هذه الغرائز بالقدر الذى أشبعها به الموتوسيكل فى أيامه ؛ فالسيارة لا يصدر عنها من الأصوات ما يصدر عن الموتوسيكل والسيارة لا تثير الشعور بسرعتها وانطلاقهامثلما يثير الموتوسيكل ، وكان الموتوسيكل من ماركة « أنديانى » ، علامة تفوق فى مجتمع القاهرة سنة ١٩٢٠ ، وما بعدها لايدانيها ، حتى التمتع بملكية سيارة من ماركة « رولزرويس » فيما بعد ، أو سيارة مرسيدس هذه الأيام.ولذلك كان من حق أحمد سالم أن يتحدث إلى من أعلى السور بلهجة المتفضل ، وأن تزداد على شفتيه الغليظتين علامة البرم بى والضيق بوجودى ، وربما زاد شعوره بهذا أنه لم يبد على أنى مقدر لمزاياه فى حين أن وصوله إلى دارنا بدراجته الغالية الجديدة اللامعة ، وهو يديرها بمهارة وسهولة وثقه بالنفس كان يحمل الأنسات على أن يطللن برءوسهن الجميلة من النوافذ !

فإذا صعد درجات السلم وقفن خلف الأبواب يختلسن النظر إليه ولم أعبر عن إعجابى به ـ علم الله ـ لا عن رغبة فى المكايدة ، ولا عن كتمان لإحساس موجود ، ولا عن غيرة أو حسد ، ولكنى كنت صبيا قليل المعرفة بجوانب الحياة الاجتماعية التى توقفنى على مكانة مثل « أحمد سالم » فى دنيا الوجاهة والفتيات ! ولكن الذى أغراه باحتمال حديثى معه أنى كنت ندا له على صورة من الصور ؛ فقد كنت من رواد السينما النشيطين وكنت فوق ذلك من قراء مجلة الصور المتحركة فعرفت فيها من أسرار وأنباء عالم السينما فى عاصمتها الكبرى « لوس أنجلوس » ما لا تعرفه جماعة عشاق السينما من الصبيان أمثالى ، ولا يبعد أن تكون مجلة « بكتشر شو » الإنجليزية قد وقعت فى يدى مرة أو مرتين . فذكرت اسمها ، فعلا مقامى عند هذا الغنى الشاعر بمقام قوامه اللدن ، وجاذبيته المبكرة للنساء !

ولقد هون عليه الأمر أننى أخطأت خطأ أرضى كبرياءه ، وحفظ له ــ غير منازع ولا مدافع ــ تفوقه على لا بالموتوسيكل ، ولا بكونه طالباً بمدرسة الخديوية الشهيرة ، ولا بغناه ، ولكن بعلمه أيضاً أو قل بجهلى ، فقد اقترحت على جماعة أنصار السينما ، فى شخصه ــ أن تخرج مجلة لتكون لسان حال الأحرار الدستوريين وقد كانت هذه سقطة ضخمة ، وسببها أننى كنت أطالع جريدة السياسة من قبيل الاجتهاد ، وكانت تكتب تحت اسمها عبارة لسان حال الأحرار الدستوريين فحفظت هذه العبارة ، فلما جاء ذكر مجلة أخرى لتكون لسان حال جماعة أخرى ، غلب على ما حفظته ، فرددته بلا فكر ولا وعى فضحك وقفز من السور ، كأنه يقول : إنه لم يعد هناك مبرر لإطالة صبره علىّ .

وشعرت بالإهانة وبقيت زمنا لا يقع نظرى على جريدة السياسة حتى تقفز إلى رأسى صورتى أنا وأحمد سالم ، على سطح المنزل كل منا فى جلباب ، مقرونة بالشعور بالخجل .

ومضت الأيام وراح نجم أحمد سالم يصعد ، فتنقل من طالب فى انجلترا إلى رائد مغامر جسور من رواد الطيران المصرى الأوائل ، وصل فى سنة ١٩٣٠ إلى وطنه على متن طائرة يقودها بنفسه بعد الطيار محمد صدقى ، وفشل الطيار أحمد حسنين الذى أصبح أحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكى ، ثم احتل أحمد سالم مكانة بارزة فى المجتمع المصرى : فتى رشيقاً لايمضى خطوة ، إلا تعلقت به قلوب فتيات وآنسات المجتمع ، وصاحبته أنباء المحلات التى تروى مايدور فى دنيا الوجهاء المتأنقين والأغنياء والمشهورين . واتصلت الأسباب بين أحمد سالم وزعيم مصر الاقتصادى طلعت حرب فأصبح مدير مكتبه ، المقرب إليه ثم أصبح مديراً لاستوديو مصر عند إنشائه سنة ١٩٣٤،فكبيراً للمذيعين فى الإذاعة الرسمية عند إنشائها سنة ١٩٣٥ ، ثم اقترن اسمه بمغامرات السياسة والحب ، فأصبح زوجاً لأمينة البارودى نجمة المجتمع المتألقة ، وحفيدة البطلين محمود سامى البارودى ، وطلبة عصمت من زعماء ثورة عرابى ورفقائه فى المنفى ، وأسمهان المطربة الذائعة الصيت ، ثم الراقصة تحية كريوكا ، وأطلق الرصاص فى هذه المغامرات وسقط فيها جرحى من كبار الشرطة !

وانتهت به مغامراته إلى اتهامه فى قضية عسكرية نسب إليه فيها بأنه ورد للجيش خوذات مزيفة ، وحاكمته المحكمة العسكرية العليا برياسة المستشار سليمان حافظ وحكم عليه بالحبس سنتين ، واقتيد إلى السجن ، سجن مصر ، كنت آنذاك محبوساً على ذمة مقتل الدكتور أحمد ماهر باشا رئيس وزراء مصر .

وفى ذات صباح كنت أتمشى فى حوش السجن فى فترة الراحة ، فإذا بضابط شاب يعدو نحوى ويقول : أحمد سالم يود أن يرانى فهل أسمح ؟ وابتسمت قائلاً لنفسى : منذ متى ، أستأذن فى شىء وأنا فى السجن ، وكل ما يصيبنى فيه من خير وشر لا أخطر به قبل وقوعه ، دع عنك استئذانى فيه ؟ فقلت : أهلا وسهلاً . وجاء أحمد سالم يرتدى قميصاً بأكمام قصيرة وبنطلوناً قصيراً أيضاً مما نسميه الآن « شورت » وحيانى بحماسة شديدة ، وقد ذهب عنه تحفظه ، ثم قال لى كلاماً لا أحسب أننى سمعت تحية من أحد قبل ذلك أو بعده ، أثرت فى نفسى كما أثرت تحيته تلك يومذاك . فقد قال لى : إننى عرفت أكثر الواقفين على مسرح الحياة العامة فى مصر من الصف الأول إلى الصف الأخير إلا أنت . ولقد بقيت زمناً مشوقاً إلى أقصى الحد لأن أراك ، وأتحدث إليك . وأضاف كلاماً آخر موجزاً ومركزاً ولكنه تضمن شهادة مسرفة فى حسن الظن . وعلانى ارتباك ؛ فقد أخجلنى هذا الثناء الذى لم يكن متوقعاً فى هذا الوقت ، ولا فى هذا المكان ، ولقد عهدت فى نفسى أننى حينما أمتحن بمثل هذا الموقف ، أسيء التصرف : فإما أن أسيء إلى نفسى بكلام لا معنى له ولا مبرر ، وإما أن أسيء إلى محدثى بغير داع ولا مقتض ، ولكن الله أنقذنى فسكَت ! ثم وقفنا نتكلم بضع دقائق فقال أحمد سالم كلاماً جيداً إلى أقصى الحد عن سليمان حافظ قاضيه الذى زج به الى السجن ، فقد قال لى :

كان يجب أن يكون سليمان حافظ أكره الناس إلى قلبى ، فقد حبسنى وقضى بإدانتى فى قضية كنت أومن ببراءتى فيها ، وكان الصحفيون الذين يشهدون جلسات القضية يؤمنون بذلك مثلى ، بل أكثر منى ، فلما سمعت حكم الإدانة وقع منى موقع الصاعقة ، لذلك كان المحتم ألا أطيق سماع اسم سليمان حافظ ، وأن يكون الشيطان أحب إلى منه ، ولكنى مازلت على حبى وتقديرى له ، فقلت له : أنا سعيد أن أسمع منك هذا الكلام فهو صديقى ، فبدت عليه المفاجأة وصاح : والله . . !

فلما قلت له : إننا تعرفنا ــ أحمد سالم وأنا ــ منذ خمس وعشرين سنة حينما كنا صبيين ، فتح عينيه وحدق فى دقائق وهو لا يصدق أذنيه !

وجاء الضابط يطلب إلينا أن نتفرق ، فقال له أحمد سالم بثقة : ما هذه الحركات البهلوانية ياحضرة الضابط ؟ دعنا فإن الحديث لم يبدأ ، ولكن الضابط رفض ، وأبدى لذلك عذرا ، وسار أحمد سالم إلى عنبر آخر من عنابر السجن غير عنبرى ، وكان ذلك آخر لقاء بيننا لم نتم الحديث ، ولم نكمل التعارف ، ثم مات بعدذلك ، إثر عملية عادية غير خطيرة ، ولعلها استئصال المصران الأعور ، وغاب عن مسرح الحياة العامة ، وعن مسرح الحياة المصرية بخاصة إلى الأبد . . .

أما الشخصية الثانية التى عرفتها فى هذا المنزل فلم يكتب لها أن تظفر من اهتمام الرأى العام ، وببعض ما ظفر به أحمد سالم ، أو أقل القليل منه ، ولكنه شغل من حياتنا نحن الصبيان فى هذا الجانب من حى السيدةزينب مكانا غير قليل ، وترك أثراً غير ضئيل . . وكان صاحب هذه الشخصيةهومحيى الدين الطالب بمدرسة المعلمين العليا ، استأجر من منزل الحاج طه الزعيم الحلاق الدور الأرضى ، ولكنه لم يلبث حتى فتح باب الحجرة الأولى من هذه الشقة وهو الباب المتصل بباب العمارة العام ، فأصبحت هذه الحجرة بلا إجراءات ولا دعوة ناديا نؤمه ، كلما طاب لنا ذلك وانضممت إلى هذا النادى ، فكان أول ناد أرتاده ، وكان لطالب مدرسة المعلمين العليا زميلان : أحدهما كان طالبا فى مدرسة أعدت لتخريج مدرسى المدارس الابتدائية سميت بالمعلمين الثانوية ، والآخر لم نعرف ماذا يعمل فى الحياة ، وبقيت أجهل صناعته حتى لقيته بعد ربع قرن من الزمان كاتبا فى وزارة الأوقاف ، يشكو إهماله ونسيانه ، ويلتمس المعونة ، ليحصل على حقه ، ومع ذلك كان يبدو لنا هذا الشاب سليل أسرة عريقة ، فقد كان أنيقا ، رقيقا مهذباً ، لا يؤذى أحدا ، أما زميله طالب المدرسة الثانوية للمعلمين ، فقد كان حريصا على وقاره عظيم الاعتداد بنفسه ، وكان مصدر هذا الاعتداد أن شقيقه كان ناظر مدرسة المعلمين الثانوية بذاتها ، هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد بدأت فى هذه السن المبكرة فى قراءة ما كتبه محمد فريد وجدى فى دائرة معارفه « دائرة معارف القرن العشرين » عن مذهب التطور المعروف باسم العالم البريطاني « داروين » فأعددت محاضرة عن هذا المذهب لإلقائها فى هذا النادى ، فامتلأ بعدد كبير من الرجال والصبيان من الفتيات

والفتيان ، ومهما أردت أن أصطنع من أسباب التواضع الصادق فإننى سأبقى بعد ذلك مندهشا ، كيف جذبنى مذهب داروين إلى دراسته وأنا بعد تلميذ فى المدرسة الابتدائية وتزداد الدهشة درجات ودرجات من جرأتى على التفكير فى إلقاء محاضرة على هذا المذهب فى نادينا ، أى فى حجرة طالب مدرسة المعلمين العليا ، ثم لا تنفع الدهشة بعد ذلك ، وتنفد كل طاقاتها ، ويبدأ مالا تفسير له ، ولا تبرير ، وأعنى به اقبال أطفال الحى وبناته وبعض رجاله على الاستماع لهذه المحاضرة ، بل على التزاحم على سماعها . وأغلب الظن أنهم سمعوا بلفظ « المحاضرة » لأول مرة فى حياتهم ، والراجح الذى يكاد يكون يقيناً أنهم إذ سمعوه لم يعوا من معناه قليلا أو كثيرا فكيف أقبلوا على المحاضرة ؟ إذا قلنا : إن الذى جذبهم هو الاجتماع فى ذاته ، والأطفال بطبعهم يتقاطرون على مافيه احتشاد للناس وتزاحم وتدافع ، فما تفسير أن بعض الكبار من الرجال وشباب الحى أقبلوا وحضروا وعقبوا على المحاضرة ومازالت أذكر منهم إلى اليوم المرحوم عبد الحميد قناوى المحرر آنذاك فى جريدة المقطم ، والذى عرفته بعد ذلك فى القضايا الكبرى ، يسجل وقائعها وينقل إلى القراء مرافعات المحامين ، ومناقشة الشهود .

وجملة القول إن هذه المحاضرة كانت فى حياتى كلها ، لا فى فترة صباى التى أسجلها وأرويها ، ظاهرة محيرة فقد درجت بعد ذلك حينما شببت عن الطوق ثم حينما استقام العود ، وثبت أقدامى على طريق الخطابة والمحاضرة شيئا ما أن أتهيب موقف المحاضرة ، وأعد له الإعداد الطويل إذا اضطررت إليه ، فأدخل إلى القاعة مضطرب الأعصاب مشتت النفس ، أكاد أتعثر ، فإذا فرغت من المحاضرة ، وسمعت أقل عبارات الثناء ولو من قبيل المجاملة و« جبر الخاطر » تنفست الصعداء ، فقلت بينى وبين نفسى : هذا آخر عهدى بمثل هذا الموقف .

وقد شهد محاضرتى عن « داروين » فيمن شهد صديقى « يحيى » طالب المدرسة الثانوية للمعلمين ولعله كان يتلقى فى مدرسته شيئا من علم الحياة ، فانتهز فرصة هذه المحاضرة فنثر علينا بعض علمه ، فذكر من بين ما ذكر من حقائق علم الحياة ، لفظى « الأميبا » و « البرتوبلازما » وأول اللفظين يطلق على الخلية الفريدة إذا لم أكن مخطئا ـ وفرحنا وفرح غيرنا من الصبيان بلفظ الأميبا ، فكررناها ، معجبين ،

وكررناها ضاحكين ، وأصبح اسم « أمين » صديق« محيى » مرادفا للفظ الأمبيا ، وإن كان لم يصب مقامه بهذا الترديد بقليل من الأذى أو كثير .

ولكن مقام (أمين) ازداد رفعة بفضل اسم آخر هو (الدكتور وارنوك) ولم يكن (الدكتور وارنوك) سوى المدير البريطانى لمستشفى الأمراض العقلية فى حى العباسية وقد درج المصريون على أن يرمزوا للمجنون أو من يتهمونه بالجنون بلفظى « العباسية » و « الخانكة » حيث كان يقوم المستشفيان الخاصان بمرضى العقول ، وكان أولهما للمرضى فى الدرجتين الأولى والثانية أما الثانى فلمرضى الدرجة الثالثة ، فكان التجديد الذى جاء به « أمين » أنه يستعمل اسم مدير المستشفى بدلا من اسم المستشفى بالعباسية ، ولما كان الاسم أجنبيا فان الناطق بـه يعتبر مثقفا ، وأحق بالاحترام تماما كما يتقدم فى المجتمع من يقول « مرسى » على من يقول « أشكرك » ومن يقول « بردون » على من يقول « لا مؤاخذة » !

ولكن الشخصية التى عرفتها عن طريق ــ « نادى محيى الدين » أى غرفته التى فتحها لنا فكانت أياديها أى أيادى الحجرة ــ علينا عميمة تستحق منا أن نقف أمامها طويلا ، فهى شخصية مدرس إلزامى ، بحسب ما سيكون ، إذ لم يكن عندما وفد إلى النادى أكثر من تلميذ بمدرسة عبد العزيز الأولية التى بشارع عبد العزيز الذى يصل ميدان عابدين بميدان العتبة الخضراء ، وكان هذا التلميذ من أبناء دمياط أسمر اللون خشن الشعر ، ذا عينين مستديرتين ، تحدقان فى الناظر إليه ، فى دهشة ممزوجة بالتحدى ، والرغبة البادية فى الصدام والعراك . وكان عندما يزور النادى يرتدى الزى المعتاد فى تلك الأيام ،أى الجلباب فوقه « الجاكتة » مع الطربوش ، لا الجبة والقفطان ، ولم نتنبه إليه حتى وقعت الواقعة التى استرعت نظرى إليه ، والظاهر ــ على حسب ما استنتجته على ضوء ما عرفته فيها بعد من أخلاق هذه الشخصية أن إنسانا ما بدرت عنه عبارة أو حركة اعتبرها ، ولنسمه « عبده » مساسا بشخصه ، وكان شعوره بالإهانة ، شعورا متقدا ، فبدأ يهاجم المعتدى ، بأسلوب خطابى متدفق ، وبعبارة عربية فصيحة أدبية ، وقد اتسعت حدقتاه المتسعتان أصلا ، وزاد تحديقه الغاضب فى الجالسين ، وكأنما يود أن يقتحمهم بعيونه غيظا وغضبا ، وراعنى أن صوته أسكت الحاضرين جميعا ، وأنه لم يتلعثم ولم يتوقف ، وبقى فى ذاكرتى من

معانى خطبه تهديده بأنه قادر على أن ينبذ من يتآمرون عليه ، أو يفكرون فى المساس به بطرف إصبعه فيطيروا فى الهواء ، ثم انتفض واقفا ، وانطلق مسرعا من مكانه كالقذيفة ! . .

هذا المشهد المسرحى أعجبنى واستأثر بمكانة خاصة به فى ذاكرتى ، فلم يمحه مر الأيام ، ولا ماشهدته بعد ذلك ، من مواقف كبار الخطباء والزعماء ، ولعل مرد تلك المكانة أنه المشهد الأول من نوعه فى حياتى ، وأنه مشهد طبيعى ، لا أفتعال فيه ، ولا إعداد يسبقه ، ولست أدرى ماذا حدث بعد ذلك من « عبده » وهل عاد إلى النادى ، كما أنى لا أذكر أين لاقيته ثانية طوال السنوات التالية التى قضيت بعضها فى القاهرة فى مدرسة محمد على وبعضها تلميذا فى مدرسة أسيوط الثانوية ، ولكنى أذكر فقط أننى رأيت « عبده » فى مدينة بنى سويف ، حينما وفدت إليها ، مع أبى ، وإن كنت لا أذكر ماذا كانت الظروف التى جمعتنى به فى بنى سويف ، وكيف كان اللقاء الأول بينى وبينه فى هذه المدينة ، فما أذكره فقط أننى أصبحت أراه فيها ، وكأن العلاقة بيننا لم تنقطع طوال السنوات التى سبقت هذا اللقاء ، وكان المكان المفضل لشباب بنى سويف للقاء اليومى هو محل حلوانى يديره كالعادة يونانى ، وكان يطلق عليه اللفظ الفرنسى « باتسيرى » وكان رواده يشربون فيه القهوة والمياه الغازية ، ويجدون ألوانا محدودة من الفطائر ، ويلعبون « الطاولة » وربما احتسى بعضهم الزبيب « العرقى » أو الكونياك .

ثم أخذ « عبده » يزورنى فى البيت ، ولم أستطع أن أعرف بالضبط ماذا يفعل فى بنى سويف ، سوى أنه مراسل مجلة فنية مجهولة يصدرها صحفى فى مصر اسمه « كمال الحلى » . وكانت فى المجلة أبواب ، لنقد الأشخاص العاديين كالعمد والمشايخ وصغار الموظفين من رؤساء الأقلام فى ديوان المديرية أو المحافظة وأحيانا ضباط الشرطة وخصوصا من كان منهم مشغولا « بالمباحث » .

وكانت المجلة تكسب من وراء ما تنشره من الملاحظات اللاذعة لهؤلاء فإما أن يدفعوا قيمة الاشتراك ولم تكن تزيد على ٢٥ قرشا فى السنة أو يعاونوا على تحصيل اشتراكات من غيرهم . أو أن يمنحوا المراسل مكافآت عينية أو نقدية من مالهم الخاص أو المال العام .

وقد عرفت من « عبده » أن هذه المجلة ــ على ضآلة شأنها ــ استطاعت أن تجعله قريبا إلى ذوى السلطة من ضباط المدينة وبعض الموظفين ، ولما قدم عهده ببنى سويف أصبحت علاقاته بكبار أعيانها ، والعمد والمشايخ واسعة النطاق . . وأنه بفضل هذه العلاقات أصبح قريبا من مدير المديرية نفسها . هل كان يروى الحق ، أو أنه كان يروى تمنياته وأحلامه التى لم تفارقه حتى آخر أيامه حينما اشتد به المرض ، ووافته نهاية الأجل ، وانتهت كل الأحلام العظيمة والعريضة !

ومن الأيام الأولى لاحظت أنه يزيل الكلفة بينه فى حديثه معى وبين هؤلاء الضباط والأعيان والعمد ، بل المدير نفسه ؛ فهو يشير إليهم بأسمائهم المجردة : فعبد السلام ، هو عبد السلام الشاذلى مدير المديرية ، وسعيد أباظة رئيس مباحث المدينة ، وهو يصر على أن يروى أنه يناديهم هكذا ، فيهرعون إليه . ويترضونه إذا غضب ، ويتملقونه إذا عاد من القاهرة بعد زياة منه « لمحمد » أو « لمحمود » أو « لداود » ومحمد هو محمد محمود باشا رئيس الوزارة ومحمود هو محمود فهمى القيسى باشا وكيل الداخلية ، أما « داود » فهو داود بركات بك رئيس تحرير الأهرام !

ولست أدرى هل صدقت هذه الحكايات أو كذبتها ، ولكن الذى أعرفه على سبيل الجزم والقطع أنها لم تكن تثير اهتمامى ، ولا تزيد من احترامى له ، أو اعجابى به ، ولو انقطع عنها ، ما استزدته منها ، أو سألته عن شىء فيها ، بل كان ينفرنى منه إذا سرت فى الطريق معه أن يُحيى عمدة ، أو يمازح عينا من أعيان مركز من مراكز المحافظة « المديرية سابقا » . ولكنى بقيت أجهل أن « لعبده » وظيفة أخرى ، وأنها وظيفة متواضعة غاية فى التواضع ، وأنه نجح نجاحا باهرا إذ اتخذ من صلته بهذه المجلة الصغيرة المجهولة ، سبيلا إلى التحليق فى عالم ملؤه السلطة والجاه ، وأطايب الحياة تعويضا له عن صغر مقامه ، وقلة ماله ، وحرمانه من الجاه والنفوذ !

وفى ذات يوم أفضى لى عبده أنه مجرد مدرس إلزامى فى قرية « منقريش » من قرى محافظة بنى سويف ، وأنه فى أشد الضيق من هذا العمل الحقير ، ومن ضآلة مرتبه ، وأن السلطة ، أى المحافظة ، لا يكفيها أن يقبل رجل فى مثل علم وقوة شخصيته ، وصلاته بالحكام وأهل الرأى ، أن يسرف فى التواضع فيقبل هذه المهانة على نفسه ، ويرتضى هذا العمل الدنىء ، فتكيد له ، وتنغص عليه حياته النكدة

أصلا بأوامر وسخافات لا غرض منها إلا إحراجه . ورثيت لهذا البائس وكاد قلبى يتفطر حزنا عليه ، فقد تصورت كم يعانى شخص فى مثل إيمانه بعظمته ، وغرامه بالرياسة والجاه ، فى الوظيفة الحقيرة التى وضعه القدر فيها ، وقد تجلد وصبر ، لأنه لم يكن يدرى ماذا يفعل ، لو ترك هذا العمل على تفاهة شأنه ، وقلة جدواه !

ولكن جاء أخيرا القرار المحتوم ، واستقال « عبده » وأسرع إلى العاصمة ، وطاف على دواوين الحكم ، ودور الصحافة ، ومقار الأحزاب ، والله وحده يعلم كم احتمل شعوره المرهف بالإهانة ، وهو يلقى - بطبيعة الحال - الصدود والعزوف عنه . ثم حصلت أنا على إجازة الثانوية العامة ودخلت الجامعة ، واتخذت مع صديقى « كمال » بيتا على شاطىء النيل ، غير بعيد عن كوبرى الجيزة ، ولقد شاءت المصادفة العجيبة أن يكون هذا البيت بذاته هو بيت أبى منذ خمس عشرة سنة خلت . فكان « عبده » واحدا من الشبان الكثيرين الذين كانوا يترددون على بيتنا الصغير ، وقد أتيح لكثيرين منهم بعد ذلك أن يظفر بالمكانة والنجاح فى الحياة العامة : السياسية أو العلمية . وتأكدت ملامح شخصية « عبده » فلم يعدل قط عن ثقته التى لاحد لها بنفسه وبمواهبه ، وبخوف الناس منه ، وحبهم له ، كما لم يكف عن رواية وقائعه مع العظماء والوزراء والزعماء واختلاطه بهم ، ووقوفه على أسرارهم ، واعتمادهم عليه ، وثقتهم به ، وهو فى كل هذا لا يذكر إلا أسماءهم الأولى بدون ألقاب . وإن كان فى أحيان قليلة لا يرى حرجا فى أن يقترض منك عشرة قروش أو يعترف لك بأنه جائع منذ الصباح ، ولكن دون أن تحس فى اعترافه أو طلبه ، برنة الضعف أو التسليم بفشله أو بسوء حالته .

ولما طال إلفه إيانا لم يخجل من أن يقول إنه يكتب تقارير سياسية لبعض رجال الأمن ، بل إنه كان يخلو بنفسه بعض الوقت فى بيتنا ويسود سطورا فى ورقة ، ويضعها أمامنا فى جيبه ، وهو يعلن أن فى هذه الورقة من الأسرار الخطيرة ما لا يعرفه سواه ، ومن هنا أصبح من حقنا أن نعابثه ، وأن نداعب أحلام عظمته ، فيقبل منا هذه المعابثة وتلك المداعبة ، باعتبار أن الصداقة وحدها هى التى تمنحنا هذه الميزة التى لا يتمتع بها كبار رجال الدولة ولا أهل الحل ولا العقد فيها . بل لا يحلمون بها .

ولقد كان « عبده » بالنسبة لى لغزا لا يحل ، فقد كان يتمتع بـأسلوب عربى جيد ، ومحصول لفظى غير قليل ، وعبارة أدبية حسنة الديباجة ، وكان يتكلم أو قل يخطب ، كما لا يستطيع الكثيرون من مرتزقة السياسة ، وكان على سبيل التأكيد على صلة ببعض رجال السياسة والحكم أيا كانت طبيعة هذه الصلة ، ثم إنه ألف كتاباً فى الإسلام ، جيد الموضوع والعبارة معا . فما الذى قعد « بعبده » هذا عن أن يتقدم فى عالم السياسة أو الصحافة أو يزيد دخله وقد ازدحم ميدانها فى أيامه بالألوف ممن يبزونه فى نواحى ضعفه ، ولا يتحلون بشىء من مواهبه ومزاياه .

وتراخت الصلة بيننا حتى لم نعد نتصل بعضنا وبعض إلا لماما . ولكنه لا يرانى مصادفة أو عن موعد ، إلا فاضت عواطفه ، وتحدث عن أيامه فى بنى سويف بلهجة صادقة حقاً . ثم غاب عنى طويلا ، وفى ذات يوم كنت فى سرادق انتخابى أقمته لأعرض نفسى على الناخبين فى مصر الجديدة ، فرأيت من يشق صفوف الواقفين والجالسين ، ليصعد على المنبر ، ثم ينطلق يسبغ على ويضفى عـلى شخصى من الصفات والنعوت ، ما كنت أعرف أن باعثه عليه هو عاطفة الخطيب الصادقة الذى لم يكن سوى « عبده » بعينه ودارت الأيام وأسندت إلى إحدى الوزارات ، وجاء الموظفون يحيون ، ورأيت شبحاً يتمايل من فرط المرض ، فإذا بى أمام « عبده » بذاته وهو لا يكاد ينطق ، من شدة نوبة الربو الذى كان يعانى منه واستبقيته ، وتحدثت إليه طويلا ، كما يتحدث الإخوان ، وحاولت أن أخفف عنه ، ولكن عهده بدنيانا بعد ذلك لم يطل . . فقد تركها دون أن تحقق من آماله العريضة وأوهامه الكثيرة أملا واحدا .

قلت إننى عرفت فى أثناء وجـودى فى منزل الحـاج طه بشـارع السيدة زينب « حافظ محمود » الكاتب الخطيب ، ونقيب الصحفيين الأسبق ، ولست أدرى إلى اليوم ، ما الذى قادنى إلى بيته المجاور لبيتى ، وما الذى عقد الصلة بيننا ؟ بل لست أذكر اليوم الأول الذى رأيته فيه ، وما الذى دعانى ودعا معى رفيق الصبا والشباب « أحمد » إلى الانضام إلى الجمعية التى أسسها حافظ ، واختار لها « القلم » اسما ، وهو اختيار فى رايى غاية فى التوفيق ؟ ولو أن جمعية « القلم » التى أسسها ورأسها حافظ كانت فى الواقع جمعية « اللسان » فقد كان نشاطها كله خطابيا ، وكان أكثر هذا النشاط الخطابة جهد حافظ وحده ، إذ كان دور بقية الأعضاء الاستماع إلى

خطبه ، والإعجاب بها ، فلم يكن فى الأعضاء من هيأته مواهبه ليكون من فرسان دنيا البيان المنطوق أو المكتوب ، فهم بين مقاول مبان أو موظف حسابى ، وكنت وصديقى أحمد لانزال طالبين فى المدرسة الثانوية نحاول أن نكتب ونخطب ويحاول أحمد فوق ذلك أن يمثل .

ولقد كان حافظ فريدا فى الشارع الذى يحيا فيه ؛ فقد كانت عادة الشبان والصبيان فى القاهرة كلها أن يتخذوا من رصيف شارعهم ، محلا مختارا ، يباشرون فيه نشاطهم من حديث أو شجار ، أما حافظ فلم يقف على رصيف منزله يوما ، ولم أشاهده قط فى جلباب أو جلباب وجاكتة ، وهما الزى الذى لا زى غيره إلا فى المناسبات الكبرى من زفاف أو مأتم أو حفلة مسرح ، حتى السينما كان أولاد المدارس يترددون عليها بجلابيبهم وعليها « الجاكتة » أو بغيرها . كانت البذلة والكرافتة أو « البابيون » والطربوش هو الزى الذى يطالع به حافظ الناس محافظاً على أناقته ، مثابرا على الحرص على مظهره وجده وبعده عن الناس .

وكان حافظ منذ البداية مشغولا بالكتابة والخطابة وبالحديث عن أساتذته فى الجامعة منصور فهمى وطه حسين ، فلم يلعب كرة القدم التى كانت هواية كل صبى وكل شاب ، ولم يعد فى طريق ، ولم يشتبك فى مشاجرة بالأيدى ، ولا مشادة باللسان ، ولم يلعب الورق أو الطاولة على قارعة شارع أو رصيف .

وربما لايعرف أحد أنه صاحب صوت جميل ، وأنه طالما أسمعنا من أغانى عبد الوهاب القديمة بداية قصائد متفرقة لشوقى ، ولكنه لم يكن يتم قصيدة واحدة منها ، ولو أحب الغناء ، لبلغ فيه درجة يحسده عليها المطربون الذين انقطعوا للغناء ، وقد ألف بعض الأغانى ليلحنها بنفسه ، وليغنيها لأصدقائه ، مازلت أذكر منها :

البنت البيضا الفلاحة   واقفة ع النيل مرتاحة
واقفة والبدر قصادها   طالع على وشه جمالها
والهوى   بيجرى   على خدها الخمرى

ولقد كان يواجه منزل حافظ ، منزل الشاب « حسين الداغستانى » ، وهو من أصل داغستانى حقا ، إنه جدير بأن يشار إليه هنا ، فقد كان أول طالب يحصل على دكتوراة من كلية من كليات الجامعة المصرية الحديثة ، وقد كانت رسالته عن

« السكك الحديدية فى مصر » قدمها إلى كلية الحقوق ، وقد حضرنا مناقشتها ، وما زلت أذكر كيف ألهبنا أكفنا بالتصفيق حينما أعلنت لجنة الامتحان أنها منحته « درجة الدكتوراه » ، فقد كان هذا الحدث فى نظرنا يوما مشهودا فى تاريخنا العلمى والثقافى ؛ فقد أثبتت الجامعة فى هذا اليوم أنها استقامت واستقرت ، لا تعلمنا فقط ، ولكن تمنح علماءنا أكبر الشهادات وتجعل منهم أساتذة ودكاترة .

كتب ومدارس

قال الصبى الذى نروى ذكرياته :

طالت قاماتنا . وغلظت نوعا ما أصواتنا ، وبدا تحت أنوفنا ظل خفيف يبشر بأن شواربنا ستنبت بعد قليل ، وأن نسائم ربيع الحياة ستهل علينا ، ولكنا كنا فى الحقيقة صبيانا أقرب أن نكون أطفالا نلعب ونلهو وإن قرأنا الكتب ، وطالعنا الصحف ، واقتنينا المجلات ، ولكن أكثر ما نحب ونهوى كان مما يشغل الصبيان : كرة القدم ، أو ملاكمة فى الطريق ، أو مصارعة فى المنزل ، أو صياح بلا مقتض أشبه شىء بالصراخ من ألم الفراغ الذى لا يطيقه الإنسان بعامة ، والصبى الملىء بالحيوية بخاصة .

ولست أريد أن أنساق مع الرغبة الصادقة فى التواضع ، فأغمط نفسى حقها فى أن تتحدث عن المجلد محمود حنفى ، الذى كان حانوته أو دكانه ، على مرمى حجر من دار الكتب . إن فى مكتبى إلى اليوم كتبا جلدها هذا الصانع الماهر رحمه الله ولا تزال إلى الآن آية من آيات فن التجليد بعد أن انقضى عليها نصف قرن أو يزيد ، فقد عرفت طريقى إليه وأنا دون العاشرة ، وتعاملنا كما يتعامل صاحب العمل ، والعميل ندا لند ورأسا برأس . ولم أجلد قصصاً فقط ، بل جلدت كتب تاريخ وعلم ، جلدت ترجمة حياة أو تاريخ مصطفى كامل الذى وضعه شقيقه المغبون على فهمى كامل وجلدت كتاب : رسائل فرنسية مصرية الذى يضم

بين دفتيه الرسائل المتبادلة بين مصطفى كامل وأمه الروحية مدام جوليت آدم ، هذه الرسائل التى تعتبر من عيون أدب الوجدان لفرط ما اشتملت عليه من آيات البلاغة التلقائية التى يجريها الله سبحانه وتعالى على لسان وأقلام عباده الذين يصطفيهم ويختارهم ، لما يراه من جلائل الرسالات البشرية . .

وإلى جانب هذه الكتب الجادة جلدت قصص مسامرات الشعب ، وهى أم السلاسل التى عرفناها فيما بعد ، وقد كان يسكرنى وأنا دون العاشرة أن أسمع على أفاريز محطات السكك الحديدية ، ولا سيما محطة القاهرة نداء باعة الصحف ، على حلقات سلسلة مسامرات الشعب المنغمة « مسامرات الشعب ، المسامرات ، المسامرات . . الشعب . . الشعب » فإذا رأيت إنسانا ينادى على البائع ، ورأيت البائع يمد ذراعه إلى المنادى ، بنسخة من المسامرات ثم يدفع له الثمن . ثم يقلب النسخة بين يديه ، ثم يأخذ مكانه فى عربة القطار ، ويروح يطالع القصة ـ تمنيت أن يكون فى مقدورى أن أفعل فعله ، وأن أشترى قصة من مسامرات الشعب ، وأن أضع بين يدى الكتاب وهو بعد جديد ، فلما شببت عن الطوق وأصبحت قادرا على أن أعبث فى مكتبة والدى ، وأن أكتشف فيها عددا من مسلسلات مسامرات الشعب ــ كان بودى أن أقبل هذه القصص ، من فرط حبى للكتاب ، وفرحى باقتنائه ، وتجليده وجمعه .

ثم جاء الوقت الذى أستطيع أن أقرأ فيه هذه القصص ، وأن أشتريها من أرصفة المحطات ، ومن مكتبات شارع عبد العزيز ، فقرأت قصة منها ثم شغلت بهذه القصة وبروايات المنفلوطى ومجلات أخرى فى مقدمتها « المحاسن المصورة » التى سبقت السياسة الأسبوعية والبلاغ الأسبوعى : رصانة فى الأسلوب ، وتجديدا فى الموضوعات وجدية فى البحوث ، وأناقة فى الإخراج ، ثم مجلة « المضمار » أولى المجلات الرياضية فى مصر ولعلها آخرها . وقد أخرجها « خليل داغر » ليحدثنا عن أبطال المصارعة والملاكمة وكرة القدم والتنس فى بلادنا وفى الخارج . ويضيف إلى أحاديث الرياضة قصة مسلسلة ، مازلت أذكر أن إحداها كانت بعنوان « الانتقام العذب » ومجلد المضمار الموجود فى أرفف مكتبتى المتواضعة لا يزال شاهدا على ريادة هذه المجلة الفريدة فى دنيا الرياضة ، ثم جاءت مجلة اللطائف المصورة ، لتكون نديم الصبيان والشبان والرجال فى ذلك العهد المبكر ، من حياة الصحافة الأسبوعية فى مصر .

ولكن بقيت مسامرات الشعب فى مكان فريد خاص بها ، لا ينافسها فيه صحيفة ولا مجلة ، لأنها كانت تصل القراء فى مصر بأدب القصة فى الغرب ، ولم تكن الصلة به قد توطدت بعد ، ولم تكن الأقلام التى تترجم هذه القصص ، من المتطفلين على مائدة الأدب فى مصر ، كما أصبحت الحال ، حينما كثرت وتعددت المسلسلات القصصية فى بلادنا ، بل الذى عرفته أن عددا من كبار أدبائنا ومترجمينا أسهموا فى ترجمة حلقات هذه السلسلة المبكرة ، ولعل منهم « سلامة موسى ، ولطفى جمعة ، وراشد رستم وصادق راشد وطاهر حقى » . وأنا أورد هذه الأسماء على سبيل التخمين ، وإن كنت قد قرأت فى موضع ما فى شىء كتبه سلامة موسى أنه أسهم فى ترجمة هذه القصص .

ولقد مضى صاحب هذه السلسلة الرائدة ، وهو المرحوم خليل صادق منسيا من مؤرخى الأدب مغمورا كأنه أساء إلى بلده فى حين أن إخراج سلسلة بهذه الضخامة ، وبما تمتعت به من انتظام ومثابرة ــ كان يقتضى القائم عليها إنفاقا وجهدا وعناية ، وقد مهد الطريق بحق للسلاسل الشهرية التى فى مقدمتها سلسلة « كتاب الشهر » التى تعد مفخرة من مفاخر مصر الفتاة الثقافية والتى أتبعتها بعد ذلك سلسلة « اقرأ » لدار المعارف التى كانت ولا تزال درة من درر الثقافة العربية المعاصرة . ثم سلسلة « كتابك » التى هى جديرة بالإعجاب حقاً .

وإذا كان « خليل صادق » الذى لا أعرف عنه ولا عن ثقافته ، ولا عن بيته أقل القليل ــ قد غبن ونسى فضله ــ فلعله يجد العزاء فى الدار الأخرى فى أنه لم يتفرد بهذا النصيب ، فقد شاركه فيه كثيرون منهم اثنان لا أنساهما أبدا : عبد الرازق عنايت الذى بذل فى سبيل المسرح المصرى ما لم يبذله أحد من مواطنيه ، إذ حسبه أنه أقام مسرحا من حر ماله ، فاحترق ، فأقام مسرحا جديدا دون أن تثنى الخسارة الفادحة عزمه ، أو تفل فى إرادته . أما الآخر فهو محمود مراد ، رائد الثقافة المسرحية المدرسية ، ومؤلف « مجد رمسيس » المسرحية الموسيقية ، ورئيس الجمعية المسرحية فى المدرسة الخديوية الثانوية ، وقد حاولت أن أرد له بعض جميله ، والتمست المعونة فى ذلك من ذوى قرباه المصور السينمائى المرحوم حسن مراد ، ونجله الذى علمت أنه يعمل فى إدارة التمثيل التجارى بوزارة الاقتصاد ، ولكن لم أوفق إلى شىء ذى قيمة ، وقد رجوت بعض دور النشر أن تعيد نشر كتاب ترجمه عن الإنجليزية المرحوم

محمود مراد ، وكان عنوانه « اعترافات آكل أفيون » فلم يكن حظى فى هذا المسعى أسعد منه فى المسعى الأول وهو كتاب فريد فى نوعه ، ولا يـزال جديـرا بالقـراءة وبالنشر ، ولو على سبيل إحياء التراث المصرى الحديث .

وقد جرنا إلى هذا الاستطراد الطويل محل محمود حنفى للتجليد الذى بجوار دار الكتب فى شارع محمد على ولايزال قائما فى مكانه إلى الآن ، وقد قام أولاده عليه بعد وفاة أبيهم رحمه الله .

ولقد نفعنى التردد على هذا المصنع الصغير ، كثيراً ، فقد كنت أرى عدداً من صغار وكبار الأدباء والخطباء والساسة ، وكنت أبادلهم الحديث وأستمعُ إليهم وأفرح بالاقتراب منهم ، وملاحظة ما يقولون وما يفعلون ، وكان من المترددين على هذا المصنع ـ مصنع التجليد ـ محمد شكرى كيرشاه ، الذى كان خطيب ثـورة سنة ١٩١٩ ، لم يدع منبرها فى الجامع الأزهر يوما قط ، وكان ينطلق فى خـطبه كـأنه القذيفة ، تتتابع وتتوالى على لسانه التشبيهات الرائعة ، والألفاظ الغريبة والنادرة ، ويهز مشاعـر المصلين فى الجامـع العتيق ويثيرهم عـلى الإنجليز ، ويحـرضهم على الجهاد . وكان فوق قدرته الخطابية الفائقة من أكثر الناس نهما فى القراءة ، وكان يقرأ فى الإنجليزية كما يقرأ فى الأدب العربى القديم شعره ونثره .

ومن غرائب الأمور أن يكون هذا الكاتب المثقف المستنير الواسع الاطلاع ـ قليل الحظ من النجاح فى المحاماة . مع أن الخطابـة ، والقدرة البيـانية ، وكثـرة الاطلاع من أدواتها ، ثم لم ينجح كذلك فى القضاء حينما عين قاضيا ، فقد عجز المنصب الحكومى ومقتضيات وقار القضاء عن أن تـرده عن صراحتـه ، وأسلوبه الثورى ، إلى حد أنه أثر عنه أنه حينما كان يفتح جلسة المحكمة قوله : فتحت صالة بديعة . . !

وقد كان أشبه الناس به ثورة على المجتمع ، وهزءاً بالتقاليد ، وفشلا فى الحياة العمليـة الأستـاذ أحمـد وفيق المحـامى ، والكـاتب الـوطنى ، ومؤلـف الكتب الدستورية ، والقانونية . وقد اشتغل من مطلع شبابه بالسياسة كـاتبا ومحـررا فى جرائد الحزب الوطنى ، بزعامة مصطفى كامل ومحمد فريد ، وبعدهما ، ولقى من شظف العيش ، والحرمان فى مصر وخارجها ما يهد عزائم الرجال ، فقد تشرد فى

أوروبا وجاع ، ودخل السجن فى مصر ، مرارا ، فلما سادت روح المساومة مع الإنجليز ، وتفرق زعماء الحزب الوطنى انصرف إلى التأليف ، فوضع ما يشبه الموسوعة فى القانون الدولى ، بعنوان « علم الدولة » ــ بكسر العين . وكان يهدى إلىّ كل ما يصدر من هذه الموسوعة جزءا بجزء ، وقد تورطت معه فى كذبه ، لا أدرى إذا كانت مما يسمى بالكذب الأبيض أم كانت كذبا صراحا يحاسب عليه الإنسان ، ولا بد له من استغفار وتوبة . وكفارة ولو لم تقترن بقسم ، فقد لقينى الأستاذ وفيق يوما ، فسألنى هل قرأت الجزء الثانى من كتابه ، وقد قام فى وهمى أنه أهدى إلى الجزء الثالث أيضاً ، وكان هذا الجزء فى المطبعة ، تحت التغليف ، فقلت من باب المجاملة : لقد قرأت الجزء الثانى والثالث أيضا « وما كاد الأستاذ وفيق يسمع لفظ « الثالث » حتى صرخ وكأنه لدغ ، ولم أفهم لأول وهلة ، سر هذه الصرخة المدوية ، ثم فهمت بعد ذلك أنه كان كثير التشكك فى أمانة الناشر والطابع ، كأنه يتهمه بأنه يسرب إلى السوق نسخاً من خلف ظهره ليستأثر بربحها دونه ، واعتبر وصول نسخة من الجزء الثالث الذى لا يزال يعد للتوزيع فى المطبعة دليلاً على لصوصية هذا الطابع الناشر ورجانى فى إلحاف شديد وبعصبيه بادية أن أطلعه على النسخة التى اشتريتها من الجزء الثالث ، وأن أدله على المكتبة التى حصلت منها على هذه النسخة ، ووقعت فى شر كذبى فقد وعدته بذلك بدعوى أننى لم أشترها بنفسى ، وإنما اشتراها زميل أو صديق ، يعرف حرصى على اقتنائى لهذه المجموعة .

ولم أكد أصل إلى مكتبى حتى سمعت جرس التليفون يدق وبسذاجة رددت فإذا المتكلم هو أحمد وفيق ، وإذا هو يريد أن يعرف الجواب على سؤاليه ، واضطررت إلى كذبة ثانية لمعالجة الكذبة الأولى ، فزعمت أنه اتضح لى أننى أخذت الكتاب معى إلى البيت ، ولم أكد أصل البيت ، حتى لاحقنى تليفون من الأستاذ وفيق ، فاضطررت إلى كذبة ثالثة ، وبقيت أضيف كذبة إلى كذبة ، حتى اضطررت آخر الأمر ، أن أطلعه على الحقيقة ، أو بعض الحقيقة ، فكف عن مطاردتى ، وفى نفسه ، شك منى ؛ إذ ظن أننى لم أرد أن أعطيه الجزء الثالث ، ولا أن أدله على المكتبة التى اشتريته منها إشفاقا على الناشر الذى سرقه !

وكان من رواد مصنع تجليد شارع محمد على ، محام ثالث ، هو الأستاذ أحمد

قراءة ، وقد كان محاميا لا يشبهه كثيرون من المحامين ، فقد كان من هواة التمثيل والنقد الفنى ، ومن المترددين على دور الصحف الفنية ، والمسارح ، وعلى صلة بنقاد الأعمال المسرحية أمثال عبد المجيد حلمى صاحب مجلة « المسرح » ورائد النقد التمثيلى فى مصر ، ثم « الأحنف » وهو حنفى مرسى ، وهو طالب حقوق وكان يوقع بهذا الاسم المستعار ، و« أحمد حسن » الذى كان طالبا بمدرسة المعلمين العليا ، ولم يتم تعليمه بها واشتغل بالمسرح هاويا ثم انقطع للصحافة وعمل فى مجلة روز اليوسف حتى توفاه الله ، وربما محمد التابعى ، منشىء روز اليوسف وآخر ساعة ، الذى هجر النقد المسرحى بعد أن بدأ عمله فى الصحافة ، فى مقالات يوقعها بإمضاء « حندس » .

ولم ألق عند الأسطى محمود حنفى ــ الوطنى الكبير والمؤرخ العظيم عبد الرحمن الرافعى ، وإن رأيت كتبه هناك قبل تجليدها ، وبعد تجليدها .

قلت إن نسائم الربيع ، بدأت تهب علينا ، خفيفة ضعيفة ، لم تغير كثيراً منا ، ولا من حياتنا فنحن صبيان أبرياء ، لا يشغل بالنا ، إلا كل ما هو برىء ونظيف . . نلهو كما قلت لهوا يجهد أجسامنا ، حتى إذا جاء المساء نمنا ملء الجفون أو لهوا يتخذ صورة عقلية أو فكرية . . فنقرأ القصص ، ونطالع المجلات ، ونحاكى الكبار ، فننشىء مدارس ، يكون بعضنا فيها مدرسا ، ويكون بعضنا الآخر فيها تلميذا ، بل إن خيالنا امتد ، فجعلنا من أنفسنا « برلمان » وكانت الانتخابات السابقة ، على قيام أول برلمان مصرى فى مارس سنة ١٩٢٤ ، قد شغلت الصغير والكبير ، فأغرتنا أن نقتبس منها ما يرضى خيالنا .

وقد كانت أول مدرسة أشارك فى تأسيسها وأنا صبى المدرسة التى لعبت فيها أختى التى تكبرنى ، والتى زاملتنى طوال حياة طفولتى وصباى ، مزاملة ملأت على أيامى سرورا ومتعة . وكانت أختى حادة الطبع فى صباها ، وفى كهولتها ، فنالنى من حدة طبعها وأنا تلميذ فى مدرستها الكثير ، ولكنى أفدت من هذه المدرسة ، وإن كانت لعبا ولهوا الكثير ، كذلك تعلمت أول ما تعلمت فيها فن « القص » ، ورواية الوقائع ، الخيالى، منها ، والحقيقى ، فقد كانت أختى قادرة على سرد الحكايات بأسلوب ممتع مملوء بالصور المصنوعة من الألفاظ المعبرة والمؤثرة .

قصت على قصة ما جدولين التى وضعها الكاتب الفرنسى « ألفونس كار » والتى ترجمها إلى العربية الكاتب العظيم مصطفى لطفى المنفلوطى ، فأثرت على خاتمة « ماجدولين » التعسة ، فبكيت وعلا صوت نحيبى ، فأسرع أهل البيت على هذا الصوت ، مشفقين أن يكون قد أصابنى سوء فلما دخلوا علينا الشرفة التى اتخذناها مقرا للمدرسة رأونى دامع العينين ، وسمعونى أصيح : **ماجدولين ماتت !** وبعض من خفوا لنجدتى ، كانوا لا يعرفون من تكون ماجدولين ، فانتابهم فزع شديد ، فصاحوا من الذى مات ، كفانا الله السوء ؟ .

وفى يوم آخر كان الدرس تلخيصا لرواية « غادة كربلاء » التى وضعها « جورجى زيدان » مؤسس مجلة الهلال ، كانت أختى قد سمعتها ملخصة من شقيقتها التى تكبرها ، فروتها لى فبكيت لمقتل الحسين رضى الله عنه واستشهاده ، ولكن فى صوت مكتوم وذهبت إلى النوم محزون القلب . وكانت المدرسة تشغلنا ، فلا يسمع لنا صوت . فيخيل إلى أهل البيت أننا تسللنا منه فيبحثون عنا هنا وهناك ، وهم لا يصدقون أن نكون فى البيت ، وألايسمع لنا ضجيج لا يطاق ، لا يهدأ إلا بالتأديب المباشر ، أو بالتهديد به ، فإذا اكتشفوا أننا فى الشرفة ، نقوم بطقوس المدرسة ، ونحترم تقاليدها ، كما لم تحترم هذه الطقوس وتلك التقاليد فى مدرسة حقيقية من قبل ، أخذ منهم العجب كل مأخذ .

غير أن هذه المدرسة كانت تستحيل أحيانا عذابا مريرا لى ، وذلك عندما يسوء مزاج أختى ، وترانى جديرا بالعقاب ، فتنهال على ضربا «بمسطرة » أعدت لهذا الغرض ، ولم تستعمل قط فى تلقينى علما ، وقد يقول قائل ، وما الذى ألجأك لقبول الانتساب إلى هذه المدرسة ؟ والجواب حاضر ، فقد كان فى وسعى أن أخرج منها طواعية واختيارا ، ولكن مقابل حرمانى من صداقة وزمالة أختى ، ومن براعتها فى القص ، وحيويتها فى الحركة ، ولقد هددتنى مرارا ، بفض المدرسة وإغلاق أبوابها ، ووضع حد لنشاطها ، إذا أنا شكوت من شدة العقاب وقسوته فيها ، وقد فكرت مرارا كذلك فى هذا الاختيار الصعب ، وقررت مكرها مرغما أن المدرسة بعقابها وميل ناظرتها ومعلمتها الفريدة والعنيفة إلى الشدة خير من عالم تسوده الوحشة ، وتنقصه حرارة المشاركة وأنس الزمالة .

والغريب أن ما ينالنى من عقاب كان لا يصدر عن أختى عن رغبة فى التعذيب ، ولا فرح بوجود فريسة لا حول لها ولا قوة ، لا تملك أن ترد الضرب بالضرب ، والعدوان بالعدوان ؛ فقد طبعت أختى على الصدق والصراحة ، ولو كان الأمر مزاحا أو لعبا ولهوا ، فقد كان فى مسلكى ما يغضبها بحق ، وكانت ترى أنها تخون رسالتها إذا لم تقومنى بحد السيف ، وحد السيف هنا ، هو حد « المسطرة » .

ولكن لكل أمر نهاية ، ولكل صبر حدود ، ولا بد من غضبة الحليم ، وقد وقعت هذه الغضبة فى يوم ، فعوضت على كل ما نالنى من مسطرة أختى ، وصدق غضبها ، فقد أعطانا أبى واجبا فى اللغة الإنجليزية نحفظه ، فأقبلت عليه ، فحفظته عن ظهر قلب ، ولم تعن أختى بحفظه لعلمها بأن مشاغل أبى كثيرة ، وأنه سينسى الواجب ، وينسى أن يمتحننا فيه ، فقررت أن أنتقم لنفسى انتقاما مشروعا تقره القوانين وعلاقة الأخوة ، وولاء التلميذ لأستاذته : وإن قسا ضربها واشتد عقابها فقد هم والدى بالخروج ، فاقتربت منه وقلت له : لقد حفظت الواجب ، فعاد والدى أدراجه قائلا : كثر خيرك ، لقد نسيت ، وسألنى عن كلمة من هنا وكلمة من هناك ، وأثنى على ثم نادى أختى فتلكأت على أمل أن ينصرف والدى لضيق وقته ، فغاظه هذا التلكؤ ، وألح فى دعوتها ، وجاءت مكرهة ، وهى تنظر إلى عاتبة . ففاض قلبى شفقة لها وألما لهذا المكر الذى بدا لى حسنا ، ثم تبينت أنهمكر سيىء ، فسألها وهو غاضب . فلم تجب ، وسأل ثانية وثالثة ، فلم توفق إلى شىء ، فانطلق يبحث ، فلم يجد أمامه إلا « المسيطرة » ، المسطرة الملعونة بذاتها ، فانهال بها ضربا على وجهها ورأسها وظهرها ، وكانت معنا آنذاك ابنة خالة ، فاندفعت نحو أبى صارخةً ، ثم وصلت إلى أصبع يده فعضتها ، فبدا عليه الألم ، وزاد غضبه ، فانفجرت أنا باكيا . ورأى أبى نفسه أمام مناحة ، وكان رقيق القلب ، شديد الإحساس بألم كل الناس الحقيقى والمتخيل ، ففاضت عيونه بالدموع وضمنا جميعا بين ذراعيه .

لا أزعم لنفسى أننى كنت فى هذه المرحلة قادرا على فلسفة الأمور ، وإن كان مدرس اللغة الإنجليزية فى مدرسة محمد على ، ورائد كرة القدم الحديثة فى مصر ، « حسين سليمان » ركلنى يوما لفرط ضيقه بى وهو يقول : « قل يا فيسلوف » أما أنه ركلنى فذلك لأنه كان يحب الكرة ، ويحب ركلها بالقدم ، وكان كل ما عنده يركل ،

ولم أغفر له قط ــ مع إعجابى به وحبى لحبه للكرة ــ لم أغفر هذه الإهانة التى لا مبرر لها والتى لم ينلنى مثلها من أستاذ ولا زميل .

مع هذه الركلة التى بورك بها لقبى « كفيلسوف » . فإنى لا أزعم أننى كنت قادرا على فلسفة مأساة الانتقام من ناظرة مدرستى ، ومعلمتى ولأختى فى ذلك الأصيل الأغبر ، ولكنى أستطيع أن أقول صادقا غير مبالغ ، إننى آويت إلى ركن من أركان حجرتى ، فى بيتى ، كحيوان جريح ، ولم أستطع حتى لعق جرحى ، فقد شملنى شلل نفسى كامل ، عجزت معه عن الحركة ، وعن التفكير حتى عن الشعور بالألم .

هل حدث ذلك لأنى أحسست بالإثم ، إذ اتخذت من المباهاة بالعلم ، سبيلا للانتقام من أختى التى كنت ألقى التعذيب على يديها ، ساخطا وثائرا وإن كنت قد ارتضيت هذا العذاب ، مقابل متع روحية ونفسية لا تقدر بمال .

ولو استطعت أن أصف شعورى يومذاك ، وأن أصوره لقلت : إننى كنت أحس أن حبى لأختى وولائى لها وتعلقى بها ، بدا لى كإنسان حى طعن ، وترك موضع الطعنة لينزف دما . وفى صباح اليوم التالى تلاقت عيوننا ولم نتكلم ، ولعلها كانت راغبة فى الكلام ومقبلة عليه ، ولكنى أنا الذى رفضته وعزفت عنه . فقد عاشت حياتها بسيطة ومتسامحة وذات نظرة للأمور كلها العامة والخاصة تتسم بالتسامى والملائكية ، ولكن منظر أختى وهى تضرب وهى تصيح وهى تحتج بقى ماثلا لعينى كالكابوس ، وقد زاده إيلاما للنفس وتعذيبا لها خيالى الذى عرفت نشاطه منذ وعيت الدنيا وما حولى فيها .

ولكنى مهما أردت أن أرفع من قدر نفسى فوق حقيقة هذا القدر ، فقد كنت صبيا . وقد خلق الله الصبيان والأطفال ، ومعهم قدرات طبيعية تعين على لأم الجروح ، وإلا مات أكثر أهل الأرض ، لكل جرح أو رض أوكسر يصابون به فى أول أيامهم ، وبقيت ذكرياتهم السيئة منذ لحظة الخروج من الرحم حتى يدخلوا فى دور الشباب مرورا بعملية الحنان وعذاب المشى والنطق ، وكل نشاطهم الإنسانى كالقرح الملتهبة ، ولأصابهم الخبل والجنون ، إن لم يضعوا لحياتهم نهاية بأيديهم . .

مرت أيام الحزن بسرعة ، وعدنا كما كنا طفلين بريئين نلعب ونلهو ، وأقمنا

المدرسة وضممنا إليها من يفد إلى دارنا من أبناء الأهل والجيران ، وطردنا أكثرهم ، لأن لعبة المدرسة والمسطرة والحكاية التى تعلو على أفهام وأذهان الصبيان لا تروق كثيرا لأغلبيتهم .

وكان لابد أن ينقضى عمر غير قصير ، حتى تصبح أستاذتى ومعلمتى ومدرستى وأختى تلميذة لى ، تبحث عنى ، لأحدثها فيما يمر بها وببلدنا وبالعالم من أحداث ، فإن حالت دون ذلك مشاغلى ، أو أمراضى ، أو سوء مزاجى ـ غضبت وحزنت ، وانصرفت وهى تلعن الدهر . رحمها الله وغفر لها ، ولأخيها وتلميذها ، الذاكر فضلها .

مشايخ وخواجات

قال الشيخ الذى نروى ذكريات صباه :

فى أيام صباى تقاسمت طائفتان السيطرة على حياة المصريين ، إحداهما اشتغلت بدنيا النفوس الباطنية ، أى بدنيا الوجدان والمشاعر والمخاوف والآمال واستلهام القوة واستنباء الغيب ، والبحث عن الهداية والظفر بالتوبة والمغفرة ، والترويح عن القلوب بالكلام الممتع والطرائف المستملحة والنوادر المستحبة .

واستأثرت الأخرى ، بعالم المادة من المال والتجارة وصنع الأدوات النافعة وتجميل الحياة وتحسين وسائلها من ملبس ، ومأكل ، وأثاث وزينة ، والتماس المعرفة الحديثة ، والتقدم فى مجالات الرقة والتلطف ، والحديث والاجتماع .

أما الطائفة الأولى فنسميها للتبسيط :

طائفة المشايخ ، وأما الطائفة الأخرى فنسميها طائفة الخواجات .

وطائفة المشايخ واسعة الميدان مترامية المجال ، تضم ذوى القيمة والمكانة الحقيقية . يقف على رأسها آل البيت فى أضرحتهم من الرجال والنساء فمنها الإمام الحسين بن على رضى الله عنه ، والإمام زين العابدين ، والإمام الشافعى وأضرابهم من الشهداء الصادقين ، والعلماء المجتهدين ، وأسباط رسول الله المقربين رضى الله عنهم جميعاً ، وفيهم نساء ينافسن الرجال فى العلم والصبر والثبات فى وجه الشدائد كالسيدات زينب ونفيسة ، وعائشة ، ورابعة العدوية ، ثم يأتى بعد ذلك عدد

ضخم من المتصوفين الكبار ، انتثرت قبورهم فى مصر من أقصاها إلى أقصاها ، فمنهم السادة أحمد البدوى والأباصيرى وإبراهيم الدسوقى ، والمرسى أبو العباس ، والشاطبى ، وسيدى جابر ، وسيدى أبو الحجاج الأقصرى ، وعبد الرحمن القنائى ، وجلال السيوطى ، وفرغل ، وننتهى إلى مشايخ لهم أضرحة لا يدرى أحد شيئا من تاريخهم ، ولا يستطيع أحد أن يقطع باحتمال أنه تحت قبة كل ضريح من أضرحتهم شيخ أو وهم يتجر به مشعوذ أو دجال !

ويدخل فى طائفة المشايخ علماء أجلاء خدموا الدين بأقلامهم وألسنتهم ، وعلمهم وفضلهم ، ازدانت بهم مشيخة الأزهر ، وأطلق عليهم الناس والحكومة ألقابا جليلة ، وأفاض الشخصية والوقار عليهم علمُهم وسمتهم ، وأسلوبهم فى المشية ، وطريقتهم فى الجلسة ، وأداؤهم للكلام ، وتصديهم للسلطة ، واتصالهم بالعامة ، وبذلهم للمال ، وآخرون عضوا على الدنيا بالنواجذ ، وبذلوا الغالى من ماء الوجه وحسن السمعة ليكونوا على مقربة من الحاكم ، مصريا كان أو أجنبيا ، صالحاً كان أو طالحاً ، فخلفوا الدار والعقار ، وخافهم الناس ، وبعدت عنهم الرعية ، فعوضوا عن الجاه الحقيقى ، بذقون مسترسلة ، وعباءات منتفخة ، وسبح حباتها منتقاة ، ورناتها عندما تتوالى بين الأصابع مسموعة ، مع تؤدة فى الكلام ، وتثاقل فى الجلوس والقيام ، وإطراقة عند كل سؤال ، وعبث فى العثنون ، وهو الشعر الذى يأتى أسفل الشفة السفلى ، قبل الإدلاء بالفتوى ، أو النطق بفصل الخطاب .

وبين هؤلاء وهؤلاء ، أزهريون انتسبوا إلى الأزهر ، ولم يتموا تعليمهم فيه ، ثم تفرقت بهم السبل ، فمنهم الصحفيون ، والأدباء ، ومنهم موظفون صغار فى المحاكم الشرعية ، ودواوين الحكومة ، ومكاتب الأزهرومعاهده ، ومصححون فى الجرائد . والمطابع ، وخطباء وشعراء « تحت الطلب » يقدمون إنتاجهم للأحزاب والأغنياء ، ويعملون ندماء فى المجالس وعند أصحاب الجاه فى الريف والمدن ، وكتاب عرائض وبلاغات كاذبة ، ومنهم من أتم تعليمه فأصبح قاضياً جليلاً ، أو محامياً شرعياً ناجحاً ، أو أستاذاً فى الأزهر ، أو فى دار العلوم ، أو فى الجامعة عندما نشأت ، أو معلماً فى المدارس الابتدائية والثانوية ، أو أديباً صاحب مكانة ، أو

خطيباً ، لا يتحامى مواطن الخطر ولا يتحاشاه ، ويؤلب الجماهير فى ساعات الشدة ، ويؤيد الزعامات الصادقة فى أوقات المحنة .

ويتقدم هؤلاء جميعاً بطبيعة الحال ، فى عهد صباى شيخ الأزهر ، المسمى بالأستاذ الأكبر ، والمعروف من عهد الأتراك « بشيخ الإسلام » وكان اسمه فى تلك الحقبة الشيخ سليم البشرى ، وكان قد سبقه إلى هذه المشيخة فى عهد الخديو عباس الشيخ حسونة النواوى ، وجاء بعده الشيخ أبو الفضل الجيزاوى فالشيخ الظواهرى ، وتلاه الشيخ المراغى ، وكانوا جميعاً تنتهى أسماؤهم بياء النسبة ، وكان ذلك تقليداً تراه واضحاً قبل عهد محمد على حتى اختير الشيخ عبد المجيد سليم ، قبيل الثورة فانكسر هذا التقليد ، ولم يعد قط ، فقد توالى على المشيخة ، شيوخ لا ينتسبون إلى قرية أو إقليم ، فكانوا على التوالى الشيخ الخضر حسين ثم الشيخ عبد الرحمن تاج ، فالشيخ محمد الفحام ، فالشيخ عبد الحليم محمود ، وقد استعاض شيوخنا الأجلاء عن ياء النسبة كالشرقاوى والمهدى والعباسى بلقب الدكتور ، فقل أن تجد الآن فى منصب دينى كبير عالماً لا يضع قبل اسمه لقب دكتور ، وبعض هؤلاء الدكاترة ، لم يحصلوا على لقب دكتور من جامعة أجنبية أو مصرية ، ولكن لقب العالمية فى التخصص ، اعتبر مساوياً لقب دكتور فكثر عدد الدكاترة فى عالم الشيوخ ، وهى ظاهرة لا تسر أحداً ، لا لأن التماس العلم فى أوروبا أو فى مصر خارج الأزهر شىء نكرهه لعلمائنا ، بل لأن لقب شيخ فى رأينا لا يعدله لقب ، وهو يدل على انتمائنا إلى تاريخنا ، ولذلك لا أسمى أحداً من علمائنا إلا مقروناً بلقب « الشيخ » ، وأنا أضمر فى نفسى وأعلن الاحترام والتبجيل ، لهذا اللقب الجليل ، ولكل من يحمله ، وخصوصاً إذا كان يعرف قدره ويحفظ مقامه .

وقد كان لكل حزب فى مصر ، فى الأيام التى أروى وقائعها ، عدد من الشيوخ ينتمون إليه ، ويتحدثون عنه ، ويغشون مجالس زعمائه ، وقد كان أكبر هؤلاء الشيوخ ، وأوسعهم شهرة ، وأبقاهم أثرا ، شيخ الحزب الوطنى، الشيخ عبد العزيز جاويش ، وقد كانت له طلعة جميلة ، ولحية تزيد وجهه جمالاً ، وقد تولى رياسة تحرير اللواء بعد وفاة مصطفى كامل ، فذاعت شهرة مقالاته ، لفرط حدتها وعنفها مع متانة نسيجها ، وفصاحة عبارتها ، وكان الشبان يحفظونها عن ظهر

قلب ، فلما حوكم على إحدى مقالاته ، ثم قضى ببراءته حل الشبان سيور العربة ، وسرحوا خيولها ثم جروها بأنفسهم ، ولما حبس فى قضية أخرى ثم خرج من السجن بعد نهاية مدة العقوبة ، اكتتب الشعب لشراء وسام من الفضة والذهب ووشاح من الحرير والقصب ، وأهدوه إليه فى حفلة حافلة توالى فيها الخطباء والشعراء ، ذاكرين مآثره ، مشيدين بأياديه . وقد كان للشيخ جاويش فضل على شيوخ آخرين كان لهم دور أى دور فى حياتنا العامة ، وكان من هؤلاء واحد من ألصق تلاميذه به هو الشيخ طه حسين فقد رعاه الشيخ جاويش منذ كان طالباً ، ثم أوحى إليه أن يلتمس العلم فى الجامعة المصرية الأهلية ، ثم أن يتعلم الفرنسية ، ثم أن يسافر ليطلب مزيداً من العلم والمعرفة ، ثم بقى وراءه يدفعه إلى مواقف الخطابة ، بعد أن شجعه على النقد العنيف لأئمة الكتاب فى ذلك العهد ، وفى مقدمتهم شيخ أزهرى آخر هو مصطفى لطفى المنفلوطى . وكان من تلاميذ الشيخ جاويش الأفذاذ الشيخ على الغاياتى ، صاحب ديوان وطنيتى الذى قدم لديوانه محمد فريد زعيم الحزب الوطنى بكلمة ، كما قدم له الشيخ جاويش بكلمة أخرى ، فقادت النيابة الثلاثة ، صاحب ديوان ، واللذين قرظاه إلى محكمة الجنايات فحكم على « محمد فريد » بالحبس ستة أشهر وعلى الشيخ جاويش بثلاثة وعلى صاحب الديوان بسنة ، ولكنه لم يدخل السجن إذ فر إلى تركيا فسويسرا فأقام بها ربع قرن من الزمان ، بنى خلالها بسيدة سويسرية فاضلة ، وأنشأ مجلة « منبر الشرق » وعاد يتقن الفرنسية كأحد أبنائها كتابة وحديثاً وخطابة وشعراً .

أما حزب « الأحرار الدستوريين » فكان من شيوخه الشيخ الزنكلونى ، والشيخ المراغى ، أما الشيخان والشقيقان مصطفى عبد الرازق وعلى عبد الرازق فكانا من زعماء الحزب ، إذ كان أخوهما حسن باشا عبد الرازق أحد مؤسسى الحزب ، وأول وكلائه ، وقد قتل على باب الحزب ، وقد كان الشيخ مصطفى عبد الرزاق نموذجاً لجمال الرجال ، تلمع جبهته ببريق عجيب ، لم أر مثله على جبهة أحد سواه ، وكان دمثا رقيق العاطفة ، خافت الصوت حلو الابتسامة عظيم الحياء ، تكاد تحسبه من فرط حيائه ولطف تقاطيعه عذراء خفرة لا تكاد تقوى على رفع عينيها إلى وجه محدثها ، ومع ذلك فقد كان حازماً يحسن ضبط تلاميذه ، حينما كان يدرس الفلسفة الإسلامية فى كلية الآداب ، وكان له لازمة يكررها . إذا ما سئل عن شىء

يستهجنه ، أوْ لا يعرفه أو لا يود أن يجيب عليه : فقد كان يقول : « يجوز . . . أنا ما أعرفش » وكان يعطش « الجيم » إذ كان من ناحية (أبو جرج) فى اقليم المنيا .

أما أخوه على فكانت له لحية صغيرة على طريقة علماء وأساتذة فرنسا ، ولم تكن له وسامة أخيه مصطفى ، ولا بريق وجهه ، ولا لطف ابتسامته، ولكنه كان فى مثل وداعة شقيقه ، وتواضعه وخفوت صوته ، وقد ذاع اسمه بعد اتهامه بالخروج على الدين ، عقب تأليفه كتابه « الإسلام وأصول الحكم » . فلما شلحوه من الأزهر خلع عمامته واصطنع لنفسه الزى الأوربى وحلقّ ذقنه ، ففقد وجهه الكثير من حلاوته ولطف تأثيره .

أما شيوخ الوفد أو مشايخه فكان أشهرهم ، وأخطبهم وأكثرهم نشاطا الشيخ مصطفى القاياتى ، وكان من خطباء ثورة سنة ١٩١٩ ، خطب كثيراً فى جامع الأزهر فى أثناء احتدام وقائع الثورة ، فقبض عليه الإنجليز ، ونفوه إلى ألماظة ، وساقوه للمحاكمة العسكرية وحكموا عليه ، وكان من الشيوخ الوفديين الشيخ عبد المجيد اللبان ، كان عضوا فى البرلمان الأول الذى انتخب سنة ١٩٢٣ وانعقد لأول مرة فى سنة ١٩٢٤ ، ولكنه ترك الوفد وبعد عن السياسة فعين شيخاً لكلية أصول الدين .

وكان سكرتير سعد زغلول ، شابا أزهريا تخرج فى مدرسة القضاء الشرعى ، هو الشيخ إبراهيم الجزيرى ، وقد ألف كتاباً عن سعد بعد وفاته روى فيه بعض ذكرياته فى أثناء عمله مع الزعيم ، وعنوانه « آثار الزعيم الجليل » .

وكان من شيوخ الوفد فى الفترات التالية لوفاة سعد زغلول الشيخ محمد البنا وأخواه الشافعىّ وكامل ، ومدرس إلزامى من محافظة بنى سويف ، وهو الشيخ محمود عمار الذى عرف فيما بعد بشاعر الرعاع ، وذاع لقبه وغطى على اسمه .

أما شيخ السعديين فهو الشيخ عبد الرحمن الجديلى اتهم فى قضية المؤامرة الكبرى ، مع عبد الرحمن فهمى قائد ثورة سنة ١٩١٩ ، خلال السنوات ١٩١٩ ، ١٩٢٠ ، ١٩٢١ إبان تغيب سعد وزملائه زعماء الوفد فى أوروبا ، فزامل فى هذا الاتهام إبراهيم عبد الهادى الذى أصبح رئيساً للوزارء سنة ١٩٥٠ ، فبقيا على صلة وثيقة ، فلما ألف أحمد ماهر والنقراشى الهيئة السعدية انضم إليهما ، فلما توليا الحكم أسند إليه وكالة وزارة الشئون الدينية ، فكان أول وكيل وزارة أزهرى ، وقد تخرج

أصلاً فى مدرسة القضاء الشرعى ، وكان صديقاً لأمير الشعراء أحمد شوقى ، ومستشاراً أدبياً له ، يستعين برأيه فى تذوق شعره ونقد عيوبه ، وكان الشيخ محمد عبد اللطيف دراز من شيوخ السعديين أيضاً وهو أصلاً من أبناء الحزب الوطنى وقد كان له دور بارز فى أحداث الفترة الأولى من ثورة سنة ١٩١٩ .

وقد حفلت صفوف مصر الفتاة بعدد غير قليل من الشبان الأزهريين الذين أثبتت الأيام سعة علمهم ، وإخلاصهم لدينهم ، ومن هؤلاء الشيخ عبد الرحيم فودة مدير مجلة الأزهر الذى لحق بالرفيق الأعلى أخيراً ، والشيخ عبد المنعم النمر مدير الشئون الدينية فى دولة الإمارات المتحدة ورئيس مجلة المنار ومدير المعاهد الدينية الآن ، والشيخ عبد الرحمن الصوالحى الذى انقطعت عنى أخباره من زمن طويل .

وكانت الصحف تذكر فى تلك الأيام أسماء عدد من الأزهريين فتنشر لهم المقالات ، وتذكر طرفاً من نشاطهم ، وكان أظهر هؤلاء الشيخ محمود أبو العيون ، الذى وجه كل نشاطه لإلغاء البغاء العلنى ، وكان من قبل ، خطيباً من خطباء ثورة سنة ١٩١٩ ممن عرفوا السجن والنفى الداخلى ، وقد توفى إلى رحمة الله ، فى حادثة مفجعة ، إذ علق طرف قفطانه بقطار « المترو » وهو يصعد أو ينزل منه ، فجره القطار مسافة لفظ بعدها أنفاسه .

وكانت الأهرام تنشر مقالات للشيخ محمد سليمان عنارة الذى اختار لنفسه لقباً قلميا هو « أبو التلاميذ » وكان هذا الشيخ هواه مع حزب الاتحاد والقصر ، ولكنه لم ينغمس فى السياسة علناً ، وإن كان خصومه قد اتهموه بأنه وصل إلى المحكمة الشرعية العليا بسبب صلاته بالسراى . وقد ألف الشيخ عنارة كتاباً جيداً بعنوان « من أخلاق العلماء » أما الذى عاون حزب الاتحاد جهرة من كبار علماء الأزهر الشريف ، فهو الشيخ حسين والى . وقد بدأ حياته الأدبية ، وهو فى مطلع شبابه ، قبل أن يحصل على العالمية بمقالات فى مجلة « روضة المدارس » التى أسسها رفاعة الطهطاوى منذ قرن كامل وخمس سنوات ، وكان الشيخ حسين والى عالماً محققاً وقد تولى أمانة الجامعة الأزهرية ، كما عين عضواً فى المجمع اللغوى ، فكان من أكثر أعضائه نشاطاً .

وقد أحب عدد من علماء الأزهر وشبابه جريدة الأخبار التى كان يصدرها

ويحررها أمين الرافعى ، فاتخذوها ميداناً لأقلامهم ، وكان من هؤلاء ، عالم فاضل هو الشيخ عبد الباقى سرور نعيم ، وقد نشر سلسلة من المقالات عنونها بالآية الكريمة « وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً » .

ويبدو أن هذه السلسلة طالت ، ولذلك ، فقد أطلق بعض محبى الدعابة الصحفية على الشيخ نعيم ، الشيخ « أشر أريد » ، وكان من الشبان الأزهريين الذين راسلوا الأخبار الشيخ « صادق عرجون » الذى عين فيها بعد عميدا لكلية أصول الدين ، والذى أخرج أخيراً كتاباً من جزءين ضخمين بعنوان « سماحة الإسلام » .

ومن أصحاب العمائم المشهورة فى تلك الأيام . ثلاثة ، كلهم كان ينتمى إلى طائفة المتصوفين أولهم سماحة السيد عبد الحميد البكرى ، شيخ مشايخ الطرق الصوفية ، وكان يلبس عمامة على الأسلوب التركى ، أى طربوشاً من طرابيش الأفندية ، ثم شالا أبيض يلتف حوله ، وكان لسماحة السيد البكرى سمات الأعيان وقد كان فعلا من الأغنياء ، كما كان عضواً فى حزب الأحرار الدستوريين ، حزب كبار الأغنياء من أصحاب الفدادين ، وقد رأس الرابطة الشرقية ، وهى جماعة ضمت بعض أدباء وأعيان المصريين والسوريين وآخرين يتوطنون مصر من أصول فارسية « كرفيع مشكى ميرزا مهدى » التاجر الإيرانى أو أصول هندية أو تركية ، وكانت غايتها أن تدعم العلاقات بين دول الشرق المترامى الآفاق ، ولم تفعل فى هذا السبيل ، أكثر من الدعوة إلى بعض المحاضرات ولعلها أصدرت مجلة باسمها ، ولقد لبيت دعوتها لسماع محاضرة ألقاها يومذاك أحمد زكى باشا الذى عرف فيما بعد بشيخ العروبة ، وارتدى العقال ، ليطابق المظهر المخبر ، أو الاسم المسمى ، وكانت محاضرته عن زيارة له قام بها فى فلسطين حدثنا عن مدن هذا القطر الشقيق اللصيق وكأنه قام برحلة فى أحد القطبين ، وقد تحلقنا يومذاك حول نافورة ماء ، يسمع لها خرير ضعيف ، وكانت تتوسط مدخل الدار التى استأجرته الرابطة غير بعيد من ميدان لاظوغلى فى شارع خيرت .

أما المعمم الثانى من أهل التصوف فقد كان شبيها بالسيد البكرى من حيث الزى ، وعلى النقيض منه ، من حيث المزاج والطبع ، وأعنى به السيد محمد الغنيمى

التفتازانى ، شيخ الطريقة التى يدل عليها اسمه ، وكان مصرى التقاطيع ، وإن كانت له جبهة بارزة ، لا تشاهد كثيرا فى وجوه المصريين ، وعينان تختلفان عن عيون أهل الريف المصرى الذى لابد أن السيد قد انحدر منه ، وكان بعد ذلك ذكيا ، عظيم الحركة ، يتردد على كل الصحف ، وتربطه بكل كبار محرريها صلات ود ، ويجالس « شوقى » أمير الشعراء ، و« حافظ » شاعر النيل ومطران شاعر القطرين . وتراه فى كل الندوات التى تعقد فى المقاهى العامة ، والتى تضم زعماء البلاد العربية اللاجئين من عسف فرنسا وإيطاليا ، أمثال الأستاذ عبد العزيز الثعالبى ، الذى لم يكن اسمه يذكر فى صحفنا إلا مقروناً « بزعيم تونس الأكبر » . كندوة بار اللواء . وبار الأنجلو ، وقهوة متاتيا ، وكان له بيت قديم فى حى الحنفى بالقرب من ميدان السيدة زينب ، وقد زرته فى هذا البيت لأمر يتعلق بمدفن لأصهارى ، فقد كان السيد التفتازانى ، عضواً فى لجنة الجبانات ، وقد رأيت هناك موظفين كباراً ، وشباناً ممن أتموا تعليمهم فى الجامعات ، وعرفوا العلم الحديث ، يقبلون يد السيد ، ويطلبون منه الدعاء فيقسو على بعضهم ، ويشد آذانهم ، وهم صاغرون ، ويلاطف الآخرين فى اقتضاب وإيجاز ، وكان هذا المشهد طريفاً عندى ، فقد كنت أعرف أن السيد كان ممن ينفذون قول الله تعالى « ولا تنس نصيبك من الدنيا » وقد داعبه الأستاذ الصاوى فى مجلة « مجلتى » يوماً فنشر صورته على طريقة أشخاص « الكوتشينة » التى تضم رأسين للشخص فى كل جانب من الصورة رأس ، وكتب تحتها « شيخ الطرق والكبارى » ، وكانت الأهرام - على جلال قدرها - تترك له حديث رمضان شهراً كاملاً . يملؤه بخواطره الدينية ، ربما نزولاً على مقتضى حسن علاقته بداود بركات رئيس تحرير الأهرام ولصلاته المتعددة بالجهات المختلفة بما فيها دار المندوب السامى البريطانى .

وكان المعمم الثالث من أهل التصوف ، الشيخ الدمرداش ، الذى منح لقب الباشوية ، تقديراً لمنحته الخيرة الكبيرة ، التى كان قوامها وقفه لقطعة أرض مجاورة لضريح المحمدى ، وبنائه لمستشفى عام عليها من ماله ، باعتبار أن الأرض ملكه ، وكان قد اشترط فى الوقفية أموراً تستحق التأمل لصدورها من شيخ طريقة مسلم . فقد نص فى وقفيته على أن يقام له تمثال فى مدخل المستشفى ، وقد أقيم فعلاً التمثال ولا يزال يطالع الداخلين إلى مستشفى الدمرداش إلى اليوم ، كما اشترط أن يكون

مدير المستشفى طبيباً بريطانيا ذكره بالاسم ، على أن يبقى هذا الطبيب الإنجليزى فى منصبه ، لا يعزل ما دام على قيد الحياة ، وقد أجيب الشيخ إلى طلبه ، وكان لا يخفى ولاءه للإنجليز ، وحبه لهم ، وقد حضر المندوب السامى حفلة افتتاح هذا المستشفى ، وقد ورثت السيدة قوت القلوب ابنته نصف ثروته ، وقد أعانتنى الظروف على أن أعرف طرفاً من تاريخ الأرض التى تبرع بها الدمرداش باشا للمستشفى ، فقد رفعت السيدة قوت القلوب دعوى طرد ضد عدد من فقراء حى المحمدى ، بحجة أنهم اغتصبوا أرضها بدون سند ، ووكلت السيدة توفيق دوس باشا فى هذه القضية وكنت مرشحاً عن دائرة مصر الجديدة ، التى كانت تشمل حى المحمدى ، فحضرت عن الفقراء المدعى عليهم متطوعاً ، ولم يكن لى فضل فى هذا التطوع فقد كانوا من أنشط مؤيدى فى المعركة الانتخابية ، ويوم الجلسة امتلأت قاعة المحكمة بأهل المحمدى ، كما ازدحمت الطرق المؤدية إلى دار المحكمة والمتصلة بها بزوجاتهم وأولادهم ، وفى هذا الجو المشحون بحماسة الفقراء وأنفاسهم الحارة ترافع توفيق دوس باشا ، وكان واحداً من أبرع المحامين فى مصر ، ثم جاء دورى ، فتهيبت الموقف من جميع جوانبه ، ولكن دعوى السيدة قوت ، كانت بلا أساس حقا ، فلم تكن هذه الأرض أرضها ، وأنصف الله الحق ، فرفضت الدعوى ، فانطلقت هتافات موكلى ، مجلجلة مدوية ، حتى كادت جدران المحكمة تنقض . فارتفعت من ثم ، أصوات النساء وزغاريدهن ، فكانت خدمة للمعركة الانتخابية ، لم تدخل فى حسبانى ولم تأت عن تدبيرى ، عرفت منها حقيقة تبرع من أشهر التبرعات فى تلك الأيام . .

ولم يكن الشيوخ الذين أثروا على المصريين وعلموهم وثقفوهم وأمتعوهم كلهم من رجال العلم والدين ، فقد كان أكثر أهل الفن ، شيوخاً ، لا يناديهم الناس الواحد منهم إلا بلقب شيخ ، وربما لا يذكر اسم الواحد منهم اكتفاء بلفظ الشيخ فيعرف السامعون من المقصود ، وفى مقدمة هؤلاء ، الشيخ سلامة حجازى فالشيخ سيد درويش ، فالشيخ زكريا أحمد فالشيخ أبو العلا فالشيخ صبح .

أما قارئو القرآن المجيدون أمثال الشيخ على محمود فالشيخ محمد رفعت فالشيخ أحمد ندا فقد كانوا شيوخاً لا بحكم الزى وحده ، وإنما بحكم الصنعة أيضاً ، وكان الشيخ محمد يونس القاضى من أشهر مولفى الأغانى فى تلك الأيام ، وكان من

الممثلين من خرج من صفوف الأزهريين ، وبقى اللقب عالقا به كالشيخ عبد الحميد عكاشة شقيق زكى وعبد الله عكاشة الذين ورثوا فن الشيخ سلامة حجازى ، والذين استأثروا لفترة بمسرح حديقة الأزبكية الذى أنشأه طلعت حرب باشا ، وكانت الصحف الفنية تسميهم العكاكشة وكان معظم الملقنين فى المسارح ، ممن انتسبوا إلى الأزهر ولم يتموا تعليمهم فيه ، كذلك المصححون فى الصحف والمطابع وقد دخل نجيب الريحانى فى زمرة المعممين ، حينما اصطنع لنفسه شخصية « كشكش بك » ، وارتدى الجبة والقفطان واللحية ، وراح يمثل شخصية عمدة أثرى من ارتفاع سعر القطن الذى علا فى أعقاب الحرب العالمية الأولى علوا جنونيا ، فجاء يبعثره ويوزعه على راقصات شارع عماد الدين من بنات إسرائيل وبنات الدول الأجنبية الفقيرة ، فى تلك الحقبة أمثال اليونان وبلغاريا . فأصبح بجبته وقفطانه ولحيته البيضاء أشهر شيخ فى مصر ، وإن كان شيخاً زائفاً ، فقد تجاوبت طرق القاهرة وحواريها بأغانى نجيب الريحانى وفى مقدمتها : يا أبو الكشاكش كان جرى لك ايه ، يا هل ترى ؟ وكان ينافس كشكش فى الشهرة شيخ زائف آخر هو الشيخ متلوف الذى ذاعت شهرته منذ ترجم عثمان بك جلال رواية موليير الشهيرة تارتوف باسم « الشيخ متلوف » إلى الرجل المصرى المتقن ، بعد أن مصّر أحداث الرواية تمصيراً بارعاً ، وكان ثمة شيخ زائف ثالث ، هو الشيخ « رويتر » ، وكان رجلاً أمياً يختلف على الندوات السياسية فى نوادى الأحزاب وفى المقاهى ، فيسمع ما يدور فيها ، وينقله إلى سواها ، ويتسمع الأخبار ويبشر المستوزرين بسقوط الوزارات القائمة ، وبترشيحهم لها ، كما يبشر الطامعين فى الباشوية والبكوية ، بالإنعام الملكى السامى ، فى مناسبات الإنعام فى الأعياد ، من جلوس للملك ولميلاده ، وميلاد ولى عهده ، وكان إذا أهل على ناد فى حزب ، أو ندوة فى مقهى رحب به الكبار ، وأفسحوا له ، ولإشاعاته ومفترياته وتلفيقاته صدورهم ، ونفحوه إذا طابت لهم الأخبار بالكثير . . . والحق أن قضية الجبة والقفطان والعمة فى مصر ، فى أيام صبانا ، وبعبارة أخرى قصة المشايخ والشيوخ ملتهبة ، فقد كانت المسرحيات والقفشات والمداعبات والنوادر لا تكف عن اتخاذالمشايخ هدفاً للهجوم الصريح حيناً ، والغمز الخفى حيناً ، ذلك لأن العمامة لم تكن وقفاً على أهل العلم والدين ، باعتبارها مع الجبة والقفطان زيا علميا ، فقد لبسها جميعاً عدد لا يحصى من أعيان الريف ممن لا يقرءون ، ولا يكتبون ولبسها عدد كثير من أهل الحرف من مأذونى

الشرع وخدمة المساجد ، وكذلك المتسولون الذين يتخذون من القرآن وسيلة للاستجداء وعمال المدافن ، ولما كان هؤلاء أكثر اتصالاً بالناس من علماء الدين يحق وكان من جهة أخرى مدرسو اللغة العربية ، ممن يلبسون العمائم والجبب والقفاطين ، وتلاميذ المدارس لا يرحمون مدرسيهم من ضروب شقاوتهم اللفظية والعملية ، فقد أصاب لقب الشيخ أذى كبير ، وكانت الحياة الحديثة قد هزت أسس المجتمع القديم ، فاندفع أكثر أهل المدن إلى اصطناع أساليب الحضارة الحديثة فى الزى والمظهر ، وقطعوا صلتهم بالماضى ، وادعوا علمهم باللغات الأجنبية ، وبأنهم ممن بلغوا الغاية فى التأنق ، والتحضر ، فقد كان الأزهرى تجسيداً حياً للماضى المراد الانفصال منه ، والابتعاد عنه ، وامتحن الأزهريون امتحاناً شديداً ، فإن احتفظوا بزيهم تكلموا العربية الفصحى ، وحرصوا على مقومات المجتمع القديم أحسوا أنهم غرباء ، وأنهم قطعة متلكئة من الماضى ، جديرة بأن تزاح عن طريق التقدم والتطور ، وإن تخففوا شيئاً ما من مظاهر حياتهم الأصلية والقديمة كانوا كالغراب لا هو احتفظ بأصله ، ولا هو نجح فى محاكاة الطاوس .

وأعانت على شدة الأزمة أن الحياة السياسية القائمة على صراع الأحزاب بدأت فى شدة ضارية ، فى أعقاب صدور الحرب العالمية الأولى ، ثم زادت ضراوتها ، وتطلبت هذه الأوضاع الجديدة من علماء الأزهر مواقف محددة ، ولكن بعضهم تذبذب أو انحاز إلى أحزاب غير المتمتعة بتأييد الأغلبية ، فزاد ذلك من حدة النقد الموجه إلى علماء الأزهريين ، وقد ذاع على الألسن يومذاك بيت شعر للشيخ محمد بخيت المطيعى مفتى الديار المصرية معناه أنه « مع الوفد والأمرا والشعب والوزرا » أى أنه مع الجميع ولا يدرى أحد ما : هل هذا قوله أو قاله تهكما على المذبذبين أو كان الشعر تلفيقا من خصومه ؟

واستغل الإنجليز بفظاظة هذا الموقف المتأرجح فصوبوا إلى مقام الأزهر والأزهريين ، سهما مميتاً ، إذ ألفوا أن يدعوا إلى دار المندوب السامى ، فى السابع والعشرين من رمضان كل عام شيخ الأزهر وكبار علمائه من المفتى إلى شيخ مشايخ الطرق الصوفية ، إلى شيوخ المعاهد ، ليحتفلوا مع المندوب السامى البريطانى بليلة القدر ، ويتوجهوا إلى الله العلى الكبير بطيب الدعاء ، ولم يكن فى وسع واحد من

هؤلاء العلماء أن يرفض هذه الدعوة الآثمة ، لأن رفضها معناه عزله من منصبه إن عاجلاً أو آجلاً وحرمانه من مزاياه ، وسد لطريق التقدم فى الحياة الدنيا بكل لذائذها ومتعها .

وزاد الطين بلة أن هذه الدعوة المتحدية لكل مبادىء الشرف والدين ، أيا كان هذا الدين ، مضت عاماً فعاماً توجه على مسمع ومشهد من الرأى العام فى عهد الاحتلال ، وفى عهد حكم الأغلبية الشعبية بعد صدور دستور سنة ١٩٢٣ دون أن تعلو معارضة عنيفة وصارخة ضد الإنجليز وشيوخ الأزهر ، ودون أن يقع اعتداء رادع على هؤلاء الذين كانوا يذهبون إلى دار الحماية البريطانية أو دار المندوب السامى ، فى هدوء النفس ، وراحة البال ، كأنهم لا يأتون أمراً إدًّا ، لذلك كله لم يكن غريباً ، وإن كان مؤلماً إلى أقصى الحد ، أن تؤلف أغان وعبارات تنال من قدر الأزهريين العالى ، مثل قولهم « أزأز فى الأزعر » ولحن بيرم وسيد درويش : « الحق يا شيخ قفاعة ، تلغراف آخر ساعة اللى فى جرنال البورص » .

وفى تلك الأيام ذاع اسم أزهرى فاسد ، وهو الشيخ عبد الظاهر السمالوطى ، الذى تقدم كشاهد ملك ضد عبد الرحمن فهمى قائد ثورة سنة ١٩١٩ ، والمشرف على توجيه حركتها ، وتنفيذ خطتها والنفخ فى جذوتها ، وجمع صفوف المقاتلين تحت رايتها ، والتضييق على خصوم عقيدتها ، فقد اتهم الإنجليز عبد الرحمن فهمى فى مايو سنة ١٩٢٠ ومعه سبعة وعشرون من الشباب بأنهم كونوا « جمعية الانتقام » بقصد خلع السلطان فؤاد وقلب حكومته والتحريض على العصيان والقتل .

وفى الثلاثاء ٢٠ من يولية سنة ١٩٢٠ عقدت محكمة بريطانية برياسة جنرال اسمه « لوصون » أولى جلساتها فى قاعة محكمة الاستئناف بميدان باب الخلق لمحاكمة الزعيم العظيم عبد الرحمن فهمى وزملائه واستمرت ثلاثة أشهر ، وهى شغل الأمة الشاغل ، وكان الاتهام يقوم على افتراءات عبد الظاهر السمالوطى هذا الذى زود النيابة بكل ما كانت فى حاجة إليه لتلفيق هذه القضية ، فأصبح عبد الظاهر قريناً للشيطان عند الناس ، يلعنونه فى الليل والنهار ، فى البيوت والأندية والطرقات

العامة ، ولكن لم يكن أحد يعدُه من الشيوخ ولا من المشايخ ، وإن كان يلبس العمامة والجبة والقفطان وكان قد انتسب إلى المسجد العتيق !

على أنه فى وسعنا أن ننسى كل هذه القبائح فنختتم الحديث عن الأزهر والأزهريين باسمى رجل وشاب لبسا العمامة وطلبا العلم فى الأزهر ، ونبغا بفضله فكانا نموذجين للأزهريين العظماء : أولهما السيد مصطفى لطفى المنفلوطى ، والآخر الشيخ زكى مبارك .

أما المنفلوطى فقد عرفه قراء العربية فى مصر سنة ١٩٠٨ بمقالات أسبوعية بدأ بنشرها فى تلك السنة فى جريدة « المؤيد » التى أخرجها أزهرى آخر هو الشيخ على يوسف ، وما كاد يتوالى ظهورها فى هذه الجريدة اليومية الذائعة تحت عنوان « النظرات » حتى استرعت الأنظار ، ثم أثارت الإعجاب ، وفى أقل القليل أصبح المنفلوطى أحب الكتاب إلى قلوب القراء ، فلما جمع هذه المقالات فى مجموعة باسم هذه الأسبوعيات « النظرات » فى كتاب ونشره على الناس سنة ١٩١٠ ضم إليه ثلاثة وثمانين مقالا ، واثنتى عشرة قصيدة ومقطوعة شعرية ، حتى تهافت الناس على اقتنائها ، فبيع من الطبعة الأولى منها ــ على ما أخبرنى المرحوم محمد راشد رستم الذى فقدناه أخيراً عشرة آلاف نسخة ، وهو رقم لم يصل إليه حتى اليوم عدد المبيع من كتب أكبر الكتاب ، إلا فى القليل والنادر ، وقد أهدى المنفلوطى الطبعة الأولى من النظرات إلى ثلاثة كانوا جميعاً من الشيوخ المعممين الذين طلبوا العلم فى الأزهر وانتسبوا إليه هم على حد عبارته هو فى الإهداء : « ولى نفسى والدى السيد محمد لطفى ، وولى عقلى أستاذى الشيخ محمْد عبده ، وولى أمرى سيدى سعد زغلول باشا » .

ولكن ولاء المنفلوطى لأستاذه ، وولى نعمته حقا ، سعد زغلول ، لم يخرجه ، كما أخرج الآخرين من ذوى النفوس الضعيفة عن طريق الوطنية الصحيح ، فعرف قدر مصطفى كامل ، كباعث للوطنية فى مصر ، وقائد لحركتها ورمز لنهضتها ، فلما قبض مصطفى إلى بارئه أحسن توديعه فقال :

« مات مصطفى كامل فعرفنا الموت ، وما كنا نعرفه قبل ذلك لأننا ما كنا نرى

إلا أمواتا ينقلون من ظهر الأرض إلى بطنها ، أما مصطفى كامل فكان حياة حقيقية فكان موته كذلك .

كان الوطنيون قبل اليوم يتكلمون ، فلما جاء مصطفى كامل علمهم كيف يصيحون فلما صاحوا وأسمعوا عرفوا أن آذان السياسة لا يخترقها إلا الصوت الجهورى ولولاه ما كانوا يعرفون .

كان الوطنيون يحتقرون أنفسهم ويسيئون الظن بها فلا يصدقون أن تربة مصر تنبت أمثال فولتير وهوجو وغاريبالدى وواشنطن ، فلما نبغ بينهم مصطفى كامل عرفوا أن تربة مصر لا تختلف كثيرا وتربة غيرها لو تعهدها الزارعون .

فيأيها القارىء الكريم إن كان لك ولد تحب أن تجعله رجلا فاجعل بين يديه حياة مصطفى كامل ليتعلم منها الشجاعة والإقدام !

أيها الراحل المودع ، طبت حيا وميتا ، خدمت أمتك فى حياتك وبعد مماتك ، لولا حياتك ما نمت العاطفة الوطنية فى نفوس المصريين ، ولولا مماتك ما عرف العالم أجمع أن الأمة المصرية على اختلاف مشاربها ومذاهبها تجمعها كلمة واحدة وهى حب الوطن وحب رجاله العاملين » .

وقد توالت بعد ذلك للمنفلوطى آثار ، كانت قصصا ، ومسرحيات فرنسية ، فنقلها إلى العربية عن ترجمة لبعض أصدقائه طلبوا إليه أن يهذبها وينشرها على الناس بلغته وأسلوبه هو لتكون أنصع عبارة ، وأجمل صياغة ، وأعذب فى آذان الناس ، وأقرب إلى قلوبهم ، وظاهرٌ هذا بوضوح من مقدمته لمسرحية سيرانودى برجراك التى وضعها شعرا أدمون روستان فقد قال المنفلوطى : « أطلعنى حضرة الصديق الكريم الدكتور محمد عبد السلام الجندى على هذه الرواية التى عربها عن اللغة الفرنسية تعريبا حرفيا حافظ فيه على الأصل محافظة دقيقة وطلب إلى أن أهذب عبارتها ليقدمها إلى فرقة تمثيلية . . . » .

ويستشف هذا المعنى بدرجة أقل وضوحا فى مقدمة زواية فى سبيل التاج التى وضعها الكاتب والمترجم القدير الأستاذ حسن الشريف عليه رحمة الله .

أما الأزهرى الآخر ، وهو الشيخ زكى مبارك ، فقد خاض غمار ثورة ١٩١٩ ، وعلى رأسه العمامة وعلى جسده الجبة والقفطان ، نحيفا ضعيفا ، ولكن كان مليئا بالعزم ؛ يتوثب لنزال أعداء البلد بالقلم واللسان واليد ، يخطب على منبر الأزهر ، وغيره من المساجد والأماكن العامة مستلهما روح مصطفى كامل سائرا فى دربه ، ويكتب المقالات فى جرائد الحزب الوطنى ، كما يدبج المنشورات المهيجة للخواطر ، والمؤلبة للجموع ، يود أن يقتلع الإنجليز من جذورهم فى بلاده ، وأن يراهم خارج حمى هذا الوطن ، والسيوف فى أعناقهم ، والأحذية فى أعجازهم ، واللعنات تصاحب خطاهم وتسبقهم ، فاعتقل ونفى النفى الداخلى ، إلى صحراء مصر الجديدة وصحراء الإسكندرية فى سيدى بشر ، فزاد عزما على النضال ، وكرها للإنجليز ، واحتقاراللمساومين ، من زعماء الأحزاب الأخرى ، الذين يتخذون من السياسة سبيلا للجاه ، وأداة لاقتناص المغانم . .

على أنه إلى جانب هذا العالم الظاهر الذى يعيش فيه المشايخ ، ويؤثرون فى الناس رضا وسخطا وإعجابا واستهجانا ــ عالم سفلى لنوع آخر من المشايخ لا يظهرون إلا فى الظلام ، ولا يعملون إلا فى الخفاء ولهم مع ذلك تأثير أكبر ، وقد كونوا جيشا عرمرما .

غير أنه لحق بهم ، من الرجال والنساء ، منهم دجالون ومشعوذون ، فأسطوات « زار » ، يدعون الكرامة ، والقدرة على معرفة الغيب ، وشفاء المرضى ، وجمع الأحبة ، وإزالة العمل السيىء وتحقيق المعجزات بالسحر والاتصال بالأرواح والاستعانة بالأشباح واستخدام الجن ، واستعمال السحر ، وقد راجت سوق هؤلاء حتى كاد يكون لكل بيت شيخ يستعان به فى الملمات ، كما أن لكل بيت طبيبا يقصد عند الأمراض والآفات ، وهؤلاء لا يقنعون بأكل المال الحرام بترويج بضاعتهم الزائفة من أحجبة وتعاويذ بل يضيفون إليها قائمة طويلة من جرائم الأخلاق من تحسين الفحشاء إلى ممارستها مع ضحاياهم من الرجال والنساء .

ولقد زرت شيخا من هؤلاء أيام صباى ، وما زلت أذكر داره فى ناحية قريبة من سراى عابدين ، دخلت فى شقة هادئة ، ضوؤها قليل ، استجلابا للرهبة ، وإضفاء المهابة على المكان ، ثم دلف إلينا رجل بطىء الحركة يسبقه بطن متدلٍ ،

ومد يدا سمينة رخصة تحس بلينها وامتلائها عند المصافحة له وكأنها قطعة من عجين ، واستمع فى هدوء ، ثم صمت وشرد ، ولم يهتز ولم يبسمل أو يحوقل ، وإنما تكلم فى صوت خافت فكأنه طراز خاص بين وحوش هذه الغابة ، التى منها آكلو اللحوم ومنها الأفاعى السامة ومنهم من يتسلق الأشجار ومنهم من يتسلل ولا يصدر عنه صوت ولا يخلف وراءه أثرا ، فأرهفت الأذن لسماعه ، وانصرفت السيدة التى كانت معى ، والتى لا أذكر من تكون الآن ، وقد سرى عنها ، وبدا ذلك واضحا فى صوتها ووجهها كأنما حاجتها قضيت لها ، وسمعت بعد ذلك اسم الشيخ « محمد » يتردد ، ولكن الذى أذكره وأؤكده أن بيتنا لم يكن ممن يعتقد صدق هذه الطائفة من القوم ، أو يلتمس منها العون ، أو يوسطها عند الله لقضاء الحاجات ، بل إن أمى كانت معى فى زيارة السيد أحمد البدوى فى طنطا ذات يوم ، فلما رأيت الناس يقتربون من الضريح ، ويتعلقون بشباكه النحاسى ، ويهمسون بشىء ، وددت أن أحاكيهم ، وليس لدى حاجة أطلبها ، إنما هو حب التقليد ، فردتنى أمى بعنف وكأنى أجرمت ، ولقد كنت أسمعها وأسمع أبى يقولان عن هؤلاء الصالحين : إنهم ناس طيبون ! ولا يزيدون ، بل إن أمى رأت فى المنام ، السيد أحمد البدوى ، وهى حامل بى ، فبشرها بمقدم صبى وكان أولادها الذكور لا يعيشون وأصبح الولد الذكر أملا يرتجى وقال لها : سموا المولود فتح الله ! وجئت أنا بعد ذلك المنام بقليل فأسمونى « فتحى » ولم يسمونى « فتح الله » ، لأن أحدا لم يتصور أن هذا أمر من السيد أحمد البدوى ، أو أنه يملك أن يأمر أو أن ينهى .

* * *

ويبدو أن حديث المشايخ لو تركنا أنفسنا على السجية ، ولم نضع عليها قيودا ، ما انتهى ، ولابد لنا من أن ننتقل إلى حديث الخواجات ، فلا مفر من فرض وقفة حيثما اتفق . ولا بأس من أن يكون ختام حديث المشايخ ، حديثا عن المجاهد المغربى السيد أحمد البدوى .

أما حديث الخواجات فيبدأ من الحملة الفرنسية ، فقد عرف المصريون الأجانب ، وعرفوا أسلوبهم فى الحياة ، وطريقتهم فى التفكير ، ومبادئهم فى الحكم ، وأدواتهم فى ارتياد المجهول وتحصيل المعرفة عندما اصطدم المجتمع المصرى

الإسلامى الراجع إلى القرون الوسطى ، فى الماديات والمعنويات وجيش الثورة الفرنسية ، ليفتح عينيه على عالم جديد غاية الجدة ، جديد حتى على أوروبا نفسها ، فقد كان جيش أمة ثائرة ، فرغت لتوها من ثل عرش ملوكها القديم ، وفى هدم مجتمعها الموروث ، وفى إزالة الأحكام والقوانين والأفكار التى سادت أوربا قرونا .

ومنذ ذلك اليوم وأوربا تعالج أن « تغرِّب » الشرق ، أى أن تحبب لأهل الشرق أفكار الغرب وأساليب حياته ، ومبادئه ، وأن تنفره من أفكاره وحياته وحضارته وثقافته وجميع ما ورثه عن الآباء والأجداد ، وكانت عملية التغريب هى ضمان الغزاة والفاتحين فى إسكات صوت ضمائر أهل الدول المفتوحة التى تدعوهم إلى المقاومة ، وإضعاف حافز الرفض عندهم ، ولقد سارت أوربا شوطا بعيدا فى هذه الحملة القوية التى ثابرت عليها ، وبذلت فى سبيلها الكثير ، ودبرت لها فأحسنت التدبير ، حتى استمالت أكثر أهل البلاد المفتوحة ، وما بقى على مقاومته ، إما أن يشعر بأنه متروك ومتخلف وعاجز عن مسايرة الحياة ، وإما أنه صاحب رسالة لا أنصار لها ولا أعوان ولا مستقبل .

لقد فتحت عينى على الدنيا ، فرأيت كل ما هو مصرى وعربى وشرقى ينسحب ويذبل ويتوارى تاركا مكانه للبريطانى والفرنسى والطليانى ، فنحن نلبس البذلة الأجنبية ، ونشتريها من محال تحمل أسماء أجنبية صريحة مثل « موروم » ، أو « شيكوريل » ، أو « بلاتشى » أو « سلامندر » ، وكنا نحرص على أن يكون حذاؤ نا من متجر إنجليزى اسمه « روبرت هيوز » وقمصاننا من محل إنجليزى آخر اسمه « ديفز براين » . وكانت ملابسنا تحمل بدورها أسماء إنجليزية أو فرنسية : فالسترة هى الجاكت ، التى نقول عنها جاكتة ويقول عنها العوام « زاكتة » ، والسراويل هى « البنطلون » ، وربطة الرقبة هى الكرافت ، وملابس السيدات كلها أجنبية فالصدرية هى « الشميزيت » والقسم الأدنى من ملابس السيدات هى « الجونيلا » بالإيطالية والمخرمات هى « الدانتيلا » والشريط هو « الفيونكا » ، وما نركبه هو « الترماى » والمحصل هو الكومسارى أى الكوميسير . وأطعمتنا كلها أو أكثرها تحمل أسماء أجنبية فالبسطة باليونانية أو الجاتوه بالفرنسية ، والصحيفة اليومية هى « الجرنال » والخطاب يصل بالبوستة ، وما نستعمله فى الانتقال والاتصال إما الوابور ، وإما التلغراف أو التليفون ، والشركة هى « الكوبانية »

والمصنع هو (الفابريقة) تصحيفا للفظ « فابريك » أو الورشة تصحيفا للفظ « ورك شوب » ، والآف من ألفاظ الحياة اليومية كالكارت والقومندان والباسبور والقومسيون والفيزا والاسبتالية والروشتة ، وهى ألفاظ تجرى على ألسنة الأميين والمتعلمين على السواء ومنهم من يفهم معناها ومنهم من يرددها وهو لا يدرى لها أصولا !

وأحاول أن أتذكر الذين كنت أعاملهم من الأجانب فأجدهم يتجاوزون الحصر ؛ فالمصور الذى أحمض عنده الصور هو « يني إسباناكيدس » فى الحى و « زولا » فى وسط المدينة ، والحلوانى الذى نشترى منه الفطائر والحلويات هو جروبى أو لاباس أو تسيباس أو صولت أو ليمونيا ، والفرن الذى نحصل منه على الرغيف « الفينو » هو فرن « كوستى » وهكذا . . وهكذا .

والأجانب هم الرؤساء فى الشركات والمرافق العامة ، يتقدمهم ويتصدرهم الإنجليز ، ثم يأتى بعدهم الفرنسيون والطليان ، والبلجيكيون ، ثم تأتى طبقة أجانب من الأروام أو اليونانين والبلغار ثم فئة ثالثة من اليهود الأجانب فاليهود المصريون ثم اللبنانيون والسوريون المسيحيون ، ثم يأتى المصريون ليعملوا فى المؤسسات الأجنبية العامة والخاصة خدما بجلابيب . وإن كانت جلابية من الصوف الغالى . والألفاظ كلها فى التعامل مع هذه المؤسسات سواء كنت متعلما أو أميا ألفاظ أجنبية ، والأوراق والإيصالات والخطابات والإنذارات والعقود كلها بالفرنسية وأقلها بالإنجليزية . فقل أن يتاح لمصرى أن يقابل مديرا من مديرى هذه المؤسسات أو نائبه أو مساعد نائبه ، فالمصرى لا ينال الإ شرف التحدث إلى أجنبى يتوطن فى مصر ، يتكلم العربيه بطلاقة ولكن بلكنة أجنبية واضحة . ولا يصل إلى شرف مقابلة الرؤساء الأجانب إلا الوزراء الحاليون والسابقون والباشوات وأصحاب الضياع الواسعة والأموال الوافرة !

وكل أجنبى يتقدم على كل مصرى أو عربى أو شرقى حتى الكلاب : فالكلب الرومى هو أفضل وأنظف وأقوى من الكلب المصرى ، أى البلدى ، والرومى هو عنوان على الأجنبى ، سواء كان بريطانيا أو فرنسيا كالبولدوج أو الوولف .

والأعياد المصريه ، قاومت كثيرا ، بفضل روح الشعب فى الأحياء الوطنية وفى

الريف ، فاحتفظت بحيويتها وبصحتها وخصائصها الزاهية ، ولكن لم تنفع هذه المقاومة إلا قليلا فأصبح عيد رأس السنة والكريسماس ، هى الأعياد التى يهتم بها الجميع ويسهرون حتى الصباح ، واختفت شيئاً فشيئاً المأكولات المصرية الشهية والمشروبات البلدية الشهيرة ، والتقاليد المصرية الرائعة التى تقوى روح الجماعة ، وتجدد نشاط النفوس وإقبالها على الحياة . وحلت محلها تقاليد مهجنة ، اختفت « المنادر » من البيوت ، وما كانت تستقبله كل مساء ، من الأصدقاء وجيران الحى ، للسمر الأدبى والاجتماعى ، وتوارت نهائيا الاحتفالات برؤية هلال رمضان ، وبوفاء النيل حتى قبل إقامة السد العالى بسنين طويلة ، ولم يعد لمدننا شخصية ، وزحفت المعايير الغربية الجافية الخالية من الروح على أحيائنا القديمةوالجديدة معا .

وأصبح الخواجة هو المثل الأعلى ، فهو الرجل الأمين العالم النظيف المنظم الكفء ، وكل ما يعمله صحيح . وكل مايقول به صواب ، وكل مايشير به واجب ، كذلك أصبحت المرأة الأجنبية مثالا تحتذيه المرأة المصرية فى الملبس والمظهر وأسلوب التفكير ، وأصبح الإنسان المصرى تقليدا ومحاكاة ، واختفى الإنسان المصرى الأصيل ، حتى حينمايفكر ، يفكر بعقل غيره ، وحينما يتذوق ، يستعير ذوق سواه ، ونضبت موارد الابتكار والخلق ، وزالت أسباب الثقة بالنفس والاطمئنان إليها ، وتناقص دور المشايخ باختلاف طوائفهم وطبقاتهم !

وقد كانت الخسارة فادحة ، لأن الاستعمار الغربى لم يصل إلى هذه النتيجة إلا بعد عملية تدمير مادية وروحية استمرت قرنا من الزمان فى دأب عجيب ، فالخواجة وقف على رأس المجتمع المصرى ، وقد تمثل الخواجة الأكبر فى المندوب السامى البريطانى ، فأصبح هو حاكم مصر الحقيقى ، ينهى ويأمر ، ويخيف الملك المصرى ، كما يخيف الوزراء ويغريهم ويمنيهم ، فالذى يتحدى إرادته ، أو يتجاهل وجوده - يفقد مستقبله السياسى فور اللحظة ، وقد قالها صريحة اللورد كيلرن آخر الطغاة الإنجليز فى مصر ، فى رسائله السرية لوزير خارجية بريطانيا ، وكانت كل سفارة أجنبية تحتمى بالاحتلال البريطانى من جهة ، وبالامتيازات الأجنبية من جهة أخرى ، فتمارس سلطانا غير شرعى خاصا فى دويلة تقيمها فى مصر .

وكان من آثار هذا السلطان غير الشرعى أن يكون فى مقدور أى حاجب فى أى

قنصلية أجنبية أن يعترض على حكم نهائى صدر من محكمة مصر ومتوج باسم رئيس البلاد .

ولقد زال هذا العدوان السافر بعد سقوط الملك والملكية وانسحاب الاحتلال البريطانى ،ولاسيما بعد تأميم قناة السويس ، وهزيمة الغرب الأوربى الكبرى بعد هذا التأميم .

ولست أنسى يوما رأيت فيه أستاذى المرحوم الدكتور محمد مصطفى القللى وقد تعلمنا على يديه قانونى العقوبات وتحقيق الجنايات فى كلية الحقوق فى الطريق ، فاستوقفنى وهو دامع العينين ، وقال : ألم تر اليوم الصورة المنشورة فى صدر الجرائد ؟ قلت له : رأيتها ؛ قال : ألم تر فى قفص الاتهام أعضاء السفارة الفرنسية ، وعلى مقربة منهم كبار المحامين الفرنسيين جاءواليراقبوا المحاكمة ويشهدوا ولا يتكلمون ، من كان يصدق أن هذا كان يمكن أن يحدث فى مصر التى انتهك استقلالها قناصل الدول الصغيرة والحقيرة استمراء للنفوذ المسلوب منا بفضل الاحتلال ، ولم يكتف الأجنبى بذلك فقد أقام لاستعماره الثقافى صروحا وقلاعا فى المدارس الأجنبية ، فكانت تعلم أولادنا وبناتنا كل شىء إلا تاريخنا وجغرافية بلادنا ولغتنا وديننا ، ولم يكن فى وسع وزير التربية المصرى ، أن يقتحم هذه القلاع الآثمة ، ولكن حينما سقط الملك ، وزالت الملكية ، وانتهى الاحتلال أصبحت هذه المدارس ، مدارس لمصر ، تعلم لغتها ودينها وتاريخها وتدعو لأمجادها ، فلنذكر ذلك فإن نسيانه من الجحود الذى يعاقب عليه الله العظيم ، ولم يقنع الأجنبى بكل هذا الخراب الروحى فأقام لكل عشرة من الأجانب الذين ينتمون إلى طائفة فى دين محكمة تحكم فى قضية هذه الطائفة ، ويكفى أن تختم هذه المحكمة الهزلية ورقة بخاتمها لتكون حكما ، ولينحنى القضاء المصرى والإرادة المصرية له ، ويتركه يسرح ويمرح . . . هذه المحاكم الملية أو المجالس الملية كما كانوا يسمونها ، زالت بجرة قلم بعد أن سقطت الملكية والاحتلال ، وذهب الخواجة البغيض إلى غير رجعة ، فلنذكر ذلك أيضا ، ولا ننسه ، فقد كان عدوانا صارخا ومهينا لاستقلال قضائنا وكرامة محاكمنا . .

والمصارف الأجنبية التى كانت تنهب ثرواتنا ، وتحولها للخارج دون أن تستورد من الخارج مليما ، تلك المصارف التى عاشت سنين تزعم أنها تمول اقتصادنا ، وتعين

تقدمنا المادى ، عادت إلينا ، بعد أن كنا لا ندخلها ـ كما قلنا ـ إلا فى شكل خدم يلبسون الجلاليب والخواجات من حثالات الأمم يترأسون ويأمرون وينهون . . . ومن واجبنا أن نحسن استغلالها ونجعلها أدوات حقا لا ادعاء للتنمية القومية .

انتهى عهد الخواجة البغيض . .

فلنحمد الله على ذلك ، ولنتحدث به ، ونتحدث عنه ، فإنه زاد للمستقبل لا غنى عنه لأنه لايزال أمامنا الكثير .

ولكن كيف تكون مصر ، بعد زوال حكمه وطغيانه ؟ ما صورتها الجديدة ؟ وماذا يكون فيها دور شيوخها الأماجد ، وثقافتها التليدة ، وروحها التى قاومت الزمن ؟

أسئلة لايزال علينا أن نجيب عنها وبأسرع مما نتصور ، وإلا سبقنا الزمن ، وتركنا حيارى !

أخواتى الثلاث (١)

لو لم يمنحنى الله أولئك الأخوات الثلاث ، وحبهن ، والمثل الذى ضربنه ، لكان ممكناً أن تشكل حياتى ، على صورة أخرى .

وحب الأخت ، لأخيها ، ميراث عربى مصرى ، فالخنساء التى بكت أخاها « صخرا » فى شعر يفيض أسى ودموعاً ، رمز على المرأة العربية ، المصرية ، على طول التاريخ ، وقد كنت الولد الوحيد ، وكنت أصغر الأولاد ، وأكثر أفراد الأسرة مرضاً ، وقد كان لى شبيه فى فرع آخر من الأسرة ، فقد كان ابن خالة أمى ، الولد الوحيد مع ثلاث من الشقيقات ، وكان رجلاً فاضلاً ووطنيا شجاعاً ، مثل بلده فى الجمعية التشريعية ، وكان من نواب الحزب الوطنى آنذاك ، وأثبتت تحقيقات قضية السردار « لى ستاك باشا » المفتش العام للجيش المصرى . أن قريب أمى هذا كان عوناً لهذه الجماعة الوطنية الباسلة ، التى تصدت للمحتلين بالحديد والنار ، فقتلت من ضباط جيش الاحتلال وجنوده وموظفيه عدداً غير قليل ، فكان يعطيها السلاح . وينقل أفرادها بعربته ، وقد تضامن فى هذا العمل السرى الباهر ، مع مجاهد وطنى عظيم هو المرحوم عبد اللطيف الصوفانى ، وقد أصدرت النيابة أمراً بالقبض على كليهما ، وكان من غرائب المصادفات أن كلا منهما مات قبل أن ينفذ عليه هذا الأمر . . وقد بلغ من حب الناس له أنه أسقط فى أول انتخابات سنة ١٩٢٤ فكرى أباظة الكاتب والخطيب والمحامى فى دائرة بلبيس .

وقد كنت صبيا صغيراً عندما سمعت بوفاة هذا القريب الوطنى عمر بك مراد وهذا اسمه ، ورأيت من دلائل حزن أخواته عليه ، كأنه الأب ، والابن والزوج فى آن واحد ، ماجعلنى أدرك وأنا بعد فى مطالع الحياة ، كيف تحب المرأة المصرية أخاها ، وقد سرنى أن أكون شبيهاً بمجاهد وطنى منكر لذاته ، كاره للشهرة ، مستهدف للخطر ، فى صمت عميق ووقور ، وبقيت أذكر ليلة ، من ليالى رمضان ، صحبنى فيها هذا القريب العظيم إلى منزل عبد اللطيف الصوفانى ، فى الحلمية ، فقد لبثنا فى قاعة الضيوف ، حتى أدى الصوفانى فريضة العشاء ، ثم دخل علينا ، فى جبته وقفطانه وعمامته . تأخذ العين ، تقاطيع وجهه الضخمة ، واحمرار بشرته الشديد ، وثقته بنفسه ، ولما رأيته بعد ذلك ، فى مجلس النواب ، يجادل « سعد زغلول » استولى على لون من البهجة والاعتزاز ، حتى خيل إلى أن من حقى أن أعلن لمن كان معى من زوار المجلس فى الشرفة المطلة على قاعته ؛ أنى أعرف هذا الرجل العظيم .

وقد أبى القدر إلا أن يكون أزواج أخواتى الثلاث ، أصدقاء لى ، لامجرد أصهار ، وأن يكون اثنان منهم من المدرسة الوطنية التى أنتمى إليها ، وأن تنشأ الصداقة بينى وبين أكبرهم ، وهو زوج أختى الكبرى ، والفارق فى السن بينى وبينه ، يكاد يكون ربع قرن من الزمان . ومع ذلك استطعنا أن نتبادل الأحاديث ، وأن نتقارب أمزجتنا ، حتى يزول فارق السن ، فلا يعود أحد منا يذكره .

ولما كان أبى مهندساً للرى كثير الغياب عن بيته لفرط حبه لعمله من جهة ، ولأن والدتى آثرت أن نعيش فى القاهرة نتعلم فى مدارسها وننشأ فى أحيائها ، على أن نصحب والدنا فى مراكز الصعيد التى تنقل بينها من الجيزة إلى سوهاج مركزاً مركزاً فقد كنت ممثل الأسرة ، ورجلها حينما خطبت أختى الكبرى إلى زوجها ، وهذا منحنى قدراً مبكراً من الثقة بالنفس أعاننى على أن أنظر إلى نفسى ، على الرغم من شدة ميلى للحركة والركض والقفز وكرة القدم والملاكمة كأنى رجل ، دون اصطناع الوقار ، أو ادعاء المكانة .

أما زوج أختى الوسطى ، فقد تقدم لخطبتها وأنا تلميذ فى مدرسة أسيوط الثانوية أشرف على تحرير مجلتها التى كانت آنذاك أولى مجلات المدارس الثانوية ، فى

ريف مصر وصعيدها معاً ، وقد نسجت فى تحريرها وتبويبها على منوال صحيفة المدرسة الخديوية فى القاهرة التى كانت زعيمة المدارس الثانوية فى الرياضة والفنون . فإذا بى أظفر فى شخص هذا الصهر الجديد بصديق يختلف فى كل شيء ، وعن زوج أختى الكبيرة :

فقد كان أولهما رجلاً جادًّا رصيناً ، لا يكف عن القراءة ، حصل على شهادة البكالوريا مرتين ، واحدة للقسم الأدبى وأخرى للقسم العلمى ، وحصل على الليسانس مرتين ، مرة من مدرسة الحقوق ، وأخرى من مدرسة المعلمين العليا ، فى حين كان الثانى طفلاً مرحاً ، لا يستقر فى مكان ، صاحب صوت جميل ، ولكنه لا يتم أغنية ، يضحك من أعماق قلبه ، ويحب أهله وذوى قرابته ، وأصدقاءه ، ولا يطيق استماع كلام أحد إلى آخره ، وهو لا يروى لأحد قصة كاملة وإنما ينتقل من شيء إلى آخر ، ومن نبأ إلى خبر ، ومع ذلك يحب مهنة المحاماة التى كانت مهنته ويحيط بقضاياه ، من قراءة سريعة خاطفة ويترافع فى طلاقة دون جهد ولا عناء . يكتب بخط جميل مقروء كلاماً حسناً يطلقه على سجيته . ثم لا يكربه هم ولا يشغله الغد ولا تهمه الشئون العامة فى قليل أو كثير .

وكان إذا جاء يوم الخميس من مدينة طهطا حيث كان يمارس عمله انتزعنى من كتبى . ولو كنت على أبواب الامتحان ، لا يهمه أن أنجح أو أسقط ، وأهرب منه فلا يكف عن التماسى فى كل مكان حتى يجدنى . وقد أوشكت فعلا أن أسقط فى امتحان شهادة الكفاءة وهى تساوى الآن شهادة الإعدادية ، . لانشغالى طول السنة بمجلة المدرسة وجمعية الخطابة فيها ، ولانشغالى فى الأسابيع الأخيرة من السنة ، بصهرى العزيز ، وصور مرحه التى تنسى الإنسان همومه ووساوسه ، وتنتزعه من مخاوفه وهواجسه .

أما أختى الصغيرة ، فقد كان زوجها قريباً لى من جهة ومن جهة أخرى زميلا لى فى مصر الفتاة وفى الحزب الوطنى ، وكان نموذجاً يخالف عديليه ؛ فقد كان سليل باشوات ، عن طريق أمه وأبيه : جده الأعلى باشا ، وجداه ظفر كل منهما بالباشوية فى العهود الخديوية ، وتركا لأبنائهما وبناتهما آلاف الأفدنة . فى عشرات العزب والضياع فى أكثر من محافظة ، ولكنه خرج من هذه الألقاب ، وتلك الثروات فلاحاً

بسيطاً ، غنيا بمواهب لا عد لها ، فقد كان مصوراً باليد والفوتغرافية ، نجاراً تخرج من تحت يده قطع الأثاث الفاخر ، صياداً يصطاد الطائر المحلق فى أجواز الفضاء ، وهو يحمل بندقيته بيد واحدة ثم يصف عشرات الزجاجات فيصيب أعناقها الواحدة إثر الأخرى بقذائف بندقيته لا يخطىء واحدة منها ، ثم هو نحّال لا يباريه فى العلم بالنحل ، بالمطالعة والتجربة نحال محترف آخر ، ثم هو عالم بالزراعة العلمية ، وهو آخر الأمر ، صامت متواضع يجلس بين الناس يستمع إلى أقلهم علماً ، وكأنه لا يعرف فى الحياة شيئاً ، يحب بلده ، إلى درجة العبادة . فى حرب السويس ، حينما صار الإنجليز على مقربة من الإسماعيلية ، أخذ أولاده وعدداً من الفلاحين ، وربض ومعه بندقيته ، تاركاً أرضه وزراعاته ، فقد كانت عزبته فى طريق الإنجليز من بورسعيد إلى القاهرة .

وقد يعترض معترض فيقول هل الحديث عن أخواتك أو عن أزواجهن ؟ والجواب حاضر ، فقد كانت علاقتى بهؤلاء الرجال ، صدى لصلتى بزوجاتهم ، وأنى أترك نفسى على سجيتها فى هذه الذكريات ، لا ألزمها خطا حازماً ، وإلا فقدت تلقائيتها وبساطتها ، وأصبحت بحثاً أدبيا ، لا صورة نفسية ، لصبى ، يعيش فى بساطة السنوات الأولى ، بغير تكلف أو اصطناع . .

وقد جرى فى دم أخواتى الثلاث ، حب بلادهن والانشغال المقيم المعقد بشئونها العامة ، فقد ورثن ذلك عن أمهن ، وبقى هذا الهوى معهن حتى توفى الله كبراهن وصغراهن ، ولكيلا تحسب أن ما أقوله عنهن ، من قبيل تعصب الأخ لأخواته ، فإنى سأروى لك شيئاً عن آخر ذكرياتى عن آخر أيام أختى الكبرى التى اختارها الله لجواره ، منذ عام وبعض العام . فقد أصابتها علة القلب . وكان يعودها ، طبيب قلب شاب ذاعت شهرته ، وأعنى به الدكتور حمدى السيد ، فقد أخبرنى صديقى المستشار إبراهيم حسنين حلمى أنه سمع من الدكتور حمدى ذاته وصفاً لدهشته لما كانت تبديه أختى ، وهى تعالج سكرات الموت ، من الحرص على التعليق على شئون مصر وما يجرى فيها ، كأنها فى أتم صحتها وكأن العمر ممدود أمامها . ولقد كان من أولادها من غرق فى السياسة إلى أذنيه ، واختار بين دروب العمل العام وسبله ، أشدها خطراً . وأكثرها اتصالا بالسجون والمعتقلات ، فبقيت أختى حريصة على أداء واجبها نحوه ، لا تشكو ولا تتململ ، ولا تحاول أن تثنى عزمه

ولا أن تطلب منه الرأفة بها أو التخفيف عليها . بل إنها لم تلجأ إلى ، وابنها يزج به إلى السجون والليمانات وينفى إلى أقصى الأرض ، وربما كان فى وسعى ، أن أخفف عنه ، ولست أنسى يوماً كنت متجهاً بسيارة الدولة إلى عمل فى حلوان فمررت فى طريقى إليها ، بليمان طرة ، وإذا بشقيقتى هذه - تغمدها الله بواسع رحمته وأسكنها فسيح جناته - على باب الليمان وفى يدها حقيبة ، لابد أنها كانت تحوى ملابس ابنها السجين ، ولمحتها فى هذه الحال ، والسيارة تمرق كالسهم ، فصدرت عنى أنة ، هزت نفسى هزا ، فالتفت إلى سائق السيارة وقد خشى أن يكون قد أصابنى مكروه فتجلدت وتماسكت ، وفى عينى دموع ، وقلت متصنعاً : « مررنا بمدافن هنا ، فذكرت عزيزاً ، لحده بها . . » فهز السائق الحاج عبد العزيز حسيب رأسه متظاهراً بالتصديق ، والطريف أن سائقى هذا كان من أنصار الحزب الوطنى عرفته فى اجتماعات الحزب ، منذ ترددت على ناديه ، وأنا بعد طالب فى الجامعة ، ثم عرفت أنه اعتقل ، فى عيون موسى ، فترة من الزمن غير قصيرة لمجرد أنه زار منزل المرحوم حسن البنا ، ليعزى ذوى قرابته فى وفاته .

وقد أصابت أختى الكبرى الحمى الروماتزمية وهى بعد طفلة ، وخيف يومئذ على حياتها ، فقد كادت تصل هذه الحمى الملعونة إلى قلب أختى ، فلما تزوجت كان والداها مشفقين عليها غاية الإشفاق من الحمل والوضع وتربية الأولاد ، وما يقتضيه كل هذا من سهر وجهد ، ولكن مضت حياتها الزوجية ، ميسرة ، وكان أولادها جميعاً أصحاء البدن ، والأعصاب . ولم أسمع طوال عمرها أنها شكت حتى من زكام ، فالمرض الوحيد الذى عانت منه ، هو المرض الأخير ، أو قل هو المرض الأول ، الذى اتصل بالوفاة ، وقد واجهت الموت ، كما فعلت أختها الصغرى ، ووالدها قبل أختها فى شجاعة وعدم اكتراث إلى حد أنها كانت تمازح طبيبها ؛ وهو يكتب الدواء ، ويشرح سبيل العلاج قائلة : « وفيم هذا الجهد كله ، ولا نفع منى لأحد ، وقد بليت أعضائى . حتى بات كل منها فى حاجة إلى ترميم وترقيع !» . ولعلى لم أعرف فى حياتى إنساناً رجلا كان أو امرأة ، فى مثل صفاء طبع ، وسلامة مزاج أختى الكبيرة ، فقد مضت سنوات حياتها متصلة دون أن أراها ، ولو للحظة غاضبة من شىء أو من شخص ، ولم أسمع طوال هذه الحياة ، منها لفظة واحدة ، تجرح أو تسىء .

وعلى الرغم من وداعتها ، وسعة صدرها لم تعرف التردد ، ولم يطف بها طائف من ضعف ، فى أحلك الساعات فقد كنت معها حينما ماتت أمى ، وحينما مات أبى ، وحينما فارقتنا أختنا الصغرى بعد مرض وبيل هو بين الأمراض أشدها قسوة ، وأفدحها ألماً ، ثم رأيتها حينما فقدت زوجها ، فكانت دائماً هى هى ، ثابتة الجنان ، هادئة النفس ، لا ينالها اضطراب ، ولا تند عنها صرخة ، ولو خافتة ، وفى قلبها من الحزن ما فيه .

ولقد تعلمت أختى فى سنى حياتها المبكرة بفرع مدرسة « فكتوريا » فى مدينة المنيا ، حينما كان يعمل أبى فيها مهندساً للرى . ثم تلقت نصيباً أكبر فى مدارس القاهرة ، ولكنها لم تواصل تعليمها ، وتولت تثقيف نفسها ، وفى تلك السنين المبكرة ، تلقت بعض دروس فى « البيانو » ولكنها انقطعت عن هذه الدروس وإن بقيت فى شوق دائم إلى معاودتها واستئنافها ، إنها لم تكن تقع فى حيرة لفترة ، أو يشرد ذهنها لسبب من الأسباب حتى ترى أصابعها تؤدى دوراً من أدوار البيانو القديمة على ظاهر يدها، أو على علبة الكبريت أو على المنضدة التى تقف أمامها ، وقد كنا نمازحها ونداعبها بسبب هذه اللازمة التى لا تفارقها ، وفى ذات يوم ، أصدرت وأنا تلميذ فى المدرسة الثانوية مجلة « عائلية » كان من بين أبوابها باب « فى المرآة » وكانت هى موضوع هذا الباب ، فى العدد الأول فصورتها فيه بقلمى الساذج ، وداعبتها ما شاء لى أسلوبى الصبيانى من الدعابة لأدوارها الموسيقية التى تعزف فى الهواء ولغير جمهور ، وبلا (نوتة) .

وكان الفارق فى السن بينى وبينها وأنا صبى قد جعل علاقتى بها خالية من الأزمات الحادة التى انتابت علاقتى بأختىّ « اللتين تصغرانها » ولكن حدث أن ضايقتها يوماً ، فربطتنى إلى عمود السرير ، لتقييد حركتى ، التى لم تكن تهدأ قط ، وبقيت زمناً طويلا لا أعفيها من غضبى لهذا العقاب المهين الذى لم يجرؤ عليه أحد غيرها ، ولما كانت جدتنا لأمنا سيدة قصيرة ، فقد حسبت أن مصير السيدات حين يكبرن أن تقصر قامتهن ، فتوعدتها بأنى حينما أكبر ، وتقصر . سأعاقبها بمثل ما عوقبت به ، وتداولت الألسن فى الأسرة هذا التهديد الصبيانى ، حتى إذا زفت أختى إلى زوجها ، وقد لبست ثوب العرس وجلست إلى جانب عريسها نادتنى ، فاقتربت منها فقالت وهى تضحك : « أمصر أنت على أن تثأر لنفسك ، أم أنك

سامحتنى ! » . وعرفت يومها أنها « دبلوماسية » موهوبة ، فقد أحسنت اختيار اللحظة . ففى المناسبات السعيدة ، تصدر الدولة قرارات العفو عن المذنبين ، فقلت ودموع الفرح ، تنساب على خدى : « لقد عفوت عنك ، ولا فضل لى ، فقد علمت أنك لن تقصرى مهما كبرت » فضحكت وقالت : « لقد خدعوك ! . »

ولقد عرفت الأبوة قبل أن أتزوج وأرزق الأولاد ؛ فقد كان أولاد أختى بمثابة أولادى ، أحببتهم ، وقد كان أكبرهم ، يقضى معنا ، ولا سيما فى فترة الأجازات وقتاً غير قصير ، ولا أنسى أنى قضيت فى صيف إحدى السنوات ، شهراً فى الإسكندرية ، وكانت سيدى بشر ، مصيفاً بدائيا ، أقيمت فيه عشش شبيهة بعشش رأس البر ، وإن لم تبن من البوص المعروف « بالكياب » . فصحبت أكبر أولاد أختى إلى هذا المصيف ، واشتريت له قرعتين من القرع الإسطمبولى لتحملاه فوق سطح الماء ، وانتظر إخوته أن تأتى عليهم نوبة السفر إلى الإسكندرية فلما طال الانتظار خشوا ألا ينالهم حظ السفر فقرروا أن يؤدوا الصلوات الخمس ، ليدعوا فى أعقاب كل صلاة أن تصلهم الدعوة المرجوة وكان أحدهم لا يعرف من الصلاة إلا حركاتها الظاهرة من ركوع وسجود فكانت صلاته دعاء واحداً وبسيطاً ومكرراً : يارب أسافر إلى الإسكندرية . ثم يركع ، يارب أسافر إلى الاسكندرية ، ثم يسجد . . فلما لم يستجب لدعائه لم يصل بعد ذلك .

أما أختى الوسطى فقد كانت رائدة السياسة فى عائلتنا ؛ فقد كانت تلميذة فى المدرسة السنية ، وكانت هذه المدرسة فى فترة اندلاع ثورة ١٩١٩ ، هى كبرى مدارس البنات الحكومية ، وقد كانت أختى أولى بنات فصلها ، فلما قامت الثورة ، كبر عليها أن يكون دور زعيمة المدارس ، دور المتفرج بحجة أنها مدرسة بنات ، فوقفت بين زميلاتها ، وخطبت فيهن ، خطبة ، تدعو إلى الجهاد ، وكانت تحفظ من شعر حافظ إبراهيم الوطنى ، ومن الأناشيد . ماضمنته خطبتها ، فإذا بها ، تبرز بين زميلاتها خطيبة لا يشق لها غبار ، ونجحت دعوتها ؛ واقتحمت الفتيات وراء زعيمتهن باب المدرسة وأزحن من طريقهن الناظرة الإنجليزية الحازمة « مس كارتر » وانطلقن إلى الطريق العام يهتفن بالعربية والإنجليزية معاً ، لمصر وللاستقلال التام ، وبسقوط الاحتلال والإنجليز .

كيف فعلت هذه الزعيمة التى لم تر مظاهرة ، ولم تر خطيباً ولا خطيبة ؟ وكيف أطاعتها جموع تلميذات المدرسة ؟ وكيف لم تخش هذه الجموع الناظرة التى كان كلامها قانوناً ، وصوتها مرهوباً وشخصها مخوفاً ؟

إن ذلك كله وحى الفطرة الإنسانية .

وحى الفطرة الإنسانية السليمة بلا شك .

وطردت أختى الزعيمة من المدرسة ، فبقيت أياماً فى المنزل ، ننظر إليها وتنظر إليها زميلاتها ، وجيراننا ، باعتبارها شخصية سياسية ، تستحق الإعجاب ، وتشبه - فى محيط الأسرة - الزعماء الذين نفوا إلى مالطة فى محيط الأمة .

ولكن الإنجليز ، قوم مرنوا على ملاينة الشعوب حين تثور ، لا ليعطوا الشعوب ما تطلب ، بل ليستديروا حول الحركة الوطنية الثائرة الهائجة بحثاً عن نقطة ضعف فيها ، فينفذوا إلى صميمها ويضربوا الثوار بعضهم ببعض ، وفى أكثر الحركات التى تقوم فى البلاد التى طال عهدها بالاحتلال يجرف التيار الوطنى العنيف المتدفق فى وجهه بعض الذين لا يؤمنون بالحركات الوطنية ، ويحسبونها جنوناً مدمراً ، واندفاعاً وخيم العواقب ، وهؤلاء يستجيبون لمغريات المحتلين ، ولا يلبثون حتى ينقلبوا على الحركة ، فتقع فى صفوفها الفرقة .

وجريا على هذا الأسلوب عفت السلطة عن الطلاب والطالبات الثائرين والثائرات وأعادوهم إلى المدارس مقابل وعد شفوى من ولى الأمر ومن التلميذ بألا يشارك فى الاضطرابات مرة أخرى وقد عادت أختى كغيرها ولكن المظاهرات اجتاحت مصر مرة أخرى ولم تستطع أختى الزعيمة أن ترى أمواج البحر تدعوها ، إلى إلقاء نفسها فى عبابه ، ثم تمنع نفسها من تلبية الدعوة ، فما لبثت أن رأت نفسها على رأس تلميذات المدرسة ، وإذا بالشعر يتدفق على لسانها ، وإذا هى خطيبة تثير الحماسة ، ثم تندفع إلى باب المدرسة العتيق والثقيل ، فيفتح ، وتجرى ناظرة المدرسة وراءها وتمسك بثوبها من أعلاه عند ظهرها ، وتقول لها بالإنجليزية : « تذكرى وعدك » فترد عليها أختى وهى فى أعلى درجات الحماسة : « وطنى قبل وعدى » ، . وتتلقف البنات هذه الكلمة وكأنها قول مأثور

فيصحن : « وطنى قبل وعدى » وربما أفاءت عليهن اللحظة وحيها فقال : « لا وعد لمن لا عهد له . . لا عهد مع أعداء الوطن » .

وعادت أختى مرة أخرى إلى البيت ، وقد زاد قدرها كزعيمة ، حتى هـدأت الثورة وقبض على مؤجج نارها ، ومنظم ثوارها . عبد الرحمن فهمى ، ثم سيق إلى المحكمة العسكرية البريطانية وأطلق سراح الزعماء الباشوات الذين قضوا فى مالطة شهراً واحداً ثم ذهبوا إلى أوربا ، حيث أقاموا فى أكبر فنادق باريس ولندن يفاوضون ملنر ، وممثليه عامين كاملين ، وانقسم المصريون إلى سعديين وعدليين . وقيل عن الأوائـل متطرفـون وقيل عن الأواخـر معتدلـون ، ولم ينقض على هـذا الحلف ، إلا عامان حتى عاد الجميع فى عهد الائتلاف يفاوضون ويكون على رأس المفاوضين معتدل ، هو عبد الخالق ثروت ، فى حين أن الأغلبية رفضت منذ سنتين فقط أن يفاوض الإنجليز هذا المعتدل نفسه . ضاعت الثورة وهدأت الأمور وبدأت لعبة الكراسى فى الانتخابات والوزارات ، ثم استمرت نحو ثلاثين عـاماً . لا يصيب صدور الإنجليز خلالها من رصاص الوطنيين ، إلا ما صوبه تلاميذ الحزب الوطنى : الصوفانى والدكتور شفيق منصور ، حتى إذا ما أعدت هذه الكتيبه المقاتلة ، تلقف العلم منها ، شباب الحزب الوطنى الجديد حتى قامت ثورة سنة ١٩٥٢ .

ولكن بعد أن وصلت أختى إلى مرتبة الزعامة أصبحت فى البيت مجرد شقيقة لصبى : رذل استغل فيها أعظم فضائلها . فضيلة الحياء وراح يطاردها ، ما تقول شيئاً ، ولا تصدر عنها حركة ، أو تمشى فى المنزل أو فى الطريق ، مجرد المشى الذى يمارسه كل الناس ، إلا سخر منها ، بالقول والإشارة ، فإذا فعلت ذلك ، حزنت أشد الحزن ، وضاقت فى وجهها الدنيا ، وأنا أواصل هذا العمل الشيطانى القبيح . ولم يدر بخلدى يومها أن أفكر . لماذا أوجه هذا العدوان لأختى التى تكبرنى مباشرة ، أو التى تكبرنا جميعـاً ، والعادة بـين أبناء الأسـرة الواحـدة ، أن يكون مـا يسمى « بالنقار » على أشده بين من كانوا « فوق رأس بعض » أى الذين يتتابع ترتيبهم بين الأبناء ذكوراً كانوا أو إناثا ، ولكن حينما كبرت أدركت تفسير ذلك ، فأختى الكبيرة تزوجت قبل أن أشب تماماً عن الطوق فخرجت من حلبة المنافسة ، وأختى التى تكبرنى مباشرة ، كانت سـريعة الغضب ، نشيـطة اللسان ، ميـالة إلى العنف ، وكـانت الرفيقـة الوحيـدة المتاحـة أمامى لتؤنس طفـولتى وصباى ،ولـذلك فقـد

اضطررت أن أعقد معها مخالفة عدم اعتداء لأنجو من بطش يدها ولسانها ، ثم أصبحت المعاهدة معاهدة حسن جوار ثم استحالت إلى معاهدة حماية وتبعية . فلم يبق أمام ميولى العدوانية ، التى ثبت أنها جزء من كل نفس ، ومن نفس كل صبى على وجه خاص ولاسيما من كان مثلى فى صباى كثير المرض ، شديد الحساسية ، متأجج الخيال ، مشمولا بالتذليل المسرف حيناً وبالتأديب المسرف حيناً آخر ، ولكن حينما تقدم بى العمر ، عرفت أن أختى فوق كونها عظيمة العقل ، سريعة الحفظ . مثالية المسلك ، فنانة ترسم بالفحم والقلم الرصاص ، الشخصيات رسماً أنيقاً ، ولكم وددت أن تجد من أبيها ، وهو مهندس عناية بموهبتها ، ولو واتاها هذا الحظ ، لكانت حساسيتها المفرطة ، وعصبيتها الشديدة ، موردين لا ينضبان ، لفنانة ، تزداد على الأقل نضجاً ، وقد عرفت شاباً من هواة الرسم ، فسألته عن شىء يثبت الصور الفخمة ، ومازلت أذكر أنه أرشدنى إلى مادة اسمها الفكستيف ، عرفت فيما بعد أنها الترجمة الحرفية لكلمة مثبت . وقد عقدت العزم ، على أن أشتريها لأختى ، ولكنى لم أفعل ، وفى ساعات الصفاء ، كانت أختى ترسم لى خرائط الجغرافيا ، وما يطلب منى من واجبات الرسم ، فكانت كراسة الخرائط الخاصة بى متحفاً ، يتفرج عليه الزملاء ، ويقدمها مدرس الجغرافيا مباهيا بها عند مفتش الجغرافيا حين يمر على فصلنا ، أما كراسة الرسم ، فقد كانت ملتقى للنقائض ، فما أرسمه فى حجرة الدرس ، لا يمكن تبين حقيقته ، فإذا طلب منا أن نرسم قلة أو وردة ، أو تفاحة ، اختلطت الأمور على الرائى . فلم يعد يعرف : هل رسمت حيواناً أو فاكهة أو نحلة ؟ فإذا طلب منا أن نرسم شيئاً فى المنزل ، وضعت الكراسة تحت نظر أختى ، وأحسنت علاقتى بها ، وحبست لسانى عن النقد اللاذع ، وضبطت تقاطيع وجهى عن أن تعبر عن « الشقاوة » و « العفرتة » وظفرت بلوحة ممتازة ، والعجيب أن مدرس الرسم ، لم يستوقفه الفارق الرهيب بين رسم يصل إلى أقصى الغاية فى الإتقان ، ورسم يهبط إلى الحضيض فى السوء ولعله اعتبرنى فناناً ذا نزوات ، تصفو نفسى ، ويستجم خيالى ، فأتلقى الوحى صافياً ثم تضعف أعصابى ، ويتعكر مزاجى ، فأنتج أسوأ ماتخرجه ريشات الفنانين وأقلامهم .

وحدث ذات يوم وأنا تلميذ فى أسيوط الثانوية أن طلب منا مدرس الرسم – وكان ممن تعلموا الفن فى انجلترا ، وهو المرحوم عبد الحميد الفوال – أن نرسم شيئاً

مما كنا نرسمه فى تلك الأيام ، وفى الأغلب كان زيرا فوق حمالة . وكانت علاقتى بأختى مقطوعة آنذاك ولم تنفع المحاولات الدبلوماسية لتحسينها فاعتمدت على نفسى ، ورسمت كالعادة بالطريقة « السريالية » قبل أن تغزو هذه الطريقة بلادنا . . وضاق المدرس بهذا العبث ولم يكن يدرى أن العبث سيصبح فنا قائماً بذاته تنحنى له الرءوس ، وتتسابق فى حلبته المواهب ، فأوقع بى عقاباً صارماً ، لم ينلنى مثله فى سنى الدراسة ، فقد حبسنى سته أيام متوالية . كنت أبقى خلالها فى المدرسة بعد أن ينصرف زملائى . ولما كنت فى تلك الفترة من لاعبى الكرة - فيما يسمى « السكندتيم » أى الفريق الثانى أو الاحتياطى ، فقد كنت أقضى فترة الحبس لاعباً ، وربما سجلت انتصاراً ، بإصابة الهدف ، أتلقى بعده التهانى والتصفيق ، وأخفيت على أختى تماماً أنها أحسنت الانتقام لنفسها ، حتى مضت السنوات ، ولم يعد لهذا الإخفاء معنى ، فأطلعتها على الحقيقة فتأثرت لى أبلغ التأثر ، ولامتنى إذ أخبرتها بما نالنى من وراء عدم تعاونها معى .

ومضت الأيام ، وتلقيت من محكمة جنايات القاهرة ، خطاباً يخبرنى فيه القلم الجنائى أننى ندبت لأترافع عن جزار قتل مفتش تموين بقسم مصر الجديدة ، وتصفحت على عجل اسم القاتل واسم القتيل ، فعلمت أن الجزار القاتل هو والد فنانة كانت فى بداية شهرتها عند وقوع الجناية اسمها الفنى « أميرة أمير » وأن القتيل هو مدرس الرسم الذى قسا على - مع أنه فنان - لمجرد أنى كنت من طلائع رواد السريالية فى مصر . . فقد ندبته وزارة التموين من وزارة التعليم فأصبح مفتش تموين قسم مصر الجديدة .

فذهبت إلى رئيس محكمة الجنايات وطلبت منه إعفائى من الندب لأنى لا أستطيع أن أترافع عمن قتل أستاذى ، ولو كان هذا الأستاذ قد أنزل بى أشد العقاب بحكم أنى « سريالى » قبل الأوان ، وقبل رئيس المحكمة اعتذارى .

أخواتى الثلاث (٢)

قال الشيخ الذى نروى ذكريات صباه :

لما تزوجت أختى الوسطى شعرت أنا وأختى الصغرى ، بفراغ عظيم ، فقد كنا نؤلف نحن الثلاثة أسرة صغيرة ، وكنت قد انتهيت تقريباً من فترة « المكايدة » الشيطانية ، التى لقيت فيها أختنا الوسطى ، على يدى ، آلاماً مبرحة ، أسأل الله أن يعفينى مما أستحقه عنها من عقاب وعذاب .

ولكن لا يعنى هذا أن مضايقاتى الممجوجة قد انتهت تماماً ، فقد دخلت ونحن فى أسيوط الثانوية مرحلة الاهتمام بالأدب وأنا آنذاك على رأس مجلة المدرسة وقد تلاحقت نذر أو بشائر اهتماماتى الأدبية والفنية ، وما يصاحبها عند الصبيان ، من خروج على مألوف الناس ، فى السير والحركة ، والعلاقة بالناس ، والاتصال بهم .

وقد كانت أولى ثمار هذه المرحلة الفجة ، التى لم يصقلها نضج ولا عمق ، أنى وضعت مسرحية كاملة بعنوان « يوسف بلانكت الجميل » وكتبتها بخط مقروء .

وعلى وجه من التنسيق والترتيب ، لم أعرفه من بعد ، فخطى كلما تقدم بى العمر ، زاد سوءاً ، وأصبح من قبيل الألغاز التى لا تحل ، والرموز التى لا تفهم ، كما أصبح كل ما أكتبه ، ضرباً من النشاط العصبى ، الناجم عن نفاد الصبر ، وشدة القلق ، والرغبة التى لا تكبح ولا تضبط ، فى سرعة الإفضاء بما فى النفس وبما يجرى على

الخاطر ، فإذا هدأت ، ونحيت ماكتبت جانباً ، وكأنى نسيته تماما ، عدت إليه ، وكأنى أتجرع دواء مرا ، لا يساغ ، فأهويت عليه بالقلم شطبا وحذفا ، وقلبا ، حتى تخرج الورقة من تحت يدى ، مثخنة ، وكأن عدوا لدوداً أهوى عليها ، بخنجر تمزيقاً ، وتمزيعاً ، حتى لفظت الأنفاس ، وفارقت الحياة ، لتبعث من جديد ، خلقاً آخر ، بعد حين يطول أو يقصر . .

فما بال مسرحية « يوسف بلانكت الجميل » قد نجت من عمليات المخاض والولادة العسرة فخرجت فى سطور متتالية متناسقة بلا حذف ولا إضافة ، ولا « شطب » ولا مسخ ، ولا تغيير ولا تعديل . وما بال الكلام ، متصلا . مفهوماً خالياً من الاضطراب والقلق . .

وفكرة مسرحية يوسف بلانكت ، صغيرة لست أدرى من أين استقيتها ، وإن كان أغلب الظن عندى ، أنى وقعت عليها فى صحيفة أدبية ، تروى خاتمة حياة هذا الشاعر الأيرلندى الذى أحببته لا لشعره لأنى لم أقرأه ، ولا لشىء من ماضى حياته ، لأنى لم أقف عليها ، بل لهذه الخاتمة الرائعة التى قرأت حكايتها فى الجريدة أو المجلة . ثم « لأيرلنديته » أى لكونه من « إيرلندا » .

وقد كنت وقعت فى غرام مصطفى كامل ، وأنا بعد تلميذ فى المدرسة الابتدائية ، وكلما قرأت له شيئاً ، أو سمعت عنه نبأ ، أو رأيت له صورة أحسست هذا الغرام ، يقوى ويستشرى ويتحول مع الأيام ، هوى مبرحاً ، لا غراماً لفكرة ، ولا هياماً بمبدأ ، فقد تجسد لى حبا للوطن ، وصورة من لحم ودم ، للفضائل الإنسانية ، وعلى رأسها التضحية ، وإنكار الذات والفناء فى العقيدة .

ثم بدأت فى المدرسة الثانوية أقرأ فصولا متفرقة للكاتب والمترجم العظيم حسن الشريف ، فى مجلة الهلال ، عن الكفاح الأيرلندى وأبطاله ، « إيمون ديفاليرا » ، و « مايكل كولنز » و « آرثر جريفث » ، فبدا لى هؤلاء الأبطال ، وأعوانهم وتلاميذهم وأتباعهم ، فى حربهم المسلحة ضد البريطانيين والحكم البريطانى الآثم الظالم ، امتداداً لحركة الفدائيين المصريين ، تلاميذ مصطفى وفريد وشاويش والصوفانى ، من أمثال إبراهيم الوردانى ، وشفيق منصور ، وعبد الحميد عنايت ،

والعامل العظيم « إبراهيم موسى » والحاج أحمد جاد الله ، ثم المجهولين أضراب محمد خليل « من المنصورة » ، ونظير و محمد فهمى على » اللذين شنقا دون دمعة تسفك على قبرهما ، ولا كلمة وفاء .

ولما كانت الفصول التى ترجمها حسن الشريف ، لا تروى تاريخاً كاملا للحركة الوطنية الأيرلندية ، فقد كانت هناك ثغرات ، لا يملؤها إلا الخيال ، وقد توليت بالفعل ملء هذه الثغرات ، واستطعت بعد ذلك أن أخلق مسرحية من ثلاثة فصول ، من القطعة التى قرأتها فى الجريدة ، والتى روت كيف أن يوسف بلانكت ، شاعر الحركة الأيرلندية الوطنية ، حكم عليه بالموت ، وكانت تربطه علاقة حب بزميلة له فى الجهاد ، فقرر أن يعقد عليها قرانه فى السجن من وراء ظهر السلطات البريطانية العرفية ، مستعيناً فى ذلك ، بقسيس من أنصار الحركة الوطنية وقد بقى الشاعر ينتظر مقدم عروسه . فى صبر وقلق ، مشفقاً أن يسبقها الجلاد الذى سيسوقه الى المشنقة ، ولذلك كان يعد الدقائق ومعه زميل له فى الحركة اسمه جان يسأله كل بضع دقائق وأحياناً كل بضع ثوان « كم الساعة الآن ياجان ؟ » فإذا أجاب الصديق والزميل : عقب الشاعر أجل . . أجل لم تبق إلا ثلاث ساعات . . وتتناقص الفترة الفاصلة بين الموت والحياة ، ويكرر الشاعر : « أجل . . أجل . . لم تبق إلا ساعتان وخمسون دقيقة . . ساعتان وثلاثون دقيقة . . » ويدق باب الزنزانة ويظهر على عتبته الجلاد فيسقط فى يدى الشاعر ويعتقد أن الموت سيسبق القسيس وعروسه وعقد الزواج . . ثم يتضح له أن الجلاد ليس سوى زميل فى الحركة الوطنية ، ومن خلفه القسيس ومن خلف القسيس ، عروس الشاعر ، وتحسب العروس ، أن ذلك كله تمهيد وتوطئة ، لفرار رجلها من السجن وقد كانت لعبة الفرار من السجن ، لعبة يتقنها الأيرلنديون الثوار ، فما أكثر ما فر « ديفاليرا » من أعتى السجون ، وما أكثر ما فر « مايكل كولنز » من قبضة فرق المطاردة الإنجليزية ، موقعاً إياها فى الحيرة ، هازئاً بها ، ومثيراً لسخرية الصحف فى العالم كله ، من تدبيراتها المحكمة ، وخططها المتقنة . . ولكن هذه المرة لم يكن الفرار ممكناً ، ولم يكن باقياً للشاعر الثائر ، إلا أن يعقد العقد ، ثم تصبح زوجته ، أمام الله والقانون فقط ، لساعة أو بعض ساعة ، ثم لا يلمسها إلا بقبلة على الجبين ، وتمضى هى إلى الحياة ، مجاهدة ، ويمضى هو إلى الموت شهيداً ، ورمزاً ، ومثلا وذكرى !

ولما كانت هذه المسرحية هى باكورة إنتاجى ، ولم يكن هناك مسرح ولا فرقة ، ولا ممثلون فقد مثلتها على مسرح خيالى ، وأصبح المقطع الأول فيها هو العبارة التى أصابح فيها وأماسى أهل بيتى ، وبعبارة أدق أختىّ المسكينتين كم الساعة الآنَ ياجان . . « أجل أجل . . » ولقد كرهتا الساعة وجان والمسرح وأيرلندا ، وكرهتا صوتى ، وكل ما يتصل بى ولما تألفت الفرقة المسرحية ، فى مدرسة أسيوط الثانوية ، دفعت بعملى المسرحى الأول ، إلى مدرس وقع عليه الاختيار ليكون المشرف على النشاط المسرحى ، وقد عرفت لفرط دهشتى أنه لم يشاهد طوال حياته مسرحاً ، وكان ينطق اسمه فى تلك الأيام مرسحاً ، ولم يكن يدرى من أين يبدأ عمله ، فلما تقدمت إليه بهذه المسرحية ، خيل إليه ، أن خاتم سليمان قد وقع فى يده ، وأنه ضغط عليه ، فأخرج له من الأرض عفريتا من الجان ، لم يحمل إليه عرش بلقيس ملكة سبأ ، كما فعل ، مع نبى الله سليمان عليه السلام ، بل حمل إليه ماهو أعظم – وقتذاك – وهو مسرحية ، وأخذها منى ، وكأنه يختطف عقد شراء قطعة أرض بمائة ألف جنيه . . ولفرط لهفته ، ظن أن اسمى « رمضان » فراح يكرره ، ولم أرد أن أصحح له الإسم ، رغبة منى فى ألا يرجع فى قراره بأن تكون هذه المسرحية هى باكورة نشاط جمعية التمثيل فى مدرسة أسيوط ، عاصمة الصعيد ، الذى لم تكن ترى المسرح إلا كل بضع سنوات مرة ، لمدة ليلتين ، أو ثلاث على الأكثر .

وفى الصباح التالى ركبت دراجتى ورحت أنهب بها الأرض نهباً – إن كانت الدراجة تستطيع أن تنهب شيئاً حتى لو كانت دراجة من صنع شركة « رالى » الإنجليزية الشهيرة – وما كدت أصل إلى المدرسة حتى انطلقت كعادتى فى تلك الفترة من حياتى – كصاروخ بشرى – سبق الصواريخ السوفييتية والصواريخ الأمريكية إلى الوجود ، وقصدت حجرة مدرسى التاريخ والجغرافيا ، فاقتحمت بابها ، فارتاع المدرسون ، وأدرت عينى فى الحجرة بحثاً عن الأستاذ « إمام » لأسأله عن المسرحية ، ولخيبة أملى المروعة لم أجده ، ولم أظفر من هذه الغزوة إلا بكلمتى تأنيب لاذعتين من مدرس آخر يعرفنى ، بوصفى تلميذا نابهاً فى التاريخ ورئيساً لتحرير مجلة المدرسة أو مديراً لتحريرها ، لأن رئيس التحرير كان الدكتور محمود الشربينى العالم المصرى الكبير ، الذى أصبح عميداً لكلية العلوم .

ووقفت متفزراً متحفزاً على باب الحجرة ، حتى أهل الأستاذ إمام ، فى بطء

وتثاقل ، وبرود ، فقد كان مثلا للفتور . ونقيضاً لى فى الحجم والسن والطبع ، وكانت به لثغة فى حرف الراء ، فلما دنا منى نظر إلى ، وكأنه لم يرنى ، وقفز قلبى فى صدرى ، ثم دخل دون أن يلتفت إلى ، فلحقت به : فسأل فى دهشة : فيه إيه ! فقلت له . الرواية ولم نكن آنذاك نقول المسرحية فقال ووابة إيه يعنى؟ رواية إيه ! فقلت له : الرواية التى سلمتها لحضرتك أمس ، فقال ، وكأنه يتذكر تاريخاً من عهد رمسيس أو مينا : آه . . هى دى . . وأخرجها من تضاعيف جريدة : فكادت تخرج عيناى حقا وصدقاً من وجهى : نعم . . قلت ذلك وأنا ألهث ، وقد تصبب عرقى ، لا من مجهود رحلة الدراجة ، بل من توقع للقرار التاريخى الذى سيصدره المدرس الفاضل : إمام . . ثم قال : اسمع . . فخيل إلى أن أذنى تداولتها الطبول والمدافع والرعود « الووابة دى » فكدت أصرخ الو واية قل ياسيدى برب السماء ، ثم قال : الرواية دى . . حلوة . . حلوة خالص . . بس أنت كتبتها صحيح ، ولم أسمع شيئاً إلا أنها حلوة . . حلوة خالص فقلت : حلوة . . خالص . . فقال الرجل مندهشاً ، لأنه لم يكن يعرف أن فى الدنيا كلها ما يدعو لهذا الانفعال فقال : وهو يقلب فيها – ويفتح صفحاتها وينظر هنا وهناك فى برود لا مثيل له : . « أنا بايح » رايح لسعادة الناظى . . » وقام ووجدت أن هذا كلام يمكن السكوت عليه إذ حسبى من المجد أن تكون هذه المسرحية قد كتبت بخط مقروء ، لسبب مجهول ، وفى كراسة نظيفة وأن تكون قد وجدت مدرساً بمدرسة ثانوية قد قرأها ، وقال شهادة جيدة فى حقها – ثم أضاف : أنا ذاهب من أجلها لناظر المدرسة ، لناظر المدرسة الثانوية الأولى فى الصعيد كله ، فلم تكن مدارس بنى سويف والمنيا وسوهاج وقنا ، قد أنشئت بعد ، ولما انقضى اليوم المدرسى – لست أدرى كيف – ذهبت إلى البيت ، لكى أصرخ هذه المرة ، ولى كل الحق : « كم الساعة الآن ياجان » ؟

وعرفت أختاى هذا الحدث المروع الذى وقع فأدركتا أن عذابهما سيزيد ضعفين ؛ فقد كنت أطاردهما بهذه الجملة اليتيمة ، وأنا مؤلف مسرحى ، غير معترف به ، فماذا سيحدث لهما وقد اتصلت مسرحيتى بالسلطة . .

ولست أريد أن أروى لك قصة هذه المسرحية التى لا يزال نصها تحت يدى كاملا فى الكراسة النظيفة . . بالخط المقروء ، وبالحبر الأزرق ، إنما أريد أن أقول لك ، إن زواج أختى الوسطى ، كان إيذاناً ، بنجاتها من هذه الجملة الممقوتة ، التى

كانت بدورها عنواناً على عدد من السخافات التى أطاردها بها ، والتى كانت لا تحتملها إلا بمشقة . . فلما جاء يوم السفر ، سفرها إلى بيت زوجها ، اختلطت فى نفسى مشاعر من السرور والفراغ والحزن ، لم أشعر بها مجتمعة من قبل ، . . ولست أود أن أسترسل فى وصف الأحداث التى جرت بعد هذا السفر ، لأن موضع ذلك سيكون بإذن الله حينما أتحدث عن شبابى ، ولكنى أريد أن أجتزىء بشىء من حياة أختى بعد الزواج ، لأنى بسبيل تقديمها ، كنموذج إنسانى ، ولا يكمل الحديث عنها بهذه الصفة ، إلا إذا رويت للناس ماذا فعلت فى بيت زوجها مما يستأهل أن يذكر فى كتب علم النفس ، الذى يشغل به الناس كثيراً هذه الأيام . .

سافرت أختى إلى بيت زوجها ، وكان كما قلت ، فى الفصل السابق ، محامياً ، فى طهطا وسفره إلى طهطا - وهو من عائلة كبيرة بالشرقية - له قصة تستأهل أن تذكر . فقد تخرج فى مدرسة الحقوق قبل أن تكون كلية ، وكان له فى تاريخ تخرجه قريبان فى مدينة أسيوط ، أولهما خاله ، وكان رئيس محكمة . والآخر زوج أخته وكان قاضياً . فاقترحا عليه أن يقضى فترة تمرينه فى المحاماة فى أسيوط حيث يعملان كعضوين فى سلك القضاء ، فيجد من الرعاية لهذا السبب ما لا يجده فى مدينة أخرى ، ولو كانت الزقازيق ، عاصمة المحافظة التى ينتمى إليها ، وكانت أسيوط فى ذلك الحين تحفل بعدد من أكبر المحامين الجنائيين ، كان منهم محمد على علوبه ، وتوفيق دوس ، وكان يأتى بعدهما من الجيل الأصغر سنا عدد من المحامين الموهوبين فى مقدمتهم إبراهيم ممتاز وحامد جودة . كان محامياً جنائياً فريداً إذ لم تكن قدرته كمحام مصدرها البلاغة وحسن العبارة ولطف الأداء ، ولكن كان مصدرها علمه التام بأخلاق الريفيين ، وبفنيات الجريمة ، فقد كان الشائع عنه ، أنه يدرى من أمر قاطعى الطرق فى منطقته ما لا يعرفونه عن أنفسهم وأنه كان يعرفهم بالاسم كأنه واحد منهم ، وبعض خصومه فى المنطقة ومن الأحزاب المعارضة . كانوا يقولون إنه منهم بالفعل ، وقد كان من حظ زوج أختى أن يتمرن فى مكتب هذا المحامى « الفحل » حقيقة لا مجازا ، ولما كان لحامد جودة مكتب فى مدينة طهطا ، فقد كان يوفد زوج أختى ليباشر القضايا فيها عنه ، ثم رأى آخر الأمر أن يترك له المكتب هناك .

ولكن المحاماة مهنة تحتاج إلى المثابرة والانقطاع والتفرغ ، فإنها لا تدع

للمحامى وقتاً ليستريح فيه ، ويستجم : فى الصباح فى المحكمة وفى المساء فى المكتب ، وفى الليل لقراءة الأوراق ، وإعداد المذكرات ، حتى أيام العطلات فمخصصة للاطلاع ، والمحامى الناجح دائم الأسفار ، وهو كالطبيب يطلب أحياناً فى الليل البهيم ليحضر تحقيقاً فى جناية ، وقد يستمر فى عمله حتى الصباح التالى ، ثم يصله فى اليوم الذى يليه ، وزوج أختى خلق للمحاماة من جهة ، ولم يخلق لها من جهة أخرى ، خلق لها لأنه يحبها ، ويحب جوها ، ويحب الجلسة والمرافعة والتحقيق ، ولأنه لا يلقى عناء فى قراءة أوراق القضايا والاطلاع على مافيها تعينه فى ذلك ذاكرة قوية ، ولا عناء فى شرح أفكاره ، يعينه لسان خال من العيوب وكان محبباً إلى نفس القضاة ، يودونه ويستخفون ظله ، ويثقون فى أمانته وعفته وبعده عن هجر القول وفحشه ، ولكنه لم يكن يطيق البقاء فى مكانه دقائق متصلة وكان يعوزه الجلد على سماع الموكلين ، والاتصال بهم ، على الرغم من حبهم له ، وحرصهم على توكيله ، يبحثون عنه فى المكتب ، فيجدونه فى المحكمة ، يلتمسونه فى المحكمة ، فيسمعون أنه فى النادى ، فإذا هو فى الطريق ، يلاطف هذا ويداعب ذاك ، فإذا جاء المساء فهو فى النادى ثم عند هذا الصديق من الأعيان ، ثم عند غيره ، ثم عند ثالث . فإذا انتهى من طوافه ، أوى إلى فراشه ، قرير العين ، هادىء النفس ، كأنه أدى واجبه ، وأراح ضميره ثم نام . . ولم تكن معالجة هذا الطفل الكبير ، الذكى اللطيف المحبوب ، أمراً هيناً ، فلقد عاش طوال حياته يضيق بالنظام والقيود والمواعيد ، وكان كل ذلك يجنى على مواهبه ويبددها ، فتتناوله أختى بالرفق ، وراحت تبدل فيه ، وتعدل . وكان يعينها فى هذه المهمة الشاقة سعة صدر ، ثم إنها أحبت البلد وأهلها وعرفت الموظفين فيها والأعيان وموظفى مكتب زوجها وأقاربهم بالاسم والرسم ، حتى أصبحت واحدة من أهل طهطا وما حولها ، وبقيت تحبها وتحب أهلها وتذكرهم ، ويحبونها ويذكرونها ، وعلى سبيل المثال فإن جميع تجار الفاكهة الصغار والكبار من مركز طهطا ، لما كانت تقابلهم فى القاهرة والإسكندرية ، تذكر لهم أسماء القرى والأسر ، فيحسبونها من أهل طهطا . حقًا :

الأقباط ينسبونها إلى أسرة من أسر الأقباط ، على سبيل التخمين ، والمسلمون ينسبونها إلى أسرة من أسر المسلمين على سبيل الحدس ، وهى لا تصحح ، وتقبل النسبة فى الحالين وتضحك . . وإذا مر بنا بائع فاكهة جائل ، دون أن تناديه أختى

وتسأله على أهله فى طهطا ، يداعبها من يكون فى صحبتها آنذاك قائلا : « لماذا أفلت هذا من سؤ الك.وكلامك ؟! » .

وتعلم زوج أختى الاستقرار فى المكتب قليلا ، ثم أحبه كثيراً . ثم عرف كيف يقابل الموكلين ويطيل صبره عليهم ، فكثر عمله ، فلما زاد رزقه ، وأصبح شخصا آخر ، وقبل أن يجنى ثمار هذا النجاح ، اختير ليعمل فى القضاء ، وقبل أن يطول عهده بالقضاء وافاه الأجل المحتوم فى مقتبل العمر ، ولم يكن قد رزق من الذرية ولداً أو بنتاً ، وكانت وفاته صدمة لأختى مروعة ، ولكن كأنما أراد الله بهذه الصدمة أن يكشف عن الدور الذى خلقها له ، فقد تفجرت فى نفسها ، ينابيع رحمة ، ارتفعت بها عن مستوى مثيلاتها من السيدات اللواتى امتحنهن الله بالترمل فلم تكد تفقد زوجها حتى فقدت والدتها ، فعاشت مع أبيها ، وكأنها أمه وأخته وابنته ، ولكن لم يكن هذا كافياً لتروى جوعها المتجدد إلى فعل الخير ، فى صوره المتعددة ، ولست أود أن أحرج تواضعها ، فأورد شيئاً من هذه الصور ، وإن كانت الغاية أن أرسم للناس صورة إنسانة ، فى غير تزيد ولا مبالغة . ولكن يكفى أن أذكر أن القدر ساق لها أفراد أسرة ريفية ، فقيرة فقدت الأم ، وكان من بين أعضائها بنات فى سن الطفولة ، فاعتبرت نفسها أمهن جميعاً ، ولم تقنع بإيوائهن ، بل علمتهن حتى تزوجت إحداهن طبيباً فى الأردن ، واحتملت فى سبيل تنشئتهن وإعدادهن للحياة من أذى الناس ، ونقد بعض ذوى قرباها ممن كبر عليهم هذا الإسراف فى الحب والبذل الشىء الكثير ، ثم ذهبت كل فتاة فى حال سبيلها بعد أن تزوجن جميعاً ، وأختى لا تشكو ولا تتبرم ، بل لا تذكر من كل هذا لا قليلا ولا كثيراً . ودعت أختى ، صديقات لها ، لتعمل معهن فى ميدان العمل الاجتماعى التى كانت تمارسه بعض الجمعيات النسائية ، فلبت الدعوة فى صمت ودأب ، دون أن تنشر لها صورة ، أو يذكر لها اسم ، وقد سافرت من أجل هذا اللون الجديد من النشاط فى الداخل وفى الخارج ، فى غير ادعاء ولا تفاخر .

ولكن كل هذا مما يمكن أن تقدم عليه ، سيدة أخرى ، أما الذى يتردد أمامه الرجال والنساء على السواء فهو المجازفة التى يكون الثمن فيها ، السجن والأشغال الشاقة ، ولكن أختى لم تتردد لحظة ، فى أداء ما اعتبرته واجباً إنسانيا قبل أن يكون واجباً وطنيا .

لقد قرأ المصريون وشاهدوا مسرحية وفيلم « فى بيتنا رجل » وعرفوا من كل هذا أن « حسين توفيق » بطل هذه الرواية لجأ إلى بيت الأستاذ إحسان عبد القدوس يومين أو ثلاثة ، كانت كافية لإلهامه بهذه القصة المثيرة ، ولكن لا أحد يعلم أن « حسين توفيق » ، لجأ بعد ذلك إلى بيت أختى أسابيع حتى أتيح له أن يفر إلى فلسطين ، ولقد أحسنت أختى كتمان مشاركتها فى هذه المجازفة الخطيرة . حتى على أنا نفسى ، فبقيت أجهل كلما زرتها أن « حسين توفيق » فى الشقة المقابلة لشقتها ، وهى شقة تملكها أختى الصغرى ، وتتركها طوال فترة الصيف ، إذ تقضيها مع زوجها وأولادها ، فى عزبة بالشرقية ، ولقد كانت الحكومة ، قد فرضت مكافأة قدرها عشرة آلاف جنيه لمن يرشد عن حسين توفيق . وكان العقاب لمن يأويه بوصفه مرتكباً لجريمة قتل عمد مع سبق الإصرار ، مصحوبة بجنايات أخرى فادحاً . ونحن نهينها إذ نقول إن هذه المكافأة لم ترد لها على خاطر ، لأن الطاهى الذى كان يعمل عندها وهو المواطن الفاضل أحمد محفوظ ، لم تغره هذه المكافأة حينما دخل يوماً إلى الشقة المقابلة للشقة التى يعمل بها ، ليرى نفسه وجهاً لوجه أمام حسين توفيق ، أى أمام عشرة آلاف جنيه ، كاملة ، فأغلق الباب وراءه فى صمت ، وفى اليوم التالى ، ترك العمل عند أختى لعذر انتحله خوفاً من أن يكون وجوده إلى جانب حسين توفيق مغريا له بالانزلاق . . وأحسن الله إليه ، وكافأه على هذا الخلق السامى ، فقد اتجر فى البقالة ، فدرت عليه هذة التجارة أخلاف الرزق ، وأعانته على إحسان تربية وتنشئة أولاده ، فبارك الله له فيهم .

وبودى أن أطيل الحديث عن الأسابيع التى استضافت فيها أختى - بعلم والدها - رجلا فارا من وجه القانون ، تتعقبه الشرطة والنيابة والسلطات كلها ، غير مبالية لا بخطر السجن ، ولا بخطر إغضاب السلطات ، وما يجره وراءه من متاعب ، إنما بخطر . تجفل منه ، وتخشاه كل امرأة وكل رجل فى العالم . وهو مانسميه بالعامية البليغة : « البهدلة » . فأن يساق الإنسان إلى قسم . ويلقى به فى حجز ، وأن ينتظر على باب محقق تحرسه جنود ، تأمرهم القوانين بالشدة والغلظة والجفوة ، ثم يترك ساعات ، وربما أياماً ، لا يدرى متى يطلب ، وما مصيره ، ويخاطب بعنف ، ولو تظاهرا وينكر عليه أن يطلب قضاء حاجاته الحميمة من كوب ماء ، وكسرة خبز - هذا هو الشقاء الحقيقى الذى وصفه كافكا . بأبلغ بيان ، فى قصة « القضية » .

على أن فى المجازفة التى أقدمت عليها أختى غير هيابة ، جانباً من العذاب اسمه الترقب والتوقع والتوجس ، ففى كل طرقة على باب مجاور ، وعند سماع وقع أقدام أى صاعد على درجات السلم ، ولدى كل صوت فى الشارع ينادى ، أو صوت عربة أو عربات تقف فجأة على بـاب المنزل أو عـلى باب قـريب يظن من ينتـظر خطراً مفاجئاً ، أن البلاء قد وقع ، وأن المصاب قـد تحقق . . وإلى جانب هـذا كله ، ما يثيره الخيال المضطرب ، وما تبعثه الأعصاب المتعبة . ولقد حدثنى صديق كان قد فر من وجه الشرطة فى قضية من القضايـا السياسيـة ، ثم قل اهتمـام السلطات بالقضية وأفرج عن كل المتهمين فيها ، وبقى هو فى مخبئه ولم يعد ثمة خطر ، من الاهتداء إلى مكمنه ، ولكن غلبت عليه روح لعبة « الاستغماية » إلى حد أنه كان يحس بالفزع ، كلما خيل إليه أن على الباب شرطيا يدقه بيده ... ولقد كان لدى أختى ما يفزعها على نفسها . وما يفزعها على اللاجىء إلى حماها ، وما يفزعها على أبيها الشيخ ، وكل من فى البيت ، ولكنها تماسكت وبدت للناس ، ولى أنا فى مقدمة الناس هادئة ، لا تظهر على أسارير وجهها علامة واحدة من علامات الخـوف أو الاضطراب ، بل لقد عجزت أنا نفسى أن أميز من مظهرها خلال الفترة التى كانت تستضيف بها هذا الفار من وجه العدالة أن لديها ما يشغلها أيا كان هذا الشاغل فقد بقيت هى هى : هدوء نفس ، وحضور ذهن ، وصفاء خاطر ، وميلا الى الدعابة ، وحرصاً على المجاملة ، واهتماماً بسماع الأخبار العامة . .

ومضت السنـوات والأيام ، والنـاس جميعاً يتكـالبون عـلى أسبـاب الشهـرة والظهور ، الحقيقية والمدعاة ، المشروعة ، والباطلة ، وأختى لا تحـدث أحدا بمـا فعلت ، ولو تلميحاً ، وإذا ذكرت تلك الأيام ، تحدث كل من حضر المجلس ، إلا هى .

ولست أدرى ما الذى ستقوله أختى ، حينما تقرأ هذه السطور ، وأنا أزيح عن شخصها ستائر الزهد والصمت والترفع ؟ ولكنى لا أفعل ذلك ، إطراء لها ولا ثناء عليها ، ولا اعتزازاً بأن تكون شقيقتى على هذا القدر العظيم من ضبط النفس ، وإنكار الذات ورباطة الجأش ، وانما أفعله ، لأن من حق بلادنا علينا ، أن تقدم للناس العاديين اا سطاء ، نماذج حقيقية للإنسان المصرى الذى يتصدى للمخاطر

والمكاره ، من أجل العقائد والمبادىء ، مؤمناً إيمانا هـادئاً بسيـطاً ، بها ، وكـأنه يتنفس . .

هذه الأخت ، بعد أن صقلت نفسها التجارب الكبرى والصغرى ، بعد أن مات من حولها أعز الناس عندها : زوجها ، وأمها وأبوها وأختاها ، وبعد أن قرأت ما قرأت ، ورأت ما رأت مازال فى حياتها جوانب جديرة بأن يطل الإنسان عليها ، ولو من « طاقة » صغيرة ، فإن فى ذلك كسباً للإنسان : الإنسان العادى البسيط ، الذى تقوم على أكتافه ، مصر ، ثم الإنسانية كلها .

أخواتى الثلاث (٣)

قال الشيخ الذى نروى ذكريات صباه :

أوت أختى الوسطى ، « حسين توفيق » المحكوم عليه فى جناية سياسية ، المطلوب للعدالة ، تتعقبه أعوانها وتشم آثاره فى كل مكان ، وتغرى الناس بالقبض عليه ، وتسليمه لها ، بمبلغ عشرة آلاف جنيه ، تساوى الان مائة ألف على الأقل .

فقد أعانها فى تنفيذ هذه المغامرة الوطنية الإنسانية معا ، أنها كانت تسكن فى شقة فى حين كانت أختها الصغرى تسكن فى شقة مقابلة ، وكانت الأخت الصغرى كما مر بنا زوجة رجل من أغنياء الريف ، له عزبة فى محافظة الشرقية ، فكانت هى وزوجها وأولادها ، ينتقلون بقضهم وقضيضهم إلى الريف ، بين بطه وأوزه ، وأبقاره وثيرانه ، ونوارجه ومحاريثه ، شهوراً ثلاثة ، ومن ثم استطاع هذا اللاجىء

السياسى ، أن يجد مكانا خاليا لا يشاركه فيه شريك ، ولا يزعجه طارق . وفيما كان الشاب متمتعا بهذه العزلة ، لايفكر فى شىء ، إذ بمفتاح الشقة يدور فى قفلها بحركة واثقة خالية من العصبية ، بدون إنذار له ولا تنبيه ، ولم يستطع الشاب أن يفسر هذا الغزو المفاجىء ، فلم يبق أمامه إلا أن يأخذ للأمر عدته ، ويتهيأ لأسوأ مايأتى به

المستقبل ، فحمل مسدسه فى يده ، بعد أن ملأه بالقذائف ، وجعله فى حالة استعداد ، ووقف هو فى مدخل الشقة ، موقف المدافع الذى عزم على أن يستبسل ، وألا يسلم إلى أحد إلا بعد أن يسلم آخر أنفاسه . . فإذا به أمام رجل سمح لا تفارق

البسمة قسمات وجهه وإن كنت لا تستطيع أن تحدد مكانها ، فهى ليست على الشفتين ، وإنما هى روح تشمل الجبهة والوجهتين ، وجانبى الفم ، والعينين ، وتقدم هذا الرجل المطمئن ، إلى الشاب الذى كان كل عصب فيه يهتز استعدادا للقتال ، فإذا بالرجل ، يفتح ذراعيه للشاب ، ويحتويه بينهما ، ثم يعانقه ، ويقول له : مرحبا . . وزال الفزع من الشاب فى التو ، وذهب الشك فى لحظة ، فلم تداخله ريبة فى هذه الحركة ، ولم يقل لنفسه : هذه حركة خداع مضللة ، يريد صاحبها أن أخرج من حالة التهيؤ ، وأن أدع جانبا سلاحى ، ثم يدعو أعوانه الواقفين فى الخارج ليقبضوا على ويجرونى من خطامى إلى حيث العقاب المضاعف ، فإن لكل حركة ولفظة ، وخطوة وسكنة روحا تعكس عنها ، وتشى بها ؛ فالصادق يفيض صدقه عنه ، والكاذب يفوح كذبه منه ، وإن تزيا الكاذبون فى ثوب الصادقين فهم أغلب الأمر لا يخدعون إلا من كان يريد أن ينخدع لهم . . وقدم الرجل للشاب نفسه ، ولم يقل له مطلقا إنه صاحب الشقة التى لجأ إليها ، وإنما ذكر له صلته بصاحبه الذى هيأ له هذا الملجأ الآمن ، ثم جلسا يتسامران فى هدوء واستقرار ودعة ، وتناولا العشاء معاً حتى كاد يطلع عليهما الصبح ، فأوى كل منهما إلى سرير ، كأنما هما صاحبان قديمان طالت صحبتهما ، وقدمت مودتهما . . واذا رجعنا إلى ماقبل هذا اللقاء غير المنتظر بين شاب أحب بلده ، وغامر من أجلها ، ورجل هام حبا بوطنه ، وقبل فى سبيله مواجهة الأخطار ، فى غير من ولاتفاخر كان علينا أن نعرف أن أختى الصغرى جاءت على غير موعد ، ومعها زوجها ، وأرادا أن يتجها إلى شقتها ، إلا أن الأخت الوسطى ، اعترضت طريقهما ودعتهما إلى شقتها المقابلة ، وقالت لأختها إن فى بيتك ضيفا . فسألت الأخت الصغرى : ومن يكون ؟ . . وأشفقت أختها أن تفضى إليها بالحقيقة دفعة واحدة فتفجأها ، وتدعوها المفاجأة إلى الاحتجاج والاعتراض والممانعة وهى صريحة لاتخفى شيئا من عواطفها ، تعبر عن نفسها بلفظ بين جلى قوى ، فحاولت الأخت الوسطى أن تبحث عن مقدمة أو تمهيد ، ثم استخارت الله ، وقالت لها الحقيقة كاملة ، فإذا بأختنا الصغرى تتهلل ، وتنسال لتتيقن أن الأمر حق كله ، ولانصيب للمداعبة والمعابثة فيه ، فلما اطمأنت إلى صدق الخبر ، اندفعت الى زوجها تبشره ، فضحك ضحكته القصيرة وسأل بدوره سؤلا واحدا ، ليتيقن ثم انطلق إلى الشقة ، ومعه مفتاحها ، وقد حاولت أختى أن تدعوه إلى الاتئاد والتريث خشية أن يكون دخوله المفاجىء على الشاب

مزعجا له ، وخشية أن تدعوه المفاجأة إلى الاعتداء على الداخل غير المنتظر ، ولكن عواطف زوج أختى التى لم تكن تعرف مواربة ولا إخفاء ، دفعته الى باب الشقة ، فكان هذا العناق ، وتلك المودة المنبثقة من القلب ، والتى لايمكن أن تفشل فى كسب قلب الآخرين وحبهم ومودتهم . .

هذه هى أختى الصغرى ، وما جرى منها فى ذلك اليوم ، ليس سوى التعبير الطبيعى والدائم لشخصيتها : حب للناس لا يقف عند حد ، وانشغال بالوطن ، لا يعرف الاعتدال ولا القصد ، وإفضاء بذات النفس ، وكان كلامها ، هو رائحة الوردة ، تصدر عنها ، بلا تدبير أو عمد . . .

نشأنا معاً وكبرنا معا ، وذهبت كل من أختى الكبرى والوسطى ، إلى بيتى زوجيها ، وبقيت معى ، وما كان بيننا ونحن صغار ، لازمنا ونحن كبار ، فالخلاف والشجار والمقاطعة فالمخاصمة فالصلح هى دستور حياتنا ، يجدد فيها ، ويبعث الحرارة والدفء ، ويجعلنا كل حين وآخر ، أشبه بصاحبين يتلاقيان لأول مرة ، ويتعارفان ، ويكتشف كل منهما نفس صاحبه ، ومزاياه ولقد طاف بخاطرى الآن فقط ، بعد أن ماتت أختى ، وانقضى على رحيلها عن عالمنا هذا أكثر من عشر سنوات ، أننا لم نتبادل الشكوى ، من هموم القلب ، لا قبل الزواج ولا بعده ، وإن كانت علاقتنا حميمة ، وصلتنا وثيقة ، وطبيعة كل منا قائمة على المصارحة والمكاشفة .

فى طفولتنا كدنا نكون توءمين ، وبلغ من تشابهنا فى المظهر ، الحد الذى عجز معه مفتش فى مدرسة خاصة ، أن يميز بيننا فقد حلقوا لها شعرها الخفيف ، على أمل أن يغزر ولبس كلانا قبعة المدرسة وزيها ، وذهبنا إلى المدرسة ، وكنا فى الصف متعاقبين . فلما جاء دور أختى قال لها المفتش : ما اسمك يا شاطر ؟ فقالوا له : هذه بنت ، فضحك وسألنى بعدها ما اسمك ياشاطرة ؟ فقالوا : هذا ولد ، فقال الرجل شىء يلخبط ، فأضافوا : هما شقيقان ، فأجاب : بل هما شقيق واحد ، ولم نعرف يومها أن هذه شهادة ، يجب علينا أن نفرح بها ، ولكن كنا أصغر من أن ندرك معناها ، وكان ذوونا ضائقين ، بما نسببه لهم من متاعب ، فلم يكن يسرهما أن نكون شيئين ، أو شيئا واحدا ، لأن هذه المتاعب لم تكن لتنقص ، إذ عدنا للناس شخصا واحدا ، فإن شيطان الاثنين إذا اندمجا فسيصبح شيطانا مريدا .

ولقد كان يجدد تعلقى بأختى إلى جانب نوبات الخصومة والقطيعة والصلح والمودة ، وما يتبع كل دور منها ، من تأجيج العواطف وإشعال الأشواق أنه كان لأختى ملجأ سياسى ، تلوذ به وتهرب إليه كلما لم يعجبها الحال فى بيتنا ، ذلك هو بيت جدتها ، فقد كان لها من حدة الطبع ، ونشاط اللسان ، ما يجعلها أكثر منى تمرداً على نظام البيت الشديد الرصين الذى لا يعرف استثناء ولا تراخيا والذى لا يطيق التدليل ولا يدخله فى نظامه : نظام لم يسمح قط ، لفتاة أو صبى أن يحمل اسما من أسماء الإعزاز ، والتحبب التى كانت ولاتزال شائعة فى كل البيوت ، تطلق على الصبيان كما تطلق على البنات ، وإذا كان الغرباء قد أطلقوا على أختى الوسطى اسم تدليل ، فقد فقد معناه ، وأصبح هو الاسم الأصلى ، لأن هذا الخروج على الأصل الثابت والمستقر لا ينتج أثره إلا فى جو يعرف أسلوب التلطف ، ومن هنا كانت أختى الصغرى لا تكاد ترى فى البيت مالا يعجبها ، حتى تحمل ثيابها ، وتلجأ إلى بيت جدتها ، وكان لايبعد عن بيتنا إلا بأمتار ، ولم تكن هناك هذه السلطة المستقرة الثابتة التى تأمر وتنهى ، وتعلم وتلقن ، وتوبخ وتندد ، وتلزم الكبار قبل الصغار ، لا بقانون الأخلاق ، بل بمقتضيات الذوق ، فمن يقرض أظفاره مجرم يناله أشد التقريع ، ومن يعلو صوته أكثر مما يجب أو يليق ، خارج على الدولة ، تتعقبه بكل عنف ، والجلسة لها وضع مرسوم ، والضحكة لها شكل معلوم ، والوقفة لها قياس موزون وهكذا وهكذا ، ولقد كان لهذه التقاليد آثار فى كل منا ، فأختى الكبرى ، واءمت بين نفسها وبين كل القيود ، باللطف والمداراة والاحتمال وضبط النفس ، فخرجت « دبلوماسية » وأعانها أن قواها كلها داخلية ، لا يبدو عليها شىء منها ، فإذا صاحبت السيدات اللواتى يبدو أنهن من المجتمع متمرسات لبقات ، يلعبن بالبيضة والحجر ، ويتبدين بزينتهن ومواهبهن بما يبهر صاحبتهن ، دون أن تحس بنقص ثم سبقتهن إلى المكانة ، فحرصن على مودتها ، وعلى محاكاتها ، والأخذ بنصيحتها ، وواجهت أختى الوسطى أهوال هذا النظام ، بفرط من الحساسية . جعلها فنانة ، تحس ما يحس به الناس ضعفين . فما كان يضايق غيرها ، يدميها تماما .

وأما أختى الصغرى ، فقد قوى عنصر التمرد والثورة عندها ، فهى لاتطيق نقدا ، ولاتحتمل توجيها ، ولاتصبر على توبيخ ، صوتها عال ولفظها قارص ، وكل مافيها صريح وواضح ومعلن . فإذا آوت إلى بيت جدتها وجدت تسامحا ورفقا ، بل

أحقا هى مصرية ؟ إن قامتها المرفوعة ، ومشيتها الطليقة ، وقوامها الذى لا تجد مثله بين المصريات كثيرا ، كل ذلك أعجبنى ، فقلت له : هذه أختى ، قال : هذا إذن أثر الدم الشركسى فيها ؟ وكان رحمه الله شديد التعصب لشركسيته . .

أما الأمر الآخر فإن أختى ذهبت إلى الحج ، وكنت آنذاك أحد الوزراء ، فاجتمعت مع والدة السيد أنور السادات التى كانت تحج أيضا وحسنت رفقتهما وأطالتا الجلوس معا ، فى الحرم المكى وتواعدتا على أن تحرصا على صلتهما عند العودة . . ثم أبت أختى عندما عادت أن تبذل جهدا فى أن تتصل بالسيدة والدة الرئيس ، فسألتها يوما : ما سر هذا المسلك ؟ فقالت : لقد كانت معرفة حج فندعها صحبة لله ، لا شىء فيها من الدنيا ، ولا شىء فيها للدنيا . . ! » .

هذه أنت يا أختاه ، هذا مظهرك ، وهذا مخبرك ، وأنت بين المظهر والمخبر ، شىء بين ملائكية البشر ، وسماوية أهل الأرض . . !

بيت العباقرة

إن عجبى من غرائب الذاكرة وحيلها مع صاحبها الإنسان ، فى الإخفاء والإظهار ، والإيهام والخداع ، لا تنتهى ، وادا كان بعض الذين يتحدثون عن أصول الألفاظ ، يزعم أن الإنسان سمى كذلك ، لكثرة نسيانه ، فإن فضيلة نسيانه ــ ولا أقول آفة نسيانه ــ أسدت إلى هذا المخلوق المسكين أيادى لا حصر لها ، منها أن نسيانه حفزه إلى الكتابة والتسجيل ، ورغبة التسجيل حفزته إلى إقامة الصروح الضخمة والهياكل الرائعة ، وإخراج الصور البارعة ، والقصائد الرصينة والرقيقة ، فكل هذه وسائل الإنسان ليحاصر الحاضر ، ويمنعه من الإفلات منه والضياع . .

ولو كنت أقيد مذكراتى وأنا صبى غافل لكتبت فى يوم ما فى سنة ١٩٢١ : أننى لقيت صبياً فذا ، فتعلقت به وأن بداية تعرفى عليه ، وتعرفه على ، واتصال الواحد منا بالآخر ــ أنه قال لى كذا ، أو قلت له كيت . . . وأن هذا التعرف كان فى مكان ما من مدرسة محمد على ، ذلك لأن هذا اليوم وما جرى فيه يوم تاريخى بحق . . .

تاريخى فى حياة كلينا ، أو حياتى أنا على الأقل ، فلقد امتدت صداقتنا منذ ذلك اليوم القديم المجهول حتى تجاوزت نصف القرن ، وإن كان قد انقضى علينا أخيراً سنوات لا نتقابل ، ونأى الواحد منا عن الآخر فى فترات الاتصال اليومى ، ولكنى لم أكتب مذكرات وأنا صبى ، مثلى فى ذلك مثل كل صبى آخر ، لذلك فقد حاولت أن

أتذكر حينما شعرت بأن كتابة هذا الفصل من ذكريات الصبا قد قاربت الحلول ـ حاولت أن أتذكر كيف تلاقينا أحمد وأنا ، وما الذى جذب الواحد منا إلى صاحبه وقد كنا فى فصل لا يقل عدد تلاميذه عن الثلاثين ، وكيف كان اللقاء الأول ؟ وما الحديث الذى دار بيننا فيه ؟ وما الذى وثق العلاقة بيننا ، وجعلها فى المتانة والقوة التى صمدت معهما لأحداث أجيال شهدت من الوقائع والأحداث والتغيرات والانقلابات ما لم تشهده حقبة أخرى فى تاريخ مصر الحديث ؟ . فلم أوفق إلى شىء من هذا كله ، والحق أننى لا أزال أحرص وأشوق ما أكون إلى معرفة هذا الجانب من حياتى ، لأنه يفسر لى ، أمراً منها غامضاً أشد الغموض :

ذلك أن ظاهر الأمور كان يؤدى إلى استحالة قيام صداقة ، بينى وبين أحمد ، لا فى قوة الصداقة التى ربطت بيننا بالفعل ، ولا أضعف منها ، فقد كان الواحد منا على النقيض من الآخر ، كان أحمد ، صبياً صحيح البدن ، يكاد يطفر الدم من وجنتيه ، ويشع نور قوى من عينيه ، ويمتلىء ثقة بنفسه ، يتكلم بصوت واضح عال ، وربما آمر ، لا يخشى الناس ولا يتحاماهم ، ويقف من الرجال موقف الند ، ويحسن الأخذ والعطاء معهم ، وعند الاقتضاء يشتد عليهم فى القول ، فيعلو صوته على أصواتهم ، ويرد إليهم كل كلمة قاسية بمثلها أو أقسى منها ، فى حين كنت صبياً عليلاً ، لا أشفى من مرض إلا لأصاب بعلة أشد منه ، ناحلاً ، خجولاً أتحاشى الناس ، ولا أحسن التعامل معهم ، ولا أقوى على الصمود لمخاشنتهم ، ولا احتمال غلظتهم أو فظاظتهم ، فأنأى عنهم ، نأياً يبدو تعالياً وكبرياء ، وهو يعيش فى الواقع ، ولا يفلت منه ، شديد التحكم فى خياله ، يحفظ دروسه أولاً فأولاً ، ويعرف ما يريد ، وكان يريد أن يكون على رأس فرقته ، ويحتفل بهذا الغرض ، ويبذل فى سبيله جهداً .

أما أنا فقد كان يطيب لى الاسترسال مع الخيال ، حتى أكاد أنسى الواقع الذى أعيش فيه ، لا أكره أن أكون من المتفوقين ، ولكنى لا أبذل فى سبيل هذا جهداً ، ولا أحرم نفسى من أجله متعة من متع الصبيان ، ولست أنسى إلى اليوم أنه فرض علينا حفظ عدد من قصار السور ، ونحن فى السنة الثانية الابتدائية ، وكان كل واحد منا ، يتمنى ألا يصل إليه دور الامتحان أو ما نسميه ، « التسميع » إلا أحمد ؛

فقد كان يعرض على الشيخ محمد رزق أن يمتحنه فى هذا المقرر دفعة واحدة ، يتلو سورة وراء سورة سعيداً بهذه القدرة على الحفظ والأداء ، وقد كانت لى صلة بمدرس اللغة العربية والدين ، وحدث أن زرته فى مساء اليوم الذى كان أحمد قد نجح فيه فى إقناع مدرسه بأن يستمع إليه ، فقال الشيخ : « هوشاطر » ومضت السنون حتى رأيت أحمد يسحب وراءه مدرس اللغة الفرنسية فى السنة الأولى من كلية الحقوق ، وكنا نتلقى العلم فيها بكلية الآداب ، إلى حجرة المدرس الأجنبى ليسمعه النصوص الأدبية الفرنسية المقررة علينا ، وأكثر الطلاب يفرون من موقف كهذا . . !

وليس هذا سوى مثل على نضج الصبى الغريب ، وقد كانت تصرفاته معى ، ونحن صبيان ، تسير كلها على منوال واحد ينضح بهذا النضج ، ويدل عليه ، خاصمته يوماً ، فإذا به يحضر والدته ــ رحمها الله ــ ويأتى معها لزيارتنا ، متوسلاً بوالدته إلى والدتى لتصلح ذات بيننا ، وقد كنت أرى فى هذا المسلك دليلاً ، على تعلقه بى ، وحرصه على استبقاء صداقتنا ، ولكن حينما تقدمت بى السن ، عرفت أن هذا الموقف إرهاص بنضج أحمد المبكر .

ثم تخاصمنا مرة ثانية ، فأرسل إلى خطاباً قصيراً ، يقول لى فيه : « إنك لا تهدى من أحببت » وقد هزنى يومذاك أن يكون فى مقدور صاحبى الاستشهاد بمثل هذا الكلام الكبير ، الذى لا يتناسب هو وسن وتجربة كل منا ، وقد كان ذلك ونحن فى السنة الثالثة الابتدائية ، ولكن الدهشة جديرة بأن تتضاءل حتى تزول ، إذا علمنا أن هذه السنة هى نفس السنة التى شهدت أغرب مجازفة وقعت فى تاريخ التعليم الابتدائى فى تلك الحقبة من الزمن ، صحيح أننا كنا فى سنى الحمل الثورى .

ولكن مهما تكن تلك الفترة موحية للشبان بالمجازفة ، وتحدى السلطة التى نزعت الثورة الخوف منها من القلوب ، فقد كانت السياسة وقفاً على الرجال والشيوخ والشبان ، فلم يتسع نطاقها للصبيان ، ولكن أحمد وأنا ، طلعنا على الناس أى على تلاميذ مدرسة محمد على ومدرسيها وناظرها وإدارييها بعمل غير مسبوق ، ومن ثم فقد كان مثيراً حقاً للدهشة ، وكان ما طلعنا به يومذاك منشوراً مطبوعاً نوزعه على زملائنا ، فيتخاطفونه ، لا حرصاً على قراءة ما فيه ، فقد كانوا أصغر من أن يدركوا معنى المنشور ، ولكن ألف الناس أن يمدوا أيديهم إلى كل من يوزع شيئاً ، حتى لو

كـان إعلانـاً لمسرح أو ملهى فـإنه يعـز عليهم أن يوزع شيء عـلى الجمـاهـير ، ولا يحصلون على نصيب منه .

أخذ تلاميذ مدرسة محمد على الابتدائية فى حى السيدة زينب يتخاطفون هذا المنشور التاريخى ، وقد حمل على رأسه اسم جمعية ، وكان اسم هذه الجمعية على بساطته فريداً بين أسماء الجمعيات المعروفة والمتداولة فى تلك الأيام ، فقد كان « نصر الدين الإسلامى » قارن اسمها هذا الثورى ، بأسماء الجمعيات الإسلامية الكبرى مثل : الخيرية الإسلامية ، والعروة الوثقى ، والمواساة والمساعى المشكورة . أسماء هـادئة ، لا تتحـدث عن نصر ولا تـأييد ، فهى أسـماء اختـارهـا شيـوخ شـابت رءوسهم ، وشاخت نفوسهم فى العمل العام ، أما هذا الاسم فهو أليق ما يكون بصبيين لم يضعا أقدامهما بعد على العتبة الأولى من الطريق نحو المجاهدة والنضال والتصـادم مع السلطة ، ومـازلت أذكـر هـذا المنشـور الـذى شغـل صفحـة من « الفولسكاب » فى مطبعة حسنة الحروف ، ولا بد أن يكون قد خلا من الأخطاء المطبعية إذ لابد أن يكون قد كتبه أحمد أو على الأقل بيضه بخطه الذى لا يقل كثيراً عن خطى سوءاً وإن كان يبزه ويتفوق عليه فى الوضوح .

ماذا دار فى نفس هذين الصبيين . فاحتقنت به رءوسهما والتهبت حتى رغبا فى التخلص منه ، بالإفضاء به بهذه الطريقـة غير المـطروقة ؟ من الّـذى قادهمـا إلى المطبعة ، ومن علمهما التحدث إلى الناس بهذه الطريقة ؟ أين رأيا منشوراً يوزع ؟ وإذا كانا قد قرآ منشوراً من منشورات الثورة ، يوزع فى الخفاء أو فى العلن ، أفلم يدركا أن تلك منشورات السياسة وفى السياسة ، وأن أحداً لم يوزع منشور الدين ؟ ومن هما حتى يدعوا الإخوان والزملاء ، وهم بعد فى « بنطلوناتهم » القصـيرة إلى الجهاد ؟ ومن الذى أوحى إليهما بخواطر وأفكار هذا المنشور ، ولم تكن الأحاديث التى يتداولها الناس وتتناولها الصحف ، مما يتصل بالدين ، عشرات من الأسئلة ، كان يخفف من حدتها : لو أن نسخه من هذا المنشـور ، استطاعت أن تنجـو من الضياع ، وأن تبقى ذكرى لهذا العمل الصبيانى الصغير .

والطريف فى الأمر أننا وجدنا ثلاثة من الزمـلاء ، يقبلون الانضمام إلينـا ، والاشتراك معنا فى هذا العمل المحفوف بالمخاطر ، وأحسب أنه لم يخطر ببالهم أنهم

وجدت نفسها هى سيدة الدار تأمر وتنهى ، وتطلب وترفض ، وجدتها تفنى فى إجابة رغائبها بل نزواتها ، وخالها ، يجد فيها مايرفه ويسبغ على جو البيت الهادىء ، الرتيب حركة ولطفا ، فإذا حدث أن نسى أحد أهل بيت الجدة نفسه فعاتبها ، جمعت أختى حاجاتها وملابسها ، وعادت إلينا دون أن تحس خجلا ، أو تشعر بأنها فى حاجة إلى تفسير أو بيان . وربما ترددت بين البيتين فى اليوم الواحد ، مرات ولا يستطيع بيت الجدة أن يقلل من ترحيبه بها ، وفرحه بعودتها ، أما بيت الأبوين ، فيتقى إثارة غضبها ، لاخوفا منها بل إشفاقا على أهل البيت الآخر .

ولم يكن ثمة ضحية لهذا الطبع الحاد ، واللسان القوى ، المعبر ، إلا أنا . وقد قلت أول الأمر : إنها اتخذت منى تلميذا ، ثم أعانها خيالها ، فأقامت مدرسة ، واستطاعت بهذا الخيال أن تضيف إلى شخصى الضعيف عددا من زملائى كانت تأمرهم أن يجلسوا إلى جوارى فيجلسوا ، وأن يسمعوا الدرس فيطيعوا ، وأن يلتزموا الأدب ، فيذعنوا ، فإذا خرج واحد من هؤلاء التلاميذ الذين يخلقهم خيال أختى الخصب ، فالويل لى أنا ، إذ لا يوجد من يتلقى العقاب والعذاب سواى . وإذا رفضت قبوله صاغراً راضياً ، فقرار عسكرى معد ، بحل المدرسة ، وإعادة تلاميذها إلى بيوتهم ، وبقطيعة منكرة تقوم بينى وبين صاحبة المدرسة ومديرتها ومدرستها . وعربون العودة إلى المدرسة نصيب من العذاب أكبر . والعجيب أننى رضيت بهذه المحنة مع أنه كان لى فى الشوارع المحيطة بالمنزل متع وبديل ، والأحواش التى كانت تجاور بيتنا والتى كانت مراتع وميادين للاعبى الكرة العالميين والمحليين ، والذين زاملتهم ، وكدت أكون واحدا منهم ، لولا أننى لم أثابر مثابرتهم ، فقد كانت هذه الشوارع والحلقات ، أمامى تدعونى ، وأنا أقبل دعواتها ، وأعود إلى البيت وقد احتقن وجهى وتصبب عرقى ، وانقطعت أنفاسى ، ولا أزال أكابر حتى أصاب باحتقان اللوزتين ، يلقى بى فى فراش المرض أياما طويلة ، والحمى تسلمنى فى أغلب الأحوال إلى مايشبه الغيبوبة والهذيان .

فما الذى جعلنى أقبل استبداد أختى ، وعنف نظراتها ، وبطش أستاذيتها ؟ أكانت أحاديثها تستهوينى ، أم كان تعلقى بها ، تطبيقا لقانون نفسى اهتدى إليه علم أهلنا الفطرى ، حينما قالوا : « القط ما يحبش إلا خناقه » : أى القط لايحب

إلا من يخنقه ، لأن الخنق نوع من العناق أو لأن الخنق صورة أقصى من صور الاهتمام ، وأن الاهتمام مهما بلغ سوء التعبير عنه فإنه أفضل عند المحبين من عدم المبالاة والإهمال ، ولوطاوعنا أنفسنا وصدقنا علماء النفس المحدثين لقلنا إن الحب والكره ، مصدرهما واحد وأن الخلاف بينهما اختلاف فى الإتجاه لا اختلاف فى الطبيعة ، ويقول عوامنا « مامحبة إلا بعد عداوة » ، باعتبار أن العداوة محبة فاشلة فالإنسان الذى يود أن يظفر بحب إنسان ، ثم لا يوفق ؛ تتحول مشاعره إلى كراهية ، من قبيل ماقاله الذئب الذى حاول أن يطول العنب ، فلما لم يصل إليه قال عنه « حصرم ! » .

وأيا كان نصيب هذه الفلسفة ، من الصحة والصدق ، فأنا وأختى الصغرى كنا نعيش كائنين محكوما عليهما بالأشغال الشاقة ، ربطا فى قيد واحد ، نتشاجر ونتصالح ، ونتبادل ألطف الكلمات . . وأقساها ، ولا ينفصل أحدنا عن الآخر .

ولا أنسى يوما ، كنت أنا وهى على درجات سلم منزلنا الرخامى الذى كانت تملكه « بريمادونه » ذلك الزمان « مليا ديان » ، فقد أسندت أختى ساقها إلى طرف قدمها ، فراح ساقها يهتز هزة عنيفة وسريعة ، وتظاهرت هى بأنها أصيبت بشلل مفاجىء ، وكانت تكبرنى وكنت فى السادسة أو دونها وصدقت ماقالته ، وانفجرت باكيا ورحت أقبلها ، وأرجو أن تعود إلى الشفاء ، وهو طلب غريب لأنه يدل على اعتقادى بأن المرض كان بناء على رغبتها ، فمن الممكن أن تعود إلى الشفاء ، وتظاهرت بأنه لا أمل ولا رجاء . وأنا لا أدرى ماذا أفعل وقد أبت حكمتى يومذاك أن أعلن لأهل البيت المصاب الذى حل بأختى ، لا إشفاقا منى عليهم ، بل خوفا من العقاب ، فأنا أعلم أن أمى كانت سترى فيما أصاب أختى عدوانا منى عليها ، ولم تكن محكمة « أمى » لتسمع بمرافعة ولا دفاع ، وبعد أن شبعت أختى من تعذيبى خلال المدة التى قررتها أعلنت أنها شفيت ، وأنى إذا ضايقتها مرة أخرى فإن هذا الشلل سيعاودها وإن عاودها فلاشفاء ، وأنها ستبقى إلى الأبد كأم « نجية » ، وأم نجية هذه كانت سيدة مسنة تمت إلينا بقرابة ، وكانت تسير وهى تختلج ، أى وهى تهتز ، وقد جعلها هذا الشلل الخفيف ، أقرب ماتكون إلى البلاهة ، فنمت طوال الليل ، أحلم بأختى ، وبأم نجيةفلما كان صباح اليوم التالى أفضيت إلى أمى بمخاوفى ، ورجوتها أن تدعو الله ألا تصاب أختى بالشلل ، وسألت وهى لاتكاد

تضبط غضبها ، عن سبب هذه المخاوف ، فأفضيت إليها بالسبب فكانت النتيجة غريبة غاية الغرابة ، فإن أمى ضربت أختى ضرباً شديداً ، على خديها ويديها ، وحذرتها العودة الى هذا التظاهر السخيف ، وقبلت أختى العقاب ، لأول مرة فى رضا ، ولم تعلن احتجاجها ، كالمعتاد ولم تلجأ إلى ملجئها السياسى المألوف ، ولم أجرؤ على سؤالها عن هذه الاستجابة غير المتوقعة ، ولكنى حينما كبرت قالت لى : إن من اللحظات التى لا تنساها والتى تعذبت فيها أكثر مما تعذبت أنا لحظة تظاهرها بالشلل ، لأن ماكان يبدو على وجهى يومها ، كان يدل على شدة خوفى وألمى ، مما دعاها إلى إنهاء هذا الموقف وعدم تطويره ، فقد كان فى نيتها أن تضيف إليه ألوانا من هذا الشلل يجعلها تتمايل وتهتز وتقع على الأرض . .

ولقد قارنت ماحدث منى من ضبط النفس ، وأنا أرى هذه الأخت العزيزة تعانى شللا مفاجئا ، ومما فعلته هى يوم أن أصبت بالدفتريا ، وكانت يومها مرضا لا يسمع الناس فى مصر عنه ، إذ كانوا يسمونه بأسماء أخرى كالخناق مثلا ، ولم تكن الأمصال المضادة له قد ذاعت ، إذ ماكادت أختى تسمع من الطبيب أن حلقى سد حتى أسرعت إلى بيت جدتى ووقفت فى ساحته وصاحت : أخى قد سد حلقه ، فأثار هذا الصياح فزعا فى البيت ، أدع لك أنت تصوره ، وأنا الولد الوحيد فى بيوت الأسرة كلها .

ولكن كم أفدت من هذه الأخت ، فلقد تلقيت على يدها كما قلت من قبل أول دروس البيان ، فقد قصت على من القصص الدينى والأدبى والتاريخى ، ماعلمنى أول الأمر فضيلة الاستماع ، ثم ماعلمنى فضيلة تذوق القص والحكاية ، وأسمعتنى قصة ماجدولين وأبكتنى عليها ، وأسمعتنى قصة الحسين سيد الشهداء وأبكتنى عليه ، وقصة « ابنة مونتزوما » لشارلس جارفس ثم أصبحت أكبر نقادى ، وأقساهم ما قرأت لى شيئا إلا أظهرت من الضيق لغموض ما كنت أكتبه فى محاولاتى الأولى وكانت تعقد المقارنات بين خطاباتى وخطابات أصدقائى حينما كبرنا ووصلنا إلى مرحلة التعليم الثانوى ثم وصلنا الجامعة وتراسلنا ولكم كانت تحب خطابات صديقى وزميلى « كمال » وكان فى المنصورة ، وكنت فى بنى سويف ، وكان يصف ما يراه فى المنصورة من مظاهر الحياة اليومية وصفا سهلا ولطيفا ، حتى كانت ننتظر خطاباته وتفضها قبل عودتى إلى البيت ، وتقرؤ ها ، أما خطابات ، « أحمد » التى

كان يكتبها من القاهرة عن المسارح والمحاضرات والندوات ، فكانت عندها أشهى وأمتع من القصص ، فلما سافر إلى فرنسا وأرسل إلى خطابات فى شكل مذكرات يومية قرأتها مراراً .

ثم تزوجت شابا يمت إليها بصلة قربى قريبة عن طريق أمها ، وذهبت معه إلى الريف ، فكأنما خلقت لهذا الريف ، فأحبته وأحبها الناس فيه من فلاحات يعملن فى البيت ، ومن رجال يعملون فى الحديقة ، وحظائر الحيوان وفى إدارة العزبة ، ولم تحاول أن تحدد عدد أولادها ، فكأنها قروية تحب الأولاد ، كما تحب الدجاج والعجول ، والبط والوز ، وما سألتها يوما عن أولادها إلا كان ردها الدائم « حلوين » ، وتحس من هذه الكلمة الصغيرة البسيطة ، الإعزاز والتعلق ، والرضا ، وقد ولدت بعض أولادها فى الريف ، كما تلد الفلاحة دون أن يعينها طبيب ، ولم أرها يوما منزعجة لطفل مرض ، فقد انتقلت إليها بطريق العدوى ، طمأنينة وسكينة القرويات ، اللواتى دخلن فى حياتها وسقط عندها الحاجز القائم بين المدينة والقرية . بطريقة لاوعى فيها ، فهى لم تقصد أن تكون رائدة اتجاه اجتماعى ، غايته أن يرفع مستوى بنات القرية روحيا وأن يدخل فى قلوبهن ونفوسهن إحساسا بالثقة ، ولكن كان السر فى شخصيتها التى تكره كل تعالٍ على الضعفاء والفقراء ، إذ لم يخالطها قط شعور بأنها أغنى من سواها ، ولا بفقر الفقراء حولها وإن كانت نفسها تذهب حسرات على ما يعانونه من حاجة وحرمان ، ولم أجد ظرفا ظهر فيه اتحادها مع الفلاحات واندماجها معهن ، إلا يوم شيعت القرية جثمانها ، مع أنها ماتت فى القاهرة ولكن زوجها أبى إلا أن تخرج جنازتها من عزبة له اسمها كفر عياد كريم ، ليتاح لجميع أهل العزبة من النساء والرجال أن يحيوها التحية الأخيرة ، وكانت تحية بسيطة وصادقة ومؤثرة ، فقد خلت من هذا الصراخ الذى يشبه نعيق البوم وصياح الغربان ، وسار الجميع فى صمت وإطراق ووجوم ، أما صديقاتها وزميلاتها من نساء القرية ، فقد وفقن إلى أحسن وأجمل ما يودع به مسافرة فقد تعالى صوتهن بين الحين والحين ، مع السلامة يا أختى مع السلامة يا حبيبتى .

ولكم أحسست بأن الحزن الذى ملأ قلبى قد تبدد ، وأن الذاهبة عنا ، الماضية

إلى طريقها الذى لا يعرف أحد عنه شيئا ، هى فى رحلة وأنها فى حاجة إلى الدعاء لها بالسلامة ككل مسافر . .

ولكن قد كان لها قبل أن تموت دورها فى العمل وكانت العزبة التى تقيم فيها هى وسيلتها فى هذه الخدمة العامة ، فقبل أن تنتقل إلى الشرقية كانت مع زوجها فى عزبة فى القليوبية ولقد أوت هذه العزبة بعض الوطنيين فى خلال الحرب العالمية الثانية وظلام الأحكام العرفيه العسكرية ، يسود البلاد ، والوطنيون ، مطاردون تتعقبهم السلطة فى هذه الأيام العصيبة لم تتردد أختى ولا زوجها ، أن تأوى هؤلاء بهدوء وبدون أدنى شعور بأنهما يأتيان عملا عظيما ، لجأ إليهما أحمد حسين ولجأت أنا إليهما ، ولجأ آخرون فلم يجد أحد من هؤلاء جميعاً شيئاً أقل من الفرح بقدومهم ، والسرور بإقامتهم ، والرغبة فى أن يطيلوا زيارتهم وإن كانت زيارة مفروضة .

وأصبح لأختى الصغيرة ، شاغل يلح عليها ، ولا يدعها تستريح ليلا أو نهارا ، ذلك هو الانشغال بشئون بلدها ، وقد أعانها على هذا الانشغال تزاحم الأحداث ، منذ تدهورت سمعة الملك ، واشتدت الحملة عليه ، ثم على الإنجليز ، وعلى المعاهدة ، حتى ألغيت ، وبدأ نشاط الفدائيين المصريين ، يظهر جديا ، وكانت عزبة زوجها فى الشرقية ، قريبة غاية القرب من خط النار الأول إذ كانت على بعد كيلومترات قليلة من أبو حماد وكانت المطارات البريطانية فى « أبو صوير » غير بعيدة عنهم ، ولذلك أحسست بأنها هى التى تقف فى خط الدفاع الأول عن وطنها ، فراحت تتعقب كل ما يكتب فى الصحف والمجلات ، وما يذاع فى المحطات المصرية والعربية والأجنبية للإذاعة وهى وسط هذه المتابعة المحمومة التى لا تنتهى لا تكف عن قراءة الكتب على اختلاف أنواعها ، فمن الأدب إلى التاريخ ، إلى الدين ، إلى السياسية ، ! ولم أر قارئة فى مثل سرعة التهامها لما تقرأ ، من إحاطتها بما تطالع .

وكان الكتاب الذى تقرؤه وقودا يلقى إلى النار فيزيدها ضراما ، واشتعالا ، فما تنتهى من كتاب إلا لتبحث عن غيره ، ولم يعقها عن هذا الاطلاع الواسع المتجدد المتنوع أنها أم لستة أطفال ، وأن ظروف الحياة فى القرية تزيد من أعبائها ، ففى القرية حظيرة للدواجن ، وأبقار تحلب ، وزبد تصنع وعيش يعجن ويخبز ، وأنواع من المخللات تعد وتحفظ ، وتعبأ فى صفائح وزجاجات وان كان حولها من الأعوان

الكثير من الرجال والنساء ، وقد كان بعض هذا ، يكفى أن يكون عذرا عند غيرها ، لكيلا تقرأ شيئا ، ولكنها لم تشك قط من أعباء البيت ، ولا مشاغل الأولاد ، التى تحول بينها وبين القراءة ، فالقراءة عندها أشبه شىء بالأنفاس تتردد فى صدرها ، لا تعتبرها واجبا يؤدى ، ولا شغلا يشكى منه .

وكانت تبحث عمن تناقشهم فى شئون بلدها ، فى الداخل والخارج ، فإذا وجدت عنها انصرافا ، ضاقت بهذا الانصراف ، وعدته نقصا فى الوطنية ، وتخلفا عن أداء الواجب ، وكم من مرة جاءت لزيارتى ولا هدف لها إلا أن تسمع وتعارض ، وتقترح وتستفسر وتعلق ، فإن وجدت منى تكاسلا فى الحديث ، أو فتورا فى الاستماع خرجت وقد اعتل مزاجها ، وأحست بسوء ضيافتها ، وانصرفت شاكية محتجة !

وقد امتحنت فى وطنيتها امتحاناً شديداً ، فقد أربك الإصلاح الزراعى ، أمور زوجها المالية ، وضاقت موارده ، وزادت أعباؤه ، فى وقت كان أولادها قد كبروا ، وكثرت مطالبهم ، وكانت كبرى بناتها تطلب العلم فى أمريكا ، وأكثر أولادها ، فى الجامعات ، فلم يزعزع كل ذلك إيمانها بالإصلاح الزراعى ، ولا فرحها به ، ولا إصرارها على أن الفلاح يحتاج إلى مزيد من المنح والبذل ، وأن الريف يفيض ببواعث الشكوى ، لكثرة ما عشش فيه الظلم ، وملأ أرجاءه الطغيان ، وكان كل من حولها يهاجم الثورة وينتقد عبد الناصر ويضرب الأمثال لها على أن الثورة عقيمة ، وأن ما بدا خيرا وبركة ، انقلب شرا ونقمة ، فكانت لا ترى فى كل ما يقال لها إلا حرصا على الماضى ، وكرها للتغيير ، واستعجالا للأمور ، فإذا أصاب مصر شر أو سمعت من يتهجم عليها أو يسىء إليها من أبنائها الفارين منها ، أو من أعدائها المتربصين بها احتدم غضبها ، واحتقن وجهها ، واستمطرت اللعنات على هؤلاء وأولئك . وعجبت لرجال فى مصر يرون كل هذا ، ولا يفعلون شيئا فى رد عادية الجميع .

وفى وسط هذا الانفعال الوطنى ، المتأجج ، تبدأ مأساتها التى ختمت ، حياتها ، فقد كنا فى حفلة بمسرح الأزبكية ، أقامتها مدرسة الخليفة المأمون التى كانت تضم بعض أولادها ، وواحدا من أولادى ، وكنت خطيب هذه الحفلة ، فلما فرغت

منها ، سألت عن أختى فقيل لى إنها ذهبت مع زوجتى إلى الدكتور عباس حلمى أستاذ الجراحة بجامعة عين شمس لأنها تشكو منذ فترة ألما فى صدرها ، وفى المساء علمت أن الجراح أمر بوجوب تحليل جزء من الورم الذى وجد فى مكان من صدرها وتوالت الأنباء ، كما يحدث دائماً عندما تصل الرواية إلى أعلى أزمتها ، فقد ظهر أن عملية جراحية لاستئصال الصدر يجب أن تعمل ، وأُجريت العملية ، ولا أنسى أننى يوم أن أجريت خرجت من مكتبى ومعى الدكتور لويس فانوس وهو أحد أعضاء مجلس الشيوخ قبل الثورة ، ولم أنجح فى أن أصرفه عن مرافقتى بقولى له إنى ذاهب إلى أختى لأعودها بعد العملية ، فركب السيارة معى ، وهو يؤكد أن العملية ناجحة وأن الأورام السرطانية ليست مخيفة كما نتصور جهلا ، وأن آخر الإحصاءات تدل على كذا وأن الجراح البريطانى المشهور الذى اسمه كيت ، كتب فى بحث له منشور فى مجلة لانسيت الطبية أشياء . . !

وذهبت إلى حجرة أختى . وقد أفاقت من المخدر فوجدتها بين اليقظة والنوم ، يعلو وجهها الأبيض ، هدوء واستسلام للواقع ، ولم أسألها عن الصحة فقد تبادلنا النظرات ولست أدرى ما الذى جعلنى أحس أنها بداية النهاية . فأختى لا تعرف هذا الصمت ، ولا هذه التعليقات البسيطة ، ونسيت أنها لا تزال تحت تأثير المخدر . وتركت المستشفى ، وعادت إلى بيتها وحياتها ، بنفس الحيوية والإقبال على الحياة ، والثقة فى المستقبل ، ولكن كان يخالط هذا شىء من الحزن العميق ، الذى لا تسمح له أختى بالظهور ، وأحبها أطباؤها حبا جعلها صديقة لا مريضة ، أحبها دكتور عباس حلمى ، فكان يفرح كلما جاءته تزوره فى العيادة مع شقيقتها أو مع زوجتى .

وكان يوصى بها زملاءه الدكاترة « حسين عرفان ومحمود محفوظ » اللذين تناوبا علاجها بالأشعة حتى سبقها هو إلى الموت وبنفس المرض ، وكان الجميع يناقشونها ويسمعون كلامها ، ويعابثونها ثم عاودتها العلة ، فكان لابد لها أن تسافر إلى لندن ، وسافرت إلى لندن ، وأجرى لها الدكتور زيفن أكبر أطباء جراحة السرطان عملية ، ولكن المهم أن الرجل فتن بها ، إلى حد أنه كان يرسل وهو فى طريقه من انجلترا إلى الشرق ، أو من الشرق إلى بلاده ، إلى الجراحين فى مصر ليعدوا له مكاناً فى المطار يرى فيه أختى ويكشف على الجرح ، ويتحدث إليها ويضحك معها ،

ويطمئنها ، وفى آخر مرة خرج من المكان الذى كانت قد تمددت فيه ، ليرى تطور المرض فيه ، ووقف على عتبة الحجرة فى المطار ساهماً واجماً . . فقد كانت النهاية !

وبقيت أختى ، بعد أن اشتدت وطأة هذا المرض القاسى الذى لا يرحم ، وتحملت آلامها التى لا ينفع فى تهدئتها مخدر ولا منوم ، تذكر كيف اعتنى بها الأطباء والممرضات والحكيمات فى مستشفى لندن ، وقالت وهى تضحك ، لقد كانوا يزينوننى كل يوم ، ويضعون فى شعرى الأشرطة الحريرية ، يغدقون على وجهى وجسمى العطور ، ويزينون حجرتى بالأزهار ويغنون لى ، فياله من وداع جميل ويبكى كل الذين حولها وهم يسمعون كل هذا الكلام ، وهى هادئة صابرة لا تطرف ، ولا تدمع ، وكانت ابنتى قد تحدد موعد لحفلة عقد قرانها ، وكانت أختى تحس أن أجلها قد دنا ، فلم أرها شاعرة بالذنب ، وخجلة من نفسها مثل شعورها وخجلها تلك الأيام ، لأنها كانت تدرك أن وفاتها ستؤجل الحفلة التى تهيأ الجميع لها فكانت تقول همسا : يارب . . لكم دعوتك لأن تدعونى إلى جوارك . . والآن أنا أدعوك ، أن تمهلنى أياما ، أياما قليلة فقط يارب !!

لك الله أيتها الأخت التى لم أعرف فى النساء ولا فى الرجال أحدا فى مثل فنائها فى المثل الأعلى .

وقد كانت تواجهها فى مقعدها صورة ، لأبيها ، صورت له يوم انتهى عمله الرسمى ، وقد أحاط به زملاؤه ، وكانوا جميعا قد ماتوا بعد أن أخذ هذه الصورة بأعوام ، فكانت تنظر إلى الصورة وتقول : كل هؤلاء ماتوا . . ويأبى الله لحكمة إلا أن أبقى . . متلكئة متشبثة بالحياة ، كضرس يرفض أن يخلع من مكانه !!

ولكنى لا أستطيع أن أسترسل فى تصويرها ورسم شخصيتها ، بأكثر مما فعلت ، فإن ذلك عناء لى لا أقوى عليه ، ولكنى أذكر شيئين عنها : أولهما ، يوما كنت أسير فيه فى الطريق ، معها ، ناحية قسم مصر الجديدة ، حيث كان الفريق عزيز المصرى معتقلا ، وكان يتمشى فى سطح دار مأمور القسم الذى يعلو مبنى القسم نفسه ، فبادلته التحية بالأيدى ومضيت فى طريقى ، وفى اليوم التالى ، كنت عنده أزوره ، فما كدت أصل إلى عتبة الشقة التى كان معتقلا فيها حتى قال : من هذه التى كانت معك . . قلت له : ولماذا ؟ قال : أمصرية هذه ؟ قلت نعم ، قال :

مقدمون على شيء تغضب منه السلطة ، ومازلت أذكر أسماء الزملاء الثلاثة مؤسسى أول جمعية توجه الدعوة للناس كافة من أجل العمل العام ، سبقت جماعة الإخوان المسلمين المؤسسة فى سنة ١٩٢٧ ومصر الفتاة التى بدأت حياتها فى الربع الأخير من سنة ١٩٣٣ ، كان هؤلاء الزملاء : عباس حلمى حتحوت ، وعبد الجليل الذى اتصل بى مرة أو مرتين بعد سنة ١٩٥٢ ووعدنى بالزيارة ولم تمكنه الظروف الوفاء بوعده وأغلب الظن أنه كان يعمل فى الريف كصاحب أرض زراعية أما الثالث فهو إما محمد حسن وإما حسين محمد ، وقد اعتاد أحمد أن يسميه « هرقل » لأنه كان على نحف جسمه ، وضآلة بدنه ، كان ذا عزم عصبى ، لا يهاب من يكبرونه فى السن ، ويفوقونه فى بسطة الجسم .

ما الذى قلناه لهؤلاء الزملاء الثلاثة حتى ارتضوا أن يوقعوا على هذا المنشور الخطير ؟ ولم يطل الأمر ، فقد انتبهت السلطة الى هذه النبتة الثورية ، بعد أن كتبت أنا منشوراً ثانياً ، طبعناه كالأول ، وإن كان دون الأول ثورية ، فقد كان شرحاً تقليديا لأركان الإسلام الخمسة ، وإن بقى حظه من الثورية غير قليل ، لكونه مجرد منشور من ناحية ، ولأنه صادر من صبيان فى مدرسة ابتدائية من ناحية ثانية .

وقع المنشور فى يد ضابط من ضباط المدرسة ، فأسرع به إلى ناظرها المرحوم محمد توفيق البردعى واصطففنا أمامه ، وتساءل ما الذى حدا بنا للإقدام على هذا العمل الغريب ؟ أو لم نتبين أننا تجاوزنا قدرنا إذ نصبنا أنفسنا هداة ومرشدين ، وأن لكل إنسان مقاماً ، وأن على كل إنسان أن يلزم حده ، ويصطنع زيه ، فمن كان رجلاً كبيراً ، ولبس طربوشاً قصيراً ، دعا الناس إلى الضحك عليه ، والسخرية منه ، وأشار إلى طربوشه ، وكان بالصدفة المحض بين طرابيش الرجال ، طربوش قصير ، وقد تنبه أحمد إلى هذه الملاحظة وبقى يذكرها ويتندر بها ، فى حين كان أعضاء الجماعة فى خوف من المسئولية التى رأوا أنفسهم أمامها وجهاً لوجه ، وقنعت السلطة بهذا التوجيه اللطيف ، وأخذت علينا تعهداً بألا نعاود هذا العبث الخطير . وقضى علينا أن نقنع بالخطوة الأولى ، وأن نحرم ما بعدها ، وكان ذلك نذيراً بما سنلقاه فيما بعد ، فمؤتمر الطلبة الشرقيين الذى دعوت إليه ، لم يتجاوز التحضير ، وإصدار الأعداد الخاصة من الجرائد والمجلات الكبرى ، وتأليف لجنته التحضيرية من أكبر أساتذة وزعماء العالم العربى ، ثم دهمته السلطة فقضت عليه ، ومشروع

القرش الذى دعا إليه أحمد ، والذى يبدو أسعد حظا على الأقل لأن الآلاف من تلاميذ المدارس الثانوية والعليا والمتوسطة قد اشتركوا فى جمع التبرعات له ، ولبسوا شارته ، ومشوا فى صفوفه لا سنة واحدة بل ثلاث سنوات ثم كان من ثماره ، مصنع لا يزال فى شارع برج الظفر ، ينتج ويتحدث إلى الناس ، عما يمكن أن تفعله إرادة ، ولو كانت إرادة طالب لم يتم تعليمه .

وإذا كانت هذه التجربة المثيرة ، « عينة » من حياة هذين الصبيين ، فإن حياتهما لم تكن كلها ، مجازفات ، تضطرب لها النفس ، وتتأزم لها الأعصاب ، وإن لم تخل من ذلك بين الحين والحين ، فقد كانت صداقتهما مصدر السعادة ، ما أحسب أن صبيين نعما بمثلها ، فقد كانا قادرين على أن يتحدثا معاً الساعات تلو الساعات ، ويتناقشا ويختلفا ويختصما ، ثم يتصالحا من جديد ، دون أن تخف رغبتهما فى الحديث ، والمشاركة فى مداعبة مئات من الأفكار التى تعلو على سنهما ، وحسبك أن تعلم أن من بين ما مارساه من اللعب ، أن أقاما « برلماناً » فى حوش منزل أحمد بشارع مراسينة غير بعيد من ميدان السيدة ، وقد حاولت أن أذكر أعضاء البرلمان ومداولاته ، فلم أظفر إلا بمنظر مائدة فى الصدر ، ومقاعد قد تبلغ السبعة أو الثمانية قد يكون نصفها خالياً من الأعضاء ، ومع ذلك يواصل البرلمان عمله بهمة وإخلاص ربما تزيد عن همة وإخلاص أعضاء كثير من برلمانات ومجالس تشريعية شهدتها مصر بعد ذلك التاريخ .

وما دمت قد ذكرت منزل شارع « مراسينة » فلا بد أن يسمح لى القارىء الكريم ، أن أقف أمامه وأن أحنى الرأس تحية له ولصاحبه الذى بناه أو اشتراه ، ولذكرياتى فيه ، أنا الذى لا أحس بالحنين إلى الأماكن التى صاحبتها أو عشت فيها ، فى طفولتى أو صباى ، أو شبابى ، فإن لدى القدرة على الفصل بين الذكريات ذاتها ، ووعائها الذى احتواها من الأمكنة والدور .

ولكن ــ بعد قليل من التأمل ــ وبمناسبة كتابة هذه الذكريات ، أحسست بأن هذا المنزل ، صاحب دين فى عنقى ، وأن على أن أؤديه ، فقد كان أحد منزلين شهدا وقائع صبانا .

صاحب هذا البيت هو والد أحمد ، وقد كان ــ فى الوقت الذى بدأت صداقتنا فيه ــ موظفاً بوزارة المالية ، وما أحسب أحداً من زملائه بالإدارة التى كان يعمل بها

فى وزارة المالية ، جرؤ على التفكير فى أن يقيم منزلاً بمدينة القاهرة قريباً من ميدان السيدة ، وعلى بضعة أمتار من قسم الشرطة ، ولكن والد أحمد ، كان رجلاً عظيم الهمة ، طموحاً ، محباً للإنشاء والتعمير فاقتنى هذا البيت وعهده بالعمل بالريف قريب – على ما أتصور – وكان البيت يضم ثلاثة أدوار ، عرفت فيه السيدة والدة أحمد ، رحمها الله رحمة واسعة ، فكانت كأمهات ذلك العهد ، نموذجاً للطيبة والبساطة ، والرحمة والفضيلة ، والفناء فى رعاية زوجها وأولادها . كنت أصافحها ، وأنا صبى فتمد يدها إلى ملفوفة بطرف قطعة قماش ، تغطى رأسها بها عند الصلاة ، خشية أن ينقض وضوؤها ، لأنها شافعية ، وقد بقى صوتها فى أذنى سنوات حتى بعد أن توفاها الله ، فى سن مبكرة ، وأحمد بعد فى المدرسة الابتدائية أو الثانوية على الأكثر ، فلما ذهبت إلى أسيوط ، وجاءت إحدى السيدات تزور أمى اضطربت اضطراباً ، فسألونى ماذا أصابنى ، فقلت : هذا صوت والدة أحمد ثم غبت تماماً عن الحاضرين فترة ، وعدت بخاطرى إلى أيام ذلك البيت ، فلما أفقت عاد الصوت يطرق أذنى ، لم أعد أحتمله ، فخرجت من بيتى هائماً على وجهى ، وأنا أعجب لنفسى ، فلم أكن أعهد فى نفسى الاستسلام لنوبات الوفاء العاطفية الشبيهة بهذه النوبة ، وقد عرفت مع الوالدة ، ولديها مصطفى وعبد الفتاح الذى يطلق عليه تدليلاً « حلمى » . ولم أفطن وأنا صبى فى العاشرة أو دونها ، أن هذا البيت بالوالد والأولاد الثلاثة ، والأم جدير بأن يسمى « بيت العباقرة » ، وإن لم تكن العبقرية لفظة متداولة فى أيام صبانا ، ولم أكن قد اطلعت بعد على الآداب الأجنبية وعرفت بفضلها صوراً من الشخصيات الإنسانية الفذة التى تجمع بين الذكاء طرافة أسلوب الحياة والتمرد على تقاليد الناس ، وطرائق عيشهم وتفكيرهم ، وقد كان الوالد ، بصوته القوى ، الذى يخيف حقا وشاربيه المتدلين على شفتيه وبنائه المتين ، ومع كرش ككرش الآباء جميعاً تتوسطه سلسلة ساعة ذهبية ، ورجلين مقوستين قليلاً ، لا تنقصان من هيبة طبيعية – كان بكل هذه الخصائص ، نموذجاً للوالد ، الذى يحتل فى بيته وبين أولاده ، مكانة السيد المطاع ، الذى يرعى الجميع ، ويحترمه الكل ، كسلطة أعلى تستمد سيادتها من إرادة الله ، ويسلم أهل البيت قاطبة بها .

ولم أكن أتصور ، حينما كنت أراه من بعيد سائراً إلى البيت أو خارجاً منه ، أو حينما كنت أسمعه يتحدث إلى أحد أولاده بصوته المدوى فأنكمش وأتوارى ، أن يوما

سيأتى أكون فيه صديقه أو يكون صديقى . وهذا ما حدث بالفعل ، فقد ازداد هو تفهماً لتطورات الدنيا . وزاد مسايرة للعصر ، ولا سيما كلما كبر ابنه أحمد ، وزاد مقامه بين المواطنين - حتى تساقطت عناصر صورته القديمة والمهيبة ، وحلت محلها صورة رجل ودود ، يتذوق الحياة ، ويألف الناس ، ويضحك معهم ويداعبهم ، ثم وصلنا إلى الخاتمة ، حينما قصدنى من أجل قضية ضد الحكومة ، صديق له تركى الأصل ، مصرى الجنسية اسمه فريد بك صدقى ، كان صديقه هذا من حاشية الخديو عباس حلمى الثانى ، ومن رجال عهده ، فجاء والد أحمد ، بفريد صدقى بك هذا ، وأودع يدى قضيته ، وكانت قضية كبيرة حقا ، أو قل كانت أكبر منى ، فقد كانت ضد الحكومة ، بشأن معاش طلبه ابن رمزى طاهر باشا الذى شغل وظيفة كبير ياوران الخديو عباس ، ولما أبدى الخديو عباس انتقاده لنظام الجيش المصرى على الحدود سنة ١٨٩٢ ، هاج هائج اللورد كتشنر البريطانى ، قائد الجيش المصرى وأمر بطرد رمزى طاهر من حاشية الخديو العسكرية ، وعينه وكيلاً لوزارة الحربية ، فلما أحيل إلى المعاش خرج من مصر لأنه لم يحتمل غطرسة الإنجليز وتوفى فى تركيا ، وترك من أولاده ولداً ناقص الإدراك ، فطلب معاشاً استثنائياً ، ورفضت الحكومة ذلك الطلب ، لأنها استلزمت أن يأتى طالب المعاش إلى مصر ، ليوقع عليه أطباء الحكومة الكشف ، وكان دفاع شقيق هذا الولد المقيم فى تركيا أن نقله إلى مصر ، يعرض حياته للخطر ، ومن هنا كانت الدعوى دقيقة ، وكان المطلوب فيها مبلغاً ضخماً ، وقد كتب الله لى التوفيق فيها ، وكسب المدعى دعواه ، فسر والد صديقى أحمد ورضى عنى ، ولكن أهم من ذلك ، أن القضية استغرقت بضع سنوات ، كان والد أحمد يتردد على مكتبى خلالها ، فنتبادل الحديث ، حتى لم يعد ينقضى شهر دون أن أراه ، وأستمع إليه ، ويستمع إلى ، حتى ألفت ضحكته ، وأحببتها ، على خشونتها ، وغرابة صدورها من رجل له مظهره . ولقد شعرت بما يطوى على صدره من الحب للناس والحرص على مجاملتهم ، حينما عرف أننى لن أقبض مقابل هذا الجهد الطويل المثمر قرشاً ولا مليماً لصعوبات إدارية . فقد كان مهموماً مشغول البال يقترح الحلول ، ويغير فيها ، رجاء أن أصل إلى حقى .

وعرفت فى البيت العباقرة ، عبقريا بحق ، هو الأخ الأوسط لأخى أحمد وقد كان موظفاً فى قسم قضايا وزارة الأشغال ، عمل مع أحد أساتذتى المحبوبين والأفذاذ

هو المرحوم الدكتور عبد المنعم رياض ، أستاذ القانون الدولى بكلية الحقوق ، وكان مصطفى - رحمه الله - موظفاً مشهوداً له بالكفاية ، وكان العمل فى عقود وزارة الأشغال التى أصبحت وزارة الرى - كله باللغة الانجليزية ، ومن ثم فقد أتقنها ، وأذكر أننا تكلمنا معاً على أسلوب القانونيين فى صياغة العقود ، فانطلق يكرر أمثلة مما تمتلىء به تلك العقود من تحفظات واحتياطات مثل : ولا تسأل الوزارة عما يقع للطرف الآخر ، من أخطار محتملة أو غير محتملة ، أو تنتج عن العقد مباشرة أو بطريق غير مباشر فى أثناء تنفيذ العقد أو بعده ، من موظفى الوزارة أو من غيرهم . وقال كل ذلك بلغة إنجليزية سليمة وطلاقة عرفت منها كيف تمكن من هذه اللغة ؟

غير أن هذا ليس سوى جانب ثانوى وقليل الشأن إذا قورن بما اتسعت له نفس هذا الشاب الذى وافاه الأجل وهو فى غضارة العمر ونضارته . فقد انصرف فجأة وبلا تمهيد إلى الدراسات الدينية فقرأ الغزالى ، وقرأ غيره من أمهات الكتب الإسلامية ، ورأيته يوماً ، يقرأ البخارى ويستخرج منه الأحاديث التى يخيل إليه أنها مصنوعة كحديث جناحى الذبابة الذى فى أحدهما داء وفى الآخر دواء ثم غلبته نزعة للتصوف ، فضؤل شأن الدنيا فى حياته ، حتى زهدها وانصرف عنها ، مخلصاً غير مدع ، ولا متظاهر ، ولا راغب فى التحدث عن تصوفه للناس ، وقد شهدته فى تلك الفترة ومازلت أذكر عينيه اللتين رفعهما إلى يوماً ، وقد امتلأتا بفرحة طفل ، وفاضتا بذكاء عجيب ، وأؤكد أنه كان للمرحوم مصطفى أثر فى حياة أحمد ، بقى معه إلى اليوم .

وسأروى للقارىء حادثة طريفة من طرائف شبابنا ، تؤكد هذا الاستنتاج . وقد يعجب الإنسان من هذا التطور الضخم فى حياة مصطفى إذا علم أنه كان رياضيا من أوائل الذين اقتحموا ميدان سباحة المسافات الطويلة ، وأنه كان يقوم بتمرينه من مصر القديمة إلى المنيل وأحياناً إلى روض الفرج ، وقد اتفق يوماً مع شقيقه أحمد ، لينتظره بثيابه عند المنيل ، والظاهر أنهما اختلفا على المكان الذى تواعدا عليه ، فبقى مصطفى فى الماء ولست أدرى ما الذى ساقنى إلى هذا الموقع من النيل ؟ فلما رآنى ، رجانى أن أعدو إلى المنزل لأحضر له ملابس ، وانطلقت كما طلب ، ولكنى لقيت والده فى البيت ، ولما سألنى عن طلبى ، ترددت قليلاً ، ولكن لم يكن

ثمة مناص من المصارحة ، فثار الرجل ، وأرغى وأزبد ، واستنزل لعناته على مصطفى ونزواته ، وأقسم ألا أتسلم من البيت قطعة واحدة من الملابس ، ولكن رحمة الأم وحنانها ، لم تحفل بهذا الفيض المتدفق من الحمم ، وأحسنت التدبير وسلمتنى لفة فى جريدة ، وانطلقت ثانية إلى النيل ، فإذا بى أرى أحمد عائداً ، فسألته أين كان ؟ وكبر عليه أن يضبط متلبساً بهذا الخطأ الجسيم ، فتركنى ومضى فى حال سبيله دون أن يرد على سؤالى ، وأنا فى غاية الحنق ، من هذا الصمت الفياض بالتعالى .

أما العبقرى الثالث فهو الأستاذ عبد الفتاح ، الذى لم يتم تعليمه ، ومع ذلك ، كان رياضيا موهوباً ، وكان فوق ذلك فيلسوفاً بحق ، لا يسمع شيئاً إلا استخرج منه معنى ، أو علق عليه تعليقاً طريفاً ذكيا ، ولقد ألف أن يكتب خواطر فى كراسات من كراريس المدارس ، يقيدها بغير اكتراث ولا احتفال ويكتبها فى منتصف الصفحة حيناً ، وفى جانب منها حيناً آخر ! ويبدؤها وربما لا يكملها . . وعاش بعد ذلك عيشة الفلاسفة حقا وصدقاً ، لا يكترث بشىء ، ولا يحمل هما ، ولا يعتنى بملبس ، ولا يعالج مرضاً ، ويضحك من كل شىء ، ضحك العقلاء الأذكياء . ولقد توثقت علاقتى به ، ومحبتى له ، حتى كان مكتبى ، واحداً من الأماكن التى يألفها ويتردد عليها ، ويطيل الجلوس أيا كان موقع هذا المكتب . وقد كنت أفرح بمقدمه ، وأستمتع بحديثه ، وقد كان عندى ، قبل وفاته المفاجئة فى حادث ، بيومين أو ثلاثة . . وأؤكد أنى لو تمكنت من جمع كراساته ، ثم من طبعها ونشرها لوقع الناس على الكثير المثير واللطيف من الخواطر والأفكار .

وقد كان للمرحوم عبد الفتاح أو حلمى ولع بلعب النرد « الطاولة » وكان شقيقه أحمد أكثر منه تمكنا من اللعبة وتمرساً بها ، فكانا يلعبان معا الساعات الطويلة ، فإذا ذهبت إلى بيت شارع مراسينة ، وكانا فى حمى الوطيس لم يلتفتا إلى ، وقد كان للمرحوم عبد الفتاح قدرة ، إذا غلب أحمد يوماً مرة على إغاظته ، مع أن أحمد يغلبه بالعشرات دون أن ينجح أحمد فى إغاظته أو إحراج صدره ولو لمرة واحدة .

أما أنا وأحمد ، فقد كانت لنا جولات وشطحات ، تتردد بين سهرات فى المسجد

الزينبى ، نسمع الخطب ثم الدروس ، وبين سهرات فى نادى الشبيبة الرياضى الذى كان فى شارع الدواوين الذى أصبح شارع نوبار الآن ، وفى ذات ليلة نسينا أنفسنا ، ورحنا نشاهد عروض الملاكمة ، وكان بين المتلاكمين شاب اسمه « مراد مينا » كان يوصف بأنه بطل الملاكمة . فلما عاد كل منا إلى بيته ، دخل أحمد إلى فراشه سالما ، فلم يكن فى بيته - مع شدة والده - نظام كنظام بيتنا الحديدى ، فقد استقبلتنى أمى ، بالكفوف ، حتى التهبت خدودى ، فتجلدت ولم أبك ، لأنى وجدت أنه لا يليق بى أن أبكى ، وقد كنت منذ قليل ، بين جمهور رياضى ، كواحد من الرياضيين .

وفى فترة ، زادت فيها أشواقنا الروحية ، تواعدنا أحمد وأنا على أن نصلى الفجر حاضرا ، وجاء أحمد يطرق بابى فى غبشة الليل ، والدنيا هاجعة ، والشوارع خالية ، واستيقظ والداى منزعجين فقد توهما أن وراء الطارق نبأ مفزعاً ، وإذا بى أتحرك فى فراشى ، وأنا لا أقوى على التكلم ، وأخيرا أفضيت لهما بما اعتزمنا القيام به استفتاحا لعهد من التصوف والتهجد ، والتقرب إلى الله ، فوضعا حدا لكل هذه الآمال العريضة بصرخة ومضى أحمد وحده فى الشارع المظلم ، وقد أبى عليه وفاؤه أن يصلى الفجر وحده ، وأجل دور التسامى الروحى إلى فترة أستطيع معه أن أتحرر من قيود المنزل .

وقد كان لأحمد جار فى حى طولون قبل أن يبنيا منزل شارع مراسينة ، وقد كان لهذا الجار ولع بالنشاط المسرحى إذ كان غالب الأمر ، من متعهدى الحفلات المسرحية ، الذين يستأجرون هذه الحفلات مقابل مبلغ يجعلونه لمدير الفرقة ثم يجربون حظهم فى توزيع تذاكر المسرح على الجمهور وأصدقائهم ومعارفهم ، فاستطاع هذا الجار أن يزود أحمد بتذاكر فى عدد من حفلات مسرح الأزبكية فى وقت كانت فرقة أولاد عكاشة تقدم فيه مسرحيات غنائية وغير غنائية ، وكان أحمد فى الأيام التالية لليلة التى يذهب فيها إلى المسرح ، يقص على ماشاهد ، ويمثل بعض المشاهد ، ويؤدى بعض الأغانى ، وأجلس أمامه وأنا مأخوذ اللب بهذا المسرح الذى يقدمه صاحبى بهذه البراعة والقدرة والسهولة . وجاء ذات أصيل ليزورنى فلم يجدنى ، فانتظر عودتى ، فلما طال الانتظار ابتدأ يسلى نفسه وأخواتى بإسماعهم عشرات من

الأغانى التى كانت شائعة آنـذاك ، وكان أكثـرها من تلحـين سيد درويش كلحن السقايين والشيالين ، فلما عدت فى المساء ، وجدت أخواتى ، كأسعد ما يكن بعد أن شبعن من هذه الوجبة السخية من الأغانى والأدوار .

وأقيمت حفلة بمدرسة محمد على ، فهالنى أن علمت أن من بين العروض فى الحفلة ، حوارا تمثيليا بين اثنين ، مما يقدم عادة فى حفلات المدارس ، وأن « أحمد » قد تقدم ليكون أحد المتحاورين ، وشعرت بأن صديقى من قوة الأعصاب ، بحيث جرؤ على الإقدام على مجازفة كانت تساوى عندى الصعود إلى القمر ، ولم أعد أراه فى فترات الراحة بين الدروس فقد كان منهمكا فى تجارب التمثيل التدريبية ، ولكن هذه الحفلة لسوء الحظ ألغيت ولم نتمتع برؤ ية بواكير عبقرية أحمد الفنية والخطابية ، ولكن هذه البواكير سرعان ما أعلنت عن نفسها بعدما سافرت الى أسيوط ، وأصبحت من قراء مجلة « المسرح » أكبر المجلات الفنيـة ، فى ذلك العصـر ، إن لم تكن المجلة الفريدة آنذاك ، فقرأت يوما نقدا لحفلة المدرسة الخديوية التمثيلية ، عرفت منه أن صاحبى أحمد مثل دوراً خطيراً فى مسرحية أبى مسلم الخرسانى الذى أعدها هو ، عن روايـة جورجى زيـدان ، وقد وصـف النـاقد الـذى كان يـوقع مقـالاته بـإمضـاء « الأحنف » طريقة أحمد فى التمثيل فقال إنه يمثل وكأنه « شضلى » وشضلى تساوى عصبجى . وفى العدد التالى قرأت ردا طريفا على هذا النقد بإمضاء « أحمد محمود حسين الشضلى » وكان هذا المقال بداية اتصالنا معا بالصحف وبالكتابة فيها . ثم تلقيت منه خطابا قال لى فيه : إنه فى نهاية الحفلة تقدم إليه أمير الشعراء أحمد شوقى مهنئا .

وقد وعدتك أن أروى لك شاهدا على تأثر أحمد بأخيه مصطفى ، عندما زهد الدنيا وتصوف ، وهو شاهد طريف حقا ، فقـد تعرفنـا ــ فى فترة تـالية مبـاشرة لصبانا ــ بالأستاذ المرحوم مصطفى العلوى الذى كان معاونا للمرحوم العلامة فريد وجدى فى المطبعة ودائرة المعارف التى كان يصدرها آنذاك ، وكان الأستاذ العلوى مشتغلا بالتنويم المغناطيسى وقد نجح فى تنويم أكثر من وسيط أمامنا ، وحاول أن ينيِّم أحمد ، فتظاهر أحمد بأنه نام فعلا ، وقد كان من بين ما حدثنا به المرحوم العلوى أنه يستطيع أن يوحى إلى وسيطه بأنه صغر سنا ، فتظهر على الوسيط علائم السن الصغرى حتى يبلغ سن الطفولة ، فيصبح صوته كصوت الأطفال ، وعندها يروى

ذكريات طفولته وهذا ما يساعد على شفاء بعض الأشخاص المصابين بأمراض عصبية أو نفسية إذا كان سبب الإصابة ، صدمة جرت لهم فى الطفولة ، ثم زاد طموح الأستاذ العلوى فقال : إنه يستطيع أن يعود بالإنسان القهقرى ، حتى يصل به إلى ما قبل الولادة ، ثم إلى ما قبل ولادة آبائه وأجداده بمئات السنين ، وأوهم أحمد الأستاذ المنوم بأنه وصل بروحه إلى عهد الفراعنة ، وأبدى تألمه الشديد ، فلما سأله عن سبب هذا التألم قال : إنه يجلد بوصفه أحد العمال فى معبد فرعونى ، وخيل إلى الأستاذ العلوى أنه بذل طاقة روحية فى تلك الليلة أكبر مما يجب ، فانتفض انتفاضة أفزعتنا ، ولكن أحمد طلب ورقة وقلما وهو نائم لأن روحا من أزواح الموتى الأعزاء تحوم حوله وتود أن تملى شيئا فلما وضعنا القلم بين أصابعه كتب ما لم نستطع أن نقرأه ، فلما طلبنا إليه هو أن يقرأ ما كتب قال : هذه رسالة من أخى مصطفى يقول فيها : احذوا حذوى ، . وقد أطاع أحمد ــ فى الجملة ــ هذا الأمر من أخيه ، فى كثير من مراحل حياته الحافلة الغنية الطويلة العريضة .

وداعا أيام الصبا

هل حقا انتهت أيام الصبا ؟

وهل انتهت فى عامنا هذا الذى كتبت فيه ذكريات الصبا ، أو أنها انتهت منذ نحو أربعين عاماً عندما بلغت الرابعة عشرة ، وقام فى وهمى ، أننى رجل ، لى حق الرجال ، فى أن أقول ما أشاء وأفعل ما أريد وأبدى الرأى فى شئون البيت والمدرسة والأمة ، وأرتاد مجامع الكبار ، وأختلف إلى حيث يخطب الزعماء ويتناقشون ، ويهاجمون بعضهم بعضاً ، فى رفق حيناً وفى عنف أحياناً .

نعم إنها انتهت عندما انتهيت من تحرير ذكرياتها .

فيوم أن وصلت وأنا بين الطفولة والصبا ، إلى عتبة الشباب أطمح إليه ، أشفق منه ، وأحلم به ، وأتصوره ، وأتصور نفسى فيه لم أحس بأنها انتهت ، فالزمن الساحر ينقلنا من دور إلى دور ومن حال إلى حال ، ونحن لا ندرك ولانشعر ، تفاجئنا الشعرات الأولى تحت الأنف ، وحول الذقن ، فنطيل النظر إلى وجوهنا فى المرآة ، وفى أعماق نفوسنا ، يدور سؤال هامس خجل ، ممزوج بالدهشة والسرور والاحتجاج متى حدث هذا ، وكيف وهل صحيح . ؟ هل صحيح أننا خرجنا من إهاب الفرح غير المسئول والنشاط غير المقيد ، والحرية غير المدركة لذاتها ، إلى عالم لا ندرى قواعده ، ولم نجرب الخضوع لقوانينه ؟

وعندما تلوح الشعرة البيضاء فى رءوسنـا ، نهتز من منبت الشعر إلى أخمص القدم ، بنفس المشاعـر ، ممزوجـة بحزن خفى ، مـع أن الشعرة البيضـاء شىء جديد ، ولمقدم كل جديد فرحة ، ولكن هذه الشعرة شىء جديد مخيف ، إنها نذير بالنهاية ، التى تتأخر عقوداً ، وتتلكأ فى طريقها سنين ، ولكن آخر الأمر ، تشـير إليها ، وتعلن قدومها ، ويالها من شعرة ، تتألق بياضا ، وتبدو بـريئة ضعيفـة ، غريبة بين زميلاتهـا السوداء الحـالكة السـواد ، وهى شعرة لا تعتـرف بالمنـطق ، ولا تسلم به ، بدلالة أنها بيضاء فى رأس أحد من أبناء آدم الذين تواصوا ، على اعتبار البياض صنو النور ، والسواد صنو الظلام بجامع القتام فى كل والشعرة البيضاء نذير المغيب والمغيب هو غروب الشمس وقد قالت لى ، الشعرة البيضاء : أنا بيضاء رمز العلم والنضج ، والرضا ، والتجربة بعد الخفة والطيش وقلة العلم ، إذا كـان المغيب ، يعنى أفول الشمس فهـو يعنى أيضاً شـروق القمـر بنـوره الفضى الوضاء ، وقد جعل الله القمر ضياء ، وزين به السماء ، مع الكواكب والنجوم ، ثم منذ متى ولبنى آدم منطق مستقر ؟ فالسواد عندهم رمز الجلال والأبهة ، لا يلبس إلا فى أجل المناسبات ، وأعظمها مهابة ، وقد اتخذته حركات ذات شـأن فى القديم والحديث شعارها المفضل ، ولونها المحبب !

وأرادت الشعرة البيضاء ، يومذاك أن تسترسل فى حديثها لولا أننى أحسنت الاعتذار لها فقلت : علم الله أننى لم أحزن لمقدمك ، ولم أنقبض لمرآك ، بل فرحت بك ، فرحى بكل جديد ، وأطلت النظر فيك ، ثم عدت أتأمل داخل نفسى ، وخارجها ، وفى ظاهر بدنى ، وفى باطنه متسائلاً هل لهذه الشعرة البيضاء التى تعدها ضيفاً جديراً بالإكرام والإعزاز والتحية أثر فى هذه النفس ، أو فى ذاك البدن ؟ فلم أجد شيئاً ، بل وجدت كلا منهما غافلاً عنها ، زاهداً فى الحديث حولها ، فشكرت لهما حسن نياتهما وعدم اهتزازهما ، وإن كنت قد أخفيت عنهما وعن الشعره البيضاء رأيى فيهما من أنهما ساذجان لا يدريان ماذا يعنى هذا اللمعان الفضى فى ظلام شعرى الكثيف الذى لم ينل منى ما يستحقه من العناية والرعاية ، مع أنه عند غيرى عظيم المكانة ، كبير القدر . . ؟

لكن قبل أن تظهر الشعرة البيضاء التى وجدت من زميلاتها السوداء حبا شديداً فى محاكاتها ، ربما هرباً من السواد اللامع ، إلى البياض الناصع ، فقد تكاثـرت

الشعرات البيضاء ، حتى اشتعل الرأس شيباً قبل الأوان ، فبدوت بين الناس شابا شيخاً ، أو شيخاً شاباً ، وألف الناس أن يواسونى فيقولوا ، إن هذا الشيب المبكر ، زانني . فابتسمت يومذاك ابتسامة أسى حقيقى ، لأننى أدركت يومها ، أن هؤلاء الصحب ، رأونى جديراً بالمواساة ، لأنها تزيدنى إحساساً بقدر الإنسان ، يحمل وحده مصابه ، وأقرب الناس إليه يشاهدونه ، ولا يملكون له إلا دموعاً تترقرق فى المآقى يخفونها ، وآهات تتلهب فى الصدور يكتمونها ، وصدق الله تعالى إذ قال : « وإن تدع مثقلة إلى حملها ، لايحمل منه شيء ولو كان ذا قربى » وقد عرفت وأنا فى مطلع الشباب ، هذا الإحساس ، المر ، فقد وضعت على محفة تتحرك على عجلات ، ودفعت المحفة إلى أعماق حجرة ، انتظرنى فيها رجال مكممون يلبسون أردية بيضاء ، فيخفون وجوههم ، فتبدو عيونهم ، وكأنها عيون أعوان شر ، وهى عيون رسل رحمة ، وقد وقف على باب الحجرة ، أخواتى ومعهن صديق الصبا « أحمد » ألمح ــ وأنا بين الموت والحياة ــ على وجوههم آيات الجزع ، فأشفق عليهم ، أكثر مما يشفقون لحالى ، لأنى أعرف مدى ما يعذبهم شعورهم بالعجز عن إنقاذى ومد يد المعونة لى فى محنتى .

ولكن لقد دلفت إلى الشباب ، بعد أن فرغت أيام الصبا ، دون ألم ، فلم أبكه ، ولم أودعه فقد كنت وأنا أستقبل الشباب ، أشبه ما أكون بإنسان فقد شيئا غالياً ، فى مناسبة سعيدة ، فأنسته المناسبة ، ألم الخسارة ، وبقيت غير مدرك أن الصبا ، أجمل عهود الحياة ، قد انتهى إلى غير رجعة ، حتى جلست لأكتب ذكريات هذا العهد ، فإذا به يعرض على مفاتنه ، ولطائفه وخفاياه وأسراره ، فأزداد إحساساً بغفلة الإنسان ، الذى يدع هذا الدور الجميل الذى أتقنت يد الله الخلاق العظيم نسج خيوطه ، من حيوية الطفل ومرحه ، ومن سذاجته وعدم تجربته ، ومن تفتح الشباب ، وإقباله على الدنيا فى دهشة وترقب وتطلع وإحجام أكثر إمتاعاً من الاندفاع والجرأة ، التى لا تتهيب شيئاً لفرط الثقة .

وطوال الفترة التى كنت أكتب فيها ذكريات الصبا ، كنت أملأ رئتى من عبقه وأريجه وحلو رائحته ، كنت أمتع عينى من رؤية هذا الصبى ، الذى لا يستقر فى مكان ، ولا يشبع من القفز والوثب والركض والعدو ، والتعلق بأغصان الأشجار والتسلق فوق الجدران والأسوار ، كنت أملأ أذنى بصيحات وصرخات لداته وزملائه

من الصبيان ، وهم يتخاطفون الكرة ، ويتقاذفون بالطوب ، ويتـدافعون للظفـر بشيء يتسابقون إليه ، وعيونهم تلمع بالسـرور ، ووجوههم تـطفح بـالسعادة ، وأصواتهم تفيض بالفرح ، ولما وضعت القلم إلى جانبى ، بعد أن فرغت من آخر كلمة فى آخر سطر ، شعرت بأنى كنت أشبه شىء بمتفرج فى دار سينما ، يتابع شريطاً متقناً لطيفاً مسلياً موحياً ، فنسى نفسه ، حتى إذا أضاءت الأنوار وبددت ظـلام القاعة ، بددت معها الحلم ، تلفت حوله ، فـإذا الناس يغـادرون أماكنهم ، فى صفوف طويلة ، يجرون أرجلهم جراً فى حين بقى فى مكانه يأبى أن يسلم بأن الشريط انتهى أو بأن الحلم قد اختفى ، وأنه ترك للواقع جالساً على مقعد ، وأمامه حائط بـارد ، لاتجرى عليـه صورة ولا ينعكس فـوقه ضـوء ولا يبعث فى القلب شعورا ولا يوحى للناظر عليه بإحساس . . ثم هو لا يدرى ماذا يفعل ؟ أيترك مكانـه ، ويسير مع الناس ، ويفعل كما يفعلون . أيمكن أن يخرج من هذا الحلم الجميل ، كما يخرج الواحد منا من قاعة مسرح ؟

قد يبدو للإنسان أن ذلك سهل ، وهو فى الواقع سهل لو أن هذا كان حلماً ، ككل الأحلام التى نراها فيما يرى النائم ، ولكنه كـان فترة من عمـر ومرحلة من حيـاة ، وجزءاً من وجـود ، وفصلاً من تجـربة ، وقـد بعث من الماضى فـأصبح حاضراً ، بكل حرارة الحياة ، وماديا‌تها وإحساساتها حتى لقد نسيت تماماً ، ساعة أو ساعات من كل شهر ، أننى جاوزت الصبا والشباب والرجولة ، وأننى شيـخ من الشيوخ الأمر الذى لم أحس به قط ، ولم أجد ما يدعونى إلى التفكير فيه أو التسليم به .

يوم أن تجاوزت عتبة الشباب ، لم أحس قط أن الصبا قد انتهى ، ولكن الآن أحس بشدة وبعمق ، أن هذا الصبا ، أصبح ماضياً بحق ، وأنه أفلت من يدى ، كعصفور ، طار إلى غصن عال من أغصان حديقة فسيحة لا نهاية لها ولا حدود . وأنه ليس لى منه إلا أن أروى وقائعه للناس ، ثم أقرأ ما كتبت .

ولقد عدت إلى مجلد يحوى صور الصبا ، يسميه الغربيون « ألبوم » ورحت أتأمل فى هذا الصبى الذى أجلسه المصورون منذ طفولته على مقعد ، أو على عمود طويل ، بجانب إحدى شقيقاته أو والده ، ولم ينس هؤلاء المصورون فى جميع الأحوال أن

يضعوا تحت إبط هذا الصبى أو بين يديه ، كتاباً . فهل كان هؤلاء الأجانب يعتقدون في تلك الأيام أن الكتاب حلية للكبير والصغير معاً ، أو أنهم كانوا يقرءون الغيب فيعرفوا أن الكتاب سيصاحب هذا الصبى ، حينما يكبر ، في الليل والنهار ، وفي الحل والترحال ، وفي العمل ، وعند الراحة ، وأنه سيكون أداته ، وعمله وتسليته وسلاحه الذي يقيه الاستسلام لآلام الدنيا ، ووسيلته للهرب من حقائقها ، فهو مقو ، ومخدر وملهم ، ومانع من الحركة ، بما يبعث في النفس من رؤى وأحلام ، وأخيلة وأوهام .

ولكن أين هذا الصبى ، الذى يقف خلافاً للحقيقة ـ هادئاً وادعاً ، يطبق الشفتين يفكر فى شىء ما ؟ لقد اختفى حقاً وصدقاً ، فلم يعد له وجود . وبعبارة أخرى لقد مات ، فلا سبيل إلى بعثه ، ولا إلى التحدث إليه ، ولا إلى العثور عليه ! ومع ذلك لم يشيعه مشيع ولم يبكه باك ، ولم ينعه ناع ؛ فحياتنا التى نحسبها دقائق متصلة من الوجود ، حلقات متصلة من الموت ، فما من لحظة تمر ، حتى يختفى شخص كنا إياه ثم انقضى ! ليوجد شخص آخر ، غير الأول ، وعندما تتراكم لحظات العدم ، يحل محل الطفل صبى ، ثم يحل محل الصبى ، شاب ، وفي كل دور ينتهى كائن حى بجسمه ونفسه وملامحه وقسماته ، وأخلاقه ومزاجه ، ليأتى كائن جديد بصورة جديدة وصوت جديد ، وعقل ونفس ، لم يعرفها الكائن السابق !

فهل نحزن لأن الواحد منا هو ألوف الألوف من الأشخاص يحمل اسمنا ، ويحسبه الناس حقيقة واحدة لا تتغير ، ولا ينقطع وجودها ، وهو فى الواقع ، أموات إلى جانب أموات ، لأن تدفق الزمن لا ينقطع ، وهو مع استرساله ، واتصاله ، يخفى فى طياته حقائق صغيرة ، ولكنها هى عناصر الحقيقة الكبرى .

غير أن هذا الصبى لم يمت كما لم يمت من قبل الطفل الذى كانه ، فقد قلت من قبل ، يبقى الطفل مختفيا فى ركن من أركان نفس الصبى ، كشأن الأطفال الذين يهربون من ذوى قرابتهم حينما يريدون أن يحملوهم معهم إلى مكان لا يحبونه ، وقد تصادق الطفل والصبى ، وأنشآ معاً حلفاً ، فلما جاء الشاب تآمر عليهما واختفيا فى طيات إهابه ، وتعب حتى أخذاه معهما إلى جانب من الرجل الذى استحال إليه وهكذا .

عنه ولا يتفرع منه ، ولقد أوحيت إلى بالكثير وأنا أشرق وأغرب ثم أعود إليك وكنت فى هذا الجولان أحس أننى أمارس هواية من هوايات الصبا ، فقد كنت خلال أيامك السعيدة لا أستقر فى مكان ، ولا أستقر عند شىء ، ولا عند شخص ، وكان الطواف والتشرد والتنقل شعار حياتى ، وقانونها .

وشىء آخر أيها الصديق العزيز ؟

إذا قدر لى أن أتحدث عن دور آخر من أدوار حياتى فإنى أعدك أنى لن أنساك ، سأعود إليك ، المرة بعد المرة ، وسأذكرك ، وأذكر الناس بك ، وأقارن بين حكمة الصبا التى لا فضل لى فيها ، ولا يد ، وحكمة الشباب المستفادة من تجاربه المؤلمة والمرضية ، ومغامراته الفاشلة والناجحة ، ثم حكمة ما بعد ذلك ، ولعلى غير قادر على أن أخدعك ، فأنت تعلم أننى كلما ذكرتك ذكرت نفسى ، وكلما أرضيتك أرضيتها فالذكرى هى كل ما يبقى للإنسان ، من كل ما مر به من حلو ومر ، وعظيم وتافه وداعاً أيها الصبا ..

وداعـــا ...

فهرس

رقم الايداع بدار الكتب ١١٤٠٦/١٩٩٣

I.S.B.N 977-01-3633-6

لم يبق من ذكريات الثورة فى حى السيدة إلا رؤيتى بطريق المصادفة جنازة شهيد من شهدائها، تمر فى شارع السد البرانى ، وهو شارع تجارى لم افهم سر سير الجنازة فيه، وقد رايت فى هذه الجنازة العلم المصرى يتوسط هلاله الأبيض صليب، ويتقدم الجنازة شيوخ من الأزهر مع قسيسين، وكانت تسبق النعش فرقة موسيقية لإحدى جماعات الكشافة، توقع لحناً جنائزياً حزينا وبسيطاً، فى حين يترك أصحاب الحوانيت أعمالهم، ويقف الجميع فى وقار وصمت جديرين بالإعجاب. وهكذا توالت لى البراهين على أنه حسب الأمة أن تشملها روح عامة، حتى تبعث فيها خير فضائلها، وتخفى رذائلها .

١٢٥٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب